

﴿ التقار يظ ﴾

لما كان هذا التفسير قد قرظه كثير من علماء الشرق والغرب وأطنبوا في مدحه
رأينا أن ننشرها تباعاً تميماً للفائدة

التقريظ الأول

جاء في جريدة المقطم يوم ٢٨ ذى القعدة سنة ١٣٤٥ هجرية تحت العنوان التالى مانصه :

كتاب (الجواهر)

في تفسير القرآن الكريم

تأليف الأستاذ الفيلسوف حكيم الاسلام الشيخ طنطاوى جوهرى

المدرس سابقاً بدار العلوم والجامعة المصرية

إذا كنا بحاجة الى كتب مفيدة نافعة تناسب حالات العصر وتنسق وما نحن عليه من اختراعات واستكشافات
وظهور ما فى الطبيعة من مكنونات . فان حاجتنا أعظم الى تفسير كتب الله المنزلة على أنبيائه ورسوله عليهم
الصلاة والسلام لما فى ذلك من تثقيف العقول وتفجير بناييع الرحمة فى قلوب الخلق . ولقد طالعنا كتب التفسير
فلم نوفق الى تفسير يشفى العلة وينقع الغلة حتى صادفنا «الجواهر» وهو تفسير للقرآن الكريم وضعه الأستاذ
الجوهرى فأذابه يمتاز على غيره من التفاسير بكثير من المزايا . منها ان عبارته سهلة مشوقة لا يعاها المطالع . وأنه
جمع فأوعى فكأنه دائرة معارف جامعة . وفيه أكثر من مائة مسألة من مسائل العلم الحديث تضمنها القرآن
وسبق اليها وهى معجزة النبوة . وأنه ألم بقصص الأنبياء فأظهر أن المقصود منها تنأججها والانعاط بها . وأنه
نظر الى المسلمين نظرة حكيم وحضهم على الاكباب على العلوم العصرية والأخذ منها بقسط وفير . وأنه لم ينسج
على منوال أولئك الذين يبذلون جهدهم فى الجدل اللفظى وشرح الكلمات شرحاً عملاً . وأنه راعى تطبيق الآيات
على خلاصة الفلسفة العصرية والعلوم الحديثة وما تضمنت من الرياضيات والفلكيات والمعدنيات والنباتيات
والحيوانيات . وإنما سبيله فى التفسير أن يبدأ السورة بحصر مقاصدها ثم يبينها اجلاً ثم يأخذ فى تلخيص تلك
المقاصد اجلاً حتى ان المطلع بهذا يدرك ملخص السورة . ثم هو من بعد ذلك يشرع فى تفسير تلك المقاصد
مبتدئاً بكتابة المقصد من القرآن بخط مشكل ليقرأها المطلع قبل تفسيرها ثم يفسر ما فى المقصد من ألفاظ ثم يعقب
على ذلك بما فى الآيات من أحكام شرعية عامة وما تضمنت من العلوم جميعها فنعم العمل وجبذا الهمم

التقريظ الثانى

جاء فى مجلة (المرشد) وهى مجلة علمية أدبية دينية تصدر بمدينة بغداد بتاريخ (١) محرم سنة ١٣٤٦
هجريه تحت العنوان التالى مانصه :

تفسير الجواهر

لا ينكر ما لعلماء المسلمين اليوم من النزعة الى تفسير القرآن واظهاره بشكل يلائم روح العصر الحاضر ،

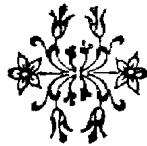
التقريظ الخامس

جاء في مجلة المجمع العلمي العربي الشهيرة التي تصدر في دمشق في الجزء الخامس والسادس من المجلد العاشر بتاريخ ١ ذي الحجة سنة ١٣٤٨ هجرية ما يأتي

الجواهر في تفسير القرآن الكريم

أهدانا السيد مصطفى الباني الحلبي صاحب المطبعة المشهورة بمصر الأجزاء التي صدرت الى اليوم من التفسير النفيس المسمى (الجواهر) وهي ستة عشر جزءا تأليف العلامة الأستاذ «طنطاوي جوهرى» وقد قضى الأستاذ سنين طويلة في تحرير هذا التفسير ولما يتم . وقد بلغ فيه سورة فاطر . ومن تصفحه أدرك سعة علم الأستاذ كما أدرك مبلغ العناية الذي كابدته في وضع هذا التفسير والعناية التي بذلها في جمع مواده ، وتنسيق مباحثه . وأول ما يحظر للناظر فيه أنه لا ينظر في تفسير قرآن وإنما هو ينظر في « دائرة معارف » على القرآن تضمنت شرحا لآياته ثم تاريخا وأدبا وأخبارا وفلسفة وسياسة واجتماعا وزجرا ووعظا وتنزيها وتحذيرا حتى انه لم يغفل من ذكر نظرية « انيشتين » والاستشهاد بها على ما هو بصده من تفسير الوحي الالهي ، وكثيرا ما يقع نظارك على بحث في ثايات الكتاب فتعجب لذكر مثله في تفسير القرآن حتى تراجع صفحات كثيرة سبقت فيتبين لك اذذاك وجه المناسبة ولو ضئيلة بين هذا البحث وبين الآية المفسرة . افتتح مثلا الجزء العاشر ص ٢٢٩ يقع نظرك على مسائل تحت أرقام متسلسلة ثم تقرأ تحت الرقم الأول مانصه (الشعوب التي هي جديرة بالاستقلال التام . ويجب أن تتمتع به في الحال . وبينها الصين ومصر وسورية والعراق) فلا تكاد تصدق أنك تقرأ تفسيراً للقرآن فترجع أدراجك الى ما سبق من المباحث مبحثا مبحثا فتجد نفسك في تفسير قوله تعالى (والتي أحصنت وجعلناها وابنها ان هذه أمكم كل اليناراجعون)

فتفسير (الجواهر) لم يؤلف للطالب العجول . ولا للضجر الملول . وإنما ألف للزميت الوقور . الجليل الصبور ورجو أن يكثر أمثال هؤلاء بين أبنائنا . وأنا لنشكر المؤلف الفاضل خدمته كما نشكر للطابع الناشر هديته جزاها الله عن أمتها خير الجزاء



١٧١

الجزء الأول

في تفسير القرآن الكريم

السيد علي عجايب بنع المكنون وغريب الألبان

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ ططاوي جوهري

المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا
متع الله المسلمين بحياته آمين

الجزء التاسع عشر

طبع بمطبعة

مُصططفى البابی الحکیمی وأولاده بمصر

وحقوق الطبع محفوظة

وباشر طبعه محمد امين عمران

جادی الثانية سنة ١٣٤٩ هـ

غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة غافر (هي مكية)

إلا آتني - إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أثاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم
ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير * لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس
ولكن أكثر الناس لا يعلمون - فدينتان
(آياتها ٨٥ - نزلت بعد الزمر)

يروى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : « إن مثل صاحب القرآن كمثل رجل انطلق يرتاد
لأهله منزلاً فمرّ بأثر غيث فبينما هو يسير فيه ويتعجب منه إذ هبط على روضات دمثات فقال عجبت من الغيث
الأول فهذا أعجب منه وأعجب ! فقيل له : إن مثل الغيث الأول مثل عظم القرآن ، وأن مثل هذه الروضات
الدمثات مثل آل حم في القرآن ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « لكل شئ لباب وللباب القرآن
الحواميم » اهـ

﴿ هذه السورة أربعة أقسام ﴾

« القسم الأول » في تفسير البسملة

« القسم الثاني » غلب فيه وصف حلة العرش واتصال عالم الملائكة بعالم الانسان إشراقاً وتعليماً وتنظيماً
لمناسبة ما في آخر ﴿ سورة الزمر ﴾ من أول السورة الى قوله - إن الله هو السميع البصير -

« القسم الثالث » الاعتبار بالأثم الماضية وتخصيص موسى بالذكر عليه السلام ونبى اسرائيل والمؤمنين
من آل فرعون من قوله - أولم يسيروا في الأرض - الى قوله - وسبح بحمد ربك بالعشي والابكار -

« القسم الرابع » غلب فيه النظر في عجائب الحكمة الإلهية من قوله - إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان - إلى آخر السورة ، فيرجع معظم أجزائها ومقصودها إلى العالم الروحي الأعلى فلا نبياء السابقين ففجائب العالم المحسوس

﴿ القسم الأول في تفسير البسملة ﴾

لك الحمد اللهم على نعمة العلم والتوفيق ومعرفة بعض العجائب القرآنية والرحات النورية والبهجات الحكمية والسعادة العقلية والجلال والهاء والسرور بالإبداع ، أرى أننا أن بين سورة الزمر والمؤمن المتعاقبتين مناسبة بديعة ، ففي آخر الزمر أن الملائكة حافون من حول العرش ، فهناك ذكر للعرش وملائكة حافون وتسبيح وتحميد ، وههنا في سورة المؤمن ذكر الملائكة والعرش والتسبيح والتحميد ، وهكذا ذكر العرش مرة أخرى فيها - رفيع الدرجات ذو العرش - وبين ما ذكر في آخر سورة الزمر وما ذكر في أوائل سورة المؤمن من العرش والملائكة والتسبيح والتحميد جاءت البسملة وفيها اسم الله واسم الرحمن الرحيم . ههنا رجة جاء ذكرها متخللاً ذكر العرش وما معه ، وكما أن الرجة العامة في البسملة في أول ﴿ سورة ص ﴾ كان اتجاهها بإقظاظ لصفة الاخلاص المذكور معناه في آخر سورة الصافات وفي أول سورة ص هكذا هنا الرجة العامة في البسملة متجهة إلى إفادة العلم والحكمة وتعميم الهداية في نوع الانسان فان أولئك الملائكة الحافين من حول العرش المسبحين بحمد ربهم يستغفرون للذين آمنوا والله الذي أبدع العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء ، من عباده ، والرسول بينه وبين الأنبياء هم الملائكة

واعلم أن عروش الملوك لا تقوم إلا على دعائتين : دعامة هي أبهة الملك وعظمته وترجع إلى القدرة والجاه ودعامة هي العلم الذي به نظم ذلك الملك ، والمملكة التي لا قوة فيها ولا نظام لها مفككة الأجزاء معطلة واهية ذاهبة ، فكل عرش إنما يقوم على القدرة وعلى العلم . والقدرة تكون بالمال وبالرجال . والعلم يقوم بنظام الحياة الطبيعية والحياة السياسية . فله إذن في أرضنا أربع دعائم . وعرش الله عز وجل مشروح في آية الكرسي ومبناه فيها العلم والقدرة . فاذا كان الله سبحانه لا تأخذه سنة ولا نوم وهو يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وهم لا يحيطون بشئ من علمه إلح فذلك كله راجع للعلم وكونه له ما في السموات وما في الأرض ولا يشفع عنده أحد إلا بأذنه فذلك راجع للقدرة . ولقد جاء ذكر العرش في آخر ﴿ سورة التوبة ﴾ في آية - فان تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم - وجاء في أول ﴿ سورة يونس ﴾ - إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر - فالاستواء على العرش بالقدرة وتدبير الأمر بالعلم . وجاء في أول ﴿ سورة هود ﴾ بعدها - وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء - والمقام هناك واضح في معنى العرش الذي سقنا له الكلام هنا إن كل عرش لا يتم إلا بعلم وقدرة . وإذا كان العرش في آخر التوبة وفي أوائل سورة يونس وهود يذكرنا بأن الأمم الإسلامية تولت عروش أمم وقامت بحفظ بلادها . وتلك الأمم هي المذكورة في سورة يونس وهود . فتكرار العرش هناك في السور الثلاث وتخلل ذكر الرجة في البسملة في أوائلها قد أعقبه أن ملك المسلمون تلك العروش التي في أرض مصر المشار إليها بقصة موسى وهرون فيها وأرض الجزيرة وما بين النهرين من بلاد الآشوريين والبابليين . فهذه كلها الآن بلاد إسلامية وهذه البلاد مشار إليها بقصة يونس إذ كان في نينوى وهي من تلك البلاد . وقد فصلت في سورة هود قصة نوح . ولقد كانت سفينه هناك عند (جبال ارارات) وهذه في تلك الناحية التي قم فيها السكرد اليوم . وهم يريدون الخروج من الدولة التركية . وهذه الجبال في بلاد العراق مما يلي بلاد الترك . ولا جرم أنها بلاد إسلامية إلى الآن . وهكذا فملت قصة عاد وثمود وقصة

ابراهيم ولوط ومدين وموسى . ولاجرم أن هذه البلاد كلها عربية . وهى اسلامية اليوم . فلو ط ببلاد الشام وهكذا ابراهيم وعاد وثمود فى بلاد حضرموت وما يليها ومدين حوالى بحر القلزم وهو البحر الأحمر من جهات الشرق . فهذه العروش كلها أصبحت عروشا اسلامية . هذا ما تقدم فى سورة التوبة ويونس وحود وهكذا هنا فان العرش الذى ذكر فى سورة الرمر وفى سورة المؤمن قد ذكرنا بالهداية العامة والملاك كما تقدم . ألا ترى الى قوله تعالى - يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض - فالملائكة الحافون من حول العرش لهم حالان : تنزيه الله عما لا يليق بحمالة واستغفار لمن فى الأرض . ومن طلب المغفرة لأحد أحب هدايته والملائكة هم الذين يلهمون الناس الخير وهم الذين يكونون سفراء بين الله وبين أنبيائه فهم ملقنون الوحي للأنبياء وهم ما هموا الخبر للمؤمنين . وتوى هذا الأمر واضحاً فى قوله تعالى - ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلمها - فذكر الرحمة وذكر العلم . ثم يقولون - فأغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم - الخ

وهذه الصفة العامة هى إحدى الدعامين اللتين تنقسمان الى قسمين آخرين كما تقدم . ونكون هذه الأربعة الدعائم للعروش والدعامة الأخرى هى القدرة . ولقد غلبت هنا فى ذكر الأمم السابقة - أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا فى الأرض - الخ . وفصل بعضهم فى خلال قصة موسى إذ قال - مثل ذاب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم - فهذه القصص مفصلة وبخلة ترجع للقصص التى فى سورة يونس وهود بعد سورة التوبة وكلها ذات عروش والعروش قد أصبحت للمسلمين . ذكر العرش فى التوبة وما بعدها وذكره فى الرمر وسورة المؤمن لإشارة الى ما وصفنا من أن هذه العروش فى تلك البلاد لا تزال الى الآن فى أيدي المسلمين

واعلم أن هذا ان لم يتبعه بنصائح للمسلمين لا يكون العلم به نافعاً ، فانه اذا كان ذكر العرش فى هاتين السورتين مشيراً الى ذلك كما أشار فى السور الثلاث السابقة وهى هود وما بعدها من غير عظة تلحقه وعمل يتبع العلم ، ببق المسلمون على ما هم عليه يفرحون بما يفتح عليهم من أسرار القرآن ولكنهم لا يحركون ساكناً ويتركون جبل الأمم على غاربها ، ونحن نقول أيها المسلمون : هذه العجائب ومعرفتها ليست تجزينا وحدها فالعلم إن لم يتبعه العمل لم يفد الناس . فذا سمعت أن الملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض فذلك تذكرينا أن نبرع فى ﴿ أمرين : الأمر الأول ﴾ المعرفة العامة بالعلوم الطبيعية والرياضية حتى ندرك جمال الله وجلاله فى السموات والأرض بدراسة علوم جميع الأمم حوانا مع اضافة مباحثا العقلية ، وبذلك وحده ندرك معنى قوله تعالى - والملائكة يسبحون بحمد ربهم - فكيف يكون التنزيه بلا علم بالآثار التى أبدعها ، وكيف يكون حمد على نعم تهل تفصيلها ، فالجد اللفظى عبادة والجد الحقيقى علم ولا علم إلا بالدراسة ومعرفة الحقائق ، والعابد الجاهل قليل المنفعة والعالم هو الذى اتبع الأنبياء وقلد الملائكة المسيحين بحمد ربهم ﴿ الأمر الثانى ﴾ أن نكون نافعين للناس فلانكون حياتنا وقفا على العلم وحده لأن ثمرة العلم إفاضة الخير على الناس والملائكة الحافون حول العرش كما أنهم يسبحون بحمد ربهم بفيضون الخير على أهل الأرض ، ولاجرم أن لنا ضماير وعقولاً هى محل إفاضة الخير من الملائكة علينا ، فلنقم بالعلم ولنقم بالعمل والعالم كله متشابه متسق ، فليكن العلماء فى الأمم الاسلامية بعدنا متحليين بجمال العلم بهذا الوجود تفصيلا على قدر امكانهم أولا وليكونوا مفيضين على الناس من علومهم ، ويجب أن تكون علومهم شاملة لخبرى الدنيا والآخرة حتى يتم حمدهم والحمد يكون على نعمة ونعمة الدنيا مشاهدة محسوسة . ومن جهل المحسوس جهل المعقول . ومن جد بلا علم فحمده رياء وقول لفظى ضليل . واذا لم يقم العلماء فى الاسلام بهذه الشرائط واستمر المسلمون على نومهم العميق وسلموا ألسنتهم وخضعوا للجهلاء ممن لا يعقلون بدائع هذه الدنيا وحكم

خالقها الحكيم فإن العروش المذكورة في ﴿سورة المؤمن﴾ المنصلة في سورة يونس وعود التي هي في أيدي المسلمين تتمد ويملكها أمم غيرنا وهذا آخر انذار في هذا التفسير للمسلمين
الملائكة يسبحون ويعلمون الناس الخير وهم حافون حول العرش هكذا العلماء حافون حول عروش الأمم الإسلامية . إذا هم لم يقوموا بحق العروش من العلم الجرم وإفاضة العلم على أمم الإسلام . وهذا العلم يليق لاقامة العروش وبقائها فان هذه العروش ساقطة في أيدي الأمم الأخرى . ولقد سقطت عروش الأندلس التي كانت مفرقة عشرين دولة ولم يكن لهم من الدين مايزعمهم والشعراء كان لهم بينهم القدر المعلى وقبل ذلك سقطت بغداد التي كان لها السلطان على هذه العروش المذكورة في يونس وما بعدها وهي سورة المؤمن وإذا كان عرش الله وهو القائم على كل نفس بما كسبت تحفه الملائكة المسبحون المستغفرون لا يفارقونه فكيف يقوم عرش الانسان الضعيف إلا بعلم وبإفاضة على الخاضعين للعرش

ومن العجب أن في ﴿سورة التوبة﴾ ذكر لما يوافق اسمها من أن الله تعالى تاب على النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار الخ وتاب على الثلاثة الذين خلفوا الخ فهناك توبة وههنا توبة وغفران للذنوب المذكورين في قوله تعالى - غفر الذنب وقابل التوب شديد العقاب - ههنا ذكر للعقاب الشديد وذكر للغفرة وما أنسب هذين بالعرش لأن المستوى على العرش يدبر الأمر ومن يدبر الأمر يعاقب تارة ويغفر أخرى ويتوب على من يشاء وهذا شديد المناسبة بالعرش ولذلك ذكر في آخر سورة التوبة . فالملك يناسبه ذلك غفران وتوبة تارة وعقوبة تارة أخرى وذلك يكون على مقتضى العلم . والعرش انما يبنى على العلم وعلى القدرة ومظاهر هذين تسبيح الملائكة وحجدهم واستغفارهم وهم حافون حوله فعلمهم وإفاضتهم الخير على الناس مظاهر وآثار لما فوق ذلك من علم الله وقدرته اللتين بآثارهما أقيم العرش . فالله قادر وعليم والملائكة استمدوا منه والمؤمنون لاسيما علماءهم يستمدون من الملائكة . وفي هذه السورة من المباحث أنواع ،

- (١) فجاء الأرض الواسعة وما فيها من حكم وعجائب في آية - أولم يسيروا في الأرض - الخ
- (٢) والسموات والأرض في آية - لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس -
- (٣) تفصيل النوع الأول في آية - الله الذي جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء - . وهنا ذكر صورنا وحسنها
- (٤) تفصيل النوع الثالث في آية - هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه - ففي هذا تبيان نمو الانسان حالا بعد حال
- (٥) بيان الأنعام التي تركبها والتي نأكلها
- (٦) وختم السورة بما يلخص السورة كلها من انه أرانا آياته كلها ومن أن سيرنا في الأرض يعرفنا عاقبة الأمم الخ

- (٧) وفي السورة الالتجاء الى الله - فادعوا الله مخلصين له الدين -
- (٨) وفيها ان الله ينصر رسله ونابيهم - إنا لننصر رسلنا - الخ وفيها - فوقاه الله سيئات ما مكروا -
- (٩) وفيها تبيان أن الضعفاء يحتاجون بأن المستكبرين أضلوهم ويجهلهم المستكبرون ويتع الجميع في العذاب

(١٠) وذلك لأن المدار على الأنواع السبعة السابقة من النظر بالعقل في السموات والأرض ، وخلق الانسان والأنعام . فاذا احتج انسان بأن غيره أضله فحجته داحضة لأنه يقال له : أين عقلك إذن ؟ فإليك أمها الضعيف عقل كالمستكبر فكيف أمته ؟ ولماذا لم تسرفي الأرض وتنظر العواقب أفليس من عجب أن يكون الله برحمته أنزل القرآن وعلم المسلمين فيه تزيينين : تربية لاذكر للأسباب

معها غالبا وهي الصلوات وأنواع العبادات وهي التربية العملية ، وتربية علمية وهي المباحث التي تكون بها الهداية ، وهذه هي النظرية كالنظر في الأنفس والآفاق الخ وهذه لا يغتفر فيها إهمال لعقل ، وبهذه يحتاج المستكبرون والضعفاء ويقع الجميع في العذاب ، ولقد علمت أيها الذكيّ فيما نقلناه عن (كانت) الألماني في كتاب التربية العملية أولا تكون بلا ذكرا للأسباب فإذا كبر الصبي علم الأسباب ، وهنا في القرآن - ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة - فهذا أمر في نفسه مذموم وهكذا في القتل جاء في سورة المائدة - من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا - الخ وجاء في سورة البقرة - ولكم في القصص حياة يا أولى الألباب -

هذه في التربية العملية فهي اشتملت على ما لم يذكر معه سبب وعلى ما ذكر معه السبب وهذا هو الذي قرره علماء التربية في عصرنا ، فأما التربية العلمية فلا تصح إلا بالنظر العقلي ولذلك لما احتاج أهل النار لم ينفع الضعفاء الاحتجاج بالذين استكبروا

أيها المسلمون : إن القرآن مملوء بحكمة وأتم التاركون لها ، وهذه الآيات فيها عجائب ولكن الله تعالى حرمها على النائمين الساهين اللاهين الذين لا يفكرون ، فكذلك ذكر الله محاجة الكفار في النار في هذه السورة وفي سورة سبأ وفي سور كثيرة ، كل ذلك ليوقظ شعور المسلمين الذين ناموا نوما عميقا ففكروا بعقولهم . إني أنذر المسلمين بهذا التفسير . أنذرهم قبل فوات الفرصة . إن هذا الكتاب قد جاء بين يديكم كبيرين : عهد النوم العميق للأهم السابقة وعهد اليقظة للأهم المستقبلية . وسيستقبل المسلمون أيام العلم والعمل بعد أن استدبروا أيام الجهل والكسل والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم . كتب صباح يوم الخميس ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٣٠ انتهى القسم الأول في تفسير البسملة والحمد لله رب العالمين

﴿ القسم الثاني من السورة ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ * مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَنْزُرُكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْبِلَادِ * كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرِسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ * وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ * الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ

إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَفِيهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ * قَالُوا رَبَّنَا أُمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ * ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ * هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ * فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ * يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ * الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطْمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمٍ وَلَا شَفِيعَ يُطَاعُ * يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ * وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ *

﴿ التفسير اللفظي ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(حم) تقدم الكلام على الحروف كلها في أول ﴿ آل عمران ﴾ وفي أوائل ﴿ العنكبوت ﴾ وما بعدها ويختص الكلام على حم هنا بأنها تشير إلى حد سبق في آخر الزمر وحد يأتي في هذه السورة ، والحدان صادران من الملائكة والمؤمنين كما رأيت في آخر الزمر وكما ستري هنا عند قوله تعالى - الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا - الخ فرجعت هذه الإشارة العجيبة إلى استكمال قوة العلم وإفاضته على المتعلمين فإن الحد وتماه ليس يكون إلا باستكمال قوة العلم ، وكيف يحمد الإنسان على نعمة يجهلها ، وكما كانت الم تشير في العنكبوت وما بعدها إلى تحقيق المباحث العنصرية والوقوف على حقائق هكذا هنا يراد بالحاء والميم استكمال قوة العلم في جميع الفروع إذ لا حد كاملاً إلا بعد علم بالحمود عليه ولا تعليم بصدق إلا لمن استكمل العلم ، وهذا هو الذي تشير له حم ولذلك أردفها بقوله (تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم) بكل المعلومات ، وحد العبد تابع لعامة بما أبدعه الله تعالى والله يحب من تخلق بأخلاقه والعلم منها (غافر الذنب) سائر (وقابل التوب) أي التوبة (شديد العقاب) فالأول لمن آمن وأطاع والثاني لمن كفر وعصى (ذو الطول) ذي السعة والغنى والفضل والنعم (لا إله إلا هو) فليقبل الإنسان بكليته عليه (إليه المصير) فيجازى كلا بما يستحق ، وهذه الصفات جعلت بين الترغيب والترهيب لئلا يئس الناس من

الرحمة ولا يأمنوا مكر الله ، فلما حقق أمر التنزيل سجل الكفر على المجادلين فيه بالباطل . فقد قيل « إن جدالا في القرآن كفر » فأما الجدال لا يضح الملتبس فهو مرغوب فيه فقل (ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغرك تقلبهم في البلاد) فلا يغرك إيهالهم وتقلبهم في بلاد الشام واليمن بالجارات المربحة فانهم سيؤخذون قريبا كما أخذ من قبلهم (كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم) والذين تحزبوا على الرسل بعد نوح كعاد وشمود (وهت كل أمة) من هذه الأمم (برسولهم ليأخذوه) ليقتلوه أوليا سروره (وجادلوا بالباطل) بما لا حقيقة له (ليدحضوا به الحق) ليزيلوه به (فأخذتهم) بالهلاك جزاء لهم (فكيف كان عقاب) أى فكيف كان عقابي إياهم ، ألم يكن مستأصلا مهلكا وأنتم تمرّون على ديارهم وترون آثارهم وفيه معنى التعجب (وكذلك حقّت كلمة ربك) وعيده وقضاؤه بالعذاب (على الذين كفروا) لكفرهم (أنهم أصحاب النار) بدل من كلمة ربك ، ابتدأ الله السورة بصفات العزّة والعلم والقدرة الواسعة ، وبذكر الرحمة والعقاب ، ثم أتبع ذلك بمن استوجبوا العقاب وأعقبهم بذكر من هم على النقيض من حالهم فهم على طرفي نقيض ، كفار في أسفل دركات الشقاء وحلة العرش في أعلى دركات العزّ والهاء فقال (الذين يحملون العرش ومن حوله) أى حاملو العرش والحافون حوله وهم الكروبيون أعلى طبقات الملائكة وأولهم وجودا ولا معنى للحمل إلا الحفظ والتدبير وذلك يستلزم قربهم من ربهم ومكانتهم عنده وعلوهم على العالمين . ألا ترى أن كل من كان في الناس أغزر علما وأحسن تدبيرا يكون أرقى منزلة ، فهؤلاء (يسبحون بحمد ربهم) أى يذكرونه بمجامع الثناء :

(١) من صفات الجلال التي هي عبارة عن التسبيح أى التنزيه عن مقام المحدثين ككونه لأوّل له ولا آخر لبقائه وأنه مخالف للحوادث في ذاته وصفاته وأفعاله

(٢) ومن صفات الاكرام كعلمه وقدرته وإرادته وكلامه ، فالإشارة للأوّل بالتسبيح وللثاني بالتحميد فالصفات الأولى كمال والثانية مشتملة على التكميل كالخلق والرزق والهبّة والهداية وما أشبه ذلك وقوله (و يؤمنون به) إنما ذكر للدلالة على اظهار فضيلة الايمان والاخمل العرش لا يكون إلا بكمال العلم ، ولا كمال للعلم إلا بعد مبدأ الايمان ، وذلك لأن المقام مقام إبراز أمة وإبرازها إنما يكون أوّلا بالايمان ثم يتبعه العلم ، فلذلك قصر الكلام على ذلك فقال (ويستغفرون للذين آمنوا) أى يسألون الله المغفرة لهم ومعنى ذلك أنهم يحملونهم على التوبة ويلهمونهم ما يوجب المغفرة ، إن هؤلاء الملائكة تمتعون بالقرب من ربهم فهم مدبرون للعالم نظاما جسيما وإرشادا عاميا ، فالوحي منهم للأنبياء بأمر ربهم ، والالهام منهم لذوى القدر القابلة للخير ، ولا يصدهم صادّ عن إلهام الخير لا مرئى من الناس إلا اذا كانت فطرته تصدّه عن القبول منهم فيتولى الشياطين هدايته الى طريقهم المؤدّي الى الفساد ثم بين الاستغفار المذكور المعبر به عن إلهامهم بما يكون نتيجة له من حيث شمول الرحمة الإلهية العامة لهم والمغفرة وادخالهم الجنة مع آبائهم وأزواجهم وذريّاتهم اذا صلحوا كصلاحهم ، وهذا البيان هو قوله يقولون (ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلمها) فان كل حيوان مثلا قد ألهم مابه صلاحه الموافق له وفطر عليه والانسان بعدت طريقه ونحن نجد في هدايته الى الصراط المستقيم بالالهام والإرشاد (فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك) لاستعداد فطرهم لقبول الهداية من الرسول وخلفائه ومن الالهامات التي توجهها اليهم (وقهم عذاب الجحيم) واحفظهم عنه (ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم) إياها (ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذريّاتهم) عطف على هم من أدخلهم (إنك أنت العزيز الحكيم) الملك الذي لا يقلب وأنت مع ملكك وعزّتك لا تفعل شيئا خاليا عن الحكمة ومن موجب حكمتك أن تدخل معهم من صلح من آلهم ليتّم سرورهم وأن تتمّ وعدك الذي وعدت (وقهم السيئات) أى المعاصي في الدنيا (ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته) ومن تقها في الدنيا فقد رحمته في الآخرة (وذلك

هو الفوز العظيم) أى النعيم الذى لا ينقطع فى جوارملك لا تصل العقول الى كنهه عظمته

﴿ فصل فى ذكر نتائج الكفر ﴾

لما ذكر الله سبحانه وتعالى أحوال الكافرين فى الدنيا ، وبين موجبات الهداية والعناية المبذولة من حلة العرش وصفوف الملائكة بالالهام مع تدبير الملك واهتمامهم بهداية الناس أتبعه بما هو النتيجة اللازمة لذلك وهى ان هؤلاء يندمون حين يوضعون فى الدركات التى هم أولى بها فى جهنم فقال (إن الذين كفروا ينادون) يوم القيامة وهم فى النار وقد مقتوا أنفسهم حين عرضت عليهم سيئاتهم وعانوا العذاب فيقال لهم (لما كنتم فى الدنيا والآخرة) (أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون الى الإيمان فتكفرون) قالوا ربنا أمتنا إيمانين (إثنين وأحييتنا إثنين) أى أمتنا فى الدنيا ثم أحييتنا فى القبر للسؤال ثم أمتنا فى البرزخ وأحييتنا للبعث لأن الانسان عند الموت يخلف هذا الهيكل الجسمى وتبقى الروح بالجسم الأثيرى اللطيف المماثل لأجسامنا الأرضية ، فهذا موت وانتقال من حال الى حال مغاير كل المغايرة ، وهناك يرى الانسان العجائب الكامنة فى جسده الروحى ، ويرى صور أعماله السابقة من سيئة بادية العار والشار ظاهرة القدرة والحقارة فيلحقه منها خزي لا يطيق وعذاب روحى ونار جسمية ملازمة له ملازمة الظل للشيخ والظواء للأجسام الأرضية ، ومن حسنة تظهر موقفة بهجة متألثة بهية تبهج من رآها كالسكواكب الدرية تسر الناظرين ، ثم إن هذه الحال البرزخية يحصل فيها انتقال وتغير ، وربما ظهرت حال جديدة للأرواح تبدل فيها تبدلا عظيما كالتبدل الذى حصل بموت الأجسام فيعتبر موتا ثانيا ثم يبعث الناس فتكون حياة ثانية ، فاذن يكون هناك موتان بين الأول والثانى حياة برزخية وبعد الثانى حياة يوم القيامة ، وعلى ذلك تكون لنا أنواع ثلاثة من الحياة لأن الحياة الدنيا لم تذكر فى هذا المقام وربما كانت تبدلات الانسان فى الحال البرزخية كثيرة جدا لمرعة أحوال الأرواح فنبه على ذلك بذكر أعظم تبدل فيها فسماء موتا والا فالأنفس حية فى الحياة الدنيا وبعد مفارقة الأجساد ويوم القيامة ، وهذه الآية فيها رموز عجيبة سيظهرها المسلمون بقراءة علم الأرواح واستحضارها بعد مفارقتنا هذه الدنيا ورجوعنا الى الحال البرزخية لأنهم اليوم ونحن أحياء ليس عندهم من الوقت ما يتفرغون به لمثل هذه العلوم ، وأتم الغرب اليوم تطاردهم وسيخلصون منها إن شاء الله قريبا وبعد ذلك يقرؤن هذا التفسير وأمثاله قراءة أتم ويشرعون فى المباحث العلمية ويدخلون جنة علمية عالية فى الدنيا ثم يتمتعون بروضات الجنات البرزخية ويلحقوننا إن شاء الله تعالى هناك جيلا بعد جيل

ولما كانت أحوال الأنفس البشرية وتقلباتها فى البرزخ ويوم القيامة تكون قدأملت عليها دروسا عالية قاسية لظهور الحقائق لها تحملهم على الاعتراف وطلب الخروج من النار أعقبه بقولهم (فاعترفوا بذنوبنا قبلا الى خروج) من النار (من سبيل) طريق نسله فيجانون بأنه لاسبيل الى الخروج (ذلكم) العذاب (بأنه اذا دعى الله وحده كفرتم وان يشرك به) غيره (تؤمنوا) أى تصدقوا ذلك الشرك (فالحكم لله العلى) الذى لا أعلى منه (الكبير) الذى لا أكبر منه (هو الذى يريك آياته) عجائب مصنوعاته لتكملوا أنفسكم بمعرفتها (وينزل لكم من السماء رزقا) أى المطر لأنه سببه ، فعجائب المصنوعات لأمرين : ترقية العقول ، وتربية الأجسام ، والثانى عام ، والأول خاص وهذا قوله (وما يتذكر) يتفكر فيرقى نفسه بهذه العجائب (إلا من يذنب) يرجع عن الانكار بالاقبال عليها والتفكير فيها ، ولما كان فريق المنيين هو الذى تتجه العناية لارتقائه فى القرآن والحكمة أردفه بما يناسبه فقال (فادعوا الله مخلصين له الدين) من الشرك الخفى والجلي (ولو كره الكافرون) اخلاصكم وشق عليهم هو (رفيع الدرجات) أى هو مرتفعة درجات كماله فوق المحسوس والمعقول ، وهكذا مراتب مخلوقاته الجسمية رفيعات درجاتها طبقا عن طبق وكذلك الروحانية من صفوف النفوس الانسانية والملائكة فهؤلاء جميعا درجات بعضها فوق بعض ارتقاها الى أن تقف دونه العقول (ذوالعرش)

الذي هو أصل العالم فهو في قبضة قدرته ، وقوله (بإقار الروح من أمره) خبر رابع لقوله - هو الذي يريكم -
يقول الله انه يرينا المجائب وهو مفتح الدرجات ورائع درجات الخلق والعرش في قبضته وإبلى الوحي بأمره
(على من يشاء من عبادته) أي من يختاره للنبوّة (لينذر يوم التلاق) إذ تتلاقى فيه أهل السماء وأهل الأرض
والعمال والأعمال (يوم هم بارزون) خارجون من قبورهم وظاهرون لا يستترهم شيء وأعمالهم وسرائرهم
مكشوفة لا يتجيبها نقاق ولا رياء (لا يخفى على الله منهم شيء) من أعمالهم وأحوالهم ، وحينئذ تنطق الحال
بهذا السؤال (لمن الملك اليوم) وأذن تجيب هي (لله الواحد القهار) فهو وحده قهر الخلق بالموت وبالبعث
وبالحشر ، ولا جرم أن إلقاء الوحي بهذه المعاني على الأنبياء إنما يكون لرفع درجات النفوس الأرضية ولحوقها
بما هو أعلى منها ، فإذا كان الله رفيعا درجات كماله رافعا عالم الكواكب طبقات بعضها فوق بعض كما رأيت
فيها مضى في هذا التفسير ورائع درجات الأرواح والملائكة فانه بهذه النفوس الرفيعة والأرواح الشريفة يهبط
نفوسا أخرى لتلحق بها فيوحى بواسطة الملائكة إلى الأنبياء والناس يستمعون الوحي فيرتفعون إلى درجات
أرقى مما هم عليه ، وهذا هو الذي يقتضيه نظم الآية منسجما عجيبا ، ثم ذكر نتيجه فقال (اليوم تجزى كل
نفس بما كسبت) فلا يرى المرء إلا ما كوّنه في نفسه من عقيدة أو علم أو حال فيرى كل ذلك منتوشا مصورا
في جسمه كما يحسّ الآن في هذه الحياة بذلك من حسد وعداوة وطمع وشره وكبرياء ، فكل ذلك متغص
للإنسان في حياته لاحق به بعد موته بحيث يحسّ الإنسان به ويشعر ويكون سوانل معنوية في عالم الأثير
مختلفة باختلاف ألوان النبات وروائحهم وهكذا أنواع العلم والحكمة والفضائل الخلقية من الكرم والصفح
والآداب جميعها ترى لها سوانل أثيرية معنوية أشبه بالسوانل المغناطيسية ترتشح من النفس ولا تفارقها كما
لا يفارقها في هذه الدنيا من هذه الصورة الجسمية أشكالها وألوانها وأطوارها ونسبها وقيمتها ، وذلك كله
جاء في علم الأرواح في العصر الحاضر ، وهذا معنى قوله (لا ظلم اليوم) وذلك لأن الله لما كان رفيع الدرجات
وقد رفع درجات العوالم الروحية فيها هوذا سخرها لرفع الأرواح التي هي ضعيفة في الأرض تدبش مع الحيوان
وهي في نظام كاه هرج ومرج إلى عالم أرقى من عالم الأجسام ، فإذا ماتت ظهرت بمظهرها الذي وصلت إليه
على مقدار طاقتها كما يظهر الطفل بمظهره عند أبويه من النقص والضعف ، فانسذاب الذي يعترى النفوس
الإنسانية بعد الموت هو من لوازمها وهكذا النعيم ، إن الله تعالى مربى العالمين ورافعهم من أدنى إلى أعلى ،
وفي أثناء رفعهم يربس بعضهم وتظهر فضائحه وقبائحهم أثناء سفره ويحصل للمجرمين عذاب لا يطاق فإن الإنسان
إذا ظهر بعد الموت بمظاهر قبيحة اشمازت منه نفوس أصحابه ورأوه بغير العين التي كانوا يرونه بها وأصبح في
ذل لا يحتمل واشتعلت النار الجسمية والمعنوية معا ، وقد يرى الأمير أن عبدا من عبيده فضل عليه بأخلاقه
التي اكتسبها وطار إلى العلا وخلفه مع الجماعات ، فأى ذل وأى عار وأى مهانة بعد هذا كله ؟ فلا ظلم إذن
فكما أننا لما خلقنا في الأرض وكان منا نساء ورجال ، وكان فينا الجليل والقيح والتصير والطويل والمرضى
والصحيح وما لا يتناهى من الأوصاف والأحوال ، لم نقل إن هذا الاختلاف ظلم ولا لكان معنى ذلك أن
الوجود كله خطأ ، هكذا نقول في أحوال الأرواح بعد الموت فكلّ يكون على شاكلته الروحية الحقيقية ،
فكما لا اعتراض في الاختلاف الجسمي هكذا لا اعتراض في الاختلاف الروحي فيكون قوم في نعيم وقوم في
جحيم ولا اعتراض كما لا اعتراض إذا قلنا في الأرض فراش وابل وحيوانات برّية وأخرى بحرية وآساد فأنسكة
وغزلان مأكولة مع أن الإنسان لوقيل له : أموت أم تسكون ناموسة أو جرادة ؟ لا يرضى إلا بالموت وكذلك
الجرادة لا تطلب أن تكون إنسانا لأنها تجرّده ، فإذا عرفت الجرادة والمثله والحمامة مرتبة الإنسان وحرمت منها
فهناك الطامة الكبرى والعذاب والذلة والمهانة وهناك تسكون نار الخزي ونار العذاب ، فالأرواح الأرضية بعد
الموت التي هي ضعيفة ليست كالجراد في الحياة الدنيا بل هي تحسّ ونعرف المراتب ، وهنا تتجلى نار الخزي

ونارجهنم ، ولكن نار الخرى أشد كما يحس الانسان في الدنيا بالعار اذا ثوبت سمعته وضاع صيته ومجده وشرفه ولكن في الدنيا يتخلص بالموت وتكن في عالم الأرواح لا يتدر على التخلص من الحياة فيه . وهذا يفهمنا قوله (إن الله سرمد الحساب) فيصل كل الى ما يستحقه سرمدنا . ولهذا المعنى الذى قررتك لك تفهم قول سيدنا على كرم الله وجهه لما سأله سائل : « كيف يحاسب الله الناس كهم ؟ قل كما يرزقهم كهم » وقوله (وأندهم يوم الآزفة) القيامة سميت بذلك لازوفها أى قربها (إذ القلوب لدى الحناجر) إذ ترتفع عن عماكنها فالتصق بمخلوقهم من الخوف فلاحى تخرج فيموتوا ولا ترجع الى مواضعها فيتنفسوا ويتروحووا حال كون أصحاب القلوب (كأظمين) على الغم أو ما يكن بحناجرهم (ما للظالمين من حيم) قريب مشفق (ولاشفيع يطاع) ولا شفيع مشفع (يعلم خاتمة الآعين) النظرة الخاتمة كالنظرة الثانية الى غير المحرم واستراق النظر اليه (وما تخفى الصدور) من الضمائر (والله يقضى بالحق) وقد عرفته فيما مضى فى هذا المقام (والذين يدعون من دونه لا يقضون بشئ) نهكم بالأصنام لأنها جاد (إن الله هو السميع البصير) فيعلم خاتمة الآعين وما تخفى الصدور وأما الأصنام فلا سمع لها ولا بصر فكيف تقضى بحق أو باطل ! انتهى التفسير اللفظى للقسم الثانى من السورة والحمد لله رب العالمين

﴿ اطائف : فى قوله تعالى حم وفى قوله - الذين يحملون العرش ومن حوله - الخ وقوله تعالى

- رفيع الدرجات ذو العرش بلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده - ﴾

تبين لك فيما تقدم فى هذا التفسير أن الحروف فى أوائل السور قد جعلت رموزا وعرفت فى كثير من السور كيف كانت تشير الى مقاصد لرقى المسلمين كما ترى فى ﴿سورة البقرة﴾ - الم - للتنبيه على جهاد بنى اسرائيل فى قوله - ألم تر الى الملائ - الخ والتوجيه الهمم الى بحث حقائق الجانب الكونية فى قصة الخليل والعزير كما سبق شرحه مرارا وهكذا فى ﴿سورة العنكبوت﴾ قد رجع رمزها الى البحث فى عجائب العناصر وكيف كان لها نظام كشفه العلامة (مبدى الروسى) وتبعه العلماء وهكذا فى يس وص . فأما هنا فإن الأمر أعجب . وكيف لا يكون أعجب ونحن نرى فى آخر ﴿سورة الزمر﴾ قول الله تعالى - وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم - وقد وضعوا مراتب كما جعلت أرواح الناس مراتب فى الدنيا وهم يسبحون ويحمدون ، وقد عرفت أن ذلك كله عبارة عن العبد بالجلال والاكرام ، ولا معنى لمعرفة صفات الاكرام إلا بدراسة العجائب الالهية ﴿وبعبارة أخرى﴾ دراسة العلوم التى امتازت بها أوروبا علينا . هذا هو الذى يفهم من النسيح والحمد ، فأما الملائكة فعلاهم طبعاً فوق طاقتنا ، وترى السورة ختمت بقول الملائكة والمؤمنين « الحمد لله رب العالمين » وكيف يحمد المؤمنون ربهم حمداً حقيقياً إلا اذا عرفوا نظام المخلوقات إذ لا يحمد المحسن إلا على مقدار ما عرف الحامد من آثاره الواصلة اليه والى غيره . هذا هو الذى جاء فى آخر ﴿سورة الزمر﴾ ثم قال فى أول ﴿سورة غافر﴾ - حم - حرفان من الحروف الأربعة عشر مشيراً الى الحمد أى حمد المؤمنين وحمد جملة العرش ﴿وبعبارة أخرى﴾ مشيراً الى العلوم الطبيعية والنفسية التى هى أقرب اليها نحن فى الأرض . فانظر ماذا تتم بعد ذلك ؟ أعاد الكرة فى أوائل السورة فذكر جملة العرش وتسبيحهم بحمد ربهم واجتهادهم فى ارتقاء أهل الأرض وحبهم لاسعادهم

انظروا تعجب ، فاني سأريك الساعة عجبا عجبا ، بل أريك معجزة القرآن الحقة . وكيف نطق من ألف وثلاثمائة سنة بما نقرؤه اليوم فى كتب الفرنجة . أنت اذا كنت من الذين يتبعوا هذا التفسير لاتنكر ما سأقوله الآن ، ولكن اذا كان هذا أول نظرك له فانك تقول : إن العلم اليوم أصبح كله راقيا وأنتم أيها المسلمون مخترقون : إن العالم كله مآدى أوله وآخره ، وأنا لم أر ملكا ولا روحا يرقينى . فما هذا القول ؟ ومن هم جملة العرش ؟ وأى رموز تقولونها ؟ دعونا دعونا ، وانى أجيبك ناقلا لك عن علماء الشرق وعلماء الغرب فأقول

جاء في « اخوان الصفاء » أن الأساتذة والآباء والمعلمين اذا ماتوا كان كل عملهم انما هو الارشاد والتعليم لتلاميذهم وأولادهم . وهذا التعليم الالهامي يرقى الروح لعملها والحي المتعلم فهو نافع للحي والميت وقال الفخر الرازي في سورة النزعات (وسأذكره هناك إن شاء الله) « أليس الابن قد يرى أباه في المنام فيهديه الى كنز مدفون »

أليس ان جالينوس قال : « كنت مريضا فنجت عن علاج نفسي فرأيت واحدا في المنام أرشدني الى كيفية العلاج »

وقال أيضا : « أليس ان الغزالي قال ان الأرواح الشريفة اذا فارقت أبدانها ثم اتفق أن انسانا شابه الانسان الأول في الروح والبدن فانه لا يبعد أن يصل للنفس المفارقة تعلق بهذا البدن حتى تصير كالمعاونة للنفس المتعلقة بذلك البدن على أعمال الخير فسمى تلك المعاونة إلهاما ونظيره في جانب الذنوس الشريرة وسوسة » اهـ

هذا ما قاله علماءنا . فاذا أثبت إلا علماء أوروبا فاني أقول لك انهم أغرقوا في هذا العلم اغراقا ونسوا فيه وفاقوا الشرقيين لأن الشرق اليوم يظن انه بانسكاره هذه العلوم يعد فيلسوفا . أما الاوروبي فهو حر والآراء تقال بلا تكير . فلا سمعك ما قاله أكبر علماء الطبيعة في بلاد الانجليز في خطبة خطبها في مجمع العلماء فما قاله : « وليس من العقل أن يقال ان النفس تضمحل اذا تلف الجسد بل سنظل موجودين بعد موتنا وانهاء أعمالنا القصيرة على هذه الأرض . أقول لك ذلك مستندا الى أدلة علمية . أقول لأنني تحققت أن بعض أصدقائي الذين ماتوا لا يزالون موجودين إذ اني قد ناجيتهم . ثم قال : إني مقتنع بأننا لانضمحل عند الموت وأن الموتى يهتمون بأمر هذا العالم ويساعدوننا ويعرفون أكثر مما نعرف بكثير »

ومن قوله في نفس الخطبة : « وعندي أن في الوجود كائنات نسبتنا اليها كنسبة النمل اليها ونحن نتسكع بين أرجائها غير عارفين عنها شيئا » انتهى ما أردته منه . وقد تقدم هذا القول مطولا تارة ومختصرا أخرى لمقاصد مختلفات في هذا التفسير . وسيأتي نفس هذا القول في (سورة النزعات) عند ذكر قول الامام الرازي أن أرواح الناس تصبح من المدبرات أمرا

أفلمت ترى أن ما يقوله علماءنا وما تموج به الجمعيات النفسية في أوروبا قد أصبح تفسيرها لهذه الآية . انظر كيف يقول العالم الانجليزى : « ان هناك عوالم نسبتها اليها كنسبة النمل اليها » وقوله « إن الأموات يهتمون بأمر هذا العالم » . يا عجبا : أليس هذا هو عين ما قاله الامام الرازي واخوان الصفاء . أليس هذا عينه هو نفس هذه الآية . بل أليس هذا معجزة . وأي معجزة أكبر من هذه اتموج الجامع النفسية بهذه الفكرة فيقول الناس في مجالسهم : « ان فوقنا أرواحا تلهمنا وتعلمنا وتهتم بنا ونحن نمل بالنسبة لها »

أليس هذا عينه هو قوله تعالى - الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم - ولقد عرفت أن الأمر راجع للعلم . وقوله - ويستغفرون لمن في الأرض - فهل لهذا معنى إلا الالهام والتعليم فيعلمون الأنبياء ويعلمون كل واحد منا الآن بالالهام ، واذا كنا أصبحنا جميعا من جهلاء وعلماء مؤمنين بعالم الحيوان الذي المسمى بالمكروب وانه هو الذي يأتي لنا بالطاعون والجدري والحكومات في الأرض كلها تؤمن وتمثل لقول الأطباء في ذلك مع ان تلك الحيوانات لم نرها قط ولكننا آمننا بها مع ان الموت والمرض لا يحتاجان الى فاعل يفعلهما ، فان المرض نقص والمادة في تحوّل دائم والموت خراب الجسم وخراب الجسم لا يحتاج الى فاعل يفعلها بحسب النظر الظاهري ، ولكن العلم اليوم أثبت ذلك . وأن الموت أيام الوباء والأمراض الكثيرة كالجدري والحصباء انما يكون بأحياء لانراها تحدث تلك الأمراض الكثيرة المنتشرة . فما أسهل أن نعرف أن الحبر والشمر تأتي بها عوالم تسمى ملائكة أو أرواحا . فالأرواح العالية لالهام الخير

والأرواح السافلة للوسوسة . ههنا تجلى الأمر وظير وعرفنا سر الحاء والميم اللذين جىء بهما بين حدين : جحد في آخر ﴿ سورة الزمر ﴾ صادر من الملائكة وأرواح المؤمنين . وحج صادر من الملائكة في ﴿ سورة غافر ﴾ مصحوب بالتسبيح والملائكة يفيضون الخبر على المؤمنين . وهذا كما ستره في ﴿ سورة النبأ ﴾ إذ جاء في آخرها - يوم يقوم الروح والملائكة صفا - وفسر ابن عباس الروح بأرواح العباد يصطفون كما تصطف الملائكة وههنا ظهر معنى الاصطفاف إذ الأرواح تلاميذ الملائكة فأصبح الأمر كله راجعا للعلم والدراسة . فإذا تعلمنا اليوم فهو مقصود الحمد المذكور في السورتين وأصبح التسبيح والتحميد معناهما الارتقاء العلمى والارتقاء العلمى للملائكة وهم يرقون أرواحنا في الدنيا كما نرى الأساندة يعلمون تلاميذهم والآباء أبناءهم فاذن ارتقاؤنا في الدنيا بالعلوم والملائكة ملهمون . ونحن اذا متنا نكون في تلك العوالم المدبرات أمرا كما فسرہ الامام الرازى في ﴿ سورة الصافات ﴾ وكما رأيتہ في كلام فلاسفة الشرق والغرب . هنا يظهر لك مقصود الحاء والميم في هذه السورة . فهما من الحمد والحمد راجع للعلم الذى يلقيه الأعلى الى الأدنى ومبدؤه من الله رفيع الدرجات ذى العرش وهو الذى يرقى الأرواح والأجسام . فترى صفوف الكواكب طبقة بعد طبقة كما ترى صفوف الأرواح صفا بعد صف

(ذكر الأحاديث والآثار الواردة في هذا المقام)

فاذا سمعت ما ورد أن حملة العرش اليوم أربعة فاذا كان يوم القيامة أودعهم الله بأربعة أحر كما قال - ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية - فلتعلم أن ذلك إشارة الى ازدياد عدد الأرواح المرتقية . وإذا سمعت قول ابن عباس : « حملة العرش ما بين كعب أحدهم الى أسفل قدميه مسيرة خمسمائة عام » وما يروى أن أقدامهم في تخوم الأرضين والأرضون والسموات الى عجزهم فلتعلم أن معناه إحاطتهم علما وتديرا بهذه العوالم باذن ربهم . واذا سمعت انهم يقولون : « سبحان ذى العزة والجبروت . سبحان ذى الملك والملكوت سبحان الحى الذى لا يموت . سبحان قدوس رب الملائكة والروح » فاعلم أن هذا إشارة الى علمهم بصفات الجلال وصفات الاكرام التى هى تشمل سائر العلوم والى أنهم مقررون بأن الله رباهم بقولهم « رب الملائكة » وانهم هم مربوبون الأرواح التى هى أقل منهم بأمر ربهم . واذا سمعت انهم خشوع لا يرفعون طرفهم وهم أشد خوفا من أهل السماء السابعة وهؤلاء أشد خوفا من التى تليها وهكذا فن ذلك على مقدار العلم فان الخشية تنبع العلم ، ومن عرف جيلا وملا عينه حسنا وجمالا وبهجة وحكمة فانه يدهش منه ويخشاها ، ولا يثنى ذلك لمن يجهل أمره . واذا سمعت انه ﷺ حدث عن ملك أن ما بين شحمة أذنه الى عاتقه مسيرة سبعمائة عام فذلك ان صح لانساع دائرة علمه وتديره للعوالم التى تؤهل أنت اليوم للقيام ببعضها على ما عرفت . واذا سمعت عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده انه قال : « ان ما بين القائمة من قوائم العرش والقائمة الثانية كحفقان الطير المسرع ثلاثين ألف عام فذلك إشارة الى عظمة ملك الله . وهذا أصبح اليوم معروفا في علم الفلك الحديث كما تراه في ﴿ سورة البقرة ﴾ وغيرها . واذا سمعت أن العرش يكسى كل يوم ألف لون من النور لا يستطيع أن ينظر اليه خلق من خلق الله تعالى فهذا ظاهر اليوم لأن ملك الله تجلى اليوم كما في هذا الخبر وظهر على هذا النحو ، وأما ألوان النور فانك لو بحثت لوجدت أن الأنوار لا يحصى عددها بألف ولا بألاف كل يوم ، ولوانك فسكت في عدد الأنوار التى تسطع على أرضنا من النجوم وان لم نرها لدقة نورها واحتجابها عنا بالشمس نهارا لرأيتها تعد بمئات الملايين وهى تسطع على الأرض وأصحاب الأرصاد يميزونها تمييزا حقيقيا ، وان أردت بالأنوار العلوم فهى أوسع مدى فان تغير العوالم لا يكون إلا بعلوم قمت بنفوس الملائكة والأرواح المدبرات . وقوله لا يستطيع أن ينظر اليه خلق من خلق الله تعالى فهو ظاهر . ان

الشمس التي لا نهاية لعدد ما ظهر اليوم أن أنوار كثير منها من أضواء الشمس بمراتب كثيرة فلا يستطيع الناس أن ينظروا إليها لو كانوا هناك ، ولكن الأقرب للحديث أن تلك الأنوار هي العلوم التي في نفوس الملائكة وهي محجوبة عن عبادهم ولا يعرفها غيرهم إلا إذا ارتقى إلى مراتبهم

واست أقول لك ان هذه الأحاديث أو الآثار ذكرتها لك على أنها صحيحة أو حسنة أو ضعيفة إنما المقام مقام ذكر ما قيل بدون نظر إلى مقدار صحته لتعلم كيف كان التعبير الذي يبره عن عظمة ملك الله ، ومادام المقام مقام مجاز فلا بأس بذكر ذلك كله . وإذا سمعت قول وهب بن منبه أن حول العرش سبعين ألف صف من الملائكة صف خلف صف يطوفون بالعرش ، يقبل هؤلاء ويدبر هؤلاء ، ويدبر هؤلاء ومن وراءهم سبعون ألف صف قيام ، ومن وراء هؤلاء وخمسة آلاف صف من الملائكة وذكر أنهم يقولون : « سبحانك وبحمدك ما أعظمك وأجلك الخ » وأن كلامهم يسبح بتسبيح لا يسبحه الآخر فإن ذلك أصبح معلوما لك لأنهم مراتب وصفوف ودرجات لا يعرف متباها عبر عنها بذلك العدد . وإذا كانت السكواكب بلغت ما لا يعرف له عدد فكيف يكون عالم الأرواح ؟ فإما التسبيح والتهليل فهو العلم الذي أمرت بدراسة مقدماته في الدنيا وأشير لذلك بالحاء والميم والحد في السورتين وفي سورة فاتحة الكتاب . وإذا سمعت قول وهب بن منبه : « إن الله احتجب عن الملائكة الذين حول العرش بسبعين حجابا من نار وسبعين حجابا من ظلمة وسبعين حجابا من نور وسبعين حجابا من در آيض ومثلها من ياقوت أحمر ومثلها من زبرجد أخضر ومثلها من نلج ومثلها من ماء ومثلها من برد وما لا يعلمه إلا الله عز وجل » فذلك معناه على سبيل المجاز نقص مراتبهم عن مرتبة ربهم لأنه هو العلي الكبير

فانظر كيف كان الأولون يضربون للناس الأمثال بعظمة ملك الله تعالى ليوسعوا خيالهم حتى إذا جاءت الحقائق وكشف القناع اتسعت له العقول وأقبلت عليه وقال السامع نعم قد تخيلنا هذا من قبل في الآثار الواردة عن آبائنا الأولين . فالتعبير بأن العرش جوهره خضراء وأن الأنوار تسكوه ونحو ذلك كله للدلالة على الجلال والبهاء والاشراق والعظمة والعلم والحكمة . وإليك الآن فهمت قول ابن مسعود : « إذا وقعت في آل حم وقعت في روضات الجنة أتأقن فيهن »

أقول : وهل روضات الجنات إلا العلوم ؟ أوليس نفس الحاء والميم هذان الحرفان هما اللذان فتحا هذا الباب كله ، إن حم إشارة إلى المحامد والحمد بالعلوم ، فالأمة الإسلامية اليوم عليها أن تقوم بدورها في الحكمة والعلم فقد خبا الله لها كنوزا في الأرض ستظهر بأعمال المسلمين ، فليقوموا بدورهم . هذا كله معنى - حم -

﴿ صلاتنا معاشر المسلمين ﴾

لقد علمت أن الملائكة يسبحون ويحمدون وأن معنى ذلك انما هو العلم بالعالم العلوي والسفلي الذي هو داخل في صفات الاكرام الذي اتصف به الله تعالى . والمسلم في صلاته عند الركوع يقول « سبحان ربّي العظيم » ثم يقول « خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي وما استقلت به قدمي لله رب العالمين » ومعنى ذلك أن يدرسه ويفقه سرّه . وكذلك في السجود يقول المسلم « سبحان ربّي الأعلى » ثم يقول « سجد وجهي للذي خلقه وصوّره وشقّ سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين »

فإذا ظنّ الناس أن تسبيح الملائكة وتحميدهم عبارة عن ألفاظ فليفهموا أن تسبيحنا وتحميدنا ألفاظ لا غير . فإذا أرادوا الجّد فليعلموا انه جاء في هذه السورة قول الله تعالى بسد ذكر جملة العرش وتسبيحهم وإلهامهم للذين آمنوا ودعائهم لهم فالجهد العلي الكبير . وبين منار الجهد فقال - هو الذي يريكم آياته وينزل

لكم من السماء رزقاً - فجعل مدار الجذ ترقيّة العقول بالعلوم وتدير الأجسام بالرزق . هذا هو مقصود الجذ ومقصود (حم) ومقصود القرآن

ليعلم المسلمون بعد اليوم أن المسألة جدّ لاهزل فيها . وأن الملائكة تأهلوا لمرتبتهم بالعلم . وأن الناس لا يسعدون في دين ولا دنيا إلا بالعلم واننا نسيّج بحمد الله كما ان الملائكة يسيّجون بحمده . ذلك ظاهر في صلاتنا إذ نبدأ بالتسبيح ونقبّعه بذكر النعم التي أنعم بها علينا في سمعنا وبصرنا الخ . كل ذلك ليعلم المسلم انه ملزم بالعلم والحكمة اللذين يرجعان الى معنى التسبيح والتحميد . هذا هو سرّ الفاتحة التي يتلوها المسلم صباحاً ومساءً . يقول الحمد لله رب العالمين ويفصل بعض النعم في الركوع والسجود ويقسمها في الرفع والاعتدال فيقول « ربنا لك الحمد ملاء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد » ومعلوم أن العوالم لا تخرج عن هذه . فالفاتحة علم والركوع علم وآل حم علم وتسبيح الملائكة علم وتحميدهم علم وتشبهنا بهم في ذلك علم

فليظن المسلمون فقد انقضى دور الهزل وجاء دور الجذ . وأظهر الله السرّ الذي خبأه . وأبان لعباده عجائب الدنيا بالعلوم والدين بالفهم والالهام . وبهذا تمّ الكلام على القسم الثاني من السورة

﴿ القسم الثالث من السورة ﴾

أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ * وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ * وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ * وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ * يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ * وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ * مِثْلَ دَأْبِ

قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ * وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ
 عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مُذْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ
 حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ
 مُرْتَابٌ * الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ
 الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ * وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَآمَانُ ابْنِ لِي
 صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا
 وَكَذَلِكَ زَيْنَ فِرْعَوْنَ سُوهُ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ * وَقَالَ
 الَّذِي ءَامَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ * يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ
 وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ * مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ
 ذَكَرٍ أَوْ أَنَّى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَيَا قَوْمِ
 مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ * تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ
 لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ * لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ
 فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ * فَسَتَذْكُرُونَ
 مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا
 وَخَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءَ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ
 أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ * وَإِذْ يَتَحَايُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ
 اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ
 اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ * وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ
 اذْءُورَ بَكُم يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ * قَالُوا أَوْ لَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ
 قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ * إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا
 فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ

سُوِّ الدَّارِ * وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ هُدًى وَذِكْرَى لِأُولَى
الْأَلْبَابِ * فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ *

﴿ التفسير اللفظي ﴾

قال تعالى (أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم) أى مآل الذين كذبوا الرسل قبلهم كعاد وثمود (كانوا أشد منهم قوة) قدرة وتمكنا (وآثارا في الأرض) كإقلاع والمدائن الحصينة (فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق) يمنع العذاب عنهم (ذلك) الأخذ (بأنهم) كانت تأنيهم رسلهم بالبينات) بالمعجزات والأحكام الواضحات (فكفروا فأخذهم الله إنه قوى) متمكن مما يريد غاية التمكن (شديد العقاب) كل عقاب دون عقابه

﴿ قصص موسى عليه السلام وبنى اسرائيل ﴾

قال تعالى (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا) المعجزات (وسلطان مبين) وحجة ظاهرة (الى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب) يعنون موسى . ذلك تسلية له (فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم) أى أعيدوا عليهم ما كنتم تفعلونه بهم من قبل كي يصدوا عن اتباع موسى (وما كيد الكافرين إلا في ضلال) أى وما صنع فرعون وقومه إلا في ضياع فان هذا كله لم يمنع موسى من إقامة دينه وخذلان فرعون وجنوده (وقال فرعون ذرونى أقتل موسى) وقد كانوا يكفونه عن قتله تهوينا لأمره ويقولون اذا قتلته ظن الناس انك عجزت عن إقامة الحجة . ثم قال (وليدع ربه) إظهارا بعدم المبالاة به مع انه لم يمنعه من قتله إلا شدة الهول والفرع من ذلك لعلهم انه نبى (إنى أخاف أن يبدل دينكم) أى يغير ما أنتم عليه من عبادتى وعبادة الأصنام (أوأن يظهر فى الأرض الفساد) أى ما يفسد ديننا من التحارب والتهاج (وقال موسى) لقومه لما سمع كلامه (إنى عدت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب) ذكر اسم الرب اشارة الى الترية وليحضهم على موافقته فى الدعاء لأن اتجاه أرواح كثيرة لغرض واحد أقرب للإجابة (وقال رجل مؤمن من آل فرعون) من أقاربه (يكنتم إيمانه أقتلون رجلا) أى أنقصدون قتله (أن يقول) أى لأنه يقول (ربى الله) وحده (وقد جاءكم بالبينات) الكثيرة (من ربكم وان يك كاذبا فعليه كذبه) لا يتخطاه (وان يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم) أى فلا أقل من أن يصبكم بعضه (إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب) ولو كان مسرفا كذابا لحذله الله ولكنه لم يحذله فأعطاه المعجزات والآيات البينات (يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض) غالبين عالين فى أرض مصر (فن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا) أى فلا تفسدوا أمركم ولا تتعرضوا لبأس الله تعالى (قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى) أى ما أشير عليكم إلا بما استصوبه من قتله (وما أهدىكم إلا سبيل الرشاد) وما أعلمكم إلا ما علمت من الصواب (وقال الذى آمن يا قوم إنى أخاف عليكم) فى تكذيبه (مثل يوم الأحزاب) مثل سيم الأمم الماضية أى وقائعهم كما يقال أيام العرب (مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود) مثل جزاء ما كانوا عليه دائما أى دائما فكانوا لا يشفرون عنه (وما الله يريد ظلما للعباد) أى وما الله يريد أن يظلم عباده فيعذبهم بغير ذنب ولا يخلى الظالم بغير انتقام لأنه يريهم (ويا قوم إنى أخاف عليكم يوم التناد) أى يوم ينادى فيه بعضهم بعضا ويتصايحون (يوم تولون) من الموقف (مدبرين) منصرفين عنه الى النار (ما لكم من الله من عاصم) يعصمكم من عذابه (ومن يضل الله فباله من هاد) ولقد جاءكم يوسف) ابن يعقوب (من قبل بالبينات) ونخهم بأن يوسف جاءهم بالبينات على التوحيد من قبل موسى فشكوا فى أمره وبقي

شكهم الى زمن موسى وهذا قوله (فمازاتم في شك مما جاءكم به حتى اذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا) أى وذلك حكمكم من عند أنفسكم من غير برهان (كذلك يضل الله) أى مثل هذا الاضلال يضل الله كل (من هو مسرف) في عصيانه (مرتاب) في دينه (الذين يجادلون) بدل من مسرف لأنه بمعنى كل مسرف (في آيات الله) في دفعها وإبطالها (بغير سلطان) حجة (أنهم كبرمقتا) أى عظم ذلك الجدل بغضا (عند الله وعند الذين آمنوا كذلك) هكذا (يطبع الله) يختم (على كل قلب متكبر جبار) عن قبول الحق والهدى (وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحا) بناء مكشوفاً عالياً من صرح الشئ اذا ظهر (اعلى أبلغ الأسباب) الطرق ثم بينها فقال (أسباب السموات فأطلع الى إله موسى) أراد أن يبنى له رقداً في موضع عال يرصد منه أحوال الكواكب التى هى أسباب سماوية تدل على الحوادث الأرضية فيرى هل فيها ما يدل على ارسال الله إياه ، أوقصد بذلك التثوية على الجهلاء يريهم أن إله السموات الذى يقول به موسى إنما هو إله كالألهة التى هى عبارة عن تماثيل فى مصر يراها الناس الآن بقيت من ذلك الزمان لتضليل عقولهم (وانى لأظنه كاذبا) فى دعوى الرسالة (وكذلك) مثل ذلك التزيين (زين لفرعون سوء عمله وصد عنه السبيل) سبيل الرشاد وموه على الناس بهذه التثويات (وما كيد فرعون إلا فى تباب) أى خسار (وقال الذى آمن) أى مؤمن آل فرعون (يا قوم اتبعون أهدكم) بالدلالة (سبيل الرشاد) لأن ما عليه فرعون غي (يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع) تمتع يسير لسرعة زوالها (وان الآخرة هى دار القرار) لخلودها (من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثله) عدلا من الله (ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب) بغير تقدير وموازنة بالعمل بل أضعافا مضاعفة (ويا قوم ما لى أدعوكم الى النجاة وتدعوننى الى النار) كثر النداء لإيقاظ لهم من سعة الغفلة ثم أبدل منه قوله (تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به) برؤوسه (علم وأنا أدعوكم الى العزيز الغفار) أى من كملت قدرته وغلبت ولا يكون ذلك إلا بعلم وإرادة فهو قادر على التعذيب والغفران (لا) رد لما دعاه اليه قومه (جزم أن ما تدعوننى اليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة) جزم فعلى معنى حق وأن وما بعدها فاعله أى حق ووجب بطلان دعوته أى ان ما تدعوننى اليه ليس له دعوة الى نفسه قط ومن حق المعبود بالحق أن يدعو العباد الى طاعته وما تدعون الى عبادته لا يدعو هو الى ذلك ولا يدعى الربوبية فكيف تدعوننى الى عبادة ما لا يسمع ولا يبصر ولا حق له ولا يدعوا اليه هذا جهالة فلا تتبعها وعطى على فاعل جرم قوله (وأن مردنا الى الله وأن المسرفين) فى الضلالة والطغيان (هم أصحاب النار) ملازموها (فستذكرون) أى فسيذكر بعضكم بعضا عند معاينة العذاب (ما أقول لكم) من النصيحة (وأقوض أمرى الى الله) ليعصمنى من كل سوء (إن الله بصير بالعباد) فيعرضهم ثم فر من بينهم فطلبوه فلم يقدرُوا وذلك قوله تعالى (فوقاه الله سيئات ما مكروا) شدائد مكروهم (وحاق بال فرعون) بفرعون وقومه (سوء العذاب) وكأنه قيل مأسوء العذاب فقال هو (النار) ثم استأنف مبينا فقال (يعرضون عليها) وعرضهم عليها إحراقهم بها ، يقال عرض الامام الأسارى على السيف اذا قتلهم وقوله (غدوا وعشيا) أى فى هذين الوقتين يعذبون بالنار وينفس عنهم فيما بين ذلك ويدوم ذلك الى يوم القيامة (وبوم تقوم الساعة) يقال لحزنة جهنم (أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) أى عذاب جهنم ، قال علماؤنا : وهذه الآية دليل على عذاب القبر وقد ظهر ذلك العلم فى الجامع النفسية وأوضحناه مرارا فى هذا التفسير وشرحناه تكررارا وصار هذا القول حقا فى علم الأرواح ، وفى حديث البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ قال : « ان أحدكم اذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار يقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله تعالى اليه يوم القيامة » وهذا المعنى هو الذى أطالت به الأرواح لما سألوها بتفصيل فقرأه فى كتابي المسمى « الأرواح » ثم قال تعالى (و) اذكر

لقومك يا محمد (إذ يتحاجون) أى يختصمون أى أهل النار (فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا) وهذا تفصيل للمخاصمة (إنا كننا لكم تبعاً) أتباعاً نخضع لكم (فهل أنتم مغنون) دافعون (عنا نصيباً من النار) قال الذين استكبروا إنا كل فيها) أى كننا فيها لا يغنى أحد عن أحد (إن الله قد حكم بين العباد) قضى بينهم فأدخل قوما الجنة وقوما النار (وقال الذين فى النار لحزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً) قدر يوم شيئاً (من العذاب) قالوا) ملزمين لهم الحجة (أولم تك تأتكم رسلكم بالبينات) توبيخاً لهم (قالوا بلى قالوا فادعوا) فانا لا نتجرى عليه إذ لم يؤذن لنا فى ذلك (ومادعاء الكافرين إلا فى ضلال) ضياع لا يجاب والمقصود من مساق هذه القصة أن عادة الله نصر الرسل والمؤمنين فى الدنيا والآخرة ووعد به بالنصر حق ، ثم أمر نبيه ﷺ بالصبر وأن يحث فى الاستغفار والتسبيح حتى يأتى له نصر الله وهذا قوله (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا) كما مر فى هذه القصة (فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) أى فى الدارين ولا ينقض ذلك بما كان لأعدائهم من الغلبة امتحاناً أحياناً لأن المدار على العواقب ، والأشهاد جمع شاهد كالملائكة والأنبياء والمؤمنين (يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم) بدل من يوم الاول (ولهم اللعنة) البعد من الرحمة (ولهم سوء الدار) جهنم (ولقد آتينا موسى الهدى) ما يهتدى به فى الدين من المعجزات والصحف والشرائع (وأورثنا بنى اسرائيل الكتاب) التوراة (هدى وذكرى لأولى الألباب) فاصبر) يا محمد على أذاهم (إن وعد الله حق) فى اظهار دينك وفى تأييدك وتأييد كل صادق فى دينك كما أيدت موسى ومن صدق من أتباعه (واستغفر لذنبك) أى وأقبل على أمر دينك وتدارك فرطتك مثل ترك الأولى الذى لا يعد ذنباً عند غيرك لأن حسنات الأبرار سيئات المقرين وتدارك ذلك يكون بالاستغفار ، وهكذا اذا خالجت اهتمام بأمر الأعداء فافزع الى الاستغفار لأن الله تعالى كافيك فى النصر واطهار الأمر وهكذا كل صادق فى وجهته الدينية والمنفعة العامة (وسبح بحمد ربك بالعشى والابكار) ودم على التسبيح والتحميد لربك ، وذلك مطابقة لما جاء من تسبيح حلة العرش الذين هم فى الملاء الأعلى . فعلى أهل الأرض أن يحذوا حذوهم والله ينصر رسله القائمين بدعوة الخير الذين يحذون حذو الملاء الأعلى . والى هنا تم الكلام على القسم الثالث من السورة وتفسيره اللفظي والحمد لله رب العالمين

﴿ القسم الرابع من السورة ﴾

إِنَّ الَّذِينَ يُكَادِلُونَ فى آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ * خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَمَا يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءَ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ * إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ * وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ * اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَدُوٌّ فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ * ذَلِكَمُ اللَّهُ

رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ
اللَّهِ يُمَحِّدُونَ * اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ
صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * هُوَ
الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ
أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ *
هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا
أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لَتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يَتُوفَى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ * هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * أَلَمْ تَرَ
إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنْتِي يُضْرَفُونَ * الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ
رُسُلَنَا فَتَسُوفَ يَعْلَمُونَ * إِذَا الْأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ
فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ * ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا
بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ * ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ
تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ * أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا
فَبئسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ * فَأَضْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرَبِّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ
تَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ
وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ
اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ * اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا
وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى
الْفَلَاحِ تَحْمَلُونَ * وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ
فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي
الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَلَمَّا جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا
عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ * فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ

وَحَدَّهٖ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَاسَنَا سُنَّتَ
اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ *

﴿ التفسير اللفظي ﴾

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ) سواء أكانوا هم مشركي مكة أم اليهود الذين قالوا : « لست أنت الذي وعدنا بك بل هو المسيح ابن داود يبلغ سلطانه البر والبحر وتسير معه الأنهار » أم غيرهم ، فهو لا (إن في صدورهم إلا كبر) أي إلا تكبر عن الحق فلا يتفكرون ولا يتعلمون ، وإنما يقولون الملك والنبوة فينا (ماهم ببالغيه) أي ببالغ مقتضاه من الرئاسة والنبوة (فاستعذ بالله) أي فالتجئ إليه من كيد من يحسدك ويبغى عليك (إنه هو السميع البصير) بعملك وعملهم (خلق السموات والأرض أكبر من كيد من يحسدك ويبغى عليك) ذلك لأنهم كانوا يجادلون في البعث ، فن قدر على خلق السموات والأرض مع عظمها فهو على خلق الإنسان أقدر (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) لا يتأملون لغفلتهم (وما يستوى الأعمى والبصير) الغافل والمستبصر (والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء) أي والمحسن والمسيء ، فاذن لا بد لهم من حال فيها يظهر التفاوت وذلك بعد البعث ، فهنا (برهانان : البرهان الأول) لجواز البعث الثاني لوجوبه اقناعا (قليلا ما تتذكرون) أي تذكرا قليلا تتذكرون (إن الساعة آتية لا ريب فيها) في مجيئها لما تقدم من الدليلين (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) لا يصدقون بها لقصور نظرهم (وقال ربكم ادعوني أستجب لكم) أي اعبدوني أنبكم . وروى انه صلى الله عليه وسلم قال وهو على المنبر « الدعاء هو العبادة ثم قرأ - وقال ربكم ادعوني أستجب لكم - » (إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) صاغرين (الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه) لتستريحوا فيه بأن خلقه باردا مظلمة ليؤدي إلى ضعف الحركات وهدوء الحواس (والنهار مبصرا) يبصر فيه أوبه (إن الله لود فضل على الناس) لا يوازيه فضل (ولكن أكثر الناس لا يشكرون) لجهلهم بالنعم واغفالهم مواقعها وجهانهم بالنعم (ذلكم) الذي اتصف بملك الصفات (الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فأتى توفكون) فكيف ومن أي وجه تصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره (كذلك يوفك الذين كانوا بآيات الله يحجدون) الله الذي جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم (بأن خلقكم منتصبى القامة ، أعضاءكم متناسبة ، مهيئين للعلوم ، وللصناعات ، واكتساب الكمالات (ورزقكم من الطيبات) النافعات واللذائذ (ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين) وكل ما سواه مربوب مفتقر إليه (هو الحي) المنفرد بالحياة (لا إله إلا هو فادعوه) فاعبدوه (مخلصين له الدين) الطاعة من الشرك والرياء (الحمد لله رب العالمين) . ولما طلب الكفار منه عليه الصلاة والسلام عبادة الأوثان نزل (قل إني نهي أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البينات من ربي) بالوحى والقرآن (وأمرت أن أسلم) أن أستقيم وأتقاد (رب العالمين) هو الذي خلقكم من تراب) بخلق أيكم آدم منه أو بخلقكم أتم من تراب انقلبت عناصره بالتغذية نباتا وحيوانا فكان منهما غذاؤكم ومنه كانت أجسامكم فكان منها نقطة فعلاقة فضغة فتخرجون أطفالا وهذا قوله تعالى (ثم من نقطة ثم من علقه ثم يخرجكم طفلا) أي يخرج كل واحد منكم طفلا ، وقد وضع هذا المقام في سوابق هذا التفسير (ثم يبيكم لتبلغوا أشدكم ثم يبيكم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل) من قبل الشيخوخة ، أو من قبل بلوغ الرشد (و) يفعل ذلك (لتبلغوا أجلا مسمى) وهو وقت الموت (وعلكم تعقلون) ما في قلبكم في تلك الأدوار من العبر والحجج فان أبلغ الحجج ما أحسن به الإنسان من نفسه (هو الذي يحيي ويميت فإذا قضى أمرا) أي أراد (فإنما يقول

له كن فيكون) فلا يحتاج في تكوينه الى عتة أو كفة (ألم تر الى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون) عن التصديق به ، وإنما كرر ذم الجادلة لأنها هي الغالبة على نوع الانسان تكبرا وعنادا وتقليدا وتمسكا بالعادات (الذين كذبوا بالكتاب) بالقرآن (وبما أرسلنا به رسلا) من سائر الكتب (فسوف يعلمون) إذ الأغلال في أعناقهم) أى فسوف يعلمون جزاء تكذيبهم وقت ما تكون الأغلال في أعناقهم واذ للماضى عبر بها عن المستقبل لتيقنه كقوله - أتى أمر الله - ثم قال (والسلاسل يسحبون) بها (في الحميم) في الماء الحار (ثم في النار يسجرون) يقال سجر النور اذا ملاه بالوقود ، ومعنى ذلك انهم في النار فهمى محيطه بهم (ثم قيل لهم) أى تقول لهم الخزنة (أين ما كنتم تشركون) من دون الله) يعنى الأصنام (قالوا ضلوا عنا) غابوا عن عيوننا فلانراهم (بل لم تكن ندعوا من قبل شيئا) أى تبين لنا أنهم لم يكونوا شيئا ، تقول حسبت فلانا شيئا فاذا هوليس بشئ ، وذلك اذا خبرته فلم تر عنده خيرا (كذلك يضلل الله الكافرين) أى كما أضل هؤلاء المجادلين يضلل سائر الكافرين الذين علم منهم اختيار الضلالة على الهدى (ذلكم) العذاب الذى نزل بكم (بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفرحون) أى بسبب ما كنتم تبطرون وما كنتم تختالون (ادخلوا أبواب جهنم) السبعة (خالدين فيها فمئس مشوى المتكبرين) عن الايمان جهنم ، ثم خاطب النبي ﷺ قائلا (فاصبر إن وعد الله حق) بنصرك على الأعداء ، أقول لاجرم أن ذلك النصريمتد الى كل صادق في نصر دينه (فاما نرينك بعض الذى نعدهم) من العذاب في حياتك كالقتل يوم بدر فذاك (أو) أن (توفيك) قبل ذلك (فاليان يرجعون) يوم القيامة فننقم منهم أشد الانتقام (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك) الى أممهم (منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك) ولم نذكر لك حال الباقيين منهم ، وما منهم من أحد إلا أعطى آيات ومعجزات وقد جادله قومه وكذبوه فيها وما جرى عليهم يقارب ما جرى عليك كما جاء في مثل سليمان عليه السلام « ما تحت الشمس من جديد » وكما يقول العلماء « التاريخ يعيد نفسه » وقد صبروا ونصروا فاصبر وستنصر ، يقال ان عدداً لانبيا ١٢٤ ألف نبي والذين ذكرت قصصهم أشخاص معدودة (وما كان لرسول أن يأتي بأية إلا باذن الله) وهل المعجزات إلا عطايا قسمت بينهم كسائر العطايا والمنح ليس لهم في هبتها مدخل (فاذا جاء أمر الله) بالعذاب في الدنيا والآخرة (قضى بالحق) باسعاد الحق واشقاء المبطل (وخسر هنالك المبطلون) المعاندون باقتراح الآيات . ولما كانت الآيات المقترحات ليس لها إلا نتائج ظاهرة كما شرح في هذا التفسير ، وإنما الأمر يرجع الى النظر في المجائب أردفه بقوله (الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنهاتاً تكون) فان من جنسها ما يؤكل كالغنم ، ومنها ما يؤكل ويركب وهو الابل (ولكم فيها منافع) كالأنبان والجلود والأوبار (ولتبغوا عليها حاجة في صدوركم) أى تحمل أثقالكم من بلد الى بلد في أسفاركم وحاجاتكم (وعليها وعلى الفلك تحملون) أى وعلى الابل في البر وعلى السفن في البحر (وبريكم آياته) دلائل قدرته كما قال في أول السورة - هو الذى يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا - وسيأتى قريباً لماذا قل هنا ويريكم آياته بعد ذكر الأنعام (فأى آيات الله تنكرون) فتقولون انها ليست من عند الله وهذه هي الدلائل القائمة في أنواع المخلوقات من الحيوانات ، ثم أردفها بدلائل آثار الأمم الظلمة وكيف كان التكذيب بالآيات الكونية سببا في خراب الأمم فقال (أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا في الأرض) قصورا ومصانع (فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) أى لم ينفعهم كسبهم (فاما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا) رضوا (بما عندهم من العلم) كأن يقولوا لن نبعث ولن نعذب وكأن يقولوا نحن نحسن علوم السياسة والزراعة والصناعة والامارة ونظام المدن فهل بعد هذا علم ؟ (وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن) أى وحق بالكافرين جزاء جهلهم واستهزأهم (فلمارأوا بأسنا) شدة عذابنا (قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين) يعنون الأصنام (فلم يك ينفعهم إيمانهم لما

رأوا بأسنا) أى فلم يصح ولم يستقم أن ينفهم إيمانهم (سنة الله التى قد خلت فى عباده) أى سن الله ذلك سنة ماضية فى العباد وهذا مصدر مؤكد (وخسر هناك) أى وقت رؤيتهم البأس فهو اسم مكان استعير للزمان (الكافرون) انتهى التفسير اللفظى للقسم الرابع من السورة

١ - ﴿ لطيفة فى قوله تعالى - ويرىكم آياته فأى آيات الله تذكرون - ﴾

ذكر الله الأنعام وأعقبها بذكر آياته يرىنا الآيات ، وقد جاء فى أول السورة - هو الذى يرىكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب -

تبين فى سور كثيرة فى هذا التفسير أن الرزق والحكمة متلازمان ، أنزل الله الأنعام والزرع لرزقنا الجسمى والعقلى ، كتر الله ذلك فى القرآن ليبين لنا أن هذه الحياة لم تكن لهما ولعبا ، اننا مخلوقون فى عالم كله جلال وكمال وحكمة وعلم ، فالويل لمن استمر المرعى وغفل عن نظامه ، إن الأمر لجد فلينتهز المسلمون الفرصة أيام حياتهم ، ولينتهوا من تلك النعم رزقا وعلما ، ومن لم يوجهوا عنايتهم الى اقتحام الأخطار وتجنب المشاق ودرس هذه العوالم وبحمها لا ينالون دنيا بها يمتعون ، ولا آخرة بها يرقون ، فليشمر المسلمون عن مساعد جدتهم - والذين جاهدوا فىنا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين -

ثم ارجع الى هذا المقام فى ﴿ سورة النحل ﴾ تأمل هناك كيف ذكر الأنعام وأنه خلقها لنا لنستد فى بأصوافها وأوبارها وأشعارها ، وننتفع بلحمها وشحمها ولبنها ، وأنها لنا جبال فى غدوها ورواحها ، وأنها تحمل أبقالنا الى بلاد نائية ، وكيف ذكر الخيل والبغال والحمير ، وأنها للركوب والزينة ، ثم قال - ويخلق ما لا تعلمون - . فانظر كيف يقول هناك - ويخلق ما لا تعلمون - عقب ما ذكر ويقول هنا - ويرىكم آياته - ويقول فى ﴿ سورة البقرة ﴾ بعد الكلام على ذبحها - كذلك يحى الموتى ويرىكم آياته لعلكم تعقلون - انظر : لماذا يقول هناك - ويرىكم آياته - ويقول فى النحل - ويخلق ما لا تعلمون - ويقول هنا - ويرىكم آياته - الفعل مضارع فى الجميع ، ولقد علمت الاجابة فى ﴿ سورة البقرة ﴾ أن الأرواح لها وجود وهى تكلم الناس فارجع اليه ، فهذا رمز لما حصل فعلا فى هذا الزمان من مخاطبة الأرواح ، وكذلك مرة بك فى ﴿ سورة النحل ﴾ كيف كان ذلك إخبارا بما حصل فعلا فى أيامنا من الكهرباء والآلات المحركات بالبخار فان الكهرباء أصبحت تعطى الناس ما تعطيه الأنعام من حرث ونقل فى البر والبحر ، فهذا معنى قوله هناك - ويخلق ما لا تعلمون - وأشار له هنا بقوله - ويرىكم آياته - أى التى بها تنالون ما نلتموه من الأنعام النافعة لكم فى حياتكم (انظر هذا المقام واضحاً فى سورة النحل ونقطن)

لقد تبين لك أن (حم) تشير الى الحمد ، وأن الحمد مرجعه العلم كما شرح فى هذا التفسير مرارا ، وآية ذلك انه قد تكرر الحمد هنا ، فبينما تراه فى آخر ﴿ سورة الزمر ﴾ اذا هو فى حيز الكلام على حلة العرش يسبحون بحمد ربهم ، ثم فى قوله تعالى آمرا الرسول ﷺ واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والابكار . وأخيرا فى الكلام على عجائب الحكمة من جعل الأرض قرارا والسماء بناء وتصويرنا فى أحسن صورة ورزقنا من الطيبات إذ ختم هذا المقال بقوله « الحمد لله رب العالمين »

﴿ تذييل التفسير فى سورة حم غافر ﴾

والكلام فيه على « مقصدين : المقصد الأول ، فى قوله تعالى - وصوركم فأحسن صوركم - وقوله تعالى - الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها - الخ » المقصد الثانى ، فى قوله تعالى - النار يعرضون عليها غدوا وعشيا -

المقصد الأول . في تصوير يشمل الانسان والحيوان

ولنخص الكلام على التنفس فنقول :

﴿ التنفس الرئوي في الانسان والحيوان ﴾

التنفس انما يكون في الحيوان برئاث هوائية مثل رئة الانسان . والرئة تكون في الحيوانات الرخوة كهيئة شبكة العنكبوت ، وأرقى من ذلك في الضفادع فهي فيها وعاءان ، وفي الحيات كيس مستطيل فيه خلايا كثيرة ، وفي ذوات الثدي والطيور عضو اسفنجي البناء كالبقرة والجاموس ، وللطيور رئة تناسب حالها في طيرانه

﴿ صفة الرئة العامة ﴾

جسمان اسفنجيان موضوعان في الصدر ، وظهر كل منهما متصل بباطن الأضلاع ويتصلان بالقلم بقصة غضروفية يدخل فيها الهواء ، وهذه القصبة متى وصلت الى الرئة تتحول الى شعبتين كل شعبة تدخل رئة نصير شعبا كثيرة منبثة في الرئة اليمنى والرئة اليسرى ، ويصير كل فرع من الفرعين في كل رئة من الرئتين مشبها بكيس وهذا الكيس متصل بالهواء الخارجى بأنبوبة صفاقية تخترق الرئة حتى تخرج منها في أعلى الصدر ، وباجتماع الأنبوبتين تكون القصبة الغضروفية . والدم اذا عاد من أطراف الجسد بواسطة الأوردة يصب في الأذين الأيمن من القلب ويسير منه الى البطين الأيمن ويخرج من البطين الأيمن المذكور بشريان كبير يقال له الشريان الرئوي وهو يسير الى الرئتين ويتفرع فيهما كما تتفرع شعب القصبة فتنتهي الشعب بالأنابيب الهوائية وتنتهي الشرايين بالشبكة الشعرية . فاذا دخل الهواء في المسالك الهوائية وانتهى الى الخلايا الهوائية أصبح مجاورا للدم في الأوعية الشعرية . فاذن يمتص الدم الأكسوجين من الهواء وينفث فيه حامض الكبريتيك بقوة حيوية لم تدركها عقول الناس . وحيثئذ يدخل الدم في البطين الأيسر والأذين الأيسر ويتفرع في سائر الجسم اه

لعلك تقول نحن الآن في تفسير القرآن والقرآن سهل . وهذه الألفاظ التي سمعناها الآن لانفهم . فما هو البطين وما هو الأذين وما معنى هذا المقام ؟ أقول لك : إن هذا المقام مقام العجائب والحكمة . انظر الى القلب . انه فيه أربع تجاويف كأنها أربع غرف غرفتان في أعلى وهما صغيرتان وغرفتان في أسفل وهما كبيرتان . والصغريان تسمى كل منهما (أذين) أعني أذن صغيرة تشبها لها بالأذن . والكبيرتان يقال لكل منهما بطين أي انها كالبطن والبطن أكبر من الأذن . هكذا هاتان أكبر مما فوقهما

ولعلك تقول قد فهمت . إذن أقول لك ان لنا حنجرة وهي القصبة الهوائية . وهذه القصبة تتفرع فرعين كل فرع يدخل رئة من الرئتين كما تقدم . والفروع المتفرعة من الفرعين تكون منتبهة بما يشبه الكيس يدخل الهواء فيه من القم . وهذا الهواء الآتي من القم معد لتطهير الدم والدم يأتي من أطراف الجسم في العروق التي يقال لها الأوردة لأن الأوردة تحمل الدم الذي يحتاج الى الإصلاح وهو الدم الوريدي والشرايين تحمل الدم الشرياني أي الذي حصل اصلاحه بالهواء كما ستري . فهذا الدم الذي جاء من طريق الأوردة يصل الى الأذين الأيمن . وهناك فتحة بين الأذين الأيمن والبطين الأيمن تفتح وتغلق والقلب أشبه بالآلة الماصة السكاسة فينزل الدم من الأذين الأيمن الى البطين الأيمن تحته ويخرج من البطين الأيمن في الشريان الرئوي وهو يمتد الى الرئة ويتفرع فيها فروعاً شعرية دقيقة . وقد علمت مما مر أن القصبة الهوائية لها فروع منبثة فيها هواء . فههنا تجاوزت الفروع الهوائية الآتية من القم والفروع الشعرية الآتية من الشريان الممتد من البطين الأيمن . وهناك يتلاقى الدم والهواء ويحصل التفاعل بينهما

فانظر كيف جرى الدم وسار في مسالك في الجسم ثم جرى الى الأذين الأيمن والبطين والشريان الرئوي

وانتهى الى الهواء الآتى من الخارج . وكيف استمرّ هذا العمل ليلا ونهارا والناس لا يعلمون بل ربما يعيش الانسان ويموت وهو لا يدري عن هذا ولا عن غيره شيئا ، ومتى طهر الدم سارفى كل من الاذين الأيسر والبطين الأيسر وخرج الى الجسم فى الأورطى وهو يتفرّع الى فرعين فرع يمتد الى أعلى الجسم وفرع الى أسفله ويتفرّع فروعا لاتحصى فى سائر الجسد لتغذيته وهكذا ، ومتى اتصلت بالحوصلات الجسمية وتغذت بها رجعت عكارة الدم المتحدة بالمادة الفحمية وهو الكربون الى القلب بطريق الأوردة وهكذا ، وانما أطلت لك فى هذا المقام لأن المدار ليس على كثرة العلم بل المدار على الفهم والتعقل وهذا مقام دقيق يحتاج الى البسط والشرح الدم جاء من الأغذية الداخلة من الفم الى المرئ الى المعدة الى الامعاء وخلاصته تذهب فى الأوعية الشعرية وتدخل الكبد ويطبخ هناك وتخرج منه الصفراء ويخلص منه السوداء والماء ويتجه كل الى مقره فالأولى فى المرة الصفراء والثانية فى الطحال والثالثة تذهب الى الكلية ويبقى الدم فيدخل مع الدم الشريانى فى الدورة ، فهذا الدم الآتى من الغذاء محتاج الى الهواء لتجديد مادة الحياة فيه فهو للدم أشبه بالماء بالنسبة لظاهر الجسم من حيث ازالة المضار فكما أن الماء نشربه وتنظفه به هكذا الدم يتطهر بالهواء ويأخذ منه مادة الحياة كلما ضعفت . هذا ما أردت ذكره فى هذا المقام والحمد لله رب العالمين

٢ - ﴿ لطيفة فى قوله تعالى - النار يعرضون عليها غدوا وعشيا - ﴾

قد ذكرت لك أن علماءنا رحمهم الله قالوا « إن هذه الآية تدل على عذاب القبر » واذن لابد أن أذكر لك شذرات من كتاب الأرواح الذى ألفتة لهذا الغرض وانى أحمد الله عز وجل إذ جعل بينى وبين تفسير القرآن حائلا مدة نحو (١٣) سنة مع انى كنت أدرسه فى مدرسة دار العلوم وكانت الفرصة سانحة لتتيممه فأراد الله أن يسلط رجال السياسة على وأنا فى (دار العلوم) فوشوا بى وقالوا للانجليز انه يعلم تلاميذه الوطنية فنقلت من تعليم طلبة دار العلوم الذين يفهمون الى تعليم تلاميذ الثانوى اللغة العربية لاغير واقطع التفسير وبقي ما كتبتة محفوظا عندي حتى انتهت الحرب العظمى ودارت الأيام وانتهت من أعمال الحكومة وفى أثناء هذه السنين اطلعت على علم الأرواح وألفت فيه الكتاب المذكور ، فلولا نعمة الله التى كانت بحسب ظاهرها نعمة وهى تأخير التفسير مع مسيس الحاجة اليه وشغف الطلبة والعارفين به ما أمكن شرح هذا المقام ولا اظهار ما أبرزه الله فى العالم الانسانى من الخبايا الروحية التى تنطق بمصدق القرآن ، فكم لله من نعمة اختبأت فى ظواهر النقم ، فلا شرع فى نقل شذرات من ذلك الكتاب الذى ألفتة لهذا المعنى ، فقد جاء فى مقدمة ذلك الكتاب ما يأتى :

ألا فليعلم المسلمون فى أقطار الأرض أن المحافل الروحية والمجامع النفسية فى البلاد الاوروبية قد نطقت فيها الأرواح على مرآى ومسمع من مجالس شوراهم والملا من قومهم ومجالس الشيوخ والأعيان فى أمريكا وغيرها كما سترونه مفصلا ومبيننا أيمّا تبيان ، لقد شرحت الأرواح مشاهدته فى عالم البرزخ من نعيم وبؤس وهناء وعناء وخطب الأموات الأحياء والآباء الأبناء فأنصت الجمع وكفكف الدمع وجاءت البشرى بالحياة الأخرى وقال الأموات للأقارب والايخوان « وان الدار الآخرة لهى الحيوان » فصدق الله وعده ونصر عبده وأعز جنده ، وجاء الحق وزهق الباطل ، وفرح المسؤل وقنع السائل

فهل نقف نحن معاشر المسلمين أمام هذا الحادث صامتين ، إنه لعب فاضح وخطأ واضح وشين مبين ، نحن أحقّ بهذا العلم من الغربيين ، إن الأمر لجلل يعوزه كتب تؤلف ومجامع تحتشد وعلماء تنتقد ، أنا لست فى كتابى هذا أثبت العالم الروحى غيب ، فلقد سبقنى اليه من نشروا الفكرة وأذاعوا أمره بين اخوانى المصريين ، انما الذى أدهشنى ما عثرت عليه من المحاورات بين الأرواح الناطقة من عالم الغيب وبين الأحياء فى المجامع العلمية . وكيف كانت آراؤها وتعاليمها تذكرنى كثيرا بما طالعتة فى أمهات الكتب الاسلامية وما جاء

عن السادة الصوفية . أليس من واجبي أن أنشر تلك المطابقات العجيبة بين أئمتنا الإسلامية . أنه لحرام على أن أغمض العين ولا أنتهز الفرصة فأذكر كل حادثة من حوادث الجبابرة الروحية بما يطابقها من كلام أئمتنا الإسلامية مينا الكتاب والصفحة واسم المؤلف

سيجيب المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها إذا جاءهم هذا النبأ الذي عنه يتساءلون من ذا الذي كان يدور بخلفه أو يهيجس بخاطرده أن ما جاء من نعيم القبر وعذابه في ديننا يعرض اليوم عرضا على المجمع الأوروبية النفسية كمثل الحاكم الألماني بيلون الذي مات وعمره ٧٩ سنة . وقد استغاثت روحه من اضطهاد يقيم له وحققوا فوجدوا ثبوت غدره باليتامى في دفاتر الحكومة في تلك الأقطار

أم من ذا الذي يسمع بحادث مدينة ونسبرج اذ تجلت روح محاسب ارتكبت الخيانة فطلب أن تساعد أرملة اذ دخلها على المكان الذي أخفيت فيه تلك الدفاتر ففعلت ما طلب وخفف عنه بعض ما يجد من العذاب المهين بل من ذا الذي يسمع بحادثة مدينة انجوليم ولا يكون من الموقنين وهي من حوادث لاعداد لها في المجمع النفسية الروحية . ذلك انه مات غنى بخيل فأحضرت الجمعية روحه فقال هاتوا لى ذهبي ومالى لم أخذتموه في حديث طويل ستقرؤه مفصلا في الكتاب

أنا لست في كتاب الأرواح أسرد الحوادث المنقولة سهلا ولا لكنى أجد ذلك يطابق مانص عليه الغزالي وغيره بطريق الكشف وكيف قل ان عذاب القبر على هذا الأسلوب وستراه مفصلا في الكتاب

من وقف على أسرار دين الاسلام في أمهات الكتب العلمية عرف ما للذنوب القلبية من الحسد والكبرياء والطمع والجشع من الأثر في العذاب وان العلاقة متينة ثابتة مؤكدة بينهما عند الممات . وكذلك ليس للمرء من كمال الأعمال العظيمة لبنى الانسان . لما قرأت محادثات الأرواح التي سترها ألفتها جاءت مصدقة لما قرأته في كل كتاب فأثبت المطابقة في هذا الكتاب . وفي الحديث : من كتم علما ألبه الله بلعجام من نار يوم القيامة أفلا يجب نشر هذا التفصيل لاختوانى المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ان ذلك يأمر به الدين

نعم لقد بزغ بزوغ الشمس للورى قوله تعالى - يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا - وثبت بالبراهين و يقين الصدق . قوله تعالى - سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق - وجاء في صفحة ٣٣ منه وما بعدها ما يأتي :

قال العلامة زين الدين محمد المدعو عبدالرؤف تاج العارفين ابن زين العابدين الجداوى القاهري المعروف بالمناوى المولود سنة ٩٥٢ المتوفى بالقاهرة صبح يوم الخميس الثالث والعشرين من صفر الخير سنة ١٠٣١ على قصيدة النفس لابن سينا صفحة ٣٢ ناقلا عن الغزالي ما يأتي :

والعالم من محرك الفلك التاسع من الصفحة التي تلى جهة فوق الى التي تلى جهة أقدامنا ملوء جنودا وملائكة وساءل جنود بك الاله الى أن قال ولا ينبغي أن يذكر منكر ذلك وقد شهد شعاع الشمس وروحانيته وبساطته حتى ان قرصها يكون بالغرب وشعاعها بالشرق فها هو الآن يغيب خلف جبل فينقطع الشعاع الذي بالشرق بلا زمان فلو كان جسما ما انقطع في عدة سنين واذا أخذت مرآة وعكست بها الشعاع انعكس الى حيث شئت ثم أعطته لافى زمان . وجوهر الشعاع بالاضافة الى جوهر النفس كشيف فليس في العالم موضع الا وهو مغمور بما لا يعلمه الا الله ولذلك أمر الشارع بالستر في الخلوة وعند الجماع والعالم مشحون بالأرواح اه

(ثانيا) قال المناوى نفسه في الكتاب المذكور نقلا عن الغزالي رحمه الله صفحة ٨٠ ما ملخصه أنه قال قد ظهر بالمشاهدة ظهورا أوضح من العيان أن أصناف عذاب القبر ثلاثة أقسام فرقة المشتبهات وخرى خجل الفاضحات وحسرة فوت المحبوبات

وهذه أنواع روحانية تتعاقب على الميت الى أن ينتهي الى النار الجسمانية . ففرقة المشتبهات وهو أولها وصورته المستعارة من عالم الحس والتخيل اللتين الذي وصفه الشرع وعدد رءوسه وهي بقدر الشهوات ووزائل الصفات الى أن قال . والثاني خزي خجل الفاضحات فاذا تطاول الزمن بعد الموت وقد احترق القواد بفراقه ما اشتبهه النفس من الأهل والأحباب والمال تخبونا ذلك الفراق بطول الزمن فتبدو إذ ذاك نار الخزي في القلب بما ارتكبت من الذنوب والآثام ويرى نفسه في خزي وفضيحة أمام خالقه والعقلاء فاذا طال الزمن ألف الفضيحة ثم تظهر آخر الأمر نار حسرة فوت المحبوبات من الأعمال العظيمة والعلوم اليقينية التي يرى غيره بها ارتقى وذلك آخر ما يلقي من العذاب قبل ما يلج النار في الآخرة هذا ملخص ما ذكره المناوي نقلا عن الغزالي صفحة ٨٠ و٨١ وما قال فيها بالحرف

ولا تظن أن الله يغضب عليك انتقاما ثم تخدع نفسك برجاه العفو فتقول لم يعذبني ولم تضربه معصيتي . إذ يلزم العذاب من المعصية كما يلزم الموت من السم . وهذه الحسرة دائمة لا تزول أبدا انتهى المقصود منه بالحرف الواحد (ثالثا) : قال في إخوان الصفاء الجزء الثالث صفحة ٣٦٢

واعلم ان النفوس المتجسدة الخيرة ملائكة بالقوة فاذا فارقت أجسادها كانت ملائكة بالفعل كذلك النفوس المتجسدة الشريرة هي شياطين بالقوة فاذا فارقت أجسادها كانت شياطين بالفعل فهذه النفوس الشيطانية بالفعل توسوس للنفوس الشيطانية بالقوة لتخرجها الى الفعل كما قال تعالى - شياطين الانس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا - فشياطين الانس هي النفوس المتجسدة الشريرة أنست بالأجساد وشياطين الجن هي النفوس الشريرة المفارقة للأجسام المحتجة عن الأبصار وقال قبل ذلك ما ملخصه . ان هذه النفوس الشريرة لما فارقت الجسد وكانت معلقة بالدنيا وسلبت الحواس وآلات اللذات خزنت وتمنت لورجعت للذات كرة أخرى فحينئذ تصبح النفس كأنها لاهية ولا مية كما قال تعالى لا يموت فيها ولا يحيى تقول . ياليتنا نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل . ياليتني كنت ترابا . هل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا . وقال تعالى - ولوردوا لعادوا لما نهوا وانهم لكاذبون - لما ركب فيهم من الأخلاق الشائنة وتبقى تلك النفوس متعلقة بأبناء جنسها المتجسدة توسوس لهم وهكذا شأن الغافلين انتهى ملخصا من إخوان الصفاء

ثم جاء في صفحة ٣٨ وما بعدها ما يأتي

قال شير محمد عندي سؤال آخر هام لاطاقتي على كتبه ولا مندوحة لي من فهمه وذلك أنني قرأت أحاديث كثيرة في أمر عذاب القبر ونعيمه وانها أمور جسمية لا معنوية وكيف يقنع المسلمون بقولك هذا وكأنني بمن يسمع كلامك يقول هذا كلام فلاسفة خارج عن الدين وما تقول في قوله ﷺ « المؤمن في قبره في روضة خضراء ويرحب له في قبره سبعون ذراعا ويضيء حتى يكون كالقمر ليلة البدر هل تدرون فيماذا أنزلت » قاله معيشة ضنكا » قالوا الله ورسوله أعلم قال عذاب الكافر في قبره يسا على تسعة وتسعون تقينا هل تدرون ما اللتين تسع وتسعون حية لكل حية تسعة رهوس يخذشونه ويحسونه وينفخون في جسمه الى يوم يبعثون قلت يا شير محمد ان لنا في الجواب عليه وجوها ثلاثة ذكرها الامام الغزالي فلنسر على منهجه ولننسخ

على منواله

(الأول) أننا نبقى الحيات والعقارب والتنانين على حالها بلا تأويل ونسلم أنها موجودة وجودا غير مانعده . ولنا في ذلك نظائر . ألم تر أن النبي ﷺ كان ينزل عليه جبريل والناس لا يرونه وهم به مصدقون . لما رأوا من الآثار والعلم والحكمة وقد أجمع رجال الكشف من المسلمين أنهم يشاهدون صورا ويعرفون أموراً يحجبها سواهم وأنت تعلم أن الوسطاء المتوهمين بالفتح يشاهدون صورا وأشباحا ويخبرون بأمر . والناس - ولهم لا يدركون منها شيئا . أفليس الميت أوفر حرية وأكثر انطلاقا وأوسع نطاقا . فاذالم يسعك أن تصور هذا وشق

عليك فاستمع لما ألقىه اليك في

الوجه الثاني . ذلك اننا نعتبر بحال النائم فاننا نرى نائمين في فراش واحد وقد قام أحدهما مذعورا كثيلا وجلا خائفا عما شاهد وقت نومه . وقال الثاني قد كنت في حديقة غناء مع من أحب وهو مستبشر فرح مما لاقى من المسرات والنعيم فلنتأمل الميت الذي صار أكثر حرية وأخذ نظرا من النائم فتكون الحية والتنين والعقرب موجودة بالنسبة له والحاضرون لا يعلمون . فاذا عسر عليك هذا وأبيت أن تقبل فاستمع لما أقول في

الوجه الثالث . بأن نقول ان الحيات ليست مؤذية بذاتها وان المؤذى هو السم الذي نقشته من نابها فيدور مع الدم فيكون الألم الشديد بل نفس السم ليس بمؤذ . ألا ترى الى ما حققه الأطباء ان سم الحية ان شرب ولا جرح في القم ولا في مجرى الطعام الى المعدة صار غذاء لاداء قاتلا . وانما يؤذى ويضر الجسم اذا دار مع الدم في العروق والشرايين . فهناك الأذى فالحية ليست بمؤذية ولا السم وانما هو الأثر الناجم من السم المفلوظ من الحية فكانت النتيجة أن اللذات والآلام كصفات قد تصل الى الحس بطريق الأعصاب . والمدار على الأثر للمؤثر . والآلام قسمان قسم جسمي وقسم روحي . فالجسمي اما من داخل وإما من خارج . والذي من الخارج إما من الحواس الخمس . كالصوت الكريه في السمع . والمنظر البشع والحزن أو الخيف في البصر . والروائح الكريهة في الشم والمر في الفوق . والذي من داخل هي الأمراض وهي ترجع الى انحراف المزاج عن اعتدال الطبائع الأربع وهي الصفراء والسوداء والدم والبلغم . ومن هذه تنشأ سائر الأمراض المتكاثرة

أما القسم الروحي فهو راجع الى الغضب والشهوة والجهل وعدم العدل . ولقد تفرع على هذه فروع كثيرة كتفرع رؤس الحيات وعدد التنانين والحيات . فاذا لم يترن الغضب بالشجاعة والعلم ولم تحفظ الشهوة بالعفة . ولم يوصف العقل بالحكمة . ولم يكن اعتدال بين هذه القوى . كانت الآلام النفسية الموجعة التي تبقى في النفس بعد الموت . وهذا انحراف في الأخلاق كما أن المرض انحراف في المزاج . فاذا غلب الدم حدثت الأمراض الناجمة عنه . كما أن الغضب في الأخلاق يحدث عنه أمثال الاحقاد والضغائن واذا غلبت الشهوة حدثت أمور . كالعشق المنحرف عن الجادة ومتى فارق الحب ما أحبه جزع . وهناك موازنة ما بين الآلام الجسمية بقسميها وما بين الآلام النفسية . ولنضرب لك مثلا بوضع المقام فنقول لنتخذ حاسة اللس مثلا فان الآلام الواصلة الى الجسم منها تكون بالضرب أو بالجرح مثلا . وتقابلها بالآلام الروحية لفقد المحبوب من مال وعقار

فلو أن رجلا قيل له أعطني عقارك وضياحك وضرب ضربا موجعا فانه لا يترك ماملك ولا يدع ما أحب لما يحس من الألم الناجم من فراق المحبوب وهو ما يملكه وهو أشد من الألم الناجم من الضرب المؤلم بطريق اللس . لأنه لا يزال يوازن بين الألمين ويتحمل الأمرين ويرضى بتمزيق جلده . حتى اذا أصبح ألم الجسم لا يطاق . وكادت تلف الساق بالساق . هنالك يرى الألم الناجم من الضرب الجسمي أقوى من ألم فراق المحبوب فيتركه على قاعدة « اذا اجتمعت علتان يتبع الأخف »

(قال الامام الغزالي . والصفات المهلكات تنقلب مؤذيات ومؤلمات في النفس عند الموت فتكون آلامها كالآلام لدغ الحيات من غير وجود حيات وانقلاب الصفة مؤذيا يضاهي انقلاب العشق مؤذيا عندهموت المعشوق فانه كان لذيذا فطرات عليه حال صار اللذيذ بنفسه مؤلما . حتى يرد بالقلب من أنواع العذاب ما يتجنى معه أن لم يكن قد تنعم بالعشق والوصال . بل هذا بعينه أحد أنواع عذاب الميت . فانه قد سلط العشق في الدنيا على نفسه فصار يعشق ماله وعقاره وجاهه وولده وأقاربه ومعارفه ولو أخذ منه جميع ذلك في حياته من لا يريد استرجاعه . فاذا ترى يكون حاله . أليس يعظم شقاؤه ويشد عذابه ويقول ياليتني لم يكن لي مال قط ولا جاه فكنت لا أتأذى بفراقه فالمرء عبارة عن مفارقة المحبوبات الدنيوية كلها دفعة واحدة

ما حال من كان له واحد ❖ غيب عنه ذلك الواحد

فما حال من لا يفرح إلا بالدنيا فتؤخذ منه وتسلم إلى أعدائه ثم يضاف إلى ذلك الحسرة على ما دونه من نعيم
الآخرة انتهى المقصود منه
وجاء في صحيفة ٤٤ ما يأتي

﴿ المجلس الرابع ﴾

(في الروح التي أخبرت بموتها وزمنه وفي قلة علم النوع الانساني ومقارنات شتى)

بين أقوال الأرواح وبين القرآن والحديث الشريف

فلما أن جاء الشيخ شير محمد والتأم المجلس شرع يطالبني بما وعدته في المجلس السابق فقلت حبا وكرامة
أما القصة الأولى فهي ما قاله في الكتاب المذكور في صفحة ٦٣ ونصه بالحرف الواحد روى المعلم جاردي
نقلًا عن أحد الجرائد الروحانية الألمانية الحادث الآتي :

في اليوم الثالث من شهر آب ١٨٨٢ قعد ثلاثة أشخاص من مدينة . ح . حول طاولة لمساكنها . فلما
استقرت بهم الحال . أخذت المائدة تتحرك اشارة الى رغبتها في التكلم . فدار بينهم الحديث الآتي :

(س) من الطارق . ج : خياط مقتول

(س) كيف قتلت . ج : مرة على قطار فداسني

(س) متى كان ذلك . ج : منذ ثلاث سنين

(س) وأين تم ذلك . ج : في أونتاريو

(س) أي يوم . ج : في ٢٩ آب سنة ١٨٧٩

(س) ما اسمك . ج : سيجوار ليكوييسك

(س) أين كان مقرك . ج : في بارمن

(س) هل والدك في قيد الحياة . ج : نعم

(س) أكنت معلما أم صانعا . ج : كنت أجير صانع

(س) في أي سن قتلت . ج : في السابعة عشرة من عمري

(س) هل تستحسن أن نبليخ ذلك لوالديك . ج : كلا

(س) لماذا . ج : لأنهما لا يعتقدان الحياة بعد الموت

(س) ربما هذا يقنعهما . ج : لا ينبو بكم من ذلك إلا السخرية

(س) كيف تمّ حادث قتلك .

(ج) كنت ذاهبا لزيارة أنسباء لي في أونتاريو من واذ كنت ماشيا في طريق لي لم الملح لضعف بصري قدوم

القطار فخرّ على وداسني

(س) بما اذا اشتغل الآن . ج : لا أستطيع وصف ذلك .

فجذب الحضور من هذه الرواية وقصدوا أن يتحققوا صحتها فكتب أحدهم في اليوم الثاني الى مديرية

بارمن ليستقصي الخبر فورد اليه الجواب من رئيس الشحنة في ١٧ آب سنة ١٨٨٢ وهاك نصه : اجابة لطلبكم

رقم ٨ الجاري أنشرف باعلامكم أننا على اثر مطالعنا سجلات المديرية وجدنا أن الصانع الخياط المدعو

سيجوار ليكوييسك وله من العمر سبع عشرة سنة بينا كان مارا في طريق اونتاريو من ليلة ٢٩ آب سنة ١٨٧٩

الساعة ١١ والدقيقة ١٤ مر من فوقه قطار السكة الحديدية فقتله ونسبت قضيته الى تجول القتل جهلا منه في

طريق القطار . ٥١

اللطائف العامة لأقسام السورة كلها (١)

﴿ اللطيفة الأولى ﴾

(في قوله تعالى - هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه - الى قوله - فانما يقول له كن فيكون - مع قوله - الله الذى جعل لكم الأنعام - الى قوله - فأى آيات الله تنكرون - مع ملاحظة آية - خلقكم من نفس واحدة - التى فى سورة الزمر الى قوله هناك - فينبشكم بما كنتم تعملون - وقوله فيها - خلق السموات والأرض بالحق - الى - من الله العزيز الحكيم -)
فهنا خلقنا وخلق أنعامنا ، وانه حكيم ، وانه خلق هذه العوالم بالحق ، وانه يرضى لنا شكر النعمة ولا يرضى لنا كفرها ، ولا جرم أن المجهول لا شكر عليه ، إذن المعلوم هو الذى يكون عليه الشكر ، وعلى قدر جهل الانسان بالنعمة يكون كفرها وعلى مقدار معرفة حقائقها والعمل بها يكون شكرها ، إذن المسلمون اذا جاهدوا الأنعام ونحوها فهم كافرون بنعمتها والله لا يرضى لنا ذلك الكفر ، وأنت عليم أيها الذكى أن شكر النعمة تقدم تفسيره تكرارا فى هذا التفسير ، ذلك ان شكرها صرفها فيما خلقت له وذلك لا يكون إلا بعد المعرفة فن عرف نعمة المحسن أحبه وأثنى عليه بلسانه وذلك هو الحمد وأطاعه بتسخير أعضائه كلها له ، إذن هنا قلب عرف فأحب ولسان أثنى وجوارح تسخر فى مصالح المشكور والمشكورون هو الله والله غنى ، إذن يجعل الانسان كل مواهبه مسخرة لعباد الله ، هذا هو شكر النعمة الذى أساسه المعرفة ، والمسلمون اليوم فى أقطار الأرض محروم أكثرهم من معرفة هذه العوالم ، والحرمان من المعرفة يبعث على التقصير فى الشكر فوجب على إذن فى هذا المقام أن أصطفى نبذا جيلة مفيدة للمسلمين كنموذج لمعرفة علم الحيوان ، ولأخص من غوامض العلم ما تقع أعين الناس عليها وهم عنها غافلون

لما وصلت الى هذا المقام حضر صديقى العالم الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير . فقال : ماذا تريد أن تقول فى علم الحيوان ؟ ألم تكتب عنه مقدارا كبيرا فى ﴿ سورة النحل ﴾ عند آية - وان لكم فى الأنعام لعلبة - الخ وفى ﴿ سورة طه ﴾ نبذا جيلة مصورة بالصور الشمسية البديعة وهكذا فى آخر ﴿ سورة الحج ﴾ إذ بينت هناك كيف تقسم الحيوانات الى فقيرة وغرفقيرة ، وجعلت الذبابة المذكورة فى الآية محور التقسيم ناقلا عن العالم الفرنسى الذى كان يتحدث تلاميذه فى أمر الذبابة وانها عند عصرها لا يرى لها عظم ولادم والحصان عند تهشيمه يرى له دم وعظم ، وهنالك انقسمت المملكة الى هذين القسمين وهكذا . ثم إنك فى ﴿ سورة النور ﴾ أطلت فى هذا المقام ورسمت الصور الحيوانية والنباتية المقسمة على المناطق الأرضية كلها . وهناك إيضاح تام عند قوله تعالى - والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع - الخ وهكذا فى ﴿ سورة النمل ﴾ شرحت أحوال النمل شرحا وافيا كما شرحت أحوال الحشرة المسماة بالأرضة وأبنت عجائبها البديعة فى ﴿ سورة سبأ ﴾ عند آية - ماد لهم على موته إلا دابة الأرض تأكل من أنثائه - وفى ﴿ سورة الروم ﴾ رسمت صور الحشرات والطيور والثعابين المختلفة الألوان لتبين أن الألوان التى انصفت بها هذه الحيوانات كانت سببا فى حفظ ماشا كلها بهذه الألوان من الحيوانات الأخرى التى خلت من سلاح المقاومة والحفظ وهذا كما اتضح فى أول الروم فى آية - واختلاف أسننكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين - واتضح أيضا فى ﴿ سورة المؤمنين ﴾ فى أولها عند قوله تعالى - وما كنا عن الخلق غافلين - فهناك حيوانات كثيرة مرسومة حفظت بما منحت من الهيئات الخاصة

(١) هذه اللطائف لم تسطر إلا عند طبع هذه السورة ولم يكن لها وجود عند التأليف : المؤلف

والألوان المناسبة لحاها بخلاف تلك المرسومات في ﴿سورة الروم﴾ فإن منفعة ألوان الحيوان تعدت الى حفظ غيره لأن مشابهة ما ليس له سلاح لماله سلاح من الحشرات ونحوها هي التي أخافت الحيوانات المفترسة لهذه الحشرات ونحوها فصارت محفوظة ، ذلك كله ظاهر وقد تقدم كما تقدم في ﴿سورة فاطر﴾ عجائب أنواع الريش في مختلف الطيور ونحو ذلك وهكذا تقدم هناك عجائب المعدة والأمعاء وأعصاب الحس وأعصاب الحركة وما شابه ذلك كله تقدم موضحاً أيما إيضاح كما اتضح أيضاً في ﴿سورة السجدة﴾ عند آية - الذي أحسن كل شئ خلقه - الخ هذا كله تقدم في هذا التفسير ، فما الذي تريد أن تقوله اليوم في علم الحيوان ؟ فقلت : أنا أسألك سؤالاً في علم الحيوان . فقال سل . فقلت : ما نقول في نوع السحالي والبرص والحرباء ، أضرار هذه أم نافعة ؟ فقال : لا أدري . فقلت : ما الفرق بين الثعابين السامة والتي لاسم لها حتى تقتل الأول ولا تقتل الثاني ، وما الثعابين الذي يحمله الحواة في بلادنا المصرية ؟ وهل هو سام . فقال : لا أدري فقلت : هل تعلم حيواناً في الماء يولد في مكان بعيد عن وطنه الأصلي بمدا شاسعا جدا وهذا المولود وهو صغير يسافر شهوراً وشهوراً حتى يرجع الى الوطن الذي خرج منه أصله . فقال : كلا . فهذه ماهي إلا ألغاز فقلت : وهل العلق الذي في الأرض له منفعة ؟ فقال : لا أدري . فقلت : أضرر الحداة أكبر أم نفعها حتى اذا غلب ضررها قتلناها أو نفعها أبقيناها ؟ فقال : لا أدري . فقلت : فلا أجيبك على هذه الأسئلة في هذا المقام حتى اذا جاءت فرصة ذكرت فوائد أخرى وذلك في ﴿سبعة فصول﴾ في السحالي والبرص والحرباء والثعابين وثعابين السمك والعلق والحداة . فقال : ولكن يظهر لي أن الكلام وإن حسن فقد خرج عن الموضوع . فقلت : إن الله يقول - وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج - فقد ذكر الأنعام والأنعام نوع من الحيوان إذن فلنبحث في تقسيم الحيوان حتى نستخرج منه الأنعام . فقال : أما هذا فنعم . فقلت : نظرنا في كتب المتقدمين فوجدنا أن « اخوان الصفاء » يقسمه الى ناقص الحلقة وتام الحلقة ، وناقص الحلقة مقدم في الوجود على تام الحلقة . ثم قال بعد كلام : واعلم يا أخي أن الحيوان هو جسم متحرك حساس يغتذي وينمي ويحس ويتحرك حركة مكانية ، وإن من الحيوان ما هو أشرف المراتب مما يلي رتبة الانسانية وهو ما كان له الحواس الخمس والتمييز الدقيق وقبول التعليم ومنه ما هو أدون رتبة مما يلي النبات وهو كل حيوان ليس له إلا حاسة واحدة وهي اللمس فحسب كالأصداق ، وما كان كأجناس الديدان كلها التي تتكون في الطين أو في الماء أو في الخلل أو في الثلج أو في لب الثمر أو في الحب أو في لب النبات والشجر أو في أجواف الحيوانات الكبيرة الجثة ، وهذا النوع من الحيوانات أجسامه لحمية وبدنه متخلخل وجلده رقيق وهو يمتص المادة بجميع بدنه بالقوة الجاذبة ، ويحس اللمس وليس له حاسة أخرى لا الذوق ولا الشم ولا السمع ولا البصر غير اللمس حسب . وهو سريع التكون وسريع الهلاك والفساد والبلل . ومنها ماهي أتم بنية وأكمل صورة وهي كل دودة تتكون وتدب على ورق الشجر والنبات ونورها وزهرها لها ذوق ولمس . ومنها ماهي أتم وأكمل وهي كل حيوان له لمس وذوق وشم وليس له سمع ولا بصر وهي الحيوانات التي تعيش في قعر البحار والمياه والمواقع المظلمة ومنها ماهي أتم وأكمل وهي كل حيوان من الهوام والحشرات التي تدب في المواضع المظلمة له لمس وذوق وشم وليس له بصر مثل الحامة . فباللمس قوام جشته وبالذوق يميز الغذاء من غيره وبالشم يعرف مواضع الغذاء والقوت وبالسمع يعرف وطأ المؤذيات له فيجتريز قبل الورود والهجوم عليه ولم يجعل له لبصر لأنه يعيش في المواضع المظلمة ولا يحتاج الى البصر ولو كان له بصر لكان ذلك وبالاعليه من حفظه من إغماض العين من القذى ضرورة لأن الحكمة الإلهية لم تعط الحيوان عضواً ولا حاسة لا يحتاج اليها ولا ينتفع بها . ومنها ما هو أتم بنية وأكمل صورة وهي ما لها خمس حواس كاملة وهي اللمس والذوق والشم والسمع والبصر ثم يتفاضل في الجودة والرداءة

(فصل) ومن الحيوانات ما يتدحرج كدودة الثلج ومنها ما يزحف كدودة الصدف ومنها ما ينساب كالحيمة ومنها ما يدب كالعقارب ومنها ما يمدو كالفار ومنها ما يطير كالذباب والبق وما يدب ويمشي ماله رجلان ومنها ماله أربعة أرجل ومنها ماله ستة أرجل ومنها ماله أكثر كالحال وما يطير من الحشرات ماله جناحان ومنها ماله أربعة أجنحة ومنها ماله ستة أرجل وأربعة أجنحة ومشفر ومخالب وقرون كالجراد ومنها ماله خرطوم كالبق والذباب ومنها ماله مشفر وحة كالزناير ومن الهوام والحشرات ماله فكر وروية وتميز وتدير وسياسة مثل النمل والنحل يجتمع جماعة منهم ويتعاونون على أمر المعيشة واتخاذ المنازل والبيوت والقرى وجمع الذخائر والقوت للشتاء ويعيش حولا وربما زاد وما كان غير هذين من الهوام والحشرات مثل البق والبراغيث والذباب والجراد وماشا كلها فانها لا تعيش حولا كاملا لانها يهلكها الحر والبرد المفرطان ثم يتكون في العام القابل مثلها

(فصل) ومن الحيوان ما هو أتم بنية مما ذكرنا وأكمل صورة منها . وهو كل حيوان بدنه مؤلف من أعضاء مختلفة الأشكال وكل عضو مركب من عدة قطعات من العظام وكل قطعة منها مهيئة لحيات من الطول والقصر والدقة والغلظ والاستقامة والاعوجاج ومؤلفه كلها بمفاصل مهندمة التركيب مشدودة الاعصاب والرباطات محشوة الخلل باللحم منسوجة بالعروق محصنة بالجلدة مغطاة بالشعر والوبر والصوف والريش أو الصدف أو الفلوس وفي باطن أجسادها أعضاء رئيسة كالدماغ والرئة والقلب والكبد والطحال والكليتين والمثانة والامعاء والمصارين والأوراد والمعدة والكرش والحوصلة والقانصة وماشا كلها وفي ظاهر البدن أرجل وأيد وأجنحة وذنب ومخالب ومناقير وحافر والظلف والخف وماشا كلها كل ذلك لما رُب وخصال عدة ومنافع جمة لا يعلمها الا الذي خلقها وصورها وأنشأها وأتمها وأكملها وبلغها الى أقصى غايتها وتمام نهايتها وهذه كلها أوصاف الأنعام والبهائم والسباع والوحوش والطيور والجوارح وبعض حيوان الماء وبعض الهوام كالحيات والأنعام وهو كل ماله ظلف منقوش والبهائم ما كان لها حافر والسباع ما كان لها أنياب ومخالب والوحوش ما كان مركبا بين ذلك والطيور ما كان لها أجنحة وريش ومنقار والجوارح ما كان لها أجنحة ومنقار مقوس ومخالب معقربة وحيوان الماء ما يقيم فيه ويعيش والحشرات ما يطير وليس له ريش والهوام ما يدب على رجلين وأربعة أو يزحف أو ينساب على بطنه أو يتدحرج على جنبه

(فصل) ثم اعلم يا أخي أبداك الله وإيانا بروح منه بأن الحيوانات الكبيرة الجثة العظيمة البنية التي لها عظام كبار وجلود ثخان وأعصاب غلاظ وعروق واسعة وأعضاء كبيرة مثل الفيل والجل والجاموس وغيرها تحتاج أن تمكث في الرحم زمنا طويلا الى أن تولد لعلتين اثنتين احدهما كيما تجتمع في الرحم تلك المواد التي تحتاج اليها الطبيعة في تميم البنية وتكمل الصورة والعلّة الأخرى كيما تدور الشمس في الفلك وتقطع البروج المثلثات المشاكلات الطباع ونحط من هناك قوى روحانيات الكواكب الى عالم الكون والفساد التي تحتاج اليها في تميم قوى النفس النامية النباتية وقوى النفس الحيوانية الحاسة ليقبل كل جنس من الكائنات المولودات ماله أن يقبل من تلك القوى كما يديننا طرفا من ذلك في رسالة مسقط النطفة . ثم اعلم يا أخي أبداك الله وإيانا بروح منه بأن الحيوانات التامة الحلقة الكبيرة الجثة العظيمة الصورة كلها كونت في بدء الخلق ذكرا وأنثى من الطين تحت خط الاستواء حيث يكون الليل والنهار هناك متساويين والحر والبرد معتدلين والمواضع الكئينة من آصاريف الرياح موجودة هناك والمواد كثيرة مهيئة لقبول الصورة ولما لم يكن في الأرض مواضع موجودة بهذه الأوصاف جعلت أرحام اناث هذه الحيوانات على هذه الأوصاف من اعتدال الطباع لكيما اذا انتشرت في الأرض تناسلت وتوالدت حيث كانت وأكثر الناس يتعجبون من كون الحيوانات من الطين ولا يتعجبون من كونها في الرحم من ماء مهين وهي أعجب في الحلقة وأعظم في القدرة لأن من الناس من يقدر أن يصور حيوانا من الطين أو من الخشب أو من الحديد أو من النحاس كما هي موجودة مشاهدة في ايدي الناس من

خلقة الأصنام ولا يمكن أحدا أن يصور حيوانا من الماء لأن الماء جسم سيال لا تتماثل فيه الصورة فتكون هذه الحيوانات في الأرحام أو في البيض من ماء مهين أعجب في الخلقة وأعظم في القدرة من كونها في الطين وأيضا ان أكثر الناس يتعجبون من خلقة الفيل أكثر من خلقة البقرة وهي أعجب خلقة وأظرف صورة لأن الفيل مع كبر جسده له أربعة أرجل وخرطوم ونابان خارجان والبقرة مع صغر جسدها ستة أرجل وخرطوم وأربعة أجنحة وذنب وفم وحلقوم وجوف ومصارين وأمعاء وأعضاء أخرى لا يدركها البصر وهي مع صغر جسدها مسيطرة على الفيل بالأذية ولا يقدر عليها ولا يمتنع بالتحرز منها . وأيضا فإن الصانع البشري يقدر على أن يصور فيلا من الخشب أو من الحديد أو من غيرها بكامله ولا يقدر أحد من الصانع أن يصور بقرة لامن الخشب ولا من الحديد بكاملها وأيضا فإن كونه الانسان من النطفة بديام في الرحم جنينا ثم في المهد ضعيفا ثم في المكتب صبيا ثم في تصارييف أمور الدنيا رجلا حكما أعجب أحوالا وأعظم اقتدارا من كونه يبعث من تراب قبره يوم القيامة ويخرج الناس كأنهم جراد منتشر وهكذا أيضا مشاهدة خروج عشرين فروجة من تحت حضن دجاجة واحدة أو ثلاثين دراجة من تحت حضن دراجة واحدة ينتقض عنها قشور بيضا في ساعة واحدة وعدوكل واحدة في طلب الحب وفرارها وهربها من الطالب لها حتى ربما لا يقدر عليها أعجب من خروج الناس من قبورهم يوم القيامة فما الذي منع المنكرين من الاقرار بذلك وهم يشاهدون مثل هذه التي أعجب هي منها وأعظم في القدرة لولا جريان العادة بها اهـ

هذا ماجاء في « اخوان الصفاء » أيها الذكي ولا جرم انك رأيت في هذا المقال تعريف الأنعام بحسب ما كانوا يرونه والفرق بينها وبين السباع والبهائم ، هذا نوع آراء المتقدمين ، ولما كان هذا التفسير لا يقع أذكياء قرائه بأراء طائفة دون أخرى أردت أن أريك تقسيم المتأخرين للحيوان وهناك نأى بالفصول السبعة لتعرف أجوبة المسائل المتقدمة ، وهناك تعرف أننا في هذه الاجابة الآتية لم نخرج عن مضمون الآية الكريمة فقد صرح فيها بالأنعام ، وما الحيوان إلا أنعام وغير أنعام ، وهذا الذي سنذكره انما هو بعض المقابل لما في الآية ، وهذا من مقاصد التفسير ، إذن الفصول السبعة الآتية لا تخرج عن مضمون التفسير ، فهناك تقسيم المتأخرين في زماننا الحاضر :

الحيوانات إما أولية أي ذات خلية واحدة . وإما غير أولية أي كثيرة الخلايا . فذات الخلية الواحدة كحيوان الملا ريا الذي لا أعضاء له يتحرك بها فيعيش في الكرات الدموية الجراء في دم الانسان فترتفع حرارته بسبب تكاثر هذا الحيوان بالتناسل وهو يستعين بالناموس فيدخل فيه وهذا ينقله الى انسان آخر فيمرض بهذا المرض . فهذا هو أدنى الحيوان خلق ليكون ضارا بالنوع الانساني والانسان مكلف بدراسته ليتقيه . فهذه نعمة من حيث انها تحثنا على الدراسة التي بها نعرف مضرّة الضارّ فننتقيه ومنفعة النافع فنستطيعه . فاذا جهلنا فانتا لا محالة مصابون بالضارّ معاقبون بالحرمان من منفعة النافع . انتهى الكلام على الحيوانات الأولية ذات الخلية الواحدة

أما الحيوانات ذات الخلايا فمنها الاسفنج وهو معروف . ومنها حيوان المرجان . وقد تقدم الكلام عليه في ﴿ سورة النحل ﴾ وسور أخرى . ومنها الحيوانات ذات الجلد الشوكي كنجم البحر وهذا تقدم في ﴿ سورة الحج ﴾ رسمه وقنفذ البحر . ومنها الديدان المفرطحة كالودودة الكبدية والبلهارسيا . ومنها الديدان الاسطوانية مثل دودة الانكاستوما . ومنها الودودة الحلقية وهي دودة الأرض والعلق الطبي . ومنها الحيوانات المفصلية مثل العنصرار والذباب المنزلي الخ . ومنها الحيوانات الرخوة كالحلزون وأم الخلول . ومنها الحيوانات الفقرية التي جاءت ببعضها هذه الآية . والفقرية منها السمك والضفادع والزواحف والطيور والحيوانات الثديية هذا بمجمل أنواع الحيوانات . ولا جرم أن الفصول السبعة الآتية بعضها من ذوات الفقرات كشماعين السمك

وكالحدأة . وبعضها من الديدان الحلقية كدودة الأرض . وبعضها من الحيوانات الزاحفة كالسحالي والبرص والحرباء والشماعين . إذن فلنذكر الفصول السبعة على ترتيب ماقدّمناه :

(الفصل الأول في السحالي)

اعلم أن السحالي من الحيوانات الورلية . وهذه الحيوانات تغطي أجسامها بالحرشيف أو الدرنا . ولها أربعة أطراف تنتهي أصابعها بمخالب حادة . وهذه الحيوانات في الغالب نشطة وسريعة الحركة وألوانها زاهية وبعضها يماثل لون الوسط الذي يعيش فيه وهذا يساعدها على الاختفاء عن الأنظار . وأذنان هذه الحيوانات طويلة ويلاحظ أنها تتحرك زمنا بعد فصلها عن الحيوان . وهذه الحيوانات قدرة خاصة على تجديد بعض أعضائها المقطوعة كالأذنان

تعيش الحيوانات الورلية في المناطق الحارة عادة ويقل وجودها أو ينعدم في الأقطار الباردة . وتتغذى هذه الحيوانات بالاحوم كالخشرات والديدان وغيرها . وتضع أيضا تدفنه في الرمال حتى يفقس . وتشمل هذه الفصيلة حيوانات كثيرة مختلفة منها الورل والسحالي والأبراص والحرباء

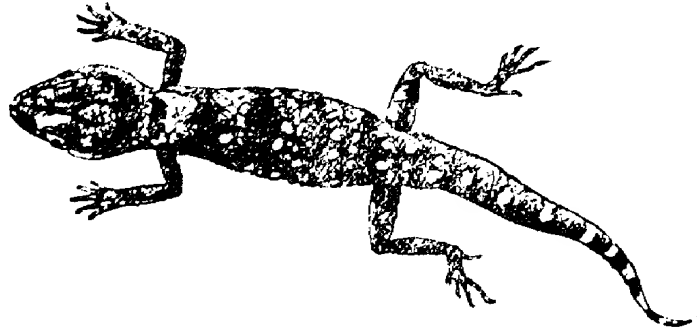
- (١) الورل : حيوان كبير الحجم نوعا يغطي جلده يدرنات خشنة . ويصل طول أكبر أنواعه الى متر أو أكثر . ويعيش بعض أنواعه في الصحاري وعلى شواطئ الأنهار حيث تقوص في الماء اذا أزججت
- (٢) السحالي : حيوانات كثيرة الأنواع توجد في جميع جهات القطر في المزارع وغيرها وتسلق الأشجار وتتغذى بالخشرات والديدان والحيوانات الصغيرة وجلدها لين في الغالب وذو ألوان زاهية وتعتبر من الحيوانات النافعة لأنها تتغذى بالحيوانات الضارة (انظر شكل ١)



(شكل ١ - رسم السحلية)

﴿ الفصل الثاني . الأبراص ﴾

- (٢) الأبراص : زواحف صغيرة تكثر في المنازل ، ولها أصابع مفرطحة نوعا منتهية بمخالب ويتكون هذا الجزء المفرطح من أجزاء عضلية مستعرضة بارزة موازية لبعضها تقريبا ، فاذا وضع الحيوان قدمه على سطح أملس انطبق هذا الأجزاء عليه انطباقا تاما ، وذلك بطرد الهواء الموجود بينهما وبذلك يتمكن البرص من تسلق الجدران الناعمة والمنشئ على الأسطح الملساء كالزجاج ، وتتغذى الأبراص بالخشرات الصغيرة في المنازل كالصراصير مثلا ، ولذلك يعتبر البرص من الحيوانات النافعة والذكور في العادة أزهي لونا من الاناث ، وتماثل الأبراص لون الوسط الذي تعيش فيه عادة (انظر شكل ٢ في الصفحة التالية)



(شكل ٢ - رسم البرص)

﴿ الفصل الثالث . الحرباء ﴾

(٣) الحرباء حيوان غريب الشكل متوسط الحجم يعيش على الأشجار ، وللحرباء رأس هرمي وعلى جانبيه عينان برزقتان بارزتان وتتحرك كل منهما بمفردها في جميع الاتجاهات ، وعنقها قصير وعاليه ثنيات جلدية ، ولها ذنب طويل ورفيع يلتف عادة حول أفرع الأشجار التي تقف عليها ، وأصابعها معدة للقبض على أفرع الأشجار . وجلد الحرباء لين ويتغير لونه بسرعة حسب لون الوسط الموجودة فيه الحرباء لتختفي فيه عن الأنظار ، وتصعب رؤيتها حتى من مسافة بسيطة ، ولسانها طويل واسطواني الشكل وينتهي بطرف منبسط كالمعلقة يفرز مادة لزجة . وتتغذى الحرباء بالذباب وأبي دقيق والصراصير والحشرات الصغيرة إذ عند ما تقرب منها حشرة ينطلق لسانها بسرعة البرق فتلتصق الفريسة بقمته وسرعان ما يعود اللسان بها الى الفم . والحرباء حيوان بطيء الحركة كسول يتربص لفريسته زمنا طويلا حتى يتمكن منها . وتوجد الحرباء في كثير من بقاع الدنيا القديمة وفي كثير من مناطق الصحارى المصرية حيث توجد بعض الحشائش والأشجار (انظر شكل ٣)

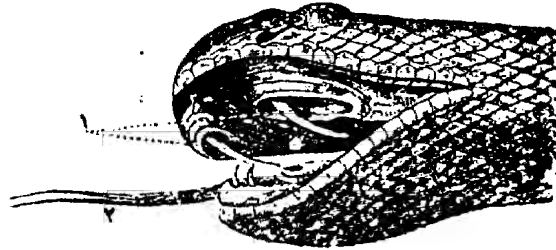


(شكل ٣ - رسم الحرباء)

﴿ الفصل الرابع : الثعابين ﴾

(٤) الثعابين : تتميز الثعابين عن الزاحفات الأخرى بطول جسمها وخلقه من الأطراف (توجد الأطراف الخلفية بحالة أثرية تحت الجلد في البوا والييتون) ويتناسب شكل الثعابين مع طرق معيشتها حيث تزحف داخل الشقوق والافاق الضيقة . ويغطي جسمها بطبقة حرشفية . وتغير الثعابين الطبقة الخارجية من جلدها في فترات منتظمة . وتعيش الثعابين في جميع بلاد العالم وتكثر على الأخص في البلاد الحارة فيعيش بعضها في الغابات ويتسلق الأشجار . ويعيش بعضها على الأرض في أنفاق خاصة . ويعيش البعض في الماء . وأغلب الثعابين المائية سام

توجد بجانب رأس الثعبان عيان ليس لها جفون متحركة وهذا ما يجعل الحيوان كأنه محقق دائماً . ومما يستحق الذكر أن الثعابين لا ترى تماماً أيام انسلاخها لأن الطبقة الخارجية لقرنية العين تغير أيضاً . وبالجزء الأمامي من الرأس يوجد الفم وله فتحة كبيرة ، وتتمكن الثعابين من ابتلاع حيوانات كبيرة بالقسبة لحجمها ، وذلك راجع لعدم التحام بعض عظام الرأس التي يتصل بها الفك الأسفل ، وبهذا يمكن فتح فمها واسعاً بدرجة غير عادية ، ومما يسهل مرور الفريسة الكبيرة الحجم في القناة الهضمية كون أضلاع الثعابين عائمة أى سائبة من أسفل ولا تتصل بقص متوسط وللثعابين أسنان حادة متصلة بالفكين ولسان طويل سريع الحركة وذو طرف مشقوق ويستعمل كعضو للحس (انظر شكل ٤)



(شكل ٤ - رسم رأس ثعبان سام)

(١) النابان السميان (٢) اللسان المشقوق

ويميل أكثر الثعابين للرقاد هادئاً ولا يتحرك إلا من الجوع أو الخوف . وبعضها ينهارى ويميل للرقاد تحت أشعة الشمس المباشرة . وبعضها ليلى أى انه لا يتجول للبحث عن غذائه إلا ليلاً . وتغلب أكثر الثعابين على فريستها بسرعة حركتها وقوة عضلاتها . وقد وصفها بعضهم بقوله : « وإن الثعابين تفوق الفردة في مقدرتها على التسلق والأسماك في مقدرتها على العموم والزبرا في مقدرتها على الوثب وتفوق على أكبر مصارع وتبطل بالفرهاشج » وكل هذه الصفات ترجع لقوة مجموعها العضلي

تتغذى الثعابين بالطيور المختلفة وبيضها وفراخها وبالجرذان والسحالي إذ تبتلعها كما هي وتتغذى كذلك بالضفادع والأسماك . وتضع الثعابين بيضاً تدفنه في الرمال أو كوام الأسبخة وفي الأراضي ، وقد ترقد بعض الثعابين على بيضها . ويولد البعض الآخر أحياء كبعض أنواع الحيات . والثعابين إما سامة أو غير سامة وتتميز الأولى بوجود نابين كبيرين حادين بالفك العلوي يعرفان بالنابين السمينين

يفرز سم الثعبان من غدتين موجودتين على جانبي القسم الأمامي من الجمجمة بالقرب من الفك العلوي الذي يحمل النابين السمينين . ومن المحتمل أن هاتين الغدتين تقابلان الغدتين النكفيتين اللعابيتين متحورتين . وتخرج من كل غدة سمية قناة تمتد إلى الباب المقابل لها فتفتح إما في قناة مقفلة تمر في وسطه أو في قناة

مفتوحة هي عبارة عن ميزاب بجانبه . وفي كلتي الحالتين يمر السم الى الجرح الذي سببه الثاب في جسم الفريسة . ولا تختلف الثعابين السامة ذات القناة المفتوحة في شكلها العام عن غير السامة . أما الثعابين السامة ذات القناة الداخلية فتكون ذات ذيل قصير ورأس مثلك ولونها زاه قليلا كما في الحيات وسم الثعبان سائل رائق مصفر اللون وسريع التأثير اذا حقن تحت الجلد أوفى الدم مباشرة وذلك ما يحصل عند ما يعض الثعبان فريسته . ولا يؤثر سم أغلب الثعابين اذا وصل الى القناة الهضمية لأنه يتأثر بالعصارات الهضمية كباقي المواد الزلالية فيتحلل تركيبه ويفقد خواصه السامة . وتستعمل الثعابين سمها للدفاع عن نفسها وكذلك لتسميم فريستها حتى تغلب عليها . وسندكر هنا بضع أنواع سامة وأخرى غير سامة :

(١) (الثعبان الناشر) واسمه العلمي (ناجا حجي) . يعرف هذا الثعبان بالكوبرا المصرى وسمى بالناشر تبعاً لانبساط رقبته عرضاً عند انفعاله ويوجد في المزارع في جميع جهات القطر المصرى ولونه العام بني في سطحه العلوى وأصفر في سطحه السفلى ويصل طوله الى متر وثلاثة أرباع المتر ويتغذى بالضفادع والفيران وغيرها وربما بالأسماك لأنه يعبر الترع اذا اضطر لذلك . وتضع الأنثى بيضا يختلف عدده من ١٨ الى ٢٥ بيضة في حجم بيض الحمام وله قشرة جلدية بيضاء . وسم الثعبان الناشر قتال سريع الفعل ويحدث نوع من الكوبرا في الهند عددا من الوفيات كل عام (انظر شكل ٥)



(السلوبرا المصرى)

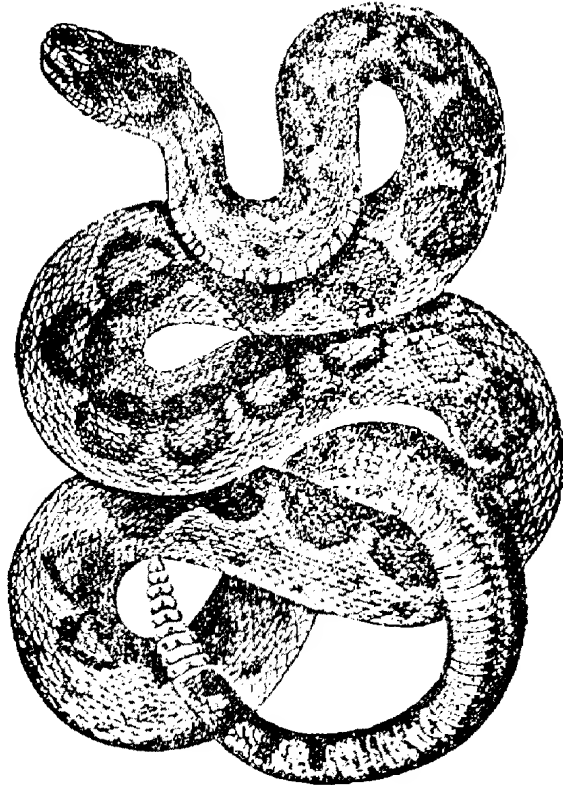
(شكل ٥ - رسم الثعبان الناشر والكوبرا)

(٢) (الحية المقرنة) واسمها العلمي (سيراستيس كوزنوتس) وهذا النوع من الثعابين ذو سم قتال للحيوانات الصغيرة ، وليس من المحقق أنه قتال للإنسان ، وتعيش الحيات في الصحارى ولونها مصفر كالرمل وعليها بقع داكنة اللون وتتميز بوجود تنوين صغيرين كالقرون على رأسها وتتغذى بالفيران والحيوانات القراضة الصغيرة التي تجدها في تلك المواضع كالجر بوع مثلا ، ويبلغ طولها نصف متر أو أكثر قليلا (انظر شكل ٦ في الصفحة التالية)



(شكل ٦ — رسم الحية المقرنة)

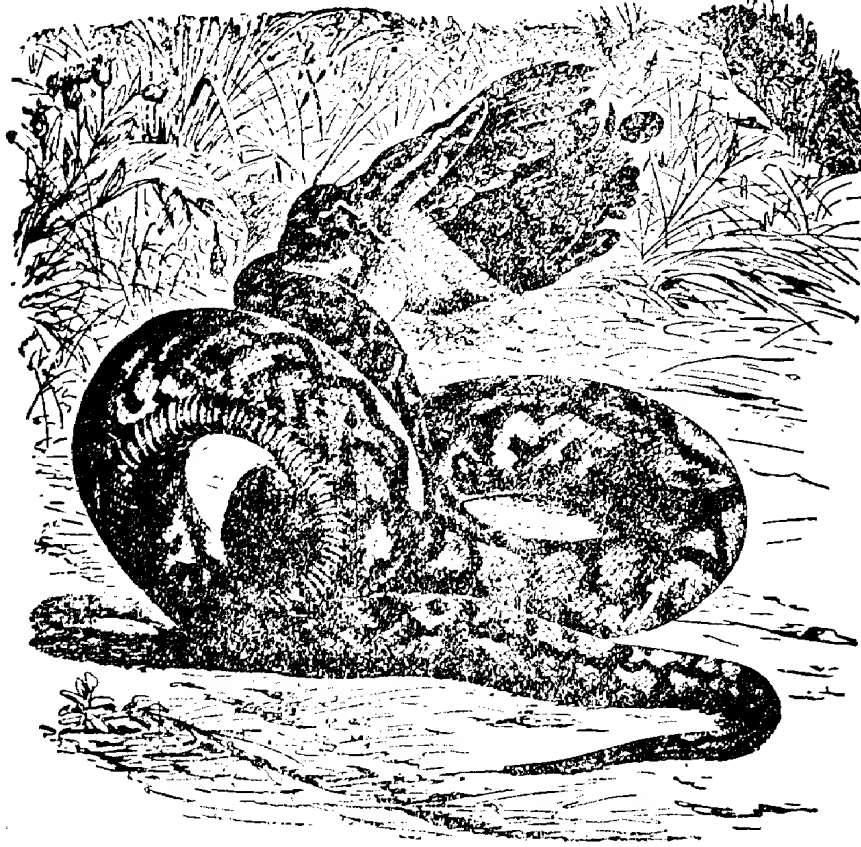
(٣) « الثعبان ذوالجرس » واسمه العلمى (كرونالوس أتروكس) يوجد هذا النوع من الثعابين السامة فى أمريكا ويمتاز بذبذبه الذى يغطى طرفه بعدد من حراشيف قرنية جافة ومستديرة تحدث رنيناً عند احتكاكها ببعضها أثناء سير الحيوان (انظر شكل ٧)



(شكل ٧ — الثعبان ذوالجرس بالحجم الطبيعى)

(٤) « الثعبان الأرقم » واسمه العلمى (زاميس دياديم) . هذا الثعبان غير سام وكثير الانتشار فى جميع القطر ولونه العام فى سطحه العلوى رملى مائل الى الاحمرار وعليه بقع ذات لون بنى ، أما سطحه السفلى فنزولون أصفر ، ويسكن فى الجهات الجافة فيكثر وجوده فى الحفر العميقة بجوار الاهرام وعلى حدود الدلتا القريبة من الصحراء وفى الدلتا نفسها فى المناطق الجافة الخالية من المزروعات ، ويوجد هذا الثعبان دائماً مع الحواة و يبلغ طوله (١٣٠) سنيمترا تقريباً ويتغذى بالفيران والحيوانات القراضة الصغيرة

(٥) الببتون هو أكبر أنواع الثعابين إذ يبلغ طول بعضها تسعة أمتار أو عشرة ، وتوجد في كثير من المناطق الحارة في إفريقيا وآسيا وهي غير سامة . وتقتل فريستها بكونها تلتف على جسمها وتضغط عليه حتى تموت الفريسة . وتوجد بهذا الثعبان آثار الأرجل الخلفية تحت الجلد كما سبق القول (انظر شكل ٨)



(شكل ٨ - ببتون أفريقي يبتلع دجاجة)

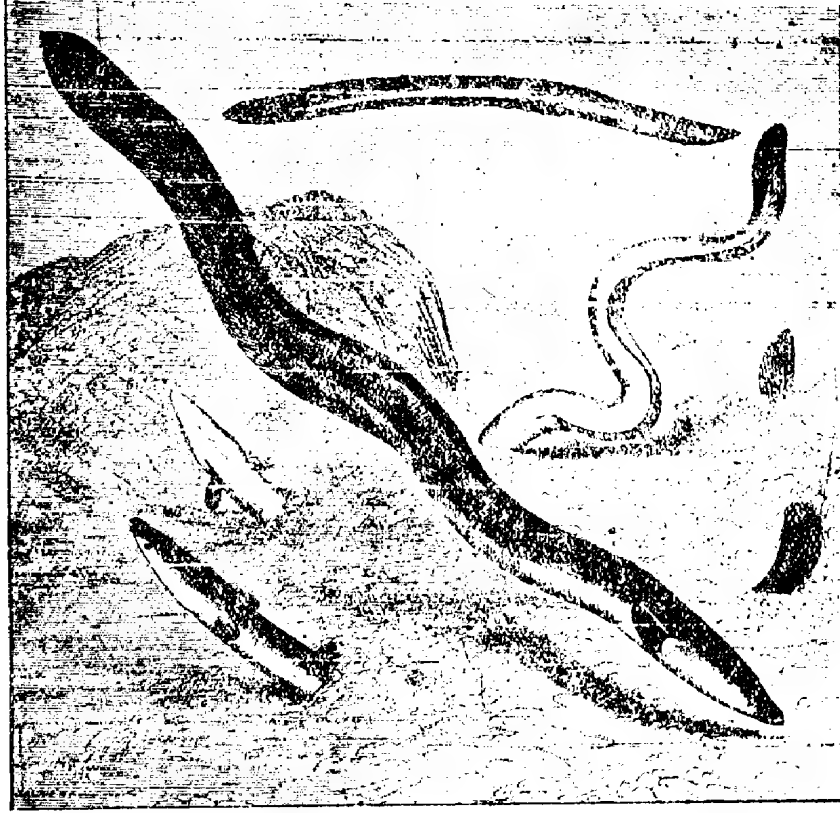
﴿ الفصل الخامس في ثعابين السمك ﴾

الأسماك حيوانات مائية تحورت أجسامها بشكل خاص يساعدها على معيشتها الدائمة في المياه ولواستئنيان الأسماك المفرطحة كسمك موسى لوجدنا بقية أنواع الأسماك كلها قريبة الشبه بعضها من بعض . جسمها يشبه القارب ومغطى بقشور متصلة بالجلد من جهة واحدة وسائبة من جهاتها الأخرى . وتغطي القشور بعضها بعضا وكلها في اتجاه واحد . وهذه القشور من أهم مميزات الأسماك كما ان الحراشيف من مميزات الزاحفات والريش من مميزات الطيور . والشعر من مميزات الحيوانات الثديية

من ثعابين السمك نوعان : أحدهما يعيش في أنهار أوروبا وشمال إفريقيا . ويعرف بثعبان السمك الاوروبي الافريقي واسمه العلمي (أنجلا أنجلا) ويعيش الآخر في أنهار الولايات المتحدة التي تصب في المحيط الاطلنطي واسمه العلمي (أنجلا كريبيا)

ويوجد ثعبان السمك بمصر في النيل والترع الخارجة منه بكميات كبيرة . وهو حيوان اسطواني ذو جلد أملس أي لا قشر عليه ولون ظهره أخضر قاتم وبطنه سنجاني وفه في مقدمة الرأس وبفكيه أسنان حادة قاطعة . ويتغذى الثعبان من اللحوم أي انه يأكل الحيوانات المائية التي يتمكن من افتراسها كالأسماك الصغيرة والضفادع والديدان وغيرها . ويختلف طول الثعابين من (٥٠) الى (١٠٠) سنتيمترا . فالقصيرة

في الطول عادة هي التي تعيش بالقرب من مصب النهر وهي الذكور عادة . أما التي تعيش في أعالي النهر فتكون طويلة وهي الاناث . وهذه الأسماك ليلى أى انها تختفي بالنهار بأن تدفن نفسها في الطين أو بين الأحجار وتخرج بالليل باحثه عن غذائها (انظر شكل ٩)



(شكل ٩ - ثعابين السمك ويشاهد بعضها مدفونا في الطين)

ولاتنسل الثعابين أصلا في الأنهار كبقية الأسماك النهرية ومع ذلك فانه يوجد بها كميات كبيرة لانقل سنة عن أخرى ، وكذلك فانه توجد بين الكميات التي تصاد أفراد كبيرة وأخرى صغيرة ، ويلاحظ في الوقت نفسه أن الثعابين الكبيرة تهاجر من النهر الى البحر ، أما الصغيرة فتصعد من البحر الى النهر ويتم نمو الثعابين عادة بعد مدة تتراوح من أربع سنين الى سبعة ، وفي هذا الوقت يتغير لونها في السطح العلوى من أخضر الى لون مائل للحمرة ، وفي السطح السفلى من سنجابي الى أبيض فضي ، ويكون ذلك في فصل الخريف ، وعند ذلك تترك النهر مجتمعة في عدد كبير متجهة الى مصبه ، وفي المساء عادة تنزل الى البحر فتقوم بنشاط وتبدأ رحلة طويلة فتمر من بوغاز (جبل طارق) الى المحيط الاطلنطي وتعبه الى جزائر برمودة القريبة من شواطئ الولايات المتحدة فتصلها في الشتاء ، وتقوم ثعابين أنهر أوروبا الغربية بنفس هذه الرحلة

وعند وصول الثعابين الى نهاية رحلتها البحرية الطويلة يكون قد تم نمو أعضائها التناسلية فتضع الاناث بيضها في الماء وتفرغ كذلك الذكور مادتها المنوية في الماء أيضا فيتم اخصاب البيض بهذه الطريقة وتضع الانثى كميات كبيرة من البيض تبلغ المليون أو أكثر

أما مصير الذكور والاناث بعد ذلك فجهول ، ولكن الأرجح أن مهيها الموت كما هي العادة عند بعض الحيوانات ، وعند ما يفقس البيض تخرج منه الصغار المعروفة بالبرقات فتبدأ سياحتها راجعة في الطريق التي أتى منه أبواها ، وتعذى في طريقها بالحيوانات المائية الدقيقة ، وفي الوقت نفسه تكون هي معرضة

لافتراس كثير من الحيوانات البحرية ، وتستغرق سياحتها في الرجوع كما يقال سنة ونصف أو سنتين
ومما يدل على أن قيام الثعابين النائمة النمو بهذه السياحة من الأنهار الى المحيط ورجوع يرقاتها من المحيط
الى الأنهار فعل غريزي هو أن يرقات ثعابين السمك الأمريكية لا ترجع إلا الى الأنهار الأمريكية التي تربي
فيها أبواها ، ولا يوجد ثعبان السمك الأمريكي في أنهار أوروبا ولا أفريقيا وكذلك الحال مع الثعبان الأوروبي
الأفريقي ، وعند ما تصل اليرقات الى مصب النهر يكون ذلك عادة في أواخر الخريف أو أوائل الشتاء ، ويبلغ
طولها في هذا الوقت تسعة سنتيمترات ، فتصعد النهر ويعيش بعضها بالقرب من مصبه وهذه تكون عادة
ذكور المستقبل ، أما التي تصعد الى أعلى النهر فتكون أنثى المستقبل وهي التي يبلغ طولها عند نهاية نموها
مترا تقريبا

أما المباحث لهذا الحيوان على تنقلاته الغريبة من النهر الى المحيط للتوالد ومن المحيط الى النهر للنمو فلا يزال
غامضا وكل التفسيرات التي كتبت في هذا الشأن ليست شافية

﴿ الفصل السادس في دودة الأرض ﴾

اعلم أن الناس يعيشون ويموتون وأمامهم جبال وعلم وحكمة ولا يدرون ماهي ، لقد كنا أيام الطفولة
نتوجه الى شواطئ البحار مع الأطفال ونبحث عن العلق في الأرض فنستخرجه ونضعه في الشص (الصناره)
ونصطاد به السمك ونحن لا نعقل ولا آباؤنا ولا اخواتنا لم خلق الله هذا العلق ؟ الله أكبر ! فأرانا العلم أن
هذا العلق يصل عدده في الفدان الواحد كما ستراه الى (٥٣) ألف دودة جعلت في الأرض لتحرثها حرثا غير
حرث الانسان . إذن المسلم اذا عاش ومات وهو لا يعرف عجائب هذه الدنيا فقد كفر نعمة الله ولم يشكرها
ومن كفر النعمة حرمها . وهذا سبب ضعف المسلمين . إذن فلا تسمعك الكلام على دودة الأرض من كتاب
« علم الحيوان » وهذا نصه :

(١) - ﴿ دودة الأرض ﴾

توجد ديدان الأرض بعدد وافر في الأراضي مهما كان نوعها غير أنه يلزم أن تكون رطبة لأن الرطوبة
من ضروريات حياتها والجفاف قاتل لها . ولذلك ينسدر وجودها في الأراضي الرملية والصحارى . ويكثر
وجودها في الأراضي المغطاة بالنباتات والخضراوات إذ تنقيها حرارة الشمس وذلك كفي أرض الجنائن عادة

﴿ شكلها الخارجي ﴾

ديدان الأرض اسطوانية الشكل ويبلغ طولها ١٥ سنتيمترا تقريبا وطرفاها رقيقان ولكن الأمامي
منهما أرفع من الخلفي وجسمها مقسم بخطوط عرضية الى حلقات يتراوح عددها ما بين ١٢٠ و ١٨٠ حلقة ،
ولون الجسم قرنفلي وعليه أشواك صغيرة متجهة الى الخلف لتساعد على الحركة دائما الى الأمام وهي أربعة
أزواج في كل حلقة زوجان منها في كل جانب من الجسم . (انظر شكل ١٠)

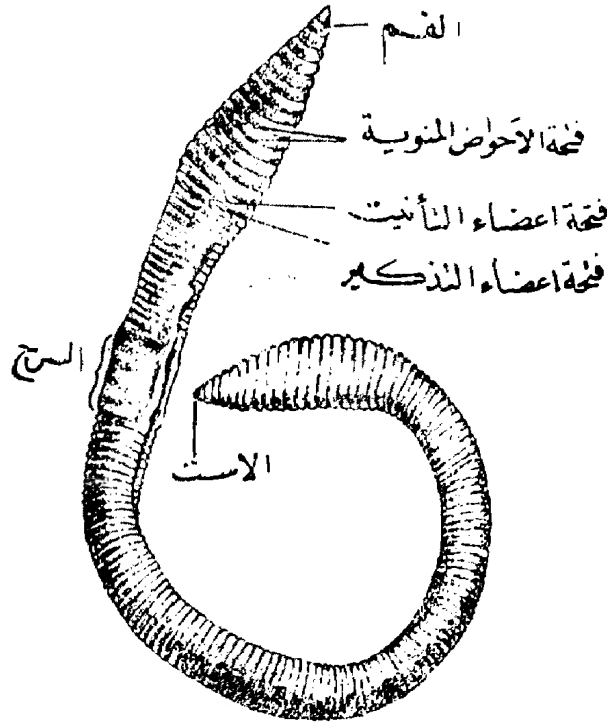


(شكل ١٠ - دودة الأرض بالحجم الحقيقي)

تغطي دودة الأرض بجلد لين رطب مخاطي ويشاهد بالسطح العلوي للدودة انتفاخ بسيط واضح في الديدان

التامة النمو يعرف بالسرج ويمتد من الحلقة الثانية والثلاثين الى السابعة والثلاثين وبه غدد تفرز مادة مخاطية لصنع الكيس الذي تضع الدودة فيه بيضها . وتوجد بالجسم عدة فتحات نذكرها بالاختصار فيما يلي

- (١) الفم فتحة صغيرة بأسفل الحلقة الأولى
- (٢) الاست فتحة بيضية في الحلقة الأخيرة من الجسم
- (٣) الفتحات التناسلية أربعة أزواج وهي :-
 - (أ) الوعا آن الناقلان الآتيان من الخصى يفتتحان على جانبي الحلقة الخامسة عشرة
 - (ب) قناتا المبيض الآتيتان من المبيضين يفتتحان على جانبي الحلقة الرابعة عشرة
 - (ج) للدودة أربعة أحواض منوية لتخزين السائل المنوي الآتي من فرد آخر ولها أربع فتحات على جانبي الحلقتين العاشرة والحادية عشرة
- (٤) على جانبي كل حلقة من جسم الدودة ماعدا الثلاث حلقات الأولى والحلقة الأخيرة فتحتان بوليتان آتيتان من الكايتين . (انظر شكل ١١)



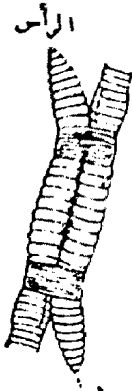
(شكل ١١ - دودة الأرض مكبرة)
(عاداتها وغذائها)

تعيش ديدان الأرض في الأنفاق التي تعملها في الأرض . وكيفية ذلك أنها تأكل جزءا من الطين لكي تفسح لنفسها مكانا ويساعدها على ذلك دفع جسمها الى الأمام . وتكون هذه الأنفاق عمودية عادة . وتنق الديدان فيها أثناء النهار الا اذا اضطرها المطر الغزير الى مغادرتها وعند ذلك تهجرها مرغمة وتشرع في عمل غيرها . وتنشط الديدان أثناء الليل إذ تخرج وتتجول على سطح الأرض باحثة عن غذائها أو أليفها . وكثيرا ما نرى آثارها على الطرق والجسور المبتلة بدرىا في الصباح . وبالرغم من أن الديدان عديمة الأعين نجد أنها حساسة للضوء وتتجنبه اذا عرضت له . تخرج الديدان بالليل باحثة عن غذائها وأفضلها الأوراق والأزهار المتساقطة إذ عند ما تعثر بها تقبض عليها بقمها وتسحبها الى أنفاقها لتتغذى بها . وتتغذى كذلك ببدور النباتات التي تجدها في التربة والكاينات الأخرى كبعض الجراثيم وبويضات الحشرات والديدان الصغيرة حية كانت أو ميتة .

وتكتفى الديدان في الأراضي غير المزروعة بالمادة العضوية التي تستخلصها من الطين الذي تبتلعه

﴿ التوالد ﴾

ديدان الأرض خنثى ولكنها لا تنفج نفسها بل يحصل التلقيح عادة بين فردين وذلك بأن تضع الدودتان سطحيهما السفليين مقابل بعضهما على أن يكون رأسهما في اتجاهين مختلفين . وعند ذلك تمر المادة المنوية من كل منهما وتدخل في الأحواص المنوية للأخرى حيث تتخزن بها . (انظر شكل ١٢)



(شكل ١٢)
دودتان في حالة
الاجتماع التناسلي

وبعد هذه العملية تنفصل الدودتان وتفرز كل منهما من السرج مادة زلاية قرنية يتكون منها حزام عريض يحيط بجسم الدودة في هذا الموضع . وعند ذلك تنسحب الدودة من هذا الحزام الى الخلف وعند ما يصل الحزام الى الحلقة الرابعة عشرة تنزل فيه الدودة بوضع بويضات وعند ما يصل الى الحلقة العاشرة تنزل الدودة في الحزام كمية من المواد المنوية . وعند انسحاب الدودة منه نهائيا يفسد طرفاه فيصبح بشكل حوصلة محتوية على بضع بويضات . وقليل من الحيوانات المنوية كلها مغمورة في سائل لبنى مغذٍ يحتمل أن تقوم بإفرازه غدد جلدية وفي تلك الحوصلة تخصب البويضات وعند فقسها تخرج الأجنة وتتغذى بالسائل اللبني حتى اذا ما نمت قليلا خرجت من الحوصلة لتعيد تاريخ حياتها . ولا يخرج عادة من الحوصلة إلا جنين واحد يشبه الدودة اليافعة بعض الشبه وتضع الديدان بيضها عادة أثناء فصلى الربيع والصيف ولكنه قد يستمر طول العام

﴿ الأهمية الاقتصادية لديدان الأرض ﴾

(أولاً) تستعمل الديدان طعاماً في صيد الأسماك إذ يبحث عنها الصيادون على جانبي الترع تحت الأشجار والمواسير وغيرها .

(ثانياً) ديدان الأرض غذاء مهم لكثير من الطيور .

(ثالثاً) تؤثر هذه الديدان تأثيراً عظيماً على حياة النبات وذلك انها تتجول في الأرض فتفككها وبذلك تكون عاملاً مهماً في تهويتها وتصفيتها وتساعد كذلك جذور النباتات على التعمق فيقوى النبات ويكبر لاتساع دائرة غذائه

(رابعاً) عند ماتنا كل الديدان الطين تحدث بمواده المعدنية والعضوية تحليلاً يجعلها أكثر صلاحية لتغذية النباتات

(خامساً) تقذف الديدان الطين بعد مروره في جوفها على سطح الأرض و بعملها هذا تعرض الطبقات السفلية من التربة الى المؤثرات الجوية فكأنها تقوم بعملية حرائة بطيئة

(سادساً) بما أن هذه الديدان تسحب كثيراً من أوراق النباتات تحت سطح الأرض فيذلك تزيد في خصوصيتها عند ماتتغفن هذه المواد العضوية

ولما تحقق الاستاذ تشارلس دارون من فوائدها غنى بأمرها وأجرى تجاربه العديدة لاكتشاف مقدار ماتسببه هذه الديدان من نفع غير مباشر للإنسان فقال (كانت هذه الديدان بمثابة المحراث الطبيعي للأرض قبل أن يخترع الانسان محراثاً لأنها تؤدي عمله الا أنها أبطأ منه . ومنها في الفدان الواحد من أرض الجنائن نحو ٣٥ ألف دودة يمر من أجسامها عشرة أطنان من التربة في السنة وهذا القدر كاف لأن يغطي سطح أرض الفدان الواحد بطبقة سمكها نصف سنتيمتر)

لهذه الديدان مقدرة غريبة على تجديد أجزائها المفقودة . فثلا اذا قطعت الدودة الى قسمين أثناء عزيق الأرض يعيش كل جزء مستقلا ونمى الجزء المفقود منه فثلا ينمو للقسم الذى به الرأس جزء خلقى

(٢) - ﴿ العلق ﴾

العلق ديدان مائية تعيش فى المياه العذبة فى البرك والمستنقعات وبعضها فى الأراضى الرطبة . وهى حيوانات طفيلية تعيش على الدم الذى تمتصه من الحيوانات التى تعثر بها وجسمها خال من الأشواك وتعلق بعائلها بواسطة مصمين موضوعين على طرفي جسمها ويساعدها أيضا على الانتقال حيث يلاحظ ذلك عند حركتها بتثيب الواحد منهما قبل رفع الآخر . وهذه الديدان خنث وتضع بيضها فى أكياس تصنعها لهذا الغرض وأهم أنواع هذه الديدان هو العلق الطي

أقول : أفليس من المدهش أن نرى فى فداننا خمسين ألف محراث تحرت أرضنا قبل أن يضع ابن آدم محراثه فى الأرض ، أوليس مما يدهش أن نرى ماهو حثير فى نظر الجاهل عظيما فى نظر العالم ! وأن هذا الدود الذى كنا نستخرجه لنصطاد به السمك هو أثمن وأغلى فى العلم من الذهب والفضة لأنه به سعادتنا إذ هو يعين على نماء زرعنا ، ولامعنى للذهب والفضة إلا بعد أن يكون عندنا مزارع نأكلها فإذا عدمت الزروع فأى معنى للذهب أو الفضة أو الأجار الكريمة ، الذهب للعاملة فى البيع والشراء وإذا لم تكن حياة بالغذاء فأى بيع وأى شراء ، والأجار الكريمة للزينة وأى زينة لمن عاش وهوجائع لا يجد فى جوابه مضغة . إذن الحياة مملوءة بالجهالة . إذن الموت خير لى آدم حتى ينقلهم من هذه الدار التى فيها قلبت الحقائق الى دار أخرى لنعرفهم تلك الحقائق بعد تمام البحث الممكن هنا . انتهى الكلام على الفصل السادس

﴿ الفصل السابع فى الكلام على الحداة ﴾

الحداة طير يعرف عند العامة بالحداية وهو من الطيور الجارحة واسمه العلمى (ملفوس اجبتيوس) وهو منتشر فى كل القطر المصرى ولكنه لا يوجد فى مناطق الاسكندرية وبور سعيد والسويس ووادى النطرون الامتجولا . وهو كثير فى مديرية الفيوم

ويبلغ طوله نحو ستين سنتيمترا وطول منقاره نحو أربعة سنتيمترات والنصف الأعلى من المنقار متقوس الى أسفل كمنقار كل الطيور الجارحة . ويبلغ عرض الطير وهو باسط جناحيه نحو ١٣٠ سنتيمترا . ولون رأسه ورقبته أبيض رمادى يكون فيه شئ من الاحمرار فى أعلاهما . والخط المركزى لكل ريشة فيهما أسود ولون الريش فى أعلى جسمه قائم . والريش الرئيسى فى الجناحين أسود . والذيل مشقوق ولونه قائم مائل الى الحرة فى أعلاه وأعمق فى جنبه وفيه نحو عشر ريشات . ولون المنقار أصفر ويشاهد أن الحداة التى لم تبلغ أشدها يكون منقارها أسود وذيلها غير مشقوق ويكون لون أعلى رأسها ورقبتها لونا أصفر يشبه لون الرمل وكل من القدمين ينتهى بأربع أصابع وكل أصبع بمخالب حاد منحني قوى والأثنى أكبر من الذكر فى الحجم قليلا

ويعيش هذا الطير على الأشجار العالية فى القرى وفى المدن ويصنع عشه من أفرع الأشجار الجافة ينظمها على شكل حفرة ويبطنها من الداخل بالحشائش الجافة وورق الأشجار والورق الصناعى وبعض الخرق البالية وفى بعض الأحيان تحتل الحداة عشا مهجورا لطير آخر (مثل الصقر)

وتظهر علامات التنبه الجنسي فى شهر مارس حيث يطير الذكر والأثنى متتابعين متلاعبين فى أعلى الهواء راسمين دوائر كبيرة القطر متتابعة على شكل حلزوني غير منتظم . وأثناء ذلك تكاد تكون الأجنحة ثابتة

ولا يشاهد فيها إلا بعض حركات نادرة . فالطير يحلق في الجوّ مستعينا بسطح جناحيه الواسع ومستعملا ذيله في الانجاء . وبشاهد الانسان إذا لاحظ الحدأة وهي طائرة بجناحيها منبسطين أنها ترتفع فجأة في الهواء الى منطقة أعلى دون أن تقوم بأدنى مجهود وسبب ذلك أنها تصادف في سيرها تيارات الهواء الساخن الصاعد من الأرض فترفعها الى أعلى

وتبيض الأنثى نحو ثلاث بيضات ترقد عليها وحدها و يأتي الذكر الى الأنثى بعد أنائها أثناء ذلك و بعد فقس البيض تبقى الصغار مدة طويلة في العش ثم حين تطير تبقى مدة أسابيع عالة على أبويها متغذية مما يأتیان به إليهما منه . وصوت الحدأة العادي مخالف لصوتها وقت التفرج

ويأكل كل هذا الطير صغار الدجاج والبط والاوز ويأكل أيضا الجرذان والضفادع والثعابين والسحالي ودود الأرض والحشرات ولا يحجم عن أكل الرم

ولولم تكن شراسته كبيرة في افتراس صغار الطيور المنزلية لكان من أهم الحيوانات المفيدة للانسان بأكله الجرذان والحشرات الضارة وهو من أفيد الطيور في المدن المصرية لأنه ينقي الشوارع من الرم ومن بقايا الحيوانات وينقى الاسطح من كل بقايا للأكل ومن فضلات المطابخ التي تطرح عليها

وهذا الطير بطيء الطيران ولو أنه يطير عاليا وله كثير من الدهاء . وحاسة النظر عنده نامية جدا كما يشاهد ذلك من يتتبع حركانه عقدا يسقط فجأة من أعلى منزل مرتفع على قطعة من بقايا لحم الجزارة ملقاة في الشارع هذا ما أردته من كتاب « علم الحيوان » والى هنا تم الكلام على الفصول السبعة والحمد لله رب العالمين كتب في أول أغسطس سنة ١٩٣٠

(خاتمة في الحيوانات النافعة)

أذكر كرك أبها الذكي بما ذكرته في (سورة يوسف) من اني كتبت في مجلة « الملاحى العباسية » مقالة في الطيور فخصرتها الحكومة ثم حرمت صيدها ، وانى كتبت في (سورة طه) آخر رأى للحكومة المصرية في الطيور النافعة التي يحرم صيدها وهى :

(القنبرة . وعصفور التين . وأبو فصاده . واللقلاق . والشحفوت . والجليل . والكروان . والسنونو . والزرزور . والدخلة . والزريقه . والحسينى . والدح . والكركى . والوروار . والبشون . وأبو قردان . وعصفور الجنة . والمهدد . والبلبل الصغير . والخطاف . وأبو بليقه . وأبو اليسر . والزقراق مطوق . والزقراق البلدى . والغراب الزيتونى . وأبو صدر (أبو الحناء) والجزير . والصعو . والهزار . والقمحجية . وأم الهوى . وزقراق شامى)

هذا ما ذكرته هناك ، فلنزد عليه ما ذكرناه هنا وهى السحلية والبرص وغيرها من كل حيوان قاتل للحشرات كالغسكبوت

فيا سبحان الله : أيلقى أن يعيش في دورنا ونحن نجهد ماحولنا . ها أنا ذا في العقد السابع من حياتى ولا علم لى أن البرص يأكل الصرصار وغيره إلا في هذا الشهر فأخبرت أهل المنزل بذلك وقد كانوا متشائمين منه ظانين انه ضار لا نافع فنعوا عنه الأذى

اللهم إن جهل هذه العلوم من أكبر ما أضرّ بالأمة الاسلامية ، وهذا ولقد تقدم في (سورة فاطر) عند آية - ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء - الخ انى ذكرت هناك أن الجراد هجم على مصر أيام طبع تلك السورة وكتبت في جريدة الاهرام أن الجراد تجارة رابحة وانه يعصر زيتا نافعا في الطيارات ، وأن الجراد الهاجم على بلادنا اذا بعناه كان نعمة عظيمة ونقله ينفع لطعام البهائم ، ثم أرسلت الحكومة البلجيكية خطابا

للحكومة المصرية تطلب منها ذلك الجراد فلم ترد عليها . وهالك ماجاء في جريدة الاهرام عند طبع هذه السورة يوم (٨) أغسطس سنة ١٩٣٠ وهذا نصه :

(تجارة الجراد في بلجيكا)

والسعى للحصول على مقادير كبيرة منه للصانع . عدم اكتراث الحكومة بما كتب اليها بشأنه منذ أسابيع كتب جناب قنصل البلجيكي في الاسكندرية كتابا الى الحكومة المصرية لمناسبة اهتمامها بمحاربة الجراد يقول فيه ما مؤداه : « إن في بلجيكا مصانع خاصة تستخدم الجراد لأغراض صناعية . وقال إن بلاده على استعداد لشراء أى مقدار يقدم اليها من جماعات هذا الطير المضر بعد قتل أرجاله » (كذا) ويظهر أن السلطة التي كتب اليها بهذا الشأن لم تهتم بالأمر كثيرا ، ويقال انها أهملت الطلب حتى انها لم ترد على كتاب القنصل بكلمة

وقد فهمنا الآن أن أحد البيوت المالية البلجيكية الكبيرة في الاسكندرية علم أن العراق مازال يحارب الجراد في بعض أرجائه فجعل يسعى للحصول على مقدار منه من تلك البلاد لا يقل عن مئة طن . وهناك شروط معينة لتوريد الجراد أخصها انه يجب على المورد أن يضع الجراد بعد قتله في الماء الحار نحو (١٥) دقيقة وتوضع في الماء كمية من الملح . وبعد ذلك يؤخذ الجراد ويفرش على الأرض أربعة أيام ثم ينظف ويوضع في أكياس أو صناديق ويشحن الى (ميناء أنفوس) حيث يتسلمه الطالبون

ولاندرى لماذا لم تهتم السلطة المصرية ذات الشأن بما كتبه اليها القنصلية البلجيكية في هذا الموضوع في أثناء محاربة الجراد في الأراضي المصرية أيام كان الأهالي يهلكون أرجال هذا الطائر ويتلفون كل ما يجمعونه منها . وقد كان بالامكان بيع مقادير كبيرة منه لمصانع البلجيكي بواسطة القنصلية البلجيكية والكويتوار البلجيكي . ولو أن الأهالي كانوا يعرفون أن للجراد فوائد صناعية وأن هناك مصانع تطلبه لاهتموا هم بالأمر وباعوا منه مئات الأطنان وربحوا منه المال الوفير

عسى أن لا يأتى الجراد الى مصر مرة أخرى والبلاد في غنى عن هذه التجارة . ولكن اذا الأقدار ساقط الى مصر جرادا في وقت من الأوقات فيجب أن يكون مفهوما أن في أوروبا مصانع تحتاج الى ما يقتل من هذا الطائر المضر بالزراعة . انتهى

هذه حال حكومتنا المصرية التي لها في الحكم نحو قرن وثلاث وهؤلاء حكامها يقباطون في منفعتها فبالك أيها الذكي بغيرها من حكومات الشرق المتأخرة . الأفليح التعليم النافع بلاد الاسلام فلا يكون تعليما قشرياً إن بعض الحكام في البلاد الشرقية ليس عندهم تهذيب تام ولا عشق للعلوم . إن من عشق العلم يجب الأمة والفضيلة ومن خلا من عشق العلم انصرفت همه الى شهواته فعاش خادما لها بحيث تكون جميع أعماله موجهة الى هذا الغرض وحده فلا يبالى برقى الأمة وسعادتها والله يهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو العزيز الحكيم . كل الأمر راجع للتعليم والحمد لله رب العالمين . انتهى ليلة الأحد ١٠ أغسطس سنة ١٩٣٠

﴿ اللطيفة الثانية ﴾

(في قوله تعالى أيضا - هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه - الى قوله تعالى - فانما يقول له كن فيكون - مع ملاحظة آية - خلقكم من نفس واحدة - مع قوله - ذلكم الله ربكم له الملك لا اله الا هو فأتى تصرفون - التي في سورة الزمر الى قوله هناك - فينبشكم بما كنتم تعملون - وقوله فيها - خلق السموات والأرض بالحق - الى قوله - ألا هو العزيز الغفار -)

هذه الآية أولها وحدة النفس التي منها خلقت نفوسنا الكثيرة وفي آخرها وحدة الله تعالى . ولا جرم أن الوحدة الأولى تدل على الوحدة الثانية وهذه من أعاجيب القرآن . يقول الله - خلقكم من نفس واحدة - وخلق من هذه النفس نفسا أخرى . ومن هاتين النفسين خلق نفوسا وهكذا . فالوحدة مبدأ الكثرة وذلك كالعدد أسسه الواحد وبانضمام آخر اليه ابتداء العدد لأن العدد يفهم منه التعدد ولا نعتمد في الواحد . واعلم أن العلوم الحديثة المنتشرة في كرتنا الأرضية هي التي تفهمنا سر هذه الآية . ألا ترى رعاك الله أن وحدة الانسان ظاهرة بأن له روحا وهذه الروح تتصرف في جسمه وفي جميع أعضاء الحس وأعضاء الحركة وهي متعددة . ومن عجب أن هذه الوحدة الظاهرة في الروح المتصرف في الجسم ظاهرة أيضا في ملكة النمل وجنودها منه . وفي ملكة الأرض (جمع أرضه) بوزن سمكة المرسومتين في أول سورة سبأ . والمرسومتين أيضا في سورة النحل إذ قلت ان هذه الآية تفسرها العلوم الحديثة . أقول لك أيها الذكي أرجع فاقرا ما كتبت على النمل في ﴿سورة النمل﴾ وفيما كتبت على الأرض في ﴿سورة سبأ﴾ ثم أزيد عليه الآن فأقول :

هاهم القوم في أوروبا ضغطوا على الزر في أوروبا فأوقدوا المصابيح في استراليا ، فدل ذلك على أن هذه العوالم كلها متصلة اتصالا وثيقا ، ولقد تكلم السياحون وهم فوق القطب الجنوبي في هذه السنة (١٩٣٠) مع من هم في الممالك المتحدة بطريق البرق الذي لاسلك له ، إذن هذا الجوك كله مملوء بالأسرار مفعم بالأنوار موصل جيد للأخبار

إذا علمت هذا فلتعلم علما ليس بالظن أن ملكة النحل وملكة النمل وملكة (الأرض) بوزن سمك متصلات مع رعاياها بواسطة هذه الأسرار الخفية في الأثير وهي مع مملكتها كأرواحنا مع أعضائنا ، فذا وصلت أعصابنا أخبار حواسنا الى داخل أجسامنا ، وأوصلت أعصابنا أخبار ملاذنا وآلامنا الى المخ وهو وصله الى أرواحنا فان الجوق وما فيه من الأثير موصل بلا أعصاب فيه ، فكما وصل أخبار من وصلوا الى القطب الجنوبي لمن هم في الممالك المتحدة ووصل تيار النور من أوروبا الى استراليا في لمح البصر بمجرد الضغط على الزر بسر الراديو ، هكذا وصل الأثير أخبار ملكة النحل الى عمالها فكان منهمق المربية للذرية والجامعة للعسل والشمع والتي تقف على باب الخلية حتى لا يدخلها أحد ، ووصل أخبار ملكة النمل كما تقدم في ﴿سورة النمل﴾ فكانت مملكتها كأرقى مملكة في العالم ، فمنق الديدان والعامل الصغير والجندى والضابط والمربي للذرية كما تقدم في سورة النمل ، وهناك ترى مزارع النمل المنظمة البهجة مرسومة موضحة ، فهل يكون ذلك النظام وتلك الطاعة المدهشة تحت أسرة الملكة بلا خطاب منها ولا تفهيم ؟ كلا . والموصل هو العالم الخفي في الأثير تباركت ربنا وتعاليت ، أنت جعلت الوحدة فينا أي وحدة أرواحنا ، وهذه الوحدة في أرواحنا جعلت قوانا وأعضائنا فكانت عالما واحدا ، وجعلتها نموذجاً نفهم به وحدة ممالك النمل والنحل وممالك الانسان بل مملكة الأرض والمجرات والعوالم كلها كأنها متصلات اتصال أعصابنا بأجسامنا التي تقودها أرواحنا واتصال ممالك النحل بمملكتها وممالك النمل كذلك والأرض (بوزن سمك) كأنها خاضعات للملكات من خضوع أجسامنا لأرواحنا ، هكذا العوالم كلها يا الله خاضعات متصلات متحدات مرتبطات ارتباطا وثيقا وأنت المدبر لها ، وقد ضربت لنا مثلا نفهمه من أنفسنا ومن ممالكنا ومن ممالك النحل والنمل - ولله المثل الأعلى في السموات والأرض - . فإذا دبرت الروح الجسم . ودبرت ملكات النحل ممالكها ودبرت ملكات النمل ممالكها وخضعت هذه الممالك كلها لواحد دبرها ، فهذه ملكتك خاضعة لك دبرتها وأنت واحد

بهذا فهمنا - ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة - وفهمنا قولك - خلقكم من نفس واحدة - وقولك في أول سورة الزمر - ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنتي تصرفون - أي فكما لا قدرة للأعضاء

على مخالفة الأرواح ، ولا لأفراد النحل عن الخروج عن أمر ملكاتها . ولا لأفراد النمل عن الخروج عن أمر ملكاتها . هكذا نوع الانسان لاطاقة له أن يخرج عن النظام الأقدس وهو التوحيد الذي أمر به وهو ملزم أن يدرسه ويسير على منواله ويطيع خالقه غاية الأمر ان طاعة الأعضاء للروح وطاعة أفراد النمل للملكاتها وطاعة أفراد النحل للملكاتها وطاعة الأرضات (بوزن سمكات) غريزية طبيعية . وطاعة الانسان ربه يجب أن يكون بالتعليم والتهديب لا غير . انتهى صباح يوم الاثنين (١٥) سبتمبر ١٩٣٠

﴿ اللطيفة الثالثة ﴾

(في قوله تعالى - الله الذي جعل لكم الليل - الى قوله - فأنما يقول له كن فيكون -)
جاء في هذه الآيات :

(١) ذكر الليل والنهار ، وبيان أن الله له فضل على الناس بتعاقبهما ، وأن الناس قلّ شكرهم على هذا الفضل

(٢) بيان أن الله خالق كل شئ بمناسبة تعاقب الليل والنهار ، وأن ذلك محل اعتبار فن صرف عنه فهو خاسر

(٣) بيان أن الأرض جعلت لنا قرارا والسماء بناء ، وأن صورنا حسنة ، ورزقنا طيب ، فأن الله تعالى كثير البركات والخير وهو حيّ فوجب حمده والاخلاص له وترك عبادة غيره والتسليم له هو

(٤) بيان نظام خلقنا وتدرجه في النشوء

(٥) بيان حياة كل حيّ وموته وتعاقبهما

في هذه المسائل الخمس تدخل العلم الإلهي في العلم الطبيعي والفلكي ، فعلم الفلك في عدد (١) ان تعاقب الليل والنهار واختلافهما يترتب عليه اختلاف الحرارة والبرودة في الأقطار . إذن هو الأصل وما بعده من أن الأرض قرار وأن صورنا حسنة ورزقنا طيب وارتقاءنا في الحياة من تراب الى نقطة الى علقة وتعاقب الموت والحياة علينا كل ذلك فروع . إذن العلوم الطبيعية خاضعات لأنوار الأفلاك ، فهنا علمان : الرياضيات والطبيعية . وهى فروع جمة واضحة في ثنايا هذا التفسير ، وقد تخلل ذلك العلم الإلهي لأن نوعي الرياضيات والطبيعية لانبأت لهما إلا بمدير للعالم ، فلذلك تجد ذكر في أثنائهما ، فقد قال قبل ذكر علم الفلك ادعوني أستجب لكم وحذرهم من الكبر وخوفهم من جهنم . ثم يتخلل الكلام على العلمين اظهار فضله على الناس وتبيان أنه هو الخالق لكل شئ أى فليست هذه العلوم منفصلة مفككة العرى بل لها من يحفظ كيانها . وأخذ يذم الجاحدين لأن الحركات المنظمة لها منظم . وإذا كان هذا العالم مملوا نشاطا وحياة فن أين أنت هذه الحياة إلا من أن الخالق حيّ ! أفلا تحيا نفوسكم بالاخلاص له وحمده والاعراض عن سواه

أليس هو الذي ينقلكم حالا بعد حال في الخلق بل يخلق الموت والحياة فيكم وفي غيركم . إذن في هذا العالم حركات هائلة ليل ونهار وموت وحياة وأرض وسماء وصور حسان في الانسان مشتقة من تراب لاهية فيه . هذه نبذة عامة في مجمل هذه الآيات . فهل لك أيها الذكي أن تسمع ما ألقيه عليك الآن من نبأ العمران في هذه الأرض المبني على الفلك لتعلم أن الاجال في آيات القرآن يعوزه التفصيل . إن الوقوف عند حفظ القرآن جهل عظيم وفهم المعنى اللفظي والوقوف عنده غرور وموت . وقف المسلمون غالبا عند ظواهر الألفاظ وناموا . لا أيها المسلمون . هذا إجمال أما التفصيل فأنما يكون بجميع العلوم وليس معنى هذا أن المسلم يقرأ جميع العلوم تفصيلا . كلا . بل يختص كل جماعة بعلوم خاصة وأذن يستخرجون منافع أرضهم ويحبون ربهم ويرتفع شأنهم في الدنيا والآخرة . إن الحرارة والبرودة في الأرض ترجع الى الليل والنهار ارتفاعا وانخفاضاً وعلى

مقتضاها يكون ظهور النبات والحيوان وتكاثرهما تارة وقتلها تارة أخرى وعدمهما بتاتا . الناس والحيوان والنبات موزّعات على الأرض بقوانين كلها ترجع الى سيرة الشمس . إن الله كما جعل التوسط في الأخلاق من شدة ولين هو الصراط المستقيم هكذا جعل المكان الذي يتوسط فيه وجود النبات على الأرض و يتوسط فيه الحرّ والبرد هو الذي يعيش فيه الانسان . أما المكان الذيكثر حره ونباته أوالمكان الذيكثر برده فهما لا يصلحان لسكنى الانسان . إذن القانون واحد قانون الأخلاق بالتوسط فيها وقانون سكنى الأرض . شجنت كتب الديانات وكتب الفلسفة بعلم الأخلاق . لماذا هذا ؟ لأن الانسان لا يعيش مع الناس إلا بخلق متوسط فاذا تعالى في الشدة أو تعالى في اللين نبذه الناس في الأولى بالخوف منه وفي الثانية بضعفه . والنفوس الانسانية لا تحب إلا الاعتدال . ذلك لأنك ستعرف قريبا كيف كان الانسان يستحيل عليه أن يعيش في الغابات الاستوائية لوفرة الحرارة فيها التي بهاكثرالنبات فطرد الانسان منها . ولا في الأقطار الباردة لكثرة البرودة التي منعت أكثرالنبات والحيوان فلم يستطيع أن يعيش الانسان هناك . إذن الانسان عالم متوسط في خلقته وحياته . متوسط في أخلاقه رإذن هناك تناسب بين خلقته وخلقه والله حكيم عليم

وستسمع قولاً عاماً على الأرض وسكانها وغاباتها وبدائعها مما لم يسبق له نظير في هذا التفسير ، وفيها ترى عجائب هذه الأرض وتعرف فيها ما لا يعرفه السائح حولها لأن السائح بعقله قد يعرف من التفصيل ما لا يعرفه السائح بجسمه والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

فقال صاحبي : لقد شوقتني الى ما أقول ولكنني أريد أن يكون هذا المقال على سبيل المحادثة بيني وبينك حتى تتجلى الحقيقة واضحة ظاهرة ، أنت تريد شرح الحرارة والبرودة وما ترتب عليهما من الحياة على الأرض وهذه كلها فروع لأصل والأصل هو البنية الانسانية ، ذلك ان كل ما نزل من العلم على قلوب الأنبياء أو الحكماء أو العلماء إنما يراد به هذه الانسانية ، ولقد ذكرت أنت في تفسير البسملة في ﴿سورة ص﴾ ما ملخصه أن الانسان له أعضاء حسّ وهي الحواس الخمس وله أعضاء حركة وهي اليدين والرجلان ، ولقد كان هذا أمراً عجيباً ! وهل أعجب من أن خلق الانسان جعل مناسباً للعالم فكان العالم نسخته أو هو نسخة العالم ، أو كأن العالم شجرة وهو ورقها ، وقد تقدّم في ﴿سورة يس﴾ في المقالة المنقولة من كتاب ﴿علوم للجميع﴾ كيف كانت الشجرة صورة مكبرة لورثة ساقطة تحتها في بعض الأشجار ، أو الورقة صورة مصغرة للشجرة التي سقطت هي منها ، ذلك ان الزوايا التي تحدثها فروع عروق الورقة مع الخط المتوسط فيها (المشبه في هذا التوسط فقار الظهر مع الأضلاع في الانسان والحيوان) تشبه من كل وجه الزوايا الحادثة من أغصان الشجرة مع جذعها والحادثة من الفروع الصغيرة مع أغصانها حذو القذة بالقذة ، فهكذا نجد وضع هذا الانسان مع العالم المحيط به ، ذلك انه (وان غفل جهوره ونام ولم يعقل حقيقة نفسه ولا بهجة جسمه ولا جلال وضعه ولا حكمة خلقه) بحواسه الخمس التي تقدم القول فيها قد استعدت لمشاهدة الأنوار والظلمات والحيوان والنبات والعالم العلوي والسفلي وبأعضاء حركته استعدت لأمرين : أمر الانتقال في الأرض بالرجلين ، وأمر العمل في الطبيعة باليدين فيصنع ما شاء صنعه يعقله الذي استعدت الصور من حواسه ، إذن العالم كله مقسم على أعضاء الحسّ وأعضاء الحركة ، فأعضاء الحسّ للعلم وأعضاء الحركة للعمل . فها ماهي الانتقال . ومنها ماهي العمل . هذا هو الأساس الذي يبنى عليه كل علم في الأرض وكل عمل . فما البناء الذي تريد أن تبنيه على هذا الأساس الآن ؟ فقلت أريد أن أبني بناء حسناً جيلاً كما ان هذا البناء حسن جميل . فقال : ففي أي جهة سيكون بناؤك في ذلك المقال الذي تريد . فقلت : في وجهة نظام العالم الانساني كله . إني أرى ولا شك في رأيي وأنا موقن به أن جميع النوع الانساني يجب أن يكون كهيئة هذا الجسم . وأرى أن هذا الانسان كله الآن جاهل كثير الجهل . كثير الغرور لأن من درس هذا الجسم حقّ دأسته ودرس العالم - قوله لم يشك أن هذا العالم

بالنسبة لهذا الانسان أشبه بهذه الأعضاء بالنسبة للروح والروح واحدة في الهيكل الانساني والأعضاء مطبوعة لها . فلتكن الانسانية واحدة تطيعها العوالم حولها . فقال : هذا قول حسن وتقدم له نظائر في التفسير . ولكن الاجال يعوزه التفصيل . فقلت : إن الانسان سائر الى ما أقوله . فقال : كيف ذلك ؟ فقلت : اسمع يا صاح : أضرب لك مثلاً رجلاً له أبناء كثيرون فبنى لهم قصراً منيفاً وأبدعه أيما ابداع . فجعل الأبنية فيه لا تبلغ إلا نحو اثنائات والباقي من الأرض جعل بركة عظيمة تتخلل تلك الأبنية التي تشبه في وضعها مدينة البندقية (فينيزيا) فإن البيوت يحيط بها ماء البحر والناس ينتقلون في السفن من منزل الى منزل ثم انه ملأ تلك البركة بالسماك وملا تلك الأبنية بأنواع النبات والحيوان والخبرات . فهو في أول الأمر جعلهم متفرقين في المنازل وجعل الماء يفصل بينهم . ثم أخذ يعلمهم كيف يضعون خشبات في الماء وكيف يركبونها فكان سكان أحد المنازل اذا ركب في البركة وقابل آخر من منزل آخر أخذوا يتحاربون وينقاتلون ثم أخذت كل جماعة تحارب الجماعات الأخرى واستمرت النضال جيلاً فجيلاً وذلك النضال كان هو السبب في بحث عجائب منازلهم وعجائب بحارهم فقرّر قرارهم آخر الأمر انهم يجهلون ما أراد بهم والدهم . ذلك ان أحدهم قال : انني وجدت في حديقتي التي في منزلي اتي لا أثال حظاً من ثمارها إلا اذا كانت الطيور تأكل الدود كأبي قردان وبعض الغرابان والعصافير المغنية وغير المغنية وهكذا مما تعدّ بالعشرات ، ووجدت أن البرص والسحلية وغيرها تأكل الحشرات في أرض الحقل ، ومن المدهش اني رأيت العنكبوت تنصب الشباك في الأشجار ولا تقتصر في صيدها على الذباب بل هي تصطاد حشرات كثيرة . فيا أيها الاخوة : ان أبانا ذوق عقل وذرحكمة ، انه لم يشأ أن يقول لنا الحقيقة فباعده فيما بيننا ظاهراً وأراد أن نعرف الحقيقة من أنفسنا ولن نعرفها إلا بدراستها ولا دراسة إلا بمقدمات والمقدمات هي العداوات التي كانت بيننا وهي السبب في تلعنا ، فالعداوة بيننا كانت أشبه بالجوع فالجوع غير مقصود لذاته بل هو مهمماز يسوقنا الى الغذاء لنعيش والعداوة مهمماز أعلى يسوقنا الى العلم لنخترع ما نشاء في المحاربة وفي نهاية العلم اهتدينا الى ما يأتي :

ان كل واحد منا يقتل أخاه ليأخذ ماله ولكنه في الوقت نفسه حافظ على عصافير وغراب وأبي قردان وكروان وبرص وسحلية وزقزاق بلدي وزقزاق شامي وعنكبوت في الحديقة وعلى جاموسة وبقرة وجل . لماذا هذا كله ؟ لأن كل هذه طعام لنا فيمكننا إبادتها بأكلها في أيام قلائل ولكن نحن بالاختبار أبقيناها لتساعدنا في حياتنا . ففيها ماتحورث به أرض الحدائق . ومنها مايجرّ لنا العجلات لأعمال الزرع في الحديقة . إذن بقاء هذه كلها وان كانت تحت تصرفنا خير لنا من إبادتها (وبعبارة أخرى) إن اللذة الوقتية بأكل هذه الحيوانات شرّ مستطير لأنها تحرمنا من ثمرات لاحد لها . إذن ننسذ اللذة العاجلة إذ احرمنا نفعا عظيماً مستقبلاً

هذه نظر ياتنا في منازلنا نحن هكذا نفعل ، فاذا كان بقاء هذه الدواب والطيور خيراً لنا (لأنها وان كانت تحتل الجوّ والأرض معنا وبعضها يأكل مما نزرع ويشاركنا بعض المشاركة في الأرزاق فبقاؤها خير لنا) أفلا يكون كل واحد منا اذا بقي خبيراً لاختوته وان شاركهم في المطعم والملبس كما يشارك كلاً منا دابته في أكل بعض الحبوب وفي سكنى بعض أجزاء المنزل ومضايقته ، مع ان نفع الدواب محدود ونفع الانسان أوسع وأعظم قدراً

فلما فكر اخوانه في كلامه قالوا صدقت والله ، وقال آخر منهم : « أيها الاخوان : إن أبانا كان حكماً فلم يفعل معنا ما فعلته الطيور تعيش جماعات من غير تعليم ولا تنقيف ، فهو فرّقنا ظاهراً ولم يشأ أن يجمعنا إلا بجهدنا واجتهادنا وأحاط منازلنا بالماء حتى يكون لنا ميدان تسابق وسهل لنا سبل التواصل والتعقل حتى اذا اجتمعنا بعد الافتراق كان اجتماعنا بعقل فترتفع في السعادة الى أعلى منزلة بخلاف الحيوان فانه يقف عند حدّ

واحد وعاشوا بعد ذلك وارتقوا ارتقاء لاحد له

هذا هو المثل الذي أردت أن أضربه لأهل الأرض الآن ، فالأبناء تمثيل لبني آدم ، والأب تمثيل لله عز وجل - والله المثل الأعلى - والمنازل هي انقارات والجزائر والبركة المحيطة بالمنازل هي البحر الملح المقسم الى أقسام كل قسم منها سموه محيطا فيقولون المحيط الاطلا انطبق والمحيط الهادى والمحيط الهندى وما أشبه ذلك والخشبات التى ركبها الأبناء هى السفن فى البحار والعداوات بينهم مثل للعداوات التى بين أهل الأرض ، وبقية القول معقول مفهوم

وبيت القصيد فى هذا المقام أن هذه الانسانية جاهلة غاية الجهل وهى اليوم آخذة فى رقيها ، ثم انظر الى ما قدمنا فى ﴿سورة يوسف﴾ من أن الطيور النافعة كان الاوروبيون يقتلون منها أباقردان وغيره . وهذه الطيور خلقت محافظة على الزرع تقتات من الدود فى الأرض فيسلم الزرع . فلما كان الاوروبيون فى بلادنا قوما لارادع ولا زاجر لامن ضمايرهم ولا من حكوماتهم عاثوا فى الأرض فسادا وقتلوا هذا الطير لتتحلى نسائهم بريشه فهلك الزرع . فلما كتبت مقالا فى إحدى المجلات العلمية وقرأه الوزراء صدر الأمر بابقاء الطيور البالغات نحو (٣٠) طيرا مذكورا كثيرا فى ﴿سورة يوسف﴾ كما قلنا وبقية فى سور أخرى

الله أكبر : اللهم إني أحمدك على العلم وأحمدك يارب على الحكمة ، أنت المنعم أنت المعلم ، يارب ان العلم واضح والعيون تشاهد صوره ولكن القلوب مقفلة

اللهم إنك تعلم أن الأمم كلها أشبه بالأمة المصرية ، والجهل بمنافع الانسان فى الأرض كجهل قوما بمنافع الطيور وظهور حكماء فى الأرض يعلمون الناس ثمرات بقاء الانسان على الأرض كظهور المقال الذى كتبتة فى فوائد الطيور آكاة الدود وتحريم الحرب والقتال بين الأمم اجتناء لفوائد الأمم كلها كتحرير حكومتنا المصرية صيد الطيور فانتفعنا بزرعنا ، وهل الانسان الحالى إلا كما قال الله تعالى - قتل الانسان ما أ كفره - هذا هو المثل الذى ضربته من حيث الطيور المصرية وتحريم صيدها استبقاء لمنفعتها ومضاهاة منفعة الانسان ببقائه بمنفعة الطيور ، فشهوة اغتيال أمة لأخرى شهوة وقتية وبقاء الأمة الضعيفة مفيد للأمة القوية كما أفادت الطيور والدواب الانسان وهى ضعيفة أمامه . إذن النظرية التى شاعت وزادت فى الكرة الأرضية فى القرن التاسع عشر من أن الأقوى يبيد الأضعف وجعلها عامة نظرية خاطئة ، فلو كان ما يقولون حقاً لم يعش حيوان تقدر على أكله مع ان الطيور فى منازلنا وحقولنا وكثير منها حرمنا أكله لمنفعتنا ، إذن هى نظرية جزئية جعلوها عامة ، وضلال هذا الانسان أكثره يرجع الى تعميم القضايا والحكم بالجزئى على الكلى - قتل الانسان ما أ كفره -

فقال صاحبي : لقد أجدت والله وأنصفت وأثبت بحكمة شريفة وآية منيفة وعلم تام ، ولكننى أتذكر انك قلت لى « ان الانسانية متجهة الى وجهة الاتحاد العام » . فهل تشرح لى ذلك ؟ وقلت : « ان أبناء الرجل الحكيم فى قصره الواسع أدركوا أن أباهم أراد إسعادهم من طريق نصبتهم هم لامن طريق المنحة المجانية » . فهل تشرح لى الأمرين معا فى شأن هذا الانسان ؟ فقلت : أما الأمر الثانى فهو واضح ألا ترى رعاك الله أن هذا الانسان أعطيت له الأرض وترك فيها وقيل لآدم وذريته - اهبطوا منها جيعا بعضكم لبعض عدو -

وباليت العداوة اقتضرت على أن تكون بين الانسان والانسان بل جعلت بينه وبين ماحوله . الأرض دائرة حول الشمس تقرب وتبعد وفيها مناطق باردة وأخرى حارة . فلاهو بقادر أن يسكن الباردة ولاهو بمستطيع أن يسكن الحارة . فالمناطق الباردة قل فيها النبات والحيوان . والمناطق الحارة اكتظت بالنبات فطرده الانسان منها والأمطار تهطل ليلا ونهارا قلن يقدر أن يوقد النار فيها فلا بد من أن يعيش فى الأقطار

المعتدلة . وهذه المعتدلة تكون فيها الغابات القوية وتكاد تمنعه أيضا من ولوجها . ولكن لما كانت تلك الأقطار ينتابها الصيف والشتاء والخريف والربيع . وكان الخريف والشتاء فصلين يجردان الشجر من قوته بعض التجريد قدر الانسان إذ ذاك أن يدخل في تلك الغابات وينتفع بما فيها . فهو اذا طرد من القطبين ومن خط الاستواء لم يعدم وسيلة بها يدخل في غابات الاقطار المعتدلة حيث تساعد أحوال الجوع على ولوجها واستعمارها والانتفاع بأشجارها

وما هذا أيها الذكي إلا مثال واحد من أمثلة أعمال هذا الانسان . فهو اذا دحرت غابات البرازيل حيث الشمس حارة في أمريكا وطردته غابات افريقيا الاستوائية فلم يستطع سبيلا لتذليلها أو السكى في أرضها القوة النبات ولا السياحة في داخلها إلا بمشقة فانه قدر أن يتمتع بنباتات المناطق المعتدلة وبغالب الطبيعة هناك . ثم ان الانسان لم يستطع ذلك إلا بالجموع الكثيرة منه . فأما الأفراد فلا

يا عجباً : هذا تفصيل جسم الانسان ، انه مفصل على مقتضى هذه الدنيا وهذه الدنيا كلها وجدناها مزرعة له ، ثم ألقينا عقل بعض النظريات العلمية لحافظ على كل حيوان نافع له فأبقاه لأنه نافع له في اجتناء الفوائد ، وهاهوذا يرى فوائد غزيرة في الغابات الافريقية والغابات في البرازيل ، يرى منافع ومنافع وعجائب تحت الأرض في القطبين ، فهناك الفحم وهناك (غزال الرنة) ومنافع كثيرة ، وكلها موصدة أمامه تحتاج الى عناء ونصب وعقول وقوى ، أفلا تكون تلك المنافع القطبية والتي في الغابات الاستوائية ومنافع الهواء والماء وضوء الشمس التي لاتزال كلها لغزا أمام النوع الانساني . أقول : أفلا تكون هذه كلها مضاهية لمنافع زرعنا وتكون الأمم التي يسمونها ضعيفة بمنزلة الطيور آكلات الدود لحفظ زرعنا . لا لا . والله ان الأمم الأرضية أعظم نفعا وذخرا في استخراج ثمرات العوالم المحيطة بنا من أي قردان في حفظ زرعنا ومن العنكبوت في حداثتنا المبيد لبعض حشراتنا ، فالانسان الآن جاهل أشد الجاهل بهذه النظرية العلمية ، وعلى كل من اطلع عليها وكان من أهل النبل والشرف والجاه والحكمة أن يذيع العلم في أمم الاسلام أولا ثم يث فيهم روح الجدية والنشاط واكتناء العوالم العلوية والسفلية ، ثم إن المسلمين اذا أشربت قلوبهم الحكمة يكونون هم السبب في ارتقاء أهل الأرض لأن أهل أوروبا وأمريكا ينظرون الى الظواهر فيجعلون لون السواد ولون الحجر في أبناء السودان ببلادهم وأبناء أمريكا الأصليين من أسباب العداوة ، فلا يطيعون أن يروهم في أماكنهم العامة ، وهكذا أهل (كالكتا) فهم يطردون السود من بعض مطاعمهم ، وبعض تلك الأمم تنقض على الأمم الضعيفة لتأكل خيرها وتذللها كما يفعل الفرنسيون مع أهل مراكش والجزائر وتونس وكما تفعل ايطاليا مع أهل طرابلس وكما تفعل انكارترا مع فلسطين ومصر والهند . وهاهي ذه اليوم قد سجنت غاندى الزعيم الهندي الذي قام بالحركة الاصلاحية هناك وطالب بعدم اسراف المال في الملابس الأجنبية وعدم شرب الخمر القاتل للانسانية . إذن هذه الأمم كلها جاهلة قدر الانسانية فهي لاتصلح لرقبها وقيادتها . إن الأسد لا يصلح لقيادة الانسان وانما يصلح لأكله ونحن نريد أن يحكم الانسان ويعلمه انسان مثله لا حيوان !

الأرض قد بخلت بما لديها فلم تفرط فيما عندها من غابات خط الاستواء ونحوها ولا من المدخرات في القطبين ونحوهما إلا اذا كان أبناؤها جميعا يدا واحدة في استخراج ذلك . وهؤلاء لقلة تبصرهم يتركون الحقائق السكينة . ويصدتهم عن هذا النعيم المنتظر للانسانية كلها مظاهر الألوان واختلاف الأديان والأقطار واللغات إذن الانسان جاهل كل الجاهل . فليتعلم المسلمون وليعلموا الانسانية . أناموقن أن هذا القول سيخوض البصار ويقرؤه أهل الأقطار وتنقله السفن في البحار والطائرات والبالونات التي يركبها الناس في الجو وتنشر الفكرة ويم الاتحاد وتخرج الانسانية من جاهليتها

إن الإنسانية اليوم استعنت لفهم هذا القول . وهذه الطيارات تطير حول الكرة كلها والسياحون يطوفون حولها في السفن والقطرات البرية والعلماء يتسابقون الى الكتابات في السلام العام كما كتب أنا الآن إذن اتحد على هذه الفكرة سير السفن في البحار حول الكرة الأرضية وطيران الطيارات حولها أيضا وكتابة العلماء في الاتحاد العام . وهذا نوبل مخترع الديناميت المشهور قد أعد جائزة لمن ينفع السلام العام . فإقول اليوم جاء أوانه . فليدل المسلمون دلوهم في الدلاء . وليقوموا أنفسهم أولا ثم ليقوموا الإنسانية ثانيا والله هو الولي الحميد

فقال صاحبي : نعم ما فصلت وحسن ما دبحه براعك . ثم أذكرك انك تقول : « إن غابات خط الاستواء وغابات بلاد البرازيل لا يمكن اجتيازها لصعوبتها » وذكرت أمورا لا يعرفها إلا القليل . فأحب أن تذكرها لنا من مصدر علمي واسع النطاق يشرح هذه المواضع كلها وما شابهها شرحا واسعا كما وعدت بذلك في أول المقال فقلت اسمع ماجاء في كتاب « الجغرافيا التجارية الاقتصادية » تحت العنوان التالي وهذا نصه :

﴿ الانسان وتوزيعه على المعمور ﴾ (تكاثف السكان)

شروط صلاحية القطر للسكنى ، مغالبة
الانسان طبائع الاقطار التي يسكنها . أسباب
قلة سكنى الغابات الاستوائية . مقارنتها في ذلك
بالغابات المعتدلة . التغيرات الفصلية تعد القطر
للسكنى ، وكذا التغيرات الدهرية ، الحرف
وتأثيرها في عدد السكان

انظر الى خريطة العالم حيث توزيع السكان على المعمور ترى الانسان منشورا في متفرق النواحي من غير مساواة في العدد فهذه الصين والهند وما جاورهما غاصة كلها بالسكان وهناك جهات أخرى من العالم الفسيح لا يسكنها إلا النفر القليل حتى في الولايات المتحدة وهي جمهورية واحدة ترى الانسان متجمعا في جهة الشرق ثم برق شيئا فشيئا جهة الغرب وفي جنوب أمريكا تراه كذلك محمدا في جهات منتثرا في أخرى وهاجرا شتى وكذلك في أفريقيا وأستراليا والخلصة أنك بالتأمل في الخريطة لا ترى الانسان موزعا بانتظام في أنحاء الأرض بل ترى منها ما اختصه بسكناء فتزاحم عليه وربما كان ذلك لعهد قديم مثل مصر ومنها ما نضب عدده فيه مثل معظم أفريقيا فلماذا كان بعض الجهات أصلح لمقام الانسان من البعض الآخر ؟ هذا ما يجيب عنه الانسان محتاج الى هواء معتدل فالرطب منه جدا والجاف جدا كلاهما لا يطيب له ومحتاج أيضا الى مقدار معتدل من الحرارة فلأصقاع الباردة جدا والحارة جدا تضربه ولا تصلح له ومثل ذلك النبات والحيوان ولنا نرى أن الجهات النادرة الحيوان والنبات قل ان تصلح لمقام الانسان في أواسط القارة المنجمدة وفي أواسط الأرض الخضراء حيث توجد فلات الجليد قل أن تدب دابة فلا يقضى للانسان عيشة فيها كذلك في قلب بعض القارات حيث ترتفع درجات الحرارة وحيث يجف الهواء جدا فينشأ عنه الصحارى القاحلة لا ينتظر للانسان عيشة وكذلك سفوح البراكين الحية وأماها من سطح البسيطة التي لم يستعمرها الحيوان والنبات سبق خلوا من الانسان مغلطة من قبضة يده إلا إذا تغيرت أحوالها وتبدلت أطواره

ومن المعلوم أن لكل صقع مجموعة خاصة من حيوانات ونباتات فكما ساد الانسان في صقع وتكاثر فيه كان ذلك على حساب تلك الحيوانات والنباتات الأصلية يزيجها ويحتل مكانها . عمر الانسان البرارى الاسكتلندية

مثلا منذ أقل من قرن فاذا تركت قلال جبالها جانبا ونزلات الى حيث يسكن منها وجدت « الجبلنج » قد فنى وليس منه إلا رقايع صغيرة فى المراعى ورأيت حقولا من الشوفان والبطاطا واللفت والسكر ومثل ذلك وماهى الاحاصلات تافهة فى جانب مايزرعه الفلاح الانجليزى فى الشرق . ولكنها مع ذلك تمثل المطلوب من أن الانسان يكتسح الاجناس الطبيعية السائدة بالعصع الذى يستعمره ويضع محلها نباتاته هى التى يختارها غذاء وكساء . وهكذا كلما نفشى فى صقع عمدا الى ذلك العمل على نظام ومنوال أوسع . تطوف بانجلترا وتسير فى فرنسا فترى الأفدنة الشاسعة من الأراضى الزراعية المكدومة تذب أنوع الحاصلات المختلفة وهذه هى نفس الأراضى التى كانت فى وقت يحسبه الطبيعى غير بعيد تكسثه كله الغابات الكثيفة وتشوهها المستنقعات المؤذية قد طهرتها يد الانسان بالجد والعمل ومثل ذلك وقع على الحيوانات فاذا ما سرننا فى الأراضى المنحطة من انجلترا واسكتلنده وجدنا من الأنعام والأغنام والخنازير والدجاج والأوز والبط خلقا كثيرا تملأ الضياع هناك وكل هذه الحيوانات المنزلية قد استنفرت الى الروابى ونجاد « ديفون » و « كورنويل » غزلا ناكنت تجول فى الأحراج القديمة فى بريطانيا . ومن أجلها أيضا استؤصلت شافة الذئاب العاتية التى كانت تعيث فى الأرض فسادا وتعيش على تلك الحيوانات البرية وقصارى القول أن الانسان لا يمكنه أن يعيش فى هذه الدنيا إلا بقلب طبيعتها واختصاص نفسه فى عمله الذى ينزل فيه ببعض الحيوانات دون الأخرى وبمطاردة التى لا تنفعه لتفسيح مجالا لما يعوزه ويحتاج اليه

فلما أن الانسان تتعذر عليه الحياة فى الجهات التى يسوء فيها نمو النبات وصحة الحيوان ولكن قد تكون غزارة النبات من جهة أخرى سببا فى حرمان الانسان من سكنى الجهات القسيحة فاذا نظرت الى خريطة سكان العالم وجدت جزءا عظيما من البرازيل حيث الشمس حارة وضاحية والمطر وافر غزير يطيب فيه النبات ويزهو ويتكاثر ويعاى فيكون الأحراج الاستوائية ولكنك تبحت عن الانسان فى وسط هذا العالم فلا تكاد تجده إلا قليلا ومثل هذا فى غابات أفريقية الاستوائية فليست قلة الحياة النباتية هى التى تعرقل مساعى الانسان فى استعمار مثل هذه الجهات بل غزارتها ووفرته الزائدة عن حد الطاقة اذا الغابات الاستوائية هى ما يسميه النباتى « بالتآلف المطبق » أى المكان الذى يكون فضال الحياة النباتية فيه شديدا قاسيا لا يتسنى لأجناس جديدة أن تدخل فيه

نعم ان العراك والنضال النباتى كذلك شديد فى غابات المنطقة المعتدلة ولكنه تصحبه فى كل خريف وشتاء « هدنة من الله » اذ تضعف قوى الأشجار ويجمد ماء حياتها فى عروقها فيقوى عليها ساعد الانسان فتكون له الغلبة آخرها حتى اذا جاء الربيع الذى تتماثل فيه الأشجار الى القوة والفتوة لم تغلبه ولم تستعص عليه اذ كان قد ذلها من قبل واجتث منها وملك ناصيتها ولا يخفى أن فى الغابات المعتدلة تكون المقاومة بين الأشجار الكبار أما النبات على أديم الأرض فليست له مقاومة تذكر خلافا للغابات الاستوائية اذ التفت الساق بالساق بزاحفات من النبات متعددة قد تكسدها منها على أديم الأرض عالم كثير حتى قال أحد السياح أن فى غابة غانة الجديدة الاستوائية اذا سار جاعة فيها ثلاثة أميال فى اليوم عد ذلك أمرا عظيما جدا لأنهم فى الغالب لا يستطيعون قطع نصف هذه المسافة فى اليوم وقال أيضا انه لا يوجد من حاصلات الغابة ما يمكن أن يقتات به الانسان فاذا نقد ما كفه تهدده الجوع بالقتل

النضال فى الغابة الاستوائية شديد جدا والظروف الطبيعية هناك توافق حالات النبات لدرجة يتعذر معها وجود حيز فيها غير مشغول فتفرع الأشجار وتسبق الى عنان السماء تطاول الواحدة جارتها . وكلها تناطحنا وحجبت الضياء عن الأرض تحتها تسلفت عليهما النباتات الزاحفة طلبا للعلو حيث الهواء والضياء . وقد لا تصل جذورها الى التربة الأرضية بل تجدد غذاءها الكافى بين الأوراق البالية . ومن الرطوبة الموجودة فى هواء

هذا وعلى ضفاف الأمازون الفائرة حيث يطلب الباحثون المطاط ليرسلوه الى أوروبا لتتخذ منه اطارات السيارات وغيرها من منافع المدنية يتكبد رواده الشقاء والعناء من تزامم الشجر اذ لا يرجون التسيار والتنقل إلا بقرب الضفاف حيث تنبعثر الأشجار ويقل عددها نوعا وفي غابات فرموزا واليابان والصين يطلب الرواد أشجار الكافور ليصنعوه بخورا أو كرات لامة ولكن جهدهم هذا يبذلونه أيضا بشق الأنفس لأن أشجار الكافور توجد في الغابة متفرقة الواحدة عن الأخرى فكلما جمعوا شيئا من بقعة ارتحلوا طويلا الى غيرها وكفى في هذا من عناء وعذاب

فما أكبر الفارق بين هذه الغابات وبين أمثالها في المنطقة المعتدلة حيث توجد في بعض جهاتها الرطبة من البحر الأبيض المتوسط مساحات ضخمة كلها من شجر أبي فررة والجوز واللوز والصنوبر والخرنوب وتوجد مساحات ضخمة من الزان والبلوط ويسميا كلها النباتيون « الأجناس المتجمعة » لأنه اذا وجدت زانة وجد من نوعها الكثير فتتسنى تربية الخنازير على مقربة يطعمونها من حبه . ومثل هذه الأجناس المتجمعة من الاشجار نادرة الوجود في الغابات الاستوائية . ولذلك لابد من بذل الجهد في طول الغابة وعرضها للبحث عن النبات الصالح

كذلك تكثر في الغابات الاستوائية الحيوانات ذوات الثدي ولكن أفراد كل نوع منها قليلة فلا يوجد فيها مثلا ما علمناه من وفرة عدد الجاموس البري ببراري أمريكا ولا الغزلان بسهولة أفريقية ولا الحيوانات الأخرى بسهولة آسيا قبل ان تصل اليها قدم الانسان وما يذكر من الأسباب هنا هو ما سبق ذكره عن المطاط والكافور مقارنة بالزان والبلوط ويوجد بغابات البرازيل أنواع كثيرة من القرود ولكن عدد كل نوع منها قليل جدا ويوجد الحيوان البطيء المسمى بالسكلان ولكنه نادر جدا ويوجد بها حيوانات أخرى أكلة اللحوم تنسلق الأشجار ولكنها قليلة أيضا وحالها هذا مصداق ما سبق قوله

والمقصود من هذا البحث أنه اذا قلت أنواع النبات والحيوان التي من جنس واحد عز سببها الاستعمار وصعب الاستثمار وقلت السكنى وزد على ذلك أنه يوجد بالغابات الاستوائية الحيات الرقطاء والحشرات السامة ولكنها مع ذلك أقل خطرا من البعوض الذي أغلبه مصاص الدماء ويحمل من فريسة الى أخرى جراثيم الأمراض مثل الملاريا ومرض النعاس ومنه ما يبيض تحت الجلد فيحدث القرح الأليمة . ومن الحشرات ما يعض أو ينحز والكثير من الهوام والبعوض يتأثر من التعرض لضوء الشمس في بعض أدوار حياته فيموت فإذا أمكن للانسان أن يظهر الغابة منه زال الخطر وتسفت المنفعة ولكنه في الغابات الاستوائية الممطرة يحول الجو بينه وبين أعظم مساعد له على التطهير وهو « النار » فإذا كان ثمة صقع يتناوبه الجفاف والمطر (مثل غابات غرب أوروبا) أمكن للانسان انتهاز الموسم الأول فيشعل الحشائش الطوال ويبيد جيشا كبيرا من النبات الملتف فيكون الرماد الناعم تربة خصيبة تكون مهادا للبذور النبات الصالح الذي متى رعاه ونفقده أتى بالخير العميم . ولكن اذا كان الجو دائما دائبا على الأمطار تعذر أشعال النار وغلت يد الموقد

ومن ذلك نرى أن الأصقاع التي يسكنها الانسان يشترط أن تكون عرضة لتغيرات طبيعية صالحة لنمو النبات غالبية مرة ومغلوقة أخرى سواء أ كان التغير في درجة الحرارة كما في مناطق خطوط العرض المرتفعة في المعتدلة الباردة أم في درجة الرطوبة كما في الهند والصين بسبب التغيرات الموسمية أوفيها معا كما في بعض جهات الصين أيضا أعنى أن الممالك التي يكثر فيها الانسان هي التي يروج فيها النبات في مواسم مخصوصة بسبب تغيرات الفصول وعلى ذلك فالأصقاع شديدة الرطوبة غير صالحة لأن موسم الرياح فيها قصير جدا أو منعدم بالمرة اذا كانت متطرفة في شدتها . وكذلك بعض الاصقاع الاستوائية حيث درجة الحرارة مرتفعة دائما والمطر

و يدخل في معنى الفصول هذه تلك التغيرات الطبيعية الموسمية التي كانت سببا في إخصاب أرض مصر وإعدادها للسكنى من زمان قديم وهى جزء من الصحراء فدرجة الحرارة فيها دائما مرتفعة ارتفاعا نسبيا والمطري كاد يفقد فيها مرة واحدة فتغير الفصول غير مشاهد فيها بالمعنى المراد اذا قارناها « بنيوفوندا لاند » مثلا حيث الفرق بين درجة الحرارة في الصيف والشتاء قد يصل الى ٥٠ درجة ف . من هذه الأسباب كان مورد الحياة في مصر هو نيلها لاغير يعلو ويهبط سنويا في مواسم معينة فاذا علا فاض بالماء الذى فيه حياة أهلها وحاصلاتهم واذا هبط حل الجذب الذى فيه موت كثير من أعداء الانسان من العشب غير الصالح وبعض الهوام وفى أثناء هذه الفترة القصيرة ينسئله أن يجمع حاصلاته وأن يغلب على الماء فيحمله بالقنوات أنى شاء فيتزايد الزرع والحاصل ويموت جيش النبات الضار

والخلاصة أن نباتات أى صقع وحيواناته ماهى إلا مجموعات مرتبطة ملائم بعضها لبعض قد هياها الله لحالة الصقع من أزمان فكل شئ يضطرب بسببه ولو قليلا هذا التوازن الدقيق يصبح فرصة ساحة لدخول الانسان وتحصل الاضطرابات هذه فى كثير من أنحاء الأرض بسبب دورة الأرض وتغيرات الفصول الناتجة عن تلك الدورة وكلما حصلت هذه التغيرات على نظام أوسع فى صقع ما وسهل على الانسان التدخل كان ذلك الصقع ساحة الوغى التي يحول فيها الانسان ويصول بخيله ورجله ويصل فيها الى أوج المدنية

وقد يكون مع التغير الفصلى تغير دهرى يقع فى أثناء الأجيال والدهور فيؤثر فى نتيجة الموقعة القائمة بين الطبيعة والانسان من ذلك انه يظهر فى فلسطين واليونان وفى معظم أواسط آسيا مثلا أن قد تقلب دهور وعصور تغيرت فيها مع البطء الشديد مقادير الأمطار الساقطة هناك فخل هذا التغير بين الانسان وبين كثير من المنافع التي كانت فى حظوته قديما وأمكننت الطبيعة البرية من أن تسترد كثيرا من أراضيها المفقودة كذلك عملت تغيرات أخرى من قرون لاعدد لها على جفاف تربة أوروبا . وفى أواخر عهد الجليد تحسنت حال المصارف فى جزء عظيم من تلك القارة بسبب تأثير الجليد فى سطح الأرض وإيجاده البحيرات ثم انتظمت مجارى الأنهار وفاضت بالظمى فانسلحت الأراضي حتى قال أحد الجغرافيين ان مثل هذه التغيرات الدهرية كانت العامل الأعظم فى التقدمات الباهرة التي حدثت فى القرون الأخيرة بأوروبا وأمريكا إذا كنتسح عهد الجليد نوع الانسان القديم كما كنتسح معه حيوانات أوروبا وقد جعل الأرض بما أحدث من التغيرات فيها صالحة لسكنى الانسان المتمدين

ويقولون ان المدنيات القديمة التي يقرؤها على الحفائر وغيرها فى مثل أواسط آسيا وبلاد العراق وفى مثل فلسطين وحتى فى جهات أمريكا الوسطى كلها تثبت أن الجوف فى تلك الأيام الحالية كان غيره الآن . ولولا ذلك مازرع فيها القمح ولا غيره قديما ولا عاش بها انسان فى ذلك الزمان وفى هذا المعنى يقولون أن جوف أوروبا الآن وفلسطين وآسيا الصغرى الخ . قد قلت فيه درجة الرطوبة عن قبل أمطارا وثلوجا

وينسبون التغيرات الدهرية الى إرسال الشمس شعاعها المتغير كثيرا أو قليلا على حسب طبيعة جوها التي هى فيه فاذا اشتد شعاعها كثرت عليها السفح . ويكون ذلك رمزا على كثرة الحرارة التي تعترى سطح الأرض من جراء ذلك ثم تكون هذه سببا فى تسخين الهواء واحداث زواج الأمطار والثلج (أى فى رفع درجة الرطوبة) فاذا شعت الأرض حرارتها جميعها صار سطحها باردا جدا وهذا لتعليل برودته ورطوبته قديما وما تعرف به التغيرات الجوية الدهرية أعمار الأشجار القديمة فى غرب أمريكا مثلا توجد أشجار عمر الواحدة منها ألفا سنة أو أكثر وعمر الشجرة يعرف من دراسة الحلقات الموجودة على خشبها . ومن هذه الحلقات يستدلون على مقادير الرطوبة فى تلك العهود وتعرف التغيرات الدهرية كذلك من دراسة مستوى

البحيرات الملحة القديمة في مثل غرب الولايات المتحدة ولخص طبقات الصود يوم والكلورين هناك إذ يرى لدى الشاطئ، خروز الطبقات فالعالي منها يثبت امتلاء البحيرات الى حده ويدل على كثرة الرطوبة في وقته والواطيء يثبت انحسار مستوى البحيرة الى حده ويدل على قلة الرطوبة وهكذا

نرى من كل ماتقدم أنه لا نبات برى ولا حيوان وحشيا قد أظهر من القدرة على الانتشار في العالم مثل ما أظهر الانسان وأنه لا نبات ولا حيوان قد تناسل مثل تناسله فالخنزير على البراري سالفة الذكر قد يكثر حتى يخيل الى الناظر اذا ما وجد هناك أن العالم كله خنزير ولكنه اذا ترك هذه البراري ونزل الى الوهاد أو الى الوديان البسامية لم يجد للخنزير فيها أثرا مرة واحدة . سر على جبال الألب بين أشجار التنوب وغابات الصنوبر فيخيل اليك أن العالم كله تنوب وصنوبر . ولكنك اذا غادرت موقعهما من الجبال مشيت الأيام والليالي دون أن تعثر لهما على أثر . تكلمنا على الجاموس الأمريكي والرشا الأفريقي وذكرناهما أمثلة من وفرة النتاج بجهة من الجهات وهما مع ذلك لم يشغلا من سطح الأرض إلا جزءا صغيرا بالنسبة له

انبت الانسان في جهات الأرض وعمرها وهو وان اضطر الى الفرار من غابات الاستواء وهجير الصحراء وبوادي الأقطاب ومن التجاد والوهاد القاحلة فهو مع ذلك فائز منصور حيث لم يحظ غيره من النبات والحيوان بمثل ظفروه وانتصاره سواء عنده جوانب الألب الشاخنة وهضاب تبت الباردة والوديان البسامية والسهول الخصبة فقد عمرها كلها وانبت فيها مصطحبا معه أينما حل قطعانه المنزلية ونباتاته الزراعية قد ذللها جميعها فدانت له وتبعته الى أقصى الأرض حيث لم توجد أجناسها من قبل

هذا والحرف العصرية التي يجتد العالم فيها ويلج الآن وغدا لها تأثير عظيم جدا في السكان على المعمور فالأقطار « الزراعية » تجتذب اليها السكان ويزيد عددهم فيها كلما أخصبت الأرض وأبنت محصولاتها فتفيض عليهم بالأرزاق والأقوات في مثل الهند والصين وغيرهما والأقطار « العشبية » التي تقوم فيها حرفة الرعي يقل عدد سكانها عن الأخرى الزراعية كما يلاحظ ذلك من الخريطة الخاصة ويرجع السبب في ذلك الى عدم سخاء الطبيعة بالقوت الكافي للكثير من السكان

وأما أكثر الحرف اجتذابا للسكان فهما حرفة « الصناعة » وحرفة « التعدين » لما تتطلبه كل من كثرة الأيدي العاملة على استثمار المناطق الخاصة بهما ولما ينجم عن منازلة الحرف الصناعية الآلية من عظيم الأجر وكبير الربح ولذا ترى المناطق الصناعية من إنجلترا وألمانيا وبلجيكا والروسيا أغص جهات هذه الممالك سكنا وأكثرها ثراء ويسارا وبدهي أن المملكة التي يتجمع فيها عدد من الحرف يتجمع فيها السكان بمقادير عظيمة تمثل ما وصلت اليه هذه الحرف من الرقي كما هو الواقع في شرق الولايات المتحدة ويحسن هنا مطابقة خريطة حرف العالم على خريطة تكاثف السكان . انتهى ما أردته من كتاب الجغرافيا التجارية الاقتصادية

فلما سمع صاحبي ذلك قال : لقد وفيت بالمراد . وأثبت بالعجب العجيب . فقلت الحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم السبت ٢٣ أغسطس سنة ١٩٣٠

﴿ أسرار العلوم المخبوءة في هذه السورة ﴾

جاء صديقي العالم الذي جرت عادته أن يناقشني في هذا التفسير . فقال : لقد فسرت الرحة في البسملة وطبقته على ماني السورة تطبيقا تاما ، ولكن بقي في النفس شيء ، فهل تأذن لي أن أسألك استيفاء لهذا المقام وايضا للآنام . فقلت : نعم . فقال : إن في السورة ﴿ أولا ﴾ الذنوب ومغفرتها ﴿ ثانيا ﴾ الكفر والايماث ﴿ ثالثا ﴾ محاورة المؤمن من آل فرعون معهم ﴿ رابعا ﴾ حاجة الكفار في النار من الضعفاء والمستكبرين ﴿ خامسا ﴾ ما يقوله بعض المفسرين في قوله تعالى - خلق السموات والأرض أكبر من خلق

الناس - الخ إذ جعلوا ذلك إشارة الى الدجال ، ألم تر الى ما جاء في كتاب « تنوير المقباس » من تفسير ابن عباس المؤلف في القرن التاسع الهجري إذ جاء فيه : - إن الذين يجادلون في آيات الله - هم اليهود وكانوا أيضا يجادلون مع سيدنا محمد ﷺ بصفة الدجال ورجوع الملك اليهم عند خروجه وقوله - ان في صدورهم الاكبر - أى عن الحق - ما هم به بالغيه - أى يبالغى ما في صدورهم من الكبر وما يريدون من رجوع الملك اليهم عند خروج الدجال - فاستعد بالله - يا محمد من فتنه الدجال - انه هو السميع - لمقالة اليهود - البصير - بهم وبأعمالهم وبقننه الدجال وبخروجه ، نخلق السموات والأرض أكبر أى أعظم من خلق الناس أى من خلق الدجال - ولكن أكثر الناس - يعنى اليهود - لا يعلمون - فتنه الدجال هذا ما رأيته في ذلك ، وابن عباس رضى الله عنه شرفه عظيم وعلمه نبوى وقد دعا له رسول الله ﷺ هذه هي الفصول الخمسة التى أريد منك شرحها وان كان في ذلك مشقة عليك ، ولكن أنت محب للعلم وحب لرقى العقول ، وحينئذ يقرؤه المسلمون بعدنا ، فالفائدة عامة فأرجو أن تحدثنى كيف يكون الله هو الرحمن الرحيم والناس :

(١ و ٢) يذنبون أو يكفرون

(٣ و ٤) وكيف عصى آل فرعون من آمن منهم ، وأضلّ المستكبرون الضعفاء ، فأين الرحمة ؟ (٥) وكيف يخرج الدجال فيضلّ الأمم ونحن نستعبد بالله منه كل حين والله قادر أن يرفع هذه عن الأمم . ولقد تبين لى أن تفسير ابن عباس مؤيد بما ندعوه به في كل صلاة إذ نقول « وأعوذ بك من فتنه المسيح الدجال » فهذه مشا كل نحن في حاجة الى حلها وطرق يعوزها التعبد حتى نكون مذلة لتفسير فيها على صراط مستقيم

فقلت : لقد تقدم في تفسير البسملة ما يغنى عن الإجابة الآن . انظر رءك الله الى ما جاء في تفسير البسملة في أول سورة الروم وأول سورة لقمان . فقد ذكرت هناك كيف كانت الآلام التى تعرض لأبدان الحيوان خلقت لمنفعته هو . وكيف كان الضرب والكسر والصدم والجرح والبرد والأمراض والأسقام وكل ما يضرّ الجسد ويفسده ، كل ذلك انما جعل منذرا لنا لنصلح ما فسد بسبب الأحوال المادية في هذه الدنيا وهكذا ذكرت لك هناك أن قتال الفرس والروم والمسلمين مقيس على أحوالنا المرضية . فهذه أمراض اجتماعية تنذرنا باصلاح ما فسد من مجتمعنا كما ان الجوع وآلام المرض تحثنا على الطعام والدواء . فالآلام رحمة . إذن الرحمة لها جيشان : جيش الآلام . وجيش اللذات . هما جيشان للرحمة . وإذا كانت الرحمة موجهة فقط الى لذاتنا فانها تنقلب نقمة . فاجتماع الآلام واللذات إنعام للرحمة . فاللذات نصف الرحمة والآلام النصف الآخر هذا ملخص ما تقدم

فقال صاحبي : هذا حسن ولكن هذا الكلام إجمالى عام فان في هذه السورة أمورا أخرى . فيها مؤمن آل فرعون . ولماذا يقص الله ذلك القصص علينا ؟ وأى مناسبة بين أمة الاسلام الآن وآل فرعون ؟ ولماذا يقول لهم - فن ينصرونا من بأس الله ان جاءنا - وأى بأس أنذرهم به ؟ وهل نزل بهم هذا البأس وفي أى زمن ؟ ولماذا ؟ كل ذلك أريد أن أعرفه حتى ينتفع المسلمون بحديث هذا المؤمن في زماننا . إن حديث مؤمن آل فرعون ان يتم الانتفاع به لنا في أمراضنا الاجتماعية إلا بمعرفة ما يرمى اليه . وماذا كانت نتائجه ؟ ثم لماذا ذكر الله حاجة المتكبرين والضعفاء بعد محاجة مؤمن آل فرعون ؟ وما المناسبة بينهما ؟ ثم لماذا نرى ابن عباس يفهم هنا مسألة الدجال . وما الملك الذى يتغيه اليهود ؟ وهل هم يحاولون ذلك الآن ثم لماذا نرى المسلم في كل صلاة يستعبد من فتنه المسيح الدجال . كل هذا أمور لا تزال غامضة والمسلمون يصلون وأكثرهم غافلون . والصلاة بلا عقل قليلة الثرات . وإذا لم يفهم المسلمون أدعيتهم في الصلاة فما الذى استفادوه

إذن ! إن الحياة المبنية على الحفظ بلا عقل حياة أشبه بحياة الجباد . وتكرار الصلوات بلا عقل قد ذمها الله فقال - فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون - وقال في ذم من يقرؤن ولا يعقلون - أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها - وقال في اليهود إذ كانوا لا يعتلون التوراة - مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الجمار يحمل أسفارا بنس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله - الخ

إن بقاء المسلمين على حالهم يصلون ولا يعقلون الصلاة ويقرؤن ولا يعقلون القرآن أو وقعهم في الغرور كابرًا عن كابر جيلًا بجيلًا وكل جيل ينزل عما قبله حتى أصبح المسلمون اليوم أجهل الأمم التي على هذه الأرض وقد تركوا مواهبهم ، فإذا لم توضح هذا المقام غير مكتف بما قدمت في تفسير البسملة فإن الحال تستمر على ما هي عليه وكل جيل يكون أقل مما قبله وهذا لا يرضيك . فقلت : إني بحمد الله سأوضح المقام على قدر طاقتي وأبينه بما أقدر عليه والله المستعان فأقول :

إن هذه الأسئلة الخمسة التي تريد الإجابة عليها ترجع كلها إلى أمر واحد ومتى عرفناه زال الاشكال . فقال : وما هو ؟ فقلت : هو ما تقدم في ﴿ سورة الزمر ﴾ في أولها عند قوله تعالى - يكثور الليل على النهار ويكثور النهار على الليل - . ألم أقل لك هناك أن الجنين في الرحم يحيط به ظلمات ثلاث : المشيمة والرحم وبطن أمه . قال بلى . قلت : أليست هذه مع كونها ظلمات جعلت له رجاء . قال بلى . قلت : ألم نقل هناك أن علماء الفلك يقولون إن الغبار في الجو ودخانه يصنعان فيه (١٦) طبقة حاجبة للشمس عن عيوننا رجة بنا فيكون ضوءها الواصل لنا صباحاً أقل من الضوء الواصل وقت الظهيرة (١٣٥٠) مرة . قال بلى قد تقدم ذلك . قلت : ومعلوم أن الغبار والدخان ضاران بأجسامنا يدخلان رئائنا فتضعف أجسامنا وتقصّر أعمارنا . قال بلى . قلت : ولكن هذا الضار باجتماعه مع ضوء الشمس صار نعمة . قال نعم . قلت : ألم أقل هناك أن وسوسة الشياطين للناس نقمة ولكنها في الحقيقة قد جعلت نعمة لهم لأنهم إذا أعطوا العلم دفعة واحدة لا يطيقونه . قال بلى ولكن هذا المقام يحتاج إلى الإيضاح هنا . فقلت نعم أوضحه فأقول : أنا لا أخرج عن هذا المثل وهو مثل الشمس ، انظر ، إذا أشرقت الشمس على الأرض فهل تستوى الأرض والماء في قبول حرارتها ؟ قال : أنا أرجوك أن تسمح لي بفهم ما تقول . فقلت له : أيهما أسرع قبولا للحرارة الماء أم الأرض ؟ وأيهما أبطأ ، وأيهما أسرع إخراجا لحرارته التي كسبها من الشمس ؟ وأيهما أبطأ في ذلك . قال الأرض أسرع قبولا للحرارة وأسرع تملصا منها والماء على العكس من ذلك . فقلت : هل تستنتج من هذا شيئا . قال : لست مستعدا لذلك الاستنتاج في هذا المقام . فقلت ههنا قاعدة ، كل ما كان أتمّ صنعا كان أدوم وأحسن فائدة ، وكل ما كان أنقص صنعا كان أقلّ دواما وأقلّ فائدة ، فهذه الأرض لما أسرع في قبول الحرارة أسرع في التملص منها ، وهذا الماء لما أبطأ في قبول الحرارة أبطأ في التملص منها . فالغنى الذي كسب المال بجده وعرق جبينه يكون غناه أتمّ وأدوم والذي نال المال بلا جدّ يكون له مبذرا لأنه لا يعرف قيمته . انظر إلى القرع وإلى النخل فذاك لا يثمر إلا بعد سنين وهذا يطول ويثمر حالا ولكنه سريع الزوال وانظر إلى صغار الحيوان كلما كان أسرع نمواً كان أقصر أجلا . ألا ترى أن الكلب يتم نموه في سنة ونصف ولا يزيد غالبا عن (١٢) سنة كما تقدم . وأن الحصان لا يتم نموه إلا بعد ثلاث سنين ويعيش (٢٤) سنة وهكذا وكل هذا تقدم وإنما نضربه هنا أمثالا وهذا فعل الله والفعل جليل ولا يعرف جماله إلا بالعلم والحكمة فأما المعرفة القولية فلا فائدة فيها . وهذا الطرم المبنى في بلادنا المصرية لما كان أتمّ بناءً كان ثباته ودوامه أتم . وهذه قاعدة مطردة . قال قد فهمتها . فقلت : وقبل أن أرتب عليها الإجابة على ما طلبت أقول إن هذا الاختلاف في الأحوال قد جعل لغايات شريفة . ألا ترى إلى ما تقدم في سور كثيرة أقربها ما جاء في ﴿ سورة الأحزاب ﴾ عند آية - يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا - وداعيا إلى الله بأذنه وسراجا منيرا - فقد وازنت

هناك ما بين قول النابغة للنعمان ابن المنذر * كأنك شمس والملوك كواكب * وما بين هذه الآية وأن فضائل النعمان لانسبة بينها وبين الشمس وأن ثمرات فضائل النبوة تشبه منافع الشمس ، وقد ذكرنا هناك الرياح والسحاب ، وكيف كانا ناجين من الحرارة والبرودة ، وكيف كانت سرعة قبول الأرض للحرارة وضدها وبطء قبول الماء للحرارة والبرودة سببين متضادين أنتجا منافع للناس بالرياح المختلفة ، فلو لا هذا الاختلاف لم يكن نسيم البرّ ولانسيم البحر ولا الرياح الموسمية ولا الرياح التجارية الضدية وهكذا . كل ذلك تقدّم ، فهذا الاختلاف هو الخير والمنفعة والسعادة للحيوان على الأرض ، إذن اختلاف أحوال المادة جعل لغوائد شريفة . إذا فهمت هذا فأقول إجابة على أسئلتك الخمسة :

ما الذنوب ولا الكفر إلا أشبه بما عرفنا في الماء من أنه لا يقبل الحرارة بسرعة ، فالكافر والعاصي لم يقبلا الإيمان والطاعة لأن فطرتهم ليست سريعة القبول ، فإذا أسلم الكافر بعد ذلك ، وإذا أطاع العاصي بعد افتراء الذنب وبعد الندم الشديد كان ذلك بعد جهاد ومشاق طويلة فيكون صلاحه أتمّ وهذا معنى قولهم « ربّ معصية أورثت ذلاً وانكساراً خيراً من طاعة أورثت عزاً واستكباراً »
وكم من متوسط الذكاء فاق من هو أذكى منه بسبب طول أناته وصبره وجده في التحصيل فيصير أرقى منه وأقدر وأقوى وأعلم

فقال : هذا حسن وقد فهمناه ولكن ماذا تقول في العاصي اذامات بالآثية والكافراذا لم يؤمن ؟ فأين الحكمة إذن في ضلالتهم الدائم ؟ فقلت : هذا أدع الجواب عليه الآن فانه من المسائل التي ليس يعقلها كل امرئ . ولتكن الإجابة عليها في وقت غير هذا ولكني أقول لك الآن إجمالاً لا يعقل حكمة ذلك إلا حكيم قرأ العلوم الرياضية والطبيعية والالهية ، فإذا لم يعلم ذلك فلا يجوز له أن يبحث في هذا لأنه فوق طاقته وأنت تقدر على الجواب من نفسك لنفسك . فقال : إذن نكتفي بهذا في الفصلين الأول والثاني . فقلت :

﴿ الفصل الثالث في محاجة مؤمن آل فرعون لقومه ﴾

وملخصها ما يأتي :

(١) ان كذب الرسول واقع عليه وصدقه ان لم يطع القوم أنزل العذاب بهم ، وهذه الحجة تنتج أحد أمرين : إما الاقتصار على عدم أذاه ، وإما الزيادة على ذلك باطاعته ، والنتيجة التي يقصدها عدم التعرض له بالأذى

(٢) الملك لا يدوم فإذا تعدينا على غيرنا قاله لنا بالمرصاد فن ذا ينصرنا

(٣) ان هناك أمما تقدمتنا فعملوا ما فعلنا فهلكوا أفلا تخاف العاقبة

(٤) بل هناك يوم الحساب

(٥) أتم قوم اعتدتم التكذيب والشك كما حصل منكم في أمر يوسف

(٦) إن هذه الحياة كسراب ببيعة فكيف تغتر بها

(٧) والأصنام التي تعبدونها لا قيمة لها

(٨) ونتيجة ذلك أن الله تعالى وقاه سيئات مكرهم ووقع العذاب بالقوم

إذن لنفصل العذاب الذي حلّ بالأمة المصرية بعد زمن المؤمن الذي قال هذا القول من بلادنا المصرية وهذا يعوزه ﴿ ثلاث جواهر ﴾ الجوهرة الأولى ﴿ في مجمل تاريخ قدماء المصريين وبيان انه ثلاثة أدوار ﴿ الجوهرة الثانية ﴾ في أن هذا الذي قاله مؤمن آل فرعون كان في الدور الثالث . وبيان سرّ التنزيل إذ يقول مؤمنهم - فن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا - وما هو هذا البأس ﴿ الجوهرة الثالثة ﴾ في بيان الأسباب العقلية التي سببت هذا البأس . وكيف كان التقليد وترك العقل جانباً في أعمال الحياة وفي الدين ينتهي بموت

الأمّة وهلاكها . وأن هذا الدرس متى فهمه المساهون أقبلوا عن جهلهم لأن أكثرهم اليوم يشبهون هذه الأمّة المصرية في دورها الثالث وأن هذا التفسير هو آخر إنذار لهم وهاك بيانها

﴿ الجوهرة الأولى ﴾

جاء في كتاب الأدب والدين عند قدماء المصريين مانصه

﴿ لمحة في تاريخ مصر القديم ﴾

ينقسم تاريخ مصر القديم باعتبار الدول الأصلية الى ثلاثة أدوار : الدور الأول يشمل الدولة القديمة . والدور الثاني يشمل الدولة الوسطى . والدور الثالث يشمل الدول الحديثة ^(١) وتاريخ الدولة القديمة ينحصر في ثلاثة عصور : وهي العصر الصاوى والعصر المنفى والعصر الهراقليوبولونى

(١) - « العصر الصاوى » وتنحصر فيه الأسرتان الأولى والثانية من (من سنة ٥٠٠٠ الى سنة ٤٤٥٠ ق م) وهويبتدىء بالملك مينارأس الفراعنة الذى جمع تحت سلطانه أوجهين البحرى والتبلى . وجعل : عاصمة ملكه تانيس أوطينة (البرية بجوار جرجا حيث توجد قبور الملوكة الأولين

(٢) - « العصر المنفى » يبتدىء من الأسرة الثالثة وينتهى الى الأسرة الثامنة (من سنة ٤٤٥٠ الى سنة ٣٣٥٠ ق م) وكانت عاصمة المملكة فى هذا العصر مدينة منف أو منفيس (المعروفة الآن ببیت رهينة الواقعة على بعد عشرين كيلومترا جنوبى القاهرة . وكانت فى ذلك الوقت محط الرحال . وكعبة الآمال . غنية بعلومها ومعارفها ، متقدمة بفنونها وصناعاتها . وفى هذه المدة توسعت مصر فى الفتوحات حتى استظلت بوابتها بلادسینا والنوبة والواحات ، واشتهر من ملوك الأسرة الثالثة (من سنة ٤٤٥٠ الى سنة ٤٢٤٠ ق م) زوسير مشيد الهرم المدرج . وسنفر ومشيد هرمى ميدوم ودهشور . ومن ملوك الأسرة الرابعة (من سنة ٤٢٤٠ الى سنة ٣٩٥٠ ق م) خوفو وخفرع ومنقرع وهم الذين شادوا اهرام الجيزة . ومن الاسرة الخامسة (من سنة ٣٩٥٠ الى سنة ٣٧٠٠ ق م) الملوك ساحورع ونوفرارقرع وامرنزق واوانس الذين شادوا اهرام أبى صير . وشيدوا بها المعبد الشمسى . ومن ملوك الاسرة السادسة (من سنة ٣٧٠٠ الى سنة ٣٥٠٠ ق م) تيفى وبيبي الأول وبيبي الثانى وممنزق الأول وممنزق الثانى الذين بنوا اهرام سقارة ، وقد انتهى عصر هؤلاء الاسرة الثمانية بوقوع البلاد فى وهدة الشقاء بسبب الاضمحلال الذى ابتداء بالأسرة السابعة (سنة ٣٥٠٠ ق م) وأخذ يزداد فى الأسرة الثامنة (من سنة ٣٥٠٠ الى سنة ٣٣٥٠ ق م) التى انقرض هذا العصر بانقراضها

(٣) - « العصر الهراقليوبولونى » وهو يشتمل على الدولتين التاسعة (من سنة ٣٣٥٠ الى سنة ٣٢٠٠ ق م) والعاشرة (من سنة ٣٢٠٠ الى سنة ٣١٠٠ ق م) وفى عهد هاتين الدولتين نشبت الحرب بين ملوك الوجه البحرى وملوك الوجه القبلى

﴿ الدولة الوسطى من سنة ٣٢٠٠ الى سنة ١٦٠٠ ق م ﴾

لما كان النصر من حظ ملوك الوجه القبلى . اهتم ملوك الانقيف ومنتحوتب . وهم من الأسرة الحادية عشرة

(١) يتعذر على المؤرخين تحديد تاريخ العاديات القديمة العهد تحديدا صحيحا لأن المصريين لم يكن لهم تاريخ معين بل كانوا يؤرخون الحوادث بسنى حكم الملك الجالس على العرش . فليس لدينا اذن الى الآن كشف تاريخى كامل يجمع أسماء الملوك ويعين مدّة الفترات الواردة فى هذا الكشف . فاذا أريد معرفة تاريخ الملوك أو الآثار استعملت أرقام الأسر المالكة حسب ترتيبها

(من سنة ٣١٠٠ الى سنة ٣٠٥٠ ق. م) بحفظ رونق مدينة طيبة (التي من اطلالها الآن الاقصر والكركنا والقرنة ومدينة هب) واتخذوها قاعدة لملكهم . وجعلوا إلههم آمون رع سيد جميع الآلهة . وفي عهد الامنحتيبين والأوسرتسين . الذين هم من ملوك الاسرة الثانية عشرة (من سنة ٣٠٥٠ الى سنة ٢٨٤٠ ق. م) كانت مصر زاهية زاهرة باهية باهرة . حافظوا على دولة طيبة الأولى ، وحكموا النوبة حتى الشلال الثاني واحتفظوا بملك سينا . وعمرروا إقليم الفيوم . وأقاموا بطيبة المعابد الضخمة . والمباني الفخمة وشادوا أهراما بدهشور والشت والفيوم . وبنوا قبور بنى حسن والبرشة . وأقام الملك أوسرتسن الأول أمام هيكل الشمس مسلتين من حجر الصوان إحداهما موجودة الآن في المطرية وطولها نحو العشرين مترا وقد بنى الملك امنمحت الثالث قصرا شرقى بركة قارون بالفيوم فيه ٣٠٠٠ غرفة وهو المعروف بالتيه المعداد من عجائب الدنيا السبعة . وفي عهد الأسرة الثالثة عشرة (من سنة ٢٨٤٠ الى سنة ٢٤٠٠ ق. م) حافظت مصر على نظامها ومجدها . ثم في عهد الأسرة الرابعة عشرة (من سنة ٢٤٠٩ الى سنة ٢٢٠٠ ق. م) تجزأت مصر الى عدة حكومات . ونقلت عاصمتها الى سخا بالوجه البحري . وتردت بأردية التقهقر والخلول فسقطت في مهاوى الدلال والهوان . حتى أنه في عهد الأسرة الخامسة عشرة (من سنة ٢٢٠٠ الى سنة ٢٠٠٠ ق. م) لماهاجم مصر الهكسوس (رعاة آسيا) لم يجدوا مقاومة تذكر من المصريين فاحتلوها . ونقل المؤرخون أن الرعاة حكموا مصر ٥١١ سنة وكان منهم فرعون يوسف الصديق

﴿ الدولة الحديثة ﴾

(من سنة ١٦٠٠ الى سنة ٣٤٠ ق. م)

(وهي دولة طيبة الثانية) من سنة ١٦٠٠ الى سنة ١٣٨٠ ق. م

انضم أموزيس أول ملوك الاسرة الثامنة عشرة الى اسراء الأسر الملكية المصرية القاطنين بالوجه القبلي بعد أن أخرج الرعاة الى آسيا ، وتوسع في الفتوحات حتى بلغ ملكه نهر الفرات شمالا . وإلى النيل الأزرق جنوبا . واهتمت هذه الأسرة بالمباني ومظاهر العمران

وفي زمن الأسرة ١٩ (من سنة ١٣٨٠ الى سنة ١٢٢٠ ق. م) التي كان ملوكها رعمسيس الأول وسيتي الأول ورعمسيس الثاني ومنفتحاح احتفظوا بملك فلسطين وسوريا القبلية واستمرت بلاد آسيا والسودان تابعة لمصر حتى آخر عهدهم . ثم استقلت بعدهم حين ضعف نفوذ الملوك وسقطت سطوتهم بينما كان كهنة آمون قد أحرزوا الجاه الواسع والثروة من الهدايا والتحف التي كان يقدمها هؤلاء الملوك الى المعابد . فيأخذونها غنيمة باردة . وبسبب هذه الثروة الواسعة صار لهم النفوذ . وقويت كلمتهم . واشتدت شوكتهم ، ولم يزالوا يمهدون الأمور حتى تولوا الحكم وخلص الملك لهم .

﴿ العهد الصاوي ﴾

(من سنة ٧٢٠ الى سنة ٣٤٠ ق. م)

في هذا العهد كانت مصر في حاجة شديدة الى الوثام والوفاء لاتقاء شر الدول المتغلبة ومقاومة الأمم التي كانت استولت عليها . لأن هذه الأمم كانت نهضت لتحريرها وخرجها من نير العبودية ولكنها انقسمت على نفسها وفشا فيها داء التخاذل والتنافر حتى تنقلت العواصم ما بين تانيس المعروفة بصا الحجر بمديرية الغربية ونل بسطة بمديرية الشرقية . ونتج من هذا الانقسام في مصر أن استولى الاشوريون عليها . وبهم ابتدأت الأسرة الخامسة والعشرون (من سنة ٧١٥ الى سنة ٦٦٦ ق. م)

ثم جاء الصاويون وهم ملوك الأسرة السادسة والعشرين (من سنة ٦٦٦ الى سنة ٥٢٥ ق. م)

فأخرجوا الأشوريين من مصر واستولوا عليها . وفي عهدهم أصاب مصر من الضعف والوهن ما أصابها عقب حكم الملك بسامتيك والملك نحاو . واستولى عليها الفرس وخضعت لهم سنة ٥٢٢ ق . م ثم جاء النقتانيون وهم ملوك الأسرة الثلاثين (من سنة ٣٧٨ الى سنة ٣٤٠ ق . م) فنالت مصر على يدهم الحرية ، ولكنها لم تلبث قليلا حتى استولى عليها اسكندر المقدوني سنة ٣٣٢ ق . م . وقد اتفق المؤرخون أنه من هذا العهد لم يحكم مصر واحد من بينها . وهكذا الشأن في كل أمة يسود فيها الانقسام ويروج فيها التنافر والتخاذل وكل نزاع نقيجته الفشل وكل مملكة تنقسم على ذاتها تخرب . انتهت الجوهرة الأولى

﴿ الجوهرة الثانية والثالثة ﴾

لقد علمت في الجوهرة الأولى أن أدوار هذه الأمة ثلاثة ، ودورها الحديث كان من سنة ١٦٠٠ ق . م الى سنة ٣٤٠ ق . م

أقول : إن من أشهر ملوكهم (امنحيب الأول) من الأسرة الثامنة عشرة واموزيس الأول وتحوتس الثاني من الأسرة الثامنة عشرة ، وتحوتس الثالث من الأسرة الثامنة عشرة ، ورعمسيس الثاني من الأسرة التاسعة عشرة ، ورعمسيس الثالث من الأسرة التاسعة عشرة أيضا ، وهؤلاء كانوا أعظم ملوكهم ، ولكن لا بد أن نذكر أن رجال الدين زاد استيلاؤهم على العقول فاستولوا على الملك ، إن الرعاة الذين جاؤا الى مصر في دورها الثاني كانوا أجانب عنها ، فكانوا يقبلون النازلين بمصر على الرحب والسعة ، ومن هؤلاء ابراهيم عليه السلام لما مر بمصر وهكذا يوسف واخوته وهم عشرة فانهم انما جاؤا في أيام الرعاة وبقوا بمصر بعد خروجهم فاضطهدهم المصريون وهذا الاضطهاد حصل في هذا الدور ، ولكن لانفس أيها الدكي أن العقول في هذا الدور أخذت ترجع القهقري ، وذلك بسبب وقوف العقول وتمجيدها التقليد المجرد وبعدها عن التحقيق وهل أتاك نبي مامر عليك سابقا في هذا التفسير في ﴿ سورة النمل ﴾ عند آية - فتلک بيوتهم خاوية بما ظلموا - وآية - إن الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها - فهناك ترى كيف اشتركت هذه الأمة المصرية الحديثة والأمة الأندلسية في أمر واحد وهو الوقوف على الظواهر والتقليد الأعمى والفسوق ، وهكذا ذكرت لك هناك أم العرب المتأخرة في بلاد الشام والعراق إذ نقلت عن ابن خلدون أن هذه الأم العربية لما كانت مستمسكة بالدين حفظت بلاد الله ولما نبذت الدين صارت عالة على الأمم فأزال الله ملكهم إذ ذاك

انظر هذا المقام هناك فانك تجد القوم من مبدأ الأسرة السادسة عشرة اتخذوا الحيوانات (التي كانت دالة على إبداع الخالق ورمزا لجماله) معبودات عبدوها هم وجعلوا المعبود الحق في الدرجة الثانية فأخذوا يعبدون الطير والسمك والحيات والتماسيح والقطط والكلاب ، وهناك ترى حربا دارت بين بلدين إحداهما عبدت السمك والثانية عبدت الكلب ، فالذين لا يعبدون السمك أكلوه فأغتاز عباد السمك وأكلوا كلبا إغاظه في عابديه ، فعقول هذا شأنها صارت أسفل من الحيوان في الأرض بل هم أضل من الأنعام . فلماذا إذن لا يدخل البلاد الأجانب ، وهناك تقرأ النبوءات التي أعلنها أنبياء المصريين بزوال ملكهم وخراب دولهم فارجع اليه واقراء هناك فلاسييل لاعادته هنا

فهذه العقول لما خربت خربت الديار . ألا ترى رعاك الله أن الجيش الفارسي لما أخذ يحارب المصريين أحضر ملكهم قططا وجعلها صفوفا بين الجيشين فتحاشى المصريون ضرب القطط لأنها آلهتهم مع أن اسلافهم كانوا يحترمونها لأمر واحد وهوانها تأكل القيران فأخذوا هذا التعظيم من حيث هو لامن حيث نتائجه وزادوه حتى صارت نفس القطط آلهة . وبهذه الحيلة دخل الجيش الفارسي مصر . لماذا ؟ لأن تلك العقول

لاتى وانحطت تحت قوّة الحيوان الأعجم
هذا هو السرّ في قول مؤمن آل فرعون لهم - يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا
من بأس الله ان جاءنا - وبأس الله هودخول الفاتحين من الآشوريين أولاً والفراسيين ثانياً والرومان ثالثاً
وهكذا . وكل هذا سببه وقوف العقول على التقليد بلا روية ولا فكر . انظر اقله - أنتقلون رجلاً أن يقول
ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم - الخ إذن هم لا يفكرون لأن عندهم بينات لم يفكروا فيها . إذن هم
قوم مقلدون وبهذا التقليد دخل الفرس بلادهم لانحطاط عقولهم

ومن العجب أن قول مؤمن آل فرعون يشابه قول (ملا كاتب جاجي) الذي ألف كتاب « كشف
الظنون » في القرن الحادى عشر الهجرى ، وقال في حق الدولة العثمانية التركية التي هو مستظل بظلها ناقلاً
عن الشهاب الخفاجي في كتابه « الخبايا في الزوايا » يقول :

« إن الدولة التركية لما أفتى أحد علماء الدين بتحريم العلوم والفلسفة أخذت تنحط . ثم قال : وهذا إيذان
من الله بذهاب ملك دولتنا » انتهى بالمعنى . وقد تحقق ذلك في هذه الأيام فدولة بنى عثمان قد انحلت وذهبت
كأمس الدابر

ومن عجب اننى وأنا مرأى كنت أعلم في الجامع الأزهر وأرجع الى القرى فأجد أناساً يأتون بهيمة وقار
واحترام وهم من آل البيت الكرام ويأخذون من الناس رزقاً سنوياً ولهم أناس يسرون تبعاً لهم ويبيتون
عند الأغنياء ويذكرون ليلاً ويأخذون رزقاً من الناس يسمونه (العادة) ولقد بطل هذا في زماننا في
بعض البلاد

فيا عجباً . كل ذلك للجهالة الفاشية ، فالمعطي جاهل والآخذ جاهل . كل ذلك للجهالة الحالية بأهم الاسلام
لا يجوز أن يكون في الأمة عاطلون ، وما أولئك الذين يعيشون من كسب غيرهم بحجة الدين إلا كذاب أو
حشرات أو نباتات طفيلية ، فيجب على العلماء وعلى الأمراء أن لا يسمجوا بهذا ، بل يجب أن يعم التعليم
لأن الجهل هو الذى أوحى الى الجهال أن يتزبوا باسم الدين ويأكلوا أموال الناس بالباطل

إن شرارمة الاسلام أولئك الذين يأكلون باسم الدين . إن كثيراً منهم يوهمون العامة أنهم يشفعون
لهم عند الله في جلب الرزق والصحة ولهم التصرف في الأنفس فيصرفون عقولهم عن ربهم الى أشخاصهم
واذا وجدنا المصريين في الدولة الحديثة قد جعلوا الحيوانات في الدرجة الأولى والله المعبود الحق في الدرجة
الثانية فوالله ان الجهل قد أوحى بذلك فعلاً الى جهلة المسلمين فما عليك إلا أن تنزى بزيّ الصلاح والتقوى
وتظهر للعامة أموراً توهمهم بها حتى يعتقدوا هذا فيك ولم أر حكماً ولا علماً في أمتنا الاسلامية يرضى بذلك
والذى يرضى به هو الجاهل لأن العالم قلبه معمور بالعلم والحكمة . أما الجاهل فلخلق نفسه من العلم بتدعيه
ويفرح بقول العامة انه قطب زمانه كما يفرح كثير من أولئك النساء اذا تعلموا في المدارس العالية ولكن
الأمة تحقرهم لغسوقهم وسوء سلوكهم فلا يحسون في نفوسهم بسعادة فيتعلمونها من كلام الناس ويسعون
عند الملوك ليعطوهم ألقاب الشرف ويفرحون بقول القائل لهم سعادة فلان وعزته وهو لا سعادة له ولا عزّة
لأن السعادة والعزّة إن لم يحس بها القلب غير ممكنة اللهم إلا الرياء والرياء ليس سعادة بل هو كسر ابقيعة
يحسبه الظمان ماء حتى اذا جاء لم يجد شيئاً ووجد الآلام فوق الآلام والشقاء فوق الشقاء ظلمات بعضها
فوق بعض وعذاب أليم

فقال صاحبي : لقد أقنعتنى وفهمت الحقيقة . وأريد الآن أن تأتى ببذرة من أحوال مصر في عصرنا هذا
استطردا لنقارن بين وعظ الواعظين في الدولة الحديثة المصرية منذ (٣٥٠٠ سنة) وبين وعظ الواعظين الآن
وانما أردت هذا لأفرح بالموازنة بين عاتلين بينهما (٣٥٠٠ سنة) والله تعالى لم يذرامة بلانذير فكل زمان له

نذير . فمؤمن آل فرعون نذير قومه . فأريد أن تصطبقي عبارة أدبية ليكون ذلك من لطائف مجلسنا في تفسير هذه الآية . فقلت :

اعلم أن الأمة المصرية الآن اعتورتها الخطوب وانتابتها الصعاب وأحاطت بها الأمم من كل جانب فأول من أذلها في الأزمان الأخيرة الأمة التركية إذ جردتها من سلاح العلم وأخذت صناعاتها منذ (٤٠٠ سنة) وحصرت مجموع الأمة في الزراعة وحذفت من البلاد بيوت العلم شيئاً فشيئاً حتى إذا تغلبت دول أوروبا على بعض بلاد الشرق أرسلوا المبشرين فزلزلوا العقائد . وزاد الطين بلة أن الانجليز أزالوا أكثر آثار النهضة العلمية التي أحدثها المرحوم محمد علي باشا في القرن التاسع عشر وذهبت ورعة الدين ، وترى أكثر كابر الأمة وعظمائها لا يحلو لهم جلوس ولا سمر إلا في المحال التي فتحها الفرنجة في نفس بلادنا يحسنون فيها أنواع الشراب من البيرة والخمر والشمبانيا وأكثر المتعلمين لا يعمل لهم إلا أن يكونوا في مناصب الحكومة لأن التعليم تعليم لفظي لم يخاطب بشاشة القلوب ولم يحرك اليدين للعمل . فهل لك أن تقرأ ذلك الخطاب الذي أرسلته أنا لمجلس النواب ولوزارة المعارف ومجلس الشيوخ فأقرأه في سورة يونس في أولها

إذا عرفت هذا أدركت مضمون ما يكتبه الكتاتيون في بلادنا فإن التعليم إذا كان لفظياً لا يملأ القلوب روعة وظاهرياً مخلوطاً بالزيغ والالحاد فإن نتائجه أن لا يكون بعض أهل الحل والعقد في البلاد إلا بمن لا يقبون في الله لومة لائم ولا يقيمون العدل إلا قليلاً ولا يعملون عملاً صالحاً إلا رياء . أما مراقبة النفس والعمل للصلحة العامة فذلك قليل . ومما زاد الطين بلة أن المحاماة في البلاد أصبحت من أهم الحرف والصناعات . ومبنى المحاماة أمام القضاة إنما يكون على أساس الخداع والغش وقلب الحقائق . وبعض هؤلاء يتولون القضاء ثم يصيرون وزراء وحكاماً . وقد يكون الرجل منهم سيئ السيرة نمجوراً مشتهراً بذلك بين معاصريه . ثم يتولى الرئاسة وهو مغضوب عليه فلا يقيم للحق وزناً ولا للمروءة قسطاً

والحق الذي لا يحصى عنه أن الجهال أصبى نفوساً وأصح إيماناً وأبقى عقائد من بعض هؤلاء الذين لا يتقون ولا هم بذكرهم

إذا عرفت هذا أدركت ما يرمى إليه الكتاب في زماننا الحاضر . فهذه هي الأصول التي تنفرع عليها فروع الكتابة المتشعبة في زماننا ، فإذا كانت نصيحة رجل من آل فرعون في البلاد المصرية على هذا الأسلوب المذكور في الآيات التي نحن بصدد الكلام عليها فهذه هي الأصول التي يدور عليها محور الارشاد في أيامنا مضافاً إليها ما منبت به الأمة من تهتك النساء والبرج المزرى والتقليد الضار والسير على نهج لا رأى فيه ولا هدى ولا كتاب منير والله الأمر من قبل ومن بعد

هذا مجموع ما يقال على أمتنا المصرية من حيث العموم . وقد آن أن أبحث معك أيها الذكي في أمراخاص وهو أن هذه الأمة اليوم غير الأمة أيام مؤمن آل فرعون . هذه الأمة اليوم عربية بحتة نعم فيها أقوام من نسل آل فرعون ولكن أكثرهم أسلموا ثم الذين بقوا على دين النصرانية لا يتكلمون إلا بالعربية وأبناؤهم يتعلمونها و يقرؤون آداب العرب وأشعارهم وعلومهم وغالب الأمة مسامون والقليل جداً هم القبط . وإذا كانت عربية فلها اتصال بأهل طرابلس وتونس والجزائر ومراكش وأهل السودان وسوريا وفلسطين وشرقي الأردن ونجد واليمن والحجاز و بلاد العراق والموصل . ولكن أصابها الترك فزقوها في قرون مضت حتى فرقوا أوصالها رمزقوا أحشاءها . وعلموهم كيف يتدابرون . وأفهموهم كيف يكونون جاهلين فهدوا بذلك للدول الثلاث هم (فرنسا وانكلترا وإيطاليا) هذه الدول الثلاث هم الذين اقتسموا أبناء العرب وعلموهم كيف يجهلون وينامون وقالوا لهم أتم وظيفون فليس لكل منكم إلا وطنه . فأهل أوروبا كلهم يفتخرون بأنهم نصارى وعلى دين واحد . ويقولون لأبناء العرب : « دعوا صلة الدين وتفرقوا بالوطنية »

ولما كان المصريون هم الذين اختص بهم هذا المقال أردت أن أذكر هنا رسالة شاب نابغة تعلم في مصر وألمانيا وكان من تلاميذى بالمدرسة الخديوية وله في صلة وهو رئيس تحرير مجلة «الشبان المسلمين» وهو الذى اخترت أن أكتب رسالته في نصيحة المصريين أن يتعاونوا مع اخوانهم العرب والمسلمين عموما لتدرك أيها الذكى الفرق بين النصائح المذكورة في القرآن من مؤمن آل فرعون في بلادنا أيام الفراعنة وبين نصيحة الشاب المصرى ، وكيف كان مؤمن آل فرعون يذكر قومه بربهم وعظمته ويدلهم على صدق رسالة موسى عليه السلام بمجهزاته ، وأن عظمة الملك لا دوام لها ، وأن الله بالمرصاد للظالمين ، وكيف أظهر فرعون العظمة واستبد بالأمر ، وكيف حذر المؤمن قومه من غضب الله عليهم كما غضب على الظالمة من الأمم السابقة في الدنيا والآخرة ، وكيف عبرهم بالتمادى في الإنكار . وكيف حذرهم الأصنام وانها لا تعقل . وكيف فوض أمره الى الله تعالى . وكيف وقاه الله مكر القوم . فاذا وازنا هذه النصائح بنصائح كتابنا كما ستراه في هذه المقالة التى اخترناها ألفينا أن صديقنا يحيى الدردير يذكر العرب عموما والمصريين خصوصا بتاريخ أمهم وانهم ان جهلوه هلكوا . وذكرهم بالأخلاق الفاضلة والعمل بالدين . وأراهم أن فصل تعاليم الدين عن التعاليم الوطنية مهلك للأمة . وأن المصريين القدماء قبل إلحادهم وكفرهم كانوا أمة موحدة . وأوصاهم بالتحالف مع اخوانهم في العراق ونجد واليمن والشام وشمال افريقيا . إذن النصائح اليوم في مصر متجهة الى الدين أولا وتصحيح العقيدة كنصيحة مؤمن آل فرعون . ولكن هنا زادت أمرا جديدا وهو الجامعة العربية . فهناك نص المقالة المذكورة :

﴿ النعرة القومية والفكرة الاسلامية ﴾

قامت في هذه الأيام ضجة حول مبدء التمسك بالوطنية وترك ماعداها . وأنصار هذه الدعوة رفعوا شعار « الدين لله والوطن للجميع » فقال المصريون منهم نحن مصريون فرعونيون قبل كل شئ . وقال بعض السوريين نحن فيزيقيون . وقال بعض العراقيين نحن كلدانيون وقس على ذلك . تريد كل فئة أن تملك بمجدها التالى وتحتبس في حدودها غير ناظرة الى ما يهددها من المخاطر من جراء عزلتها التى تجعلها فريسة سائفة لكل مستعمر قوى مقاتل

يجب على كل أمة أن تعرف تاريخها قديمه وحديثه لأن ماضى الأمة يلعب دورا كبيرا في حاضرها ومستقبلها ولا يمكننا أن ننسى الماضى لأن عقائدنا وأفكارنا كلها آتية منه . وهو الذى يكون روح الأمة وشكلها ولذلك كلما كانت الأمة عريقة في المدنية وذات مبادئ حقة كان نسلها ذا استعداد طبعى لكل تقدم ورقي . قال الدكتور جستاف لوبون « حظ الشعب متوقف على ما يعتقد أنه الحق . وان التطورات الاجتماعية . وتأسيس أو هدم الممالك وتقدم أو انحطاط المدنية ناتجة عن قليل من العقائد التى تنزل من النفوس منزلة الحقائق وهى تمثل مسيرة الشعب الوراثة وفقا لحوادث الدهر

« ان من أخطر الغلطات في العصر الحاضر ترك الماضى . وعدم الاعتراف به . وكيف يمكن ذلك ؟ ان ظل الأسلاف يحكم أرواحنا . وهو يكون الجزء الأكبر منا . كما عليه ينسج القدر حظنا . وان حياة الموتى أكثر بقاء من حياة الأحياء . لا يمكن لأى مدنية أن تبقى بدون مرشدين أقوياء من المعلمين أو بالأحرى بدون مبادئ عامة قوية . لأن قوة الأخلاق أو القوة المعنوية هى الآن المحرك الحقيقى للعالم »

معرفة الماضى يجب أن تكون أداة لا ذكاء روح الحية والغيرة والعزة والرفعة والاستقلال وهنا حدود الوطنية البريئة ولكن لا يجوز أن تتعداها الى الصلف والكبرياء والعزلة والاغترار بالنفس وعدم الاعتراف لغير بفضائله ومحاسنه فهذا هو الطيش والحقى

قامت في مصر الفكرة القومية أو الدعوة الوطنية منذ نشأتها على أساس صحيح معقول وهي تحرير الوطن من كل غاصب مغتال حتى تصبح مرافق الأمة في أيدي أبنائها وأن يكون اعتماد الأفراد على أنفسهم في سبيل تحرير بلادهم . وقد وصف الزعيم الأول للنهضة المصرية مصطفى كامل ما يجب على كل وطني عمله . فقال : ان الأمم لا تنهض إلا بنفسها . ولا تسترد استقلالها إلا بمجهوداتها . وان الشعب كالفرد لا يكون آمناً على نفسه الا اذا كان قوياً بنفسه مستجمعاً لكل عدد الدفاع وآلات الذب عن الشرف والمال والحياة » . « ان قانون الحاكم في معاملته للحكومين خاضع لدرجة احترامه لهم . فان رأيهم أمواتاً في أزياء أحياء يقولون مالا يعقدرون . ويطلبون من الإصلاح كما يطلب السائل الاحسان . لا كما يطلب صاحب الحق حقه استبد فيهم وسخرهم لسلطته كما تسخر الأنعام »

على مثل هذه المبادئ السليمة قامت الدعوة الوطنية الشريفة . ولقيت من الأمة المصرية آذاناً صاغية وقلوباً واعية . وأصبحت حرية البلاد واستقلالها عقيدة قوية لا يصح التهاون فيها . وهي كما قال مصطفى كامل « اذا صح التسامح في بعض الأمور وفي ظروف معينة . فان التسامح في الوطنية اعدام لها وقضاء عليها . وان من يتسامح في حقوق بلاده ولومرة واحدة يبقى أبد الدهر مزعزع العقيدة سقيم الوجدان » . وقال أيضاً « ان الذين يطالبوننا بعدم ذكر الاستقلال انما يريدون أن تموت روح الوطنية في مصر . أي تموت الأمة المصرية . لأن حياة هذه الأمة ومستقبلها مرتبطان بمقدار قوة هذه الروح في الشعب »

الوطنية الصحيحة لا تقوم الا على الأخلاق الفاضلة وهذه بدورها تستمد قوتها من الدين الخفيف . وتاريخ مصر قديم وحديثه شاهد على ما نقول ولذلك كان من أهم أغراض المستعمرين طمس معالم التاريخ القديم لتعليم النشء في المدارس لتضعف فيهم روح الاعتزاز بالماضي ويلقون في روعهم أنهم عالة على الأمم الأخرى . ومحاربة الدين الاسلامي على الخصوص لأنه يبعث في نفوس النشء الاسلامي الاحتفاظ بالكرامة ومبادئ الحرية والشجاعة وهذا ما لا يتفق مع سياسة المستعمر الغاصب في اخضاع الأمم الاسلامية واذلالها

فالذين يدعون الى الوطنية وترك الدين جانباً انما يدعون الى قضية محققة الخسران . لانهم يدعون الى مبادئ لا روح فيها ولا حياة . اذ كيف يكون حال نشء في الوطنية وهو خلو من مبادئ الفضيلة ومراقبة الله عز وجل في السر والعلن ؟ هؤلاء لا تكون لهم السياسة واحدة وهي سياسة المنافع وجر المغانم أو بعبارة أخرى سياسة الهوى وهي سياسة مقضى عليها بالفشل . وقد قال لامارتين : بحق « ان ضميراً خالياً من الله كالحكمة الخالية من القاضي »

ان تاريخ مصر القديم والحديث يثبت أن الدين والوطنية وحدة لا تنفصل بل هما بمثابة الروح والجسد في عالم الحياة . جاء في مجلة علم الآثار المصرية في الجزء الأول المجلد الثاني ص ٣٧ للاستاذ العالم ريفو : « الدين كان له القدح الملقى والمكانة الاولى في نفوس قدماء المصريين الورعة واليه يرجع الفضل في كراهة الاجانب الغاصبين . وتوحيد القوى الوطنية . التي بها أمكنهم أن يطردوا الهكسوس ومن بعدهم الاشوريين . ويشهد المؤرخ اليوناني هردت وقد زار مصر في عهد العجم أن هؤلاء المغلوبين (المصريين) كانوا يبغضون الغاصب ويحتقدونه بما كانوا يسدون منه مقاطعة وقطع كل صلة مع الغاصبين . فلا يجلسون معهم على مائدة ولا يأكلون معهم »

اذا تتبعنا سيرة الحياة المعنوية لروح الأمة المصرية في أطوارها نراها روحاً اسلامية بحثة سواء في عهد الفراعنة أو غيره لأن روحها روح التوحيد وقد تأصل في قرارة نفسها بالرغم مما طرأ عليها من صروف الحداث والمظاهر الكثيرة التي أولوها في كثير من الأحيان على غير وجهها الصحيح . قال المؤرخ الشهير (شمبليون فيجياك) : « قد استنبطنا من جميع ما هو مدون على الآثار صفة مآله المؤرخ (جامبليك) وغيره

من أن المصريين كانوا أمة موحدة لاتعبد الا الله . ولا تشرك به شيئا . غير أنهم أظهروا صفاته العلية الى العيان مشخصة في بعض المحسوسات . وأنهم لما غرقوا في بحر التوحيد . علموا أبدية الروح . وأيقنوا بالحساب والعقاب . ولا عبرة بما قاله بعض مؤرخي الأجانب الذين حضروا محافل المصريين الدينية وشاهدوا بها كثرة تماثيلهم الرمزية . وأنهم لجهلهم للعتهم . وبحقيقة عبادتهم حلوا الأمور على ظاهرها . وحكموا عليهم بالكفر والاحاد مع انهم لم يفهموا منها المراد . فكأنهم دخلوا في قول الشاعر :

وكم من عائب قولا صحيحا * وآفته مح الفهم السقيم

راجع كتاب الأثر الجليل لقدماء وادي النيل لأحمد بك نجيب ١٢٣ وقال العلامة مسبرو « من تأمل في الآثار الباقية الى الآن بالديار المصرية واللوحات الدينية المنقوشة بالهاياكل وما على الورق البردى هالته كثرة هذه الآلهة المصورة عليها . حتى يظن أن مصر كانت مسكونة بهؤلاء الآلهة . وأن أهلها ما خلقوا الالهادتها . وسبب ذلك أن المصريين كانوا أمة مخصصة في العبادة إما بالفطرة أو بالتلقين أو التعليم . فكانوا يرون الله في كل مكان . فهامت قلوبهم في محبته . وانجذبت أفئدتهم اليه . واشتغلت أفكارهم به . ولازم لسانهم ذكره وشجنت كتبهم بمحاسن أفعاله . حتى صار أغلبها صحفا دينية »

كانوا يقولون انه واحد لا شريك له كامل في ذاته وصفاته وأفعاله . موصوف بالعلم والفهم . لا يعيظ به الظنون . منزّه عن السكيف . قائم بالوحدانية في ذاته . لا تغيره الأزمان . ثم عددوا صفاته العلية وميزوها بالأسماء واشتقوا منها نعوتا شخصوها في المحسوسات . وكل شئ نافع . وجيعة ترجع اليه . ولأجل التمييز جعلوا لكل اسم تمثالا . فانتشرت هي وما اشتق منها حتى ملأت المدن والبلاد . »

ان الساعة التي تسرب فيها الاحاد والشرك الى العقيدة المصرية كان ذلك نذير زوال مجدهم مصر . اذ عرفنا أن تاريخ المصريين يربط عقيدتهم الدينية (قديمًا وحديثًا) بالله عز وجل وأنه تعالى يجب أن يكون قصدهم متبعين أوامرهم متعينين عن نواهيهم فالاسلام عندي هو الدستور الطبيعي الذي يوصلهم الى غاياتهم السامية قال تعالى - ومن أحسن قولاً ممن دعا الى الله وعمل صالحاً وقال انني من المسلمين -

الدين الاسلامي الحنيف لم يبغض الوطنية حقها . بل جعل حب الوطن من الايمان . وان تحرير الأوطان لا يكون الا بالدأب على العمل المنتج « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم » وان الثمر متوقف على بذل الجهد - وأن ليس للانسان الا ما سعى - فلماذا إذا نحيده عن هذا الطريق المستقيم الذي يقودنا الى سعادة الدنيا بالعمل الصالح المنتج . والى سعادة الآخرة بمعرفة الله عز وجل ؟

لقد أعلن دعاء السوء دعوة على غير وجهها الصحيح وأذاعوها من أن المصريين هم فرعونيون غير عرب . وان واجب المصريين أن يشتغلوا بشؤونهم دون سواهم . اما أن يشتغل المصريون بشؤونهم (أولاً) فهذا ما يقره عليهم الاسلام حسب قاعدة « ابدأ بنفسك ثم بمن تعول » واما أن ينزلوا عن بقية الأمم الاسلامية المجاورة لهم فهذا مبدأ لا يتفق مع مصلحة المصريين ولا مع مبادئ الاسلام السليمة . ونحن في عهد تحالف وانفاقات دولية أصبحت احدى وسائل القوة والمنعة ومن عاش منفرداً في هذا الزمن عرض نفسه الى السلب والتهر

ان الدعوة القومية المصرية التي ألبسها دعاة التفريق ثوب الفرعونية ليخرجوها عن بقية الأمم الاسلامية انما أرادوا بها انتحار مصر الأدنى

أريد أن أهنئ في أذن هؤلاء النفر الناعر بالقومية الفرعونية . وأنا مصري صميم مسلم موحد . اذا كان حقاً ما تدعون من الاعتزاز بالمصرية الفرعونية هل غاب عنكم أن رسول الله ﷺ يتصل بكم في جدته العليا هاجر المصرية أم اسماعيل عليه السلام وهو أبو العرب المستعربة وان خاتم الرسل عليه السلام تزوج

منكم مارية القبطية . فمنحن نتصل بالعرب بصلة الرحم والنسب فهم أقرباؤنا وجيراننا وهم أولى الناس بمحبتنا وعطفنا ومساعدتنا . ان دعوة رسول الله ﷺ يجب أن لا تؤيد من ناحية المسلمين المصريين فحسب بل من ناحية المصريين كافة مسيحيين وغير مسيحيين أيضا حسب الأصول المتبعة في الدفاع عن حق القرابة والنسب والجوار

يجب أن نفهم الحقيقة على وجهها الصحيح حتى لا نضل الطريق السوي فتهلك . ان الله جل شأنه هو الذي اختار رسوله الأمين محمدا ﷺ ليبلغ دينه الى الناس كافة فالدين الاسلامي هو دين للجميع لادين عرب أو عجم وان من أكبر قواعده الديمقراطية أنه لم يجعل الفضل للجنسية بل جعله للعمل الصالح المنتج فقال تعالى - إن أكرمكم عند الله أتقاكم - وقال عليه الصلاة والسلام « خير الناس أنفعهم للناس »

الاسلام هو الدستور البشري السليم الذي يعطي كل ذي حق حقه ولا يبخس الناس أشياءهم . وان اشتغال المصريين بمسألتهم القومية والدفاع عن حريتهم واستقلالهم لا يمنعهم بأي حال من الأحوال من العطف على الأمم الاسلامية ومساعدتهم حسب ما في قدرتهم و - لا يكلف الله نفسا إلا وسعها -

نحن نرتبط مع جيراننا من الأمم الاسلامية بروابط كثيرة منها رباط اللغة والدين . فيجب أن نحرص عليهما أشد الحرص ونعمل على تمكين هذه الروابط وتوثيق العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بيننا وبين الأمم الشرقية كافة والاسلامية منها خاصة ونحن في عصر التحالف الذي لا يستطيع أمة أن تنفرد فيه بنفسها . فالممالك الكبيرة تتحالف بالرغم مما يملكه كل منها من وسائل القوة كتحالف انجلترا لفرنسا مثلا وكذلك الممالك الصغيرة فقد قام التحالف الصغير يضم بولونيا ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا وبعض بلاد البلقان وقامت تركيا تتحالف مع جاراتها العجم وروسيا

ان مصر من العالم الاسلامي القلب النابض والرأس المفكر وفلسطين وسوريا والعراق وبلاد العرب والعجم والهند والصين الساعد الأيمن وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش وما إليها الساعد الأيسر فيجب أن لا يشغل مصر حالها عن أحوال جيرانها فظنهم حصونها الطبيعية المكيئة وان كل عدوان على أي بلد إسلامي نعتبره معشر المصريين عدوانا علينا في الصميم

يجب أن نحذر سياسة الغاصبين المستعمرين وهي سياسة التفريق والتفريق وقيام الحوائل الجنسية والقومية بين المسلمين والشرقيين ليشغل كل منهم بنفسه فيدوم لهم إذلالهم وخضوعهم

ان عمل كل أمة شرقية كانت أو اسلامية لرد حريتها واستقلالها لا يمنعها بأي حال من الاشتراك مع جاراتها المظلومة في رفع الصوت عاليا بالاحتجاج وبذل ما يمكن بذله لمعونتها الأدبية والمادية لرفع ملاحق بها « والله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه » و - إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون - انتهى كلامه والى هنا من الكلام على الفصل الثالث في محاجة مؤمن آل فرعون لقومه وجواهره الثلاث والحمد لله رب العالمين

وقبل الشروع في الفصل الرابع الآتي قريبا نذكر ما فتح الله به عند طبع هذه الآيات وها هو ذا :

﴿ نور العلم في صلاة الوتر بعد صلاة العشاء ﴾

(في قوله تعالى - فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والابكار -)

(كتب ليلة السبت ٨ نوفمبر سنة ١٩٣٠)

بينما أنا أصلي في هذه الليلة صلاة الوتر في الساعة الثانية بعد نصف الليل وأنا أقول في الركوع « سبحان ربّي العظيم » وأكررهما من ثلاث الى إحدى عشرة خطري أن هذه السورة التي تطبع الآن مبدوءة بغفران الذنوب وقبول التوبة . ثم ذكر فيها أن حلة العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في

الأرض . وأتبع ذلك بأحوال الكافرين وعذابهم . وضرب مثلاً لذلك بكفر بني إسرائيل . وأتبعه بذكر مؤمن آل فرعون . ثم لخص الموضوع كله بأن موسى أوتي الهدى والذكرى . وأتبع ذلك بأمر نبينا ﷺ بالصبر والاستغفار والتسبيح والتحميد . وهذا التسبيح وهذا التحميد والاستغفار هي التي صدرت من حاملي العرش ومن حوله فيما تقدم . ففي أول السورة أن تنزيل الكتاب من الله وأنه غافر الذنب وقابل التوب وإذا استغفر للملائكة قائماً يستغفرون للمؤمنين لا لأنفسهم لأنهم ليسوا في أجسام مادية كأجسامنا حتى يستغفروا لذنوبهم بل استغفارهم لأجل أهل الأرض . ورسول الله ﷺ أمر أن يستغفر لذنبه هو أولاً . ولا جرم أن الله قابل التوب كما هو مذكور أول السورة . ومتى خلصت نفس الإنسان من الذنب سبح ربه وحده . ولا جرم أن التسبيح والتحميد هما ملخص الحكمة المخبوءة في هذه الدنيا وفي الآخرة

يا الله : عجبت لصلواتنا كيف أمرنا بالتسبيح وأمرنا بالتحميد . نكررهما صباحاً ومساءً . نقول « سبحان ربك العظيم » في الركوع . ونقول « سبحان ربك الأعلى » في السجود . ونسمعك تقول لبينا ﷺ - وسبح بحمد ربك - الخ ونسمعك تقول - فسبح باسم ربك العظيم - ونسمعك تقول - سبح اسم ربك الأعلى - ونسمعه ﷺ يقول « اجعلوا هذه في ركوعكم واجعلوا هذه في سجودكم » فجعلناهما كما أمر . فنحن الآن نسبح كما أمرنا ونستغفر كما يستغفر نبينا ﷺ والخلف يتبعون السلف في هذه الثلاثة ثم اننا نعلم أن نبينا ﷺ معصوم من الذنوب فكيف يستغفر لذنبه ! والملائكة لما كانوا في عالم لا مادة فيه كان استغفارهم لمنافع غيرهم شفقة على الذين آمنوا . لكن الرسول ﷺ استغفر لذنبه هو نفسه فأين هذا الذنب وهو معصوم ؟ وهو كما استغفر لذنبه استغفر للمؤمنين كما تفعل الملائكة فهو ذواستغفارين استغفار لنفسه واستغفار لغيره . أما الملائكة فلا يستغفرون إلا لغيرهم لأنهم لا يقعون في معصية ولكنك تقول له - واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات - . هذا ما خطر لي في الصلاة ﴿ الجواب ﴾ واقد فتح الله عز وجل بما يشرح الصدر في هذا المقام . فلا تجعل الكلام في ﴿ ثلاث مناهج ﴾ في استغفار النبي ﷺ لذنبه . وفي تسبيحه . وفي حده . فأقول :

اعلم أن الذنب على قسمين : ذنب هو مصدر وذنب هو فعل ، ويانه أن هذه الطبيعة البشرية المترتبة بالمواد الأرضية والمائية والهوائية معدة للذنوب ولا ذنوب إلا ما كان من الانحراف عن الاعتدال في حال من أحوال النفس والذنب لا يصدر إلا عن هيئة في النفس تكون نقيضتها المخالفات والشرور . فهذه الهيئة التي في النفس والصفة القائمة بها والميل الذي اتصفت به هو المصدر ، وأما الفعل فهو ما يكون من آحاد الذنوب ﴿ مثال ذلك ﴾ صبي عاش بين قوم لصوص فاكسبت نفسه تلك الصفة وأشرب حبها . فهذه الصفة هي المصدر الذي عنه تصدر أفعال اللصوصية . فإذا لم تكن الصفة في النفس فلن يكون الفعل . فكل سرقة بالفعل تكتب ذنباً على العبد ولكن لولا ذلك المصدر وهي الصفة القائمة بالنفس بسبب المعاينة واستحسان هذا الفعل من الأهل والأقارب ماصدر ذلك الفعل . هذا معنى المصدر ومعنى الفعل . والاستغفار من الذنب يتبادر إلى الذهن أنه راجع إلى الفعل لا إلى المصدر . ولا جرم أن محو المصدر القائم بالنفس والهيئة الشريرة فيها أقوم قبلاً وأهدى سبيلاً . وإذا استغفر الإنسان وطلب من ربه غفران ذنب من ذنوبه الشهوية والغضبية كشراب الخمر أو الظلم مثلاً مع بقاء الصفة في النفس ففعل شيئاً عظيماً ولو أنه طلب من الله أن يزيل ذلك الميل من قلبه لكان خيراً له واستغفار النبي ﷺ لذنبه راجع للمصدر لا للفعل إذ لا فعل وذلك من باب تسمية السبب باسم المسبب وهذا في علم المعاني مجاز مرسل علاقته المسيبية كما في قوله تعالى - إني أراي أعصر خيراً - أي عنباً . فكما يقال عصرت خيراً أي عنباً هكذا يقال استغفرت من ذنبي أي طلبت من الله أن يديم لي عدم الصفة التي هي مصدر للذنوب كما تقول في الصلاة - اهتدنا الصراط المستقيم - أي أهدم هدايتنا . إذن قد حلت مشكلة

- واستغفر لذنبك - وحلت مشكلتك - إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر - ومعنى هذا ليدم لك ذلك الغفران . وقوله - ما تقدم من ذنبك وما تأخر - معناه أن لا يكون هناك مصدر لذنب أصلا . فهذه الجلة ترجع الى عدم تلك الصفة التي يصدر عنها الذنب . ويقول الله تعالى - إنا فتحنا لك فتحا مبينا - ورتب على هذا الفتح المغفرة أى زوال ذلك المصدر أى الميل والصفة التي بسببها تكون آحاد الذنوب أى رتب على الفتح دوام تلك الطهارة التي عبر عنها في بعض الروايات بأن صدره شقّ وأخرج منه حظ الشيطان . فهذا هو المصدر الذي تنشأ منه الذنوب . ولا جرم أن من صفت نفسه هذا الصفاء تكون نفسه على تمام الاستعداد للعرفة والعلم والوقوف على الحقائق . ومن نتائج العلم العمل . ومن نتائج الأعمال فتوح البلدان لينتشر الاسلام . وكما أن للذنب مصدرا هو المقصود من الاستغفار هكذا لفتوح البلدان ونشر الاسلام في الكرة الأرضية مصدر هو امتلاء النفس بالحكمة والعلم إذ القلب المقفل لاسلطان له على قلب الغافل فاذا عمر القلب بالعلم كان له تأثير على الجاهلين فيتعلمون ويعملون . إذن لافتح للبلدان إلا بعد فتح القلوب ولا انتشار للاسلام إلا بعد أن كان الداعي لذلك الانتشار معمورا قلبه بالعلم الذي به يؤثر على سامعيه ولو كان علمه كعلم الفلاسفة أو علم العلماء لكان مثلهم فتكون آثاره محدودة كآثارهم . إذن هناك فتوح أعلى وأن نفسه تستمد من العوالم القدسية وتشاهد الملك والملائكة وهو لا يعطينا إلا ما يناسبنا . ولولا انه يحس في نفسه بالمشاهدة والقرب لذلك المقام الأقدس ما أطاعته هذه الأمم في حياته وبعد موته ، إذن الغفران يرجع لمصدر الذنب والفتح يرجع لمصدره وهي علو نفسه ﷺ والفتوح العلمى . وكما يلزم من انعدام مصدر الذنب ودوام ذلك الانعدام من النفس انعدام نفس الذنب هكذا يلزم من الفتوح بالمشاهدة والقرب بالعلوم والمعارف المستمد من ذلك الجنب القدسى ظهور الآثار في المؤمنين بفتح البلدان وانتشار الاسلام ، وكما كان الاستغفار موجها الى مصدر الذنب فيدوم عدمه هكذا الفتوح راجع الى مصدر فتوح البلدان وهو فتوح العلوم ويلزم من ذلك فتوح البلدان الذى هو إحدى نتائج الفتوح العلمى ، واذا روى البخارى انه صلى الله عليه وسلم قرأ - إنا فتحنا لك فتحا مبينا - لما دخل مكة وقد ظهرت عليه هيئة السرور فليس ذلك لهذه الظواهر وحدها . كلا . بل ذلك لمصدرها وهو الفتح الحقيقى لنفسه ﷺ بالعلوم والمعارف وفرحه بربه ، ألا ترى انه ﷺ قال : « إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زينة الدنيا الخ » والحديث مذكور في أول (سورة الأنفال) وقد ظهرت أسرار هذا الحديث بذل الأمم العربية التي فتحت تلك البلاد وظهرت آثار خوفه ﷺ على أمته فعلا في زماننا وقبله . إذن فتوح البلدان وان كان لانتشار الاسلام فيه الخير والشر ، فالخير للصحابة والتابعين ومن نحا نحوهم لما عمروا أرض الله ، والشر لمن بعدهم وقد لحقنا نحن وأصبحنا اليوم تحت ضغط أمم أوروبا لأننا لم نقم بحق الفتح . إذن فتح البلدان فيه الخير وفيه الشر كما أخبر ﷺ وظهرت آثاره فينا . إذن مصدر الفتح هو الذى فرح به رسول الله ﷺ وأخذ يقرأ سورة الفتح عند الكعبة يوم الفتح وكان قلبه مفعما بالسرور لذلك ، وكيف يفرح بفتح البلدان الظاهرى وهو يظهر خوفه علينا من ذلك الفتوح ويقول ان أكثر خوفه علينا من ذلك كما في الحديث الصحيح . إذن الفتح راجع لانكشاف الحقائق العلمية التي لا يخاف من زوالها وهي السعادة التي لانهاية لها إذ لا سعادة لهذا الانسان كله إلا بالاطلاع على الحقائق ، وكل ما يصيبنا في الحياة قصد به أن يكون مهمازا نساق به الى العلم وهو تمام النعمة وهو النصر العزيز

إن ترتب الهداية على كمال العلم والوقوف على الحقائق أقرب من ترتبها على فتح البلاد لأن الهداية ألصق بالعلم وأيضا قد شرح الله صدره ﷺ ووضع وزره عنه ، ورفع ذكره ، وهو لا يزال في مكة قبل فتح مكة وقبل صلح الحديبية وهو يهدى الى الصراط المستقيم قبل ذلك فكيف يترتب عليه الهداية ! إن الفتوح فتوح

العلم وبالعلم جمع القوم وبالعلم فازروا
وهذا له نظير في لفظ الغنى ، فلفظ الغنى يكتفى هذا النوع الانساني منه بظاهره وهو كثرة المال ، والنوع
الانسانى أكثره مخطئ في ذلك لأنه ظن أن امتلاء خزائنه بالمال سعادة له وهو وهم باطل إذ لا سعادة إلا
بغنى النفس ، وكلما أوغل الانسان في حوز المال توغلت نفسه في الطمع والحرص فيزيد ذلة ومهانة . فالغنى
الحقيقى النفسى هو السعادة كالفتح الحقيقى والغفران الحقيقى . وكما انه لا يلزم من غفران آحاد الذنوب زوال
مصدرها الذى شرحناه هكذا لا يلزم من فتوح البلدان المعروف بين الأمم الفتوح العلمى بدليل أن القواد
الحرييين يفتحون المدن وهم لا يعلمون إلا فن الحرب . وكما انه يلزم من غفران مصدر الذنوب المتقدم
ذكره عدم نفس الذنوب بتاتا هكذا يلزم من الفتح العلمى المذكور الفتح الاسلامى للبلاد فى الأرض
هذه مبادئ السرّ فى هذه الآية - واستغفر لذنبك - وآية - إنا فتحنا لك فتحا مبينا - الخ والفتح
بالمشاهدة يترتب عليه دوام زوال مصدر الذنوب ودوام النصر وتتمام النعمة
هذا ما فتح الله به فى هذا المقام وتمّ الكلام عليه كتابة حوالى الساعة الثالثة بعد نصف الليل . وهذا
هو المنهج الأول فى الاستغفار

﴿ المنهج الثانى والثالث فى التسبيح والتحميد ﴾

لقد قدّمت لك أن الذى حفزنى الى كتابة هذا الموضوع هو انى فى الركوع كنت أقول « سبحان ربى
العظيم » وهناك خطرت لى هذه الخواطر ، ولما رفعت رأسى من الركوع قلت « سمع الله لمن حده ربنا
لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شئ بعد ، أهل الثناء والمجد أحق ما قال
العبد ، كننا لك عبيد ، لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا راد لما قضيت ، ولا ينفع ذا الجد
منك الجد »

فما أتممت ذلك الثناء حتى جال فكرى فى هذه المعانى وأخذت أقول : « يا سبحان الله : نحن نسبح
فى الركوع وفى السجود وعقب الصلوات والنبي ﷺ أمر أن يسبح ويحمد بالعشى والابكار ، ونحن بعد
التسبيح ترانا نذكر السموات والأرض وما بينهما وما وراءها . إذن الأمر عظيم . إذن هذه الصلاة ليست
ألفاظا خسب . كلا . انها متن وشرحه هذه الدنيا كلها . نحن نسبح ونحن نحمد ونستغفر . أما الاستغفار
ففتح باب لصفاء القلوب إذ العلم لا يجتمع مع الظلمة فى القلب . فبقى التسبيح والتحميد ولقد كررت معناهما
فى كل مناسبة فى كل مقام بحسبه . وإن يفتى ما أقوله فى مقام عما أقوله فى مقام آخر فى معناهما إذ العلم
أشبه بأنواع الزرع وأنواع الطعام . ولا جرم أن اختلاف المزارع والطعوم لمقاصد وفوائد لاحصر لها . فههنا
أقول : أكابر المسيحيين هم الذين يقفون على حقائق هذه الدنيا . واذا درسوا نفس هذا التفسير حصلت
لهم ملكة بها يقتدرون على أن يعرفوا أن شرور هذه الدنيا ونكبات الدهر ومصائب الموت والفقر والذل
وكل مصيبة تحلّ بفرد أو أمة فانما ذلك موجه للخير العام والخير العام موجه للخير الأفراد . وأكثرا العقول
الانسانية لن تقدر على تصوّر ذلك ولكن هذه هى الحقيقة التى لا يشك فيها المفكرون

إن السعادة الحقيقية فى الحب . ولا سعادة فى الحب إلا اذا توجه لموجود لا يموت وهو جيل وحكيم وله
صفات بدیعة . وكل ما ينسب له من الاهلاك والتدمير يحدث فى القلوب خوفا لا حبا . فأكثر أهل الأرض
وقفوا عند درجة الخوف من البطش لا الخوف من انقطاع الحب . والتسبيح الحقيقى به تقف على حقيقة
هذه الشرور ومتى أدركنا سرّها (وأن جهلنا هو الذى أفهمنا أن ذلك كله موجه لإدلالنا وتفریق شملنا
واهاننا وتفریق جاعتنا) وعرفنا الحقيقة . هنالك تكون السعادة لأن تلك الذات المقدسة كل أعمالها
رحمة موجهة لنا . وهذه الرحمة لاتكمل ولا تتم إلا بهذه الشرور والايمان بهذه الأشياء حسن ولكنه لا يملأ

القلب سعادة كما يملؤها الوقوف على الحقائق . وهيات هيات أن يقف الانسان على هذه الحقيقة أو يكون له بها يقين إلا بأن يجعل حياته وقفا على درس سائر العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية وغيرها (وهي اثني كان يظنها جهلة المتأخرين من المسلمين كضرا) اذا أمكنه ذلك ويساعد العقل على الفهم الصلوات والنسيبات فانها لها آثار في القلوب . وهناك يفهم المسلمون ما يقولونه في الرفع والاعتدال كما قدمت « لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت . ولا راد لما قضيت . ولا ينفع ذا الجد منك الجد » ويفهمون أيضا لماذا كان رسول الله ﷺ يعاهد المسلم على أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره من الله . وسر التسييح فيهم أن هذا الشر الذي هو من الله إنما هو خير في الحقيقة . وهناك هناك بحل الحب الحقيقي من العبد لله ومع السعادة الحقيقية . وهذا يفهمنا معنى قوله تعالى - يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات -

هذا هو الفرق بين العالم والجاهل . الجاهل أمر أن يؤمن بأن الخير والشر من الله ووقف عند درجة الخوف من الله وعند درجة التسييح اللفظي واعظام الله تعالى إعظاما مصحوبا بالخوف . والعارف هو الذي يعرف بعقله أن هذا الشر موجه للخير وأن هذا الشر مكمل لذلك الخير والخير بدونه ناقص . فهناك يجب ربه حبا لاحتله ويسعد سعادة لاحد لها لاسيما اذا أمده الله بعلوم وحكم وأفاض عليه . فهذا هو التسييح . أما التحميد فهو معرفة جميع العلوم المذكورة من حيث جمالها وكمالها وحكمها . وهذا هو السر في ذكر التسييح غالبا مع الحمد لأنهما في الحقيقة بينهما صلة وهما يرجعان للعلوم . هذا ما فتح الله به كنيته عقب ورود هذا الحاطر بعد ما انتهت من نفس الصلاة والحمد لله رب العالمين .

﴿ الفصل الرابع في محاجة الضعفاء والمستكبرين إذ يتحاجون في النار ﴾

ونتيجة المحاجة أن الجميع في النار

إن هذه المحاجة قد ذكرت بعد نصائح المؤمنين من آل فرعون لهم من باب ذكر السبب بعد المسبب فان آل فرعون قوم مقلدون للرؤساء والمقلد للرؤساء بلا عقل هالك . إذن هذا من أسرار القرآن فانه بعد أن ذكر آل فرعون (وقد تبين في تاريخهم الذي ذكرناه أن عقولهم إذ ذاك قد أخذت تنحط حتى عبدوا الحيوانات ، وقد ظهر ذلك ظهورا واضحا في آثارهم) أخذ يذكر المحاجة بين الضعفاء والمستكبرين في النار والمقصود من هذا أن الله كأنه يقول : « أنا لم أذكر مؤمن آل فرعون ومحاجته مع قومه عنابة بالتاريخ كلا . وإنما ذكرتها أشبه بمثال للقاعدة المذكورة بعد ، والتاعدة المذكورة بعد أن وقوف العقول هو البلاء الأكبر . وليس الاتكال على الرؤساء بنافع المؤمنين فان العقول عند الجميع ، وما اتكال الرؤسين على الرؤساء إلا كالاغترار بالمسيح الدجال ، المسيح الدجال يوهم الناس فيبعونه والرؤساء كذلك . إذن ماسيأتى في الفصل الخامس متمم لما في هذا الفصل وعلى هذا تكون الفصول الثلاثة متصلة كل فصل مكمل للآخر فضلال المصريين سببه الاغترار بالرؤساء والمؤمنون لا ينفعهم الاحتجاج بالرؤساء ، هما أو هموهم ، وإذا كان إيهام المسيح الدجال لأتباعه واضلال عقولهم واطهار الامور المحببة لا يخلى أتباعه من العقاب على أتباعه لما لهم من العقول التي تركوها والمواهب التي أبادوها فكيف يفلت الضعفاء من العقاب اذا أتبعوا رؤساءهم الذين لا يبلغون في المكر والخديعة عشر معشار المسيح الدجال ! - لكل ضعف ولكن لا تعلمون - وهذه الحجج القرآنية دامغة واضحة وآيات ساطعات قد ظهرت في هذا التفسير ليعلم المسلمون قاطبة في أنحاء الكرة الأرضية أن دين الاسلام قد أحاطت به تقاليد كاذبة وضلالات خاطئة ومن قرأ كتاب « الفرق بين الفرق » وعرف ما فيه من الفرق التي تبلغ نحو نصف وسبعين فرقة ودرسها درساً جيداً واطلع على بعض تلك الفرق الباقية الآن أدرك يقينا أن كثيرا من تلك الآراء قد أُلصقت بالدين لغرض واحد وهو الجاه والثرثرة والمالك

والرئاسة وحوز المال والتعالى والعزة والبطش

إن هذا الكتاب ألقته للمسلمين عامة ، ولست أريد أن أوضح أكثر من هذا ، وليس عندي لهذا الداء
لجميع الأمم الإسلامية إلا دواء واحد وهو دراسة جميع العلوم وتعميم التعليم
﴿ الآراء الحديثة وآيات القرآن ﴾

انظر الى ما تقدم في قوله تعالى - قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون - واقرأ ما نقلته عن
العلامة (كانت الألمانية) فانظر كيف يقول : « إن البصيرة متوقفة على التعليم والتعليم متوقف على البصيرة
وهذا دور والدور محال ، ثم أجب عن هذا الاشكال بما ملخصه أن كل جيل من أجيال الأمة يجدد فيما ورثه
عن أسلافه ويزيد عليه ويسلمه لمن بعده جيلا فجيلا حتى يصل الانسان الى السعادة »
وعما قاله أيضا : « إن المعلم اذا اتبع طريقة من قبله بلا تعقل فانه ينقص عنه وهكذا جيل ينقص عما
قبله حتى تنزل الأمم الى أسفل سافلين »

وملخص آراء الرجل أن العلم لا يؤخذ إلا مع أدلته على شريطة أن يعرف الانسان أصول الأشياء فيزيد
شيئا ويرتقى الخلف عن السلف من حسن التصرف . أما اذا لم يكن هناك إلا التقليد المحض رجعت الأمة
للقهقري ، وهل في هذه الآيات إلا هذا ؟

هذا ملخص هذه الآيات ، ومن اطلع على الشبان المسلمين في المعاهد الدينية يجد انهم يلتقون في صغرهم
أن عقولنا أضعف وهمنا أقل وكل جيل يأخذ عن من قبله ويكون أقل منه حتى ان أتباع الامام الشافعي في
زماننا ينظرون الى الرملي وابن حجر بعين العظمة ولا يقدر أن يفكروا في البويطي من أصحاب الشافعي
فكيف اذن بالشافعي رضي الله عنه وأبي حنيفة . أما القرآن وأما الحديث وأما أحوال النبي ﷺ فهذه كلها
ينظر اليها نظرا تاريخيا لا غير أوتبركيا غالبا وهذا هو الرجوع القهقري

فليقرأ المسلمون جميع العلوم الطبيعية والرياضية وغيرها لتسع عقولهم ويدرسوا تاريخ كل علم ليعرفوا
أصولها ، ثم ليكن في كل قطر جماعة من هذه الطبقة الممتازة ، ولتكن نتائج آرائهم موازنة في مجلس عام
مع آراء المصطفين من الجماعات المختلفة ، وليكن لهم مجلس عام في مكة أوفى غيرها ، ثم ليقرر ما يجب من
الاصول المرعية للمسلمين ، ولا يصح أن يتولى زعامة المسلمين أناس لم يدرسوا تلك العلوم ، فوالله انهم ليسوا
أهلا لادارة شؤونها سواء أكانوا ملوكا أم أمراء أم علماء . وهذا هو المناسب لهذا الزمان . ولقد كتبت نظير
هذا في مواضع كثيرة من هذا التفسير

هذا هو الذي فهمته أيها الذكي من هذه الآيات . فقال : لقد أجدت صنعا وأحدثت وأفدت فبنته الحد
والمنة ، ولكن لا يزال بعض الاشكال قائما بل لا يزال بحاله . فقلت ولماذا ؟ قال : إن الرحمة تقضى أن لا
يكون شيء من هذا وتكون الحياة سعادة . فقلت : هذا السؤال مكرّر في هذا المقام وفي غيره وكما أجبت عنه
فقال نعم ولكنني أريد زيادة الايضاح . فقلت : ماذا أوضح بعدما ذكرت لك في أول هذا المقام من مثال
الماء والأرض والحرارة فيهما وانما في أحدهما أبطأ من الآخر ، وابطاء تصاعدها على مقدار ابطاء قبولها
فهكذا الأمم اذا تدهورت بسبب الرؤساء أو شيوخ الدين أو شيوخ السوفية أو الجهلاء الذين هم غير كاملين أو
المستعمرين الذين يدخلون البلاد فيجعلوا الشعب أشبه بالحيوان يسخرونه

كل هذا لم يخرج عن كونه تأخيرا للرقى ، وهل هذا التأخير إلا نفس إبطاء قبول الرقى ، وهذا الإبطاء
يجعل الرقى أدوم . إذن الدجالون والمستعمرون والشيوخ الجاهلون كل هؤلاء جعلوا في الأرض امتحانا
لعقول الأمم يؤخرون رقيهم ، فاذا استيقظوا بأمثال ما كتبه في هذا التفسير وبالآلام والاذلال فانهم يجدون
في تثبيت مدنيّتهم تثبيتا أتم . أما اذا شربوا العلم شرابا بدون آلام ولا تأخير فقلما بدوم في أجيالهم ، وأهل

قدماء المصريين لم يدم ملكهم خسة آلاف سنة إلا بعد أن قاسوا حروبا واذلالا آمادا طويلة
فمثل الأمم التي يصيبها الذل بالاستعمار وبالشيوخ الجاهلين كمثل الماء فيما تقدم وما أحسن ضرب المثل
بالماء فقد جعل مثلا للعلم في آيات القرآن وعلماء الطبيعة جعلوه مبدأ لارتفاع سطح الأرض لأن سطحه منتظم
وجعلوه مقياسا يقاس به الوزن النوعي للجوامد والغازات بحيث يكون الحجم الذي مثل حجم الماء من الزئبق
يساوى وزن الماء ١٣ مرة و ٦ من عشرة ، ومن الذهب ١٩ مرة وثلاثة أعشار المرة ومن الأنثراكس الكبريتي
سبعة أعشاره لا غير إذن هذا أخف من الماء والهواء أخف من الماء ٧٧٣ وستة أعشار أى إن الهواء المساوى
لحجم الماء يكون أخف منه بهذا المقدار

أقول : فإذا كان الماء قد جعل مقياسا في علم الطبيعة لوزن كل شئ وزنا نوعيا إذا كان على درجة ٤
فوق الصفر من سنتجراد وكانت هذه المعادن وغيرها على درجة الصفر منه ، فهو إذن معيار عظيم هكذا هنا
هو خير معيار نجيب به عن ظواهر المظالم والجهالات فنقول إنها لم تفعل شئاً أكثر من تأخير الرقى للأمم وهذا
التأخير لأجل الشوق لذلك الرقى والشوق مثبت له . وهذا هو قوله تعالى - فعسى أن تكرهوا شئاً وهو
خير لكم -

هذه هي الحكمة الإلهية في تحمل الضغط والاذلال . وعلى المفكرين في الأمم أن يحملوها على دفع
هذه المظالم ورفع هذه الأثقال عنهم والله من ورائهم محيط . قال : لقد انشرح صدرى بهذا المقال . فلنبداً
بالكلام على الفصل الخامس

﴿ الفصل الخامس في المسيح الدجال ﴾

فقلت : لقد ذكرت المسيح الدجال غير مرة في هذا التفسير . وكل ما أحاول أن أقوله قد مرّ نظيره . فقال :
ولكني الآن أريد أن تشرحه شرحاً عاماً لتشرح صدرى وصدور القراء ، فأنا أريد أن أعرف كيف يقول
ﷺ في حديث أبي داود والترمذى أن الأنبياء أنذروا قومهم به ، وأن نوحاً أنذر قومه به ، وكيف نستفيد
بالله منه في كل صلاة ، وكيف يستعيز رسول الله ﷺ منه في صلاته ولم يظهر في زمانه ، إذن الأنبياء
يستعيزون بالله ونحن والصحابة والرسول ﷺ من شئ لم يحصل وهذا محال ! فقلت : إن الحيرة في هذا
إنما تأتي لمن يجهلون علوم اللغة العربية ، فالعامة يجهلون البلاغة في كلام العرب ولكن الأدباء وهم قوم
أعطوا حظاً من علم اللغة هم الذين يفهمون أمثال هذا المقام . إن القرآن في أعلى طبقات البلاغة والبلاغة علم
فاذا جعلنا تفسير القرآن على يد طائفة تجهل هذه العلوم حصلت لهم الحيرة . أما نحن فلا حيرة عندنا . إن في
علم البيان (وهو أحد علوم البلاغة الثلاثة) التشبيه والمجاز والكناية . والكناية باجتماع العلماء أبلغ من الحقيقة
وأى كلام أحقّ بالبلاغة من القرآن . قال : هذا حسن . فقلت : وما الكناية إلا لفظ له معنى ولكن ليس
المقصود هذا المعنى بل المقصود الحقيقي معنى آخر مع أن المعنى الأول لا يزال بحاله ويراد أيضاً من اللفظ . فاذا
قال رجل للآخر « إن كلبك جبان » وكان القائل بليغاً فإن السامع إذا كان بليغاً أيضاً يفهم منه أن هذه
الجملة معناها أنه كريم لأن جبن الكلب إنما جاء من كثرة الأضياف فأنهم لكثرتهم لم يتحمل الكلب كثرة
النباح عليهم . فهذا الممدوح من جهة كريم وهو المقصود . ومن جهة أخرى يسح أن يكون له كلب وذلك
الكلب جبان فعلاً . فهذه هي الكناية . فالمقصود فيها المعنى الذي كنى باللفظ عنه . فهنا نقول : هذا المسيح
الدجال الذي يظهر المجانب وناره جنة وجنته نار . وبقتله المسيح ابن مريم له معنيان كسألة جبان الكلب .
والمعنى المشار إليه هو المقصود والمعنى الأصلي جائز لآمانع منه

هذا هو الذى يقتضيه علم البلاغة . وإذا لم نستعمل هذا العلم فيما خلق له وهو فهم الدين أفقتصر في استعماله
على أشعار العرب ونحوها . فقال : ولكن لا بد للقرينة من كناية فما هي القرينة هنا ؟ قلت : هنا قرأتين

لا قرينة واحدة بل قرائن يجب علينا أن ندرسها . فقال : وما هي ؟ قلت : كيف نستعيد من فتنه المسيح ولا فتنه له الآن ! وهل يستعيد رسول الله ﷺ من شيء لا وجود له ؟ وهل ينذر الأنبياء أقوامهم بما لا وجود له ؟ فقال : إذن المستعمر منه كل من كان ظاهره الصلاح وباطنه الخداع والظلم والجور . فقلت : نعم وذلك يشمل الدجال الحقيقي متى ظهر ويشمل كل دجال من المستعمرين للبلاد ومن الشيوخ الجاهلين في الاسلام وغير الاسلام فـكل هؤلاء دجالون لأن أحدهم يظهر العلم وليس بعالم ويظهر الزهد وليس بزاهد . والأمم المستعمرة تجعل أنفسها داخلة لاصلاح البلاد اذا هي تمنع العلم عنهم

كل هؤلاء استعاذ النبي ﷺ منهم ونستعيد نحن . فهم في ظواهرهم أشبه بالمسيح ابن مريم يريدون السلام العام وفي الحقيقة لا يريدون إلا انسخير غيرهم لهم . ولقد ابتليت أمتنا بقوم من هؤلاء . فكثير من القائمين بالملك في الأزمان القديمة كانوا لا يريدون إلا العلو على الناس لا انهم يريدون الخير للأمة . نعم الصحابة رضوان الله عليهم كان لهم اجتهاد ولكن الأمم المتأخرة كثر فيهم طلاب الملك والرئاسة . وأنت ترى آثار ذلك الدجل في الجهلة من الشيوخ الذين يحملون الأعلام ويدقون الطبول . كل ذلك آثار من آثار أسلافهم الذين كانوا يفعلون ذلك لأجل الملك . ولقد أحسن صنعا مصطفى كمال باشا في تركيا إذ أخرجهم فقاموا بأعمال تنفع الأمة ولم يبقوا عالة عليها كما هو حاصل في بلاد الهند . وقد تقدم مقال مطول شارح للآليات الهندية في ﴿ سورة الأحزاب ﴾ عند آية - يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا - الخ ذكرته هناك ليعلم المسلمون أن هذه الطوائف التي جعلت الدين مصيدة سبقنا بها البراهمة فافرقه هناك ، ومستحيل أن تراتق الشعوب الاسلامية إلا بالاطلاع الواسع حتى يزبحوا هذه الأوهام ، ولم نر أمة من أمم الفرنجة دخلت بلادا اسلامية كبلاد السودان أو بلاد شمال افريقيا إلا اتخذت هذه الطوائف أعوانا لها . لماذا هذا ؟ لأنهم اخوان شركاء في الصيد . فالمستعمرون من أوروبا كالأساد وكالثور وهؤلاء الشيوخ كالذباب والحدآت فانها تأكل فضلات أولئك المستعمرين . ولقد أخبرت منذ أيام أن رئيس طائفة كبيرة من الصوفية ببلاد المغرب قد تزوج امرأة فرنسية . إن فرنسا تعرف كيف تؤكل الكتف . إن أوروبا (كما يقول غاندى مصلح الهند) أشد خطرا من الشيطان وما أكذب الشيطان اذا نشر شره وهو يذكرك الله ﴿ وبعبارة أخرى نقول ﴾ إن الأحاديث الواردة في الدجال يراد منها ما هو حاصل الآن فعلا في بلاد الاسلام ، حتى يقول المسلم « اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ، ومن عذاب النار ، ومن فتنه الحيا والممات ، ومن فتنه المسيح الدجال » فهذه الفتن كلها حاصلة والمظهرون الصدق والاخلاص في العالم وهم كاذبون كثير أفرادا وأمتا . فهؤلاء الشيوخ يقولون للناس « واضربوا على الأوراد صباحا ومساء فقط » ولكن لا يحببونهم في العلم لأن أكثرهم جهلاء والمتعلمون منهم كالمعلمين من أهل أوروبا يقولون « اذا تعلموا تعالوا علينا » وهذا المقام تقدم شرحه في مواضع كثيرة من هذا التفسير مثل ما جاء في سورة الكهف عند آية - وما كنت متخذ المضلين عضدا - وفي سورة ابراهيم في آخرها ، وفي سورة سبأ عند آية محاجة الضعفاء والذين استكبروا مثل ما هنا وهكذا . فقال : لقد أنشرح صدرى لهذا الجواب ، ولكن بقي أمر واحد وهو : « كيف يقول ابن عباس ان اليهود يتخيلون ملكا يكون لهم على يديه » فهل هذا له أثر . فقلت : إن أمر اليهود لا يخرج عما قررناه . إنهم الآن مشقتون في كل أمة من الأمم وهم أذكيا جدا ولهم تاريخ مشهور ، فهم يحافظون على مجدهم ولا أمة في الأرض تضارعهم في هذا لأن التوراة قد ملئت بأخبار أسلافهم ، وهم قد أخذوا على أنفسهم أن يكونوا فتنه الأمم كلها كما نقلته في هذا التفسير منقولا عن التلمود ، فلا تجد فيهم علما ولا حكما ولا سياسيا إلا رحمه موجه الى خير أمته وإن هلك جميع الأمم . وأقرب شاهد على ذلك أن الذي أثار الحرب الكبرى في ألمانيا وأوروبا هم فلاسفة اليهود فإن تنشيد يهودى وهو الذى نشر فيها « ان الرحمة في هذه الأرض خطأ فلا يبقى إلا الأقوياء » وانتشرت آراء كثيرة في هذا المعنى

فقامت الحرب بين الأمم كلها . ثم هم أنفسهم لما رأوا أن ألمانيا أخذت تندصر نشروا في طول البلاد وعرضها انها أمة متوحشة فنارت الأمة على الحكومة فسلمت ألمانيا لمن هم أضعف منها . وقد مضى على هذا نحو (١٣) سنة لأننا الآن في سنة ١٩٣٠ وإيقاف الحرب كان في سنة ١٩١٨ ونسمع أثناء طبع هذه السورة أن ألمانيا قمت تنفض الغبار عن وجهها ويقول رجالها في الحزب الاشتراكي القوي فيها الذي قام الآن فعلا « لا يبقى يهودى في البلاد » لأنه يستحيل أن يكون يهوديا وألمانيا في آن واحد . هذا هو الذى يقال فعلا عند طبع هذه السورة . وهامى ذه ألمانيا يقوم شبانها في هذا الاسبوع فيحطمون زجاج منازل اليهود . إن اليهود يريدون أن يجعلوا لهم السلطان على العالم كله ولو بطريق غير مباشر

ولقد أراحوا القناع عن أمرهم أيضا في مسألة فلسطين . فبعد الحرب التي ارتجت لها الكرة الأرضية وحصل الصلح أخذ اليهود يطلبون أن تكون لهم دولة في فلسطين . وهذا من مكرهم وخداعهم . وأيضا ان القائم بأمر البلشفية في روسيا هم اليهود ولاندرى ما يتم في ذلك . فالعالم كله اليوم مخدع وأكث الناس خداعا اليهود . ونحن نستغيث بالله من هذا الخداع

وعلينا أن نسمى في رقى المسلمين بعلوم الأمم ثم نكمل ما نقص من أخلاق غيرنا بعد كمال أنفسنا نحن . واذ ذلك نعلم أجيالا وأجيالا يكونون صادقين لخدمة الأمم فيذهب خداع الأمم بعضها بعضا وأكاذيب السياسيين والدجالين وشيوخ الطرق وأكاذيب التجار بل خداع الشهوات واللذات فهي ملحقات بخداع الدجالين لأن الانسان مخلوق مسكين تخدعه شهوته ويخدعه غضبه ويخدعه نقص علمه ويخدعه الأمم ويخدعه الشيوخ الجاهلون . ولست أقول إن شهواتنا من قبيل الدجالين . كلا . بل أقول انها ملحقات بذلك مقيسة عليه . فلنجد نحن المسلمين في العلوم انساوى الأمم ثم نسير على صراط مستقيم للتمهيد الى السلام العام بين الأمم الذى عبر عنه بزمان عيسى ابن مريم ولن يكون زمان المسيح إلا بعد أن يقتل الدجال . إذن لنقتل الدجل من بلاد الاسلام أولا ، ولن يكون ذلك إلا بالعلم وبعد ذلك نقتله من الأمم ثم يكون السلام العام وهذا هو المقصود ، فليس في هذا أيها الذكى انكار للمسيح على حسب لفظ الأحاديث ولالدجال على حسب لفظها ، وانما الذى يجب علينا نحن أن نعمل من الآن لهدم أركان الدجالين وترقية النفوس ليصلح العالم ويعم السلام . هذا ما أدين به وحسبنا الله ونعم الوكيل

فلما سمع صاحي ذلك . قال : لقد نطقت بعلم وأفدت بفهم وشرحت صدرى ولكن ما نقوله من السلام العام وانه يحصل بامانة الدجالين وتعميم التعليم بعيد الحصول ، فأضرب مثلا مشاهدا أقيسه عليه . فقلت : أذكرك بما تقدم في أول ﴿ سورة يوسف ﴾ . ألم أكتب مقالة أجل فيها على الحكومة المصرية لاهمالها حفظ الطيور النافعة . قال بلى . قلت : ألم تأمر الحكومة بحفظ هذه الطيور . قال بلى وتبلغ فوق (٣٠) عدا منها أبو قردان والكروان والزقزاقين الشامي والبلدى الخ . قلت : فأيهما أنفع للناس : أكل أبى قردان وأكل هذه الطيور كما كان ذلك حاصل قبل منع حكومتنا أم إبقاؤها لتأكل الحشرات والدود فينمو الزرع كما هو الحال الآن قل : بل إبقاؤها خير ، ونسبة منفعة أكلها الى منفعة ما تناله من بقائها أقل من نسبة الهواء الى الماء من حيث الخفة إذ تقدم انه أخف منه (٧٧٣) مرة قريبا . واذن تكون المنفعة في أكل تلك الطيور أشبه بالعدم فقلت : وماذا تقول في البقر والجاموس التي تساعدنا في الحرث والسقى اذا فرض أنه ليس لدينا غيرها اذا ذبحناها وأكلناها ، أنا أكلها أم نبقها ؟ فقال : بل نبقها كما نبقى الطيور ، ومن أكل هذه الطيور أو هذه الحيوانات المذكورة فهو أولى بأن ينسب الى الجنون من أن ينسب للعقل . فقلت أحسنت ، ثم قلت انظر : هنا ماء يسقى الزرع وهواء يتنفس فيه ويأخذ منه الكربون كما تقدم في ﴿ سورة يس ﴾ عند آية - سبحانه الذى خلق الأزواج كلها - . قال نعم . قلت : وطيورنا كل

الحشرات والديد ، وذوات أربع تحرث الأرض وتسقى الحرث . أليس كل هؤلاء تعاونوا على المزرعة . قل بلى . قلت : وهم مختلفون صفات اختلافا بينا . قال بلى . قلت : فإذا تقول في الانسانية العاقبة . أليسوا مختلفين أمّا وأفرادا اختلافا كثيرا أو قليلا . قال بلى . قلت : والاختلاف لغايات كالاختلاف بين صفات الانسان وصفات الطير والهواء والنتائج تبع ذلك الاختلاف . قال نعم . قلت : أفليست الدنيا كلها مزرعة واحدة . وبنو آدم اذا قتل بعضهم بعضا يكونون في سخافة عقولهم أشبه هؤلاء الزارعين الذين ذبحوا أبا قردان وأكلوه وذبحوا البقر والجاموس وحرّموا الزرع من تلك المنافع فأصبحوا خاسرين . قال بلى والله حسن جدا . إذن الانسانية للآن في غاية النقص . قلت نعم وكماها بذبح الدجل والاستعمار ، فهذا الشيخ الذي يقول للتلميذ « اتبعني واترك كل علم غير ما أقوله لك » مريدا بذلك إيقاف عقله أشبه بالفلاح الذي ذبح أبا قردان لأكله ونسى انه هو الذي يأكل حشرات حقله ، وهذه الأمم المستعمرة التي تذلل الشعوب ليدوم خضوعهم هم أشبه بذلك الفلاح أكل الطيور وذبح البقر والجاموس وقعد يضرب أخماسا لأسداس . قال : ما هذا ؟ إذن الانسانية الآن بهذا البرهان سخيفة غبية . فقلت : حقا لا انسانية . وهذا لا يزول إلا بأن يفهم المسلمون آيات هذه السورة ويعلموا أنهم هم المقصودون بانئصال الانسانية من حقها وجهلها لأنهم - خبر أمة أخرجت للناس - . وأن اليهود لن يرجعوا عن إضلال الأمم ودس الفتن فيها وكذلك أمم أوروبا لن ترجع عن إضلال الأمم فتصنع معها ما يصنع الفلاح الغبي الذي يأكل أبا قردان وبذبح البقرة والجاموسة اللتين تنفعانه في نمو زرعهم إلا بظهور الحقائق ظهورا تاما ونشر الثقافة في الأمم والتعالي بالأخلاق الفاضلة وحين ذلك يفهم المسلمون سر قول ابن عباس في تفسير هذه الآيات . وأن اليهود وغير اليهود لن يسلطوا على هذه الانسانية وانها لا بد من ارتقاؤها وأن الحرب ستزول ويكسر الصليب لأن ديننا اخترعه العقل الانساني واجتلبه من دين البوذية لن يبقى إلا بالمشرين وهم يحملون الصليب

فهذه وأمثالها ستخف وطأتها وتعرف الانسانية الحقائق ويكون الناس إخوانا في نفس الحياة ، أمّا مثل المستعمرين الذين يفشون الجهل في الأمم والشيخوخ الذين يتاجرون بالدين كمثل من رأى صبيا يرضع من ثدي أمه حكم بأن لا يترك هذا الثدي أمد الحياة وهو يرى ويعلم أن هذا الطفل له أدوار ثلاثة : دور الجنين ودور الرضاعة ، ودور الاستقلال في الطعام والشراب ، فاقصر المريد على قراءة الأوراد أشبه باقتصار الطفل على لبن أمه أمد الحياة ، واقتصر الأمم التي استعمرها الأجنبي على أن يكونوا خدما وقد قتلوا ذكاهم أشبه بذلك الصبي الذي لا يترك ابن أمه ، فهؤلاء وهؤلاء قد حرّموا فوائد عظيمة فقدها الانسانية بتأخيرهم رقي غيرهم ، وكتابتنا العزيز وتفسير ابن عباس يدلان أن الانسانية ستأخذ حظها ولا يتم إلا بالسلام العام وبقتل المسيح الدجال ولا يعيش في الأرض إلا الصادقون المخلصون

أم تر الى قوله تعالى - إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا - أي النصر ليس قاصرا على الحياة الأخرى ، إذن فلنبشر الانسانية كلها بالنصر وانهم يصلون للسلام العام لأن دين بالاسلام وأمة الاسلام المستقبلية ستنصر في هذه العقيدة العيسوية المحمدية وتقتل الدجل وتحبي السلام العام الذي يقوله المسلم في عبادته

فلما سمع صاحبي ذلك . قال : ما أجل هذا المقال ، وما أبهج العلم ، وما أسعد العلماء ، ولكنني أريد منك زيادة إيضاح في موضوع الدجالين . فقلت : أيها الذكي اقرأ ما تقدم في آخر سورة المائدة عند قوله تعالى - وإذا قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله - ثم انظر كيف كان هذا الدين صورة منقولة من (دين خريستا) ومن (دين بوذا) بالهند أحدهما قبل الميلاد بمئات السنين والآخر قبله بألاف السنين ، وتأمل فيما كتبتة هناك تجد أصول الدين منقولة بالحرف الواحد وهي هناك واضحة أمّا إيضاح ، وعلى هذا نرى هذا الدين له مبشرون قائلون بأمره ، محافظون على تعاليمه ، ومن عجب انهم

يتصرفون فيها تصرفاً مزرعياً ، ومن أفضله أن الخرافات التي عمت الكرة الأرضية الآن هم المشيرون بها وهم الفاتكون بالأمم وهذا مخالف لنص هذا الدين على خط مستقيم . ولقد جعل مبشروهم الدين آلة لتفريق الأمم وزلزلة العقائد حتى ان فتح مصر لبلادنا المصرية لم يتم إلا بما اتخذوا لذلك من مبشرين زعزعوا العقائد فدخلت جنودهم البلاد بعد أن دخلت شرورهم وسمومهم القلوب

وهاهي ذه فرنسا ترحب بالدين خارج بلادها لاضرار عقائد الأمم ولما لكنها تضطهده في داخل بلادها علما منها أن تعاليمه ضارة بنظام بلادها . وبالجملة فالديانة المسيحية الآن أحبولة لاصطياد النفوس وقنابل لتفريق الجوع . أليس هذا هو أثر من آثار المسيح الدجال . وأى دجل أعظم من هذا . ونظرة في المقالة الآتية التي سطرها أحد الفضلاء في « مجلة جمعية الشبان المسلمين » تكفي لتبيان ماقلنا وذلك في عدد نوفمبر سنة ١٩٣٠ وهذا نصه :

﴿ من كان بيته من زجاج فلا يرحم الناس بالحجارة ﴾

يحكى أن سائحا انجليزيا رأى صينيا يصنع صنعا من الأرز المطبوخ فوق قبر فقال له متهمكا : « متى تظن أن فقيدك يقوم فيأكل هذا الأرز ؟ » فأجابه الصيني بقوله « يكون ذلك متى جاء فقيدكم يستنشق روائح الأزهار التي تضعونها على قبره » هذا الرد الطريف المسكت ذكرني بكلمة لصيني آخر عن أعمال المبشرين في الصين فيها نفس المغزى وهو : « ان من كان بيته من زجاج فلا يرحم الناس بالحجارة » كنت قد قرأتها من زمن بعيد ثم رأيت أن أنقلها اليوم لقراء مجلة الشبان المسلمين كرد (خالص) على ذلك الاختلاق وذلك التقارير الوهمية التي يذيعها المبشرون عن انتشار المسيحية في أنحاء العالم وتراجع الاسلام تحت ضغط انتشارها باعتبار أن السكامة صادرة عن رجل يتكلم بلسان ربيع سكان المعمورة وهذه هي : لأى غرض جاء الى بلادنا هؤلاء المبشرون ؟ هم يقولون انهم جاءونا بدين يرون فيه لنا أسباب السعادة في الدنيا والآخرة . ويسمون هذا الدين بالدين المسيحي ولأننا لم نكن في حاجة لمثل هذا الدين بالمرّة لأنه في نظرنا دون شريعة كونفوشيوس وبوذا لم يستطع المبشرون مدة أربعة عشر قرنا أن يؤثروا به فينا اذ لا يوجد حتى الآن بين أمتنا التي يربو عددها على أربعمائة مليون نفس أكثر من أربعمائة ألف مسيحي صيني ولست بحاجة لأن أعرفكم هؤلاء الصينيين المسيحيين فهم الفقراء الذين لا يقدرّون على كسب قوتهم . ولذلك صاروا مسيحيين لأن المسيحية لديهم هي العيش ولم يستطع المبشرون رغمًا عن الجهد الجهد استئالة رجل ذي شأن ككاتب مطبع أو موظف أو تاجر أو أى ذى حرفة ولم يجتمع حولهم غير التمسّاء والمتشردين . وكيف يكون الأمر غير ذلك مادام بوذا قد علمنا كل ما يحاول هؤلاء المبشرون تعليمه لناصرة أخرى ومادامت فلسفة كونفوشيوس أكمل وأجل قانون عرفناه الفضيلة والأخلاق حتى اليوم . على أن أساس الديانة المسيحية وحده يكفي لابعاد كل ذى تفكير حر عن المسيحية وإنى أترك لكم الحكم على صحة قولى هذا . . يقول المسيحيون ان الله أراد في يوم من الأيام انقاذ العالم وبما أنه القادر على كل شئ - وإنما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون - كان يجوز أن يظهر رغبته في انقاذ العالم بكيفية بسيطة واسكن الأمر لم يجز بهذه البساطة فهم يقولون ان الله الذى كان واحدا فردا رأى أن يصير ثلاثة مع بقائه فردا فليفهم ذلك منكم من يستطيع . وكانت نتيجة ذلك أن الله رزق بكرا من بنات آسيا غلاما وهذا الغلام صار رجلا والها في آن واحد فهاهذه التعقيدات والاشكالات . إني أسألكم هل يوجد صيني سليم العقل يقبل هذه القصة ؟ أليس هنا وحده يفسر لنا لماذا لم يجد المسيحيون سبيلا لنشر دعوتهم في هذه البلاد التي تترك الحكومة فيها للشعب حرية تامة في التفكير في مسائل الدين كما أثبت ذلك القسيس هوك . الى جانب هذا نعلم أن المسيح (نبي البيض) دعا قومه الى التسامح والرحمة والغفران (كما فعل

كونفوشيوس من قبل) وأوصاهم بأن يعيشوا مع الناس في سلام وأن لا يعملوا مع الغير ما يريدون أن يعمل الغير معهم . فهل المبشرون يتبعون الشريعة التي يريدون ادخالها بيننا . كلا فالدين ماهو الا وسيلة في أيدي هؤلاء القسوس الذين جاءوا لانتقاذ أرواحنا (كما يقولون) غير أن نطلب ذلك منهم كانوا الطلائع لغيرهم من مواطنيهم وهم التجار الذين ظننا أنهم هم الآخرون أتوا لتبادل المنفعة معنا فقامناهم بكرم واطف ورحابة صدر فيما ذاقوا بلوا حسن صنيعنا . قابلوهم باحتلال الجهات التي يسكنونها من الأراضي الصينية وادعوا أنهم ملك لهم وحكومة بقوانينهم ومحال انهم كانوا يقبلون ذلك في بلادهم لو ادعى صينيون منا هنا ملك مثل دعواهم فتركناهم مع ذلك وشأنهم ولكنهم ما لبثوا أن أصبحوا لا يطاق لهم وجود لأنهم أرادوا أن يكونوا هم السادة أصحاب الأمر والنهي وأن نكون نحن أرباب البلاد وأسيادها خدما لهم يتكلموننا بالقوة والأرهاب الخ » وهي كلمة طويلة نكتفي منها بما تقدم . والذي يلفت النظر فيها بنوع خاص هو أن المسيحية التي يدعي المبشرون أنها تنتشر في أنحاء المعمورة وان الاسلام يتراجع تحت ضغطها لم تستطع (بعد جهد جهيد استمر نحو ١٤٠٠ سنة) ان تجذب اليها رجلا واحدا ذاشأن في بلاد الصين وان كانت فازت بعد ذلك الجهد بأربعين ألف مسيحي صيني لأظن ان العالم المسيحي الأبيض يغتبط بأخوتهم لأنهم . كما يقول ذلك الكاتب . أناس ضحكوا على ذقون المبشرين لياكلوا (عيشهم) والمبشرون من جانبهم يضحكون بهم على ذقون من يمدونهم بالمال ليعيشوا هم الآخرون . فالاسلام لاخوف عليه من تهديد المبشرين ومزاعمهم

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا * أبشر بطول سلامة يا مريع

مادام هذا الدين السمع الذي كفل الحرية الصحيحة للناس في حدود الفضيلة وحرر النفس البشرية وساوى بين الناس فلم يفضل أبيض على أسود أو أحرأ أو أصفرا بالتقوى والعمل الصالح . لاخوف عليه وهو دين الحرية والديموقراطية من طغيان الدين المسيحي عليه . ذلك الدين الذي يحتفل أبناءه البيض (في بلاد المدنية والعدل والحرية أمريكا . معقل رجال الدين ومصدر المبشرين) بتعذيب اخوانهم ومواطنيهم المسيحيين السود ونحن نتحدى كائنا من كان من المبشرين في مشارق الأرض ومغاربها أن يكذب هذا الخبر الذي نورد هنا وهو هذا

احتفل أميركيو ولاية نيويورك في مدينة نايور بتعذيب زنجي اسمه « دان دافيز » فلما شد وثاقه الى شجرة . بعد التعذيب الوحشي الشديد . لاحرقه حيا توسل « دافيز » المسكين الى ذلك الجمع المحقد من الرجال والنساء بعبارة مؤثرة تستدر الدمع أن يتقدم واحد منهم ليقطع عنقه قبل أن يسام ذلك العذاب الأليم فقال اني أرجو أيها السادة أن يكون بينكم رجل عامر القلب بالمسيحية فيتقدم ليقطع عنقي ويريحني من هذا . فكان جواب الانسانية المسيحية البيضاء على هذا التوسل رنين ضحكات السخرية والاستهزاء من الجنس اللطيف والجنس الخشن سواء

نعم . لاخوف على الاسلام من طغيان المسيحية التي دعائها المبشرون . انما الذي بهم جماعة الشبان المسلمين أن يقفوا عليه هو أن الدين أصبح وسيلة في أيدي المبشرين يسترون تحت ثوبه مفسدة عمرانية اعتقادية تنقل مع الأجيال وحسب القراء أن يطلعوا على تصريح رئيس وزراء فرنسا في سنة ١٩٠٠ المسيو ولدك روسو عن هذه الطائفة في خطبة علنية أمام مجلس النواب حينذاك حيث قال : ان اختلاف التربية والتعليم باختلاف المدارس بين أهلية ودينية أحدث في النشء الفرنسي فرقتين مفرقتين قلبا وقلبا ومبدأ وغاية ففرق بين يوحنا وفرنسا ويخاص للجمهورية ويعاهد نفسه على الصدق في خدمتها وتأييد ذلك النظام الذي اختاره الشعب وفرق بين تربي في حجر جماعة اتخذوا لباس الدين رداء رياء ورواء خداع يربون الأبناء على كراهة الجمهورية ويبشون في نفوسهم مبادئ تناقض مبادئ الخ

واكتفى بهذا البيان على أن يترك التعليم حراً وليكنه أقل أبواب الوظائف الحكومية في وجوه خرتيجي مدارس تلك الجامعات ثم ظهر بعده من لم يكتف بذلك بل قضى بإقفال مدارس الرهبانات صيانة للأمة مما يهدد حكمها الثوري ونظامها الدستوري الذي أراقت في سبيله السماء الغزيرة حتى ظهر من انتصر للرهبانات . ولا يهنا نحن وجهة نظر كل فريق منهم إنما نورد هنا خلاصته . ففهم كاتب من كتاب الفريق الثاني وهو المسيو « دريمون » في جريدة « الليبر بارول » في سنة ١٩٠٢ حيث قال : في ألمانيا التي لا يحكمها أصحاب البدع والحق . يتصرف ولاية أمورها مع الرهبانات بغير ما تصرفنا به ويعملون معاقيض ماعملنا . فان جيراننا الالمانين لما علموا علم اليقين أن المبعوثين أقوى العوامل السياسية والتجارية تأثيراً وأجدها أثراً أمدوهم بعنايتهم وأظلوهم بحمايتهم . الى أن قال : فلم يمهّد للانجليز سبيل فتح مصر الا المبعوثون الانجليكان . فاذا كان باقيا هناك من لم يزل يتكلم باللغة الفرنسية فانما الفضل في ذلك يرجع الى مبعوثينا الفرير أساتذة المدارس المسيحية الذين حافظوا على اجتذاب بعض القلوب الى فرنسا . نعم ليست العبرة بكلام هذا ولا بكلام ذاك من حيث وجهة نظر كل منهما إنما العبرة بمدلول كلامهما حيث كشف لنا كل منهما سوءة من سوات البشرين ونهبنا الى جانب من جوانب الخطر الذي يهدد الجنس الشرقي والاسلامي الملقى زمامه الى هذه الطائفة على ظن أنها تقوده الى مراقى العلم والفلاح . فليتق المسلمون الله في أبنائهم وخلفائهم من بعدهم ليتدبروا في كلام الرجلين حيث يظهر بوضوح جناية المبعوثين الدينيين ومدارسهم على النشء وليس لهم علينا حجة بعد ابراد شهادة شهود من أهل المبشرين عليهم والظاهر أن الفتنة الأخيرة المدافعة عن الرهبانات قد انتصرت فهأى فرنسا اليوم تشهر في وجه الاسلام سيوف الاعتداء على العقائد بتعطيلها الشعائر الاسلامية في بلاد المغرب واقفاها محلات عبادة المسلمين في نفس الوقت الذي تنشر المدارس التي تلبسها ثوب التعليم ونشر الثقافة وتستر تحت هذا الثوب نفس الفكرة التي أجرى الله بها لسان المسيو دريمون فظهرت الحقيقة

أما الدين الاسلامي نفسه ففرنسا (وغيرها) تعلم علم اليقين أنه طود شامخ ثابت بمبادئه الانسانية . سام بتعاليمه الروحية . فان جيوش المبشرين الذين تملأ بهم الدنيا لن تقوى على زخرفته عن موضعه قيد شعرة ولكن حب الاستعمار هو الذي يدفعها الى ركوب هذا المركب الخشن لأنها ترى في تعاليم الدين الاسلامي عقبة في سبيل الاستعمار ولكن لتفهم فرنسا أن نيتها مفضوحة وأن المسلمين اليوم غيرهم بالأمس . انتهى

فلما سمع صاحبي ذلك . قال : لقد شرحت صدرى . فقلت الحمد لله رب العالمين . والى هنا تم الكلام على سورة غافر وذلك صباح يوم الخميس ١٦ اكتوبر سنة ١٩٣٠



تفسير سورة فصلت

(هي مكية)

(آياتها ٥٠ --- نزلت بعد غافر)

﴿ هذه السورة خمسة أقسام ﴾

﴿ القسم الأول ﴾ في تفسير البسملة

﴿ القسم الثاني ﴾ في التوحيد وذكر بدء الخلق من أول السورة إلى قوله - ذلك تقدير العزيز العليم -

﴿ القسم الثالث ﴾ في ذكر إهلاك بعض الأمم التي كفرت كعاد وثمود الذين هم أقرب إلى المرسل إليهم دياراً ولغة وعوائد وتاريخاً من قوله تعالى - فإن أعرضوا فقد أنذرتكم - إلى قوله - فأخذتهم - صاعقة العذاب الهون - بما كانوا يكسبون - ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون -

﴿ القسم الرابع ﴾ في ذكر الحشر وشهادة الجلود والحواس واختصاص الناس مع أعضائهم والقرناء واضلاهم وانهم يتتابعون في العذاب كما تتابعوا في الاقتداء وتناسى عقوبهم ثم إذا ظهرت الحقيقة تنابدوا وتناكروا وتعادوا واتباع ذلك بالتواد والتحاب بين العوالم الطاهرة من الملائكة وعوالم الانس ، وكيف يبشر الأتولون الآخرون قائلين لهم وقت الحياة وعند الموت « لا تخافوا مما تردون عليه ، ولا تحزنوا على ما خلفتم من الأبناء والأهل والأمم ، فستردون الجنات ، وتنالون أعلى المقامات ، في ضيافة الله وإكرامه » ثم وصية المؤمن أن يكون هيناً ليناً ، رحيماً ودوداً عفوياً ، يتألف أصحابه ولا يتبرم بهم ليصبحوا أحبابه ، وذلك لا يكون إلا بالصبر والاحتمال وحسن الخلق والتواد والتألف ، وأن يستعذ بالله من قرناء السوء من شياطين الانس وشياطين الجن إذا وسوسوا له وتزغوا بينه وبين أصحابه وفتحوا له باب الشر والنزاع والشجار ، وذلك من قوله تعالى - ويوم يحشر أعداء الله إلى النار - إلى قوله - فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم -

﴿ القسم الخامس ﴾ من قوله تعالى - ومن آياته الليل والنهار - إلى آخر السورة ، فذكر الشمس والقمر وهما منافعهما ، وأن ذلك لا ينبغي أن يوقف الهم عند عبادته وسجوداً لأن الإنسان لم يخلق في هذه الدنيا إلا للرقى ولالرقى إذا وقف عقله عند مصنوع أرضى كالأصنام أو مصنوع إلهي كالشمس والقمر ، فإذا وقف العقل عند أحدهما سواء أكان صنفاً أم جرماً مضطرباً بهراً كان ذلك المعبود حاجزاً بينه وبين ارتقاء عقله ، وكيف يبحث عن الأجرام السماوية البديعة التي شمسنا بالنسبة لها صغيرة جداً ، كيف يبحث عنها إذا كان يرى أن الشمس أكبر وأعظم الأشياء لأنها معبودة والمعبود يفوق كل ماسواه ، فإذا تكون الشمس أعظم موجود ، فإذا عني لعالم فلكي أن هناك شمساً أكبر منها صده الدين عن ذلك الاعتقاد ، فما بالك إذا رأى أن هناك (١٠) آلاف مليون من الشمس أصبحت شمسنا بالنسبة لها كبرتقاله بالنسبة لبطيخة بل قلعة فضلاً عن شمس لا تزال محجوبة عن الأنظار ، هذا هو مقصود الديانات ومقصود العلوم ، إن الله قد أرسل إبراهيم الخليل فذكر صرح عبادة الشمس والقمر والكواكب ، وتم هذا نبينا ﷺ فانطلقت العقول بعد أن كانت محصورة أيام الصابئين في عبادة كواكب معلومة ، وحجرت العقول ومنعت من الاطلاع على عوالم لانهاية لها ، ثم أتبع ذلك بما يفيد : « انكم يا أهل الأرض لستم شيئاً مذكوراً بالنسبة

لعوالمنا الأخرى الروحية ، فإذا أبيتم بأهل الأرض أن تعبدوا ربكم ليتسع لكم المجال في رقي عقولكم لتخرجوا من العالم المادى ، فاعلموا أن هذه السموات والشموس والأقمار والتوابع ليست خالية من السكان ، إن هناك عوالم وهى الملائكة والملائكة صفوف وكلهم يعبدونى ، فإذا لم تبلغ مراتبكم هؤلاء فأنتم وشأنكم . فكم هناك من عوالم تسبح ربها عاكفة على السجود له والقيام بأمره ولا يسأمون بل عبادتهم بشوق وتوق وحب لاقتراب نفوسهم من ذلك الجلال الأبهى كما ان الشموس والأرضين دارت طائفة بنوع الجاذبية ، وإذا ظننتم أن أرضكم الحقبرة الصغيرة قليلة الشأن هى التى حظيت بالعقول والعلوم وأن العالم كله محروم منها فكبروا أربعا على عقولكم وادفئوها فى الثرى ، وكيف تظنون ذلك وأنتم ترون أن البحار التى زاد عمقها عن مائتى قامة وضوء الشمس محجوب عنها قد خلقنا فيها عوالم من سمك وسرطان وأعطيناها كل ما تحتاج اليه ، وأضأنا لها بضوء تصرفه على مقدار حاجتها وتطفئه متى شاءت ، وتوقده متى شاءت ، وتطارده فرستها بهدايته ، وتتخلص من عدوها متى شاءت ، فتظهر نورها الوهاج أمام عينيه كي تبهره ثم تختفي وهى أمامه ، فإذا فعلت ذلك فى قرار بحاركم الذى يصل الى ما يقرب من مائتى قامة ولا أذره يكون بلا حياة فهل أذرت الشموس العظيمة التى شمسكم بالنسبة لها لانهت شيئا مذكورا فضلا عن أرضكم المحقورة الضعيفة التى خلقتكم فيها زمانا لا تنقلكم الى عوالم أخرى تستأهلونها بما فطرتم عليه فى هذه الأرض من الأخلاق والأعمال أسمى بعضها بالجنان وبعضها بالنيران . كلا . فأنا لم أدع عالما حقيرا كأرضكم ولا عالما عظيما كالشموس العظيمة وتوابعها إلا أسكنت فيه عالما يليق به ، وكلما كان المسكون أرقى كان الساكن فيه أعلم وأعظم وأقرب الى ربه كما تقرب حاسة العين والسمع من العقل ، وتبعد عنه حاسة اللمس بعض البعد ، إن العين والسمع يعرفان القريب والبعيد ، واللمس لا يفقه إلا القريب ، فأنتم يا أهل الأرض أشبه بحاسة اللمس لأن علومكم مادية والعوالم الأخرى يقرب سكانها من ربهم لبعد نظرهم وكبر عقولهم وتشبههم بربهم ، وهذا ما يأتى من قوله تعالى - يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون - . ثم ذكر أن الأرض اذا نزل عليها الماء اعتزت وزادت وتزخرت بالنبات هكذا تحيا النفوس بالبعث كما تحيا الأرض بانزال المطر عليها . ثم ذكر أن هذا القرآن محفوظ لا يتطرق اليه الخلل تذكرة للأمم الأرضية الضعيفة لأنه نزل بحكمة وهى نعمة على الناس يستحق مسديها حمدهم له ، وأن الأمم المدعوة لهذا القرآن تقابله بما قابلت به الأمم السابقة أنبياءها لأن أهل الأرض منغمسون فى المادة ضعاف العقول غالبا ألهمتهم الشهوات عن الحكمة لاقترابهم من عالم الحيوان والنبات ، فهذه جبلة فيهم والله سبحانه سيجازى المسيء والمحسن منهم بما هو أهله من عقاب وثواب ، ثم إن هذا القرآن لو نزل بلغة غير العربية كما يقترح بعضهم لكان ذلك بدعا فيقال نبيّ عربى وقرآنه أنجمى فتقوم حجته عليه ويقولون فى آذاننا وقر كلا . بل الأمر واضح نبيّ عربى وقرآن عربى تسمعه أمة عربية وتنقله الى الأمم ثم تذيب لغتها وينتشر دينها وتقوم دول بها ، ولا يصح ذلك إلا اذا كان بلغة العرب ، ثم أبان أن أمر الساعة كأمر خروج الثمرات من أكمامها وكأمر وضع الحوامل ، فهذه الأجسام الأرضية الانسانية تحمل أرواحا تربى فى الأرض بالخير والشر وتمتعن بالنعم والنقم والبلايا والرزايا وترسل لها الأنبياء ويخلق فيها العلماء فتفتح الأجسام عن أرواحها بالموت كما تفتح الأكمام عن الزهر والسكران عن الطلع والحامل عن الطفل . فالأجسام بالموت تتمخض كتمخض الحوامل وتبرز تلك الأرواح ظاهرة واضحة على حسب ما جبلت عليه كما يخرج الطفل حاملا ماورثه من أبويه وذويه ودولته وأمتة فى الدنيا فيعيش على ما كان عليه فى الرحم من تلك الموارث ويتلقى كمال علومه فى الحياة ، فإذا مات فقد تتمخض جسمه عن روحه وأصبح فى عالم جديد يحمل صفات وآراء وأخلاق حتى اذا بعث برز هناك أمام الله والعالم بأخلاقه نفسه كما برز الطفل فى الحياة بما هو من جبلته . ثم قال وهذه الامور ليست بالطبع بل لا تحمل أنثى ولا تضع إلا بعلمه هكذا لا يعمل عامل عملا ولا يحشر الى جنة أو نار إلا بعلمه

لأن هذا نظام له قانون لا يتعداه . ثم أخذ يذكر أخلاق أكثر النوع الانساني فوصفه بأنه لا يجب إلا الامور المادية ، فاذا نقص منها شيء يئس مع انه خلق ليهدب ويربى ، واذا أنعم عليه بنعم كثيرة وغمر بها اغتر ووطن أن ذلك أمر دائم وأن النعم الروحية والأخروية تابعة للنعم المادية الجسمية ، ثم بشر الله النوع الانساني لاسيا العالم الاسلامي قائلا : « أيها الناس : إني سأفتح لكم أبواب العلوم والمعارف والحكم ، وأبين لكم الحقائق ناصعة واضحة ، وأولا أفتح للمسلمين البلاد شرقا وغربا وهذه دلالة صادقة على النبوة المحمدية ، كيف لا وأن النبوة تستلزم إيجاد الأمم وتربيتها ، فدين يجمع أمة وتعيش أمدا طويلا وهو ثلاثة عشرين قرنا ويضم من الشرق والغرب آلاف الآلاف ، إن ذلك لدليل على أنه من عند الله لاسيا اذا كان الذي نزل عليه ذلك الدين آتيا لا يقرأ ولا يكتب وهو في أرض حقة لاصلة بينها وبين العلم . وثانيا ان هذا القرآن قد فتح للناس باب قراءة العلوم والمعارف فانتشرت الفكرة في العالم كله وجاءت الحروب الصليبية فانتعشت أوروبا وظهرت العجائب الكونية وظهر علم الأرواح وعلوم النفس وهذه معجزة للقرآن . فهنا معجزتان : معجزة فتح البلاد على أيدي المسلمين . ومعجزة ظهور العلوم في أوروبا التي أدهشت العقول وحيرت الأفكار . وقد ذكرنا كثيرا منها في هذا التفسير . فهذه العلوم هي نفسها آيات الله تعالى أظهرها الله كما أخبر القرآن . والعلوم المذكورة قسمان قسم في العلوم الطبيعية والفلكية وهي علوم الآفاق . وقسم في علم الأرواح وعلم النفس وهو علم الأنفس . وذلك كله معجزة للقرآن . والا فكيف يقول - سئريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق - أوليس ذلك لنا نحن المسلمين الآن !

يقول الله - حتى يتبين لهم أنه الحق - . فليسمع المسلمون في أقطار الأرض كلام ربهم . هذا أوانه . يقول لكم : سأريكم آياتي في أنفسكم وفي الآفاق . أيها المسلمون : هذه الآيات قد ظهرت وبهرت . ظهرت شمس وبهرت العقول . ظهرت علوم الكيمياء . ظهرت عوالم بدية غابت عن عقول الأمم الماضية . ظهر ذلك كله . ظهرت أسرار النفوس وعلوم الأرواح . كلمت الأرواح الأحياء . كلوهم بما جاء به القرآن . قالوا لهم « اننا نعذب وننعم » . قالوا لهم : « اتنا نألم لكل ذنب اقترفناه » . قالوا لهم : « ان العلم والأخلاق الحيدة هما المسعدان لنا بعد الموت » . قالوا لهم ملخص ما جاء في القرآن

أيها المسلمون : هذا هو دينكم يأمركم أن تدرسوا كل علم وتقرأوا كل فن ويقول لكم الله إني عبادي قد فتحت لكم أبواب الجنات في هذه الدنيا . فتحتها على مصارعها . انظروا تأملوا ما فيها من جمال . وأين هي الجنات ؟ هي العلوم التي أبرزها الله في الأرض . إن الجنان نتائج العلوم والأخلاق . والنيران نتائج الجهل والذنوب . يقول الله - سئريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم - ولقد أرانا الله ذلك . كان آباؤنا أشرف خلق الله فلكوا الأمم لاسعادها . ولما سكنت رجبهم وغابت شمسهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فلقوا غيا فأذلهم الأمم . وهذه أيضا من آيات الله التي أراها الله لنا . أرانا آيات في آياتنا إذ أخضعوا الأمم . وأرانا آياته في أنفسنا في مصر والشام وسوريا والحجاز وفلسطين والعراق وبلاد المغرب وفي بلاد روسيا والهند وسائر أقطار الاسلام وفيما وراء البحار . خضعت أكثر هذه الأمم للفرنجة . أذاقها الله النكال . هذه من آيات الله تعالى لأنه هكذا أوعد الله الذين لا يفسكرون . أظهر الله علوم الكائنات من شمس وأقمار وكواكب صغار ومعادن وحيوان ونبات وجمال أرضي وعجائب حكمية وعلوم أرواح . كل هذا من آيات الله في الأنفس والآفاق ثم أيد ذلك بأن الله شهيد على كل شيء فهو يحقق هذه الامور كما وعد وانه عالم بالاشياء كلها وقد تم ذلك كله في هذا الزمان وسيزيد في الازمان المستقبل

إني لأدهش أيها المسلمون حينما أرى هذا كلام ربنا وأرى انه ديننا وأقول في نفسي كيف يكون هذا دين أمة الاسلام والناس كلهم يرقون العلم أما هم فانهم ناعمون

﴿ التفسير اللفظي ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(حم) هما حرفان وهما الحاء والميم وقد علمت أنهما في سورة غافر تشيران للحمد الذي اكتشفهما والنتيجة أنهما ترشدان إلى اقتناص سائر العلوم ، هذا ملخص ماضى في هذا التفسير ، أما لكل سورة منزلة والمزية التي في هذه السورة غير التي مضت ، فانظر إلى ما سألتني عليه ، انظر كيف يذكر الله الحاء والميم المذكورين في قوله تعالى - تنزيل من الرحمن الرحيم - فالحاء والميم في كل من الاسمين ، وكيف يقول - نزلا من غفور رحيم - ، وكيف يقول - تنزيل من حكيم حميد - فالحاء والميم في الحمد والحكمة والرحمة المذكورات في هذه السورة ، ولا جرم أن الحمد أعظم هذه المعاني لأنه لا يكون إلا على نعم ولانعم بحمد عاينها إلا إذا عرفت ، ومتى عرف الإنسان أن الله رحيم ورحمته شملت العوالم العلية والسفلية رحمة مصحوبة بالحكمة لا كرحمة الأمهات بل هي كرحمة الآباء مصحوبة بشدة للتوازن والمحافظة عليها . متى عرف ذلك حمد الله فإنه يرجع الأمر إلى التنبيه على العلم لاسم أن الحاء والميم في الحمد قد جاء في أول الكلمة متتالين فأما في الحكمة والرحمة فليسا كذلك فرجعت هذه السورة كالتى قبلها مع تفصيل في هذه . ألا ترى كيف ذكر بدء الخلق وأنه نظم السموات والأرض وأودع فيها الأقوات والأرزاق وأعطى كل شئ خلقه وأنه أمر الأرض والكواكب بالانبات إليه فأتت له طائفة بطريق الجاذبية لا بطريق القسر والقهر وهذا الدوران مبنى على الحكمة والنظام العجيب . وكيف زين السقف الذى فوقنا بمصابيح مضيئة مشرقة بهجة تسر الناظرين فبينما الإنسان ينظر في خلقه يرى أزهارا وأنوارا وجمالا وبهجة وماء اطيافا شفافا تظهر فيه الوجوه والطيور تحوم حوله ويرى أنعاما وأشجارا وأنواعا شتى من الثمار في الأرض إذا هو ينظر فوقه يرى سقفا مرفوعا مزينا بالعرى والجملة والقناديل المعلقة والرسوم البارزة والوجوه الباسمة والأوضاع المشوقة والبهجات الشارحة للصدور المنعشة للقلوب المزينة الغيوم المذكرة بالأحباب المبعدة للنصب المزينة للغوب المناجية لنوى العقول الشريفة الملهمة لهم الجلال السارة المفكرين المذكرة برب العالمين الصغيرة لحياتنا الحيوانية المعظمة للحياة الملكية الخاصة بالكبراء الممنوعة عن الجهلاء المحجوبة عن ذوي الكبرياء تبرقت عن الأغيار وظهرت للأخيار وازينت وابتهجت وأبهجت . ذلك من الرحمة التي ذكرها في قوله - الرحمن الرحيم -

ثم انظر إلى الحكمة التي بينها في السورة . ألا تراه بين أن قرناء السوء يوسوسون إلى أمثالهم وقد زين لهم وسوستهم كما زين السماء لأصحاب العقول الكبيرة . ثم تراه يجعل الملائكة ملهين للنفوس الشريفة في الأرض كما يبشرونهم عند الموت وعند البعث ويسامعون عليهم . أليس ذلك للحكمة . فبدء الخلق رحمة . ووسوسة النفوس الشيطانية إلى النفوس الشهوية وإلهام النفوس الملكية إلى النفوس الفاضلة في الأرض من آثار الحكمة . ذلك أن الحكمة تقتضى أن يقرن الشبيه بما يشبهه . فالشياطين توحى إلى أمثالها من الناس والملائكة تلهم من يقرب لها في الخصال ليلحظوا بهم بعد موتهم . ثم أفاد أن الملائكة يعرفون ربهم أكثر من أهل الأرض فكأنهم شمس تدبعا أرضون ، فإذا رأينا شمسنا قد تبعها السيارات والأرض وتوابعها ونحوها هكذا تلك الأرواح الكبيرة تتبعها أرواح صغيرة في أرضنا وغيرها فكأنها تدور حولها كما تدور أرضنا حول شمسنا ، وكما أن أرضنا تستمد من الشمس النور هكذا الأرواح الصغيرة في عالمنا تستمد العلم من أرواح فوقها أعلى منها بالأطام أو الالتقاء في الروع وهذا هو المقصود من قوله - فالذين عند ربك

يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون - وانهم يتنزلون على أهل الأرض يقولون لهم لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا . كل ذلك من الحكمة . ومن الرحمة أن الأرض تخرج النبات فينتفع به أهل الأرض . ومن الحكمة أن ينزل القرآن باللغة العربية لمناسبة المرسل اليهم الذين هم أقرب اليه . ومن الحكمة مناسبة خروج الثمرات من الأكلام ووضع الاناث لقيام الساعة فكلاهما نتائج وثمرات لمقدمات

وبعد أن ذكر آثار الرحمة وآثار الحكمة وان كان كل منهما مصاحبا للآخر ختم السورة بما يوجب الحمد وهو انه يرينا آياته في الأنفس والآفاق . واذا أرانا آياته فعنايه انه يظهر العلوم والأسرار كما ظهر لك منه كثير في تفسير هذه السورة وغيرها وبالعلم وانكشاف الحقائق يكون الحمد فرجع الأمر كله الى معنى (حم) فقله حم إشارة الى الحمد والحمد لا يكون إلا بمعرفة النعمة والنعمة المذكورة في السورة منها ما غلبت فيها الرحمة وهي بدء الخلق وانبات النبات . ومنها ما ظهرت فيه الحكمة وهي وسوسة الشياطين لأمثالها والهام الملائكة لتلاميذها واتباعها ونظام الأمر كله انه يرينا الآيات وهذا سبب في الحمد . حقا ان هذه السورة روضات الجنات إن من يقرأ هذه السورة يرى ألفاظها متشابهة ومعانيها متشابهة وكأنه لا يرى شيئا جديدا فإذا أعين النظر انفتحت له خزائن العلم والحكمة كما يحصل عند ما يسمع الانسان قوما يتكلمون بلغة لا يفقهها فانه يرى أن الألفاظ متشابهة ولا يفهمها إلا ببعضها وكما يشاهد جيشا عرمرما من بعيد فانه يراه شيئا واحدا لا اختلاف فيه وكلما اقترب ظهر له تفصيله . وكما يرى الشمس والقمر وهو على الأرض فانه يرى جسمين صغيرين فإذا ارتقى بالعلم في الدنيا أو بعروج روحه الى السماء وكان من أهل ذلك هاله عظمتها . هكذا هذا القرآن نرى اننا كلما توغلنا فيه ظهرت لنا علوم جديدة تبرز في ثناياه

هذا ما استبان في معنى حم فالهاء والميم يعبران عن الحمد والحمد يستلزم العلم . والمسلمون اليوم مخاطبون وهم الآن أقرب الى العلوم من كل زمان لأن الله أراهم الآيات في أسلافهم وفيهم وفي الآفاق من العلوم والمعارف . فاذا قصر مسلم بعد ما بيناه فان الله عز وجل يخسف به وبأمثاله الأرض وذلك بالدلة والهو ان ثم الانقراض وهذا أمر لا شك فيه وأصبحت موقنا به كل الايقان . وقوله (تنزيل من الرحمن الرحيم) أى هذا تنزيل بمن عمت رحمة عظيمة الامور ودقيقاتها في أكناف السموات وآفاق الأرضين . وقوله (كتاب) خبر بعد خبر ثم وصفه بأنه فصاة آياته في معان مختلفة من عجائب خلق وابداع صنع واحكام نظم وانزال غيث وانزال وحى وإلهام واضاءة سقف مرفوع وتبيان الحقائق واخبار بمستقبل العلوم ووعظ واحكام وأمثال ووعد ووعد وبهجة للناظرين وهذا قوله (فصلت آياته) أمدح (قرآنا) موصوفا بوصفين : الأول كونه عربيا . الثاني كونه (لقوم يعلمون) ووصفه بأنه عربى من الاشارات المحيية فان اللغة العربية اليوم لا يخلو محفل من محافل العالم شرقا وغربا من ذكرها والترنم بحماسنها والقيام بشأنها ومعرفة تاريخها وتاريخ دينها والبحث والتنقيب عن أسرارها وآثار أهلها كما تقدم في ﴿سورة سبأ﴾ وأنت ترى المستشرقين في العالم العربى مولعون بهذه اللغة ولولا القرآن لم يكن لها هذا الشأن . لقد اشتهرت الأمة العربية وما شهرتها إلا بالقرآن . لقد اشتهرت الأمة العربية وأصبحت لها صيت عظيم ومجد كبير مع اننا اليوم تحت قهر الأمم ولكن القرآن العربى جال لنا وزينة . يدعوننا الى الرقى والسلام . أليس من العجب أن يخبرنى أكبر طابع للكتب في مصر وهو الذى تعهد بطبع هذا الكتاب أن تفسير الطبرى لما طبعه لم يقدم على الا كتاب فيه من مصر المسماة إلا ثمانية عشر رجلا ، ولكن ألمانيا النصرانية قد اشترك منها ثلاثون فيه ، ومن عجب أن أول مطبع المصحف في العالم طبع في ألمانيا وهذا سرّ قوله تعالى - عربيا - مشيرا الى صيت العرب وذكرهم بهذا القرآن حتى طبعوا كتبهم ودينهم في مطابعهم !

فيا ليت شعرى اذا كان هذا شأن اللغة العربية عندهم وهم مسيحيون فما بالك لو كانوا مسلمين ! هذا

كله سرّ قوله تعالى - قرآنا عربيا لتوم يعلمون -

إن أوروبا اليوم فيها خول العلماء ، ولقد شاهدناهم وكانبتناهم فوجدناهم يدرسون اللغة العربية دراسة ناقمة ويعرفون أسرارها أكثر من كثير من المسلمين ، ذلك كله أشار له القرآن بقوله - عربيا - والافعالوم أن القرآن عربى

﴿ حكاية ﴾

كان أحد الملوك الاسلاميين وهو فى سفره له سمير يحادثه ويلقى عليه الملح والنوادر والفكاهات وكان لا يتكلم معه إلا بحكمة ، فبينما هما سائران إذ لمحا بناء . فقال له ماهذا البناء ؟ فقال هذا بيت عاتكة الذى قال فيه الشاعر :

يا بيت عاتكة الذى أنغزل ❖ حذر العدا وبه الفؤاد موكل

ولما كان من عادة الخليفة أن لا يسمع من هذا السمير إلا ماله حكمة قل فى نفسه . يا عجبا : لم قال هذا البيت ؟ إن الجواب يكفى فيه أن يقال بيت عاتكة فلم ذكر المسبب فسأل خواصه وندماءه هل هناك شئ يلاحظ بالنسبة لهذا السمير ؟ فقالوا نعم انك وعدته وعدا فلم تنجزه ففطن الى أنه يشير الى قول الشاعر :

ولأنت تفرى ماتقول وبعضهم ❖ ملق اللسان يقول مالا يفعل

فأعطاه كل ما كان وعده به وأجازه لحسن أدبه

فما يشير له لفظ - عربيا - أن القرآن سيصير شرفا للعرب ولوفى أيام محنتهم . إن أبناء العرب اليوم أصبحوا أضعف من آبائهم فى الجاهلية من حيث السياسة ولكن شرف القرآن ألقى عليهم شعاعا وبارقة أمل نسمة أيام هذا التفسير وسيكون لهم مجد لأنهم الآن أخذوا ينفذون غبار الكسل والذل عنهم وهم مجتدون وفى آية أخرى - وانه لذكرك ولقومك وسوف تسألون -

يشير الله الى أن القرآن شرف للعرب وللنبي ﷺ والى أننا مسؤولون عنه لأننا أرباب اللغة . إن ذلك توبيخ لنا فى العصر الحاضر . يقول الله اذا كنتم أتم أبناء العرب فكيف تهربون من مجدكم ؟ كيف يقوم أبناء الألمان المستشرقين الذين لا يبلغون ثلثائة فيقرهون تفسيره الكبير وهو تفسير الطبرى المذكور . وأتم يا أبناء العرب تعرضون عنه . يقول الله القرآن عربى فأتم يا أبناء مصر والشام والعراق والحجاز عرب فعليكم نشره . واذا كان أبناء أوروبا الذين هم ليسوا مسلمين يطبعونه وينشرونه أفلمستم أولى به ؟

وقد أخبرنى السيد مصطفى البابى الحلبي الذى طبع ذلك الكتاب . قائلا : طبعت التفسير المذكور فلما أرسلته الى ألمانيا لم يعجبهم فهرست فوضعوا له هم فهرستا آخر من عندهم . وأخبرنى أخبارا كثيرة من هذا القبيل

لقد اطلعت على عجائب فى أيام حياتى . ذلك أنى وجدت كثيرا من عظماء أمتى يحقرون الدين والعرب وكل شئ منسوب لآبائهم . لماذا ؟ لأنهم ظنوا جهالة أن الدين واللغة والانتساب للعرب هو الذى جعل الفرنجة يدخلون بلادنا . وظن بعضهم انهم باحتقارهم عاداتهم وتقاليدهم وانهم يندمجون فى الأجانب الذين دخلوا بلادهم يرتقون ولكن تغيرت الأيام وظهر فى الشرق وفى مصر رجال غيروا الرأى وأخذت العقول تنشط ولكن الى الآن لم تصل الى درجة الارتقاء التى يفيدها قوله تعالى - قرآنا عربيا - فان صبغتنا العربية الآن محجوبة وهى تظهر قليلا قليلا وسيكون لها الشأن الأكبر قريبا كما قلت مرارا فى هذا التفسير . إن التعبير بلفظ - قرآنا عربيا - يفيد بقاء اللغة العربية أجيالا وأجيالا لأن القرآن حافظ لشكل اللغة ملزم لجميع الأمم العربية وغير العربية المختصة بدراسة الأمم العربية أن تقرأ النحو والصرف وما شبههما وذلك الشكل يبقى مابقى القرآن

واقرآن باق الى آخر الزمان وهذا الموضوع مذكور في أول سورة آل عمران وهناك ملخص رواية منقولة عن أحد الألمان ملخصها أن اللغة العربية هي التي تبقى بارزة الى آخر الزمان وهي التي تحفظ العلوم لأن جميع اللغات بعد مئات السنين تتغير تغيرا كبيرا واللغة العربية تبقى لأن القرآن يحتم أن تبقى هذه اللغة على حالها بخلاف لغات العالم كلها فهي في تغير مستمر كما هو معلوم في علوم اللغات . وقوله (بشيرا ونذيرا) أي للعالمين به والخالفين له (فأعرض أكثرهم) لأنه لم يتدبره (فهم لا يسمعون) سماع تأمل (وقالوا قلوبنا في أكنة) في أغشية جمع كنان (عما تدعوننا اليه وفي آذاننا وقر) الوراق أصله الثقل (ومن بيننا وبينك حجاب) يمنعنا من التواصل (فاعمل) على دينك (إننا عاملون) على ديننا (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى الي أنما إلهكم إله واحد) لست ملكا ولا جنيا لا يمكنكم التقي عنه ولست أدعوك بلغة غير لغتكم فإذا يصدكم عن الفهم فتقولون قلوبنا في أغشية وآذاننا فيها ثقل وتعرضون هذا الاعراض (فاستقيموا اليه) الى الله (واستغفروه) مما أتم عليه (وويل للمشركين) من فرط جهالتهم (الذين لا يؤتون الزكاة) لبعثهم وقلة رافتهم على الخلق (وهم بالآخرة هم كافرون) لاستغراقهم في طلب الدنيا فلا علم لهم بالآخرة فيبعثون عن الانهماك في المال فيعطونه للفقراء ولاشفقة تدفعهم الى الاحسان اليهم ، ثم ذكر أصدادهم فقال (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون) أي غير ممنون به عليهم أو غير مقطوع

﴿ ذكر بدء الخلق ﴾

قال تعالى (قل) يا محمد (أئتكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين) في نوبتين (وتجعلون له أندادا) أي ولا يصح أن يكون له ند (ذلك) الذي خلق الأرض في نوبتين : نوبة جعلها جامدة بعد أن كانت كرة غازية ومرة جعلها (٢٩) طبقة في ستة أدوار ظاهرة في علوم طبقات الأرض ، فجمودها نوبة ونظام طبقاتها نوبة (رب العالمين) لا ربها وحدها فهو مربى كل عالم ، فأتين ربها في نوبتين فقد ربي غيرها في نوبتين أو أكثر (وجعل فيها رواسي) جبالا ثوابت (من فوقها) مرتفعة عليها لتكون أساسها في الأرض وهي الطبقة الصوانية التي تقدم الكلام عليها في علم طبقات الأرض في ﴿سورة هود﴾ وغيرها بمثابة حصن حصين فوق الكرة النارية التي هي عبارة عن الأرض كلها ، وهذه الطبقة التي هي أول ما تكون فوق الكرة النارية هي التي برزت منها الجبال ، فالجبال أساسها بعيدة الغور ضاربة في جميع الطبقات واصله الى أول طبقة وهي الصوانية التي لولاها لم تكن الأرض أرضا ولم تستقر عليها ، فهذه الطبقة أشبه بنظام الأجسام الحيوانية تكون حافظة للمائعات الداخلة من الطعام والشراب والدم والشحم وما أشبه ذلك ويستترها اللحم والظفر والشعر والعروق والشرابين والأوردة والشحم وغيرها ، هكذا كرة النار التي هي عبارة عن أرضنا غطيت بالطبقة الصوانية وفوقها طبقات ألطف منها تكونت فيها الحيوانات والنباتات على مدى الزمان كما يكون على أجسامنا وأجسام الحيوان الشعر والوبر والصوف ، فأما هذه الجبال فما هي إلا تتوات نتائج من تلك الطبقة وارتفعت فوقها عشرات الآلاف من الكيلومترات ثم ارتفعت فوق الأرض وصارت مخازن للمياه والمعادن وهداية للطرق وحبسا للسحاب والهواء حتى تحفظه ولذلك عطف عليه قوله (وبارك فيها) أي وأكثر خيرها وذلك بالأنهار المبتدئة من الجبال المذكورة الحافظة من حيث أصلها للأرض أن تقبّد الخازنة المائتها ومعادنها كالذهب والنحاس والحديد (وقدر فيها أقواتها) أقوات أهلها . كل ذلك حصل في نوبتين فيكون خلق الأرض وجعل الرواسي فوقها واكثر خيرها وتقدير أقواتها من أنواع الحيوان والنبات كل ذلك (في أربعة أيام) فهذا كالغذاء لك لما تقدم استوى (سواء) استواء (للسائلين) أي الذين يسألون الأقوات وهو كل حيوان على وجه الأرض قال تعالى - يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في

شأن - فالناس والحيوان كلهم سائلون ربهم ما يحتاجونه من طعام وشراب ولباس ودواء وذلك السؤال طبيعى فبهم مغروس فى جبلتهم ، يسأل الحيوان كالثمل والنحلة والشاة والذئب الرب كما يسأل الانسان سواء بسواء ، فالنحلة تطلب قوتها فتجده والنحلة والعنكبوت والخنزير والكلب والشاة والذئب ، تطلب الشاة الطعام فتجد الكلال ، ويطلب الذئب الطعام من ربه فيجد الشاة ، فقد أجب السكل وكل يحبه ، وقد ألقى بينهم العداوة والبغضاء ليدوم الارتقاء لآكل والمأكول ، فالغزالة تهرب من الذئب فتعطى قوة ونشاطا لولا الخوف ما كانا وذلك يقويها ويرقيها ، والذئب يجوع وقد حرم عليه أن يأكل الحشائش فهو مضطرب أن يأكل الغزالة وهو هو الخيف المزعج لها (و بعبارة أخرى) هو الملقوى لعذلاتها لازعاجه إياها بصوته وحلاته فيغير على القطيع العظيم فيأخذ منه غزالة واحدة أو شاة واحدة ، ذلك أجرا لفعاله لأنه كأستاذ يعلمهم علم القوة وتربية العضلات والحذر ويقوى القوى الخيالية ، وينال مكافأة على ذلك شاة واحدة من قطع يبلغ المئات من الشياه وربما يأخذ الضعيف الهزيل منها لضعفه عن الجرى أولتاخره وما تأخر إلا لضعفه ويربح الجؤ من التعفن بتلك الجثث التى تقع فيه من الحيوانات ، فهذا من معنى قوله تعالى هنا - سواء للسائلين -

ثم إن الانسان يهتم بحال ماحوله من الأرض فلذلك قدّم ذكرها و بين انها هى وما عليها قد كوّنوا فى أربع نوبات : فنوبة لتجمد المادّة الأرضية بعد أن كانت غازا ، ونوبة لتكميل بقية طبقاتها وبدخل فيها معادنها ، والمرتان الأخريان إحداهما للنبات ، والثانية لعموم الحيوان ، ولما فرغ من الكلام عليها أخذ سبحانه يذكّر السماء على سبيل الترتيب الذكرى أى أن الأرض أولا فى الذكر (ثم استوى الى السماء) أى قصد نحوها يقال استوى الى مكان كذا اذا توجه اليه (وهى دخان) أى مادّة غازية نارية أشبه بالدخان أو بالسحاب أو السديم وتسمى اليوم فى العلم الحديث (عالم السديم) وقد شاهدوا من تلك العوالم اليوم ستين ألف عالم تبرز للوجود من جديد لا تزال على الحالة السديمية كما نقلته لك من الكتب الفرنجية فى غير هذا المكان ، ورأوا أن من تلك العوالم ماهو فى أول تكوّنه ، ومنها ما قطع مراحل فى تكوينه ، ومنها ما قارب التمام وهى عوالم كعالمنا الشمسى الذى نحن فيه ، وسيبرز للوجود كما برزت شمسنا وسياراتها وأرضها وكانت فى الأصل دخانا وستستمر فى التكوين ومدتها نوبتان ، ونحن لا نقدر أن نعرف كيف تكون النوبتان غاية الأمر أن نقول نوبة للبداية ونوبة للنهاية ويكون هذا القول من الجمل العامة وفائدته أن التكوين لم يكن فى لحظة واحدة لئلا يتطرق الى العقول انه كان كذلك فى الأصل بل يريد انه جار على الحكمة والنظام وقد كوّن فى غير نوبة وكفى هذا فى كتاب مقدس كالقرآن يقول انه خلق الأرض فى نوبتين وما عليها كذلك والسموات السبع كذلك . فهذه العوالم كلها التى شوهدت بالمنظير المعظمة ستبرز للوجود فى نوبتين بشوئها القشيب كما برزت أرضنا وكوّنت شمسنا فى نوبتين إذ قصد الله اليها والى كل شمس من الشموس التى كشفت والتى لم تكشف وهى تعدّ بنحو خمسمائة مليون ، بل قدرها بعض الفلكيين فى هذه السنة بما يبلغ ألفى مليون ويقولون هذا قطرة من بحر العوالم المجهولة ، فهذه كانت عالما دخانيا فدورها وكورها فدارت آلاف آلاف من السنين ، ثم خرجت منها الأرضون والسيارات كما خرجت أرضنا وسياراتنا من شمسنا أثناء دورانها ثم برزت الأرضى التى قدرّت على الأقل بنحو ثلثمائة ألف ألف أرض أى ان تلك الأرضى الدائرة حول الشمس وحول أنفسها بردت قبل شمسها (فقال الله لها) أى لتلك العوالم السماوية (وللأرض) أى جنس الأرض التى دارت حولها وهى مئات الملايين (اثنا طوعا أو كرها) شئنا أم أبينا (قالتا) أى السموات والأرضون (أبينا طاعينين) وهذا دلالة على الحركة المستمرة المعبر عن سببها بالجاذبية فهى حركة أشبه بحركة المشوق فهى تجرى طاعة لاجرى قسر ، والدليل المشاهد على ذلك اننا نرى الحجر الى أعلى قسرا فيأبى إلا أن ينزل الى الأرض بطريق الجاذبية ، فهو مجذوب الى الجسم الذى هو أكبر منه . هكذا

الأرض مجذوبة الى الشمس التي هي أصلها وهي حركة دورية بالطوع لا بالقسر لأن الحركة القسرية كرمي الحجر الى أعلى وهي سريعة الزوال . أما حركة الطاعة فهي الدائمة مادام المطيع متخلقا بخلق الله الذي هو عليه (فقد صاهق سبع سموات في يومين) أي يثبتين دلالة على النظام والسير بالحكمة كما تقدم في خلق الأرضين ومن هذا يفهم كيف قل - فقال لها وللأرض - الخ ، ذلك للدلالة على أن حركة الاثنيان منهما مصطحبة فبينما ترى الأرض دائرة حول نفسها وحول الشمس ترى الشمس دائرة حول نفسها وحول شمس أكبر آلاف الآلاف منها ، فهذا هو السبب في ذكرهما معا أي انه قال لهما معا وأجاباه معا وحقيقة الأمر كذلك لأن الأرض لما كانت من ضمن الشمس كانت دائرة من جملة أجزائها ، فالقول كان لهما معا وهو الآن لهما معا ، وانما قدم الأرض في الذكر على السماء للسبب المتقدم أولا ولأنها تم تكوينها بعد البرودة . وأما أكثر الشمس فلا يزال هناك زمن طويل حتى تبرد وتسير أرضين (وأوحى في كل سماء أمرها) شأنها وما يتأني حلقها عليه اختيارا . ثم ذكر ما هو أهم لنا فقال (وزينا السماء الدنيا بمصابيح) فان هذا العالم الذي نشاهده وهو أقرب إلينا الذي نراه مرصعا بالنجوم هو الذي نسميه السماء الدنيا ، ولواننا ارتفعنا الى بعض عوالمه لرأيناها سماء أخرى بكواكب غير هذه وهكذا الى آخرها ، فهو سبحانه يقول انه زين سماءنا الدنيا بهذه المصابيح الثلاثة المتوهجة ، ثم يقول (و) حفظناها (حفظا) من الآفات ومن أن يدرك سرّها من لا يتأهلون لمعرفةا (ذلك تقدير العزيز العليم) البالغ في القدرة والعلم . انتهى التفسير اللفظي للقسم الثاني من السورة

﴿ لطيفة في قوله تعالى - وقدر فيها أقواتها - ﴾

اعلم أن الله لما خلق الانسان قدر أقواته متفرقة ، وأحوج كلا الى كل بحيث نرى من يسكن بلاد آسيا يحتاجون الى أهل افريقيا ، وأهل افريقيا يحتاجون الى أهل آسيا ، وهذه الترتيبية يراد بها التواصل طوعا أو كرها ، فتجد القطن بمصر وأمريكا وكل الأمم في حاجة اليه . وترى النخل لا يكون إلا بالبلاد الحارة . وليس للبلاد الباردة فيه من نصيب . وترى النارجيل في الأقطار التي هي أشد حرارة . والبندق في البلاد الباردة . وهكذا جعل لكل قطر خاصية . وأحوج الأمم الأخرى كل منها الى بقية الأمم . وكلما ارتقت الأمم ازدادت الحاجات . وهذا في الحقيقة داعية الى التواصل والتحاب طوعا أو كرها . فتارة يتاجر بعضهم مع بعض وآونة يتصلون بالسياحات . وطورا بالكتب والمراسلات . ووقتا بالبعثات العلمية . وساعة بالحرب والقتال وهكذا كل ذلك دلالة عملية أن هذا الانسان تقدير قوته يدعو الى التواصل والتحاب . وذلك يدعو حثيثا الى العلم فان تقدير الأقوات لما بحثناه وجدناه يدعو الى البحث عنه . ولا بحث إلا بعلم . فامة الاسلام أصبحت ملزمة بانساع العلوم في كل آية من كتاب الله والا فكيف يقول - وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين - وقد تقدم بقية الكلام اه

﴿ القسم الثالث من السورة ﴾

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ * إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا

عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ
الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ * وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى
فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ *

﴿ التفسير اللفظي ﴾

قال تعالى (فان أعرضوا) عن الإيمان بعد هذا البيان (فقل أنذرتكم صاعقة) عذابا شديدا وقع
كانه صاعقة والصاعقة رعد معه نار (مثل صاعقة عاد وثمود) إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم
أي أتوهم من كل جانب وعملوا فيهم كل حيلة فلم يروا منهم إلا الأعراض . أو أنذروهم وقنع الله فيمن قبلهم
من الأمم وعذاب الآخرة . وقوله (أن) هي تفسيرية بمعنى أي (لا تعبدوا إلا الله قلوا) أي القوم (لوشاء
ربنا لأنزل ملائكة) أي لوشاء ربنا إرسال رسل لأنزل ملائكة . وإذا كنتم أتمم بشرا واسم ملائكة (فانا
بما أرسلتم به كافرون) لأنكم لستم على ما شرطناه وهو أن يكون الرسول ملكا فرسالتم لا تؤمن بها (فأما
عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق) أي فتعظموا فيها على أهلها بما لا يستحقون فولايتم عليها بلا استحقاق
(وقالوا من أشد منا قوة) اغترارا بقوتهم وشوكتهم (أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة) قدرة
(وكانوا باياتنا يمجدون) يعرفون أنها حق وينكرونها (فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا) باردة تهلك بشدة
بردها (في أيام نحسات) جمع نحسة أي نكبات مشؤمات (لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا) أي
عذاب الذل فيها والهوان في مقابلة استكبارهم في الأرض (ولعذاب الآخرة أخزى) أشد خزيا وهو اسناد
جأزي للبالغة (وهم لا ينصرون) لا يدفع العذاب عنهم (وأما ثمود فهديناهم) فدللناهم على الحق (فاستحبوا
العمى على الهدى) فاخاروا الضلالة على الهدى (فأخذتهم صاعقة العذاب الهون) أي ذى الهوان (بما
كانوا يكسبون) من اختيارهم الشرك (ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) الشرك والمعاصي وهم صالح
والمؤمنون . انتهى التفسير اللفظي للقسم الثالث من السورة

﴿ لطيفة في قوله تعالى - فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة - الخ ﴾

جاء في بعض الروايات أن قريشا اجتمع ملأ منهم وقالوا التمسوا لنا رجلا عالما بالشعر والكهانة والسحر
فليكم محمدا وليأتنا لنعرف ما الذي جاء به فقال عتبة بن ربيعة أنا لها ، فلما دخل على النبي ﷺ قال له
أنت خير أم هاشم وعدد أباه وقال : كيف تشتم آلهتنا وتسفه أحلامنا ، ثم عرض عليه المال والنساء والسيادة
وأن يكف عن ذلك ، كل ذلك والنبي ﷺ ساكت ، فلما فرغ قرأ رسول الله ﷺ حم * تنزيل
من الرحمن الرحيم ، الى قوله * فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة ، فأمسك عتبة على فيه وناشده الرحم
ثم رجع واحتبس ولم يخرج ، فذهب اليه أبوجهل في جاعة واتهمه بالحاجة للمال من النبي ﷺ لأنه صبا
اليه فغضب من ذلك عتبة وحلف لا يكلم النبي ﷺ ولكنه قال أقول الحق ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر
وقص عليهم ما جرى وما سمع وقال اني خفت أن ينزل بك العذاب

وفي رواية أخرى انه وصل الى السجدة فسجد ثم قال أسمعت يا أبا الوليد فأنت وذاك فقام عتبة الى آخر
ما تقدم وقال يامعشر قريش خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت
منه نبأ فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وأن يظهر على العرب فلكم ملككم وعزه عزكم وأنتم أسعد
الناس به فاستهزؤا به ساخرين

﴿ القسم الرابع من السورة ﴾

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لَوْلَا جُلُودُهُمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقْنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ * فَإِنْ يَصْبِرُوا فَلِنَارٍ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ * وَقَيِّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ * فَلَمَّا نَذِرْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْرَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارِ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَمْحَدُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ نَجْمَلُهُمَا تَحْتَ أَفْدَانِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ * إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ * نَزَّلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ * وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *

﴿ التفسير اللفظي ﴾

قال تعالى (ويوم يحشر أعداء الله إلى النار) أي اذكروم يجمعون (فهم يوزعون) يساقون ويدفعون أو يحبس أولهم حتى يلحق آخرهم - لكنهم (حتى إذا جاءوها) إذا حضروها (شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون) وذلك بلسان المقال أو بلسان الحال الخاصة التي لا توجد في غيرها

من الممكنات فتكون فيها علامات وشواهد دالة على أخلاقها وأعمالها وآرائها ، وذلك عبارة عن سوائل روحية . نمايزة كل سائل يدل على خلق من الأخلاق لا يحجب واحد منها الآخر كما يكون في أنواع النبات والشجر روائح مختلفة ، وكما يكون في الهواء أنواع الأصوات والروائح ، فالعلم والحلم والنشاط وحب الناس لها سوائل جيلة والجهل والطيش والكسل وبغض الناس لها سوائل رديئة . وتلك السوائل الروحية ملازمة لأربابها مضايقة لهم مشقية أو منعمة لهم مفرجة . وتختلف الناس بتلك السمات اختلافهم في الدنيا بالألوان والأشكال والأصوات وخطوط اليد وخطوط الابهام بحيث لا يشابه أحد غيره ، هكذا الأجسام الروحية بعد الموت تكون على هذا المنوال لا تشبه نفس نفساً أخرى في أوصافها ، فهذه هي الشهادة التي تشهد بها أسماعهم وأبصارهم وجلودهم ، وهما يبدو التعجب منهم قولاً أوحالاً وهو المنبر عنه بالسؤال والجواب وهما (وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا) سؤال توبيخ (قالوا أنطقنا الله) نطقاً لفظياً أو فعلياً واضحاً أوضح من النطق اللفظي (الذي أنطق كل شئ) فكل شئ يدل بإسنان حاله دالة أفصح من الدلالة اللفظية . انظر هذا المقام في سورة النساء فانك ترى الكشف الحديث معجزة للقرآن . ثم قل تعالى (وهو خلقكم أول مرة) وفيكم دلائل واضحة تخطوط اليد والابهام والأصوات والألوان الوجوه وأشكالها وظهور آثار الأخلاق على الوجوه ، كل ذلك كان في خلقكم أول مرة ، وقليل من الناس من يظن له (والله ترجعون) وتلك العلامات أصبحت أشد ظهوراً عند رجوعكم إليه ، ولقد كنتم في الدنيا تستترون عن الناس خوف الفضيحة والعار عند ارتكاب الذنوب وما ظننتم أن أعضاءكم وجسمكم الأثيرى الذي هو على صورة الجسم الظاهري قد سطرت فيه جميع أعمالكم كأنه لوح محفوظ لها فلذلك ما كنتم تستترون عنها بترك الذنوب ، وهذا قوله (وما كنتم تستترون) خيفة (أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم) لأنكم لم تكونوا عالين بشهادتها عليكم (ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون) أي ولكنكم اجترأتم على ما فعلتم اظننكم أن الله لا يعلم كثيراً مما كنتم تعملون وهو الخفيات من أعمالكم (وذلك ظننتم الذي ظننتم بربكم) مبتدأ وخبر ، وقوله (أرداكم) أي أهلكم خبر ثان (فأصبحت من الخاسرين) إذ صرفتم ما منحتهم من أسباب السعادة إلى الشقاء به (فان يصبروا فالنار مثوى لهم) لا خلاص لهم منها (وان يستعذبوا فاهم من المعتمين) أي وان يسترضوا فاهم من المرضيين ، أو يقال وان يسألوا العتي وهي الرجوع إلى ما يحبون فاهم من المجابين إليها (وقيضنا لهم) وقدرنا للكفرة (قرناء) اخواناً من الشياطين (فزينوا لهم ما بين أيديهم) من أمر الدنيا وشهواتها (وما خلفهم) من انكار الآخرة (وحق عليهم القول) كلمة العذاب حال كونهم (في أم) في جلة أم (قد خلت من قبلهم من الجن والانس) وقد عملوا مثل عملهم (إنهم كانوا خاسرين) تعليل لذلك والضمير لهم وللأم (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه) والغطوا فيه واللغط كثرة الأصوات فكان يوصى بعضهم بعضاً بالكتمان والكلام وهو يقرأ حتى يختلط عليهم ما يقول (اعلمكم تغلبون) محمداً على قراءته (فلندين الذين كفروا عذاباً شديداً) وهم هؤلاء القائلون (ولنجزيهم أسوأ الذي كانوا يعملون) أي بأسوأ (ذلك) أي الأسوأ (جزاء أعداء الله) مبتدأ وخبر هي (النار لهم فيها دار الخلد) يقيمون فيها (جزاء بما كانوا بآياتنا يمجحدون) ينكرون الحق (وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والانس) وهما نوعا شياطين الانس والجن (نجعلهما تحت أقدامنا) نجعلهما في الدرك الأسفل (ليكونا من الأسفلين) مكاناً ودلاً انتقاماً ، ولما أنهى الكلام على قرناء السوء وانهم بعد المودة في الدنيا يكونون أعداء في الآخرة أعقبه بالقرناء الطاهرين الخبرين فقال (إن الذين قالوا ربنا الله) اعترافاً بربوبيته (ثم استقاموا) في العمل مع الثبات على الإيمان والاخلاص (تنزل عليهم الملائكة) عند الموت وعند الخروج من القبر ، ثم فسر ذلك فقال (أن) بمعنى أي (لأنهم) مما تقدمون عليه (ولا تحزنوا) على ما خلفتم في الدنيا من أهل وولد فانا نخلفكم في ذلك

(وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون) في الدنيا على لسان الرسل (نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا) أى أنصاركم وأحباؤكم نلهمكم الحق ونحملكم على الخير بخلاف الشياطين كما تقدم (وفي الآخرة) بالشفاعة والكرامة أما الشياطين فانهم يكونون أعداء الكفار (ولكم فيها) في الآخرة (ما تشتهى أنفسكم) من اللذات والكرامات (ولكم فيها ما تدعون) أى تمنونه حال كونه (نزلا) رزق النزيل وهو الضيف (من غفور رحيم) * قال العلماء : وإذا كان هذا كله نزلا وهو ما يقدم للضيف فما بالك بما بعده ، وأقول : إن اللذات البدنية مهما طال أمدها لا تكفي النفس الانسانية ولا أمانى للنفوس إلا العالم الروحاني * (وبعبارة أخرى) * أن تصل الى لقاء الله تعالى وترقى فوق طبقات أهل الجنة وهو المشار اليه بقوله تعالى - ولدينا مزيد - وقوله - وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة - فكان الصالحين يكونون في الجنة أمدا على مقدار استعداداتهم ثم يبرحونها الى ما هو أعلى منها وهو العالم الأعلى المسمى بعليين كما ورد « أريت الجنة فإذا أكثر أهلها البله وعليون لأولى الأبواب » وفسر الامام الغزالي البله بمن ليس لهم فكر في حب الله تعالى ، فهو لا يقفون عند الثواب الجسمي وليس عندهم شوق الى الامور الالهية ، فهو لا هم الصالحون الذين يصلون ويصومون لأجل لذات جسمية في الآخرة فينالونها ، ولكن هناك من هم أرقى منهم وهم عشاق العلم في الدنيا أى نظام هذه الدنيا وعجائبها ، فهو لا إذا ماتوا طاروا في عالم الجبال وتركوا اللذات الحسية لمن لم يعرفوا هذا النعيم الأعلى . انظر ايضاح هذا المقام في أوائل (سورة البقرة) ثم قال تعالى (ومن أحسن قولا لمن دعا الى الله) الى عبادته (وعمل صالحا) فيما بينه وبين ربه (وقال إني من المسلمين) فيعتقد قلبه الاسلام ويتلفظ به (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة) في الجزاء وحسن العاقبة ، ولا الثانية مزيدة لتأكيد النفي بمعنى ان الحسنة والسيئة متفاوتتان والحسنة والأحسن منها متفاوتتان كذلك ، فإذا اعترضت سيئة وحسنة نخذ بالحسنة ، وإذا اعترضت حسنتان في دفع السيئة نخذ في دفعها بالتي هي أحسن ، فإذا أساء اليك رجل فليس طريقه أن تسمى اليه وهناك حسنتان : العفو عنه ، والاحسان اليه ، والاحسان أحسن من العفو نخذ به ، فإذا ذمك فلا تكف بالعفو بل امدحه وهكذا (فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم) فانك اذا فعلت ذلك انقلب عدوك المشاق مثل الولي الحميم مصافاة لك (وما يلقاها) أى يلقى هذه السجية وهي مقابلة الاساءة بالاحسان (إلا الذين صبروا) على تحمل المسكاره وتجرع الشدائد وكظام الغيظ وترك الانتقام (وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) من الخير وكمال النفس (وما ينزعك من الشيطان زغ) الزغ يشبه النخس ، والشيطان ينزع الانسان كأنه ينخسه أى يبعثه الى ما لا ينبغي أى وان صرفك الشيطان عما وصيت به من الدفع بالتي هي أحسن (فاستعذ بالله) من شره ولا تطعه (إنه هو السميع) لاستغاثتك (العليم) بنيةتك وصلاحتك . تم التفسير اللفظي للقسم الرابع

﴿ القسم الخامس من السورة ﴾

وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُغْيٍ الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ

أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالَّذِ كَرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ * مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَجَبِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِي وَيَعْرَبِي قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْءَانُهُمْ وَعَلَيْهِمْ عَمَّى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ * وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَأَخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ * مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَمِيدِ * إِلَيْهِ يُرْذَلُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِهِمْ أَتَيْنَ شُرَكَائِهِمْ قَالُوا إِذْ نَأَى مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ * وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ * لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَسْتَوْسِقُنُوطٌ * وَلَنْ أَدْعِيَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْخُسَى فَلْيُنذَبِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلْيُذَيِّقْنَهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * سَتَرْنَاهُمْ عَنْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ *

﴿ التفسير اللفظي ﴾

قال تعالى (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لانسجدوا للشمس ولا للقمر) لأنهما مخلوقان مثلكم ، وقد تقدم الكلام بالاسهاب على هذا وما قبله عند تلخيص تفسيرها في أول هذه السورة ، وقوله (واسجدوا لله الذي خلقهن) الضمير للأربعة (إن كنتم إياه تعبدون) ولا جرم أن السجود أخص أنواع العبادات ، فمن سجد لشمس أو قمر ظانا انه يتقرب الى الله فهو في ضلال (فان استكبروا) عن الامتثال (فالذين عند ربك) من الملائكة (يسبحون له بالليل والنهار) دائما (وهم لا يسأمون) لا يملون وقد تقدم ذلك فارجع اليه إن شئت (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة) بإسطة متظامنة (فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت) تحركت بالنبات (وربت) انتفخت (إن الذي أحيها لمحى الموتى إنه على كل شيء قدير) فيكون

قدرا على البعث (إن الذين يلحدون في آياتنا) يميلون عن الحق في أدلتنا بالطعن (لا يخفون علينا) وعيد لهم على تحريفهم القرآن عن جهة الصحة وطعنهم (أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمنا يوم القيامة) تمثيل للمؤمن والكافر (اعملوا ما شئتم) نهاية في التهديد (إياه بما تعملون بصير) فيجازيكم (إن الذين كفروا بالذكر) بالقرآن بالطعن فيه وتحريف تأويله (لما جاءهم) حين جاءهم يعذبون (وأنه لكتاب عزيز) كثير النفع عديم النظير محيى بعناية الله (لا يأتية الباطل) التبديل أو التناقض (من بين يديه ولا من خلفه) بوجه من الوجوه (تنزيل من حكيم حكيم) مستحق للحمد (ما يقال لك) ما يقول لك كفار مكة ونحوهم (إلا ما قد قيل للرسل من قبلك) أى إلا مثل ما قيل الخ من كلمات جارحة ومطاعن (إن ربك لذو مغفرة) لأوليائه (وذو عقاب أليم) لمن هم أعداؤهم ، ولما قالوا لماذا لم ينزل القرآن بلغة الجعم قال الله (ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته) بينت بلسان نفقهه (أعجمي وعربي) أى أكلام أعجمي ومخاطب عربي (قل هو للذين آمنوا هدى) إلى الحق (وشفاء) لما في الصدور من الشك والشبهة (والذين لا يؤمنون) مبتدأ هو (في آذانهم وقروهم عليهم غمى) أى صموا عن استماع القرآن وعموا عنه فلا انتفاع لهم به (أولئك ينادون من مكان بعيد) فهم لعدم قبولهم الحق أشبه بمن ينادون من مكان بعيد للإيمان فلا يسمعون لبعد المسافة (ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه) ما بين مصدق ومكذب (ولولا كلمة سبقت من ربك) وهى فصل الخصومة يوم القيامة (لنقضى بينهم) باهلاك المكذبين (وانهم) أى الذين لا يؤمنون (أنى شك منه) من التوراة أو القرآن (مريب) موجب للاضطراب (من عمل صالحا فلنفسه) نفعه (ومن أساء فعليها) ضرر (ومار بك بظلام للعبيد) فيعذب غير المذنب (إليه يرد علم الساعة) أى إذا سأل سائل عنها يقال له لا يعلم وقت قيام الساعة إلا هو والخلق محجوبون عن معرفة ذلك ، ثم أشار بطرف خفى إلى نظام يوم القيامة وجزاء المحسن والمسيء ليكون علما للمستبصر فقال (وما تخرج من ثمرات من أكمامها) جمع كم بالكسر (وما تحمل من أثنى ولا تضع إلا بعلمه) إلا مقرونا بعلمه واقعا حسب تعلقه به ، فكما أن القمر لا يخرج من الأكمام إلا وهو عالم به وأن حل الحامل ووضعها لا يكون إلا بعلمه هكذا لا تكون الساعة إلا بتقديره ومشيته وكما أن الثمر نتيجة الشجرة وعلى مقتضاها والولد يكون نتيجة أحوال الوالدين جسما وحالا غالبا هكذا تكون النفوس المنسلة من الأجسام الأرضية هناك على مقتضى ما كانت عليه في الدنيا - ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا - وكأن هذا العطف أفادنا بطرف خفى أن الناس يوم القيامة على حسب أحوالهم في الدنيا كالثر على مقتضى شجره والولد على مقتضى أبويه ، وعلى هذا تكون العوالم كلها متوافقة في نظامها متسابقة إلى حسن النظام والنتائج الخاصة بها ، فاذن يكون العالم كله راجعا لمبدأ واحد لأن النظام الواحد مدبره واحد ، ولذلك أعقبه بقوله (ويوم يناديهم أين شركائى) بزعمكم (قالوا آذانك) أعلمناك (مامنا من شهيد) من أحد يشهد لهم بالشرك ، وذلك أنهم لما رأوا العذاب تبرؤا من الأصنام (وضل عنهم ما كانوا يَدْعُونَ) يعبدون (من قبل وظنوا ما لهم من محيص) مهرب (لا يسأم) لا يمل (الإنسان من دعاء الخير) من طلب السعة في النعمة (وإن مسه الشر) الضيق (فيؤس) من الخير (قنوط) من الرحمة (ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى) أى وإذا أحلنا الصحة محل المرض والغنى محل الفقر قال إن هذا حق استوجبه بأعماله وهو لا يزول عني بل هو دائم (وما أظن الساعة قائمة) أى ما أظنها ستقوم (ولئن رجعت إلى ربي) كما يقول المسلمون اليوم (إن لى عنده الحسن) أى الحل الحسنى والكرامة والنعمة ، فإذا كان الله أعطانى نعمة فهو يوم القيامة يولئى كرامته (فلنبتئن الذين كفروا بما عملوا) فلنخبرهم بحقيقة ما عملوا من الأعمال الموجبة للعذاب (ولنذيقهم من عذاب غليظ) شديد لا يفترون عنهم (وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض) عن النعم وبطرا النعمة فنسى الشكر (ونأى بجانبه) تباعد عن ذكر الله ودعائه

وتكبر وتعظم ، والجانب المكان والجهة فترت منزلة نفس الانسان كما تقول كتبت الى جهة فلان والى جانبه العزيز أى نفسه ، فقوله - نأى بجانبه - معناه نأى بنفسه (واذا مسه الشر) الضر والفقر (فدودعاء عريض) كثير أى يقبل على الدعاء والابتهاال والتضرع (قل) يا محمد (أرأيتم) أخبروني (إن كان من عند الله) أى القرآن (ثم كفرتم به) من غير نظر (من أضل ممن هو فى شقاق بعيد) أى من أضل منكم وجواب الشرط محذوف دل عليه الاستفهام أى فأنتم ضالون وانما لم يقل منكم بل ممن هو فى شقاق بعيد أى خلاف للحق بعيد عنه لبيان حالهم وتقر يعهم من غير مواجهة بالخطاب (سنريهم آياتنا فى الآفاق) من فتح البلاد شرقا وغربا وظهور العلوم فى العالم الانسانى ، وكشف ما كان مجهولا فى البحر والبر ، وتحليل المركبات الى عناصرها وظهور مخبئاتها وانها مركبات بحساب لاخلل فيها كما بينا فى القرآن إذ قلنا - وأنبتنا فيها من كل شئ موزون - وقلنا - وان من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم - وقلنا - وكل شئ عنده بمقدار - وقلنا - إنا كل شئ خلقناه بقدر - وقلنا - والسماء رفعها ووضع الميزان * ألا تطفؤوا فى الميزان - وقلنا - إن الله سريع الحساب - وهذه كلها ستظهر لكم أيها الناس فتعلمون أن هذا القرآن حق . أقول : قد ظهر هذا كله اليوم وعرفنا أن النبات بحساب فى عناصره الداخلة فيه وكذا الحيوان وهكذا حركات الكواكب والمسافات التى بين كل كوكب وآخر ، كل ذلك ظهر فى العلم اليوم وكله معجزة للقرآن إذ قل الله - سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم - وهكذا خاطب الأموات الأحياء وكلوهم وتعارف الأحياء والأموات وفهم كل الآخر ، كل ذلك معجزة للقرآن ، وهكذا نظر الناس علم تشرح الحيوان وتشرح الانسان ونظام النبات ، كل ذلك على وتيرة واحدة - ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور * ثم ارجع البصر كرتين - فانك لاتجد خلا لا عند الجاهلين ، فهذه العلوم التى ظهرت فى العالم الانسانى يجب على العقلاء أن يدرسوها (حتى يتبين لهم أنه) أى القرآن (الحق أولم يكف بربك) أى أولم يكف بربك أى ألم تحصل الكفاية به ثم أبدل منه قوله (أنه على كل شئ شهيد) أى محقق له فيحقق أمرك باظهار الآيات الموعودة أى ألم تكفهم شهادة ربك على كل شئ أى ان هذا الموعود من إظهار آيات الله فى الآفاق والأنفس سيروته ويشاهدونه فيقتبنون عند ذلك أن القرآن تنزيل عالم الغيب (الأنهم فى مرية) فى شك (من لقاء ربهم ألا إنه بكل شئ محيط) عالم بحمل الأشياء ومفصلاتها . انتهى التفسير اللفظى للقسم الخامس من السورة والحمد لله رب العالمين

﴿ لطائف هذا القسم ﴾

- (١) فى قوله تعالى - ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت - وقوله - اليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه -
- (٢) فى قوله تعالى - لا يسأم الناس من دعاء الخير - الخ
- (٣) فى قوله تعالى - سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم - الخ

﴿ اللطيفة الأولى ﴾

(فى إنزال الماء من السماء . وانبات النبات ، وإخراج الثمرات ، ووضع الحملات أطفالهن ، مع قوله تعالى - اليه يرد علم الساعة -)

(١) اعلم أن المواد المعدنية والنباتية والحيوانية لاتتم ولا تعيش إلا فى الظروف الخاصة بها ، فاذا لم تكن الظروف الموافقة فانها تبقى فى حالة لا تغير فيها ولا تنمو ولا حياة ، ومتى لامت الظروف اندفعت ذرات العناصر

وتقاربت وتجاذبت وتحابت ، وبتركبها مع بعضها تنشأ هذه العجائب المنظورة والبدائع المسطورة والزهر والشجر والحدائق والجنات والأعنان والأنعام والغزلان والآساد والدواب ، فخرى النبات بما يعتوره من الحرارة والنور والرطوبة واليبوسة يهب ويرتفع تارة مسرعا وأخرى مبثطا ، كل ذلك لحوزة ما يلائمه أوفقده ذلك وهذه قاعدة مطردة كانت قديما وتبقى الى آخر الزمان وانقطاع الدهر وزوال العصور

(٢) يستنتج من ذلك أن مادة الحياة الأولى انما جاءت من تجمع البسائط التي لاءمتها الظروف والأحوال

(٣) تركيب العناصر والمواد التي على وجه الأرض يحصل بثلاث طرق كل واحدة أقل مما بعدها وأرق مما قبلها **(الطريقة الأولى)** أن تركب العناصر تركيبا خاليا من صناعة الكيمياء ونظامها كما تركب الأحجار في الجبال فان تركيبها من عناصر ليس على نظام كيمائى ولا نظام حيوانى إذ ليس هناك قانون الكيمياء ولا قانون الحياة ، وذلك كحجر الجير المسمى أيضا بحجر البناء وهو كتل مختلفة الحجم ولونه أبيض أوسنجاى أو حجر وله أسماء مختلفة فيقال (دبش) و (دقشوم) وهذه الأحجار مكونة من الكالسيوم وأوكسوجين ، والكالسيوم فلز ذولعان أصفر يتغير بسرعة فى الهواء الرطب ، وإذا سخن على صفيحة من البلاتين يحترق بلهب شديد اللعان وهو يحلل الماء على الدرجة المعتادة ، فهذا الفلز وهو الكالسيوم مع الاكسوجين يكون مخلوطا بالرمل والطفل (بفتح الطاء) وأوكسيد الحديد وكر بونات المغنسيوم ، فهذه الأحجار جميعها تكون مخلوطة بتلك الأجسام ، فاذن هذا ليس تركيبا كيمائيا بل هو أمر اتفاقى لا قانون له كما بينى الناس بيوتا بمواد مختلفة **(الطريقة الثانية)** طريقة التركيب الكيمائى **(مثال ذلك)** البوتاسا الكاوية وهى عبارة عن مركب من البوتاسيوم والاكسوجين والايديروجين والكالسيوم والكربون ، فيكون ثلاثة أجزاء من الاكسوجين وجزء من الكربون ومثله من الكالسيوم واثنان من البوتاسيوم وجزء واحد من الايديروجين فهذا المركب على هذا النظام يسمى مركبا كيمائيا ، فهذه الأجزاء تغلى فيحصل الاتحاد بغليانها ثم تروق وتصفى وتصلد بسرعة وبعد التصعيد تصهر فى جفنة من الفضة وتصب على سطوح من الرخام أوفى قوالب معدنية وهو فى حداته يكون قطعاً بيضاء معتمة ، فالمركب من هذه الأجزاء الخمسة يصبح جسماً جديداً قد عدم جميع صفات الأجزاء التى تركب منها فلا تجد للكربون والالكالسيوم والبوتاسيوم أثرا فى هذا الجسم الجديد بخلاف ما تقدم فى حجر الجير فانك تجد الذرات الرملية والذرات الطفلية وهكذا حافظة خواصها . فهذا هو الفرق بين الأول والثانى **(الطريقة الثالثة)** طريقة الحياة النباتية والحيوانية . هأنت ذا أيها الذكى قد تبين لك كيف كان المركب العادى قد حفظت أجزاؤه خواصها والمركب المعدنى قد فقد المركب فيه خواصه وأصبح عالما جديداً بخواص جديدة تخصه . فانظر الآن فيما أقصه عليك وتأمل فى هذه الأرض التى نعيش عليها . نعيش عليها ونحن لانفكر فى أقرب الأشياء إلينا . أقرب الأشياء إلينا حياتنا وحياة النبات والحيوان . فإذا أخذنا الاكسوجين والادوروجين والاوزوت والكربون أعنى اذا أخذنا مقادير من هذه الأربعة التى عليها العماد فى تركيب كل نبات وحيوان وانسان أى ان كل شئ لابد من أنه يتركب منها مع اضافة عناصر أخرى أو أملاح وجعلنا هذه المقادير مع بعضها بلانظام كانت أشبه بتركيب حجر الجير فيما تقدم . وإذا ركبناها بطريق كيمائى بنظام تام وأجزاء ثابتة أصبحت لها صفة جديدة وفقدت خواص الأجزاء الأولى ولكن هل يمكنها أن تموت وهل يمكنها أن تحس وتتحرك . كلا . ثم كلا . فليتركب الكيمائيون ماشاؤا فانهم لا يقدرّون أن يخلقوا ورقة واحدة ولا دودة ولا زهرة . فعلماء الكيمياء أولئك الذين يركبون العناصر بنظام تام على قوانين خاصة لا يقدرّون أن يذروها عاجزون جميعا عن إحداث حال جديدة للمركب بها يحس أو بها يغو أو يتحرك ! إذن فلنبحث عن الحياة

﴿ الحياة سرّ سار في المادّة الأصلية للكائنات ﴾

لقد تعلم أيها الذكيّ أن المادّة تنوّع الى نور والى حرارة والى كهربائية والى مغناطيسية . هكذا تنوّع الى قوّة حيوية وهذا التنوّع سرّ لا يدركه الناس فهو قاسر يقسرهما وقاهرة يهرها ينوّعها تنوّعات مختلفات . فما مثل الحياة إلا كمثل من رمى حجرا الى أعلى فارتفع الى الجوّ ولما بطلت القوّة الرافعة له التي استمدّها من الرامي كرت راجعا الى الأرض . هكذا كل نبات وكل حيوان وكل إنسان فتكسب النطفة في الإنسان قوّة وسرا يعطيها حياة فتأخذ في الارتقاء والنمو . وهناك تكون في الجسم عمليتان : عملية الهدم وعملية التجديد ففي أوّل الحياة تقوى عملية التجديد على عملية الهدم كما يقوى الحجر وهو صاعد على مقاومة الجاذبية . فإذا بلغ الإنسان أشدّه تعادلت القوتان ثم تغلب قوّة الهدم على قوّة التجديد فيأخذ الجسم في الانحطاط والرجوع الى الوراء فيصير هرما فيموت ، فالوت إذن ناجم من نفاد القوّة الحيوية كما نفدت القوّة الرافعة للحجر فهبط وليس الموت من أجل تلف الأعضاء وضعف وظائفها بل المسبب الأصلي للموت هو نفاد القوّة الحيوية يتبعها ذلك الضعف ، فالضعف تابع لأصل ، ولو بقيت القوّة الحيوية بحالها لأمكن أن تقوم بالتجديد بإذن الله تعالى

﴿ كيف بدأت الحياة ﴾

بدأت الحياة بمادّة هلامية في قعر البحر كشفها العلماء وسموها (بروتوبلازما) وهي مادّة رخوة لزجة تصيب كل الاشكال بسهولة ، ومتى تكاثفت كانت منها (حويصلات) جمع حويصلة ويقال لها (القلالي) فالحوصلة الواحدة تنقسم الى قسمين وكل قسم الى قسمين وتصبح هذه الحويصلات الجديدة متمتعة بحياة ونمو كالحوصلة الأولى ، والأسهل أن نسميها أيضا جمع بيضة كبيضة الدجاجة تسهلا للفهم ، فكل نبات وكل حيوان وكل إنسان في الأصل بيضة واحدة تنقسم الى قسمين كل منهما يصير بيضة وهكذا هاتان تنقسمان ويترد الانقسام ويصبح كل قسم بيضة كاملة تامة الحياة تتغذى بغذاء خاص ، فكل نبات تراه وكل إنسان تراه وأنا وأنت أجسامنا عبارة عن بيضة انفطقت فصارت بيضتين كل منهما كالأولى وهكذا ، وفي أثناء الانقسام صار لنا العين والأذن والقلب والشعر وصار للنبات الزهر والورق والثمار وصار للحيوان الناب والظلف والظفر والقرن والأرجل وهكذا . هذه صورة الحياة على وجه الأرض

﴿ صورة ارتقاء الحياة على الأرض ﴾

إن الحياة على وجه الأرض سلسلة غير منقطعة كما قال الله تعالى - ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت - فالنبات عبارة عن البروتوبلازما وقد تكوّنت فصارت بيضة فاجتمعت البيضات فكان النبات والنبات يولد ويحيا ويموت ويقضى ويتناسل وهو محتاج الى النور والحرارة والماء وتقتله الموادّ السامة ويتنفس وفي بعض أنواعه إحساس . ثم ان النبات من أعلاه متصل بالحيوان فان نوع النوفيت يربط الحيوان بالنبات فهو على شكل النبات لثبته بالأرض ولكنه حيوان ويليّه الاخطبوط الهلامي وهو لا يمتاز عن النبات إلا بإمكان التنقل وله معدة و بعض ظواهر الأعصاب وليس له نظر ولاشم ولاسمع . وبعد ذلك الديدان وهو أقوى وأقدر وأكمل أعضاء من الاخطبوط . ثم الحززون والبزاق وذوات الأصداف التي ليس لها فقرات . ثم الحيوانات القشرية التي لها قشر كسرطان البحر . ثم عقرب البرّ وله سمع وبصر وله أعصاب عقدية . وبتلك الأعصاب تكون حركة الغذاء ودورة الدم . ثم ذوات الفقرات كالسمك وله دماغ ونخاع شوكي . ثم الدبابات الأرضية . ثم الطيور وأثاها تبيض . ثم ذوات الثديين . ومنها ذوات الكيس وهي تحمل فيها صغارها وهي توجد الآن في استراليا . وهكذا ترتقي الحيوانات حتى تصل الى القرود ثم الانسان فهذه هي السلسلة التي نظمها الله عزّ وجل من أدنى الى أعلى . فبينما تكون الحياة مادّة رخوة في البحر

إذا هي قد ارتقت في النبات من أدناه مرتقية الى أعلاه . وفي الحيوان الأدنى مما يلي النبات وترتقي فيه الى أعلاه حتى تصل الى الانسان . ومعنى هذا أن هذه العوالم أشبه بعقد منظم موضوعة خرازته بنظام مهتم . وليس معنى هذا أن كل خرزة ولدت الخرزة التي بعدها بل معناه أن الذي نظم هذا أحسن صنعه ولم يدع في العقد موضعا خاليا ، فأما كون هذه الخرزة قد انتجت ما بعدها فليس ذلك معلوما بل قال به قوم ولم يقم الدليل عليه الآن ، وهذا لا يهم الباحث إنما المهم النظام والجمال

﴿ خلق الانسان ﴾

وهنا وصلنا الى مقصودنا من تفسير الآيات ، فها أنت ذا اطلعت على نظام النبات إجمالا وكذا الحيوان وانظر قوله تعالى - وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه - أأنت ترى أن الأكمال التي على الشجر والحل الذي في رحم المرأة عبارة عن تلك المادّة الهلامية مضاعفة أضعافا مجتمعة ، فتأمل كيف كان اجتماع تلك البيضات التي لا عدد لها منتبها بفوائد متحدة أى كيف كانت نتائج الأشكال النباتية ملائمة لنتائج الأشكال الحيوانية وانها مناسبة لها غذاء ودواء . ثم كيف كان هذا الانسان إذ كان أرقاها يود أن يستولى عليها عقليا وعمليا ، فهو مغرم بمعرفة كل نبات وحيوان وبحوز كل منهما . إذن انظر في تركيبه في بطن أمه . انظر كيف كان خلقه تدريجيا لاطفرة . يقول الله تعالى - اقرأ باسم ربك الذي خلق يخلق يخلق الانسان من علق - . وانظر كيف رأى العلماء انه يكون دودة صغيرة وهي العلقة المذكورة ثم حلزونة ثم سمكة ثم ذبابة ثم قردا ثم يتوارى ذنبه ويصير انسانا . فالدودة والحلزونة والسمكة والذبابة والقرد هي التي أشار لها الله تعالى فقال : - ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة - أى مسواة وغير مسواة ، فاقبل الانسانية هي غير المسواة ، والانسانية هي المسواة ، واعلم أن هذه الصور التي رآها العلماء ليست يقينية بل هي تخمينية (انظر هذا المقام في سورة آل عمران)

وانما المهم في هذا المقام أن تفكر في أمر حياتنا فانها في أول أمرها بيضة تصلح للنبات والحيوان ثم ترتقي فتصير حيوانا ثم تصير انسانا

هذا درس ألقاه الله لنا . يقول لنا : أنا لم أخلقكم لأهينكم بل أنا أرقىكم . ففي أمد قصير ارتقيتم في بطون أمتها تكم درجات كثيرة وهي النباتية والحيوانية . فاذا عشت على وجه الأرض رأيتم الحيوان خاضعا لكم . ثم أنزات عليكم علوما وقلت لكم إن لى ملائكة ولى عرش وعالم أرواح وبعث الى آخره . فاذا تم فاعلموا أن العوالم التي تصلون اليها عظيمة جدا لا تقاس بعالمكم . فألى يرد علم الساعة لا غيرى لأنها عوالم لا تعقلونها لأنكم لم تروها ولا تدركون زمانها إذ جعلته مجهولا عندكم لحكمة أردتها ونعمة قصدتها . ألوان خروجكم من أجسامكم الأرضية لخروج الثمر من أكمامه والولد من بطن أمه . فكلاهما نتيجة لما خرج منه وقد انتهى الى عوالم لم تخطر بباله فهل كان التفاح يشعر أنه يكون على موائد الملوك أو كان الجنين في بطن أمه يدور بخلد انه يوما ما يكون ذا ملك عظيم ويذهب ويجيء في الأرض ويركب الخيل ويدبر الامور . هكذا حياتكم بعد موتكم تكون في عالم نسبته الى أرضكم كنسبة الدنيا الى بطن الأم

هذا اذا كانت النفوس عظيمة . فأما النفوس الضعيفة فانها تكون هناك عبياء أشبه بالطفل الأعمى الأصم في الأرض فتكون السعة هناك على مقدار درجات الأرواح العائشات هناك . وبهذا تم الكلام على اللطيفة الأولى والحمد لله رب العالمين



﴿ اللطيفة الثانية ﴾

(في قوله تعالى - لا يسأم الانسان من دعاء الخير وان مسه الشر فيؤس قنوط -)

هذا بيان لحال الانسان اذا لم ينقوع العلم والدين عقائده وآراؤه . إن الناس قبل أن يهذبوا ويربوا متى أصابهم الشر أخذوا يقلقون ويضطربون ويندبون حظهم ويحزنون ويأسون من روح الله ، ويظنون أنه لا فرج لهم ولا عز لهم ، وانه قد أقفلت في وجوههم أبواب الفلاح والنجاح ، فاذا سكن جأشهم وخف حلهم ورجعت اليهم عقولهم أخذوا يدعون ويتضرعون ويلجئون أن يعطيهم الله تعالى الغنى والسعة ، فاذا أجيبيوا الى دعائهم وأعطوا نعمة نسوا ما كانوا فيه من الضيق وظنوا أن تلك النعمة دائمة لهم لانفارقهم وهم أحق بها بل ربما ظنوا دوامها وأنكروا الآخرة لأن النعم أبطرتهم واللذات أسكرتهم

فهذا الانسان أمره عجيب ، يسلب النعمة فيضطرب ويكون مسلوب اللب يائسا حزينا . ثم اذا خفت الأمر عليه دعا الله . فاذا كثرت النعم أصبح أعمى عن الحقائق ناسيا ربه ظانا أن ماله من الصحة والمال والمنصب والقوة دائم وهذا من غفلاته وجهالاته . وليس يخرج الانسان من هذه الجهالة العمياء إلا التذكر والتفكير ودرس العلوم والحكمة والصبر حتى يعلم الانسان أن النعمة والنقمة كل منهما درس له . فكل حال من أحوالنا دراسة لنا . فكما ندرس أطوار حياتنا في الرحم وفي الحياة الدنيا وندرس الحيوان والنبات يجب أن ندرس ما يحيى به الله لنا من المكارة والنعم لننظر ما فائدة ذلك لنا لأننا نياس تارة ونفتر أخرى فان ذلك فعل الذين عاشوا كالحيوان لا يفكرون ولا يعقلون . انتهى الكلام على اللطيفة الثانية

﴿ اللطيفة الثالثة ﴾

(في قوله تعالى - سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق -)

لقد أشبعت الكلام على هذه الآية فيما تقدم . ولكن أقول لك الآن ان هذا الزمان أخص الأزمات بهذه الآية وأولاهها

لتعلم أيها الذكي أن هذا زمان الانقلاب . ان الله قد كشف العلوم وأظهر المجائب في جميع أنواع الحكمة والمسلحون لا يعلمون . يقول الله هنا - سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق - . أنت قرأت في التفسير الى هذا المقام واطلعت على ما أبدعه الله في هذه الدنيا وعلى العلوم التي أبرزها في الأرض وأن ما في هذا التفسير خلاصة العلوم وجاهاها وبهجتها وحكمتها ولن تراه مجموعا في كتاب . هو خلاصة علوم هذه الكرة وثمرتها . ففيه من كل فن وكل علم وكل حكمة . أفلمست ترى بعد هذا انك قد اطلعت فيما تقدم من هذا التفسير على تفسير هذه الآية أعني انك قد قرأت فيه معنى هذه الآية . فاذا سمعت الآن قوله تعالى - سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق - . أفلمست تقول نعم قد تبين لي أنه الحق وأن الله حقق ذلك . وليس معنى هذا أن تقول إني آمنت بالله ورسوله فالإيمان أمر يشترك فيه الجاهل والعالم وإنما أقول انه قد تبين لك أن هذا الدين حق واني واثق انك ستقول نعم . أقول لك : إذن أصبح دين الاسلام ليس هو الذي يعرفه العامة بل هو دين الحكمة والعلم ودين الفلاسفة أي انه هو الدين الذي لما ظهرت العلوم الحديثة كانت مبنية حقيقته . واذا كان كذلك فأنت صرت شريك في العمل أعني انه حرام عليك أن تنام . قم أيها الذكي وقل للمسلمين اقرأوا العلوم وادرسوها حتى تقوموا بنصيبكم من إسعاد الأُم فانكم الآن عالة على أوروبا . ادرسوا العلوم وأقيموا الحق فان هذا هو الزمان الذي أظهر الله فيه سر كتابكم وقد قال لكم - حتى يتبين لهم أنه الحق -

فقل للمسلمين إن الاختصار على قراءة حديث « بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله الخ » عار عليكم فلا تقتصروا على ظواهر الدين بل ادرسوا حقائق الكائنات يقول الله لكم - سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم - فهل رأيتم ذلك ؟ كلا . لاترونها إلا بدراسة . فليدرس المسلمون كلهم على قدر استطاعتهم ليجتدوا . والله يسأل يوم القيامة وعند الموت من يقرأ هذا التفسير ولا يقوم هو مستقلا بالعمل لرقى الانسانية

أيها المسلمون : أنتم خلفاء الله في الأرض ونبينا خير الأنبياء ونحن خير أمة أخرجت للناس . وهذه العلوم يجب علينا أن ندرسها . وهذا التفسير وأمثاله جاء في وقت انتقال الأمم من حال الى حال والمسلمون سيأخذون دورهم وأنتم حتما تأخذون دوركم فان لم تقوموا به طوعا قتم به كرها . وهذا التفسير وأمثاله تنبيه وانذار للأمم الاسلامية . وسيقرؤه النبهاء فيهم بشوق . فان لم يوقظوا الأمم الاسلامية بأقوالهم وأفعالهم فليعلموا أن الله قد أعد العدة لكل متقاعس عن العمل من الأمم والأفراد . وسينزل غضبه على كل عالم لا يعظ وعلى كل أمة متقاعسة متقاعدة - إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم - ، وكل من حض المسلمون على ما ذكرنا من الحكمة والعلم فله أجر المجاهدين . ومن ترك ذلك فهو من المقصرين

إن ورود هذه الآية في هذه السورة الواردة في أواخر القرآن لما يدعو الى العجب فان القارئ لما قبلها من السور ، المطلع على ما حوت من بدائع الحكمة في الأنفس والآفاق يقر إذا وصل اليها بأن القرآن يدعو الى علم الأنفس والآفاق . فاذن تأخرها الى الربع الأخير من القرآن بل الخس الأخير منه لهذه الحكمة العجيبة ألا وان هذا هو الزمان الذي سيرقى الله فيه المسلمين . فطوبى لمن بادر من العاملين . وبشرى لمن كان من المبشرين الموقظين . انتهى الكلام على المظيفة الثالثة والحمد لله رب العالمين . كتب يوم الاثنين (٢٦) رمضان سنة ١٣٤٣ هجرية

(تذييل لتفسير هذه السورة)

(وفيه ثلاثة فصول)

(الفصل الأول في إيضاح الكلام على قوله تعالى - اليه يرد علم الساعة -)

بعد أن أتممت الكلام على هذه السورة خطر لي ليل أن ألحقها بهذه الجواهر الثلاث فلم أدافع الخاطر لأن رأيت خاطر خير . فهذه الأولى في رد علم الساعة الى الله تعالى مع ذكر الحل والوضع والنمر والأكام سبحانه من أبدع هذه الدنيا وأحكم نظامها . تأمل رعاك الله في الدر المكنون والياقوت البديع . انظر كيف جعل للانسان هذه المراتب وهو جنين . يتنقل مراتب في الرحم . فن دودة صغيرة وهي العلقة الى قوقعة الى سمكة وهكذا حتى يصل الى هيئة القرد فهية الانسان

ظن المشتريون وعلماء الأجنة اليوم أن تلك هي الأدوار التي يمر عليها وهم بذلك يوضحون نظامه ، يمر الانسان على هذه الأدوار وتكون نفسه في تلك الأدوار مشاكلة لنفوس تلك الحيوانات ولكنها تمر عليها بسرعة ثم تقفز قفزة فتكون إنسانا ، فإذا رأينا الطفل يداعب الهرة ويحب الحمامة ويأهب بالعصفور فذلك لأنه كان بالأمس مثلها . إن المدرس لا ينجح في تعليم تلاميذه إلا اذا مر على أدوار التعليم وكان تلميذا فيمكنه أن يمثل أدوار التعليم كما مثل أمامه . إن الله لم يجعل في الأرض عظيما في علم أوفى مال أوفى ملك إلا اذا مر على الأدوار المنحطة وارتقى منها فعرّفها فرجع اليها وعلى ذلك تجد الحكومات في رؤساء اللصوص الذين تابوا خير معوان على التجسس على اللصوص ، فرب البيت أدرى بما فيه ، وهكذا نجد الأنبياء عليهم السلام يرفعون الأغنام صغارا ويرعون الأمم كبارا . وأمهر الأطباء اليوم من يجرب الدواء في نفسه ليعرف

أدواره ثم يصفه في كتبه لينتفع به الناس ، هكذا هنا مرّ الانسان على الأدوار الحيوانية وهو جنين لأنه أولاً سيكون له بها علاقة في الحياة الجثمانية زراعة وركوباً وأكلاً وشرب لبن ولبس صوف وشعر ووبر وجلد وما أشبه ذلك واحتراساً من أسد ونمر وهكذا . وثانياً ليدرسها دراسة علمية اذا كان من أهل الحكمة ورجال العلم . وثالثاً ليدرس نفسه وأحوالها فإنه يجد صفات هذه الحيوانات فيه وهو يجاهد ليخرج منها الى عالم ارقى من عالم الأرض ، إن هذه الحيوانات تارة تطلب المنافع بالبصصة كالكلب والسنور وأخرى بالحيلة كالعنكبوت وتارة بالغلبة كالأسد وتارة بالفرار كالأرانب والظباء والطير وقد يدفع بالسلح كالقنفذ وقد يتحصن في الأرض كالقار والهوم ، وهو شجاع كالأسد ، وجبان كالأرنب ، وسخى كالديك ، وبخيل كالكلب ، وعفيف كالسمك ونفور كالغراب ، ووحشى كالنمر ، وانسى كالجم ، ومحتال كالغلب ، وسليم كالغيم ، وسريع كالغزال وبطى كالديب ، وعزيز كالغزال ، وذليل كالجل ، ولص كالعق ، وتائه كالطاووس ، وهاد كالقط ، وضال كالنعامة ، وماهر كالغمل ، وحليم كالجل ، وحقود كالجمار ، وشموس كالبغل . ومستحل كالذئب . ومضرب كالقار . وجهول كالخنزير . وغير ذلك

فهذه وغيرها من صفات الحيوان معرض لها الانسان . فهو يجد بما أنزل من البيانات وما سطر من العلوم أن يخرج من هذه القيود الحيوانية ويتحلى بالحلية الملكية ويخرج من الدائرة الأرضية الى الدائرة الروحية . وهناك يتجلى له بعض قوله تعالى - اليه يردّ علم الساعة -

إن الانسان مادام مغرماً بالأحوال الأرضية فهو أبداً حول هذه الأرض بعد الموت لا يبرحها وكيف يبرحها وهو لا يجد لذّة إلا فيها . ولا سعادة إلا في أكتافها فيصبح اليها مجذوباً مبعداً من عالم أعلى . ومعنى هذا الانجذاب أن يعذب بعذاب جهنم فيكون في حفرة من حفر النار . فان جهنم ملازمة لمن لا يعرف إلا المادّة والجنّة ملازمة لمن يتزخّر عنها فيقال انه في روضة من رياض الجنان حتى اذا تخلص من ذلك بتاتا صار في جنّة عرضها السموات والأرض لاضيق جهنم الذي هو ملازم لمن كان لا يعرف إلا العالم الأرضي إن مرور الانسان على العوالم الحيوانية أعطاه أنسه بالحيوان في أحواله المادّية ودراسة العلوم التشريحية والخلقية وجهاده في الحياة ليخرج من حال الحيوانية الى الحال الملكية . وهذه نبذة من علم الساعة التي لا يعلم علمها إلا الله تعالى واليه وحده يردّ علمها . وهذه ساحة من ذلك العلم وبارقة من سماء الحكمة . فأما العلم الحقيقي فهو عند الله « وعنده مفاتيح الغيب » وهذه من أسرار القرآن . وسرّ من أسرار عطف الحل والوضع على علم الساعة . انتهى الكلام على الفصل الأوّل

﴿ الفصل الثاني والثالث ﴾

(في إيضاح الكلام على قوله تعالى - سترهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق -)
فلأذكر فيه نبذتين : النبذة الأولى ما كتبت في كتابي « ميزان الجواهر » تحت العنوان الآتي وهذا نصه :

﴿ خاتمة تتضمن فكرة المؤلف في العلوم عامّة وفي فن التوحيد خاصة ﴾

مما أجمع عليه رأي الحكماء انه يجب على الانسان أن يجعل له في حياته غاية يسعى لها والا عاش عبثة مهملة . وقد كنت في ابان تعلّمي بالجامع الأزهر أتلقى العلوم الدينية وآلاتها من فنون العقليات والنقلات واذا ذهبت الى بلادنا بالشرقية أنظر ماذا ذرأ الله من النبات العجيب . وما أودع في الكائنات من الغرائب . وأنا تامل مافي الأنهار والغدران من سيال عجيب يذهب فكري في ذلك كل مذهب وأقارن ما أراه بما أسمع فلا أجد مناسبة . وأقول في نفسي : لماذا لا نسمع في العلوم التي نتلقاها شيئاً يحوم حوله ما نشاهد كل يوم من

المزارع الخضره والجنات وبدائع الحكمة الربانية ! وأجد في نفسى شوقا وتوقا الى ذلك . وآتئنى أن يكون له مدخل فى معارفنا الدينية ، ثم أكرّ كرهة نحو ما أتلّقه من الفنون الدينية فأجدها توسع المجال جدا فى احكام المعاملات والميراث والحدود والدعاوى والبيّنات ، ولا أرى لما أشاهد فى أرض الله الواسعة إلا ان العالم حادث وكل حادث لابد له من محدث ونحو ذلك ، وما يذكر فى أبواب السلم والربا من المكيلات والموزونات والتسليم والتسليم ، وكذلك الكلام فى بيع ما بدا صلاحه أو ما لم يبد صلاحه ، ومع كونه إجماليا قائما يتكلم عليه من وجهة المعاملات بين الناس لا من الوجهة الإلهية

سارت مشرقة وسرت مغربا * شتان بين مشرق ومغرب

وكنت أسمع كلاما من أفواه أساتذتى وفى كتب التوحيد أن العالم فى غاية النظام وأن القرآن فى غاية البلاغة ، فإذا توجهت الى بلاد الشرقية وخلوت بنفسى وتفكرت فى العالم وفى القرآن أجد الأمر صعبا على جدا ، ولا أشم لهذا النظام وتلك البلاغة رائحة ، فإذا نظرت رأيت بهائم ترتع ، ونباتا يطلع ، وأناسا يذهب ونجىء ، وبحارا تجرى من أرض عليا الى أرض سفلى ، فأقول أين النظام الذى يقوله العلماء ؟ فصرّت أجلس على شاطئ نهر جار وأتأمل فى الحيوانات الصغيرة التى تختفى فى الأعشاب وأقول : لو رأيت حيوانا عليه خطوط فيها هيئة انتظام لدخل عندى شعور بهذا النظام ، ثم اذا عرفت أن هذا العالم منتظم كما يقول العلماء الأخيار أكون أسعد الناس وأكثرهم نشاطا وجدّا واجتهادا إذ يكون لىماني يقينيا . وبينما أنا كذلك إذ فتح لى باب آيات من القرآن . ولم أكن إذ ذاك أعرف تفسيره ، فاستحضرت بعض التفاسير وطالعت آيات المجانب وكان أول ما طالعت قوله تعالى - إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار - الى آخرها فتأملتها تأملا صحيحا فانفتح لى باب الفكر ، وصرت أعرض تلك الكلمات على عقلى وأنظر بنفسى فى هذه الصنعة الإلهية وهكذا بقية آيات المجانب ، فأخذ الفكر يطلب والمطالعة تزيد وحلا لى الفهم ، ثم اتصلت بالأزهر بعد انقطاع طويل وحضرت التفسير وغيره من العلوم حضور محبّ وله بل عاشق وصرت لا أنلوا القرآن إلا بتدبر وفهم ، ثم ساعدتنى المقادير بدخول مدرسة « دارالعلوم » فتأملت علومها تأمل من يريد أن يعرف هذا العالم . فكنت أحضر تلك العلوم وأطبقها على العالم الخارجى على حسب ماسبق فى النفس من الشوق الى ذلك حتى اتضح لى أن كل هذا العالم على غاية النظام والاحكام وفهمت آيات القرآن فى تلك المجانب فهما يقينيا لا تقليديا وصار كل شئ من العالم دروسا توحيدية وكأن المتأمل فيه يطالع عجائب القدرة الإلهية والحكم الربانية فن درس الهندسة والحساب والطبيعة أو التشريح أو غيرها من العلوم ولم يذق منها لذة النظر من وجهة الحكمة العلية فهو صاحب صناعة يعيش بها ولم يمتز عن العامة إلا بالمظاهر الفانية . وكذلك من قرأ دروس البلاغة والنحو والصرف فى أى لغة من لغات العالم من العربية أو غيرها ثم لم يستخدمها فى مطالعة ذلك الجمال الإلهى فى آيات القرآن العظيم والعلوم العالية مع استحضار الذهن ووزنها بميزان العقل الغريزى فليشرب بأنه أضع أيامه ولم يحصل من حياته إلا على معايشه وانه يأكل كما تأكل الأنعام . فأفّ لحياة يكون القصد منها ومن تحصيل العلوم فيها ما كل ومشارب تشاركنا فيها الحيوانات والنباتات . أولابرى المفرورون من ذوى القصور عن الاطلاع على ذلك الجمال أن الغذاء والتناسل عامان فى جميع النبات . فان كنت فى شك مما أومأنا اليك فاذهب الى الحقول وتأمل زهرة من الزهر كالقطن مثلا أو الفرة تجد أن الذكران فى زهرة الأول أربعة قد أحاطت بمحل الاناث الذى هو فى وسطها وقد ألقتحتا وهكذا الذرة يلقح عاليها سافلها على منوال ما يفعله الحيوان بحيث ترى ذلك الطلع الذى فى أعلاه ينزل على شربة الكوز ويحصل الالتحاق ، ثم تلك الحبوب من جميع الأصناف هى المقصودة للانسان أو له وللحيوانات إذ النبات خادم لهما وهكذا الحيوان خادم للانسان ويجمع بالذتين تمتعا حقيقيا . فاذا استعمل الانسان عقله فيما يحصل به هاتين الشهوتين اللتين قد شاركا فيهما النبات والحيوان

فبدت العلوم وبست الحياة التي ترجعه من أفق الانسانية الى أفق البهيمية أو النباتية بل الحياة حياة العلوم العالية والنفوس الكاملة الشريفة التي تطالع ذاك الجلال الأبهى من هذه العوالم وهذا الكمال يشا كلها في العوالم العلوية والسفلية

على نفسه فليبك من ضاع عمره * وليس له منها نصيب ولا سهم
ومن قرأ هذا ولم يأخذ بمجامع هواه وأعرض عنه واكتفى بما لديه من العلم فذلك داخل في قوله تعالى - فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم - وقوله - وكأين من آية في السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون - وجميع العلوم آيات ودلائل تشف عن حكمة عالية وقدرة باهرة وعلم تام . والذي أراه أن الشرقيين لا ينالون مجدهم إلا اذا رجعوا الى حالة التعليم قبل اندراس العلم لتثبت فكرة التوحيد في جميع الأذهان واستحضار الخالق في جميع الحركات والسكنات ، ولا يخفى أن علم التوحيد أخذ في أدوار تعليمه أشكالا وألوانا شتى من ابتداء الوحي الى الآن ، ففي زمره الصحابة والتابعين لم يكن فنا له قواعد وأصول وفروع بل كان باقيا على الفطرة الانسانية المستمدة من آيات القرآن ، وكل يعطيه الله من العلم على حسب استعدادده خلف من بعدهم خلف خرجوا عن الفطرة بما تلقوه من الجدل والفلسفة وانقسموا الى طوائف وحصلت مشاغبات ومنازعات وأخذ ورد غفأئمة الدين رحيم الله على العقائد فألفوا فن الكلام ليكون حصنا يقي من تهوئش أذهان الناس بالمشاغبات فلم يكن مقصودا لهم لذاته وانما هو سلاح وجهاد ونحن في زمان مات فيه ذلك العدو وبادت تلك المذاهب ، فمن استعمل ذلك السلاح الآن فهو غرّة يقاتل في غير عدو وكيف وقد ظهر عدو آخر للعقائد في هذه الأيام ، فيجب على العلماء الآن أن يبذلوا جهدهم للنظر في كلام الماديين الاوروبيين وجميع المخالفين ليردوا عليهم فان اللغات منتشرة بين الأمم والأفكار تنتقل وجميع ذوى الضعف في الدين يؤثر عليهم كل فكرة يسمعونها ، أما المذاهب البائدة فالكلام فيها عبث - تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون - فان قلت كيف يعلم التوحيد ؟ أقول : يجب على المعلمين في المدارس وغيرها أن يتدثروا بذكر غرائب العالم من النباتات العجيبة والحيوانات الغريبة والنجوم ذات البعد العظيم والقدر الكبير والسرعة الهائلة ، ثم ينتقلون من الأغرب الى الغريب الى المعتاد وذلك لأمر :

- (١) إن الفطرة الانسانية ميالة الى الغرائب والاحداث أكثر عشقا لها وولوعا بها
- (٢) إن دليل الألوهية أقرب الى أذهان البسطاء في الغرائب كالمتوحشين حتى ان أهل الهند على نهر الكنج يعبدون نباتا يتحرك في الدقيقة ستين مرة لاعتقادهم أن فيه قوة إلهية ، وما ذلك إلا لظهور تلك القدرة الباهرة بأعظم وضوح
- (٣) إن آيات القرآن كلها ناطقة بأن النظر في العوالم هو طريق التوحيد
- (٤) إن المعلم متى أوقف المتعلم على كل عجيبة وذكر عند ذلك القدرة والعلم وصفات التقديس والتزينة بحيث تكون جميع صفات الربوبية تذكر تطبيقا على تلك العجائب كان أثبت في الذهن ورسخ الايمان رسوخا لاتزلله الرياح العواصف

(٥) إن ذلك مع كونه علم التوحيد هو أيضا تاريخ طبيعي وطبيعة وتشريح وفلك وهكذا فيكون ماصرفه من الزمن في تعليمه قد اكتسب به التلميذ علوما تنفعه في دنياه وهو لا يشعر - من كان يريد حوث الآخرة نزله في حوثه - فيكون قد أراد معرفة خالقه وهو في الحقيقة يقرأ علوما كثيرة إذ التوحيد هو جميع العلوم بل مثل من يقرأ توحيدا بهذا الوصف مثل انسان زرع أرضا شجرا مشمرا فان هذا لم يفته خروج حشائش لنوع البهائم فقد جاء القصد الأدنى مع القصد الأعلى ، إن الله

يعطى الدنيا مع قصد الآخرة ولا يعطى الآخرة مع قصد الدنيا
(٦) إن التلميذ إذا نظر العلوم العالية يرى في نفسه عند مطالعتها كأنه يطالع حكمة الباري في تشريحه
ويطهرته وطبه وزرع وحصاده وهكذا لا اعتياده على ذلك من صغره ، ولا سبب لفساد أخلاق الشبان
الذين يتعلمون في المدارس إلا خلق عقولهم من استحضار الخالق فيما عرفوه من العلوم ، ومن
المقرر أن الحكمة لا تفيد إلا من يستحضر الخالق بسره ويعرفه بعقله
(٧) إذا رأى علوم الدين التي أزلها الله على نبيه لا تخالف الطبائع الكونية فإنه يشب على تطبيق دينه
على ظواهر الطبيعة وينغرس ذلك في نفسه ويستشعر استشعاراً تاماً بذلك كما هو مقصود القرآن ،
الآثرى رعاك الله أن آيات الرحمة والعذاب يؤتى بعدها بآيات عجائب الكون ، ألم يكن ذلك ليظهر
للناس أن العلمين متوافقان ، ومن العجيب أن بلادنا تنقسم الى قسمين : فبعض الذين تعلموا
العلوم الدينية وحدها ينكرون العلوم الكونية من الطبيعيات والفلكيات ، ويظنون أن الدين
يرى منها وماهم إلا جاهلون بها ، وبعض من لم يتعلم الدين ودرس في المدارس تلك العلوم ينكر
موافقتها للدين ويقول انها تخالفه - ذلك مبلغهم من العلم - و - كل حزب بما لديهم فرحون -
بل كل من الحزبين مقصر لجهله بما لم يعلم ، ومن جهل شيئاً عاداه ، بل الواجب على كل فرد من
أهلها أن يأخذ من كل فن طرفاً والاصدق عليه قول الشاعر

ومن يك ذا فم مرّ سقيم * يجد مرّاً به الماء الزلالا

فالذي خلق هذا الكون بنواميس خاصة جارية على نسق بديع جعل من تلك النواميس قوانين وشرائع
بين الناس ، فالكون من فعله وتلك القوانين والشرائع المنزلة على خواص خلقه من قوله . وهل يناقض
فعل الرب الأكبر قوله - تعالى الله عما يقول الجاهلون علواً كبيراً - . فبين النواميس الطبيعية والشرائع
المنزلة تطابق وتوافق لا يعرفه إلا من عرف العلمين . وأما من درس أحدهما وجهل الآخر فهو حرجى بأن
يدعى تنافى العلمين ، بل كثير من قارئ الشرائع لقصور عقولهم يرون نصوصها متعارضة لعدم وقوفهم على
أصل مأخذ النصين وما هو المقصود منهما فكيف يرون موافقتها للأشياء الخارجة عنها من النواميس الطبيعية
فالخلق أن الشرائع الإلهية والنواميس الطبيعية متوافقة متلائمة وأن أنكر فأنما ينكر لقصور في عرفانه
وضعف في بصيرته

هذا ما أردت ذكره بالنسبة للإلهيات . أما النبوات فالذي أراه أن يذكر صفات الأنبياء ومكارم أخلاق
سيد الوجود ﷺ وتكون المعجزات داخلية في ضمن تلك الأخلاق حتى يشب الطفل على حب النبي
ﷺ وعلى التخلق بأخلاقه ويهتقد فيه الصدق حين يسمع المعجزات وتكون الواجبات في حق الرسل
قد ثبتت في الأذهان عرضاً . فهذا فضلاً عن كونه علم توحيد علم أخلاق فيخرج قارئ التوحيد من المدارس
وقد درس علوماً طبيعية وأشياء وفلكاً وأخلاقاً . ولنا أمل وطيد من المدارس التي تأسست بالقطر المصري بهمة
ذوى الثروة والجمعيات أن تسعى في أن تسلك هذا المسلك الحميد وتدرس التوحيد على هذا النمط لئتم بها
المقصود إن شاء الله تعالى . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم . وبهذا تم الكلام على النبذة الأولى
والحمد لله رب العالمين

﴿ النبذة الثانية ﴾

أذكر فيها ما كنت كتبت في مجلة «نور الاسلام» منذ نحو (٢٥) سنة . وسبب كتابتها أتى كنت رأيت
في المنام عقب قراءة كتاب نقله المرحوم فتحى باشا زغلول عن أمة الاسلام من الفرنسية الى العربية رأيت

أن ملكا يعرب لى « بدأ الاسلام غريبا وسيعود كما بدأ » ودام على هذا الاعراب والشرح طول الليل وهو يقول : قوله غريبا صفة لموصوف محذوف ، فالوصف نائب مناب المصدر ، ثم يقول : والمعنى المقصود انه بدأ بدأ غريبا لم يعهد له نظير وسيعود كما بدأ أى انه ينتشر انتشارا غريبا لم يعهد له نظير ، وبقيت طول الليل وأنا أسمع هذا القول ويكرر كائى كنت تلميذا يعلمنى الاعراب والمعنى . ولا يفتأ يقول وأنا أسمع وكنت أرى فى هذا التهم استعمال الطرق التى كنت ألقيا على التلاميذ لأنى كنت أعطى السنة الثالثة والرابعة فى مدرسة (الجيزة) كتاب النحو وأعطيهم باب المفعول المطلق ، وكنت أقول لهم ينبوب عن المصدر وصفه وآلته وهكذا فصرت أسمع مثل ما أعطى وهو يقول : غريبا وصف نائب مناب المصدر الى آخره ، وكنت وأنا نائم أعلم أنى نائم وأعلم الحجرة التى أنا فيها وأعلم أن هذا ملك وهو يلقى الى هذا القول ، فاستيقظت من النوم وقلت فى نفسى إن هذه الرؤيا عجيبة ولكن هى أشبه بأضغاث الأحلام ومع ذلك وجدت فى النفس وجدانا غريبا ولكن كنت أشد الناس حرصا على أن لا أكلم أحدا لأن مثل هذه يسخر الناس منها ، فماذا أفعل ؟ كتبت مقالة وضممتها هذا المعنى باعتبار انه جاء من عندى ابتكارا وعنوانها « مما أوجب للمسلمين السقوط ، جعل اقتراب القيامة سبب القنوط » وأرسلتها الى إدارة مجلة «نور الاسلام» التى كانت تصدر بمدينة الزقازيق وطلبت أن لا يكتب اسمى تحتها خيفة التشنيع واللوم ، ثم اتى بعد نحو (٢٠) سنة بحثت عن المقالة فلم أجدها فأسفت كل الأسف ، ولكنى بعد بحث وجدتها فى مكتبتي بمجموعة فى ضمن أعداد هذه الجريدة فسررت سرورا عظيما وهأنذا أكتبها هنا بنصها بعد اليأس منها

وبعد أن سبق الكلام على هذا المعنى فى سابق التفسير إذ ذكرت أنى فى هذه السنة اطلعت على مقالة فى الاهرام لكاتب ذكر هذا المعنى وقال اننى وأنا صغير قرأته فى كلام أحد الفضلاء وعدت أسماء من المشهورين وقال فلا أدري أيهم قالها ، وشرح نفسى ماذا كرت لك فعرفت أن هذا المعنى وصل الى بعض الناس وقد انتشر فى الجرائد السيارة ، واذن عرفت أن هذه الرؤيا أراد الله اظهارها للأمة وانها بشارة لها ، وأنا وان كنت أكتمها عن الناس وقد ظهرت فان آمالى من ذلك اليوم صارت معلقة برقى الاسلام موقنة به ولكن ليس من هذه الرؤيا وحدها . كلا . بل هناك ما هو أصدق وأبدع وأجل وأعلى ، وليس هذا مجال القول فيها فانى رأيت أعجب من هذه بما لا يقاس . فهذا هو السبب فى إيقانى برقى المسلمين . ولهذا ألفت هذا التفسير . وهذا كله سرّ قوله تعالى - سقرهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم - . فبذلك فليفرح المسلمون . وبذلك فليسعد المسلمون . وهالك نص المقالة المذكورة

﴿ مما أوجب للمسلمين السقوط . جعل اقتراب القيامة سبب القنوط ﴾

سبحان من أعزّ وأذلّ وشكل الأشكال المختلفة والألوان البديعة والأصل واحد - وأن الى ربك المنتهى - أنزل من السماء ماء فسالأت أودية بقدرها - فازدادت الحلوحلاوة والمرء مرارة (١) والغذاء تغذية والسواء مداواة والجيل جالا والقيح قبحا والعناصر لم تتغير . فيعجبا لهذا الاحكام . وما أعجب هذا النظام وكيف من الأصل الواحد تستخرج المتناقضات . إن فى ذلك لآيات . وينزل الخير والجلود الإلهى فيكسب كلا ما يشاء كل طبعه فتشرق الشمس على المحموم والصحيح فتزيد كلا على حسب استعداده وتجمد الطين وتذيب الجليد . فالضوء واحد والقابلية اختلفت - إن ربك حكيم عليم - وهكذا العلم والهدى يصيب القلوب فيعطى كل قلب على حسب استعداده فيضل ويهدى ويسعد ويشقى ويعزّ ويذل والعلم فى نفسه واحد والقابليات مختلفات

جاء الدين الاسلامي والناس في جهالة وعمالة فأخرجهم من الظلمات الى النور. ومما جاء فيه ان الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ، وانها اقربت وحان وقتها وان النبي ﷺ بعث هو وإياها كأنهما متلازمان حتى قال ﷺ « بعثت أنا والساعة كهاتين »

فكانت تلك الأدلة والآيات والأحاديث من أقوى ما بحث على أعمال الأمة بل هي أكبر باعث على استنهاض همم أبطال وعزائم رجال الى أعمال البر وترك الكسل والخود إذ انهم وقت موت الانسان وقيام الساعة التي يلاق فيها ربه يبعث فيه روح نشاط على أن يستعد في كل نفس من أنفاس حياته للخيرات على حسب استعداده إما لنفسه أو أهله أو وطنه أو بني دينه وجنسه ، ويكون أمام الخالق الأكبر كأنه خليفة على عبادته يعمل لهم مافيه صلاحهم ، فمن هذا عرفنا أن انهم وقت الساعة والموت من أجل سياسة إلهية كبرى كيف لا وهي سياسة ملهم الملوك ومرشد العلماء . وعلى هذا سلف الأمة الاسلامية لجأوا في الأعمال عملا بقوله تعالى - سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين - لا للتكاسلين والعاجزين فلشكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، وكانوا يعلمون حقا أن من طلب منه عمل الآخرة فإنه طبعاً طلب منه عمل الدنيا معها إذ هي مزرعة لها وطريق إليها ، ومالا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، فكأنه طلب منهم عمل الدنيا وزيادة لنفع نوع الانسان ، وقد ضربوا لذلك مثلاً رجلاً زرع أرضاً أشجاراً مثمرة فإنه لا يعدم حشائش تخرج للبهائم فقد جاء القصد الأدنى مع الأعلى ، أما من زرع البرسيم مقتصرًا عليه فلا تخرج له الثمرات وعلى ذلك قال تعالى - من كان يريد حرث الآخرة زد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب - فكان وعظ القرآن وحته داعياً لعلو الهمة وعلو الهمة من الايمان ، ومن سفلت همته فهو معزل عن الفهم والعلم ، ولا تكمل نفس الانسان إلا بآراقة ماء الحياة في سبيل منافع أمته وبلاده مع القصد الأعلى وهو التقرب للخالق الأكبر

هذه أعمالهم وهذه نياتهم ، فانظروا يا قوم كيف تغيرت الأوضاع وانعكس المعنى وأصبح ما كان وسيلة للارتقاء سبباً للذلة والهوان ، ولكن لا غرابة في ذلك فالقرآن لم يزل والقلوب تغيرت - إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له - . هذه الفاتحة وأين عمر . سمع سلفنا في الدين القرآن في الساعة وقربها فأطاعوا وصيته وحثهم على العمل ، وسمعنا فعصينا وأشرب في قلوبنا حب مجول الجهل وشبان الخلاعة والأمل ، وباليقينا اقتدينا بأسلافنا في الوطن إذ مع كونهم عبدوا الجمل سارعوا الى العمل وما أشبه العلم بالماء يتلون بلون اناته ويمثل على حسب مادخله في بنيته وأجزائه وبالنور يظهر على لون الشفاف الذي هو فيه ، فكما اهتدى أسلافنا بآيات قيام الساعة ضللنا نحن بها - يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين -

أصبح المسلمون الآن في كافة أنحاء المعمورة ولأمل لهم في شوكة ولادولة ولا عز ولا صولة حيث يسمعون من أفواه الجهال بالدين الذين يقولون مالا يعلمون ان هذا الدين سيمحي وأن هذا أوانه وأن الكفر يعاى وهذا حينه ، وتمسكوا بقضايا لا يعرفون معناها إذ هي محل نظر وبحث بين أكابر العلماء ، وانتشرت تلك الفكرة بين العامة والخاصة ، ومما يوجب الأسف والحزن أن الأذهان تطابقت على جمع الفكرتين وهما ان الساعة قربت جداً وأن الاسلام يتمحي ، وحيث اتنا في زمان كثر أنصار الجهل فيه وجب علينا أن نبين للناس فنقول ومن الله التوفيق

أما قرب الساعة فهو لا يدل على ما يزعمه الجاهلون إذ يجوز أن تبقى الدنيا قروناً متطاولة بل آلافاً من السنين بل ملايين ، وربما استعظم هذا بعض العقلاء واستبعده جداً بناء على مارسخ في أذهان العموم مستدلاً بآيات كثيرة وأحاديث كما تقدم على أن الساعة قريبة نقول له على رسلك أيها الأخ فان القرب ليس

من المعهود بيننا والا لقامت الساعة في حياة النبي ﷺ أو بعده بقليل فإن أعمارنا قصيرة ونحن نرى أن أقل من القرن قرب ولكن القرب على حسب علم ذلك القادر القاهر . ألا ترى الى قوله تعالى - إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا - فالأرض لها ملايين كثيرة وهي سائرة في الفضاء . فإذا نسبنا مائة ألف سنة أو مليوناً الى تلك الملايين الكثيرة كانت قرباً بتلك النسبة . فاذن لا مانع من بقاء هذه الدنيا وهذا العالم الى آلاف من السنين والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . فكل أمة اتسمت بمكارم الأخلاق وصلحت في أعمالها وكان صلاحها أكثر من فسادها فتلك هي التي تبقى - حتى تتغير النيات وتهبط العزمات فتدثر الى أرذل العمر . وهذه الأمة الإسلامية قد أخذت دورها في الضعف . ولقد آن أن ترجع الى صلاحها وتأنس رشدتها وتقوم من رقبتها . ومتى برهنت أمام الله والناس انها أصبحت صالحة للقيام بالخلافة في الأرض سلمت اليها أمانتها - ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون - ولقد علم الله وشهد العالم المتمدين (أي العارفون بمقام الاسلام منهم) أن الاسلام أعظم نصير للدنية كما يعلم بأدنى التفاتة للتاريخ . وإن كنت في شك مما قصصنا عليك فاقرا كتاب « خواطر وسوانح في الاسلام » الذي ترجمه فتحي بك زغلول تأليف الاستاذ هنري أحد الفرنسيين . أو اقرا كتاب ذلك العالم المؤرخ الشهير (سديو الفرنسي) ترالجب الحجاب من أمة ودين ومكارم اخلاق هيمنت على العالم أجمع

جئتوا أيها المسلمون واعلموا أن أوان ظهور مجدكم وعوده قد آن . فاسترجعوا مجدكم القديم فقد عرف العالم المتمدين وشهدت الفطر الصادقة بل شهدت العقول ودلت التجارب أن هذا زمن ظهور الاسلام ورجوع مجده القديم فلقد بدا وانتشر انتشارا غريبا لم يعهد له مثيل في تاريخ الأديان وتم من نحو ١٣٠٠ سنة وهاهو الآن قائم يعود كما كان وينتشر انتشارا غريبا كما انتشر أولا وهذا معنى ما قيل « بدا الاسلام غريبا وسيعود كما بدا » أي كما انتشر أولا انتشارا غريبا لم يعهد له مثيل في الأمم . هكذا سيعود وينتشر بتلك الغرابة بعينها والسرعة الفائقة حتى تكون معجزة أخرى . فقلوه غريبا صفة لمقدر محذوف أي بدأ غريبا . وهاهو ذا الآن أوان رجوعه بتلك الغرابة . علم الله وشهد كل عالم من علماء الأرض المحققين أن للاسلام رجعة خاتمة وتقدما غريبا قد ظهرت بوادره وجاء أوانه وعلى أيديكم أيها العقلاء يكون ظهوره ذلك إن شاء الله . جئتوا لارجاع مجدكم وحوز غركم . ومتى صحت المقدمات صدقت النتائج

لوتأمل علماءنا اكتشافات القوم الحديثة ومالديهم من العلوم لعلموا انها تفسير لما أجل في الدين الاسلامي وتوضيح لما غم علينا فيه (وبعبارة أوضح) ان تلك العلوم والأسرار إيضاح وكشف لمخبات القرآن . وأوضح من ذلك أن ذلك مقدمات ظهور سيدنا عيسى وتمهيدات له حين يأتي والناس قد استعدت فطرهم للاسلام قاطبة وتصير الأرض كلها اسلاما بأمر سيدنا عيسى وكأني ببعض اخواني يضحك من سماع مثل هذا الكلام ونحن نقول له أعر استحضار الأرواح هناك لفئة ترالجب الحجاب وتجد مخبات العلوم تظهر على أيدي هؤلاء - ولتعلمن نبأ بعد حين -

جاء وعد رسولنا الصادق الأمين بأن عيسى عليه السلام يأتي في آخر الزمان ويحكم بشر يعتنا أو يظن أن ذلك يكون بدون مقدمات للاسلام ومبشرات بين يدي ذلك النبي . كلا . ثم كلا . وهذا الظهور كل من العلماء يفهمه بما يوافق مشربه ولا تعرض له وانما علينا ذكر النص وكل يفهم ما يناسب معارفه

انظروا الى المستشرقين في أوروبا يقرؤون هذا الدين ويعجبون أي إعجاب . انظروا لأولئك المتعربين في أوروبا الذين يحبهم كل شيء صدمنا وهم نظير المتفرجين عندنا فالقوم في بلادهم لا يعرفون عن الاسلام شيئا إلا قليل منهم وكل من عرف شيئا منه تشبث به . ولا بد أن يكون هذا القرن الآتي أوان ظهور شمس حقايقه في ربوع العالم المتمدين حتى تأنس ببعض معارفه الأذهان قبل مجيء ذلك النبي في آخر الزمان يحكم

بشرع خير ولد عدنان . فكيف بعد هذا كله يقنط المسلمون من رحمة الله . وهذا وعد لهم . أم كيف ثبت في عقولهم أن دولهم تنقرض وهم الذين ورد فيهم « لانزال طائفة من أمتي قائمة على الحق حتى يأتي أمر الله » فهذا الدين وهذه نصوصه . فمن ظن أن الساعة قد جاء وقتها وأن الاسلام سينقرض فقد جهل وضل وأضل . وادعى انه أعلم من رسول الله ﷺ

والله تعالى يقول - يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى لا يعلمها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات والأرض لاتأتىكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفى عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون -

فكيف جاء قوم اليوم جعلوا أنفسهم أعلم من رسول الله وزعزعوا قلوب الناس وأرجفوا وخوفوا وافتروا على الله كذبا في أمر الساعة - إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون - وما أمر الساعة إلا كالح البصر أوهو أقرب إن الله على كل شئ قدير - ولكن إن بحثت عن هؤلاء تجد ان أكثرهم بها لا يعرفون - يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون انها الحق ألا ان الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد -

فتأملوا يا قوم وافهموا القرآن فان إخفاء الساعة سرّ مكنون ومنه أن يقيم الناس دولهم ويأملوا في بقائها ودوامها . ومتى عرفوا قربها اختلت روابط الأمم ووقفت الحركة وانتزعت البركة . ولذلك أعقب هذه الآية بما يشير الى ذلك حيث قال - الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز -

واذا كان إخفاء الساعة سياسة لاصلاح المعاش والميعاد معا ولطفنا من الله بالمعاش في الدارين لافى الدنيا فقد أرشدنا الى أن الرزق المذكور يؤتى به كالتابع لأعمال الآخرة ولذلك أعقبه بقوله تعالى - من كان يريد حرث الآخرة زدله في حريته ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب هذا ورجائى من كل من اطلع على هذا أن ينشر هذه الفكرة في كافة أنحاء المعمورة حتى تنزع تلك الضلالة من الأذهان اهـ

﴿ تذكرة ﴾

إني قلت « بدأ الاسلام الح » بصفة انها حكمة عامّة .

اللطائف العامة لأقسام السورة كلها ^(١)

وهي ست لطائف

﴿ اللطيفة الأولى ﴾ في تفسير البسملة وذكر الرحمة فيها ومناسبتها لما ذكر في السورة من طبقات الأرض ومافيه من صور جميلة وبدائع كشفها القوم في زماننا مصداقا لقوله تعالى في آخر السورة - سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم - الح

﴿ اللطيفة الثانية ﴾ في قوله تعالى - فصلت آياته قرآنا عربيا - وكيف بقيت اللغة العربية محفوظة مصداقا لقوله تعالى - لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - وقوله - سنريهم آياتنا - الح وفي هذه معجزتان : الأولى ان الكشف أظهر أن الأرض لم تكون فجأة . الثانية : ان الأيام قد بلغت في علم الفلك مئات الملايين وهذا يقرب من أيام خلق الأرض

﴿ اللطيفة الثالثة ﴾ في قوله تعالى - حتى اذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم - مع

(١) هذه اللطائف لم يكن لها وجود عند التأليف ولم يفتح الله بها إلا عند طبع هذه السورة : المؤلف

قوله - يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم - وكيف ظهر علم الأيدي والأرجل وكشفها للجنايات في الدنيا وانها اذا قبلت شهادتها عند الله فالقضاة أخرى أن يقبلوا شهادتها وهذه معجزة أيضا لأن الأيدي والأرجل اختصتا بذلك في الكشف دون سائر الاعضاء

﴿ اللطيفة الرابعة ﴾ في قوله تعالى - إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة - الخ

﴿ اللطيفة الخامسة ﴾ في قوله تعالى - ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة -

﴿ اللطيفة السادسة ﴾ في قوله تعالى - سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم -

﴿ اللطيفة الأولى ﴾

(في البسملة وذ كر الرحة فيها ومناسبتها لما ذكر في السورة من طبقات الأرض وما فيها من صور

كشفها القوم في زماننا مصداقا لقوله تعالى في آخر السورة - سنريهم آياتنا في الآفاق -)

تجلت الرحات العامة في هذه السورة بصورتين اثنتين جيلتين بهيتين ، صورة الحروف ، وصورة العناصر ورمز لذين بالخاء والميم ، الرحة وسعت كل شئ ، وتجلت في هذه السورة في الحروف والعناصر ، والحروف والعناصر يرجعان لثنى واحد هو التحليل ، اللغات التي يعرفها الناس تقدر الآن بنحو خمسة آلاف لغة ذكرت مجملها في ﴿ سورة الروم ﴾ عند قوله تعالى - واختلاف ألسنتكم وألوانكم - فارجع اليه إن شئت ، وكلها راجعات لثنى واحد هو الصوت كما ان العناصر التي وصل المعروف منها الآن حوالى الثمانين عدا منها تركبت جميع هذه المخالقات ، اللغات حركات في الهواء ، ومعجائب الطبيعة حركات في الأثير ، وكلها تحلل الى أصولها الأولى ، باللغات ندرس العلوم ويتعارف الناس ، وبالعناصر وتركيبها تكون حياة الحيوان والانسان

تجلت رحجات الأصوات والحروف في قوله تعالى - كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا - واللغة العربية كما تقدم في ﴿ سورة الروم ﴾ إحدى اللغات السامية التي تدرجت من حال الى حال كما ستراه قريبا ، فهي أبدا متقلبة متقلبة ، فبينما ترى قدماء العرب في الجزيرة قبل تاريخ الميلاد ببضعة آلاف يكتبون بالقلم السومري الآتي بيانه وصورته اذا هم يكتبون في الجاهلية قبل الاسلام بقلم آخر اذا هم يكتبون في زمن النبوة بقلم أقرب إلينا ، وهكذا نفس الألفاظ تتغير لهجاتها نباعا متطورات تطوّر الأزمان والقرون والسنين ، ولكن لما جاء الاسلام استقرت اللغة العربية لفظا وخطا على أساس مقاربة الى الآن معجزة لهذا القرآن كما ستراه موضحا ، إذ أنك ستري فيها يأتي سورة الفاتحة والاخلاص مكتوبتين باللغة الصينية ومعهما اللغة العربية ، فذلك التبدل الذي يعثرى اللغات لم يجر على اللغة العربية إلا في طريقة التحسين والبهجة ، أما تغيير الحروف لفظا وخطا تغييرا جوهريا كما يعثرى جميع اللغات فهذا لم يكن . ولما كان لهذه المعجزة آثارها التي ظهرت في المسكونة من أقصاها الى أقصاها قال في نفس هذه السورة - ولوجعلنا قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أ أعجمي - وعربي - الخ فكانت هذه الآية رمزا الى ما هو حاصل الآن من أن القرآن يكتب باللغة العربية وان كان القراء له أعجميين لأنهم لو قرؤوه بلغاتهم لورد عليهم هذا الاشكال . أني عربي - وقرآن أعجمي - وهذا هو السر في حفظ نفس اللغة العربية مع القرآن أينما حل

هذه هي الرحة التي تجلت في هذه السورة في قوله تعالى - كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لأنه لو كان أعجميا لقليل هلا فصلت آياته بالعربية التي نزل بها فاذا قرئ بغيرها لم يكن مفصلا بل كان مبهما أعجميا . وبهذا تم الكلام على الآيات المفصلات الناجات من الحروف

﴿ الآيات المفصلات في المادة الأرضية والسموية ﴾

اعلم أن القرآن لا يفرق في الآيات بين كونها متلوة بالألسنة أو بين كونها مسموعة بالأذان أو مخلوقة في الأرض

والسموات مركبات من العناصر منظورات بالعيون . الله خلق السمع والبصر . وللسمع جاءت اللغات ومنها العربية . وبالعربية سمعنا القرآن وبقي الى الآن باللغة العربية لفظا وخطا . وللبصر خلق الكواكب والمركبات الأرضية والبسائط . إذن الآيات مسموعات ومبصرات . وكما جاء في القرآن ذكر السمع والبصر . ويقول سبحانه - إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا - وما الفؤاد إلا الهيئة النفسية التي بها تفهم وتبصر فيما سمعنا وفيما رأينا ، والسورة مبدوءة بالآيات المسموعة لأن الناس في أول أمرهم يعملون بما يسمعون ، فإذا ارتقوا قليلا فهموا ما يبصرون ، فالناس أولا يؤمنون بما يسمعون بسبب صدق الخبر لهم ، ثم بعد ذلك يفكرون بأنفسهم فيما سمعوه ، فالآيات المسموعات تكون أولا والآيات المبصرات تتلوها . لهذا ذكر المسموعات وتفصيلها أولا ثم تلاها بالآيات المبصرات ، فإذا تلا علينا ؟ تلى علينا أولا أجال هذه الدنيا وأن الأرض خلقت فيها الجبال والنبات والمعدن والحيوان والانسان ، وكان ذلك كله في أربعة أيام ، وأن السموات خلقت ورتبت ونظمت وأعطيت كل سماء نظامها الخاص بها وزينت بأجسل زينة وأبهج منظر . وذلك في يومين . وكان مبدأ أمر السماء دخانا فما زالت العناية بها حتى صارت وصارت الأرضون بالخال التي نراها عليها الآن . ولا جرم أن المذكور هنا إجمال . فهنا سماء وههنا أرض أمرا أن يأتيها طوعا أو كرها ولكنهما أقل من أن يعصيا خالقهما فأطاعنا والطاعة إنما تكون بالخدمة ولا خدمة إلا بحركة والحركة دائمة من أول خلق العالم الى فناءه ، بل نفس العالم هو نفس الحركات كما قررناه في مواضع من هذا الكتاب فالعوالم كلها مسخرات جاريات متحركات وكلهن آيات . وهذه الآيات المبصرات ترجع الى آيتين اثنتين في المشاهدات آيات السماء وآيات الأرض . وكما أن مبدأ السورة فيه ذكر الآيات المسموعات القرآنية في تفصيل القرآن العربي والآيات المبصرات الكونية في خلق الأرض والسموات ، هكذا في القسم الآخر منها تأييد كون القرآن لا بد من بقاءه بالعربية الى آخر الدهر كما قدمنا وذلك في الآيات المسموعات وتبيان الآيتين الكونيتين المذكورتين أول السورة إذ يقول تعالى - ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر - ويقول - ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت - . إذن ما جاء في أواخر السورة مبين لما جاء في أولها . فكون القرآن لا يصح أن يكون أعجميا راجع لقوله تعالى - كتاب فصلت آياته - الخ وكون السموات من آياته وخروج النبات من الأرض من آياته راجع لما في أولها من خلق السموات والأرض . ثم أتبع ذكر الآيات القرآنية والآيات السماوية والأرضية بانذار المشركين وشهادة الجلود ونطقها . والنار المؤلمة لهم . والعداوة التي تقع بينهم إذ يعذبون . وتبشير المؤمنين بأن لهم ما يشتهون . ثم ذكر علم الأخلاق . وذكر حسن المعاشرة . والصبر . وجيل الأخلاق . وختم السورة بوعد جميل قائلا : إن الآيات بقسميها سواء أكانت في القرآن أم كانت في السموات والأرض سأريكموها . فمن آيات القرآن المسموعة ان هذا القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وهذا قد ظهر ظهورا واضحا فان أهل أوروبا الذين كان هذا القرآن سبب نهضتهم الحديثة أصبحوا اليوم يبطشون بالاسلام وبأهل الاسلام . ومع ذلك غلبهم هذا الدين وبقى محفوظا . والدليل على ذلك ما نراه من أنه مكتوب بالحروف العربية في بلاد الصين كما ستره في الصورة الشمسية في هذه السورة كما ذكرت آنفا . أفليس هذا هو نفس الوعد الذي في آخر السورة . وهل أحد ملزم أن يظهر هذه المعاني أكثر منا نحن الذين نعيش في الأرض الآن . المسلمون المتأخرون قبلنا لم تكن لديهم مواصفات مثلنا . إذن وجب على أنا أن أقول للمسلمين بعدنا أيها المسلمون : وعدنا الله أن يرينا آياته وهذه الآيات منها المسموع مثل ان القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وقد ظهر واتضح . وأن أقول أيضا . أيها المسلمون : إن الآيات المبصرة التي وعدنا الله أن يرينا لنا قد أراها فعلا ونشرها في الأرض . الله وعدنا أن يرينا آياته . والآيات المبصرات المذكورات في السموات والأرض جعلت اثنتين إجمالاً في السورة

ولكن هذا الاجال فصل . وتفصيل هذا الاجال جاء في علمين اثنين : علم الفلك . وعلم طبقات الأرض (الجيولوجيا)

الله أكبر : هاهو سرّ القرآن ظهر ، هاهي العلوم ، هاهي ذه علوم الله وآياته ظهرت وبهرت ، هذا وعد الله والله لا يخلف وعده ، الله رحيم ومن رحمته أنه لا يدع عباده يتخبطون في دياجير الظلام تأهين حائرین لا يستقرون . الله سبحانه وتعالى لا يدع المسلم متحيراً يقول يارب أنت قلت أنك خلقت الأرض ونظامها في أربعة أيام . و خلقت السموات في يومين . فأنا يارب في حيرة . يارب أنت أمرتنا بالوضوء وبالصلاة وبالزكاة وبالحيج وبالعاملات . و خلقت لنا المجتهدین كالشافعي وأبي حنيفة ومالك وابن حنبل والامام زيد والمجتهدین من الشيعة . فيارب إن هؤلاء ما بينوا لنا إلا الأعمال . والأعمال تصقل النفوس . والنفوس متى صقلت استعدت للعلم . وأنت أنزلت في هذه السورة آيات مسموعة وآيات مبصرة وأمرتنا بالاستقامة فيها إذ قلت - فاستقيموا اليه واستغفروه - . وبعد ذكر الاستقامة ذكرت لنا آيات السموات وآيات الأرض . وكما أنك أوضحت آية المبصرات وآية المسموعات في أواخر السورة بذكر كون القرآن عربيا . و بيان أن السموات والأرض من آياتك أوضحت أيضا نتائج الاستقامة المذكورة في أول السورة إذ قلت - إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تنزل عليهم الملائكة - الخ . ففي السورة آيات مبصرة وآيات مسموعة وأعمال مشروعة بالاستقامة وكما فصلت في السورة . وهذه الأعمال المشروعة لصقل عقولنا ماهي إلا المقدمات للتبحر في العلوم . وكيف تدخل العلوم قلوبا غير صافية لم تصقل وصقلها بالاستقامة . وزيد ياربنا أن نكون علماء فبالعلم فصل اليك

يقول الله أنا رحيم ، رحمتي وسعت كل شيء ، أنا رحمت الحشرات فجعلت لبعضها آلاف العيون لتبصر فكيف لا أعلم الانسان . ها أنا ذا شرحت وفصلت الآيات في علم الجيولوجيا والفلك ، فليقرأه المسلمون لأنه جليل ولأنه بهيج . نعم إن هذه العلوم الأرضية لم تصل الى غاية الكمال لأن نفوسكم لاتحتمل الكمال في العلم وأنتم الآن عندكم مبادئه بأهل الأرض لأنكم لاتؤتون من العلم إلا قليلا ، ومن هذا القليل علم الجيولوجيا والفلك . أقول أنا ولقد جاء في هذا التفسير أن اليوم إما (٢٤) ساعة وذلك بدوران الأرض حول نفسها في اليوم واللييلة . وأما أن يكون أكثر من ذلك حتى يصل الى (٣٠٠) مليون سنة وأكثر من ذلك وأقل ، وهذه الثلاثمائة مليون سنة لدوران المجرة التي منها شمسنا على نفسها ، فإذا سمعنا الله يقول - وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون - أو يقول - في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة - فهذا فتح باب لمعرفة دوران الكواكب وأيامها وسننها ، وبه نعرف الأيام التي خلقت فيها السموات والأرض . وهذا كله لاتساع العلوم والمعارف فلبست الأيام قاصرة على ألف ولاعلى خمسين ألف و ٣٠٠ مليون سنة بل تكون أكثر وأقل باختلاف الشمس والمجرات والسدم . وأنا أجد الله تعالى إذ كان هذا التفسير مملوا بهذه الجباب ، فيه مفتح لكل من اطلع عليه ، فالحمد لله الذي ألهم وعلم . هذا من حيث الأيام وأن علومها اتسعت في زماننا فأصبحنا نعدّها بمئات الملايين

بقي علينا أن نبحت من علم الجيولوجيا في نظام هذه الأرض والسموات وتدرجهما من حال الى حال وأن السموات كانت دخانا وهذا بيت القصيد

فلأشرح هذا الموضوع بتدر الامكان من علم الجيولوجيا تفسيرا لقوله تعالى - سترهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم - ولقوله - قل أنتمكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون لله أندادا ذلك رب العالمين - وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين - ثم استوى الى السماء وهي دخان - الى آخره

أيها المسلمون : إن الله تعالى من عنايته بنا ذكرهنا ﴿ عشرة أفعال ﴾ في هذا المقام : « خلق ،

جعل ، بارك ، قدر ، استوى الى السماء ، فقال ، قالتا ، فتظاهرن ، أوحى ، زينا » فهذه الأفعال العشرة جاءت على وتيرة واحدة وهى أفعاله تعالى نفسه . وإذا كان الأئمة رحيم الله قداعتنوا بآية الوضوء والغسل والتيمم فألفوا فيها كتباً وليس فيها إلا أفعال خمسة من أفعالنا نحن وهى اغسلوا وامسحوا اطهروا تيمموا فامسحوا هذه أفعال خمسة من أفعال العبد استغرقت كتباً فى المذاهب المختلفة ولم تنل هذه الأفعال العشرة التى هى من أفعال الله جزءاً من ألف مما استنفدته نتائج الأفعال الخمسة العملية فى الوضوء والغسل والتيمم . أفليس هذا أعظم تقصير ! أفليس من العار أن يسمع المسلم الله يقول - فقال لها ولاأرض - الخ ولا يبحث ولا يفكر ، إن ذلك جهل مبين

إذن لنبحث ونشمر عن ساعد الجد فى كسب أمرين : أمر علمي ، وأمر عملي . أما الأمر العلمى فهو الجمال والبهاء والنور والحكمة والسعادة النفسية لأن علم طبقات الأرض وعلم الفلك يرقيان نفوسنا ، ولا معنى للإنسانية إلا العلم ، ومتى ارتقت النفوس قربت من ربها إذ لا قرب إلا بالعلم ، وما العمل إلا صقل للنفس واعدادها غالباً ، هذا هو الأمر العلمى

أما الأمر العملي ، فانتا لن تنال حظاً فى حياتنا إلا بالعلم . وكيف نعرف خواص النبات أو الحيوان إلا بدراستهما . وكيف نستخرج الفحم من الأرض والملح والمعادن والسوائل كالبتروك والغازات اللاتى عرفها أهل أمريكا فأوقدوا بها مصابيحهم من نفس الأرض إلا بعلم طبقات الأرض التى وعدنا الله بتفصيلها . فأذكر لك فيما يأتى شذرات منه . وعلى المسلمين بعدنا إتمام ما بدأناه فان ذلك واجب عليهم شرعاً ، فأجعل الكلام على الأرض فى ﴿ باين ﴾ باب العلم ، وباب العمل

- (١) باب العلم . لأبدأ أولاً بذكر معلومات عامة عن الكرة الأرضية
 - (٢) ثم ألقى بذكر أهم النظريات الحديثة من حيث ان أصل الأرض كانت سديماً أى ذرات معدنية
 - (٣) ثم أتبعه بذكر العصر الأول للأرض
 - (٤) وبعده عصر الحياة القديمة
 - (٥) ثم عصر الحياة الوسطى
 - (٦) ثم عصر الحياة الحديثة وما فيه من بقايا خشب وغابات متحجرات
 - (٧) وما يبقع ذلك من العصر الحجرى القديم
 - (٨) ثم العصر الحجرى الحديث . وعصر البرز
- ثم بلى ذلك باب العمل ، وهو ذكر نبذة من تاريخ المعادن بالقطر المصرى . فلا شرع فى تفصيل ذلك فأقول ومن الله التوفيق

(باب العلم وفيه ثمانية فصول)^(١)

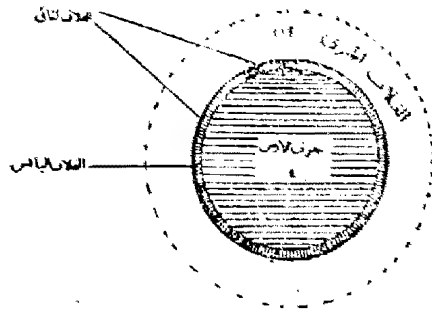
(الفصل الأول)

(فى ذكر معلومات عامة عن الكرة الأرضية)

تطلق لفظة الأرض أو الكرة الأرضية على الكوكب الذى تسكنه سواء منه اليابس والماء وعلى ما يحيط به من هواء

ويمكن تقسيمها لسهولة البحث تقسيمياً طبيعياً الى أربعة أجزاء (انظر الشكل ١٣ فى الصفحة التالية)

(١) هذا وما بعده فى هذا العلم من كتاب الجيولوجيا تأليف الدكتور حسن صادق مراقب مصلحة المناجم



- (١) الهواء - الغلاف الجوي
- (٢) الماء - الغلاف المائي
- (٣) اليابس - القشرة اليابسة
- (٤) جوف الأرض

(انظر شكل ١٣)

قطاع تخيلي يوضح أقسام الكرة الأرضية

وفي الواقع أن الجيولوجيا تبحث في تكوين وتركيب القشرة اليابسة وما تحدثه فيها العوامل الناتجة من تفاعلات الأجزاء الثلاثة الأخرى

﴿ الغلاف الجوي ﴾

يطلق هذا اللفظ على مجموعة الغازات التي تحيط بالكرة الأرضية . ولا اعتبارات عديدة يقدر سمك هذا الغلاف تقديراً تقريبياً بنحو ٥٠٠ الى ٦٠٠ ميل على أنها بحكم قلة ضغطها أو كثافتها كلما بعدنا عن سطح الأرض نكاد لا نكون محسوسة على ارتفاع ٢٥ ميلاً من السطح

يتركب الهواء من الغازات الآتية بالنسبة المئوية المبدئية أمام كل منها

آزوت (نيتروجين) ٧٩ في المائة

أو أكسجين ٢١

ثاني أكسيد الكربون ٠.٠٣ ر .

وهذا أعداد كميات قليلة جداً من غازات نادرة مثل الأرجون والهيليوم والكريبتون والنيون والايذونون وكذلك بخار الماء الذي يوجد بكميات متفاوتة بتفاوت سطح الأرض من حيث الرطوبة والجفاف . وهذا أعداد الأبخرة والغازات البركانية والأترربة الدقيقة وهي مواد وان لم تكن أساسية في الهواء لها أحياناً أهمية خاصة من حيث أثرها في العوامل الجوية

وترجع أهمية الهواء كعامل من العوامل المؤثرة في سطح الأرض اليابسة إلى صفتين :

(أولاً) التأثير الكيميائي لبعض العناصر المكونة للهواء في المعادن والصخور التي يتكون منها اليابس (ثانياً) ميعه الهواء وسهولة حركته من جراء تغير الحرارة والضغط وما ينتج عن هذه الحركة من رياح . ومن الهواء تهطل الأمطار ومن هبوبة تتكون الأمواج وهذه كلها عوامل ذات أثر ظاهر في القشرة الأرضية اليابسة . وسيأتي وصف كل من هذه العوامل وأثرها

﴿ الغلاف المائي ﴾

يطلق هذا الاسم على ما يوجد على سطح الأرض اليابسة من ماء في المحيطات والبحار والبحيرات والأنهار وما يتخلل فجواتها وشقوقها . ولو كانت الأرض كرة ملساء لاتعرج في سطحها لغطاها ذلك الماء بغلاف سمكه ميلان أما وسطح الأرض بين مرتفع ومنخفض فقد اجتمع الماء في مناطق الهبوط فتكوّنت منه المحيطات والبحار والأنهار التي تغطي نحو ثلاثة أرباع من مجموع سطح الكرة الأرضية

﴿ أعماق البحار والمحيطات ﴾

يختلف عمق هذا الغلاف المائي من مكان لآخر اختلافاً كبيراً فالأنهار والبحيرات غالباً قليلة العمق والبحار قد يبلغ متوسط عمقها بضع مئين من الأمتار بينما المحيطات قد تبلغ من العمق آلاف الأمتار . وقد برهنت

المقاسات التي أجرتها بواخر الاستكشاف وبواخر وضع الأسلاك البرقية البحرية أن متوسط عمق المحيطات من ٤٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ متر وقد بلغ أكبر عمق رصدته تلك البواخر نحو ٩٤٢٠ مترا بالمحيط الهادى قرب جزائر البوليونيز

كذلك يستدل من نتائج أعمال بواخر الاستكشاف المذكورة أن قيعان المحيطات هي عبارة عن سهول ممتدة تكتنفها سلاسل من الجبال مغمورة تحت الماء وقد يصل بعضها إلى قرب سطح الماء أو يعاوه فيتكون منها بعض الجزائر في وسط المحيط كجزائر القديسة هيلانة في المحيط الأطلسي وجزائر ساندوتش بالمحيط الهادى والماء هو مركب كيميائى من اتحاد الأوكسيجين والهيدروجين بنسبة ذرة من الأول وذرتين من الثانى إلا أنه يوجد في الطبيعة دائما مذابا فيه أملاح مختلفة تتفاوت في مقدارها تفاوتا عظيما فياه الأنهار وأغلب البحيرات عذبة . أى لأن الأملاح المذابة بها قليلة بينما مياه البحار والمحيطات مالحة أى مذاب بها كمية كبيرة من الأملاح وتزيد نسبة الأملاح المذابة في مياه البحار المغلقة في المناطق الحارة نظرا لارتفاع نسبة البخر وعدم تعويض المياه التي تفقدها كفى البحر الميت بفلسطين . انتهى الفصل الأول

﴿ الفصل الثانى ﴾

(فى أهم النظريات الحديثة من حيث أن الأرض كانت سديما)

اعلم أن العلماء بحثوا فى أصل الكرة الأرضية علما منهم بأن المركب ان لم يحلل الى عناصره والعلم ان لم تعرف أصوله ومبادئه وأحواله الماضية لم ينتفع الناس به كما ان اللغات لانكون مفسدة مالم تحلل الجمل الى كلمات والكلمات الى حروف ، والحاء والميم المذكورتان فى أول هذه السور شاهد عدل بذلك لتقوم حجة رمزية على المسلمين الذين يجهلون تحليل العلوم وأصولها لأنهم لا ينتفعون بها ولا بالحياة على هذه الأرض وإذن نشرع فى آراء العلماء فنقول .

لقد وضع العالم الفلكى الألمانى (كانت) سنة ١٧٥٥ نظرية لأصل هذه العوالم . فقال « إن الفضاء السماوى كان قبل تكوين الشمس العظيمة وسياراتها مملوا بسحاب عظيم جدا مركب من مواد غازية مرتفعة الحرارة جدا ، ثم أخذت الجاذبية تلصق بعض أجزائه ببعض بحيث صار كتلا كل كتلة لها مركز خاص يدور بعضها على بعض وتأخذ الحرارة تنقص شيئا فشيئا وهذه هي الشمس التى نسميها نجوما » فلما اطلع على هذه النظرية (لابلاس) الفرنسى سنة ١٧٩٦ - ١٨٢٤ اشتق منها نظريته المعروفة وهى « ان المجموعة الشمسية كانت سديما حارا بلاء فضاء واسعا فأخذ يبرد شيئا فشيئا ، وبعد ذلك أخذت حلقات حلقه وراء حلقه وهذه الحلقات تكثرت وبردت وهى تدور حول نفسها وحول الشمس وهذه هى الكواكب السيارة ومنها الأرض ، فالأرض طى هذا رأى ماهى إلا من ذلك السديم وقد كانت جزءا من الشمس ، والشمس لما أخذت تتصلص وتبرد تركت أجزاء منها هى عين السيارات وعين الشمس الخ » هذا رأى (لابلاس) الفرنسى بعد (كانت) الألمانى . ومعنى هذا أن حرارة الأرض الآن أقل من حرارتها فى العصور القديمة جدا (عصور الجيولوجيا) أى علم طبقات الأرض ، وهذا رأى هو الذى كنا ندرسه وتلقاه ونحن تلاميذ بدار العلوم منذ نحو (٤٠) سنة ، ولكن هذا رأى الآن ظهر بطلانه لأنهم لما نظروا الى الحيوانات التى استخرجوها من باطن الأرض (وسترى بعضها) وقد مضت عليها آلاف وآلاف من السنين وجدوها لاتحتمل حرارة أشد من حرارة الأرض الآن وأن حرارة الأرض الآن هى حرارة الأرض قديما .

إذن هذا الرأي بطل الآن وحلّ محله رأى آخر وهو أن السديم ليس غازا بلامنى المتعارف بل هو معدن وهذا المعدن ذرات صلبة بينها جاذبية فتكون منها سحابة سماوية أو غبار سماوى يخضع لقانون كأنه جسم واحد . أقول والقول الأول والقول الثانى فى نظر القرآن سواء لأن الله يقول - ثم استوى الى السماء وهى دخان - فنظر السماء دخان ، ولكن كون هذا الدخان شديد الحرارة وليس معدنا أو معدنا له أجزاء طائفة فى الجو كالغبار ، فهذان شيان فى أنهما يسميان دخانا . فالرأى الحديث الذى استقرّ عليه القوم أن الأصل الأول سديم والسديم كما قلنا ذرات معدنية صلبة طائرات مرتبطات بقوانين ، أو هى غبار سماوى ، أو (دخان) وهاك صورته (انظر شكل ١٤)



(شكل ١٤ - منظر السديم المعروف فى مجموعة نجوم الجبار كما يرى بالنظارة الفلكية المعظمة)

ثم ان هذا السديم امتدت منه أذرع أخذت شكلا حلزونيا بسبب دوران شكل السديم فأصبح بذلك أشبه بالسديم الحلزونى الذى يرى فى مجموعة النجوم المعروفة بالسلاقي (انظر شكل ١٥)



(شكل ١٥ - منظر للسديم الحلزونى فى مجموعة نجوم السلاقي كما يرى بالنظارة الفلكية المعظمة)

وهكذا أخذت المعادن أثناء الدوران تغوص وتنزل فى وسط هذا السحاب . ولما غاصت تركت وراءها مادة ألطف منها . فكانت هذه هى القشرة الأرضية . وهذه القشرة لما جددت بالبرودة انكمشت وصارت

مجموعة فهبطت منها أجزاء وهي المحيطات وبرزت أخرى وهي القارات . وقد أحاطت بالأرض أبخرة صارت ماء . وبهذا تم الكلام على الفصل الثاني والحمد لله رب العالمين

﴿ الفصل الثالث في العصر الأولي للأرض ﴾

جاء في كتاب الجيولوجيا مانعه

﴿ العصر الابتدائي للأرض ﴾

يبدأ هذا العصر وقد أصبحت الأرض وحدة كروية مستقلة ذات قشرة خارجية من صخور جرانيتية . وتجمعت هذه القشرة بالانكماش الناتج عن البرودة فبرزت منها أجزاء هي القارات وانخفضت أجزاء أصبحت أحواض المحيطات بفضل ما تجمع فيها من المياه التي تقطرت بالبرودة من الأبخرة التي كانت تحيط بهذا الكوكب في حالة نشأته الأولى

وتعرضت القارات الى عوامل التعرية فتفتتت صخورها ثم اكتسحت المواد المفتتة الى البحار والمحيطات من جراء بعض العوامل التي تقدم وصفها كالرياح والأمطار والأنهار فتكونت الرواسب على قيعان البحار ومن ثم بدأ تكوين الصخور الراسبة

﴿ الفصل الرابع : في الحياة القديمة ﴾

يمثل هذا الحقب جزءا كبيرا من مجموع الزمن الجيولوجي يقدر كإقدمنا بنحو ٣٠ في المائة من مجموعه . وتدلنا الحفريات الكثيرة التي وجدت دفينة بين صفحات صخوره أن سطح الأرض وجوف البحار كانت وقتئذ مرتعا لأنواع من الحياة تختلف كل الاختلاف عن الكائنات الحية التي تعمروها الأرض الآن . فكانت من بينها أجناس وفصائل ورتب قد بادت وانقرضت فليس شئ يشابهها الآن على وجه الأرض كما أن على سطحها الآن من الفصائل الشائعة ما لم تكن قد ظهرت بعد . (انظر اللوحة الأولى) في الصفحة الثالثة

ومن أهم فصائل الحيوانات التي يختص بها هذا الحقب القديم الجرابتوليت والتريلوبيت التي عاشت واندثرت قبل انقضاء ذلك الحقب فلا أثر لها بين صخور الحقب الذي يليه . (انظر رقى ١ و٤ باللوحة الأولى) والجرابتوليت من فصيلة الحيوانات البحرية المعروفة بالبوريفرا . وهي عبارة عن سلسلة متصلة من الخلايا يربط بعضها ببعض عمود دقيق . وقد تكون فردية مستقيمة أو مقوسة أو حلزونية وقد تكون متفرعة الى فرعين أو أكثر (شكل ١ باللوحة الأولى)

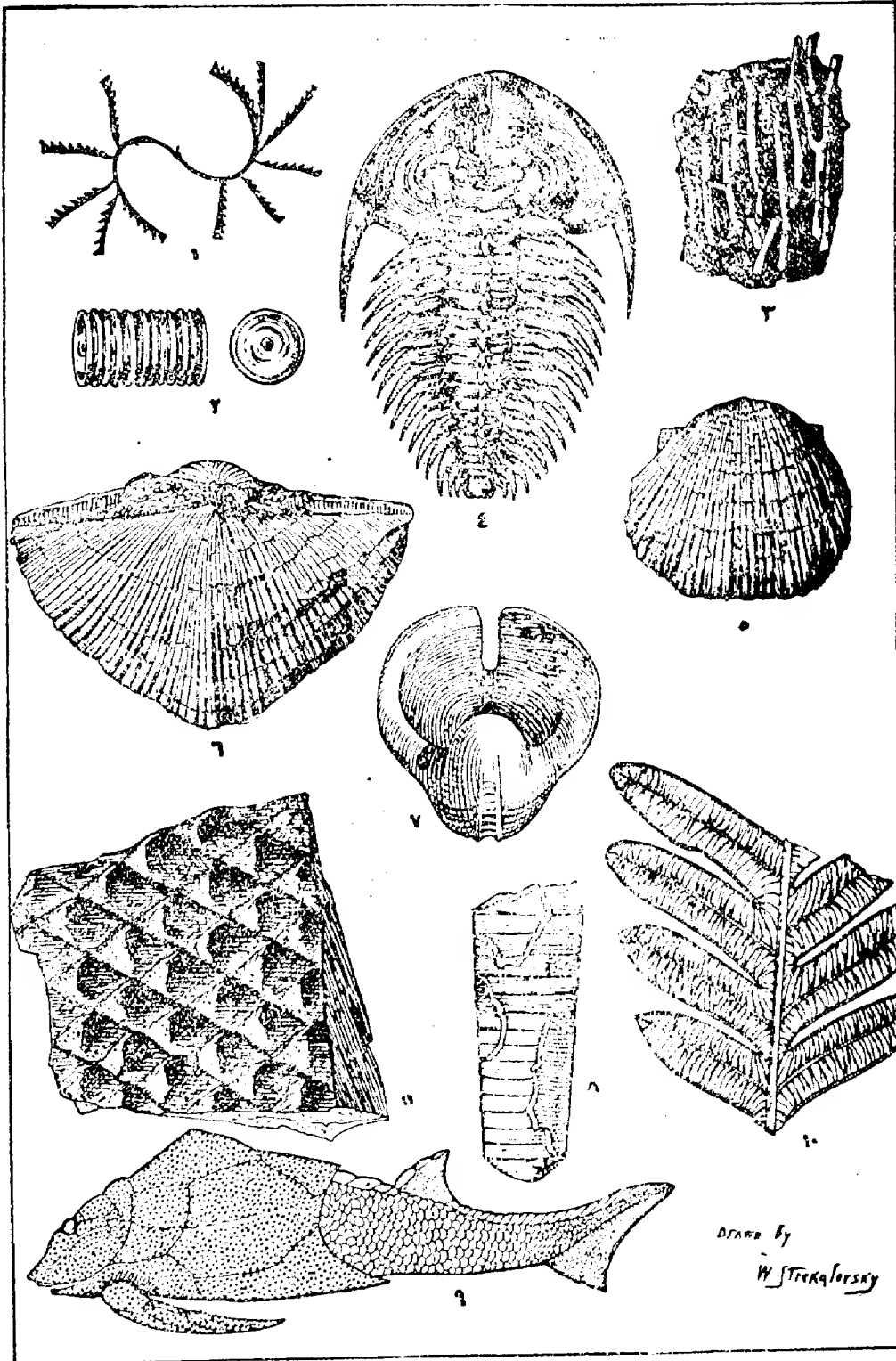
والتريلوبيت من فصيلة الحيوانات القشرية تنقسم طوليا لثلاثة أقسام هي الرأس والجسم والذنب وعرضيا لثلاثة أقسام أيضا (شكل ٤ باللوحة الأولى)

ومن أنواع الحيوانات أيضا الشعاب المرجانية (شكل ٣ باللوحة الأولى) والحيوانات المحارية (الشكلين رقى ٥ و٦ باللوحة الأولى) وكلها من أنواع وأجناس بادت قبل انقضاء ذلك الحقب فلم يظهر أثر لها بين صخور الأحقاب التالية وليس لها وجود في البحار الحالية

وقد كانت الأسماك أولى الحيوانات الفقرية التي ظهرت في البحار أبان ذلك الحقب . على أنها كانت تختلف اختلافا بينا عن أسماك البحار الحالية إذ لم تكن هياكلها العظيمة قد تعظمت تماما وكان يستعصم عنها الحيوان بدرقة خارجية تغطي رأسه وجزءا من جسمه (انظر الشكل رقم ٩ باللوحة الأولى)

ومن الأسماك نشأت أنواع الأمغيبيا أو الحيوانات البرمائية . على أن ظهورها كان قرب انتهاء ذلك

الحقب ومنها نشأت الزواحف التي كان لها شأن عظيم في حقب الحياة الوسطى (انظر شكل ١٦)



﴿ اللوحة الأولى - انظر شكل ١٦ ﴾

(الحفريات المينة بهذه اللوحة حسب الأرقام المينة أمام كل منها هي : (١) جرابتوليت (٢) كرينويد (٣) شعب مرجاني (٤) تريلايت (٥) برودكتوس (٦) سبيريفر (٧) بليريفون (٨) ارثوسوراس (٩) سمك بتريكذس (١٠) نبات سرخسي (١١) ليمودندرون)

﴿ الفصل الخامس في عصور الحياة الوسطى ﴾

جاء في كتاب « الجيولوجيا » مانصه :

كان هذا الحقب فترة سدون وهُدوء لم تتعرض القشرة الأرضية فيه لمثل ما تعرضت له من حركات أرضية عنيفة إبان الحقب . ولم تكن الأرض في غضون هذا الحقب المتوسط مسرحاً لتفاعلات بركانية شديدة ومع أن البحار قد عدت على بعض أجزاء من الأرض ففعمرتها وألقت فوقها برواسبها المختلفة إلا أن ذلك لم يكن نتيجة حركات عنيفة من نوع التي أدت في الأحقاب الأخرى إلى رفع سلاسل الجبال العظمى كذلك كانت هناك براكين في بقاع مختلفة ولكنها لم تبلغ الشأو والانتشار اللذين بلغتهما في العصور السابقة وليس للصخور البركانية شأن كبير بين صخور تسكاوين الحقب المتوسط

وقد كانت أنواع الحياة من نبات وحيوان تختلف في مجموعها عنها في عصور الحقب القديم * فبادت من بينها فصائل كانت قد أُنعت وازدهرت في العصور الأولى كالتريلوبيت والجرانيتوليت وانتشرت بدلا عنها أجناس اختص بها هذا الحقب كالأمونيت والبلعنيت التي بدأت مع ابتداء ذلك الحقب واندثرت قبل انتهائه فأصبحت من أخص مميزات

والأمونيت (شكل ١ باللوحة الثانية) جنس من الحيوانات المحارية الرخوة محارته مستديرة الشكل مفلطحة في التواءات حلزونية بداخلها تجويف حلزوني مقسم إلى غرف أكبرها الغرفة الخارجية التي كان يسكنها الحيوان . وتفصل هذه الغرف بعضها عن بعض قطاعات مجمعة . وقد كان من هذا الجنس نحو أربع آلاف نوع يختلف بعضها عن بعض في حجمها وشكلها وزخرفها الخارجي أما البلعنيت (شكل ٢ باللوحة الثانية) فهو حيوان ذو محارة سوداء مستطيلة أعلاها مجوف حيث كان يسكن هذا الحيوان وأسفلها ينتهي بنقطة حادة

ومن أنواع الحيوانات التي تكاثرت في العصور الجيولوجية الوسطى الشعاب المرجانية التي كانت تشبه الشعاب التي تنمو الآن في بحار المناطق الاستوائية (انظر شكل ١٧) في الصفحة التالية

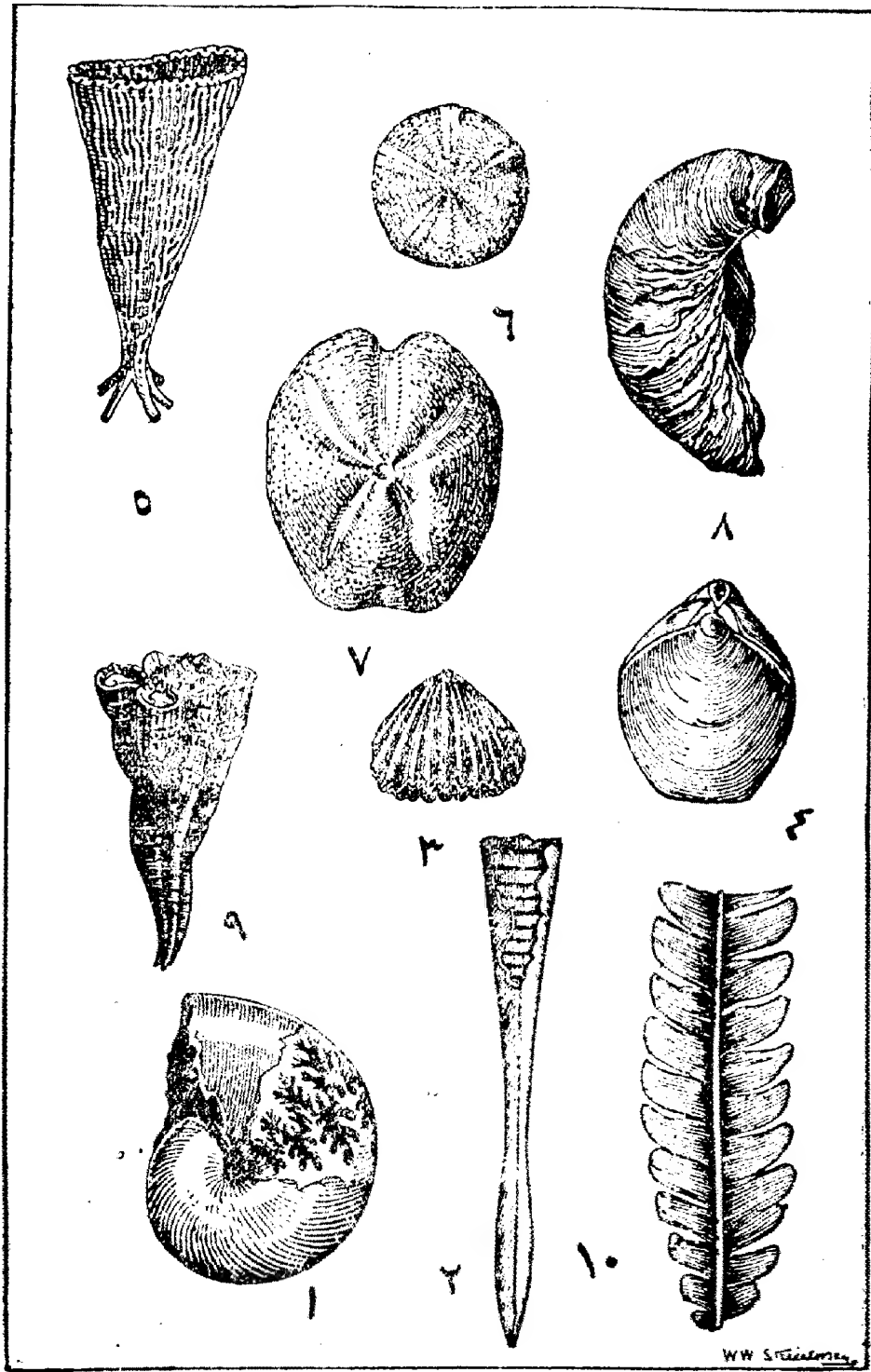
﴿ الفصل السادس . في عصور الحياة الحديثة . (الكاينوزوى) ﴾

جاء في كتاب « الجيولوجيا » مانصه .

ترجع تسميته إلى الشبه الكبير بين ما كانت تعيش فيه من نباتات وحيوانات وما يعيش منها الآن مع العلم أن كلمة (كاينوز) يونانية معناها حديث أو جديد وكلمة (زون) كلمة أخرى معناها حياة وقد بدأ ظهور الفصائل والأسر والأجناس الحالية من حيوانات ونباتات مع ابتداء هذا الحقب وصارت تزايد نسبتها كلما تقدمنا فيه . فكانت مجموعة الحياة تزداد شيئا بجموعة الحالية . وكان في ذلك تدرج من الحياة الوسطى إلى الحياة الحالية

وكانت أجناس الأمونيت والبلعنيت التي اختصت بها العصور الجيولوجية الوسطى قد اندثرت شيئا فشيئا قبل بزوغ الحقب الحديث كذلك بادت الزواحف الكبرى التي تفوقت في تلك العصور على باقي الحيوانات ولم تترك وراءها من تلك الفصيلة سوى أجناس قليلة الأهمية صغيرة الحجم هي التي بقيت على وجه الأرض الآن كالسحالي والتماسيح والأفاعي

ومن أخص مميزات أنواع الحياة في ذلك العهد النوميوليت والسرنيوم وهي لم تكن قد ظهرت قبل ذلك . ومن الحيوانات الفقيرة امتازت الشدية فتفوقت على باقي أنواع الحيوانات جميعا . وبلغت المملكة النباتية



(اللوحة الثانية - شكل ١٧)

(مجموعة أهم الحفريات في صخور حقبة الحياة الوسطى بالقطر المصري)

(أسماء الحفريات المبينة باللوحة الثانية حسب الأرقام المبينة أمام كل منها هي ٠ - (١) أمونيت (٢) بلانيت (٣) رينكونيلا (٤) تريبراتولا (٥) اسفنج فنتريكوليتس (٦) هولكتيوس (٧) هيمياستر (٨) أوستريا، (٩) رودستا (١٠) نبات سرخسي)

مالم تكن قد بلغت قبل ذلك من تنوع أجناسها وانتشارها وتوزيعها
ويقدرون عدد أنواع الحيوانات التي عاشت في عصور الحقب الحديث بنحو ٢٠ ألف نوع أهمها تابع
للأجناس الآتية

النوموليت وهي حيوانات من فصيلة الفوراميفراتسكن الى هيكل جبرى مستدير يختلف حجمها وشكلها
من حبة العدس الى القطعة ذات العشرين قرشا . وقد كانت استدارتها ورقتها التي جعلتها شبيهة بقطع النقد
سببا في تسميتها . فاذا قطعت نصفين رؤيت منقسمة في الداخل الى خلايا صغيرة مرتبة في صفوف حلزونية
يفصل بعضها عن بعض حواجز رقيقة (انظر شكل رقم ١ باللوحة الثالثة) وقد اقتصرت حياة النوموليت
على العصر الأول من عصور هذا الحقب وتكاثرت فيه وكان من جراء تراكم محاراتها أن تكونت الأحجار
الجيرية النوموليتية ومنها أحجار جبل المقطم وهضبة أهرام الجيزة

ومن القنافذ البحرية جنس الأكينولامياس . ومن الحيوانات الرخوة السريثيوم وهي من القواقع
ذات المحارات الحلزونية المزخرفة من الخارج بأررار وخطوط وقد بلغ بعض أنواعها حجما كبيرا . ومنها أيضا
البلانوريس وكانت تسكن المياه العذبة

ومن الحيوانات الرخوة ذات المحارات المزدوجة الأوستريا (شكل ٦ باللوحة الثالثة) والبيكتن (شكل ٧
باللوحة الثالثة) واللوسينا (شكل ٢ باللوحة الثالثة)

وقد انتشرت الحشرات انتشارا كبيرا وذلك يرجع لانتشار النباتات المزهرة . فكان من بينها أنواع النحل
والبعوض والنمل والفراش وقد حفظت حفريات بعضها بحالة جيدة جدا داخل قطع الكهرمان (الكهرمان)
الذى هو عبارة عن صمغ بعض الأشجار الصنوبرية التي كانت منتشرة في غابات ذلك الحقب

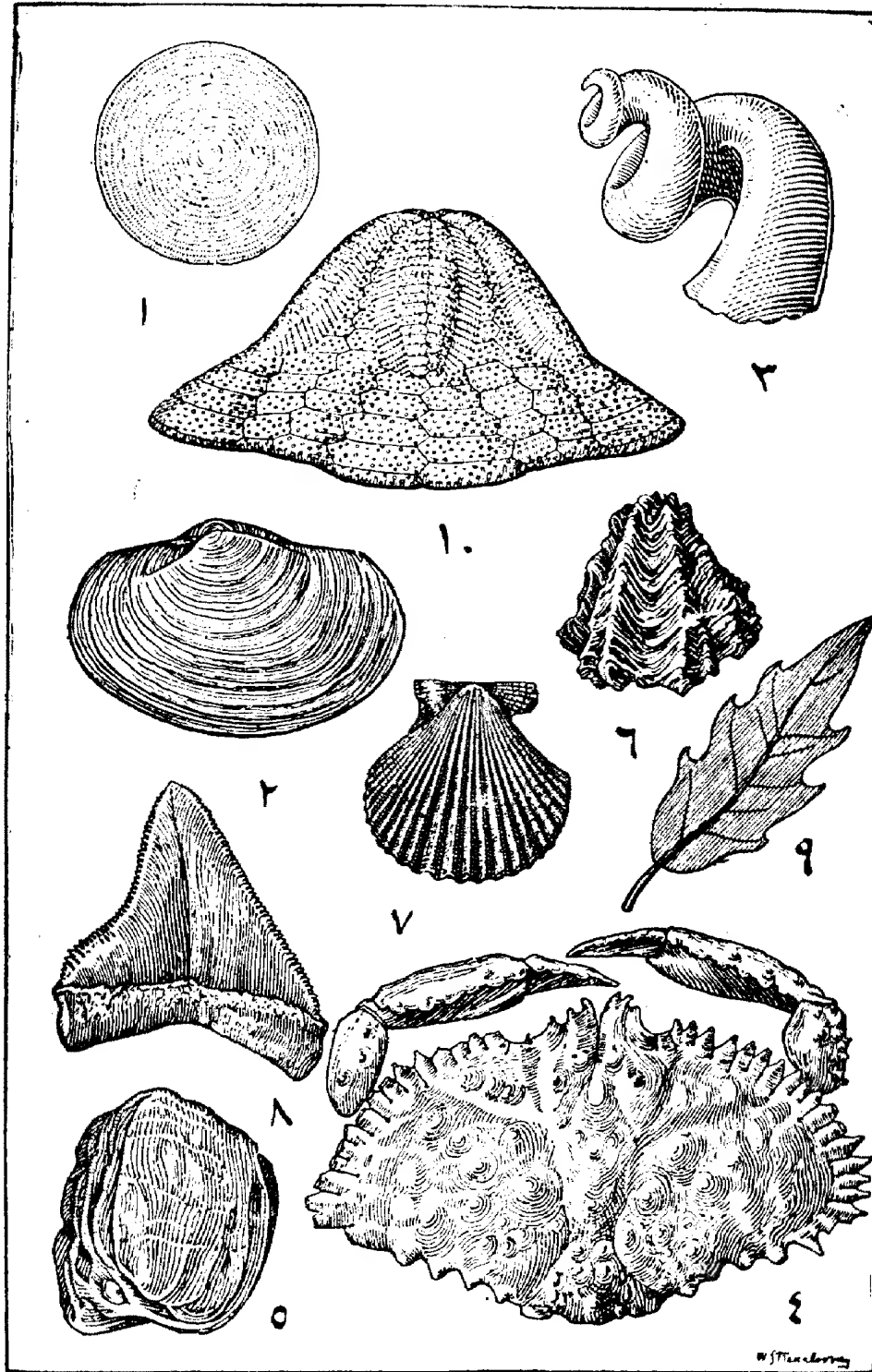
ومن الحيوانات الفقرية الأسماك وكانت تشبه الأسماك الحالية كل الشبه . والأمفيبيا والزواحف التي كان
من بينها السحالي والثعابين والسلاحف والتماسيح التي لا تختلف كثيرا عن مثيلاتها في الوقت الحالي

واندثرت الطيور ذات الأسنان التي كانت قد نشأت في أواخر العصور الوسطى وأخذت مكانها أنواع لآسنان
لها تشبه الطيور الحالية

أما الحيوانات الثديية فقد بلغت أقصى حدود السكالك في ذلك الحقب وتفوقت على باقى أنواع الحياة جميعا
ومن الهياكل العظمية التي وجدت مدفونة في باطن صخور ذلك الحقب أمكن تتبع الحلقات المختلفة في
نشوء بعض الأجناس التي تعيش على الأرض الآن

فالقيل مثلا نشأ في العصور الأولى من ذلك الحقب من جنس الماستودون وهو حيوان بلغ طوله (٥) ونصف من
الأمطار وارتفاعه ٤ أمتار وله نابان في كل من الفك الأعلى والأسفل (انظر شكل ١٨ أى اللوحة الثالثة) في
الصحيفة التالية





(شكل ١٨ - اللوحة الثالثة)

(مجموعة أهم الحفريات في صخور حقبة الحياة الحديثة بالقطر المصري)

(أسماء الحفريات المبينة باللوحة الثالثة حسب الأرقام المبينة أمام كل منها هي (١) نوموليت (٢) لوسينا (٣) ناتيكا لونجا (٤) سرطان بحري (٥) فاكهة متحجرة (٦) أوستريا (٧) بكتن (٨) سن الحوت (٩) ورقة شجر (١٠) كليبياستر)

﴿ الفصل السابع في العصر الحجري القديم ﴾

اعلم أن عصر الحياة الحديثة المتقدم ذكره قسمه العلماء الى قسمين عظيمين : عصر ثلاثي وعصر رباعي وفي العصرين ظهرت أنواع من الحيوانات الرخوة وهي لاتزال حية الى الآن . وقد وجدوها ستة أنواع في أزمان مختلفة . وفي هذا العصر كانت بعض الغابات المتحجرة وهي الأماكن التي تظهر على سطحها هذه الطبقات الرملية التي تحتوى على بقايا الخشب المتحجرة . وبتأثير عوامل التعرية فيها تُكتسح الرمال وتبقى الأشجار المتحجرة ملقاة على السطح . ومن أمثلتها « الغابة » المشهورة الواقعة على بضعة كيلومترات شرقي العباسية حيث ترى كثيرا من سيقان الأشجار يبلغ طول بعضها عشرين مترا . وهي محتفظة بدقيق تركيب أليافها حتى إنها تقسبه الخشب في شكلها الخارجى إلا أنها مركبة من مادة سيليسية بدلا من مادتها الخشبية الأصلية . وقد استبدلت بالمادة الأصلية مادة السيليس ذرة لذرة في مياه معدنية سيليسية كانت قد تفجرت من عيون في نهاية ذلك العصر (انظر الشكل رقم (١) والصورة الفوتوغرافية رقم (ب) باللوحة الرابعة) (انظر شكل ١٩ وشكل ٢٠)

(اللوحة الرابعة)



(شكل ١٩) (١) قطعة من الخشب المتحجر



(شكل ٢٠) (ب) منظر الغابة المتحجرة قرب القاهرة



إذا عرفت ما تقدم فلنفض الكلام على العصر الحجري وهو العصر الذي كان الإنسان يستعمل فيه الأحجار الصلبة ليصنع منها آلاته المختلفة . ولقد كانت هذه الآلات في أول الأمر مهذبة تهذيباً بسيطاً لا تدل على مهارة خاصة ثم تدرجت إلى أرقى فأرقى حتى بلغت في النصف الأخير من هذا العصر درجة كبيرة من الاتقان . ولذلك قسم العصر الحجري إلى قسمين

(١) - العصر الحجري القديم

وكانت فيه الآلات الحجرية بسيطة الشكل غير مصقولة ومن أمثلتها المجموعة التي ترى في الشكل رقم ٢١



(شكل ٢١)

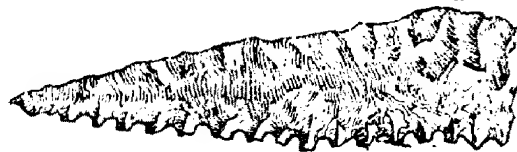
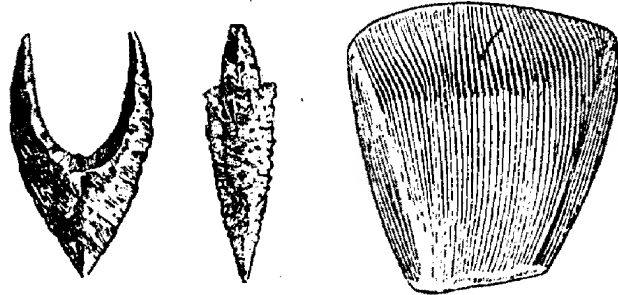
ومن الحالات التي توجد فيها هذه الآلات يتضح أن الإنسان كان في أول الأمر هائماً على وجهه متقلداً في السهول والوديان باحثاً عن صيد أو هارباً من حيوان مفترس . وبعد ذلك لجأ إلى سكنى الكهوف والمغارات حيث ترك وراءه فيها هياكله العظمية وبعض آثاره من آلات حجرية

ولقد بلغ بعض ساكني هذه الكهوف مبلغاً عظيماً من الفن فتركوا على حيطانها رسوماً متقنة تمثل ما كان يعاصروهم من أنواع الحيوانات البائدة كالماموث وبعض أنواع الغزال

ومن آثار هذه الكهوف يظهر أن الإنسان كان في تلك العصور النائية قد دفعه فائدة النار في طهي الطعام والتدفئة . كذلك كان قد بدأ يستفيد مما عاصره من حيوانات فكان يصنع من أنياب الفيلة ومن قرون الغزلان سكاكين ورؤوساً للرماح إلى غير ذلك من آلات بسيطة الصنع

(٢) - الفصل الثامن . في العصر الحجري الحديث ومعه عصر البرنز

تتمايز آلات الإنسان في ذلك العهد بصقلها ورقتها ودقة صنعها واختلاف أشكالها . فكان منها رموس الرماح والسهام والبلط (انظر شكل ٢٢)



(شكل ٢٢ - مجموعة من الآلات من حجر الصوان تابعة للعصر الحجري الحديث)

ذلك لأنه كان قد تقدّم درجات محسوسة في سلم المدنية فزادت احتياجاته والحاجة كما نعلم هي أم الاختراع . ومن الرسوم التي تركها على جوانب الكهوف وعلى أيدي السكاكين يظهر أنه كان قد نجح في إخضاع بعض الحيوانات الوحشية فصارت أليفة تساعد على كفافه في الحياة . فكان له منها الثور والحصان والجمار والكلب والقط . كذلك كان قد تعلم فنون الزراعة فزرع القمح والشعير لطعامه وزرع التيل ليصنع منه ملابس يتقي بها عوادي الطبيعة ويستعملها في الزينة . كذلك كان قد علم شيئا عن صناعة الفخار فصنع لنفسه منه أواني بسيطة

وقد هجر الكهوف في آخر الأمر الى بناء مساكن يأوي إليها في أواسط بعض البحيرات ليأمن فيها من اعتداء الوحوش الضارية وقد بقيت آثار بعض هذه المساكن في بحيرات بسويسرا وغيرها من البلاد ويظهر أنه كانت له وقت ذاك معتقدات دينية فقد ترك وراءه هياكل أو معابد مكوّنة من جلابيد صخرية ضخمة لا بد أنها تطلبت منه مجهودا عظيما في إقامتها

﴿ عصر البرنز ﴾

هذا العصر يتفق في أغلب البلاد مع ابتداء العصر الجيولوجي الحديث أي عقب انتهاء عصر الباليستوسين فكان فاتحة العصور التاريخية المعروفة ومن الغريب أن ينتقل الانسان من صناعة آلاته من الصوّان فجأة الى البرنز الذي هو خليط من معدنين وقد يكون ذلك من باب المصادفة

وقد شد سكان وادي النيل القدماء عن هذه القاعدة العامة في التدرج فلم يمرّوا في عصر البرنز بل انتقلوا من العصر الحجري الحديث الى استعمال النحاس الذي كانت لهم فيه طريقة خاصة لجعله شديد الصلابة أما عصور الانسان الحجرية في القطر المصري فتوجد آثارها من آلات من الصوّان في رواسب الرمل والحصى على جانبي وادي النيل وفي الوديان بالصحاري . وقد جعت أحسن أمثلتها من طبقات الرمال والحصى بالعباسية فكان من بينها أنواع تمثل جميع درجات العصر الحجري القديم من ابتدائه الى انتهائه . كذلك وجدت آثار العصر الحجري الحديث في بعض بقاع متفرقة في وادي النيل نفسه وعلى مقربة من بحيرة قارون ويستنبط من هذا أن الانسان في العصر الحجري القديم كان منتشرا في وادي النيل والصحاري وقد يكون ذلك للملاءمة الأحوال الجوية لتقله في هذه المناطق . على أنه في العصر الحجري الحديث قد لجأ الى أماكن معينة بوادي النيل واتخذ عيشة أكثر سكونا من الأولى . وإلى هنا تم الكلام على باب العلم وفصوله الثمانية والحمد لله رب العالمين

باب العمل

ولأذكر هنا نبذة من علم الجيولوجيا خاصة بالقطر المصري الذي هو بعض البلاد الاسلامية وهاك نصها

﴿ نبذة عن تاريخ التعدين بالقطر المصري ﴾

يرجع أول اهتمام بالتعدين في مصر الى العصور التاريخية القديمة . فقد كان قدماء المصريين يهتمون به اهتماما عظيما يظهر أثره فيما فتحوه من مناجم للذهب والنحاس وبعض الأحجار الكريمة . وقد كان لما استنبطوه من المعادن بعض الفضل في المركز الممتاز الذي تبوءوه بين باقي الأمم . وقد ظهر من مسطوراتهم على البردي وعلى جدران بعض المعابد أنهم كانوا يبعثون الى الصحراء بعوثا مجهزة برجال الفن المعدنيين تحرسهم فصائل من الجند لتصد عنهم عادية أهل البدو المعدنين

واستمر هذا الاهتمام بأمور التعدين طول عصر قدماء المصريين حتى عهد الرومان . ثم تولاها كاتولى باقى مرافق الدولة خول تام لم ينفق منه إلا فى عصور متقطعة إبان الحكم العربى الاسلامى فلما أن تبوأ عرش مصر ساكن الجنان محمد على باشا منشئ الأسرة الحاوية الكريمة فقه بثاقب بصره أن المعادن هى أساس المصناعات جميعا ، فوجه عناية خاصة للبحث عنها وندب من علماء الأوربيين من جابوا الصحارى المصرية باحثين منقيين . على أن المنية عاجلته قبل أن تتم جهوده الثمرة التى كان يرجوها ولم يضع مجهوده سدى . فالتجهت الأنظار بعد ذلك إلى مسائل التعدين فى مصر ومابداً القرن الأخير حتى كانت جهود قيمة تبذل فى سبيل البحث عن المعادن بالصحارى المصرية . فأعيد فتح مناجم الذهب القديمة واستمر استغلال بعضها سنين عديدة ، وكشفت موارد الفوسفات والبتروى والمنجنيز وبلغ استغلال بعضها شأنًا لا يستهان به . وسنقتصر هنا الكلام عن أهم المفادن على حسب ترتيب أهميتها

(زيت البترول)

أول ما دل على وجود البترول بالأراضى المصرية ما كان ينز منه منذ القدم على سطح الماء عند سفح جبل الزيت على شاطئ خليج السويس . وكان هذا الزيت سببا فى تسمية الجبل بهذا الاسم ثم كشف بعد ذلك عام ١٨٨٥ بمنطقة الدمشة (جسا) فى مغارات كانت قد فتحت قرب الشاطئ لاستخراج معدن الكبريت . فأدى ذلك إلى البدء فى عمليات البحث التى لم تترك قبل عام ١٩١٠ . ومن ذلك الوقت بدأ استغلال منطقة جسا كحقول بترول واستمر استغلالها حتى عام ١٩٢٧ حيث نصب أغلب آبارها فأهميتها الشركة التى كانت تستغلها (أنظر صورة أحد آبار جسا رقم ب باللوحة الخامسة فى الصفحة التالية) وفى عام ١٩١٤ كشف الشركة نفسها منطقة الفردقة التى تبعد ٦٠ كيلو مترا جنوب جسا ، وقد تقدمت الفردقة تدريجا حتى بلغت الآن درجة كبيرة من الإنتاج وأصبحت المورد الأكبر لزيت البترول ومستخرجاته بالقطر المصرى (الصورة ١) باللوحة الخامسة فى الصفحة التالية) . وسنورد بعض الأرقام للدلالة على أهمية كل من هذين المكانين

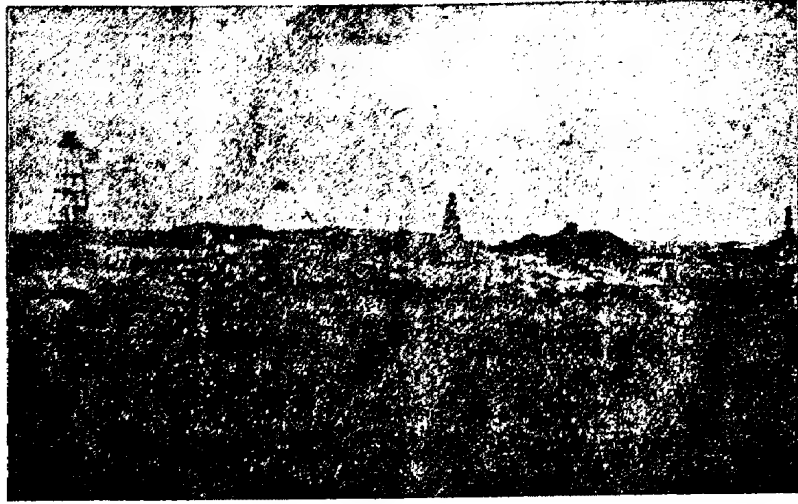
(جسا)

بلغ مجموع آبارها	٣٤ بئرا
عدد الآبار المنتجة	١٠ آبار فقط
متوسط عمقها	٤٠٠ متر
ومجموع ما أنتجته من البترول من وقت ابتدائها حتى أغلقت ١٨٢٤٨٨ طنا وكان البترول الذى أنتجته آبار جسا من نوع جيد غنى بالمواد الخفيفة كما يستدل من الأرقام الآتية	
ثقل النوعى	٨٢٧ ر .
نسبة البنزين	٢٨ فى المائة
نسبة الكيروسين	٣٢ فى المائة
نسبة المازوت	٤٠ فى المائة

(الفردقة)

بلغ مجموع آبارها	٨٢ بئرا
عدد الآبار المنتجة	٦٩ بئرا
متوسط عمقها	٦٠٠ متر
مجموع ما أنتجته حتى نهاية عام ١٩٢٨	٩٥٥ ر ٢٨٦ ر ٢ طنا

(اللوحة الخامسة)



(شكل - ٢٣ (أ) منظر لجزء من حقول البترول بالغردقة)



(شكل ٢٥)

(ج) أحد مروق المرو الحاملة للذهب
بمناجم سمناء بالصحراء الشرقية

(شكل ٢٤)

(ب) بئر في أول إنتاجه بتدفق البترول من
فوهته بقوة عظيمة - جسا



(١) - منظر عام لمناجم الفوسفات قرب سفاجه بالصحراء الشرقية
(شكل ٢٦)



(شكل ٢٧)

(ب) - منظر منطقة مناجم المنجنيز بشبه جزيرة سينا

أما نوع البترول الذي تنتجه الآبار فهو أقل جودة من نوع بترول جسا كما يستدل من الموازنة بين الأرقام الآتية والأرقام التي أوردناها

الثقل النوعي لبترول الفردقة	٩٢٠ ر .
نسبة البنزين	٨ في المائة
نسبة الكيروسين	١٥ في المائة
نسبة المازوت	٥٧ في المائة
نسبة الأسفلت	١١ في المائة
نسبة البارافين (الجم)	٧ في المائة
نسبة الكبريت	٢ في المائة

وتخرج هذه الزيوت مختلطة بمياه مالحة تحتاج لفصلها عنها الى عمليات خاصة كما أنه تنبعث من الآبار غازات كثيرة يقطر منها الجا-ولين وهو نوع من البنزين الخفيف . انتهى من كتاب الجيولوجيا للدكتور حسن صادق وبهذا تم الكلام على اللطيفة الأولى والحمد لله رب العالمين



﴿ اللطيفة الثانية ﴾

(في قوله تعالى - كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا - وكيف بقيت اللغة العربية محفوظة مصداقا لقوله تعالى - لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - الخ - ولقوله تعالى أيضا - نريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم - الخ - وهذه معجزة ثالثة)

اعلم أيها الدكي أن في وصف القرآن بأنه عربي ﴿ مبحثين ﴾ المبحث الأول ﴿ لغوى ﴾ المبحث الثاني ﴿ علمي وسياسي

﴿ المبحث الأول وهو اللغوى ﴾

جاء في كتاب « الاتقان . لعلم القرآن » في الجزء الأول صفحة ١٢٧ ما نصه :
 « وأقوى ما رأيته لنزول غير العربي في القرآن وهو اختياري ما أخرجه ابن جرير بسند صحيح عن أبي ميسرة التابعي الجليل . قال : « القرآن من كل لسان » . وقال قبل ذلك : وأجابوا عن قوله تعالى - قرآنا عربيا - بأن الكلمات اليسيرة بغير العربية لا تخرج عن كونه عربيا ، والقصيدة الفارسية لا تخرج عنها بلفظة فيها غير عربية . ثم قال . وروى مثله (أى مثل ما قاله أبو ميسرة) عن سعيد بن جبير ووهب بن منبه . فهذه إشارة الى أن حكمة وقوع هذه الألفاظ في القرآن انه حوى علوم الأولين والآخرين ونبا كل شيء ، فلا بد أن تقع فيه الإشارة الى أنواع اللغات والألسن ليتم إحاطته بكل شيء فاختر له من كل لغة أعذبها وأخفها وأكثرها استعمالا للعرب . ثم رأيت ابن النقيب صرح بذلك فقال : « من خصائص القرآن على سائر كتب الله المنزلة انها نزلت بلغة القوم الذين أنزلت اليهم لم ينزل فيها شيء بلغة غيرهم ، والقرآن احتوى على جميع لغات العرب وأنزل فيه لغات غيرهم من الروم والفرس والحبشة شيء كثير » اه
 وأيضا فأنبي صلى الله عليه وسلم مرسل الى كل أمة ، وقد قال تعالى - وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه - فلا بد أن يكون في الكتاب المبعوث به من لسان كل قوم وان كان أصله بلغة قومه هو اه
 وهأنذا ملخص لك ما جاء في ذلك الكتاب مما ورد من لغات قبائل العرب المختلفة ، ثم أتبعه بما جاء فيه من لغات الأمم المختلفة ليكون ذلك ذكرى لأولى الأبواب
 ولقد اخترت أن يكون على هيئة جدول لطيف بحيث تكتب الكلمة وأمامها معناها وأمامها في صفهما اسم القبيلة ليكون ذلك أحسن وضعاً وأتم صنعا وأقرب فهما وهاهي ذه في الصفحات التالية



القبيلة	معناها	الكلمة	القبيلة	معناها	الكلمة
هذيل	ناجيته	شاكلته	جبر	مكتوبا	مسطورا
»	ظنا	رجا	كنانة	الجهال	السفهاء
»	ملجأ	ملتجدا	»	صاغرين	خاشين
»	يخاف	يرجو	»	تلقاه	شطره
»	نقضا	هضما	»	لانصيب	لاخلاق
»	مغبرة	هامة	»	أحرارا	وجعلكم ملوكا
»	أسرع	واقصد في مشيك	»	عيانا	قيلا
»	القبور	الأجداد	»	سابقين	مجزين
»	مضى	ثاقب	»	يفيب	يعزب
»	حالمهم	بالهم	»	تميلوا	تركنا
»	ينامون	يهجعون	»	ناحية	لموة
»	عذابا	ذنوبا	»	ملجأ	موتلا
»	المسامير	دسر	»	آيسون	مبلسون
»	عيب	تفاوت	»	طردا	دحورا
»	نواحيها	أرجائها	»	الكذابون	الخراصون
»	ألوانا	أطوارا	»	كتبا	أسفارا
»	نوما خفيها	بردا	هذيل	كفور للنم	كنود
»	خائفة	واجفة	»	العذاب	الرجز
»	مجاغة	مسغبة	»	باعوا	شروا
»	المسرف	المبذر	»	حققوا	عزموا الطلاق
جبر	تجينا	تفشلا	»	نقيا	صلدا
»	اطلع	عثر	»	ساعاته	آناء الليل
»	جنون	سفاهة	»	وجههم	فورهم
»	ميزنا	زيلنا	»	متابعا	مدرارا
»	حقيرا	مرجوا	»	مخرجا	فرقانا
»	الاناء	السقاية	»	حض	حرض
»	متن	مسنون	»	فاقة	عيلة
»	كتاب	إمام	»	بطانة	وليجة
»	يحركون	ينغضون	»	اغزوا	افزوا
»	بردا	حسابنا	»	الصائمون	السائحون
»	نحو لا	من الكبر عتيا	»	الاثم	العنت
»	جعلا	خرجا	»	بدرعك	بيدك
»	بلاء	غراما	»	شبهة	غمة
»	البيت	الصرح	»	زواها	دلوك الشمس

القبيلة	معناها	الكلمة	القبيلة	معناها	الكلمة
ازدشنوة	مكرو بين	كاظمين	حير	أقبحها	أنكر الأصوات
»	الحار الذي	غسلين	»	ينقصكم	يترك
»	تناهى حره	»	»	محاسين	مدينين
»	حراقة	أواحة	»	شديدة	راية
مذحج	جاء	رفث	»	شديدا	ويلا
»	مقتدرا	مقيتا	جرهم	بسلط	بجبار
»	بكذب	بظاهر من القول	»	النحاس	القطر
»	الفناء	الوصيد	»	مجموعة	مخشورة
»	دهرا	حقبا	»	محبوسا	معكوبا
»	الأنف	الخرطوم	»	زنا	مرض
»	ترعون	تسيمون	»	استوجبوا	فباءوا
خشم	منتشر	مرجج	»	ضلال	شقاق
»	مالت	عفت	»	ملا	خيبر
»	ضجورا	هاوعا	»	كأشباه	كدأب
»	كذبا	شططا	»	تيملوا	تعولوا
قبس عيلان	فريضة	نحلة	»	يتمتعوا	يفنوا
»	ضيق	حرج	»	نكل	شرد
»	مضيعون	لخاسرون	»	سفلتنا	أراذلنا
»	تستهزئون	تفندون	»	شديد	عصيب
»	حصونهم	صياصيمهم	»	جيحا	لفيفا
»	تتنعمون	تجبرون	»	منقطعا	محسورا
»	ملعون	رجيم	»	جانب	حذب
»	ينقصكم	يلتكم	»	السحاب	الخلال
سعد العشيرة	أختانا	حفدة	»	المطر	الودق
»	عيال	كل	»	عصابة	شرذمة
كندة	طرقا	بفاجا	»	طريق	ربيع
»	فقت	بست	»	يخرجون	ينسلون
»	تحزن	تبثس	»	مزجا	شوبا
عذرة	اخزوا	اخسثوا	»	الطرائق	الحبك
حضر موت	رجال	ريون	»	الحائط	سور
»	أهلكنا	دمرنا	أزدشنوة	لاوضح	لاشية
»	إعيا	لغوب	»	الحبس	العصل
»	عصاه	منسأته	»	سنين	أمة
غسان	عمدا	طفقا	»	البئر	الرس

وجاء في صحيفة ١٣٦ من الجزء الأول من كتاب
الاتقان المذكور أيضا ما نصه :

وقال أبو بكر الواسطي في كتابه الارشاد في القراءات
العشر : في القرآن من اللغات خمسون لغة ، منها لغة قريش
وهذيل وكنانة وخثعم والخزرج وأشعر ونمير وقيس
عيلان وجهرهم واليمن وأزدشنوة وكندة وتميم وحير
ومدين ولخم وسعد العشيرة وحضرموت وسدوس
والعمالقة والنمار وغسان ومذحج وخزاعة وغطافان
وسبأ وعمان وبنو حنيقة وقملب وطبي وعامر بن
صعصعة وأوس ومزينة وتقيف وجذام وبلي وعذرة
وهوازن والنمر والجميمة

وفيه من غير العربية الفرس والروم والنبط والحبشة
والبربر والسريانية والعبرانية والقبط ، ثم ذكر في أمثلة
ذلك غالب ما تقدم عن أبي القاسم وزاد الرجز العذاب
بلغة بلي طائف من الشيطان نخسة بلغة تقيف الأحقاف
الرمال بلغة قملب . وقال ابن الجوزي في فنون الألفان
في القرآن بلغة همدان الريحان الرزق والعيناء البيضاء
والعقري الطنافس ، وبلغة عامر بن صعصعة الحفدة
الخدم ، وبلغة تقيف العول الميل ، وبلغة عك الصور
القرن . وقال ابن عبد البر في التمهيد : قول من قال
نزل بلغة قريش معناه عندي الأغلب . انتهى

ثم ذكر في صحيفة ١٣٨ وما بعدها الألفاظ الواردة
من كلام غير العرب مرتبة على حروف المعجم وهذا نصها

الكلمة	معناها	القبيلة
بقيس	شديد	غسان
سبي ٣٣	كرهمهم	»
لا تغابوا	لا تزيدوا	مزينة
إملاق	جوع	لخم
ولتعاقر	ولتقهرن	»
لجاسوا خلال	تخللوا الأزقة	»
الديار		
العقود	العهود	بنو حنيقة
الجناح	اليد	»
الرب	الفرع	»
حصرت	ضافت	الجميمة
تجاولوا ميلا عظيما	تخطئون خطأ بينا	سبأ
تبرنا	أهلكنا	»
نسكس	رجع	سليم
الصاعقة	الموت	عمان
ينفق	يصيح	طبي
رغدا	خصبا	»
سفه نفسه	خسرها	»
يس	يا انسان	»
أفيضوا	انفروا	خزاعة
الافضاء	الجماع	»
خبالا	غيا	عمان
نفقا	سربا	عمان
حيث أصاب	أراد	عمان
بعدامة	نسيان	تميم
بقيا	حسدا	»
طائر	عمله	أنمار
أغطش	أظلم	»
لأحتكن	لأستأصلن	الأشعر يون
نارة	مرقة	»
اشمأزت	مالت ونفرت	»
لينة	نحلة	الأوس
ينفضوا	يذهبوا	الخزرج
فأفرق	فأقص	مدين

الأمّة	معناها	الكلمة	الأمّة	معناها	الكلمة
الخبشة	هو فارسي	زنجبيل	زنجية أو عبرانية	موجع	أليم
فارسي معرب	الرجل	السجل	أهل المغرب	نضجه	إنما
الفارسية	الكتاب	د	(البربر)	موقن أو الرحيم	أواه
	أولها حجارة	سجيل	الخبشية	مسح	أوب
	وآخرها طين	سجين	الخبشية	الآخرة	الجاهلية الأولى
الفارسية	هو غير عربي	سراق	القبطية (فعمدهم)		
السريانية	الدليل أو الدار	سريا	الأولى آخرة		
النبطية	نهر	سفرة	وبالعكس)	ظواهرها	بطانها
هي أمجية	القراء	سقر	قبطية	كيل حار	كيل بعير
الفارسية	مقنى الروس	سجدا	عبرية	الكنائس	بيع
الخبشية	الخل	سكرا	فارسيان معربان		تنور
هو أمجى		سلسيل	هو فارسي معرب		تديرا
الفارسية والهندية	الديباج	سندس	هي بالنبطية	من بطها	من تحتها
النبطية	زوجها	سيدها	النبطية	الشیطان أو الساحر	الجبث
الخبشية	الحسن	سينين	الخبشية	أصلها كهنام	جهنم
النبطية	د	سيناء	وجب	الخبشية	حرم
الخبشية	تلقاء	شطر	الزنجية	حطب جهنم	حصب جهنم
هي كلمة سريانية		شهر	العبرية	وقولوا صوابا	وقولوا حطة
الروم	الطريق	الصراط	النبطية	الفسالون أصله	الحواريون
النبطية	شققة	صرهن		حوارى	
العبرانية	كنائس اليهود	صلوات	الخبشية	إنما	حوبا
	وأصله (صلواتا)		هو فارسي		دينار
الخبشية	هو كقولك يا محمد	طه	بلسان اليهود		راعنا
النبطية	يارجل	طه	هي عبرانية أو		ربانيون
الخبشية أيضا	يارجل	طه	سريانية		
الخبشية	الكاهن	الطاغوت	سريانية		
الرومية	قصدا	طفقا	عبرانية أصله رخن		ربيون
الخبشية والهندية	الجنة	طوبى	أمجى	البحر	الرجن
السريانية	الجبل	طور	الرومية	اللوحي	الرس
بالعبرية	ليلا معرب أو هو رجل	طوى	العبرية	تحريك الشفتين	الرقيم
النبطية	قتلت	عبدت	النبطية	سهلا دمثا	رمزا
السريانية	جنات الكروم	جنات عدن	السريانية	ساكنا	رهوا
	والأعصاب			فهذا الجبل من الناس	رهوا
					الروم

القبيلة	معناها	الكلمة	القبيلة	معناها	الكلمة
الحبشية	ضعفين	كفيلين	الحبشية	المسناة التي	العرم
الفارسية	غورت	كقورت		تجمع الماء	
الفارسية	مقاييح	مقايد	التركية	البارد المثلث	غساق
العبرية	مكتوب	مرقوم	الحبشية	نقص	غيض
العجم أو القبط	قليلة	مزجاة	الرومية	بستان	فردوس
النبطية (ملكو تار)	ملك	ملكوت	النبطية	فرداسا	»
القبطية	فرار	مناص	العبرية	سطة	فوم
أهل المغرب	عكر الزيت	مهل	غير عربي	معروف	قراطيس
الحبشية	قيام الليل	ماشة الليل	الرومية	العدل	اقسطاس
الفارسية	أعنع ماشة	ن	الحبشية	الأسد	القسورة
	وأصله (الزن)		النبطية أو	كتابنا	قطنا (بنة مريد
العبرانية	تبنا	هدنا	الفارسية معربة		الطاء)
الأعجمية	اليهود	هودا	رومية وسريانية	١٢ ألف أوقية	قطار
السريانية	حكاء	هونا	وبربرية		
النبطية	الحبل والملجأ	وزر	السريانية	هو الذي لا ينام	القيوم
الحبشية	يرجع	يبحور	معرب	معروف	كافور
البربرية	بنضج	بصهر	النوطية	أع عنا	كفر عنا

قال المؤلف : هذا ما وقفت عليه من الألفاظ المعربة في القرآن بعد الفحص الشديد سنين ولم تجتمع قبل في كتاب قبل هذا . وقد نظم القاضي تاج الدين بن السبكي منها سبعة وعشرين لفظا في أبيات ، وذيل عليها الخافظ أبو الفضل ابن حجر بأبيات فيها أربعة وعشرون لفظا وذيبت عليهما بالباقي وهو يضع وستون فتمت أكثر من مائة لفظة . فقال ابن السبكي :

السلسيل وطه كقورت بيع * روم وطوبى وسجيل وكافور
والزنجبيل ومشكاة سرادق مع * استبرق صلاوات سندس طور
كذا قراطيس ربانهم وغسا * ق ثم دينار القسطاس مشهور
كذلك قسورة وأليم ناشئة * ويؤت كفيلين مذكور ومسطور
له مقاليد فردوس يهد كذا * فيما حكى ابن دريد منه تنور

وقال ابن حجر

وزدت حرم ومهل والسجل كذا السرى والأب ثم الجيت مذكور
وقطنا وإناء ثم متكئا * دارست يصهر منه فهو صهور
وهيت والسكر والأواه مع خصب * وأوتى معه والطاغوت مسطور
صرهن أصرى وغيض الماء مع وزر * ثم الرقيم مناص والسنا النور

وقلت أيضا :

وزدت يس والرحن مع ملكو * ت ثم سينين شطر البيت مشهور

ثم الصراط ودريء بحور ومر * جان أليم مع القنطار مذكور
وراعنا طفقا اهدنا ابلعي ووراء * والأرائك والأكواب ماثور
هود وقسط وكفر زمرة سقر * هون يصتتون والمنساء مسطور
شهر مجوس واقفال يهود حوا * ريون كنز وسجين وتغير
بعير أزرو حوب وردة عرم * آل ومن تحتها عبتت والصور
ولينسة قومها رهو واخلد مز * جاة وسيدها القيوم موفور
وقل ثم اسفار عنى كتبنا * وسجدا ثم ريون تكثير
وحطة وطوى والرّس نون كذا * عدن ومنفطر الأسباط مذكور
مسك أباريق ياقوت رروا فهنا * مافات من عدد الألفاظ محصور
وبعضهم عد الأولى مع بطائنها * والآخرة لمعانى الضد مقصور
هذا ما أردته من كتاب « الانتقان في علوم القرآن » ، وبهذا تم الكلام على المبحث الأول في اللطيفة
الثانية والحمد لله رب العالمين

﴿ المبحث الثاني ﴾

في اللطيفة الثانية وهو العلمى والسياسى في قوله تعالى - كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون -
وصف الله القرآن بأنه عربى ، ولأجزم أن هذا الوصف لا يحتاج في حد ذاته الى بيان أو تصريح لأن
النبي ﷺ عربى والسامعون له عرب ، فهو معروف بداهة ، إذن ذكر هذا الوصف قد جرى به لفرض
سام وحكمة تظهر للأمم جيلا بعد جيل . ولقد ظهرت بعض آثار ذلك في أيامنا هذه . ياسبحان الله : إن
لغات لآثارا عجيبة في أحوال الأمم وتطورها وترقيتها من حال الى حال

(١) فلا ذكر لك أولا اللغة اللاتينية ، وكيف كان لها السيادة في القرون الأولى بالدول الغربية ، ثم
تلتها لغات أخرى وحلت محلها كما يقوم الابن مقام أبيه ويرث ما يملكه

(٢) ثم أتبع ذلك بذكر دولة جورابى وهى الدولة البابلية الأولى من سنة ٢٤٦٠ ق.م الى سنة ٢٠٨١ ق.م
وكيف اقتبست القلم السامى القديم على عهد السومريين الذى كان شكله أشبه بشكل الكتابة الهيروغليفية
(المصرية القديمة) وكيف استخدموا اللغة السومرية في المكاتبات ، ثم تركوا اللغة وأبقوا الخط ، ثم تغيرت
هيئة الخط

(٣) ثم أقفى بذكر اللغة العربية قبيل الاسلام ، وكيف كان خطها النبطى والفرق بين ذلك الخط والخط
السامى وبينهما نحو ثلاثة آلاف سنة

(٤) ثم أتبع ذلك بالنسبة بين هذا الخط النبطى واللغة العربية إذ ذاك في القرن الرابع بعد الميلاد وبين
ما حدث من التغير فيهما أيام البعثة المحمدية

(٥) ثم أذكر بعد ذلك كيف نسخت اللغة العربية لغات الأمم التي حلت بها في مصر والشام والعراق

(٦) ثم أتبع ذلك بما هو المقصود في تفسير هذه الآية من هذا الموضوع كله ، وهو أن اللغة العربية
سحرا حلالا وبفضل القرآن دامت قرونا ، أى نيفا و١٣ قرنا ولغة القرآن لم تتغير استبقاء لوصف القرآن
بالعربية ، حتى ان هذه اللغة كلها حاولت الدهور والقرون تغييرها على ألسنة العامة على مقتضى قانون التطور
العام ، أبت أن تفارق اللغة الفصحى واجتذبت أهل الأقطار العربية والعجمية المسلمة الى تلك اللغة فأصبحت
كهرباء تصل ما بين أم وأم في عصرنا الحاضر ، وهل أعجب من أن ترى الصورة الشمسية لسورة الفاتحة وقل

هو الله أحد مكتوبتين باللغة الصينية في نفس بلاد الصين واللغة العربية بالخط العربي مصداقاً لقوله تعالى هنا - قرآنا عربيا - ولقوله تعالى أيضاً - إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون -

فهنا إذن (ستة فصول في الفصل الأول) في مقدمة هذا المقام يذكر اللغة اللاتينية وكيف بحيث مع انها كانت لغة الدين والسياسة (الفصل الثاني) في عرب الجاهلية الأولى وهي دولة جوراني فيما بين النهرين (الفصل الثالث) في اللغة العربية قبيل الاسلام وكيف كان خطها النبطي (الفصل الرابع) في النسبة بين هذا الخط النبطي وبين الخط واللغة العربية أيام البعثة المحمدية (الفصل الخامس) في أن اللغة العربية نسخت لغات الأمم المصرية والسورية والعراقية (الفصل السادس) في المقصود من هذا كله في تفسير هذه الآية وهو أن بقاء اللغة العربية محفوظة الى الآن في بلاد العرب وأوروبا والصين من أكبر المعجزات

(الفصل الأول)

(في مقدمة هذا المقام يذكر اللغة اللاتينية ومطراً عليها تمهيداً لما سذكر من اللغة العربية ومطراً عليها تبيناً لمعجزات القرآن)

اعلم أن الدولة الرومانية كانت صاحبة السلطان في جنوبي وغربي أوروبا فكانت حضارتها ولغتها ودينها وعاداتها وقرائنها ساريات في تلك الأمم

ومن عادات الله في الأمم أنها اذا استفحلت وكل عمراتها وعظم شأنها أخذت ترجع القهقري كما يكون ذلك في الانسان والحيوان والنبات - وتلك الأيام نداؤها بين الناس - . وقيل « مصائب قوم عند قوم فوائد » فكان الرومان كلما ازدادوا في ترفهم اقتربت منهم الأمم المتوحشة حولهم وهم سكان سواحل البلطيق وأودية الطونة والربن الذين كانوا في شمال وشرق الدولة . ومازال أولئك المتوحشون يترصون بتلك الدولة الدوائر ويشنون الغارات تلوا الغارات الى أن كانت سنة ٤٧٦ ميلادية لا تمكن ادوكر (وهو قائد من قواد القبائل الألمانية الذين يوصفون بالمتوحشين) من إزالة سلطان (رميولوس) آخر امبراطور للدولة الرومانية الغربية وجعل نفسه حاكماً لرومه . وهذه الدولة الغربية غير الدولة الشرقية التي كانت عاصمتها القسطنطينية ثم احتلها الترك بعد قرون . فلم زالت المملكة الرومانية الغربية انقشرت الفوضى والهرج والمرج والفساد لأن هؤلاء قوم لا قوانين لهم ولا نظام ، فأهملت الطرق وجهلت التجارة والصناعة والزراعة ، وهناك أصبح الناس هناك جماعات كل جماعة لهم رئيس يجمعهم ليصدوا عنهم جيرانهم ، وأصبح هناك نظام معروف باسم (نظام الاقطاع) وهو المعهود في تاريخ العصور الوسطى

ومثل الألمان في الاغارة على تلك الدولة أهل فرنسا وقد عظم شأنها حيناً من الدهر أيام شارلمان سنة ٧٦٨ الى سنة ٨١٤ وسميت لذلك بالدولة الرومانية . والذي يهمني في هذا المقام هو اللغة اللاتينية التي هي لغة الكتابة بين العلماء ثم انحصرت بين رجال الكنيسة ، وذلك أن هناك لهجات أخرى مؤسسه على اللاتينية في إيطاليا وفرنسا واسبانيا ولهجات أخرى مناسبة لها في شمالي أوروبا ترجع الى الأصل التيتونى . وفي آخر العصور الوسطى قد ابتداء أولئك الأقوام يتغنون بلغاتهم وان لم تكن مكتوبة ، تغنى قوم من فرنسا باللغة الفرنسية الشمالية ، وجماعة من ألمانيا بالألمانية ، وظهر (داتش) فألف كتابه المسمى « الكوميديا الإلهية » باللغة الطليانية . وكتب شوسر الانجليزى حكايات كنتربرى باللغة الانجليزية السكسونية القديمة . وظهرت في اسبانيا أشودة السيد باللغة الاسبانية ، فهناك تكونت أصول اللغات الأوروبية الجديدة ، وظهر أثر ذلك في ترقية معارف تلك الشعوب ، ذلك لأن أكثرهم يجيئون اللغة اللاتينية التي كانت وحدها لغة العلم ، فلما

ألفت الكتب باللغات التي يعرفونها اتسعت مداركهم واستنارت عقولهم ، وساعد على ذلك أمران : الأمر الأول الحروب الصليبية التي بها اختلط القوم بالمسلمين وحلوا كتبهم وعلومهم ، فلما رجعوا غيروا أساليب حياتهم وعرفوا الحقائق وتعلموا الصناعات الكثيرة ، وهذا التفسير قد تقدم فيه هذا موضحا في سور كثيرة . الأمر الثاني سقوط الدولة الرومانية الشرقية سنة ١٤٥٧ باستيلاء الدولة العثمانية عليها ، فلقد كانت تلك العاصمة حافلة بالعلماء ، فلما أحسوا بدنو العثمانيين رحلوا منها ومعهم الكتب الاغريقية العظيمة في الفنون المختلفة التي كانت تجمها بأوروبا ودخلوا المدن الإيطالية فصار هؤلاء أساتذة في مدارسهم وجامعاتهم ، وهذه أهم الأسباب في نهضة إيطاليا ومنها انتشرت في أنحاء أوروبا ، وهناك سبب ثالث لا ينتص عنهما أهمية وهو أن الأندلس كان سقوطها في نفس ذلك القرن ، وأنت أيها القارئ ربما قرأت في مواضع كثيرة من هذا التفسير أن ابن رشد لما نفي تفرق تلاميذه اليهود في أوروبا ورحبت بهم ألمانيا وترجوا كتبه باللاتينية والعبرية وغيرها ، وأيضا قد كان بعض بابوات رومه كما تقدم قد تعلم في الأندلس ، وبعض علماء الانجليز قبل ذلك التاريخ تعلموا العلوم الرياضية وترجوا كتبها من بلاد الأندلس ومصر

باللهج : إذن هذا القرآن الموصوف بأنه بلسان عربي هو السبب الحقيقي في نهضة أوروبا الحديثة . ذلك لأن الأندلسيين المسلمين لم يذفيه والحروب الصليبية ثم ترك المسلمون التابعون لهذا الدين الذي نزل باللغة العربية هم ثلاثة الأتافي . إذن أول النهضة الأوروبية وآخرها هو القرآن العربي وهذا من أسرار وصف القرآن بأنه عربي وقد ثبت بهذه اللغة ولم يتغير تبعا للتغير المستمر في جميع اللغات من قرن لآخر كما أتى فانك ستري أن اللغة العربية في مدة ثلاث قرون قد تغيرت ألفاظها واختلفت كتابتها اختلافا بينا ، وهذا القرآن العربي لم يتغير لفته مخالفا في ذلك كل لغة كاللاتينية التي حلت محلها ألسنة أخرى مبنية عليها ولغات أخرى لاصلة بينها وبينها ، وهذا من أسرار ذكر الوصف بأنه قرآن عربي ، فلهذا اللاتين لغة دينية ومع ذلك تغيرت ولغة العرب لم تتغير ولو تغيرت لزال هذا الدين ثم ان العداوة بين أهله وبين غيرهم كانت سببا في طرد جماعة من القسطنطينية وآخرين من الأندلس ، كان كل ذلك سبب انتشار العلم والنهضة الحديثة ، ولو تغيرت اللغة العربية كغيرها لانمحى الدين ولم يظهر فيلسوف كابن رشد ، ولا ملك يهاجم النصرانية كمحمد الفاتح ، ولا ملك يدافع النصرانية كصلاح الدين أيام الحروب الصليبية ، والترك لسانهم عربي ومع ذلك تأثروا بذلك اللسان العربي ، وبهذا كله كانت هذه النهضة الحديثة

ومن آثار هذه النهضة الثلاثية في أوروبا بفضل القرآن العربي أن التعليم في تلك الأقطار كان مقصورا على علوم الدين والقانون الروماني وقانون الكنيسة وفلسفة أرسطاطليس ، فإذا جرى ؟

(أولا) قامت مناظرة بين العلماء أشهرها المناظرة التي بين (بطرس ابيلاود) وبين (الأب برنارد) فالأول يقول بأن الناس يسرون بمقتضى عقولهم ولا يقتضون على القوانين الدينية ، والآخر كان يذعن للكنيسة ويحكمها في كل شيء

(ثانيا) ان الكنيسة قوت (برنارد) ونصرتة وخذلت (ابيلاود) وحقت تعاليمه ومع ذلك قامت جامعة باريس على أثر هذه المناظرة ثم تلتها سالونو وبولونيا في إيطاليا ثم اكسفورد في انجلترا

(ثالثا) ظهر هنالك العلماء مثل (توماس اكوناس) وهو من ذوى الابتكار والعبقرية ، ومثل (روجر بيكن) صاحب النظرية المشهورة وهي البحث العلمي واستنباط القواعد الطبيعية من المشاهدات

(ملخص ما تقدم)

ان النهضة التي قامت بأوروبا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ترجع للحضارة العربية الآتية من الأندلس ومن آثار الحروب الصليبية وآثار علماء القسطنطينية الفارين من الترك ، وكل هذا ينطوي تحت هذه الآية

- كتاب فملت آياته قرآنا عربيا - ونشأ عن ذلك :

(الرقعة السياسية)

كان البابا والامبراطورهما السيادة ولا راد لقضائهما فهذا له سيادة الدين وهذا له سيادة السياسة في جميع العالم المسيحي لأن هذه الأمم كانت تخضع لحكم (الافطاعات) في الممالك المختلفة وكانت السلطات متشعبة في أيدي أمراء مختلفين وكل أمير مقاطعة يناوئ الآخر ويحاربه في تلك القرون الوسطى أي التي بين سقوط الدولة الرومانية الغربية وبين سقوط الدولة الرومانية الشرقية المتقدم الكلام عليهما وذلك في مدة نحو ألف سنة كما هو واضح ، ولكن العقول متى تحركت نشطت الأجسام وهبت من رقادها وقامت من نومتها ونفضت غبار نومها ، فترى أحده هؤلاء الأمراء يقوى ويشدد أزره ويغلب الآخر حتى ظهرت روح القومية ودب حب الاستقلال التام في الداخل والخارج

(أ) فظهرت في فرنسا أسرة (هيوكايت)

(ب) وفي انكلترا أسرة (الترمدين) و (الايخفن)

(ج) وفي اسبانيا أسرتان وهما (قشتاله) و (ارغونه)

(د) وقامت أسرة (هستوفن) وأرادت تكوين مملكة قومية في (ألمانيا) في القرن الثالث عشر فعارضها البابا

(هـ) وقام الوطني (رينزي) في منتصف القرن الرابع عشر وحاول تحرير ايطاليا وتوحيدها

(و) وظهر « كتاب الأمير » وهو كتاب وضعه (مكيافلي) وهو كاتب سياسي من أهل فلورنسه شرح فيه أعمال الملوك ، وبين أن الأمير الذي يحفظ كيانه دولته لابد أن يخالف الذمة والضمير والمروءة والانسانية والدين في بعض الأوقات ، هنالك أخذ الملوك يقاومون نفوذ البابا الذي كان إذ ذاك له النفوذ السياسي والديني

إذن مبدأ نهضة القوم في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ولكنهم اعتبروها ابتدأت في القرن الخامس عشر حينما ظهرت علوم وأدبيات قديمة يونانية ورومانية أكلت ما جاءهم من الأندلس العربي وعلماء القسطنطينية وإلى هنا تم الكلام على الفصل الأول والحمد لله رب العالمين

﴿ الفصل الثاني ﴾

(في عرب الجاهلية الأولى وهم دولة جوراني فيما بين النهرين)

جاء في كتاب « تاريخ العرب قبل الاسلام » تحت العنوان التالي مانصه

﴿ العرب البائدة ﴾

(أو عرب الشمال في الطور الأول)

يقول العرب ان هذه الطبقة تشتمل على عاد وثمود والعمالقة وطسم وجديس وأميم وجوهم وحضر موت ومن يتبعهم ويسمونهم العرب العاربة وانهم من أبناء سام . قال ابن خلدون « وكان لهذه الأمم ملوك ودول في جزيرة العرب وامتد ملكهم فيها إلى الشام ومصر في شعوب منهم ويقال انهم انتقلوا إلى جزيرة العرب من بابل لما زاحهم فيها بنوحام فسكنوا جزيرة العرب بادية خيمين . ثم كان لكل فرقة منهم ملوك واطام

وقصور الى أن غلب عليهم بنو عرب بن قحطان ، (١) وقال في مكان آخر « إن قوم عاد والعمالة ملكوا العراق » (٢)

واذا تدبرت ما نقله العرب عن القبائل البائدة رأيتهم يقسمونهم الى قسمين العماليق من نسل لاوذ بن سام وسائر القبائل البائدة من نسل ارم بن سام (٣) . قال ابن خلدون « كان يقال عاد ارم فلما هلكوا قيل نمود ارم فلما هلكوا قيل نمود ارم فلما هلكوا قيل سائر ولد ارم ارمان » (٤)

فالعرب يعتنون العرب البائدة ساميين من نسل ارم . أى آراميين الا العمالة فيقولون انهم من نسل لاوذ بن سام أخى ارم ويقولون انهم ملكوا العراق « بابل » ثم نزحوا منها الى جزيرة العرب . فهذا القول على اختصاره يوافق خلاصة ما وصلنا اليه بعد النظر فيما كتشفه العلماء في بابل واشور من النقوش أو قرأوه في كتب اليونان وغيرهم

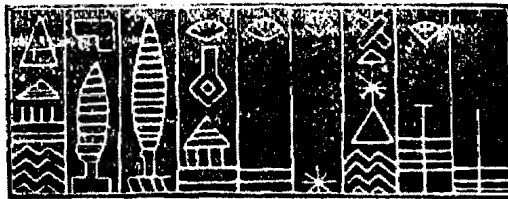
ثم ذكر العمالة الذين فتحوا مصر وكانوا شمالي الحجاز مما يلي جزيرة سيناء ، وأن النسابين يذهبون العرب البائدة الى (ارم) والعماليق الى أخيه (لاوذ) . والذي يهم في هذا المقام ذكره دولة جوراني أو الدولة البابلية الأولى . وسنورد هنا نبذة من تاريخها . وهالك نصها :

﴿ تمدن دولة جوراني أو الدولة البابلية الأولى ﴾

(من سنة ٢٤٦٠ ق.م الى سنة ٢٠٨١ ق.م)

إذ استولى ساموإي أولاً على شمالي بابل نحو سنة ٢٤٦٠ ق.م وكان الجنوب في حوزة العلاميين ، وأخذ الملك ينتقل من ملك الى ملك ، وكان السادس منهم جوراني ، وهو الذي أخضع دولة العلاميين ، واستمر في الفتح الى البحر الأبيض المتوسط . والذي يهمنا في تفسير الآية أن نذكر مدينة تلك الدولة ومن أين اقتبستها ، وما قلها الذي كانت تكتب به إيفاء لتفسير الآية فنقول ومن الله التوفيق

كان السومريون قبل هذه الدولة قد اتخذوا ديناً ووضعوا شريعة واخترعوا كتابة ولهم لغة خاصة . فلما غلبهم الجورانيون اقتبسوا تمدنهم ونظاماتهم كما فعل العرب المسلمون بعدهم بدولة الفرس . وكان الجورانيون في أول دولتهم يستخدمون اللغة السومرية في الكتابات ثم أهملوها بالتدريج حتى ذهبت وذهب معها العنصر السومري . وبقى العنصر السامي كما تقلب العنصر العربي بمصر والشام بعد الاسلام بتغلب اللغة العربية . ولكن الجورانيين استبقوا الخط السومري وهو القلم السامري لانهم استخدموه في تدوين لسانهم وزادوا فيه أحرفاً لم تكن في السومرية (انظر شكل ٢٨)



(شكل - ٢٨)

(القلم السامري القديم على عهد السومريين لا يزال شكله سوريا)

وكان القلم المذكور في أصل وضعه سوريا مثل الهيروغليف المصري كما ترى في شكل ٢٨ ثم نشوه شكله بالاستعمال وباستخدام السامير في طبعه على الطين فصار على هذه الصورة شكل ٢٩

أما المسلمون فأعملوا الأقلام التي كانت شائعة قباهم في العراق وفارس والشام ومصر وهي الفهلوي والكلداني والقبطي وغيرها ونشروا قلما جلاوه معهم كان يستخدمه عرب مشارف الشام وأعلى الحجاز هو الحرف النبطي وتكيف بتوالي الأجيال حتى صار الى الحرف العربي المعروف وعم العالم الاسلامي العربي وغير العربي

أما تمدن السومريين فاقبسه الجوراييون ورقوه وزادوا فيه كما فعل المسلمون بتمدن الروم والفرس وأكثرهم عناية في ذلك جوراني فانه جمع الشرائع ونظمها ويوبها فعرفت باسمه وقدرتها في ٢٨٢ مادة وجدوا نسخة منها سنة ١٩٠١ في بلاد السوس منقوشة بالحرف المسماري على مسلة من الحجر الأسود الصلب طولها سبعة أقدام وتدل تلك الشريعة على تقدم تلك الأمة في سلم الاجتماع الى أرق ما بلغت اليه تلك العصور ولا سيما في شروط الزواج والطلاق والتبني والارث . انتهى الكلام على الفصل الثاني

﴿ الفصل الثالث والرابع ﴾

(في اللغة العربية قبيل الاسلام وكيف كان خطها النبطي وفي النسبة بين خطها النبطي ولهجتها وبين خطها ولهجتها في أيام البعثة المحمدية)
جاء في كتاب آداب اللغة العربية تحت العنوان التالي مانعه

﴿ العصر الجاهلي قبيل الاسلام ﴾

(من القرن الخامس للميلاد الى ظهور الاسلام)

ان الحكم على ما تقدم من أحوال الجاهلية الأولى مبنى على الحدس والتخمين لاستغراقه في القدم وضياح اخبار تلك الجزيرة بتمادى الأيام . ولعالم اذا نشطوا للحفر والتنقيب كشفوا عن حقيقة هذه الظنون الستار

(الفرق بين لغة الجاهلية الأولى والثانية)

وفي كل حال أن عرب ذلك العهد القديم يختلفون عن عرب عصر الجاهلية الثانية قبيل الاسلام لغة ودينا وأدبا وخطا . فالجوراييون كان أكثرهم أهل حضارة وتمدن يتوطنون المنازل والمدن . وأما عرب الجاهلية الثانية فأكثرهم أهل بادية ونجع وكانت لغة الجوراييين أقرب الى الآشورية منها الى العربية . فلفة أبوب اذا كانت عربية فهي غير عربية مضر الذي وصلت اليها من عرب قريش وسائر الحجاز . وقديكون الفرق بينهما كثيرا جدا أكثر من الفرق بين لغة القرآن ولغة عامة مصر أو الشام الآن . لأن أهل هذين المصرين قيدوا أنفسهم بالمحافظة على لغة القرآن وأساليبه . فكلمة ساقطتهم طبيعة النشوء نحو التغيير أعادهم التقليد الى الأصل . ولولذلك لكان الفرق بين لغة عامتنا واللغة الفصحى أبعد من ذلك كثيرا

قس مقدار الفرق بين لغة مضر ولغة عمالقة العراق بالفرق الذي وجدوه بين لغة عرب الشام في أوائل القرن الرابع للميلاد مما قرأوه على قبرامري القيس بن عمرو ملك الحيرة وبين لغة مضر عند ظهور الاسلام . وذلك انهم عنوا في اطلال العمارة في حوران على حجر عليه كتابة عربية بالخط النبطي نقشت في أوائل القرن الرابع للميلاد أي قبل الاسلام بثلاثة قرون وهذه صورتها (انظر شكل ٣٠) في الصحيفة التالية

١
٢
٣
٤
٥

(شكل ٣٠)

(رسم كتابة عربية بخط نبطي على قبر امرئ القيس بن عمرو سنة ٣٢٨ م)

واليك نصها كما تقرأ كل سطر على حدة:

- (١) في نفس امر القيس بن عمرو ملك العرب كله ذو أسر التاج
 - (٢) وملك الأسدين ونزرو وملكهم وهرب مذحجو عكدي وجاء
 - (٣) بزجو (?) في حبج نجران مدينة شمر وملك معدو ونزل بنيه
 - (٤) الشعوب ووكه لفرس ولروم فلم يبلغ ملك مبلغه
 - (٥) عكدي هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكساول بلسعد ذوولده
- هذا لسان عربي تشوبه صبغة ارامية يحتاج تفهمها الى إيضاح وهاك تفسير هذه الكتابة باللغة العربية الفصحى وهو

- (١) هذا قبر امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي تقلد التاج
 - (٢) واخضع قبيلتي أسد ونزار وملكهم وهزم مذحج الى اليوم وقاد
 - (٣) الظفر الى اسوار نجران مدينة شمر واخضع معدا واستعمل بنيه
 - (٤) على القبائل وأتابهم عنه لدى الفرس والروم فلم يبلغ ملك مبلغه
 - (٥) الى اليوم . توفي سنة ٢٢٣ في اليوم ٧ ايلول (سبتمبر) وفق بنوه للسعادة
- وكان أهل الشام وحواران وما يليهما يؤرخون في ذلك العهد بالتقويم البصري نسبة الى بصرى عاصمة حوران وهو يبدأ بدخولها في حوزة الروم سنة ١٠٥ ليلاد فاذا أضيفت الى ٢٢٣ كان المجموع ٣٢٨ ليلاد وهي السنة التي توفي فيها هذا الملك
- انظر الى الفرق بين الأصل وتفسيره والمدة بين هذين العصرين ثلاثة قرون فكيف تكون بينهما بصفة وعشرون قرنا؟ والتغيير طبعي في كل لغة عملا بناموس النشوء . اعتبر ذلك في الفرق بين اللغة اللاتينية الأصلية وما تخلف عنها من الايطالية والاسبانية وبين اللغة الانكليزية القديمة والحديثة وغير ذلك
- فآداب العرب في جاهليتهم الثانية يراد بها آدابهم قبيل الاسلام وهم أهل بادية لا يقرءون ولا يكتبون . وانما جمعت هذه الآداب بعد الاسلام بالأخذ عن الافواه . انتهى الكلام على الفصل الثالث والرابع والحمد لله رب العالمين

﴿ الفصل الخامس ﴾

في أن اللغة العربية نسخت لغات لم تقم لها قائمة الى الآن فقد جاء في كتاب تاريخ أدب اللغة العربية (لجورجي زيدان) تحت العنوان التالي مانعه:

﴿ الدولة الأموية واللغة العربية ﴾

أما الدولة الأموية فاهمة كانت متجهة فيها على الخصوص الى الآداب العربية الجاهلية . لأن الأمويين كانوا شديد الحرص على منزلة العرب كشرى العناية في حفظ الانساب وهم الذين جعلوا الاسلام دولة فأيدوها

ونشروا اللغة العربية في المملكة الإسلامية بنقل الدواوين من القبطية والرومية والفارسية الى العربية . وبعد أن كانت مصر قبطية والشام رومية والعراق كلدانية أو نبطية أصبحت هذه البلاد بنو الى الأجيال عربية النزعة وتنوسيت لغاتها الأصلية وهي تعد الآن من البلاد العربية . وإذا نزلها التركي أو الانجليزي أو غيرها من أي أمة كانت وتوالدها عدنسله عربيا

وظل العرب في أيام بني أمية على بدواتهم وجفائهم . وكان خلفاؤهم يرسلون أولادهم الى البادية لاتقان اللغة واكتساب أساليب البدو وآدابهم . وظل كثير من عادات الجاهلية شائعة في أيامهم كالمفاخرة والمباهلة ومناشدة الأشعار في الأندية العمومية فكان أشرف أهل الكوفة يخرجون الى ظاهرها ينشدون الأشعار ويتحدثون ويتذاكرون أيام الناس . وأهل البصرة يخرجون الى المر بدلهذه الغاية كل يوم . كأنهم رجعوا بعصيتهم الى ما كانوا عليه قبل الاسلام . ولم يبالغ العرب من العز والسؤدد ما بلغوا اليه في أيام هذه الدولة . وقد تكاثروا على عهدنا وانتشروا في ممالك الأرض . انتهى الكلام على الفصل الخامس والحمد لله رب العالمين

﴿ الفصل السادس في المقصود من هذا كله ﴾

في تفسير هذه الآية وهو أن بقاء اللغة العربية محفوظة الى الآن في بلاد العرب وأوروبا والفرس والهند والصين وبلاد جاوه ممجزة من أكبر المعجزات

انظر الى هذه اللغة التي تغيرت لهجاتها وصور أشكالها من كتابة السومريين الأولى ثم انها تغيرت ثم تحورت الى أن صارت قبل الاسلام كما رأيت في (شكل ٣٠) المتقدم قريبا ثم انظر الى طورها الرابع وهو ما كتبت به المصاحف ، وكيف بقيت الحروف محفوظة ، وهيئاتها متقاربة نيفا وثلاثة عشر قرنا . ومن أجلى الأدلة وأنصعها ما تراه في هذه الكتابات التي أمامك ، فهذه الحروف العربية واضحة مكتوبة في بلاد الصين ، ومعها الخط الصيني لسورة الفاتحة وسورة الاخلاص (انظر شكل ٣١ و ٣٢ و ٣٣ في الصفحات التالية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 其意我 奉普慈 今世獨 慈後世 眞主的 尊名起 又接唸 法體哈
 الحمد لله رب العالمين
 الرَّحِيمِ مَا لَدَيْهِ يَوْمَ الدِّينِ

آيَا زَعْدُ وَإِيَّا سَتِين
 اٰهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ
 صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ
 عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ
 عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ

其感讚是惟獨勒米阿哈接
 保養普世普慈

今世獨慈後世入迷路的人
 執掌還報日期他們也是二
 的主我們惟獨們不受怒惱
 拜你我們惟獨們上行恩他
 求你相助哪主路道你在他
 你指引我們正的路道那些人的

امين

其意。主。你。准。承。我。們。的。若。跟。隨。的。以。媽。母。同。的。人。也。低。以。媽。母。低。唸。阿。接。唸。米。勒。隨。唸。所。勒。隨。唸。那個。不。可。言。定。或。唸。這。個。

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ
اللَّهُ صَمَدٌ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ
يُولَدْ لَمْ يَكُنْ
لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ

其意。你。說。是。此。主。命。聖。事。情。人。說。如。此。主。是。獨。一。的。主。是。無。求。祈。的。他。不。生。人。人。不。生。他。無。有。一。物。與。他。為。對。○

فهيها تعاون الصبني والألماني والفرنسي والانجليزى والتركي والهندي والاسباني والقازاني والعربي والمجسمى والأمم كلها على حفظ اللغة العربية والخط العربى ، فلم يدخله ولم يدخل لغته ذلك التحريف الذى حل بساحة لغة وخط العرب البائدة أيام جوراني ولأ أيام الجاهلية فى القرن الرابع الميلادى قبيل البعثة المحمدية بل هو باق كما هو ، فهذا معنى - لا تبديل لكلمات الله - ومعنى - إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون - وهذا كله تفهم أيها الذكى لماذا وصف القرآن بأنه عربى والمحمد لله رب العالمين . كتب ليلة الاثنين (٢٠) اكتوبر سنة ١٩٣٠ الساعة العاشرة مساء . تمت اللطيفة الثانية . ويتبع هذه اللطيفة الثانية جوهرتان

﴿ الجوهرة الأولى ﴾

(فى قوله تعالى - قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى الىّ أنما إلهكم إله واحد -)
جاء فى مجلة « النهضة النسائية » تحت العنوان التالى مانصه

﴿ فى وجود الله تعالى ﴾

(للكاتب الأمريكى الشهير ارثر برزباين)

يزعمون أن العقل البشرى موجه اهتمامه بالأكثر الى المسائل الاجتماعية التافهة مثل جمع الأموال وكيفية عقد الزواج وماشاكل ، أما نحن فعلى غير هذا الرأى ونعتقد أن العقل البشرى لا يوجه أخص اهتمامه الى هذه المسائل دون سواها ، لو أن محرر جريدة أتى على قراء جر بدته سؤالاً عن « الزواج هل هو أفضل أم العزوبة » لوردت عليه الأجوبة الكثيرة بضعة أيام أو بضعة شهور . ثم يضجر الناس من هذه المناقشة وتقطع الكتابات

وكل سؤال يكون نصيبه الإهمال بعد اشتغال الناس به زمناً معلوماً محدوداً ، وأما مسائل خلود النفس ووجود الله ومصير الانسان بعد وفاته فانهما برحت تشغل أذهان الناس منذ البداية ، وسوف تبقى موضوعاً لاهتمامهم العظيم الدائم

تأتينا الرسائل فى هذه المواضيع كل يوم من كل سنة فى مسائل تشغل خواطر الناس على الدوام يتساءلون « هل يوجد إله وهل تكون النفس خالدة ؟ » وهذه الكتابات الكثيرة الدائمة تختلف فى لغتها ولهجتها وهى الدليل على مبلغ إيمان كاتبها ، وبعض هذه الرسائل تأتينا من المرتابين المتشككين والملحددين والكتاب ومن سائر الذين أسكرتهم تلك المعرفة القليلة التى جعلوها حكمتهم ودينهم بدلاً من ثقة الأجيال الكثيرة تلك الثقة بوجود الله وخلود النفس

ويظن بعض هؤلاء أنهم اهتموا الى طريقة جديدة مبتكرة تساعد على الحياة بالاستغناء التام عن الله وأن العلم قد وفقهم الى هذه الطريقة الجديدة

ولكن العلم لم يفعل شيئاً من ذلك ، بل ان العلم فعل ما هو مخالف على خط مستقيم لظنونهم وأوهامهم العلم أثبت وجود الاله وخلود النفس ولبسبح لنا القارئ أن نضرب لذلك مثلاً صغيراً :

رجل عنده صندوق ووضع فيه بعض قطع فقدت أمها وهى صغيرة جداً ولم تفتح عيونها بعد . اعتنى هذا الرجل بالقطط المذكورة وأحسن معاملتها وجعل للصندوق عجالات فكان يجره الى ضياء الشمس لتمتع القطط بحرارة الشمس . كان يغذيها باللبن فى مواعيد معينة بمزج التدقيق . كان يطرد الكلاب الشرير إذ يجارل الاعتداء عليها ويخيفها ويرعبها كثيراً ، كانت هذه القطط تنق بالرجل وشعرت أنها فى حاجة اليه وأن لاغنى لها عنه وكان هذا دور الإيمان

وحدث ذات يوم أن كلبا توصل الى قطة منها فقتلها بعد أن قطعها بأسنانه وشوّه جسمها ذلك لأن القطة قد خالفت القوانين والشرائع التي سنّها لها الرجل خرجت من صندوقها خلّت بها ذلك المصاب . وكانت احدى القطط قد بدأت تبصر قليلا باحدى عينيها فقالت مغرورة بالقليل الذي تراه : « أنا لا أعتقد بوجود الرجل فاذا كان موجودا حقيقة فهو ظالم اذ سمح أن تقتل أختي الصغيرة وأن يمزقها الكلب لأصدق مائزعمونه من أن أختي قتلت بذنبها لأنها خرجت من الصندوق والحقيقة أن الرجل غير موجود فانما نحن القطط أولياء أمورنا وسادة الكيان وعلينا أن نحارب عدونا وندافع عن أنفسنا هذه القطة هي قطة « انجرسول » الملحد الأمريكي الشهير

ثم ان قطة أخرى بدأت تبصر بعينيها وهي أرقى من رفيقتها الأولى فقالت (أنا عالة . وقد وجدت أنني غير مدينة للرجل وعنايته بشيء وانما الشرائع والنواميس ولية أمورنا . هذا الصندوق قائم على عجالات يدور في نور الشمس بمجرد إرادته لا أنكر أنني أجهل ماهو الذي يدفعه ولكن أعلم أن الرجل لا يستطيع دفعه وعلمت أيضا أنه لاوجود لناموس (توزيع اللبن علينا) فانما يأتينا اللبن في مواعيد معينة بحكم الدور وبحيىء اللبن ناموس طبيعي فقد كان يحىء من قبل وهو يأتي الآن وسيأتي كذلك بعد . دعوني من دعاويكم الفارغة فأنا منقلبة الى فراشي لأنام ولكن لاتذكروا على مسمع مني أمر رجل يحب يعتنى بنا . الأمر كله نواميس طبيعية وأنا عظيمة في ذاتي لأننى أول من اهتدى الى هذه النواميس

هذه القطة هي قطة « اسحاق نيوتن » ولكنها لم يكن لها إيمان بنيوتن ويضيق بنا المجال لو أردنا أن نذكر ماقالت قطة « داروين » فقد كانت طويلة اللسان . ولكن اليك ماجرى بعد ذلك كبرت القطط التي بقيت حية بعد أن ماتت تلك التي أصابها الموت جزاء مخالفتها وشرودها عن الصراط المستقيم واقتنحت عيونهن جميعا فصارت تبصر جيدا فرأت الرجل عيانا وعرفته واعترفت به وتوسلت اليه أن يسمح لها بالاقامة في منزلة . قالت القطط للرجل

(لاتؤاخذنا ياسيدي واغفر لنا حماقتنا وجهالتنا إذ كنا صغيرات جاهلات ولكنك تعلم أن بصرنا كان ضعيفا واننا كنا لانبصر ولا نعلم) فقال الرجل الكريم لأبأس انصرفن الى البدرين في أسفل المنزل وتمتعن بالراحة والقوت هناك

انتهى المثل الذي ضربناه . وانما نحن قطط عمياء فكلما حاولنا التعمق في اكتشاف أسرار الطبيعة وعجائبها نزداد توغلا في خفايا جديدة لاندرکها نكشف أن الأرض تدور حول الشمس ولكن لابد لأعظم عالم من الاعتراف بجزءه عن الاهتداء الى سبب دورانها يقول هذا العالم « أعطى المحرك الأول وكل شيء سهل بعد ذلك » وهكذا قالت القطط العمياء في صندوقها قالت (ادفع صندوقنا دفعة واحدة وعلينا فهم الباقي)

واطلعت القطط على ناموس توزيع اللبن فجعلته بدلا من عناية الرجل بها شأن الذي ادعى التمسك بناموس الجاذبية العام فظن أنه يقدر بواسطته على مجيود الله . ولكن العقل الكبير الذي اهتدى الى ناموس الجاذبية العام كان عقلا متدينا تقيا علم أنه ضعيف في ذاته لاقدرة له على إدارة كل شيء

ان نيوتن لم ينسكرو وجود الله . وكان أدري الناس بغموض أسرار حكمته ونواميسه . علم وعلم الناس أيضا أن ذلك الناموس مايرج عاملا منذ الأزل وهذا كل ما ادعاه وكل ما يقدر أن يدعيه سواء

والعالم العصري (لورد كلفين) من أشهر أتباع نيوتن قيل له : ماهو سر الجاذبية ؟ فأجاب : لا يحق للعالم أن يحاول كشف أسرارها فاننا نجعلها تماما ولا نعرف عنها شيئا

لذلك نقول للرتابين : ارتابوا اذا كان لابد لكم من ذلك ولكن اجعلوا الحكم أساسا لريكم وارتابوا أولا في حكمكم التي لا تزيد عن حكمة تلك القطط العمياء

اذكروا أنكم لا تعرفون شيئا طالعوا كثيرا ولكن لا تسمحوا لآراء غيركم القاصرة أن تسطو على عقولكم وتجعلكم آله للريب والشكوك مهما فعلتم لا تتعرضوا للعقائد الآخرين وإيمانهم ، انشروا المعرفة وأذيعوا الحقائق . وأما الريب التي تزعج الآخرين وتذهب بسعادتهم فاحفظوها لأنفسكم أذيعوا ما تعرفونه عن يقين واكتموا ما دون اليقين فهل يسمع الملاحدون . وبهذا انتهت الجوهرة الأولى

﴿ الجوهرة الثانية ﴾

(في قوله تعالى - وجعل فيها رواسي من فوقها -)

وهي الجبال ، ولقد تقدم الكلام على الجبال في مواضع كثيرة مثل ما جاء في ﴿ سورة الرعد ﴾ عند آية - وفي الأرض قطع متجاورات - الخ وهكذا سيأتي في آية - أفلا ينظرون الى الإبل كيف خلقت * والى السماء كيف رفعت * والى الجبال كيف نصبت - الخ ولكن نذكر هنا عجيبه جاءت في مجلة « اللطائف المصورة » فقد جاء فيها تحت العنوان التالى مانصه :

﴿ في أميركا الجنوبية غنى طبيعي ﴾

هناك جبل من فضة لا ينضب له معين

بوليفيا جمهورية صغيرة من جمهوريات أمريكا الجنوبية ، كانت فيما مضى مستعمرة اسبانية لكنها استقلت سنة ١٨٢٥ بعد حروب دموية بينها وبين الجيوش الاسبانية ، وهي صخرية جبلية يتراوح ارتفاع جبالها بين ٣٠٠٠ الى ٦٠٠٠ متر ، وفي وسطها اكبات تسمى لا يونا فيها ثروات معدنية لا يحصى لها عدد ، يقدر ما فيها بمئات بل بالوف الملايين من الجنيهات ، من بينها جبل كله من فضة يطلق عليه اسم (سيرودي بوتوزي) ، ظل مئات السنين يدر الأموال الطائلة على الدولة الاسبانية ، فكان لها المورد الأكبر الذي يأتيها من كل مستعمراتها الواسعة . وقد اكتشف هذا الجبل رجل هندي من هنود أميركا الملقين بذوى الجلود الحمراء يسمى جوالكا فقد كان مسافرا في أيام الشتاء الباردة فخطر رحاله فوق هذا الجبل ، ولما قرسه البرد أشعل نارا تصطلي ، فما كان أشد دهشته عند ما أبصر الصخور تذوب تحت تأثير الحرارة وتسيل معدنا أبيض جيلا ، فتأمل طويلا لكنه لم يدركه ، فأسرع الى سيده القبطان (جون دى فيلاردويل) وأطلعته على الأمر ، فاستحوذ هذا على جبل الفضة باسم ملكه الأمبراطور شارل كان في يوم (٢٢) ابريل سنة ١٥٤٥

ولما ذاع خبر هذا الاكتشاف في اسبانيا تقاطر الى بوليفيا كل مغامر وأخذوا يتقاتلون ويتناحرون في سبيل الاستحواذ على جزء من هذا الجبل الذي كان يدر أموالا بكل عن إدراكها الحصر لاسيما في ذلك الزمن الذي كان أقل مبلغ فيه يعد ثروة . وقد استخرج من جبل سيرودي بوتوزي من سنة ١٥٤٥ أى منذ اكتشافه حتى سنة ١٨٢٥ وهي السنة التي خرجت فيها بوليفيا من أيدي الدولة الاسبانية (١٦) ألف مليون ريال طليطلى أى ٥١٢٠ مليون جنيه في ٢٨٠ سنة ، فيكون معدل غلته في كل سنة من هذه السنين (١٨) مليون جنيه وثلاث . وقد بلغ مائاله التاج الاسباني من هذا الابرار (٦٤٠) مليون جنيه . وقد دفع أصحاب منجم واحد من هذا الجبل للحكومة بصفة جزية (١٦) مليون جنيه وثلاثة أرباع الملون وقد أراد الأمبراطور شارل كان يوما ما أن يكافئ سكرتيره الخاص الدون فرانشيسكو دى لوس كوبوس فطلب منه أن يتمنى عليه ما يريد فغمغم الدون فرانشيسكو بين شفثيه : « أريد يا مولاي (ريل) واحدا على

كل رطل» (والرطل يساوي مئمتين ونصف من عملتنا). فأجاب الإمبراطور منذهلا «أهذا كل ما تطلبه؟» ولما رآه مصمما على طلبه هذا الذي صغر في عيني شاراك كان وقع له على الأمر وناداه إياه ، وبعد ثمانى سنوات أى فى سنة ١٥٦١ مات الدون فرانشيسكو وترك ثروة تقدر بأكثر من (٧) ملايين من الجنيهات جمعها مما عاد عليه من المئمتين ونصف التى كان يأخذها على كل رطل فضة يستخرج من جبل سبرو والمذكور ولم يزل هذا الجبل الى الآن مملوءا بالفضة لكنها تخرج ممزوجة بالتصدير . ولم تمض على اكتشاف جبل الفضة سنوات حتى أقيمت بازائه مدينة بوتوزى . وقد بلغ عدد سكانها فى القرن السابع عشر ٢٠٠.٠٠٠ نسمة فكانت أكبر مدينة فى أميركا الجنوبية وأكثرها سكانا

وكان لكل اسبانى (هيدالغو) أى منحدر من صلب اسبانى صميم ليس فى عروقه دم يهودى أو عربى مغربى أن يكون له حق بأن يستغل جزءا من الجبل والعادة المتبعة فى ذلك والتي لم يزل معمولابها الى الآن أن يأخذ الواحد له ركنا ويحفر فيه نفقا ويستولى على كل ما يجده فيه حتى أصبح فى الجبل أكثر من ثلاثة آلاف نفق . وكان الهنود الجرهم القائمون بالحفر يشتغلون فى الانفاق المظلمة التى ليس فيها نور ولا يتخللها شعاع من الشمس ، وسيط أسيادهم الاسبانين تنال على أجسامهم اذا بدا منهم أقل وهن وأدنى ضعف . وكان المتزاحجون على استغلال جبل الفضة يتقاتلون حتى أدّى بهم التناحر الى الانقسام الى خزين كثير بينهما الاغتيال ثم القتال فى صفوف مرصوفة . أما اليوم فمدينة بوتوزى التى كانت منذ مائتى سنة زاهرة زاهية لم يعد فيها غير ١٥.٠٠٠ أو ٢٠.٠٠٠ شخص لأن سعر الفضة انخفض كثيرا فى أوروبا وقل الطلب عليها وكثر من جهة أخرى على التصدير ، ولكن من سوء حظ البلاد أن الأرض لم تعد تغل من هذا الصنف إلا كميات أقل مما كانت تغله فيما مضى . وبهذا تمت الجوهرة الثانية وبهما تم الكلام على اللطيفة الثانية والحمد لله رب العالمين

﴿ اللطيفة الثالثة ﴾

(فى قوله تعالى - حتى اذا ماجاموها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون * وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شئ وهو خلقكم أول مرة واليه ترجعون وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون - الآيات)

قد تقدم فى (سورة يس) - وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون - . فهنا ذكر الجلود مع الأسماع والأبصار وهناك خصص الجلود بالأيدى والأرجل ، وفى هذه معجزتان أظهرهما الكشف الحديث فتكون معجزات هذه السورة بالكشف الحديث خسا . ولقد ذكرت لك هناك أيها الذكى حكاية القاتل اليابانى الذى قتل معشوقته التى رغبت عن زواجه ، وعرف بعد مدة بسبب آثاره ، وهذه مشروحة هناك بأسهاب وإيضاح تام ، ولكن هنا أذكر ماجرى من المحادثة بينى وبين صديقى العالم الذى اعتاد أن يناقشنى فى هذا التفسير . قال : كيف تنطق الجلود وتشهد ؟ وما معنى كون الأيدى والأرجل تشهد عند الله ؟ فالتة تعالى يقول فى (يس) - وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم - ، فلم خص الأيدى والأرجل بهذه الشهادة ؟ وكيف تقول الجلود - أنطقنا الله الذى أنطق كل شئ - . فقلت : أعلم أن هذه المخلوقات المادية المشاهدات على قسمين : قسم لنا القدرة على التصرف فيه ، وقسم لا قدرة لنا على التصرف فيه . فالذى لنا القدرة على التصرف فيه شهوات الطعام والشراب والشبق والكلام ، فهذه خلقت فىنا لأجل حياتنا وبقائنا ، وهذه تأتى بالحق وبالباطل ، فإن الانسان قد يجوع فىأكل والأكل قد يضره ، ويعطش فيشرب والشرب قد يضره ، ويشتهى

الوقائع والوقائع قديضة ، ويتكلم والكلام قديضة . ذلك لأن من شهوات الطعام ما تكون شهوات كاذبة ، ومن شهوات الشراب ما تكون كاذبة ، ومن شهوات الوقائع ما تكون كاذبة ، ومن الكلام ما يكون كذبا لاصدق فيه . إذن أحوالنا الحيوانية يعترينا الصدق والكذب . فن الكلام صادق وكاذب . ومن الجوع وانظما وشهوات الوقائع ما يصدق وما يكذب . فكثيرا ما نرى أنفسنا بعد الطعام بمدة يسيرة نطلب الطعام ، وقد نطلب الشراب قبل مضي ساعة أو ساعتين وقد نتكلم كذبا . هذا هو القسم الأول وهو الذي لنا القدرة على التصرف فيه . أما ما لا قدرة لنا على التصرف فيه من الفاكهة والحطب والخضر والمعادن والحجر والشجر . فهذه صوادي في أفعالها ناطقات بالحق ، فلم تر حبة القمح أنبتت ذرة أو برسيا ، ولم تر بذرة القطن أنبتت كلاً أو بادنجانا ، ولم تر الشمس أصبح تينا ، ولا التين أصبح عنباً ، بل هناك نظام ، ولم تر الدواء أصبح غذاء ، ولا الغذاء صار سماً ، بل هذه كلها نواطق بالحق ، لا عوج ولا كذب ولا خداع . وإذا رأى الناس أن في الطبيعة ما لم يعمدوه كحوادث الزلازل والبراكين فذلك ليس من أكاذبيها ، بل هذه المفاجآت جاءت لغايات صادقة وإن أخذت الناس بغتة فغاياتها شريفة . فأما غايات العواطف الناقصة في الانسان فانها تكون شراء ، فالأكل بشهوة كاذبة والشراب والوقائع كلها مقصرات للحياة جالبات للمرض بخلاف حدوث البراكين في الأرض من حيث لا يشعر الناس بها فقد تكون لها منافع تربو على مضارها مثل انبعاث بخار الماء وغاز الهيدروجين المسكر وغازات أحماض كبريتية أخرى فانها تكون هناك رواسب منها معدن الكبريت حول فوهة البركان وقد تصير طبقات سمكية تصلح للاستغلال كما ترى براكين كثيرة في جنوب إيطاليا إذ هي أغنى مورد لمعدن الكبريت وتنتج كل عام منه (٢٠٠.٠٠٠) طن ، فهذه النعم الكبريتية إنما جاءت بفضل البركان . إذن مفاجآت البراكين ليست كمفاجآت الكذب وأمثاله . ومن ذا يقول إن شرور شهوات نفوسنا وغضبنا الغضب المفضي الى القتال والدمار والهلاك والنقاطع كغضب الطبيعة بحدوث البراكين . وهل الحرارة الناجمة في (برولس) بالقرب من نابولي بجنوب إيطاليا البالغة (٣٦٠) مئزران ستجرد التي حولها القوم الى قوة كهربائية يستعملونها في الصناعات المختلفة . وكذلك نظائر هذه البراكين في جزائر (ليباري) وفي (شيلي) يرسب بسببها الكبريت والبوريك والشب

أقول : هل هذه التي وجهت للمنافع العامة بالمعادن النافعة والأعمال المفيدة تشبه شرور أنفسنا بالكذب وآثار الشهوات الكاذبة ، فالجوع الكاذب ، والعطش الكاذب ، والعداوة المبنية على سوء الظن ، كاهن جالبات لنا السوء بخلاف ما نراه في الطبيعة ، فهو على قسمين : قسم نتأمله واضحه لا خلل فيه كالفاكهة والأب وقسم لا نعرف أحواله لاشتباهه علينا كسكون الأرض فنظن أن لبراكين فيها إذا هي نائرة ، فهذه ظاهرها شر ولكن باطنها نعمة . أما نتائج الكواذب من طبائعنا فهو شر محض هذه أيها الذكي مقدمات لطلوبك ، فألسنة الناس تصدق وتكذب ولكن لسان الطبيعة صادق غير كاذب

فإننا لم نر الذهب يوما زاد وزنه أو نقص فهو (١٩) بوزن حجمه من الماء وهكذا الزئبق (١٣) تقريبا واعلم أنه لا معنى للكلام لإحركات في الهواء ، وتلك الحركات مختلفات باختلاف الخارج ، وباختلافها امتاز بعضها عن بعض ، وبانضمام صوتين أو ثلاثة أو أكثر تكون كلمة ، وبانضمام الكلمات تكون جمل ، والجمل تدل على المعاني ، وهذه الدلالة تارة تصدق وتارة تكذب . إذن فائدة الكلام انه يدل على المعاني ، ولكن هذه الدلالة قد تخالف الواقع . فلننظر في المخالقات أمامنا نرى الماء ونحن ظمأى فنحس في أنفسنا بمعنى . وما هو المعنى ؟ هو انه يدل ظمأنا . ومثل ذلك الفاكهة والخضر والحطب وما أشبه ذلك . فكل هذه لها دلالات ولكن دلالتها صادقة لا كذب فيها بخلاف الكلام الصوتي فيدخله الكذب . إذن الدال إما بحرف وصوت وفيه الصدق والكذب . وإما بلا حرف ولا صوت وهذا لا كذب فيه . وكلام المخالقات ليس بحرف

ولا صوت . وكلام الانسان بحرف وصوت

واعلم أن الكلام الذى ليس بحرف ولا صوت قسمان : قسم قدسى وهو كلام الله القديم . وقسم مخلوق وهو كلام هذه العوالم . فأما كلام الله فإنه فوق عقولنا ولا نسبة بينه وبين كلام المخلوق بحرف وصوت . وبلا حرف ولا صوت فهذا فوق متناول عقولنا . ولكن لما تناهت عظمته وجلت قدرته أبرز لنا فى الوجود عوالم تكون نتائجها صادقة بدون كلام حرفى أو صوتى حتى سمعناه يقول - وتكلمنا أيديهم - وتشهد أرجلهم - كيف كلمه الأيدى وكيف شهدت الأرجل ؟ كلامها ليس بحرف ولا صوت ففيها دلالات ثوابت

ومن باهر الصنع ودلائل الاتفاق وبواهر الرحمة والحب أن الله تعالى لما احتجب عنا فلم نعرف كيف يتكلم بل بالحرف ولا صوت وكان رءوفاً بالعباد أراد أن يضرب مثلاً بالخلق . فبكما عرفنا علمه وقدرته بضرب مثل بما نحس به من علمنا وقدرتنا وأن تكون النسبة مفقودة بين صفاتنا وصفاته تعالى هكذا عرفنا كون كلامه ليس بحرف ولا صوت كما نشاهد فى هذه المشاهدات من الدلالات الصادقة :

- (١) على حكمته وقدرته وعظمته
- (٢) وعلى معرفة الجانين بالطرق العامة فى بحث خطوط اليدين والرجلين
- (٣) وبما تنفع به من خواص ما نأكل ونشرب وتتداوى وهكذا . فهذا عرفناه بلا حرف ولا صوت - والله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم -

فقال صديقى : لقد فهمت من مقالكم أن هذه العوالم صواديق فى دلائلها والانسان قد يكذب وأن هذه الأيدى وهذه الأرجل دلائلها صادقات وفيها علومات مثبتات جرائم أصحابها وليست كاذبة بخلاف ألسنة الانسان فى الأرض فهمى كاذبة . ولكن هل علم الله تعالى بأعمالنا فى حاجة الى أمثال الأيدى والأرجل ؟ فقلت : كلا . هو يعلم ذلك . ولكن هذه الآيات موجّهات لاصلاح نفوسنا ولها دلالتان : أولاً ان الله عليم بأعمالنا . ثانياً انه ضرب لنا مثلاً بأن أيدينا وأرجلنا فيها علامات . وصدق هذه العلامات الدالات على أفعالنا نسب اليها أن تخاطب بل بالحرف ولا صوت من كلامه ليس بحرف ولا صوت . واذا سمع الله منها أفلا يسمع القضاة نطق هذه الأيدى فيحكمون بما تدل عليه ؟ فقال : عجب ! مالنا والقضاة ؟ فقلت : القضاء قضاء ان قضاء الله يوم القيامة . وقضاء القضاة فى الدنيا . فاذا كان الله يوم القيامة وهو العليم بأفعالنا يقول على سبيل المجاز أو الحقيقة أن الأيدى والأرجل تكلمنا وتشهد بأعمال العباد وقد قبل شهادتها وسمع كلامها ، أفلا يقبل شهادتها ويسمع كلامها قضاة الأرض ؟ فهنا علمان جليلان : علم الطبيعة الموزونة الجميلة . التى تعبر عن جبال مبدعها الذى أبدعها وجعلها بهجة صادقة . وعلم القضاء الذى يترتب على صدق مقدماتها . فاذا سمع المسامون وقضاة الله يقول - وأشهدوا ذوى عدل منكم - ويقول - واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء - فليس معنى هذا أنه لا بينة إلا على هذا المنوال ، فقد أجمع علماء الاسلام قاطبة أن حكم القاضى مبنى على الظن والنبي ﷺ كان يحكم بحسب الظاهر والله يتولى السرائر ، لأننا لا نزال فى الأرض . واذا وجدنا أن الظن جاء معه يقين ظاهر ألفينا هذا الظن . ألم يقل الله تعالى فى ﴿ سورة النجم ﴾ - ان الظن لا يغنى من الحق شيئاً -

فاذا سمع القاضى رجلاً يقول ان الشمس لم تطلع مع أنها هى طالعة ، فهذه الشهادة لا تقبل لأنها خالفت الحق هكذا إذا دلت أصابع المجرم على أنه هو القاتل وأن آثار الأصابع ظهرت على صنجة السيف والسيف وجد على رقبة القتيل وجاءت شواهد أخرى على ذلك ، فانا اذا سمعنا شاهداً ينفى هذا نقول له كذبت أيها الشاهد . إن هذه الآيات أيها الصديق نزلت فى القرآن ليفتح لنا بها فى القضاء باب كان مقفلاً إلا قليلاً فان الحنفية يقولون : « إن القرائن لها دخل فى إثبات الجرائم » ولكن هذا الزمان الذى ارتقت فيه الأمم

ارتقت فيها أسباب الجرائم فأنزل الله تعالى هذه الآيات تقرأ في كل حين تدينا وذكرا لله ثم استنباطا بعقله ذوا العقول الكبيرة . ولقد تقدم في ﴿ سررة الكهف ﴾ في قصة الخضر وموسى عليهما السلام ما ملخصه أن قتل الخضر للغلام وخرقه السفينة راجع إلى اتلاف النفس واتلاف المال وهذان أهم حقوق الناس . وإذا وجدنا ذلك في القرآن وعلمنا أنه قدّم الحقيقة على الظن لأنه عرف أن هذا الفعل المخالف لطواهر الظنون أفضل وأحسن وهذا على طريق الكشف ونحن لا كشف عندنا بل لو كان عندنا كشف لم نحكم إلا بالظاهر ، فلنا طريق آخر وهو أننا متى تحققنا بطرق علمية أن هنا ضررا محققا قام عليه الدليل الظاهر لأهل الحل والعقد فأننا تقدمنا على الحكم الذي عرفناه بطريق الظن ، فارجع إليه فالمقام هناك موضح بكلام الأئمة وأكابر علماء الاسلام مع دلائل العقل ، وعليه وجب على علماء الاسلام في الأرض قاطبة أن يجتدوا في جميع العلوم ومن أهمها أدلة اليدين والرجلين التي ورد ذكرهما في القرآن لصدق دلالتها

فقال يا عجبا : ولماذا خصصت اليدين والرجلين ؟ أليس جسم كل امرئ فيه علامات تدل عليه ؟ فلا فرق بين الأيدي والأرجل وغيرهما . ثم كيف تقول ان لساننا يكذب واليدان والرجلان لا كذب فيهما كما هو شأن العوالم المشاهدة من صدق شهادتهما مع أن الله سوى بينهما وبين اللسان فقال تعالى - يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون -

فقلت الجواب على هذا يرجع لفصلين اثنين : الفصل الأول في قيمة شهادة اللسان . الفصل الثاني في اختصاص اليدين والرجلين بالشهادة

(الفصل الأول في قيمة شهادة اللسان)

يقول الله تعالى في ﴿ سورة يس ﴾ - اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون - فهنا أخرج الله اللسان وأطلق اليدين والرجلين وقبل منهما الشهادة . ويقول الله في سورة أخرى - يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون - فهنا سوى الله بين شهادة الثلاثة إذن هنا اللسان يصدق تارة وبكذب أخرى بدليل انه ختم على الفم تارة وأطلق اللسان تارة أخرى . فإذا كان الانسان بعد الموت ويوم الحساب لا يزال مالكا لقواه وعواطفه كما كان في الدنيا بحيث يتصرف كما يتصرف في هذه الحياة ويقدر أن ينطق بخلاف ما في ضميره ، فهناك يختم على لسانه وتبى شهادة الأيدي والأرجل . فأما إذا أصبحت عواطفه غير خاضعة لإرادته وليست تحت تصرفه كما ترى في النوم المغناطيسي ونحوه فهذا لا ينطق إلا بالحقائق فهناك يطلق اللسان فينطق كما تنطق الأيدي والأرجل . إذن اليدان والرجلان لهما منزلة ليست للسان ففاظننته بإصاح مقتضيا المساواة أراه أنا مانعنا . وبهذا تم الفصل الأول والحمد لله رب العالمين

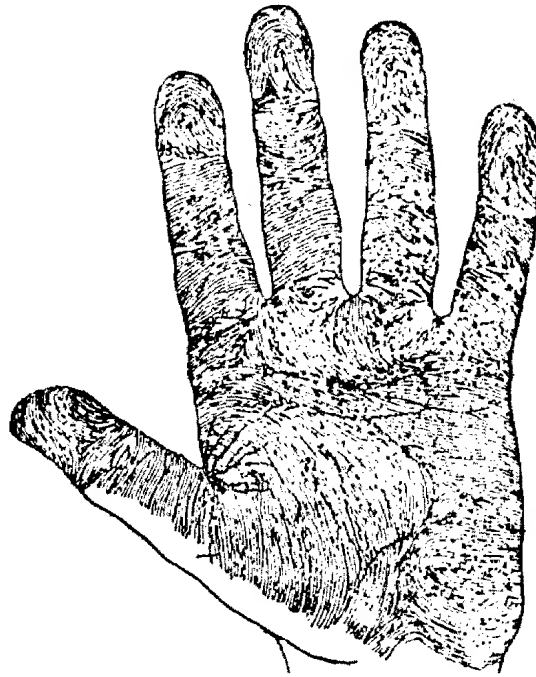
﴿ الفصل الثاني ﴾

(في السبب في اختصاص اليدين والرجلين بالشهادة دون باقي الجسم مع أن الأعضاء كلها متساوية في انها لا يظهر تغير هيئاتها الأصلية مدة الحياة)

اعلم أن الاجابة عليها ترجع لعلم اسمه التحقيق الجنائي . وهذا العلم حديث النشأة لم يظهر ولم يبرز لعالم الوجود إلا في هذا القرن أى في الزمن الذي يؤلف فيه هذا التفسير كما ستراه . وأما الآن كتاب في هذا العلم ومؤلفه الاستاذ (محمد بك شعير) وكيل إدارة التفتيش بوزارة الداخلية وهو مدرس بكلية الحقوق . فهناك ما قاله في ذلك الكتاب :

﴿ بصمات الأصابع والأيدي ﴾

وليس ماقروء من الوقائع المدهشة عن (شرلوك هولمز) و (كارتر) وأمثالهما وما يكتبه الروائيون أمثال (كونان دويل) و (ليكوك) وغيرهما ومازراه يشخص (بتشديد الحاء) في دور الصور المتحركة من الروايات البوليسية الغربية التي يتعقب فيها البوليس السرى الجناة ويتعرف شخصهم ويظهر حقيقة أمرهم من إثناء لمسوه أو روعاه أمسكوه أو كوب شربوا منه أو خزنة فتحوها . ليس كل هذا حديث خرافة وإنما هي ثمرة العلم الحديث ونتيجة مجهودات العلماء الذين أتوا بالمعجزات في فن بصمات الأصابع والأيدي « الى أن قال « وكان الصينيون والهنود من قديم الزمان يستعملون البصمة في العقود والمشارطات لتقوم مقام الختم والامضاء . وقد أحسنوا في ذلك لأنها لا تتشابه ولا تقبل التغيير والتزوير . فلأنا نعمنا الطرف في باطن اليد وأطراف الأكف والأصابع وباطن القدم وجدناها مكسوة بخطوط بارزة دقيقة يتخللها فراغ . ترسم هذه الخطوط أشكالاً وتمازج وانحناءات مختلفة لا تتطابق في شخصين قط كما نجد ثنيات تحت عقل الأصابع وتجمعات ناشئة من اطباق اليد وفتحها (انظر شكل ٣٤)



(شكل ٣٤)

وهذه الرسوم والأشكال تتكوّن والجنين في بطن أمه من الشهر السادس للحمل ولا تتغير أبداً وتبقى حافظة شكلها واتجاهاتها في سن الطفولة والشباب والرجولة والهرم بل وبعد الممات الى أن يتحلل الجسم ويبلى كما شوهد ذلك في الموميات المصرية القديمة وفي بعض أجسام القردة المخنطة . وكل ما يبدو عليها أنها تنمو وتكبر وتنسع تبعاً لنمو الجسم كلما تقدم الانسان في السن الى أن يصل الى الواحدة والعشرين . وقد ثبت ذلك من مباحث كثير من العلماء وأخصهم (السير فرنسيس جالتون) الذي له فضل كبير في هذا الباب . ومن المجموعات الهائلة المحفوظة بدارات تحقيق الشخصية بأغلب البلاد الراقية . والبصمات هي الوحيدة في جسم الانسان التي لا تتغير طول حياته بل تبقى حافظة شكلها في أية سن وفي أية حالة كان عليها . اللهم إلا ما يطرأ على الجلد من العوارض كالقطع أو الحرق والمؤثرات الأخرى والنعومة بعد أن يصل الانسان الى سن الستين . وذلك بخلاف باقي أجزاء الجسم فانها كلما نما الشخص وتوسع تغير بسرعة وبدرجة كبيرة بتعمرها

معرفته بعد بضع سنين ، فالحسنة وتقاطيع الوجه والأسنان ولون البشرة والشعر ولونه وكيفية حتى لون العينين يتغير . لذلك كانت خاتمة البقاء على حالة واحدة في بصمات الأصابع (مع اختلاف شكلها ليس في مجموع الأصابع فقط بل في كل أصبع) الأساس الذي بنى عليه علم تحقيق الشخصية وهو أساس متين غير قابل للنقض ولا للظن بأى وجه . ويشبهون بصمات الأصابع بأوراق الشجر فانها قد تنشابه في شكلها العمومى ولكنها تختلف في تركيبها وتفاصيلها

أما حكمة وجود هذه الخطوط وما يتخللها من الفراغ وما يقاطعها من التجمعات والتثنيات في راحة اليد وباطن القدم فلم يمكن تعليلها بشكل صريح . وقد اختلف علماء وظائف أعضاء جسم الانسان في ذلك ، فبعضهم يرى أن مهمتها تسهيل خروج الافرازات المكونة للعرق ، والبعض الآخر يرى أن لها دخلا بالمس والحساسية

ولم يكن استخدام بصمات الأصابع في الجنائيات للتعرف على شخصية تاركها وترتيبها بطريقة ثابتة للاستعانة بها في استخراج السوابق معروفا في أوروبا إلا حديثا ، فقبل سنة ١٨٩٠ لم يعرف عنها شيء في الحياة العلمية ، ولو أن بعض علماء الألمان بحثوا فوائدها في أوائل القرن التاسع عشر ، وفعل ألقى الاستاذ (بوركنجى) مدرّس علم وظائف أعضاء جسم الانسان بجامعة برسلو محاضرة نفيسة في سنة ١٨٢٣ باللغة اللاتينية عن بصمات الأصابع وفوائدها ، وقسمها الى تسعة أنواع ، واقترح إيجاد طريقة لترتيبها وحفظها والاستعانة بها ولكن مجهوداته لم تلق ما تستحقه من القبول في ذلك الوقت على أن ماتؤديه من الخدمات في الوقائع الجنائية وفي تحقيق الشخصية وإرشاد المحققين والقضاة عن سوابق الجناة واضح لا يحتاج الى برهان ولا أدل على ذلك من تقارير فطاحل هذا العلم المقدمة للمؤتمر الجنائى الدولى الذى عقد بمدينة (تورين) سنة ١٩٠٧ فقد وفى الموضوع حقه الأساتذة (لوكار) و (ريس) و (داسكاريللى) و (دى جاستى) و (دى فيرى) وغيرهم . انتهى من كتاب التحقيق الجنائى

فالعجب لأمرين اثنين أيها الصديق (الأمر الأول) قول المؤلف : « إن باطن اليد وأطراف الألف والأصابع وباطن القدم ، كل هذه مكسوة بخطوط تختلف باختلاف الأشخاص (الأمر الثانى) انها تلازم الانسان من المهد الى اللحد وأن غيرها مما على جسم الانسان يتغير . » حينئذ ظهر أن اختصاص اليدين والرجلين في الآية دون بقية الجسد أصبح معجزة في القرآن ، فاليدان والرجلان فضلا عما ذكرته سابقا من أنهما نافعا في أعمال القضاة هما معجزة قرآنية أنزلها الله في القرآن وأبرزها فعلا في الزمان الذى كنت أعلم فيه في مدرسة دار العلوم وملا بها الكرة الأرضية في أثناء طبع هذا التفسير لأن سنة ١٨٩٠ المتقدم ذكرها هي مبدأ تعليمي في مدرسة دارالعلوم وهذه السنة التى أكتب فيها هذا القول سنة ١٩٣٠ وبينهما (٤٠) سنة . وفى هذه الأربعين سنة ظهر هذا العلم وعملت به الأمم ، فبدأ الظهور سنة ١٨٩٠ وفى هذه المدة انتشر حتى وصل اليها . ومن العجب أن مؤلف الكتاب المذكور كان أحد تلاميذى في اللغة العربية قبل سفره الى أوروبا وذلك في المدرسة الخديوية في أول هذا القرن في العشرة السنين الأولى منه . ومن أعجب العجب أن تختم هذه السورة بما يفيد ذلك إذ يقول - سفيهم آياتنا في الآفاق وفى أنفسهم - الخ كأنه يقول : اختصاص شهادة الأيدي والأرجل دون بقية الأعضاء أمر يشكك عليكم ولكن سأظهر لكم بعض سرّه في الدنيا وقد أظهره في زماننا ولم يظهره في غيره ، فوجب علينا أن نقول للمسلمين ذلك ونخبرهم بهذه المعجزة التى لم يظهرها الله إلا في زماننا فهي معجزة من وجهين : أولا اختصاص اليدين والرجلين ثم ظهور ذلك فعلا لمكان - سفيهم آياتنا في الآفاق - الخ . والى هنا تم الكلام على الفصل الثانى والحمد لله رب العالمين

وظهر لك أيها الذكى ظهورا واضحا علميا أن اليدين والرجلين اختصت بخاصية لم يشرف بها بقية الجسم

وانهما أيضا أصدق من اللسان ، فلم يبق إلا شرح خصائص خطوط اليدين والرجلين ، وكيف كانت الخطوط فيهما لامشابهة فيهما بين رجل وآخر . فأقول جاء في الكتاب المذكور أيضا تحت العنوان لتالى مانصه :

﴿ البصمات الخفية وطرق اظهارها وحفظها ﴾

يكاد الانسان لا يصدق أن أطراف الأكف ، وأجزاء راحة اليد ، أو باطن القدم ، اذا لامست جسما مستويا أملس كالورق أو الزجاج أو الصيني أو المرآة أو المعادن والأخشاب المصقولة على العموم تترك عليها بصماتها بكل تفصيلاتها ورسومها لأن هذه البصمات تكون غير ظاهرة وغير مرئية للعين المجردة وبخاصة اذا كانت على الورق ، أما على الزجاج وبعض المعادن المصقولة ، فاذا دقق الانسان النظر فيها وندأها بقليل من البخار الذى يخرج من الفم فانه يرى بعض شعاع منها لا يلبث لحظة حتى يزول ، وليس تعليل ذلك من العضلات العسيرة التى لا يمكن تصوورها بسهولة بل الأمر أبسط وأسهل مما نظن فان بشرة الجلد مغطاة بطبقة دهنية خفيفة ناشئة من افرازات العرق ، فاذا لامست الأنامل أو راحة اليد جسما مما سبق ذكره تركت عليه بصمتها وانطبعت عليه الخطوط والرسوم باتجاهاتها ومميزاتها ، وككون تلك المادة الدهنية عديمة اللون تبقى البصمة مستترة غير ظاهرة ، لكن قليلا من المواد الكيميائية على شكل مسحوق أو سائل يظهرها للعيان ويخرجها من سترها وانحفة جلدية كالبصمة المأخوذة بالطرق العادية بحيث يمكن استخدامها والاستفادة منها فى التحقيقات الجنائية إذ ليس من المقبول عقلا أن الجناة لا تلمس أيديهم بعض هذه الأجسام أثناء ارتكابهم الجرم فتترك عليها أثرا غير ظاهر إلا اذا احتاطوا لذلك من مبدأ الأمر بلبس قفاز مثلا أو تعمدوا إزالة ذلك الأثر بعد انتهاء عملهم ولا نكون مبالغين اذا قلنا انه لا تخلو حادثة من الحوادث التى تقع فى الأماكن المتحضرة من وجود تلك البصمات التى لو عنى بالمحافظة عليها وعدم اختلاطها بغيرها أو إزالتها بواسطة تعريضها للتؤثرات الخارجية كانت من أثمن الأدلة المحسوسة وأرجحها



(شكل ٣٥)

واعلم أن خطوط الأصابع ﴿ أربعة أنواع ﴾ رئيسية ولكل منها فروع ، فهى منحنيات ومنحدرات الى اليمين ومنحدرات الى اليسار ومستديرات

﴿ النوع الأول ﴾ المنحنيات أو المقوسات بحيث يكون شكل البصمة فيه عبارة عن خطوط أفقية منضبة أو مقوسة الأعلى على الأقل وليس فيه زاوية ولا نواة له ، واذا وضع فيه زاوية لا يتخللها خطوط (انظر شكل ٣٥) وهذا يرمز له بهذه العلامة (٨) فى مصر



﴿ النوع الثاني ﴾ المنحدرات الى اليمين ورمزه في مصر (ا) وهومانكون فيه نواة بشكل قناة ذات حافتين متصلتين من ناحية واحدة ، وهذه القناة تنحدر من اليسار الى اليمين وبه زاوية واحدة الى اليسار ، وقد يكون داخل القناة خط منفصل أو خطان أو أكثر (انظر شكل ٣٦)



(شكل ٣٦)

﴿ النوع الثالث ﴾ المنحدرات الى اليسار ويرمز له بهذه العلامة (-) وهومانكون فيه نواة البصمة عبارة عن قناة ذات حافتين متصلتين من ناحية واحدة . وهذه القناة منحدر من اليمين الى اليسار وبه زاوية واحدة الى اليمين بعكس النوع الثاني (انظر شكل ٣٧)



(شكل ٣٧)

(النوع الرابع) المستديرات ويرمز له عندنا بمصر بعلامة (٥) وهوماتكون فيه نواة البصمة على شكل دائري أو يضاوي أو حزوني بين زاويتين متقابلتين إحداهما إلى اليمين والأخرى إلى اليسار كما في (شكل ٣٨)



(شكل ٣٨)

ولما كانت آيات القرآن وتفسيرها يوجب علينا أن نستوفي هذا الموضوع وجب أن نذكر ماظهر من آثار الرجلين في العلم الحديث كما ذكرنا آثار اليدين فنقول ومن الله التوفيق :

جاء في كتاب « التحقيق الجنائي » تحت العنوان التالي مانصه :

﴿ آثار الأقدام ﴾

قص الأثر معروف عند العرب من زمن بعيد فهم كانوا وما زالوا يقتبعون الإبل والمواشي المسروقة في الصحارى والقفار ويستدلون على محل وجودها ولو كان على مسافات بعيدة ومراحل شاسعة . وجلّ اعتمادهم في ذلك على قوة الباصرة والخبرة والتمرين وقليل ما يخطئ نظرهم فقد أتوا في هذا الباب بللدهشات التي يحار في تعليلها الانسان فينبئك الواحد منهم بما اذا كان تارك الأثر ذكر أو أنثى طويل القامة أو قصيرها سليم النظر أو به مرض باحدى العينين أو ببعض أجزاء جسمه حاملا شيئا أو غير حامل . وفي النساء ما اذا كانت لاحداهن حبلى أو غير حبلى وهكذا . ولا غرابة في ذلك فان الاعراب معتاد منذ الصغر على التجوال في الصحراء وهي أصلح مكان تنطبع عليه القدم وتترك أثرها بشكل واضح يمكن قراءته كما يقرأ الانسان في كتاب . وبما يساعد على بقاء هذه الآثار وعدم محوها واختلاطها بغيرها اتساع تلك البقاع وقلة السكان وندرة المرور فيها وعدم وجود أسباب الرفاهية والعمران بها . فعلى مرّ الأيام يعرف سكان كل ناحية بعضهم بعضا كما يعرف كل منهم أولاد الآخر وناقته وماشيتة . ويمكنه في غير غناء معرفة مشية كل منهم وتمييز آثاره . ويستشهدون بها عند حدوث سرقة أو ضياع ماشية . وهذه قاعدة متبعة للآن في جميع أنحاء السودان وفي الجهات النائية



(شكل ٤٢)

قدم منبسطة



(شكل ٤١)

قدم مقوسة

هذا ما أردته من كتاب « التحقيق الجنائي » مؤلفه محمد شعير بك تفسيراً لقوله تعالى - حتى إذا جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون - الخ وبهذا تم الكلام على اللطيفة الثالثة والحمد لله رب العالمين

﴿ اللطيفة الرابعة ﴾

آراء حكماء الأمم وعلماء الاسلام

في الأخلاق

تفسيراً لقوله تعالى - إن الذين قلوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألتخافوا ولا تحزنوا - الى قوله - إنه هو السميع العليم -

ولأجعل الكلام على هذه الآية في خمس أمور :

(١) الكلام على الايمان بالله والاستقامة

(٢) إغاث الملائكة المؤمنين بالخيرات

(٣) مساعدتهم في الحياة وبعد الموت

(٤) محاسن الأخلاق وملاطفة الأعداء

(٥) الالتجاء الى الله في كل شيء

في يوم الجمعة (٢١) نوفمبر سنة ١٩٣٠ بينا أنا جالس أفكر في معنى هذه الآية ، وأنا أعجب من أن الانسان يحس في نفسه مذكرا يذكره بامور علمية أو أخلاقية وهذا شائع بين الأمم ، وكيف كان هذا من مضمون الآية إذ جاء فيها - نحن أولياءكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة - على لسان الملائكة

أقول : بينا أنا كذلك إذ أخذتني سنة غيل الى أنى في روضات بهجات ، مزينات بأجل الزينات ، والرياش الفاخر في جوهج مضى مشرق في قصر منيف ، فيه فرش مرفوعة ، وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة ، وهناك من الجواهر مالا أقدر على وصفه وأدرك كنهه

فبينما أنا في دهش مما رأيت وفي عجب عجاب إذ أقبلت فتاة أشرق نورها وأضاءت المكان بهجة جالها وماتحت به من أجل الحلى ، ومالبست من أبدع الحال ، وقد عطرت أرجاء القصر بالروائح العطرية ، فسلمت وحيث . فهناك نسبت جمال القصر وبهجة الزينة والرياش وأخذ الجلال ببصرى وبصيرتى حتى نسبت كل شيء إلا ما رأيت من منظر ناضر وطرف ساحر وجمال باهر ونور زاهر ، فما كان إلا كالجحش البصر حتى خرت صعقا وغابت الذاكرة ونامت الباصرة وأخذت فؤادى تلك النظرات الساحرة ، فصرت كالمسحور الذى لا يعي ما حوله ولا يدري كيف يقول . وهكذا بقيت على هذه الحال مدة . فلما أفقت من غشيتى وقت من غفوتى رأيت الفتاة أمامى وهى تبسم فكنت آخر صعقا كرتة أخرى إذ لم أر مثل هذا الجلال فى الأرض أمد الحياة وخطر لى خاطر قديم . ذلك انى يوما كنت دخلت (دار الصور المتحركة) بمصر فرأيت من تلك الصور التى تظهر فيها صورة (كليو بتر) ملكة مصر من دولة البطالسة . وقد لبست أغر الملباس التى يقال ان ثمنها يبلغ آلاف مؤلفة . فقلت فى نفسى إذ ذاك : يا حسرة على مصر . مصر التى انتهكت حرمتها الدول وأبقوا فيها امتيازات الأجانب فأدخلوا صوراً تفسد الأخلاق وتثير الشهوات . فأما فى بلادهم فأن الأكثر فى مشاهد (دار الصور) أن تكون معلمة للشعب الفنون والعلوم وأحوال الحياة بأنهم مظاهرها . فهذا الخطر الذى خطر لى قبلنا نجد لى إذ رأيت هذه الفتاة . فقلت يا ويلتى ماذا أقول الآن رهل مثلى فى هذه السن يا عب الجلال بعقله أو يخطر الغرام بلبه . إن ذلك مزرر بالمسيب . وإذا كنت أخاف على الشبان من هفوات الأجسام . أفلا أخاف على أدبى وعقلى من زلات الضمير وفتنة القلوب والصبوة ولو بالخواطر والهفوة ولو بالنواظر

وبينما أنا كذلك إذ رأيتها ازدادت ابتساما وقالت سلاما سلاما لا تثرى عليك ماهذه بصوبة ولا أنت الآن فى غفلة . إنك الآن مكين أمين للإثم ولا حرج . أنت الآن فى عالم المثال لا فى عالم الأجسام . فأنت روح وأنا مثلك . ثم أمسكت بيدى فكان نورا قبض على نور . ولم أحس بتلك العظام ولا العضلات ولا ثقل الأعضاء الغليظة ، فقضيت العجب وقات فى نفسى « أهذا كنه فى عالم الخيال ؟ » ولم أكد أنهم هذا الخطر حتى أخذت تقول هذا العالم هو الجلال الحقيقى ، ألم تقرأ - وإن الدار الآخرة لهى الحيوان - ، فقلت فى نفسى : يا ليت شعرى ما اسم هذه الروح ؟ فقات على النور أنا اسمى (البصيرة) فتذكرت قوله تعالى - بل الانسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره - وخطرت لى خواطر الآية التى نحن بصدد الكلام عليها وأن الذين يعرفون الله واستقاموا يبشرون ويلاحظون فى حياتهم الدنيا وبعد الموت وتلهمهم الملائكة ، وقلت فى نفسى : هل هذه صورة روحية لبصيرة الانسان ؟ ويا ليت شعرى أهذه تشاكل بصيرتى أنا أم بصائر جميع الناس فى الأرض وهل بصائر الناس جمال فائن على هذا المنوال ، فأجابت بالتردد ولاتوان وقالت إن جمال أرضكم جزئى

إنه جبال نزل إلى الأرض بقدر . ألا ترى أن جبال الرجل أو المرأة لا يبقى إلا ريثما يلدان الذرية . فإذا أسنا ذهب الجبال وعوضا بدل الجبال الظاهري محبة ومودة ورحمة بها يشتركان في تربية الذرية وفي المنافع المنزلية والامور المادية . إذن الجبال في الأرض ليس مقصودا بالذات وما جاء لسبب فيقول لا محالة ذاهب بذهاب سببه . أما الجبال هنا فهو أرق من الجبال في الأرض من جهتين : أولا أن نسبة جبال أهل الأرض إلى جبال عالمنا كنسبة نور السراج في الأرض إلى نور الشمس . ثانيا أن نسبة دوام الجبال عندنا إلى دوامه عندكم كنسبة دوام نور الشمس إلى فناء نور السراج . الجبال عندكم مقدمات وعندنا مقاصد وغايات وسعادات . ولقد أخبرتك بأنني أنا البصيرة . إن بصائر أهل الأرض جميعا قد جعلني الله مثلا لها . فأنا مثال البصيرة السكية وعنوان لها ودليل عليها ، بل أنا هي ولست تتمكن من رؤيتي إلا على هذه الحال . هنالك قلت هذا مقام المائد بالله وبك ألا تدريني أنخبط في ظلام الأوهام ، إنني أردت المقام بجوارك أمد الدهر . فلقد قضيت دهري في حياة كلها غرام بك وحب للنتائج الخلقية والعلمية انني أنت المبرزة لها . فقلت لك لا تطيقني الآن . أولا لأن مظهري الآن ربما لا تحتمله إذا طال مقامك هنا ، ألم تر أنك حررت صغتنا حين لاقيتني . ثانيا أنك الساعة كما ذكرت لك في عالم الروح . ولقد قضيت العناية أن ترجع إلى عالم الأجسام باليقظة ، وعينك هنا ترى ما لا ترى عينك هناك ، وهذا الجبال الذي ظهر لك إنما هو الجبال الكاسب لهذه الدرجة الروحية ووراءها درجات متتابعات تخلق لها عيون على مقدارها في عالم الأرواح العالية . ولو أن درجة من درجات الجبال ظهرت لأرواح لم تستعد لمشاهدتها لأهلكتها ، فاذن لا بد من رجوعك إلى عالم الحس المادي زمانا لكي تكمل نفسك فلا تصعق كما صعقت الآن حين رأيته . قلت ولكن لا صبر لي على فراقك . فقلت إن لكل مقام مقالا ، فارجع إلى الأرض عالم المادة واشهد مزارعي التي زرعتها في الأرض . فقلت أي مزارع ؟ فقلت مزارع القلوب ، قلوب الحكماء والعلماء والأولياء ، فاقروا ما ألقىته على قلب كوفوشوشوس حكيم الصين وقلب أفلاطون وسقراط وقلوب الرواقين وقلب الاستاذ (كنت الأملاني) ، فهؤلاء وأمثالهم الذين برعوا في علم الأخلاق قديما . وهكذا قلب الغزالي والرازي وأمثالهم من علماء الإسلام بل أمثال الشعرائي من الصوفية فهذه مزارعي التي غرستها في قلوب هؤلاء في علم الأخلاق . فتذكرت إنني قرأت في « جريدة الضياء » مقالا يوم الأربعاء ١٩ نوفمبر سنة ١٩٣٠ وهذا نصه :

(المذهب الذي يعتنقه ٥٠٠ مليون من الناس)

الكونفوشيوشية هي مجموعة التعاليم التي دعا إليها كوفوشوشوس منذ ٢٥٠٠ سنة ورواها عنه أقدم حكماء الصين ، ولم يكن كوفوشوشوس يعيل بطبيعته إلى التغافل فيما وراء الطبيعة والتعمق في التأملات الدينية ، ولكنه كان شديد العناية بالفضائل والخلفيات

فهو يوجه جل اهتمامه إلى دراسة المسائل العملية الخاصة بالعلاقات الانسانية ويدعو إلى اتباع السبيل القويم في المعاملات . وكان في حياته الخاصة شديد الاعتقاد بالقضاء والقدر ، والإيمان بأن الله منه الحياة وحدد له المهمة التي يؤديها ، وأنها تحميه كيد أعدائه

ومن قوله « ما أعظم قوات الأرواح . إذا نظرنا لأنراها وإذا أنصتنا لانسمعها . ولكنها تدخل مع ذلك في كل الأشياء ولا يوجد شيء بدونها »

وكان لا يصطحب بمثل هذه الأمور الخاصة أتباعه في خلواته ، أما تعاليمه فكانت كلها عملية ، لأنه كان معلم أخلاق ورجل سياسة . وكان يعتقد أن معرفة الله شيء يفوق قوة تصوّره . ومع ذلك فإنه اعترف وهو يعزى نفسه بقوله انه ولد في السماء وإن الله أوجد الفضيلة التي فيه . وأن ثقته بالله لا حد لها ، فهو لا يتذمر من الفضلاء

كما أنه لا يتبرم بالناس . وقوام عقيدته الاعتراف بضعف الانسان وحاجته الى مساعدة الاله ، ومحاولة التمتع بمباهج الحياة ومن يراها عن طريق الاتصال المباشر بالله . وتكاد الكونفشيوشية تكون طريقة مرسومة للحياة فهي الصفة الدينية لأنها تحض متبعيها على عدم مخالفة قوانين الطبيعة والتآلف مع بقية الناس ، وتنتهي عن حب الذات وتأمير بتضحية النفس في حب الآخرين . وقد نجح كونفشيوش في اكتساب العقلية الصينية ، بفضل شخصيته القوية ، ومحافظته على التقاليد ، ولأنه اتخذ لنفسه صفة القيادة والزعامة فأمنت تعاليمه مسلما بها من الجميع ، وآص الخارجون عاينها في حكم الكفرة

وأساس فلسفة كونفشيوش « التاو » وهي نقطة الابتداء ، والطريق الذي يتحرك فيه الوجود ، والنظام الذي يسير عليه العالم ، أو النظام الطبيعي . وهو السبيل الذي ينبغي أن يسلكه الناس جميعا . والاتجاه الخلقى لكل انسان . وهناك طرق ثلاثة طريق السماء وطريق الأرض وطريق الانسان وهو أهم الطرق الثلاثة ولكن الطريق شيء غير منظور لا يرى إلا في أعمال الناس فهو مبدأ خلقى مستور تتفرع منه فضائل الحياة اليومية . ويؤمن كونفشيوش بثبات الطبيعة على مبدأ خلقى واحد ، فهو يقول بأن السماء والأرض قد أظهرتا ثباتا معنويا في طرفهما المطردة . والكون نظام وليس فوضى . وتتجلى في كل أعمال الطبيعة مظاهر الاخلاص التي يجب أن تعتبر نقطة السير للحياة الخلقية

ويعتقد الكونفشيوشيون بأن الطبيعة هي خير في ذاتها ، وأن مبادئها وقوانينها إنما وضعت لارشاد الناس الى التصرف الواجب . ومع ذلك فان تصرفات الطبيعة غامضة ولا يمكن كشفها . وهذا ما جعل تصرفات الناس خاضعة لأحكامها المقدرة من قبل . فسعادة الانسان وشقاؤه ، وتوفيقه ونحسه كلها مقدرة ، وإذا كانت لا توجد علوم تمكن الانسان من السيطرة والتحكم في الحوادث الطبيعية ، فان وقوع هذه الحوادث يصبح لذلك لا يحصى عنه ولا مفر منه . ومع أن وقوع هذه الحوادث التي لا مفر من وقوعها ، ومع ما يبدو لنا من قسوتها وشدتها أحيانا . كان وقوعها مرهونا في الغالب بتصرفات الناس أنفسهم . لأن الطبيعة ليست شريرة في أعمالها . وكل ما هنالك أنها عادلة وهي تضع دائما الخير مع الخير ، والشر مع الشر ، فالطبيعة شريفة وتتصرف بطريقة خلقية سامية . وكونفشيوش مثل لوك وعلى عكس هوبز ، يعتقد بأن الأصل في طبيعة الانسان الخير وأنها تلتبس الخير كما يلتبس الماء الانحدار . وأول ما يتعلمه التلميذ الصيني في كتابه الدينى الصغير « الناس عند ما يولدون يكونون خيرين بطبيعتهم »

ويفسر أئمة الكونفشيوشية هذا المبدأ بأن كل انسان يملك في صميم نفسه مبدأ خيرا ، يسوقه الى العطف على الآخرين ومساعدتهم ، ومبدأ عاد لا يشعره بالخجل من كل ما يثير الخجل ، والكراهية لكل ما يستحق الكراهية . ومبدأ للياقة يحمله على احترام وتمجيد من يستحقون الاحترام والتقدير ، ومبدأ حكيما يعرف به الحق ويؤيده . ويدرك به الباطل ويزخرجه عنه

وهذه المبادئ ليست مخالفة للطبيعة الانسانية ولكنها مركبة في غرائز العقل الانسانى ولاغنى للبشرية عنها . وليس على الانسان الا أن يطيع هذه المبادئ الكامنة فيه ليأمن العثار ويسلك الخبى الذى لا غبار عليه . ويصبح انسانا كاملا . ان الناس يولدون أطهارا بطبيعتهم غير أنهم إذا طعموا غذاء دسما . واكتسوا ملابس تشيع الدفء في أجسامهم . وسكنوا أماكن مريحة فانهم يصبحون كالبهائم تقريرا . فغاية التعليم القسوى هي استرداد العقل المفقود ، وأغلب الناس قد فقدوا عقولهم

ومن مميزات الثقافة الصينية العناية بأداب اللياقة ، وهي ظاهرة الأثر في النظام الكونفشيوشى ويضع كونفشيوش نظاما خاصا من العوائد والاقبسة لكل العلاقات الأساسية بين الناس . وكل ما يشاهد في الصينيين من مظاهر اللياقة وحسن التصرف إنما منشؤه من هذه العادات . فالآثران الذى يقابلون به أى موقف من

مواقف الحياة يرجع الى استعدادهم الداخلى الذى جرى منهم مجرى الغرائز بفضل مرانهم الطويل مدى العصور المتعاقبة

لذلك لا يحتاج الصينيون الى كتب فى اللياقة لأنهم نشئوا منذ نعومة أظفارهم على اتباع أصولها المتبعة فى تقاليدهم الدينية المنسوبة الى كونفشيوس . حتى أصبح الثبات واللياقة طبيعة ثانية فيهم . فأتى لانتمج أثر الجلافة عندهم حتى فى أحط الطبقات الجاهلة ، بل تراهم جميعا قوما يحسنون التصرف بلباقة فى الأحوال ويفضل كونفشيوس فى كتابيه الثالث والرابع المعروفين (بتعليم الوضعاء) الكيفية التى يستطيع بها الانسان أن يتمشى فى قوانين الطبيعة لى تظهر عناصر الخيرية المركبة فى طبيعته . وهاك بعض فقرات من الكتابين التناسب طريق الطبيعة . والوصول الى التناسب هو طريق الانسان . فالذى يتمشى مع الطبيعة يصيب الهدف من غير نصب ، ويفهم الحقيقة بدون تفكير والحكيم من يهتدى بفطرته الى الطريق القويم من غير عناء والتناسب أو التمشى مع طبيعة الكون هو فعل العليم فى الآداب الكونفشيوشية ، فالرجل الذى يصل الى هذه الدرجة من التناسق يصبح انسانا كاملا . ويدعو كونفشيوس الى الاهتمام بالأميرين (شو) ومعنى الكلمة الحكم على الغير باختبار الانسان الشخصى . لأن التشابه بين الناس فى تفكيرهم يمكن الفرد من الحكم على الآخرين فلواتى عاملت كلبا أو جوادا بما لا أحب أن أعامل به ، فليس معنى ذلك أن هذه المعاملة لا تنطبق بالكلب أو الجواد . ولما كنت أنا انسانا وإخوتي الآخرون هم أيضا من بنى آدم أعرف ما يسبب لى الألم فأتى أمكننى أن أعرف أن الآخرين عند ما يتأثرون بنفس العامل يتألمون مثلى . وإذا اتخذت قلبى دليلا لى فأتى لا أعمل لغيرى مالا أرضاه لنفسى

ويعرف كونفشيوس الرجل الراقى ، بأنه الشخص ذو الفضيلة الكاملة ، الانسان الذى رفع نفسه الى مستوى الكمال الخلقى . بعكس الرجل الضيق العطن العادى التفكير ، وجمع الصفات التى تتألف منها أخلاق الانسان الكامل هى : الاحسان . والانسانية والايثار . وإنكار الذات والروحانية والمحبة . أما المحبة فهى فى عرف كونفشيوس غاية الحياة الانسانية . ومن رأيه أن الانسان الكامل يجب أن لا ينسبى هذه الغاية ولو مرة واحدة . أثناء تناول وجبة واحدة . أو فى ظرف يكون فيه مشغولا جدا أو عند ما يغفل فى عمل فشلا فاضحا ويأمر كونفشيوس بحب الناس . أى أن يشعر الفرد بمحبة النوع الانسانى وينظر الى البشر جميعا كأئهم اخوته ويعتبر الانسان اجتماعيا بالطبيعة . ويحلل النظام الاجتماعى الى خمس علاقات : الملك ووزيره والأب وولده . الزوج وزوجته . والأخ الأكبر وأخوه الأصغر . والصديق وصديقه . فالانسان بطبيعته مغبور فى نظام من العلاقات ولا يستطيع أن يعرف نفسه الا داخل هذا النظام . وهذه العلاقات تتضمن فوارق ، فالخضوع ليس معناه تحديد الحرية الطبيعية . ولكنه شىء طبيعى لا بد منه اه

فلما قرأت هذا وهى مصغية لى (وعجبت إذ رأيت المقالة أسمى كأتى أشاهدها) قالت انظر فى الآية التى تفسرها أنت الآن . ألم ترأتى ألهمت حكيم الصين أن يقول : « إن الله منحه الحياة وحدد له المهمة التى يؤدبها وانه يحميه كيد أعدائه » . قلت بلى . قالت أليس هذا بعينه ما فى هذه الآية - تنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا - الى قوله - نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة - . ثم قالت : ألم ترأن ملخص كلامه عن نظام السموات والأرض انه فى غاية الكمال ، وأن نظام النفوس الانسانية فى الأعمال يجب أن يكون على مقتضى هذا النظام (وبعبارة أخرى) إن النفوس الانسانية يجب أن تكون مخصصة وصادقة كالإخلاص والصدق فى نظام الأرض والسماء ، وهذه المعانى هى التى برزت فى تفسيرك للقرآن لأن هذا التفسير سيكون نموذجا يؤم فى الشرق والغرب يسرون على النظام الطبيعى فى أعمالهم بإخلاص وأمانة وحب لربهم . ثم إن تعريف كونفشيوس للرجل الراقى هو عين قوله تعالى - ولا تستوى الحسنة ولا السيئة

ادفع بالتي هي أحسن - وأما الحب العام الذي ذكره فهو مضمون نفس هذه الآية ومطلوب القرآن - إنما المؤمنون اخوة -

إذن آراء كونفوشيوش هي مقاصد القرآن والله أعثرك عليها الآن لتكتبها فيعلم المتعلمون من المسلمين الذين قرءوا العلوم الفلسفية الأوروبية . إن آيات القرآن المبذولة للجهال والعلماء على حد سواء ليست هي كما يظنون غير مستحقة عنايتهم بدعوى أن قراء القرآن أكثرهم جهلاء فقراء ، فإن هذا القرآن من عند الله كما أن الماء المبذول لجميع الناس من عنده وهكذا الحب المبذور والنوى في الأرض الذي تطفؤه البهائم هو هو نفسه الذي يصير حبا ونمرا جنية ، فليس عموم النعمة دلالة على نقصها ولا شمولها الجاهل والعالم عنوانا على هوانها . كلا . فليعلم أولئك المتكبرون أن كبرهم في غير محله وأن القرآن تفسره الفلسفة في الشرق والغرب وحكمة الحكماء وعلم العلماء - بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم -

ثم أتى تذكرت بعد ذلك بعض آراء أفلاطون من المقدمة التي كتبها الاستاذ (بارتلمي ساتيلير) أستاذ الفلسفة اليونانية في السكولج دي فرنس ثم وزير الخارجية الفرنسية التي ترجمها الاستاذ (أحمد لطفي السيد) مدير دار الكتب المصرية ، فأسمعتها مانصه . قال :

(١) وقد استعار أفلاطون استعارة أخرى ليجوّد بيان هذا الطبع المزدوج للانسان فقال : (فلنتصور أن كل واحد منا هو ما كينة حية خارجة من يد الاله . فالشهوات التي نحسها هي كأنها جبال أو خيوط يجذبنا كل الى ناحيته ، وبتعاكس حركاتها تجذبنا الى أعمال متضادة . وهذا هو ما يقرر الفرق بين الرذيلة وبين الفضيلة ولكن الحس السليم يدلنا على أن واجبنا أن لانطويع الا أحد هذه الخيوط ونتبع اتجاهه ونقاوم شديدا كل ماعداه من الخيوط الأخرى . ذلك هو خيط الذهب المقدس . خيط العقل الذي هو القانون العام للممالك وللأشخاص . ينبغي أن يكون الحكم للعقل مادام أنه هو محل الحكمة وأنه مكافئ بأن يسهر على النفس بتمامها ولا ينبغي ألبتة أن يصني المرء في نفسه إلا إلى صوت العقل ، لأن العقل المستقيم إنما هو صوت الله يخاطب به أنفسنا . ولأن يعتقد المرء أن النفس تسمو بالمعارف أو بالثروة أو بالجاه والسلطان ، ذلك ليس الا نقصا فيما يجب من تشريف ما في نفسه من الجهة القدسية ، وتفریطا منه في إكرام نفسه ، فإن إكرامها الحقيقي ينحصر في الدأب على تنمية الفضيلة فيها وحمايتها من الكبرياء واللذات ، ومن الترف الذي يجعلها تتجنب عن احتمال المشقات الضرورية ومن الجزع عند لقاء الموت بل حمايتها أيضا من جواذب الجليل . فإن الجليل لا ينبغي أن يؤثر على الخير ، بل يلزم أن يقال : إن كل ما على سطح الأرض وما في باطنها من ذهب لا يستحق أن يوازن بالفضيلة . وإن المرء إن لم يقصر تشبثه على الخير وحده بكل قواه ، كان موردا نفسه ذلك الكائن القدسي موارد العار والاحتقار (١)

(٢) وقال المترجم أيضا « وبمقتضى ذلك كان الواجب الأول على الانسان ، بل الواجب الوحيد الذي يشمل جميع الواجبات الأخرى هو أن يسلك في الحياة سبيل العقل المستقيم . وإن أكبر خطيئة يرتكبها ، وأكبر جهالة يقع فيها إنما هو أن يعصى العلم والحكمة والعقل ، وهي ثلاثها سادته الحقيقيون . إنما هو أن يكره شيئا حكمه بأنه حسن جميل بدلا من أن يحبّه . إنما هو أن يحب ويعانق من يحكم هو أنه رديء . على أن النفس تجد طمأنينة تامة ، وقوة ألبما قوة حينما تتفق إحساساتها وأعمالها ، فتغيبط بأنه ليس لها أن تعود باللائمة على نفسها في فكرة أو عمل ظالم في حق الله أو في حق الناس . وإن أكبر حرب في الحياة هي الحرب

(١) القوانين ك ١ ص ٥٤ - الجمهورية ك ٤ ص ٢٤٠ وك ٩ ص ٢٣٢ - طيمارس ص ٢٣٥ - كريتون ص ١٣٥ - فروطا غوراس (السفسطائيين) ص ٥٧ - القوانين ك ٥ ص ٢٥٤ - الجمهورية ك ٩ ص ٢٠٩ - فيدون ص ٢٦٦

التي تقع بصدد صيرورة المرء فاضلا أو شريرا . (١) وقد يقع المرء في الضلالة إذا هو ظن أنه الرجل الذي له قيمة تقضى عليه أن يحسب حسابا للموت أو للحياة ، بدل أن يقصر سعيه على البحث فيما إذا كان ما يعمل هو خيرا أم شرا ، وما إذا كان عمله عمل رجل صالح أم عمل رجل سوء . كل امرئ اختار مركزا ، لأنه رآه أشرف من سواد ، أو لأن رئيسه وضعه فيه ، يجب عليه أن يقيم فيه ثابتا ، ولا ينظر إلى الخطر ولا إلى الموت ، ولا إلى شيء آخر غير الشرف . كذلك كان سقراط ، لما جئ به ليحاكم أمام الشعب الآتيني على تهمة كبرى ، لم يتأخر ألبتة عن تنفيذ هذه المبادئ بالعمل . فلما كان يخدم وطنه في ميدان القتال ، احتفظ كما يحتفظ الجدي الباسل بجميع النقاط التي وضعه فيها القواد في يونيدة وفي أنفيوليس وفي ديليوم . كذلك لم يكن ليتحول عن المركز الذي خصه الله به . بل دأب على درس الفلسفة على رغم الخطر الهائل الذي كان يهدده ، حتى إنه لما مثل أمام القضاة ، لم يخطر بباله ليتق الموت أن يتنازل إلى التخضع بسؤال العدو ، ولا إلى التليقات العادية التي اعتاد الناس أن يستدروا بها شفقة القضاة . وما كان الكلام هو الذي يعوزه في هذا السدد . بل الذي كان ينقصه هو عدم الحياء من نفسه . فلم ينزل عن عزته إلى سكب الدموع . وما يستبيحه المتهمون المستهينون بكرامتهم من الدنيا ، كأن الخطر الذي هو فيه لم يكن في رأيه داعيا إلى إثبات ما هو غير خليق برجل حر . فالشأن أمام المحاكم كالشأن في ساحة القتال ، لا يسمح للمرء أن يتسدرع بأي وسيلة من الوسائل المختلفة لحفظ حياته . فكما أنه في الحرب لا ينبغي ألبتة أن يلقى المحارب سلاحه ، ولا أن يطلب الأمان ، كذلك لا ينبغي ألبتة تلقاء غيرها من الأخطار أن يتسفل (٢) إلى حد أن يقول كل شيء ، ويعمل كل شيء . كذلك مضى سقراط ، من غير أن يخسر من شرفه شيئا إلى الموت الذي حكمت عاييه به المحكمة ، وترك الذين انهموه ملطخين بوصفات الظلم والعار التي حكم عليهم بها الحق . لزم عقابه كما أنهم لزموا عقابهم . والشأن في ذلك كما يقول هو أن كل شيء هو على أحسن ما يكون . ليس المهم أن يعيش المرء ولكن المهم هو أن يعيش عيشة حسنة . ذلك المعنى هو الذي حل سقراط على أن يرفض خدمة الخلف « كريتون » فلم يشأ أن يهرب من السجن ليخلص من حكم ظالم لأنه يعلم أن هذا الهرب مهما برره الظاهر ، فانه ليس في الواقع إلا مخالفة لقوانين الوطن ذلك هو إذن المبدأ الأول الذي قرره سقراط ، وأيده بالمثل الفعلي . هو أنه لا ينبغي ألبتة إثبات الشر بأية حجة كانت ، بل ليس سائعا أن يدفع الشر بالشر ، وأن قيل : إن العدل إنما هو إتياء كل انسان ماله ، فليس معنى ذلك في عرف الحكماء أن الرجل العادل يجب عليه لأعدائه الشر ، كما يجب عليه لأصدقائه الخير ، فليس عمل السوء لأي انسان من العدل في شيء .

من هذا المبدأ استنبط سقراط نتيجة ضرورية ثابتة لم تكن من قبل ، وهي أن النفس متى كسبت السببة بعامل الجهل أو الضعف ، على الرغم من شدة تحفظها ، فأول ما يجب الاهتمام به هو شفاؤها من المرض الذي أصابها ، والذي يمكن أن تشفى منه . وعلاج الخطيئة إنما هو العقاب ، فلا ينبغي للذنب أن يتدمر من العقاب الذي أصابه إما بيد الله أو بيد الناس ، بل يجب عليه أن يعتبط بالبلاء الذي يكفر سيئته ويخلص نفسه مهما كان مؤلما . إن العقاب ضرب من الطب المعنوي . وشأن المذنب الذي يحاول اتقاءه شأن المريض (٣) الذي قد يؤثر المرض المهلك على أن يذهب إلى الطبيب الذي يعيد إليه الصحة بالحديد أو النار . ولا يعتب عن سقراط أن هذه المبادئ يبين عليها بادية بدء أنها تصادم الرأي العام . وفي الحق أن من النادر في الواقع أن يوجد

(١) أفلاطون - فروطاغوراس ص ٣٨ - غريغاس (البيان) ص ٢٦٢ و ٣٦٧ - القوانين ك ٣

ص ١٦٧ و ١٦٥ - غريغاس ص ٤٠٢ - الجمهورية ك ١٠ ص ٢٦٥

(٢) أفلاطون - تقرير سقراط ص ٩٠ و ٩١ و ١١٤

(٣) أفلاطون - تقرير سقراط ص ١١٤ و ١١٥ - كريتون ص ١٤٣

جناة يأتون ليسلموا أنفسهم الى العدل الذى يقتص منهم ، ولكن قد يكون ذلك مما لا يعابه ، فانه يلزم أن لا نهم بما يستقوله عنا الغوغاء ، بل بما يقوله الذى يعرف العدل والظلم . وهذا القاضى الوحيد لأعمالنا إنما هو الحق ، إنما هو الله . فإذا جهد المذنب . كما هي العادة . ليخلص من العدل ، فأنما هو حقيق بأن يرى له ، حيث يضيف الى سيئته الأولى التى هي الجناية سيئة أخرى شرا منها . وهى بقاء تلك السيئة من غير عقوبة تكفرها . لكن القلب المخلص المستقيم متى كسب الخطيئة بالمصادفة . عجل الى طلب العقوبة راغبا فيها ، لأنها هى التى تصلح بينه وبين نفسه وبين الفضيلة (١)

(٣) وفى صفحة ٣٩ وما بعدها مانعه : «الخير الأكمل كما عرفه أفلاطون فى كتابه «فيليب أو اللذة» ليس كله فى العقل ولا فى اللذة ، بل هو فى مزيج منهما جميعا . ونسبته فيهما مما يدق تعيينه . لكن الفيلسوف مع تقييده للذة لا يريد إهدارها كما حاولت مذاهب الغلاة من بعده بزمان ، فان لديه سعادة العيش وشقاء مشكلة كبرى ليس عنده هم أشد من حلها على الوجه الحسن ، لذلك كان شديد الرغبة فى أن يبين أن الفضيلة لا يقصر شأنها عن أن تكون أجل شئ فى ذاتها . كما هو مسلم به ، الا عند العقول المريضة بل هى أيضا أنفع وأسهل ما يكون . تلك هى نقطة من الأهمية بأعلى مكان . ولما كانت شرائط الفضيلة فى هذه الدنيا لا تتغير . كان توضيح سقراط إياها بهمنا كما هم معاصره تماما . فاننا لانزال نشكو من الحن المؤلة الفضيلة كما كانوا يشكون . وإليك ما رآته نفس الحكيم الكبيرة التى زهقت فريسة الظلم الصارخ

إنه يستشهد فيها النجربة . أجل ، متى أراد المرء تدبؤ الفضيلة والتزامها (٢) منذ حداثة سنه ، لا يتركها كما يفعل المرتد عن مذهبه ، فانها تقر فى القلب . أجل إنها تولد لنا كثيرا من اللذائذ وقليل من الآلام فى جميع مدة الحياة . من ذا الذى يفكر حقيقة ويستطيع أن يؤثر الجنون والجبن والافراط والمرض على العقل والشجاعة والاعتدال والصحة ؟ من ذا الذى تلقى مشهد الأحوال الانسانية يستطيع أن ينكر على العموم بعد الموازنة ، ان الفضيلة ليست أشمل سعادة من الرذيلة ؟ إنها فوق ما تحفظ على نصراتها من النعم النفيسة الباقية تكسب مكافآت الرأى العام وتوزعها عليهم . إنها لا تخدع ألبته من يعتقونها باخلاص ، فان الملائكة لا يتخلون عن أى كان يحاول بالمرون على الخير أن يشبه بهم فى الحدود الممكنة ، إذ ليس من الطبيعى أن كائنا على هذا الخلق يتخلى عنه الموجود الذى به يشبهه . فالفضيلة إذن مكفولة بحماية الله . أما من جهة الناس . أفليس الأمر كذلك أيضا ؟ أليس ما يحصل للخبيثين والأشرار هو عين ما يحصل لهؤلاء المستبقين الذين ينزرون سراعا عند صدورهم عن مقر حفلة السباق لكن لا عند وجوعهم اليه ؟ يشبون أولا بالسرعة ولكن على آخر الشوط يصيرون فى حال نعسة . آذانهم بين أكتافهم . ينزرون سراعا دون أن يتوجوا . فى حين أن العدائين الحقيقيين يصلون إلى الغرض حائزين قصب السبق ويتوجون بتاج النصر . أليس حظ العادلين عادة هو كذلك (٣) ؟ أليس حقا أنهم متى وصلوا إلى آخر مشرع من مشروعاتهم . يكتسبوا من سلوكهم وعيشتهم اسما حسنا . ويحصلوا من الناس على المكافآت الواجبة لهم ؟ أليس أنهم يصلون متى باعوا سن الرزانة إلى ما يرجون من علو المناصب ؟ أما الأشرار فانهم وإن أخفوا أمرهم على العيون فى شبابهم . فان أكثرهم يفضح أمره ويرتدى بالسخرية فى أخريات أيامه . ومتى صاروا أشقياء فى شبخوختهم . باءوا بمسبات الأجانب والمواطنين . بله ما يلحقهم من

(١) أفلاطون - غريغاس ص ٢٥٧ و ٢٨١ و ٢٨٤

(٢) أفلاطون - القوانين ك ١ ص ٣٣ و ٥٣ «فيليب كل المحاور» الجمهورية ك ٩ ص ٢٠٠ - القوانين

ك ٥ ص ٢٦٧

(٣) أفلاطون - القوانين ك ٥ ص ٢٦٧ و ٢٦٩ - الجمهورية ك ١٠ ص ٢٧٦ و ٢٧٧ و ٢٧٨

المثلث التي تكاد تصيبهم دائماً في هذه الحياة الدنيا . وما يتلقاهم يوم القيامة من عدل الله - الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه -

ان أفلاطون مقتنع بصدق هذه المبادئ في العمل الى حد أنه كان يظن أنه مستطيع أن يعين بالأرقام المضبوطة مقدار المقارنة بين سعادة الرجل الفاضل وبين الشرير . وجد بحسابه خاص أن أولهما أسعد من الثاني بسبعائة وتسع وعشرين مرة . وإنه يريد فوق ذلك أن يسحر بهذه القواعد الجميلة التي هي ثمرات تجربة يؤيدها العمل اليومي نفوس الصبيان وهي لا تزال لينة مطيعة . ثقة منه بأن هذا الكلام يقر في عقولهم بأسهل من كل ماعده . ولما أفتق قلب شاب شريف مثل « غلوكون » كاد يطلق منادياً ينادى بأعلى صوته في الناس جميعاً بهذا الحكم الذي أصدره ابن أرسطون « ان أسعد الناس أعددهم وأفضلهم وان أشقى الناس أظلمهم وشرهم »

الى هذه المشجعات التي لم تكن لتعطي مقام النفس أضاف سقراط نصيحة من شأنها أن تطمئنئها وتكبرها ان حوادث الحياة لا تستحق منا مثل هذا الاهتمام العظيم . العقل يهتدي الى أن من الجليل الاحتفاظ بالشاشة عند المصائب وأن لا يدع المرء نفسه الى الشهوة تلتقي به في اليأس . وذلك لأن الانسان يجهل (١) ما اذا كانت هذه العوارض في حكمه الله خيرات أم شرورا . ولأنه لا يكسب شيئاً من وراء الحزن لها ولأن الألم ليس لإعانتها عما يلزم المبادرة بعمله في هذه المواقف . فالرجل العاقل المستقيم الأخلاق اذا حلت به مصيبة كفقد ولد له . أو ضياع شيء آخر عزيز عليه يحتمل المصيبة بصبر لا يطيقه أي رجل آخر . وليس هو في ذلك ألبتة عديم الشعور لأن عدم الشعور في مثل ذلك الموقف حديث خرافة . ولكنه يضع حدوداً لألمه سواء أكان في جمع من أمثاله أم كان منفرداً بنفسه فإذا يلزم اذن عمله في هذه المحن ؟ « أن يستشير المرء عقله فيما وقع . وأن يصلح سوء حظه بأحسن الوسائل التي يحكم بها العقل . وأن لا يروح للصدمة الأولى واضعاً يده على جرحه كالأطفال يضع الوقت بالصراخ . بل أولى به أن يروض نفسه على علاج الجرح بأسرع ما يمكن . وأن يرفع ماسقط . وأن يتداوى بدلاً من أن يتظير . ذلك هو خير ما يستطيع الرجل عمله في المصائب التي تحل به (٢) »

(٤) وقال أفلاطون : « وليس من الممكن وجود صداقة مستديمة إلا بين الأخيار . وإن الفضيلة التي هي شرط للسعادة الفردية هي كذلك شرط للسعادة في الجمعية . إن الأشرار لا يستطيعون أن يألفوا زمناً طويلاً . فاذا قربت المنفعة بينهم لحظة . فالتبث أن تباعد بينهم . بل المنفعة التي تساعد الرذيلة « وما الرذيلة إلا أسرع منها انتقالاً » تسليحهم بعضهم على بعض وتصبح الجمعية . وليس فيها إلا أشرار . غير مستطبعة أن تبقى يوماً واحداً . ان هذه القاعدة العتيقة « الشبيه يبحث عن الشبيه » ليست صادقة إلا بالنصف . فان الرجل الخير هو وحده صديق الرجل الخير . أما الشرير فانه لا يستطيع ألبتة أن يعقد صداقة حقيقية . لامع الخير ولا مع الشرير شبيهه . ولما كان الشرير لا يثبت له على حال متغيراً متخالفاً مع نفسه مضاداً لها . كان بعيداً عليه أن يشابه غيره ويحبه . وحينما اقترب الشرير من شبيهه واشترك (٣) معه ، صار عدوه حتماً . لأنه سيعتدي عليه بعض الشيء . وكيف يكون ممكناً أن يبقى المعتدى والمعتدى عليه صديقين

(٥) وقال عن سقراط مانصه : « ولما كان محظوراً عليه ألبتة أن يأتي الشر . كان لا يعمل السيء لأعدائه كما لا يعمل لأصدقائه . ذلك منه بعيد . فانه يعرف أن الشر الذي يقع على الأشرار يزيدهم رذيلة على رذيلتهم .

(١) أفلاطون - الجمهورية ك ١٠ ص ٢٧٨ وك ٩ ص ٢٢٤ - القوانين ك ٢ ص ١٠١ - الجمهورية ك ٩ ص ٢٠٤ وك ١٠ ص ٢٥٦

(٢) أفلاطون - الجمهورية ك ١٠ ص ٢٥٥ و ٢٥٦ و ٢٥٧

(٣) أفلاطون - فورطاغوراس ص ٣٨ - ليزيس ص ٥٩ - فيدر ص ٨٦

شأن تلك الدواب الشمس . يضر بها السائس الأخطل . فتصير بذلك غير قابلة للتدليل . ومافعل الشر حتى بالشرار إلا قاعدة لا يجري عليها غير الطاعة أو التجانين أمثال «فرديكاس» و «بريندر» و «اكرزكيس» أما الرجل الحكيم فإنه على الضد من ذلك يذلل الشرير بما يعمل له من الخير . أو على الأقل بما يضر به له من المثل الصالح من عدالته . إن الشرير أولى الناس بالشفقة . لأنه مريض النفس قد اعتراه المرض في جزئه النفس حقا أن من القلوب ما قد بلغ في الفساد حدا لا يمكن معه شفاؤها . بل أخذت منها الرذائل مأخذا أصبح معه علاجها عسرا جدا أو مستحيلا . ولكن هذه هي الاستثناءات التي يندر وجودها . أما أكثر الشريرين وفي شفاؤهم بقية من الرجاء . فيلزم أن يكظم الغيظ في حقهم . وأن لا يؤخذوا بالعقوبات القاسية التي لا يكون من ورائها إلا أن يركبوا متن الحدة ويتعهدوا عن الداء الشافي

إن ما يكسب مبادئ سقراط هذه من رفعة وميزة خاصة بها أنه لم يقصر أمره على تقريرها . بل كان يعاني تطبيقها . وما كانت حياته إلا وقفا على هذا التطبيق الطويل الشاق . فانه منذ تلقى من إله «دلفوس» رسالته المقدسة . واستنارت نفسه بنور الحق ما زال يعلم مواطنيه بأكل ما يكون من الرعاية التي قد لا تخلو من التقرير يحض لهم أنفع النصائح . ويحمل إلى السرائر الخالصة نور سريره الساطع . وقد كان يرى أن نفع الناس وتخليصهم مما هم فيه من الشرور واجب عليه إلى حد أنه لو استطاع أن يخلصهم بتقديم حياته قربانا . لما تأخر في ذلك . فلو قال له أهل آتينا

«يا سقراط إنا نطرح رأي (أنييتوس) ونحكم ببراءتك . لكن على شرط أن تكف عن الفلسفة وعن أبحاثك التي اعتدتها . وإنه إن وقع منك ذلك واكتشف أمرك عوقبت بالقتل لما تأخر عن أن يحبسهم بأهل آتينا إني أحترمكم وأحبكم ولكني أطيع الله لأطيعكم أنتم . وما بقيت أنفاسي تتردد في صدري . وبقى لي حظ من القوة . لا أفنا أنذركم وأنصح لكم وادعوا كل من أقيته بالإنسان الذي عرفتم مني . ولو أنني كفت في هذه الساعة لما كان هذا خوفا على نفسي كما قد يبدر للأذهان . بل خوفا عليكم أن تحاربوا الله بالحكم على هذا هو اعتقاد سقراط وذلك هو إحسانه إلى الناس . فلا يجب من يسمع تقريره من أن يراه قد تقدم المسيحية نفسها إذ يقول لأهل جمهوريته : يا أيها الذين تتألف منهم المملكة كلكم اخوان . لأنه هو نفسه لم يغفل لحظة عن الاعتقاد بأنه أخو قاتليه (١)»

كفي بالمذاهب الأخلاقية التي من هذا النوع دليلا على المذاهب الدينية التي تتوجها . فمن السهل استنباط المعتقدات الدينية لأفلاطون وسقراط من مذهبهما الأخلاقي . فإذا كان الصوت الذي يخرج من أعماق ضميرنا هو صوت الله . وإذا كان الله هو الشارع الذي يجب علينا جميعا طاعته . وإذا كان الناس لا يؤفون فيما بينهم إلا عشيرة واحدة ، فمن البديهي أن أباهم العام إنما هو الله الذي رضى لهم أن يجوه كما يحبون أنفسهم بعضهم بعضا . وإن الصلة بينه وبين الإنسان دائمة فلا يستطيع أن يفر منه أبدا . ولو صغر حتى نفذ في باطن الأرض أو كبر حتى (عرج في جوف السماء) . وأبعد من ذلك أن يستطيع التغلب على الإله أبدا . أو يتخلص من هذا النظام الثابت الذي شرعه والذي يجب احترامه إلى مالا نهاية . ومن الكفر البين بعد إنكار وجود الله أن لا يعقد بالعناية الإلهية . فان ذلك يستلزم القول بأن هذه العناية يمكن أن تتخلى عن الإنسان لحظة فلا ترعاه . وتسلمه بغير حساب إلى سورة رذائله أو عجز فضائله . إن أجل ألقاب الإنسان وأحسنها أنه «صنعة صنعها الله يديه» فلا شيء لدينا إلا وهو من فيض إحسانه . ولا نستطيع أن نوفيه الشكر على نعمائه بصلواتنا وما نقرّب من القرابين وما نأتي من العبادات المستمرة إنه هو قوتنا ولولاه لم نكن شيئا مذكورا . وإن الله على حسب التقاليد القديمة هو الأول وهو الوسط وهو الآخر لجميع الموجودات . وهو يسير على خط مستقيم تبعا لنا موسى في حين

أنه يحيط بالعالم . ووراء العدل المنتقم في الجرائم التي تقع ضد شرعيته . فأبما امرئ شاء أن يكون سعيدا . فليصل بهذا العدل الالهي ويقتف أثره خاضعا متواضعا . أما من انتفخ كبرا . وأسلم قلبه الى نار الشهوات . وظن أن لا حاجة له بسيد ولا هاد . فان الله يتركه الى نفسه . ولا يلبث أن يدفع الدين الى العدل الالهي . وينتهي أمره بأن يهلك هو وعشيرته ووطنه (١) »

مادام هذا هو النظام الثابت للأشياء . فم يفكر الحكيم ومادا يعمل ؟ بديهي أن كل انسان عامل يفكر في أنه ينبغي له أن يكون من الذين يتقربون الى الله . لكن ماهو السبيل المقبول عند الله ؟ هو طريق واحد . لأن الله بالنسبة لنا هو المقياس المضبوط لجميع الأشياء . لا الانسان كما زعموا باطلا . فلا سبيل الى أن يحظى الانسان بقرب الله حتى يعمل كل ما في وسعه ليشبه به . أعني بمقدار ما يتيح للانسان أن يبلغ من التشبه بذلك المثل الأعلى الذي لا يباغحه أحد . ومتى أمن الانسان على هذا الاتصال وذلك «النسب الالهي» واقتنع بأن عناية الله تحرسه بلا انقطاع كأن تحرس بقية الدنيا . وأيده ضميره الذي يرضى عنه لحسن طاعته للنظام العام فإذا عسى أن يخيفه في العالم بأسره ؟ وكيف يتمتع قلبه عن الايمان بهذه الحقيقة المعزية : أن الانسان الخير لاخوف عليه في حياته ولا بعد مماته ؟ فإدما في هذه الحياة سوء . فكيف لا يحفظ الاعتقاد الراسخ بأن الاله سيب له مالا يزال يهب للأخيار من لطف في المصائب التي تصيهم ، وتغير في حالهم الخاضرة الى خير منها ، على أن النعم المعنوية التي اكتسبوها والتي ليست نعما زائلة أو منتقلة تبقى لهم الى الأبد ، على أمثال هذه الآمال وفي أمثال هذه الأفكار يجب أن يقطع المرء عمره ، يذكربها نفسه وغيره في كل فرصة وفي كل مقام من مقامات الجسد واللاه (٢) »

(٦) وقد قال عن سقراط مانعه : « أظن أن سقراط هو أول من حاول من الحكماء إثبات صبغة الله في الطبع الانساني بطريق البحث والتنقيب ، وقد صدر في ذلك عن هذا المعنى العميق الذي قرره «انسكساغوراس» وهو أن العقل أصل كل شيء في العالم فاستنتج منه كما ذكر في «فيدون» هذه النتيجة وهي : أن عقلا مدبر الخلق يجب أن يكون قد أعد كل شيء على أحسن ما يكون . وليس على الباحث لمعرفة طبع أي شيء الا أن يبحث أحسن حالة يمكن أن يكون عليها ذلك الشيء ، فليس على الانسان في كل ما يتعلق به إلا أن يبحث ، كما هو الحال في بقية الأشياء . عما هو الأحسن والأكمل ولقد كان «هرقليت» يقول من قيل سقراط : إن أجل القردة إذا قررن بالانسان ظهر قبيحا . كذلك الانسان الحكيم لا يظهر بجانب حكمة الله وجاله إلا كالقرد ، ولكن سقراط عز عليه أن يقف بحته على درس الجسم كما فعل «هرقليت» فيلسوف يوناني . فتمشى مع مبداء الأحسن في درس الروح التي جعلها الجهة الوحيدة لدرس الطبع البشري اه

هذه هي المقالات التي تذكرتها في حضرة تلك الروح الشريفة الجليلة ، فلما سمعت هذه المقالات من كلام أفلاطون وسقراط وأرسطاطاليس . قالت نعم هذه من أجل مزارعي في الأرض فيما بلغكم من العلم منذ ٢٥٠٠ سنة الى الآن . وكل هذه هي التي توضح هذه الآية وقد تطابقت كلها على «أمرين : الأول» الوازع لداخلي والقانون الوجداني وهو . . . فتبسمت بوقار . فقلت (البصيرة) قالت نعم . بل الانسان على نفسه بصيرة * ولوأني معاذيره - «والثاني» إن هناك قوة عليا تساعد من أطاع هذا القانون وسار عليه . وللناس في أمرك أنت مدكر وموعظة حسنة . ألسنت تحسن في نفسك بما يشد عزيمتك في أوقات الشدائد . قلت بلى والله . قالت : ألسنت في أثناء هذا التفسير تحسن في نفسك بسعادة وهناك لم ترلها نظيرا مدة الحياة . قلت بلى . قالت

(١) أفلاطون - القوانين ك ١٠ ص ٢٥٣ و ٢٦٧ وك ٧ ص ٣٩ وك ٤ ص ٢٣٣ و ٢٣٥

(٢) أفلاطون - القوانين ك ٤ ص ٢٣٤ وك ١٠ ص ٢٥٣ وك ٥ ص ٢٦٦

أليست المعاني والمساعدات العلمية لا تفتأ تترادف عليك وكلما ازدادت في التأليف إغلازا ازدادت مددا وعلمها وانتمراح صدر وسرورا . قلت بلى . قلت فهذا هو الذي يقوله كونه شيوش وسقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس ويقول به بعدهم الرواقيون الذين جاءوا بعد أرسطاطاليس وأغرموا بعلم الأخلاق وقلوا إن سعادة الانسان في الأخلاق وجعلها ولهم مذهب خاص بها نقل أهمه علماء الاسلام من الفلاسفة والصوفية ، وقد ملأ الغزالي من علمائكم كتاب الإحياء بعلم الأخلاق وهو معروف مشهور ، هاهي ذه بعض مزارعي التي زرعتها في القلوب فاذا رجعت الى عالم المادة فاستوعب ذلك كله وأدخله في تفسير الآية حتى يعلم المسلمون أن كلام الحكماء تفصيل وتفسير لآيات القرآن وأن آية - بل الانسان على نفسه بصيرة - وآية - إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا - الى آخره تفسران بعلم الفلاسفة . اليوم يشهد المسلمون أن دينهم ألقيت علومه على عقول الحكماء قبل نزول القرآن ، فهذه من اعجازه العجيب . إذن أنا أظهر في كل قلب بحسب درجته وتكون الجبل والانشاء على مقتضى اختلاف العقول والأمم . فانظر الى الشيخ الشعرائي رحمه الله الذي جاء في القرون المتأخرة . فهذا قد ظهرت آثاره على قلبه بهيئة أخرى ، أنا واحدة ومظاهري كثيرة كالشمس تختلف أضواؤها فينبو بها كل نبات والاختلاف يكون على حسب القوايل قوة وضعفا ، وإذا كان في العوالم المادية نظام جيل :

(١) كقوانين الجذر والتربيع في امتداد النور والحرارة والكهرباء والجاذبية وفي قوانين الحجر الساقط في بُر (هذا في سورة الرعد عند آية - وكل شيء عنده بمقدار -)

(٢) وكقوانين الذكور والاناث في تلقيح الزرع والشجر ، وفي نظام أوراق الأشجار من حيث هندستها وحسابها (هذا في سورة الحجر في آية - وأرسلنا الرياح لواقح - وآية - وأنبتنا فيها من كل شيء موزون -)

(٣) وكنظام ممالك النحل والنمل والأرض وغيرها (في سورة النحل والنمل وسبا)

(٤) وكجمال الأزهار والثمار ووجوه الانسان

وإذا كان ذلك كله جيلا وبديها بحساب عجيب كحساب العناصر من حيث وزنها وترتيبها في جداول منتظمات (هذا في سورة العنكبوت) أفلا يكون عالمنا الروحي الذي هو أصل تلك العوالم وهو سيدها أجل وأبهى وأبدع نظاما وحسابا من عوالم المادة . إذن فلتعلم أن لنفوسكم نظاما لا تدركون كنهه ولا تفتأ فصلحه أمد الدهر ، فتارة تظهر في عقول الفلاسفة ، وآونة في عقول رجال الدين ، ووقتا تظهر بهيئة صوفية ، والمبدأ واحد والمظاهر مختلفات ، فهل تذكر شيئا من آراء الشيخ الشعرائي رحمه الله ؟ فقلت نعم . قال في المنن الكبرى مانصه :

«وما من الله تبارك وتعالى به على عدم تكديري على شيء فأتني من الدنيا وتكديري ممن صدها عني وذلك لعلمي ويقيني بأن كل شيء فأتني فليس هو برزقي ولا قسم لي فكيف أحزن على شيء لم يقسمه الحق تبارك وتعالى لي أو أنكدر ممن صد ذلك عني بالوهم وهذا خلق غريب في هذا الزمان وغالب الناس يحزن ويتكدر ممن سعى في قطع رزقه أو خروج وظيفته عنه وربما عادي من عارضه في رزقه الذي كان يتوهم انه له أبدا ما عاش (وقد رأيت) خطيبا كان يخطب في الجامع الأزهر . فلما دخل السلطان سليم مصر وصلى في الجامع الأزهر قال الناس لا يخطب اليوم الا فلان لفصاحته ومعرفته بالوعظ المناسب للسلطان ومنعوا صاحب النوبة تلك الجمعة لجزءه عن مثل ذلك . فلما خطب رسم له السلطان بخمسين دينارا فقال هذه لي ولم يعط صاحب النوبة منها شيئا فغشيت في الصلح بينهما فلم أقدر ولم تزل العداوة بينهما الى أن ماتا على العداوة فقلت لصاحب النوبة أين قولك في الخطبة والله ثم والله ثم والله ما يعطى ويمنع ويضع ويرفع الا الله تعالى فنادى ما يقول وبالجملة فلا يقع في مثل ذلك الا جاهل محجوب عن الله تعالى فان كان ولا بد للمؤمن من أن يحزن فليحزن على ساعة مرت به لم يذكر الله تعالى فيها فان ذلك محمود ولولم يمكن تداركه لمافي من التعظيم لجنت الله تعالى والحزن على فوات

مجالسته تعالى والوقوف بين يديه جل وعلا كما هو شأن كل محب مع محبوبه ومن لم يحزن على فوات مجالسة محبوبه فليس له في مقام المحبة نصيب (واعلم يا أخى) أن الحزن على ما فات من الطاعات إنما هو محمود للعبد مادام محجوباً بابتكار خلاف ما يختاره له ربه جل وعلا فإذا رفع عنه الحجاب لم يجد شيئاً قسم له ثم فاته أبداً لأن ذلك لا يصح عقلاً ولا شريعاً (وكان) السبيل رضى الله تعالى عنه يقول وهو في بداية أمره اللهم ان عذبتنى بشئ فلا تعذبني بذل الحجاب فلما كمل حاله صار يقول الحمد لله الذى حجبتني في الوقت الغلاتي عن شهوده فانه تعالى ما حجبتني عنه إلا رحمة بي خوفاً أن لا أقوم بأدب الشهود وتارة يقول انى لأشتهي رؤية الله عز وجل أبداً ف قيل له في ذلك فقال ازه ذلك الجل البديع عن رؤية محدث مثلى انتهى ولكل مقام رجال فافهم يا أخى ذلك والله سبحانه وتعالى يتولى هداك والحمد لله رب العالمين » اهـ

وقال أيضاً في صحيفة ١٨٨ من الكتاب المذكور مانصه : « ومما من الله تبارك وتعالى به على عدم قطع برى وحسنتي للناس اذا كفر وواسطتي في ذلك فاني عبد ليس لي فضل على أحد وإنما أنا مستعمل فيما أمرني الحق تبارك وتعالى به وليس لي معه ملك أرى به فضلاً على أحد من عباده مطلقاً وبتقدير رؤيتي الفضل على العباد فكما كفر وواسطتي توفرت لي الأجر بخلاف ما إذا مدحوني فربما كُن ذلك المدح يرجع على ذلك العطاء فلا يبقى لي حسنة وقد كان سيدي على الخواص رضى الله تعالى عنه يقول أعظم الناس أجراً من يحسن الى من لا يشكره أو الى من يؤذيه من الأعداء انتهى . وسمعته أيضاً رضى الله تعالى عنه يقول من أراد النصر على أعدائه فليحسن اليهم وليتأمل في نفسه الذي يعاقب ولده وتلميذه مثلاً بقطع الاحسان اليه يحد الحق تبارك وتعالى رزقه ليلاً ونهاراً مع كونه مخالفاً له فينبغي للعبد أن يعامل عبيد سيده بالحلم والعفو والصفح وعدم المعالجة بالعقوبة كما يعامله سيده . ثم لا ينبغي أن الاثم الواقع لمن يعاقب ولده مثلاً بقطع رزقه إنما هو من حيث قصده هو والا فالعبد لا يقدر أن يرد ما قسمه الله تبارك وتعالى لغيره أبداً انتهى فافهم يا أخى ذلك واعمل على التخلق به ترشد والله تعالى يتولى هداك والحمد لله رب العالمين » اهـ

وقال أيضاً في صحيفة ١٨٩ من الكتاب المذكور مانصه : « ومما من الله تبارك وتعالى على حضور قلبي مع الله تبارك وتعالى حال أكلى وشربى وشهودى ان ذلك من فضل الله تعالى على لا أستحق ذرة منه بل لا أقوم بواجب حقه تبارك وتعالى على لو سفت الرماد ثم اذا وقع لي أنى أكلت غافلاً عن ذلك المشهد أو شربت استغفرت الله تبارك وتعالى حتى يغلب على ظنى أن الله تبارك وتعالى قبل استغفاري فضلاً منه وإنما لم أقل استغفر الله مرة فقط لأن مثلنا ربما لا يقع له حضور في استغفاره إلا بعد سبعين مرة رأ أكثر وسمعت سيدي عليا الخواص رضى الله تعالى عنه يقول ما أسبغ الله علينا النعم إلا الصلوة ليذكر بنا وإنما أسبغها علينا ليجمع فلو بنا عليه ولا يخرج من حضرته تبارك وتعالى إلا بعد شربى وكأن الحق تبارك وتعالى يقول من كنت كافيه عن الحرف والصنائع التي تحجبه عني بما سخرته له من الرزق على يد عبادي من حيث لا يحتسب ولا تشرف نفسه اليه فلا شيء يخرج من حضرتي (وسمعت) رضى الله تعالى عنه أيضاً يقول تيسير استعمال الطعام نعمة كالصلاة فكما أن الصلاة ما شرعت إلا لحضور العبد فيها بقلبه مع ربه تبارك وتعالى فكذلك الحكم في مشروعية الأكل والشرب ما شرعا إلا ليحضر العبد فيهما مع من أحسن بهما اليه انتهى »

واعلم يا أخى انه ما واطب أحد على الحضور مع الله تبارك وتعالى حال أكله وشربه إلا أورثه الله تبارك وتعالى القناعة والزهد في الدنيا وكفاه شر نفسه انتهى من كتاب لطائف المنن الكبرى

فلما سمعت ذلك . قلت : أى فرق بين هذا القول وما قبله إلا في العبارة على مقتضى الأحوال واختلاف الأمم ، فكل ذلك الاذعان لله والحب للناس . ثم قلت : بقى أن تذكر ما تعلمه من كلام علماء أوروبا في هذا المقام . فقلت : قال الأستاذ (بارتلمي ساتهليز) المذكور في كتاب « علم الأخلاق » مانصه :

و حينما يريد الانسان أن يختبر نفسه ويدخل في أعماقها ، فهناك المشهد الكبير الوحيد الذي يكشفه فيها عند السكره في بعض الأفعال التي فعلها ، بل التي ينوي فعلها ، يسمع في أعماق عقله صوتا يمدحه تارة ويلومه تارة أخرى ، ويقطع النظر عن أمثاله الذين يمكن أن يجد لديهم أحيانا صدى هذا الصوت الداخلي فان من المستحيل عليه أن لايلقى اليه سمعه . ونظرا الى أنه يحمل في نفسه هذا الصوت فلا يستطيع أن ينكره ولا أن يلزمه الصمت متى أثمر بأمره يشعر بأنه عمل صالحا . ومتى عقه يشعر بأنه عمل سيئا . وانما في هذا التردد بين الطاعة وبين العصيان تنحصر كل حياته الأخلاقية فاضلة في حال وردة في الحال الأخرى ، ولأن يسلم المرء نفسه و بلا رجعي الى خدمة هذه الأوامر الداخلية ويخلص لتنفيذها في جميع امتداداتها من غير أدنى اعتبار للأشياء الخارجية وأن يكون دائما مستعدا لأن يضحي لها بكل الضحايا التي تقتضيها ، ذلك هو القانون الأعلى الذي يشعر الانسان بالخضوع له ولأنه لايعرف إلا نادرا أن ينفذ مع التخرج أحكامه الصارمة . ذلك هو المثل الأعلى الذي لاينال والذي تتطلع اليه أنظار نفس الانسان وان كان يحيد عنه في الغالب إلا أن مرجعه اليه على الدوام . ذلك هو الأمر الواقع المسلم به الذي هو بسيط وجليل معا والذي يكون الأخلاقية كلها . هل الانسان وحده هو الذي يعرف هذا القانون و يملكه ؟ كل مايبهم من هذا هو أن الانسان يملكه حقا وذلك هو ما يميزه عن سائر الخليقة التي يعيش فيها والتي لا تمتع بهذه الميزة

إلى هذا الأمر يضاف أمر آخر ليس أقل منه وضوحا ولا أقل منه عجباً . إن الانسان حيال هذا القانون الذي يناجي ضميره مناجاة علو وقدره في بعض الأحيان يشعر دائما أنه يستطيع مقاومته ، فعننا يوصيه هذا القانون أن يلزم العدل في فعله وعننا يركي العقل هذه الوصية . فالانسان قادر على أن يرفض تحت مسؤوليته هذه النصائح القوية الحقة . ذلك لأن له بجانب ذكائه وعقله ملكة أخرى أقوى منهما بوجه ما لأنها تستطيع دائما (متى شئت) أن تكسر نير طاعتها للعقل . تلك هي الإرادة التي لا تخضع لشيء إلا لنفسها . فوجود مثل هذه الملكة فينا وحاولها محلا من الاستقلال والسيادة في الدائرة الثانوية التي تخصها هو ما تستطيع اللاأدرية التحدى بها حينما تنهجم على الحق وعلى النوق العام ، غير أن ما نقوله هذا يجمع عليه من الجنس البشري بل معترف به من جانب اللاأدرية نفسها إن لم يكن بأقوالها التي كان للسفسطة فيها شأن عظيم ، فبأفعالها التي منها ينبجس على رغمها وضوح المبدأ الذي تنكره الإرادة في الانسان هي هذه القدرة التي يستعملها للتصميم على وجه أو على آخر من غير أن يقدري شيء في الدنيا على ما كراهها مادامت لا تقبل هي نفسها ذلك الاكراه ، وبين أن هذه القدرة هي كل الانسان وهي التي تقوم ماهيتها ، إن هذا الصوت الذي يناجي ضميرنا هو فينا ولكنه ليس إيانا مادام انه قانون يلزمنا ، نحن لم نضعه مادما غير قادرين على تغييره على رغم وحى المنافع وعماليات الشهوات ، أما الإرادة فعلى ضد ذلك هي نحن نحن وهي شخصنا ، هي نحن وحدنا بعظمتنا وضعفنا وبقدرتنا المزدوجة على الطاعة والعصيان

ذلك هو ما يسمى بالحرية ، تلك الهبة المحزنة الخيفة التي هي قوة الانسان والتي يترتب على قدر ما يحسن أو يسيء في استعمالها سعادته أو شقاؤه علوه أو سقوطه ذلك هو ما يسمى بلغة (كنت) «حياد الإرادة» ، لا من جهة أن إرادة الانسان كما قد يعتقد (كنت) تضع لنفسها قوانينها بل من جهة أن الإرادة يمكنها دائما أن تطيع أو تعصى القوانين التي يملها عليها العقل والضمير ، فعنى حياد الإرادة هو أنها تستطيع أن تقرر مايجبها حتى ضد كل عقل وكل منفعة

يتضح بهذا أن القانون الذي هو في ضمير الانسان يناجي عقله هو المبدأ الأسمى وفوق الانساني . والإرادة الحرة التي تنفذ هذا القانون أو تخالفه هذه هي المبدأ الانساني والتابع وهما اثناهما مصدر علم الأخلاق ومفتاحه . فالانسان يحمل في نفسه قانونا ومحكمة بوجه ما تحكم براءته أو بآداته بحسب الأحوال ، ولها من

العوة التنفيذية إما الرضا الجليل بأنه عمل خيرا وإما انندم ووخز الضمير على كونه عمل شرا . والانسان يحس نفسه رعية لقوة هي أعلى منه منعمة لطيفة إذا أطاعها منتقمة جبارة اذا عصاها . ومتى اقتضى العدل عجلت له العقاب الخارجى بما تسومه من سوء العذاب الداخلى الذى يعرف الأليم سره الأليم حتى لو تخلص من انتقام الهيئة الاجتماعية

هذان الأمران : القانون الأخلاقى والحرية ، هما فوق كل مناقشة ممكنة ومن ينكرهما ينزل بذلك عن اسم الانسان وينحط بنفسه (علم أوجهل) إلى ماتحت منزلة البهيمة وان كان أذكى منها بلاشك إلا أنه فاسد الأخلاق والبهيمة ليست كذلك

ليست النتائج ههنا بأقل وضوحا من المبادئ ولا بأقل عجباً فان الانسان متى قبل بارادته نير القانون فذلك يرفعه ويشرفه . وبعد أن يكون سببا في خفضه . إنه بطاعته الاختيارية يشرك بمحض إرادته شيئا أكبر منه . ويحس أنه مرتبط بنظام أعلى منه يشد أزره . وقلمما يخسر بهذه الطاعة شيئا بل يكسب بهما من العظمة والوقار ما لم يكن له من قبل بدونها . إن العالم الأخلاقى الذى يدخل فيه على يدته من تحديد حريته هو العالم الحقيقى الذى يجب أن تعيش فيه روحه في حين أن جسمه يعيش في عالم مخالف تماما حيث توشك الحرية أن لا يكون لها عمل . إمعنا هوفلك من الطهر والسلام حيث لأرجاس ولازعازع إلا ما يسمح لها الانسان بالدخول فيه . فالسكينة والنور فيه لاتتعلق إلا بالانسان وحده ، ومتى شاء استطاع أن يبسط في هذه السماء الداخلية صحوا لا يكدر . ويمقدار ما يغل غلة في الطاعة يكتسب من القوة وتصير الأرض التى يرتكز عليها كذلك أكثر ثباتا وخسبا . إن اعتقادات الضمير تزداد ثباتا بالمران وإن بهذه المعاوضة بين الطاعة الاختيارية من جهة والقوة المكتسبة من جهة أخرى تكبر قيمة الانسان في عينه الى حد لم يكن يعرفه من قبل كبرا لا ياباه عليه تواضعه لأنه ينسب أصله الى قوة أسمى منه . من ذلك يستمد ذلك الاحساس الشريف العجيب الذى يسمى احترام الذات وهو الكفيل للره بأن يؤدى له أمثاله الاحترام الواجب عليهم والذى يؤدبه هو لهم في دوره ، ولو عودل بين هذه الخيرات الداخلية التى هي فوق كل ثمن هذه الفيوض القدسية (كما كان يقول أفلاطون) وبين الخيرات الخارجية لقلت قيمة هذه بالنسبة لتلك ، ومع ذلك فان هذه الخيرات الداخلية يضعى بها من غير تردد بل من غير ألم في سبيل خيرات لا قيمة لها ، على أن الثروة والصحة والحبة والحياة نفسها لا بقاء لها ، فليضح بها عند الحاجة قربانا للاحتفاظ بما هو أسمى منها إذ لا استطاع إشارها على الأمر الوحيد الذى يجعل لها شيئا من القيمة .

وقال في صحيفة ١٧ وما بعدها مانصه : « لا يمكن القوانين الانسانية أن تكون أساسا لقانون الأخلاق لأنها تستمد منه ، وهو الذى يقضى عليها ويدينها حينما تنحرف عن جادة أوامره الواجبة الاتباع ، كذلك التربية التى يتحدى بها بعض الفلاسفة لانفسر قانون الأخلاق الذى هو أكبر سلطانا عليها من القوانين العمومية ، والواقع أن التربية مهما كانت ممتازة فليس لها من صورة إلا التشريع المسنون للطفل بدلا من أن يكون مسنونا للناس ، وهذا التشريع الضيق ليس له قواعد إلا التشريع المدنية ، فن أى ناحية نظر الى علم الأخلاق لم يوجد له من حيث أصله أثر بشري ، وانه ليدبرشئون الانسان ويلى أمره بسبب أنه ليس من عمله ، ومتى أراد الانسان أن يدرس فيه سبل الله عرف منه بوضوح وجلاء أن الله قدير وأن الله لطيف . »

« فى العالم المادى بأسره مهما كان جيلا ومهما كان منتظما لا يجد المشاهد اليقظ شيئا يؤتينا أقل فكرة من قانون الأخلاق ، وان الآثار التى نصادفها أحيانا عند الحيوانات الأرقى تركيبا ونظما آثارا لقانون الأخلاق ليست إلا تخيلات فانتا نغيرها مانحن عليه ، نفترض أن لها طبعنا إما لجهل منا قد يكون إنما متى كان يرمى إلى الخفض من مستوانا الانسانى ، واما لنوع من العطف التافه ، ولكن الحق أن قانون الأخلاق ليس له محل

إلا قلب الانسان ، وأن الذى خلق العوالم والقوانين الأزلية التى تسيروا لم يخلق شيئا يضارع ضميرنا فى العظم فان الحرية مع ما بها من ضعف هى أحسن من الطبيعة كلها مع ما بها من ثبات لا يتزعزع ، بل إن المقارنة لا محل لها من الامكان لدى عقل قد فهم ذاته ، لأنها مقارنة سخيفة ، إذ أن رفعة العالم المعنوى لا تقاس بها رفعة على الإطلاق وأن قدرة الله تظهر حينئذ فينا بمظهر أجلى من مظاهرها فى الخارج ، وإن فى إقامة الدليل على وجود الله بهذا القانون الذى نحمله فى قلوبنا وتعرف به عقولنا لبوفا بالاستدلال الى أجل البراهين وأرفعها ، غير أن حلم الله يسارى على الأقل قدرته ، تنظر فى هذه القوانين غير الكاملة التى يسنها الناس مسوقين بدافع الحاجة لاستعمالها ، فترى دائما فى أوامرها وزواجرها شيئا من الغلظة والوحشية ، حتى متى كانت غاية فى العدل فان العقوبة التى تقع على المجرم يمكن أن تعدمه ولكنها لا تمس نفسه تخيفه من غير أن تصلحه ، الارهاب يحوله دون أن يحسن حاله ، أما هنا فلا شيء من ذلك ، فى شرع الله المرء هو قاضى نفسه مؤقنا على الأقل ، ومن أجل أنه يمكن أن يحكم على نفسه يمكنه أيضا أن يتق الوقوع فى الخطيئة التى يشعر بأها كبيرة من الكبرياء ، فان الصوت الذى يناديه من داخل نفسه قد أنذره بآدى الأمر إنه يمحض له النصيح قبل أن يقرعه باللوم وإنما هو يعاقبه حينما يصم أذنيه ، ولأن قانون الأخلاق سلك فى التأديب سبلا غير معنوية محضة لكان فى ذلك من التناقض ما فيه ، فكم فى هذا التأديب من مجاملة تراعى فى حق الجانى ! وكم من مجهود ينفق فى سبيل رده الى الخير ولا يشعر بهذا المجهود أحد إلا هو ولا يذاع خبره فى الخارج ! تحفظ ورصانة أيعا رصانه ، ولا شك فى أن الانسان يجاوز غير مرة حدود الاعتدال بهذه الرحمة ، غير أن الشكوى منها إنما هى الجمع بين كفران النعمة وسوء الخلق . حسب الانسان استهانة برحمة الله أنه لا ينتفع بها فان كل قلب بهما قسا يجب بها ويشكر الشارع الأسمى على لطفه فى جانب عظيم قدرته .

« إليك نتيجة أخرى لهذا النظام القدسى ليست أقل من الأولى صدقا ولا أخف منها وزنا . وهى أن الانسان متى أحسن من نفسه الاختيار فى طاعة قانون العقل أوفى عصيانه أحسن بذلك أنه مسئول عن أعماله أمام القدير الصانع لهذا القانون ولهذا الاختيار ، فليس عليه البتة أن يخافه الخوف الذى لا يلبق إلا بالعبد ، لأن طبيعة طاعته قد تجعله يعامل أبا رحما لاسيدا ، لكنه يجب أن يتق غضبه عليه بتعدى حدود القانون الذى يعترف هو نفسه به أنه غاية فى العدل ، ولئن كان الانسان يغضب فى قلبه من الخطيئة التى وقع فيها ، فمن باب أولى يجب أن يعتقد أن الشارع يغضب على من يرتكب الخطيئة وهو فى مكانة من اجتنابها ، وإن الانسان الذى له بقانون الأخلاق فى هذه الدنيا حظ ممتاز يجب عليه أن يؤدى الحساب عما يكون قد أنفق فيه هذا الحظ ، ليس عليه حساب لأمثاله ، لأن غاية ما يعرفون هى أعماله التى يعاقبونه عليها أحيانا ولأهم رعية مثله فهاهم وهو إلا على حد سواء ، لا يستطيعون أن يكونوا قضاة الحقيقين ، لأنه يعزب عن علمهم ما تحيى به الصدور من نيات جميع الأفعال ومقاصدها ، على أن النيات والمقاصد وعلى جلة من القول كل ما يخفى بحكم الضرورة على العدل الانسانى هو مورد الحكم ، فاما أن ننكر قانون الأخلاق وحرية الانسان ومسؤوليته ، واما أن نقبل كنتيجة لازمة حياة أخرى تتلو هذه الحياة الدنيا فيها يقيم الله الوزن بالقسط ويرتب الجزاء الذى أعدّه للذين عملوا الصالحات وللذين كسبوا السيئات ثوابا وعقابا فترد وحده بعلمهما . غير أن علم الأخلاق لا يتعدى حدوده اذا هو قرر أن هذا العدل النهائى لاحالة واجب وأن حياة الانسان الدنيا لا يمكن أن تفهم بدون الحياة الأخرى التى يجب أن تتلوها »

الى أن قال : « فعمل الأخلاق بمجاوزته هذه الحياة الأرضية يتجه من الانسان الى الله ، ويثبت وجود الحياة الآخرة بما فيها من الثواب والعقاب كما يؤكّد نظام هذه الحياة الدنيا . ليست هذه فروضا محضة لاسند لها ، ولا هى من مسلمات العقل العملى كما قد يقول الاستاذ (كنت) بل هى نتائج صادقة

لازمة عن مقدمات صادقة لاجتدال فيها . وفوق ذلك فإن هذه النظريات في غاية الوفاق مع الاعتقادات الغريزية للجنس البشرى تؤيدها الديانات الميينة وتوضحها الفلسفة ،

وقال في صحيفة ٢٢ من المقدمة مانصه : « فحمل الجسم على الاعتدال ورياضته الى حد ما وإيتاموه حقه من حاجاته وحبسه عن كل ما يتعداها ، وعلى جملة من القول جعل الجسم آلة ممثلة وخادما مطيعا ، تلك هي إحدى القواعد الأصلية للحياة الأخلاقية وبالنتيجة أحد الأجزاء الكبرى للعلم . إن اجتماع الروح والجسم أعنى العقل والمادة هو مسألة خفية ليس لعم الأخلاق أن يثير ناثرها لاختصاصها بعلم ما وراء الطبيعة . غير أن من واجبه أن يبحث عن ظروف هذا الاجتماع ويفسرها على نور القانون ، إنما هو عمل يدرسه كأعمال الضمير وليس بأقل أهمية منها فإغفاله نقص عظيم وحذفه من علم الأخلاق قد يعرض الى عدم فهم الحياة الأخلاقية حق فهمها مع أن هذه الحياة الأخلاقية ليست في الحقيقة إلا ضربا من المبارزة بين هذين الأصلين المتقابلين » وقال في صحيفة (٢٤) ومابعداها من المقدمة أيضا مانصه : « إن النقطة الأساسية لهذا العلم هي أنه يبين للإنسان أن قانونه هو عمل الخير دائما مهما وقف في طريقه من العقبات التي يسببها تعقد الأشياء الانسانية ، وأن عمل الخير إنما هو طاعة لا محدودة ولا مقرونة بالتدمير مع استسلام ، بل مع ثبات وبسالة اذا اقتضى الحال ذلك طاعة لأوامر العقل المنشورة في الضمير والتي قبلتها إرادة لها من سلاسة القيادة ما لها من حدة الذكاء ، الأوامر التي يمكن أن تمثل أمام الشخص بأنها أوامرها . ذلك هو مركز الحياة كما هو مركز العلم ولكنه مع ذلك أيضا ميدان التقاتل في النظريات وفي العمليات . فإن الفرد يأتي الشر على العموم إما عن عدم التفات وإما عن جهل ولا يكاد يقارف الاثم أبدا بعد تدبر وروية عالما بأنه يرتكبه ، وإن كان من الطبائع ما هو من الشقاوة بحيث إن أجل مواهبها لا تخدم إلا الرذيلة . غير أنه في العلم لا عذر بالجهل ولا بعدم الالتفات . وإذا كان التسامح في مجريات الحياة يلزم كثيرا حتى بالنسبة للجنة فإنه لا يلزم أبدا بالنسبة للنظريات الفاسدة بل يجب دحضها بلاشفقة وإيضاح خطئها ليقل خطرها تجب مداعبتها أمام محكمة الضمير النزيهة وادانتها نهائيا بلا استثناء ، وليس بجانب نظرية الخير الذي هو الواجب الوحيد على الإنسان إلا حل آخر يمكن وهو نظرية المنفعة مع ما يقرن بها من التيه والحنيا التي تنشعب فيها شخصيتها وتضل طريقها فإن المنفعة تظهر على صور عديدة ، تظهر أولا على صورة من الخشونة بمكان ، وتلك الصورة هي الثروة مع كل الخيرات الثانوية التي تؤلفها ثم على صورة مصقولة نوعا وهي صورة اللذة مع جواذبها التي لا تقاوم ثم على صورة أقل تعينا وأكثر قبولاً تبدو في رواء حسن خداع وهي السعادة . إنه يجب على القانون الأخلاقي وبالنتيجة أيضا على علم الأخلاق أن ينكر المنفعة ويحاربها على أي شكل كانت عليه من الثروة أو من اللذة أو من السعادة نفسها وأن لا يقبل أي واحد من هذه العوامل على أنه عامل لسلوك الإنسان ، لاشك في أن هذه العوامل هي المتسلطة فعلا في الغالب بل قد يكون من الحسن أن تسلط الى حد معين ، ولكن ليس لواحد منها أن يدعى السلطة ولأن يغتصب لنفسه السيادة دون مبدأ الخير صاحب السيادة وحده . إن قانون الأخلاق الذي تتمثله القلوب الجاهلة أو الضعيفة بألوان قاسية ، هكذا لكي تسهل مخالفته لا يحرم الإنسان من الثروة التي هي ثمرة عادية يستحقها لعمله ولأمن اللذة وهي حاجة طبيعية له ، ولأمن السعادة التي هي رائد جميع مجهوداته ، ولكنه يهديه الى أنه يجب عليه في بعض الحالات على ندرتها أن يضحي للخير بالثروة وباللذات وبالسعادة بل بالحياة ذاتها ، وأنه اذا لم يعرف أن يقرب هذا القربان قائما هو يعبد الأصنام ولا يعبد الله الحق ، وأن هذه التضحيات على ندرتها عند الذي يفهمها تكفي لكشف القناع عن قانون الأخلاق في أسنى بهائه . وبما أن الخير هو الذي ينال الظفر عند أكبر المنازعات وأشدها علانية يكون بذلك هو السيد الحقيقي للإنسان . ولا تكون جميع العوامل الأخرى المتولدة عن المنفعة على درجات مختلفة كالثروة واللذة والسعادة إلا كما يكون الطاغية الظالم لرعيته ، انتهى

ما أردته من مقدمة المترجم لكتاب ﴿ علم الأخلاق ﴾ وهو الاستاذ بارتلمى ساتهليز والحمد لله رب العالمين فلما ألفت عليها ذلك . قالت : فهذه أنوارنا ألفت إليكم وأنا أهنئكم بها إذ تطمع المسلمين على خلاصات علم الأخلاق فشرح صدوركم وبها تعلمون أن حكماء أُمم الشرق والغرب يجمعون على غوى هذه الآيات القرآنية . فعلماء اليونان والفرنسيين وحكماء الصين جميعاً أيقنوا بأن لهم داعياً في نفوسهم يحاسبهم إذا قصرُوا ويبشروهم إذا أطاعوا وبهذا يعرف الناس عظمة القرآن ، وهذا الزمان مبدأ ظهوره لحكماء الأمم شرقاً وغرباً ، فهذه هي آثارى ، أنا البصيرة والقرآن بصائر للناس . فهذه المقالات التى قرأتها على من هؤلاء الحكماء هي آرائى وهذا الجلال الذى شاهدته فى وراء ما هو أجل منه ، وهناك مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وإن يرى الله إلا نفوس حازت صفتين : علما كاملاً بهذا الوجود . وإخلاصاً وخدمة لنوع الإنسان مع أخلاق كاملة . الجلال يحيط بالناس فى المادّة وفى النفوس . وما أسعد من اعتاد النظافة والاتساق والنظام ودرس فنون الجلال فى الكواكب والبحار والأنهار والزروع والأشجار . فهذه المناظر كلما ازدادت عنده تمكنا ازدادت نفسه شغفا بالجلال الحقيقى . وهناك يشاق للذات الروحية وهى أبهى وأبهى وأجل وأكمل . وهذه الطائفة أقرب الناس الى طبيعتى فاذا أسديت لهم النصائح استمعوا لها بلاتوان . لقد شاهدت فى قلبك أنت ﴿ ثلاث صفحات مكتوبات ﴾ صحيفة الكواكب فى سماها . وصحيفة الزروع والأنهار والأشجار والعوالم الأرضية . وصحيفة آراء العلماء والحكماء قديماً وحديثاً ، فقرأ على من صحيفة الحكماء ما منه يكون القبس ثم تبسمت ، وهذه الانسامة إشارة الى قوله تعالى - وهل أتاك حديث موسى إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً على آتكم منها بقبس أو أجد على النار هدى - (وقد كنت فى الليلة السابقة أرددها فى الصلاة ولها صلة بآراء الفلاسفة سأوضحها) . فاسمعى من اللوحة الثالثة من قلبك آراء حكماء بعد من ذكروا الآن ومتى أتبعته بالقبس يتضح المقام أتمّ إيضاح . فقلت :

آراء الحكماء بعد أرسطاطاليس

﴿ أولاً ﴾ آراء أتباعه مثل (فاو فرسطس) المتوفى سنة ٢٧٨ واستراقون المولود سنة ٢٨٨ المجهولة وفاته وغيرهم ممن كانوا خلف أرسطو فى رئاسة دار التعليم بأثينا ، فهؤلاء عدلوا عن الإلهيات ، ذلك لأن أرسطو اعترض على أفلاطون أستاذه وقال له : « إن المثل التى استدلت عليها بأدلتك العقلية وقلت انها معان معقولة تكون أصلاً لكل موجود فى الخارج غير واضحة ولا ظاهرة هى خفية ، وخبرنا أن نبدلها بما هو خير منها من المادّة والصورة وانهما أصل العلم لأن الصورة فى المادّة أقرب الى الفهم من تلك المثل والمعانى التى لانعرفها »

فرّد هؤلاء العلماء التابعون لأرسطاطاليس قوله وقالوا : « إن الصورة متغيرة لا ثبات لها فى المادّة ، فكيف نسند العلم الى ما هو متغير ! » وأدلة كثيرة من هذا القبيل أوجبت رجوعهم عن الإلهيات

﴿ ثانياً ﴾ هنالك ظهرت فرقتان : فرقة (أبيقورس) وهؤلاء قالوا باللذة أى ان الإنسان يقرأ الفلسفة لأجل اللذة المستفادة من فهمها ، وهو مولود سنة ٣٤١ ق.م ومات سنة ٢٧٠ ق.م . وفرقة الرواقين ورئيسهم زينون توفى سنة ٢٦٤ ق.م وكريزيوس المتوفى سنة ٢٠٩ ق.م ومذهبهم انه ليس هناك إلا جوهر واحد هو المادّة والله يلقى عليها شعاع نوره ، والإلهيات والطبيعات عندهم علم واحد . فهناك عقل يضبط المادّة أنظف جداً له قوة تحرك العالم . فالعالم كحيوان وهو كروحه . والإنسان عالم صغير فى مقابل العالم الكبير . والإنسان له من ذلك النور الإلهى أكثر من غيره . والأخلاق عندهم عليها مدار الفلسفة . وإذا كان نور الله مشرقاً على الإنسان أكثر من غيره وجب عليه أن يتلقى ذلك بالترحاب . وهل يكون ذلك إلا

بالأخلاق الشريفة . وما الفلسفة إلا بستان المنطق سياحه وعلوم الطبيعة أشجاره ومحاسن الأخلاق ثمرته . فلا علم إلا بعمل ولا حكم إلا من بلغ من العلم والعمل الدرجة العليا . ولا قصد للحياة إلا التخلق بأخلاق الله ولكنهم جعلوا الإنسان مجبوراً لا مختاراً فصار مذهبهم فيه بعض الانقباض . وأيضاً رجعوا إلى غيبوبة النفوس وأهملوا الأعمال الظاهرة نوعاً ما وأخذوا يبحثون في معرفة ما وراء الحس والكشف . وتبعهم في ذلك بعض الأمم الإسلامية وهم كثير من فرق المتصوفة . ولم يحدث بعد هاتين الطائفتين ارتقاء في العلم هناك

(٣) ثم جاء في أواخر القرن الثاني للمسيح أمثال (نيقوماخس الجهرسيني) الذي عاش إلى سنة ١٤٠ بعد المسيح القائل بأن الأعداد هي أصول الموجودات وهو صاحب كتاب الارتمطيق ومن فلاسفة هذا العصر جالينوس الطبيب . ولقد ظهر بالاسكندرية إذ ذاك (امونيوس سكاس) ومعنى سكاس (الجمال) لأنه كان في أول نشأته يحترف بتلك الحرفة وكان نصراني الأصل ثم انتقل إلى ملة اليونان العتيقة وهي الوثنية وتعاطى الفلسفة واشتهر فيها . وقد ولد سنة ١٧٥ بعد الميلاد وتوفي سنة ٢٤٢ وجاء بعده تلميذه أفلوطين المتوفى سنة ٢٦٩ م . وبعد أفلوطين تلميذه بروفيوريوس ولد بصور الشام سنة ٢٣٢ م . وتوفي سنة ٣٠٤ م . وهؤلاء ومن تبعهم يسمون الفرع الاسكندري . وبعدهم يبيسخوس ومن تبعه ويسمى الفرع الشامي إشارة إلى مولد يبيسخوس إذ كان باحدى بلاد الشام وتوفي سنة ٣٣٢ م . ثم سريانوس وبرفلس ومن تبعهم وهم يسمون الفرع الأثيني لكون دار التعليم إذ ذاك قد انتقلت إلى أثينا . ولد بروفلس سنة ٤١١ م وتوفي سنة ٤٨٥ م كل هذا من كلام (ستلانه التلياني) في كتابه (تاريخ الفلسفة) وإلى هنا انتهى دور اليونان ومن تبعهم

فهذه أم خلقت ثم جاء الاسلام وكان عصر الصحابة رضى الله تعالى عنهم وبنى أمية . ويحسن أن نذكر هنا نبذة من كتاب « مبادئ الفلسفة » المترجم من اللغة الانجليزية بقلم الاستاذ أحمد أمين في الكلام على عصر العباسيين فقد جاء فيه ما يأتي :

فلما جاءت الدولة العباسية « ١٣٢ - ٦٥٦ هـ » عظمت حضارة المسلمين ، وهضموا ما أخذوه (بالفتح) عن الفرس والروم والهند ، ونقلوا علوم الأمم التي سبقتهم في المدنية ولا سيما الهند واليونان . وفي زمن أبي جعفر المنصور والرشد والمأمون ومن بعدهم ، ولا سيما المأمون توسع الناس وخاصة السريانين (في ترجمة علوم اليونان على اختلاف أنواعها : من طب وهندسة وهيئة وتقويم بلدان ، وفلسفة بفروعها المختلفة من طبيعيات وإلهيات ومنطق ونفس وسياسة وأخلاق) إلى اللغة العربية فترجموا في القرن الثاني والثالث للهجرة كتب أفلاطون وأرسطو وأقليدس وبطليموس وجالينوس وغيرهم ، وبحثوا فيها وتداولوها يشرحونها مرة ويختصرونها أخرى ، وخصص كثير من المسلمين حياتهم لدراسة الفلسفة وتفهمها فكانوا بعد فلاسفة وكان أغلب مؤسسى الفلسفة عند العرب ومؤيديها أطباء وعلماء في الطبيعيات أكثر منهم رجال دين ، وعلى العكس من ذلك فلاسفة الغرب في القرون الوسطى فقد كان أكثرهم قساوسة . ولهذا لم يقصر المسلمون نظرهم على الإلهيات بل كان البحث في الطب القديم والعلوم الطبيعية عندهم يسير جنباً لجنب مع البحث في الإلهيات وما وراء الطبيعة ، وترجموا كلام جالينوس في الطب وأقليدس في الهندسة كما ترجموا كلام أرسطو في الإلهيات (١)

غير أنه يظهر أن ما ابتكروه من عند أنفسهم قليل إذا قيس بما نقلوه من اليونان ، نعم انهم في بعض فروع العلم كالكيمياء وعلم المعادن والطب وعلم وظائف الأعضاء كان لهم أثر ظاهر ، واستكشفوا من القوانين ما لم يصل إليها اليونان قبلهم ، ولكنهم في غير ذلك من فروع العلم كالمنطق والنفس والأخلاق كانوا نقله أكثر

منهم مبتكرين ، وكانوا في طريقهم العلمية ونظامهم في البحث وأنظارهم الى العالم وترتيب فلسفتهم وقواعدهم متأثرين تأثراً عظيماً بفلسفة أرسطو والأفلاطونية الحديثة

ولهم الفضل على الغرب بكل ما نقلوا أو ابتكروا ، فكثير من كتب اليونان وأبحاثهم ما كان يصل اليها الغربيون لولا حفظ العرب لها ودراستهم إياها . كما أن كثيراً من مبتكراتهم واختراعاتهم تعد (بحق) من أسس المدنية الغربية

ابتدأ المسلمون لأول عهدهم بالفلسفة يدرسون الفلسفة « الأفلاطونية الحديثة » (وهي مذهب مزيج من الفلسفة والدين ظهر في أواخر القرن الثاني لليلاد ، وكان مقره الأصلي الأسكندرية ، حاول مؤسسوه التأليف بين الدين المسيحي والمذاهب الشرقية ومذاهب اليونان ولا سيما أفلاطون وأطلق عليه « فلسفة أفلاطون الحديثة » ومن أشهر دعائه (أفلوطين) ولد في مصر سنة ٢٠٤ م قيل أنه رحل الى فارس ودرس الفلسفة الشرقية وعلم في رومة من سنة ٢٤٤ م ومات نحو سنة ٢٦٤ وكانت تعاليمه مزيجاً من الفلسفة العلمية والتصوف الديني) والذي دعا المسلمين الى اعتناقهم هذا الضرب من الفلسفة انها كانت فاشية لعهدهم في الشام وأنها مصبوغة بالصبغة الدينية ، ثم ارتقوا منها الى النظر في فلسفة أفلاطون وأرسطو ، ولكن كانت قد غلبت عليهم فلسفة أفلاطون الحديثة ، فلما أن نظروا بعد في فلسفة أفلاطون . وأرسطو نظروا اليها بعيون متأثرة بالأفلاطونية الحديثة

وأول من اشتهر من المسلمين بالفلسفة يعقوب الكندي ويلقب (بفيلسوف العرب) لأنه عربي صميم تبعه في الفلسفة . وقد كان تابعا للأفلاطونية الحديثة وتعالم أرسطو أكثر منه فيلسوفاً مستقلاً . وأكثر ماله من الفضل جاء من ناحية الترجمة والنقل ، وقد ظهر له في عهد المأمون والمعتمد كتب كثيرة بعضها ترجمة وبعضها تأليف وصل اليها من أسماؤها نحو ٢٥٦ كتاباً عدها صاحب أخبار الحسكاه ، وفهرست ابن النديم ومات نحو سنة ٢٦٠ هجرية

وجاء بعده أبو نصر الفارابي المتوفى سنة ٣٣٤ هـ عاش تحت كنف سيف الدولة بن جردان وكان يعرف لغات كثيرة وبرز في الموسيقى والرياضيات وعلم اللغة والفلسفة ، درس فلسفة اليونان ومهر فيها ، وقد كان كالكندي تابعا للأفلاطونية الحديثة (وإن لم يعرف هو هذا الاسم) وتعالم أرسطو ، وكان معشوقه من فلاسفة اليونان أرسطو حتى قيل إنه وجد (كتاب النفس) لأرسطو وعليه بخط الفارابي (إلى قرأت هذا الكتاب مائة مرة) وقد لقب بالمعلم الثاني (والمعلم الأول هو أرسطو) لعله معميات الفلسفة اليونانية ، وكان الفارابي كسائر فلاسفة المسلمين يرون أن الاسلام من قرآن وسنة حق . وأن الفلسفة حق . والحق لا يتعدد فوجب أن يكون الفلسفة والاسلام متفقين . غير أنه يؤخذ على فلاسفة الاسلام أنهم لم ينظروا الى الفلسفة اليونانية (كما كان ينبغي أن ينظروا اليها) من أنها مجموعة أقوال ومذاهب قد يناقض بعضها بعضاً . وأن ما يذهب اليه أرسطو في مسألة قد يكون مناقضاً لما يذهب اليه أفلاطون فيها ، بل نظروا اليها كأنها حقيقة واحدة ملتزمة ، وقالوا ان أفلاطون قد يختلف مع أرسطو في طريقة البحث أو التعبير عن المقصد ولكن آراءهما في الفلسفة واحدة ، وصلت اليهم تعاليم أفلاطون كما حكاهما فورفريرس (وهو من أصحاب مذهب الأفلاطونية الحديثة) وتعالم أرسطو كما حكاهما متأخرو المشائين ودخل عليهم فيما نقل اليهم من فلسفة اليونان ، ولا سيما فلسفة أرسطو ، خلط وتشو يش . يدل على ذلك أنه في زمن المعتمد ترجم أحد نصارى لبنان جزءاً من أنيده أفلوطين الى العربية وسماه (لاهوت أرسطو) وتلقى المسلمون كل ذلك بالقبول ، وعدوا أقوال الفلاسفة المختلفة شرحاً لحقيقة واحدة فبدلوا جهداً عظيماً في التوفيق بين أقوال أفلاطون وأرسطو ، وزاد عليهما المتدينون (القرآن) وهذا ما فعل الفارابي ، فقد كان مؤمناً بأقوال أرسطو وأفلاطون منزها للقرآن عن الخطأ ، فزج

اللوحة والقلم والكرسى والعرش والملائكة والسموات السبع بتعاليم اليونانيين الوثنيين مع ما بين أجزائها من التناقض ، ومحاولة ذلك تستدعى ذكاء نادرا وتصوفاً (كشفاً) وغموضاً وسبحاً في الخيال

وبحث الفارابي كذلك في السياسة في كتابه (آراء أهل المدينة الفاضلة) واختار من أشكال الحكومة الحكومة الملكية الدينية ومنح في هذا الكتاب بين آراء أفلاطون في (الجمهورية) وبين أقوال الشيعة في الامام المعصوم اذ كان سيف الدولة بن جردان مقرب الفارابي وحاميه شيعياً

ومن لهم أثر كبير في الفلسفة الاسلامية جمعية شبه سرية تسمى (اخوان الصفا) اجتمعت في البصرة نحو منتصف القرن الرابع للهجرة ودعاهم الى جعلها سرية كره عامة الناس وعامة المتدينين للفلسفة ومن اشتغل بها ومحاولتهم ايقاع الأذى بالفلاسفة ، وقد عد القفطي في أخبار الحكماء أسماء خمسة من أعضائها وكان قصدهم نشر المعارف بين المتعلمين في جميع الأقطار الاسلامية وتغيير أفكارهم الدينية والعلمية . قالوا (ان الشريعة قد دنست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة ، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية . وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال ^(١) فألفوا إحدى وخمسين رسالة ضمنوها خلاصة أنواع العلوم المعروفة لعهدهم فهي (دائرة معارف) تشمل على معارف العرب اذ ذاك باختصار ، قالوا في أول هذه الرسائل : ان الحكماء والفلاسفة الذين كانوا قبل الاسلام تكلموا في علم النفس ولكنهم لما طولوا الخطب فيها ، ونقلها من لغة الى لغة لم يكن قد فهم معانيها ، حرفها وغيرها حتى انغلقت على الناظر فيها فهم معانيها ، ونحن قد أخذنا لب معانيها وأقصى أغراضهم فيها وأوردناها بأوجز ما يمكن من الألفاظ والاختصار في إحدى وخمسين رسالة هـ)

وكانت تعاليمهم فيها كذلك مزيجاً من أبحاث (الافلاطونية الحديثة) والتصوف ومأقوله ارسطو في العلوم الطبيعية ومأقوله الفيشاغوريون في العدد (الرياضة) وقد كان لها أثر كبير في العقول بانتشارها بين الناس ولكن فيها من الخلط والتشويش ما ذكر قبل . وقد ظن بعض الباحثين أن هذه الجمعية جمعية باطنية (اسماعيلية) لما بين ما يجيء فيها أحياناً وبين تعاليم الباطنية من التماثل ، وقد عثر المغول عند فتحهم قلعة الموت (وكانت في يد الاسماعيلية) على كثير من نسخ الكتاب

وكان لأبي علي بن سينا البخاري (٣٧٠ - ٤٢٨) شهرة فائقة في الفلسفة ، وفلسفته تقرب من الفلسفة الارسطاط لسية الصرفة ، وربما كانت أقرب فلسفات المسلمين اليها ، وكتابه (القانون) كان العمدة في الطب في القرون الوسطى عند الشرقيين والغربيين معا وله فضل كبير في نشر الفلسفة بين الناس بمؤلفاته العديدة ولا سيما الاطيات والمنطق . هذا الى كثير من أمثال هؤلاء الفلاسفة كالبيروني وابن مسكويه وابن الهيثم

وقد كان انتشار الفلسفة بين المسلمين في القرن الثالث والرابع والخامس للهجرة سبباً في حركة جديدة قام بها المتكلمون (علماء الكلام) يريدون بها مقاومة تعاليم ارسطو وأفلاطون والافلاطونية الحديثة المتعلقة بالالهيات أو الرد عليها ودحضها فنشأ من ذلك أبحاث كلامية كثيرة فبحثوا في العلة والمعلول والزمان والمكان والحركة والسكون والجوهر والفرد والدور والتسلسل ونحوها ، ولم تكن ردودهم موجهة الى الفلسفة فحسب بل الى كل من خالف سنتهم من معتزلة وزنادقة وفلاسفة وظاهرية وحنابلة ، ومن أعلام هذه الطريقة أبو الحسن الأشعري وامام الحرمين والباقلاني ، ولكن أحداً منهم لم يخص الفلسفة بالطعن ولارد عليها من جميع جهاتها حتى جاء الغزالي (٤٠٥ - ٥٠٥) فدرس الفلسفة اليونانية درساً دقيقاً (كما حدث هو عن نفسه) ، ثم حمل عليها حملة شديدة من جميع جهاتها وألف في ذلك كتابه المشهور « تنهايت الفلسفة » وكفر الفلاسفة لبعض تعاليمهم ، وأظهر منافاة الفلسفة لتعاليم الدين ، ودعا الناس الى الرجوع الى دينهم الصحيح الخالي من الفلسفة

(١) أخبار الحكماء

ورغب في التصوف وأبان أنه الطريق الحق إلى الله ، وكان بليغا في قوله مخلصا في حديثه سهل العبارة قوى الحجّة ، فآثر ذلك في المسلمين أثرا كبيرا ، وكان من آثاره أن حول الناس عن الاشتغال بالفلسفة ، ورجعهم إلى الكتاب والسنة ، وأعلى شأن التصوف والصوفية وحجب ذلك إلى الناس . وسار على طريقة الغزالي كثيرون من بعده هذا بمجل حال الفلسفة في الشرق ، أما في الغرب أعنى في الأندلس وشمال إفريقيا فقد أظهرت الفلسفة (حينئذ) أكثر من أزهارها في الشرق . وكان فلاسفة الأندلس والمغرب أكثر ابتكارا من فلاسفة المشرق ، وكان يندر بين مسلمي الأندلس الخلاف في العقائد والمذاهب كالذي كان عند المشارقة ، فكلمهم إلا القليل مالم يكن سني ، أخذوا الفلسفة عن أهل المشرق فقد كان منهم رحل إليه رحلوا عن طريق القاهرة وأمعنوا في الرحلة حتى إلى فارس وانتفعوا بعلومهم ، وجاء الحكم الثاني (٣٥٠ - ٣٩٦ هـ) فبعث في شراء الكتب إلى الأقطار رجالا من التجار فجمعوا إليه كتباً جمة ، فاشتغل الأندلسيون بالرياضة والعلوم الطبيعية والتنجيم والطب بعد أن نقلت إليهم كتب الفارابي ورسائل اخوان الصفا وطب ابن سينا . وقد تعاون المسلمون واليهود معا على الاشتغال بالفلسفة في الأندلس . ولم يلبث أن نبغ منهم كثيرون . مع مقاومة العامة وأشياءهم مقاومة أشد من مقاومة المشارقة

ومن أشهرهم (١) ابن باجه وقد اتبع تعاليم الفارابي (٢) وأبو بكر بن طفيل (مات سنة ٥٣١) وصل إلينا من تأليفه رواية (حج بن يقطان) وكان بطلها (حج) يعيش في جزيرة لا يسكنها أحد من الناس وليس له علاقة بأحد من أهل الجزائر الأخرى . بحث بعقله بحثا منطقياً متدرجا من البسيط إلى المركب حتى وصل الاعتقاد بالله . وغرضه فيها أن يبين أن الشرع يتفق مع العقل . وقد ترجمت إلى اللاتينية وظهرت سنة ١٦٧١ م وسنة ١٧٠٠ ولم يمض على ظهورها عشرون سنة حتى ظهرت رواية روبرتو كروسو (١) و (٣) ابن رشد وهو أشهر فلاسفة الأندلس على الإطلاق (٥٢٠ - ٥٩٥) كان يعد أرسطو أكبر فلاسفة . وقد شرح تعاليمه حسبما وصلت إليه . ودافع عن الفلسفة وألف كتابه (تهافت التهافت) ردا على الغزالي في طعنه على الفلسفة ، وأبان في كتب أخرى أن الفلسفة لا تناقض الدين . وألف في ذلك كتابا صغيرا سماه (فصل المقال فيما بين الشريعة والفلسفة من الاتصال) وأكثر مؤلفاته لا توجد بالعربية وإنما موجود ترجمتها . من ذلك شرح أقوال أرسطو مع الرد على الغزالي رتب وطبع باللاتينية في البندقية سنة ١٥٦٠ م في أحد عشر مجلدا . وترجم له كتاب في الطب طبع كذلك في البندقية . وله كثير من المؤلفات مترجم إلى اللغة العبرانية . وكان لفلسفته شهرة في الكنائس والمدارس الأوروبية منذ القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري)

وباتهاء القرن السادس الهجري تقريبا وقف المسلمون عن البحث الفلسفي والنظر في العلوم الكونية . ولم يكن العلم الانقلا . فالأولف ينقل عن قبله غسب ، حتى لا تكاد تجد في كتاب جملة ذات معنى جديد ، والمعلم إنما يعلم ماسمع من أساتذته ، والاختلاف الذي يظهر بينهم إنما هو اختلاف في الشكل لا في الجوهر (وليس تمت مجال للبحث في أسباب ذلك) ولم ينبغ منهم نابغ مبتكر ذو شخصية ظاهرة إلا ابن خلدون (المتوفى سنة ٨٠٨ هـ) فانه باجاء الشرقيين وكثير من الغربيين مخترع فلسفة التاريخ أو علم الاجتماع ، وأكبر الباحثين فيه في الشرق والغرب إلى القرن التاسع عشر الميلادي ، فبحث في (أحوال العمران ، في الملك والكسب والعلوم والصنائع بوجوه برهانية) وكما قال هو في مقدمة كتابه ان كثيرا قبله حوموا على الغرض ولم يصادفوه ولا تحققوا قصده ولا استوفوا مسأله (وأمل ممن يأتي بعده أن يستمروا في البحث ويقمعوا ما فاتهم من المسائل وقد تحققت أغراض ابن خلدون ولكن لم يكن الذي حققها هم المسلمين بل أوجست كومت وسبنسرو أمثالها

(١) فندلند - ورواية روبرتو كروسو إحدى الروايات الانجليزية الشهيرة لمؤلفها (ديفو) فرض فيها بطل الرواية قد عاش في جزيرة وحده بعد أن كسرت مركبه وأمكن أن يصل بعقله إلى كثير من الأمور

(وكما كان ابن خلدون في هذا الموضوع هو السابق فلم يكن له بين المسلمين لاحق وأما من عداه فداروا في دائرة ضيقة وكانت عنايتهم بالمسائل اللفظية تفوق العقلية ، قصروا نظرهم على كتب للتأخرين محدودة لانبثقت شوقا إلى علم ولا تهبج العقل إلى بحث ، قد ألغزوا في معانيها وركزوا أنفاسها ، فوجه المتعلمون أعظم جهدهم إلى حل معيياتها وتفسير أغراضها وقليل من الجهد (إن كان) إلى نفس الموضوع وكان العلم والفلسفة قد سارا شوطا بعيدا في الغرب ، والشرق جامد في مكانه ، وبدأ الشرق يغالب النوم والنوم يغلبه ويصارع الكسل والكسل يصصره ، حتى أزعجت الحوادث وأقلقت راحته ضوضاء احتكاك الشرق بالغرب ، فانبثقت متأخرا وأحسن تأخره ونقصان علمه وضرورة التعلم حتى يستطيع مشاركة غيره في شؤون الحياة ، وما أحوجهم اليوم إلى هداية يضيئون له السبيل . ويأخذون بيده في هذا المعترك اللجب . وينقلون إليه زبدة ما وصل إليه الغرب فيمعن النظر فيها ويهضمها بعقله الشرقي . ويكون له مدينة وعلماء تنفق مع ذوقه وجوه ودينه - والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم - انتهى من الكتاب المذكور

فلما سمعت ذلك . قالت : لقد أجدت في اختيار النقل وحسن الاختيار ولكن للكلام بقية لابد من ذكرها . فقلت : وهل بعد ما أجلته قول في هذا المقام . فقالت : لا نفس انك تفسر قوله تعالى - إن الذين قالوا ربنا ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة - الخ وأن المواضيع هنا ثلاثة : معرفة الله ، والعمل الصالح ، والمكافأة عليه في الآخرة . وأنت تعلم أن معرفة الله لابد منها أولا بطريق علمي حتى يعرف العاقل أنه في هذه الحياة له مشرف يشرف عليه لا أنه مطلق من كل قيد ومجرب السماع من الكتب الدينية ليس يكفي العقلاء فوجب عليهم البحث بأنفسهم وما تقدم من تاريخ الفلاسفة إنما هو تمهيد وتوطئة للمقصود ، وهل المقصود إلا تبين الحقائق واضحة ، أزل الاشكال لجميع الناس ولكل الأمم ، اذكر لهم أمثلة من أنفسهم ، بين اختلاف المذاهب أولا في معرفة الله وفي الأخلاق ، أوضحه إيضاحا تاما ، لا تقتصر في الإيضاح . بين آراء الملحددين وآراء الموحدين . وبين آراء من يقول « إن أصل كل شيء هو المادة وأنه لا إله لهذا العالم » . وبين آراء من يقول « إن العالم له إله » وأوضح مذاهبهم . ثم اذكر مذهب من يقول « إن الإنسان خلق لمصلحة نفسه وحده » ومن يقول « إن الإنسان خلق لمنفعة غيره وأن ذلك سعاده » . وبعد هذا البيان أوضح برهانك أنت بحيث تظهر الحقيقة لكل عاقل في هذه الأرض لأنك إذا لم تظهر هذه الحقيقة بالبرهان الذي يدركه كل امرئ متوسط العقل من نفسه يبقى الناس حيارى فيقولون من نتج ؟ أننج من يؤمن بالمادة وينفي وجود إله ؟ أم نتج من يؤمن بالله وعقل لا يفرق بين البراهين وأيهما هو الحق ؟ أم عمل لنفسي فقط وأترك الناس ؟ أم أعمل للناس وأضحى ببعض مصالحى . فإذا برهنت على الحقيقة في الأمرين : أمر معرفة الله . ومعرفة العمل الصالح ظهر معنى - إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا - ومتى ظهر ذلك المعنى بوجه علمي صحيح أخرجت العقلاء في هذه الأرض من حيرتهم وأصبحوا موقنين بالحقائق وهناك يفهمون معنى - تتنزل عليهم الملائكة - بسبب الإيمان والعمل الصالح بل يصبحون فاهمين هذا النزل ويحسون به من أنفسهم

فكر في هذا الموضوع وأنا سأعينك لأنى أطلع على قلبك وأشاهد فيه اللوحين تتقابلان لوحة الكواكب وأنوارها وجالها وهي اللوحة الأولى ولوحة آراء العلماء وقد ارتفعت الثانية من أحد طرفيها وتقابلت مع الأولى بهيئة نورية مشرقة واتحاد المناظر السماوية المشرقة مع المعارف القلبية التي هي مزارعي في القلوب بنجم عنه اليقين وهذا اليقين الذي تحس به الآن وأشاهده في قلبك بعد امتحانك لآراء أوروبا في القرون الحديثة سيدنقل منه إلى قلوب شريفة في الشرق وفي الغرب وبه يخرج الناس من التخبط والاحلال في الأخلاق الخالصة وفي السياسة العاتية . واعلم أن قولك هذا سيكون له أنصار في كل مكان . فقلت : إني منشراح الصدر لما أمرتني به ولكن المقام يطول . فقالت : ليكن القول مختصرا والمهم هو برهانك أنت عند الفصل

بين علماء الأمم في العلم النظرى والعملى بعد أن تبين للناس القبس الذى قبسته . فقلت : سأذكر ذلك بفاية الاختصار وليكن في ﴿ ثلاثة فصول ﴾ الفصل الأول ﴿ في آراء علماء أوروبا في الحكمة العلمية والحكمة العملية ﴾ الفصل الثانى ﴿ في القبس الذى فى آية - وهل أذاك حديث موسى - الخ لشدّة مناسبتة لهذا المقام وكيف فهمته فى أثناء الصلاة ليلا ﴾ الفصل الثالث ﴿ فى تبيان الحقيقة فى الحكمتين العلمية والعملية وبهذا يظهر معنى قوله تعالى هنا - إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا - الخ

الفصل الأول فى آراء علماء أوروبا

فى الحكمة العلمية والحكمة العملية

القائلون بالمادة . والقائلون بالروح . والقائلون بالمادة والروح معا

إن الانسان اذا خلا بنفسه وأخذ يفكر فى هذه الدنيا لا يخرج تفكيره عن واحد من ثلاثة لأربع لها . إما أن يقول إن أصل العالم المادة . وإما أن يقول إن أصله الروح . وإما أن يقول إن أصله الروح والمادة معا (١) ذلك ان كلا منا ينظر فيرى له جسما مركبا من عظم ولحم وعروق وعضلات وشحم ودم وأعضاء مختلفات ، ثم ينظر حوله فيرى الأرض والحجر والشجر والماء فيقول أنا لا أشك أن هذا هو الأول وهذا هو الآخر ، وما هذه الحركات ولا العقول ولا الاحساس إلا نتائج هذه المادة ، وهل الفكر إلا حركات فى المادة لحركات النمو والذبول ، وهل الموت والحياة إلا أحوال تعترى المادة ، وبالتأمل فى تاريخ الفلسفة نرى أن هذا الرأى دائما يكون مبدأ التفكير عند الأمم سواء فى ذلك اليونان والعرب والاوروبيون

(٢) وتارة يقول القائل . كلا . ماهذه المادة ؟ إن هى إلا عدم محض ، وكيف لا تكون عدما محضا وقد عرف الناس اليوم أن العالم لا مادة فيه ، وهل المادة إلا وهم وكذب صراح ، من أين جاءت هذه المادة ؟ المادة لم توجد ولن توجد ، نحن لاشيء عندنا سوى الأثير وهوليس مادة ، والأثير إن هو إلا عالم أشبه بخيالنا لانحس به وانما أدركته عقولنا ، وهذا الأثير بالحركات المتتابعات فيه المختلفات كثرة وقلة يكون ضوءا وحرارة وشجرا وحجرا وشمسا . فالضوء يحتاج الى حركات فى الثانية من (٤٠٠) مليون مليون الى (٧٠٠) مليون مليون والجوامد تحتاج الى نحو ستة آلاف مليون مليون حركة فى الثانية . هذه هى المادة أولها وآخرها ماهى إلا حركات فى شيء يشبه خيالنا . إذن العقل هو المسيطر على هذا العالم . نجسمى والأجسام حولى نتائج حركات ظهرت لحواسنا فسميناها بأسماء مختلفات - إن هى إلا أسماء سميتوها أتم وآباؤكم - لا غير والافهى لارجود لها ولادوام

(٣) وتارة يقول الانسان - الحق أحق أن يتبع - إن هنا مادة وروحانديرها والعالم كله لم يخرج عن مادة وعن شيء آخر يحركها

هذه هى الصور التى تجول بأفكار الأمم كلها قديما وحديثا . وإذا كانت العوالم لا تخرج عن هذه الثلاثة فلا جرم ان اختلفت العقول باختلاف أنظارها . ولأذ كر هنا ما كتبتة فى كتابى ﴿ جوهر التقوى ﴾ فى علم الأخلاق وأنا أدرس هذا العلم لطلبة دارالعلوم أولا وأتبعه برموز المصريين ورموز الرومانيين فى هذا المعنى (١) فأما ما كتبتة فى ذلك الكتاب فهذا نصه :

تحليل الأخلاق والأمور النفسية

الترية الجسمية

لقد أضنا فيما سلف فى اثبات النفس ، وأبنا كيف باينت الجسم وان جوهرها أشرف وأعلى وأجل وأغلى

فلنبين في هذا الفصل امتزاجها بالجسم وعلاقة أحدهما بالآخر وظهور آثار فعله فيه حتى عسر التمييز بينهما ،
ودق الفارق على الناظر الحادق . فتشابه وتسا كل الأمر حتى ضربهما الشاعر مثلاً لتزواج المعنى بالكلم في قوله

وكم معنى بديع تحت لفظ * هناك مزاج كل ازدواج

كزاج في زجاج أو كروح * سرت في جسم معتدل المزاج

ولم يقف أمد تزواجهما وتعسر التمييز بينهما على خيال الشعراء ، بل تخطى الى أفكار الحكماء فتفرقوا
طرائق « وكل حزب بما لديهم فرحون » ففريق أهمل أمر الجسم وعكف على إصلاح النفس وقال ما الانسان
إلا نفسه فهي القوامة عليه المدبرة له الحافظة لشكله . الساعية لتنميته تدبر احشائه وتغذى أعضائه وتتولى
شأنه وان هو الا عناصر مؤلفة وعمما قليل يلحقها الردى ويعورها البلى ولقد يموت المرء بكامة تؤذيه ويفرح
و يبش بخبر يسره ويرضيه فالجسم وجوده عدم . وآخرون نبذوا الروح وراءهم ظهريا كأنهم لا يعيشون ،
واتبعوا في سيرهم أمر جسمهم وقالوا ما الانسان الا الجسم وما الروح إلا عرض من أعراض كسواده وبياضه
ولئن لحقه مرض أو ألم أو نقص أو تلف تعدى للنفس أثره فهو حاملها وحافظها بل جوهره عرضه

وجاء قوم آخرون وهم المستبصرون وقالوا بالجوهرين وآمنوا بالزوجين وجعوا بين الدليلين ونظروا بالعينين
فلم يعمطوا الروح حقها ولم يسلبوا الأجسام حظها بل راعوا الجانبين وتربصوا الحسنيين ونظموا إدارة الجسم
كما أداروا مملكة الروح وانا لذلك مختارون

لذلك نظمنا جوهر الجسم في سمط عقد الأخلاق لثلاث نبخسه حقه فلا يقولن امرؤاى اذا هذبت نفسى
وجعلتها عنوان درسى كفاى ذلك في التهذيب . إلا أن له أثرا في نفوسنا وسلطانا في عقولنا ألا ترى أن المرضى
أسوأ الناس أخلاقا وان للأغذية والماء والأجواء الممدة لأجسامنا آثارا تصل لنفوسنا كالقبض والبسط والفرح
والحزن فانها اذا كانت رديئة وصل للجسم انحراف على مقدار ردايتها وان كانت صالحة فالصلاح اليه واصل
وعليه وارد . سر فى نظام جسمك على قانون الصحة يعتدل مزاجك ونصف روحك . فلعمرك ما العلوم التى
بها جلب الغذاء من صناعة وتجارة وزراعة ولانسلك الذى ترجوه بقاء ذكرك وظهور أثرك بنوع ما ولا نظام
أمتك فى اجتماعها وسياستها الابد حفظ صحة جسمك وإدارة نظام هيكلك فى الرتبة وما الأموال المجموعة ولا
الاخوان المحبوبة بمغنية عن المريض شيئا وانما من ذلك مدده واصلاحه فلا وربك لا أمة الا من الاسرات
وانما الاسرات مركبات من أفراد فاذا اعتلت الأجسام فلا اجتماع ولا ائتلاف ولا أخلاق ولا آداب . تهذيب
النفس شرع لتجاذب القلوب . وتحجب النفوس وائتلاف الأفراد . ونظام الجمعية وتعاونهم أجمعين . فالتهذيب
مؤخر فى وجوده عن وجود الافراد والافراد قوامها الصحة

وإياك أن يلج فى خاطرك غرابة الكلام على صحة الأجسام فى علم الأخلاق أو تقول نتركه لعلم قانون الصحة
فانك عرفت قبلا علاقتهما وآثار أحدهما فى الآخر فلئن ذكره الأطباء فاعلم ذلك لأنه مقصود فى علمهم بالذات
والنفس تبع . فأما علماء الأخلاق فانهم يبحثون عنه كركب للنفس وسفينتها السائرة فى بحر الحياة اللججى .
ودابتها التى تركبها فالجسم فرس . والنفس راكبها والسعادة قنيصتها ولاقنيصه لمن كلت فرسه كما لاسعادة ولا
أخلاق لمن ضعف جسمه إلا من رحم ربك . ولقد أودع الله فى فطرة الانسان من الغرائز والمشاعر والادراكات
وأحاطه بالمنذرات للتهلكة ما ان عمل به وسار فى سبيله بنظام هدى الى طريق رشاده . ألا ترى الى الحر والقر
والجوع والعطش وما جبل عليه الأطفال من حب اللعب وتنشيط الأعضاء بالحركة ومصادمة الأجسام ومقارعة
الأبطال ان كل ذلك لإمرشدهم للعاطلين كم من امرئ جهل أمره واستسهل الأمر اليسير من شأنه كاللقمة
يزدريها بلا كثير مضغ والحجرة يسكنها رديئة الهواء أو ضئيلة النور والبيت يقطنه تحيط به الروائح الكريهة
فأحاطت به خطوب الزمان ومن عجبات الأمراض أولم يعلم للانسان من الحكمة وما لآلام الحر والبرد من الانذار

والاعلام إلا أن الغفلة عن الصغائر في أمور الأجسام تجر الى الكبائر في أمر النفوس والعقول فكم يحدث فساد الصحة من تغير في طباع المرء كسرعة الغضب والتهيج المزرى ويقعده عن تأدية الواجبات الاجتماعية والمرض اذا حل بالجسم فزال أبقى له أثر خالدا فيه حتى يحين أجله ويذهب عمره . لابد من ارادة قوية بصددها الشهوات البهيمية وعزم صارم يكبح به تلك الضاربات الهائجة حتى لا تشتري الذى هو أدنى من اللذات الخسيسة بالذى هو أعلى من الصحة وسعادة الحياة والفرح بالاخوان وبهجة الجمعية التومية ونعيم العباد في البلاد

فاعتدل في مأكلك ومشربك وملبسك ومسكنك ونومك ويقظتك واجعل لكل وقتا خاصا به ، ونظم أوقاتك كما نظمت الأفلاك في سيرها والنجوم في جريها والشمس في أبراجها وأقلل من الشرب وحرمة بعد انقضاء الأكل حتى يهضم الطعام واجعل لك وقتا للرياضة الجسمية كاللشي والأعمال الزراعية أو الصناعية في أوقات عطلتك ليكون أجم نشاطا لعقلك وأتم قوة لجسمك وكالحركات الرياضية في المدرسة فلعمرك انها تحرك من نشاطك وانها تفتح لك شهوة الطعام

الآن المسقبصر الحاذق من سار على منهج قانون الصحة قتل مرضه . فذلك خير من يهمل الجسم فيقع في قبضة المرض فيضطره لتعاطي الدواء فالخير لكل الخير في تدبير الطعام والشراب في الصحة . وقد أثنى الله على بعض عباده الأصحاء العلماء فقال (وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء) . انتهى مأردته من

كتابى جوهر التقوى

(٢) وأما ما كان بمصر فانه قد كان بمصر هرم في هيكلي (إيزيس) وهى إلهة مصرية زوجة (اوزيريس) انشئت عبادتها من مصر الى اليونان ورومه وكانت عبادتها تنافس النصرانية . وكانت في بلدة (صالحجر) من أعمال مركز كفر الزيات تبعد عن رشيد قليلا . وقد كتب على ذلك الهرم ما يأتى : « أما كل شيء كان وكل شيء يكون ومحال على من يفنى أن يزيل النقاب الذى تنقب به من لا يفنى »

(٣) وأما ما كان من رموز الرومانيين فذلك انه كان في إحدى حجر الفاتيك كان صورة شهيرة في حائط صورها (روفايل) اسمها مدرسة (أثينا) وفي مركز هذه الصورة أرسطو وأفلاطون ومع كل أتباعه وأفلاطون يشير الى السماء بأصبعه وأرسطو يصغى بفتور مشيرا الى الأرض بيده اليمنى ، والحق أن هذه الصورة واشاراتها تمثل جميع أفكار الانسان من أوله الى الآن

فاذا عرفنا أن أفلاطون قد قال : « إن الشمس المشرقة المضيئة سبب ظاهرى لما على الأرض من نبات وحيوان الخ » من حيث إيجادها ومن حيث هداية الحيوان والانسان بها الى السبر في الأرض ، وأن ذلك يهدى الانسان الى أن هناك إلهة للعالم في مقابلة الشمس وقد خلق عالما لطيفا في مقابلة هذا العالم الكشيف وألقى من لدنه نورا على ذلك العالم اللطيف فعرفناه وهو متعلق العلم وبه عرفنا الكليات في عقولنا وصور الجبال المجردة والكمال والحكمة والعدل كما ألقت الشمس نورها على حواسنا فعرفنا طرقنا وسرنا في الأرض . واذا عرفنا أن أرسطو يقول . كلا . فنحن لانريد قط أن نجعل العوالم المعنوية وهى المثل الأفلاطونية متعلق العلم لدوامها بل نقول العلم يتعلق بالصورة والمادة والقواعد المستنتجة من ذلك هى كليات قائمات بالذهن ليس لها وجود في الخارج

أقول اذا عرفنا ذلك عرفنا أن هذين الرأيين هما أول العلم وآخره لا غير فلما أن نقول على المادة وأما أن نقول على الروح وأما المذهب الثالث فقد جمعهما

القائلون بالمادة منهم الاستاذ (كارل نخت) ومن قوله : « إن المخ يفرض الفكر بعين الطريقة التى يفرض بها الكبد الصفراء والكلية البول » . ومنهم الاستاذ (بختز) الألمانى وقد ألف كتابا اسمه القول الفصل في المادة . وهؤلاء لا يقولون بالروح ولا بالملائكة ولا بالشياطين ولا باله

(١) وعلماء الجوهر الفرد قديما من أنصار هذا المذهب مثل ديموقريطس سنة ٤٢٠ ق.م وهو من

الايونيين يقول إن المادة تتحرك من نفسها

(٢) وجاء أبيقور سنة ٣٤٠ ق.م وقال « إن النفس والفكر والعقل والقوة أعراض للمادة » ومثله

ليوكاروس سنة ٩٩ ق.م المؤلف الروحاني الشهير ومن أنصار هذا المذهب

(٣) ثم توماس هوبز سنة (١٥٨٨ - ١٦٧٩) في إنكلترا وهو يقول : « إن الروح جسم طبيعي ارتقى ولم تدركها حواسنا »

(٤) ثم (لامتريه) في فرنسا سنة (١٧٠٩ - ١٧٥١)

(٥) ومثله (باردن هليك)

(٦) ومثله (كلاي) أيام الثورة الفرنسية سنة ١٧٥٧ - ١٨٠٨

(٧) وفي ألمانيا ظهر (مولشت) في القرن التاسع عشر وقال « لاقوة بلا مادة ولا مادة بلا قوة »

(٨) وتبعه (كارل لجت) وله ويح بخنر المتقدم ذكره

فأما القائلون بالروح ، والقائلون بالروح والمادة معا . فالأولون منهم يقولون « إن المخ آلة الفكر ولكنه هو ليس سبب الفكر . وقالوا : ليس من المعقول أن يكون الفكر الانساني الحبيب مستنتجا من مادة ميتة لانحس ولا تعقل . فالشاعر يفكر في المادة والحكيم كلاهما لا يمكن أن يكون فكراهما مادة . فهل مادة تفكر في مادة ! » . وقد قال شاعر فرنسي ما يأتي

إن امراً ظن المعارف أشرفت * أنوارها من مظلم لجهول

وهذا المذهب الروحاني ظهر بعد المادى

(١) وقد أوضح أفلاطون نظرية المثل وقال إن لها وجودا حقيقيا والظواهر تتبعها

(٢) وجاء (ديكارت) فأحيا عقيدة الروحانية

(٣) ثم (ايبنتز) سنة ١٦٤٦ - ١٧١٦ وهو الذي ضبطها يقول : « إن أساس الموجودات شيء

واحد وهو الروح وهناك نقط روحية لا عددها وكل نقطة من هذه تسمى (الذرة الروحية) وهذه

الذرة خلقها الله ، وكل جوهر فرد مركب من مجموعة من هذه الذرات وعدم قبول الجوهر الفرد

للقسمة أمر ظاهري لا غير والا فهو يقسم الى ما لا نهاية له لأنه مركب من أرواح حية وكل جسم

مركب من ذرات روحية . وهذا الامتداد الذي نراه في الأجسام ناشئ من اجتماع ذرات روحية

وحقائق الأشياء هي هذه الذرات الروحية . وقد جعل الله تلك الذرات مراكز للقوة ومنحها قوة

إدراكية وهي مختلفة الأشكال والأحوال كثيرة التغير

فلاندوم على حال تكون به * كما تلون في أثوابها القول

وهذه الذرات مرآة العوالم الحية وهي ان شعرت فهي الحيوان وان لم تشعر فهي الجماد . وقال كل

ذرة لها جسم وروح فلروح هي الحقيقة والجسم مظهرها

(٤) ومثل هؤلاء (جورج بركلي) سنة ١٦٨٥ - ١٧٥٣ وهو مؤلف جرمانى يقول : « المادة لا

وجود لها في الخارج ، وانما ذلك خيال ، ولا وجود إلا للروح والعقل ، ولا فرق بين الصور التي

تخيلها والتي نراها ، والعقل يتصور الشيء ويسمى فيبرزه في الخارج ، وليس هناك شيء خارج عن

العقل . ويقول : إن الشمس والقمر والجبل والشجر لا وجود لها اذا لم يكن هناك عقل يدركها

وادراك الانسان مستمد من الله . ومتى طبعت الصور في عقولنا سمينا ذلك أشياء حقيقية . وله

كتاب سماه (السلسلة) جعله خاصا بمنافع القطران ونسكهم في نهايته على الموجود المطلق . قال :

« لم تكن المعاني التي ندركها أوهاما بل هي حقائق لا تتغير ، ألا ترى أن وجودها أثبت في نفوسنا من الأشياء الخارجة . المحسوسات الظاهرة تتغير وهل المتغير يصلح مناطا للعلم . وكما لا تصلح موضوعا للعلم لا تصلح للدراك

(٥) وقفى على آثار هؤلاء (هرمان لوتز) فشرح في كتابه المسمى « العالم الصغير » هذا المذهب

(٦) ومثله (شوبنهاور) إذ يقول : « إن الإرادة هي حقيقة الأشياء »

(٧) وهكذا فخر إذ يقول : « إن كل شيء في الوجود حى »

والذين يقولون بالروح والمادة معاهم مثل :

(٨) انكساغورس سنة ٤٥٠ ق.م

(٩) وأرسطاطاليس

(١٠) والرواقيون .

وقد يعد هو بارت ولوتز ونفثه من هؤلاء . وهناك طوائف يسمون (المؤهلين) يعتقدون بالله وبالأنباء . وآخرون يسمون (العقليين) يرون أن الله يعرف بالعقل وحده ولا يحتاجون الى وحى . وآخرون يعتقدون الحلول الذى برهنا على منافاته للعقل فيما تقدم في تفسير البسملة في السور السابقة والعالم عندهم مظهر الله . وآخرون يسمون « أصحاب مذهب الجوهر الفرد » إذن المذاهب المذكورة أربعة :

(١) مذهب الجوهر الفرد

(٢) » المؤهلين

(٣) » العقليين

(٤) » الحلول

فالأول قال به ليوسيبس وتلميذه ديموقراطيس ، وقال بالثاني أرسطو وأفلاطون الخ ، وقال بالثالث تولاندوم وتندال وستانسيرى وهم يقولون : إنه يدير العالم بنظام ، وقال بالرابع كتاب (ريك فيدا) وهو كتاب الهنود المقدس وهكذا جوردانو برونو وسبينوزا من استردام (٢٦٣٢ - ٢٦٧٧) وهذا أعلن إعلانا مدهشا فيه إغراق وغلق . فقال : « إن في العالم جوهر واحد وهو الله وهو مطلق لا يحد وكل الجواهر الأخرى المحدودة منبعثة منه ومظروقة فيه وليس لها إلا وجود زائل صائر الى الفناء . والله صفتان يظهر بهما لنا نفسه الامتداد والعلم . فبالامتداد المتنوع تتمكّن الأجسام . وبالعلم المتنوع تتكوّن العقول . وهاتان الصفتان ثوبان لله نسجت بهما المكوك الدائمة الحركة في نول الزمن العاصف ، وتبعه شلو وجونيه وهرد وشلوما كرى وهينى وشلى ولسنج

صمت طويل وضيق صدر وألم نفس . كل هذا حصل لى بعد هذا الحديث الطويل . فلما نلت ذلك تبسمت ونظرت لى طويلا وقالت : لقد قرأت فى صفحات قلبك انك الساعة مشمئز من سرد هذه المذاهب المختلفة وضاق صدرك ؟ فقلت حقاً انى حالما شاهدت جالك أذهب عنى الحزن وشرح صدرى ونسبت كل ألم وبه نلت كل أمل فكل ما فاتنى غير قربك لاقيمة له وطلبت البقاء لديك . فقلت لى . كلا . إنك سترجع الى عالم الحسن وأنت الآن فى عالم الخيال ، فوطن نفسك على أن تدرس مزارعى فى القلوب ، فهاهى ذه مزارعك فى القلوب قرأت منها صفحات ، فرأيت تناقضا فى الآراء ، وتباعدة فى المعانى ، فعهدت فى صدرى انقباضا لم أعهده ، فأين صحائف هذه القلوب التى بها ظهر تاريخ الفلسفة فى العالم من صحائف هذه الدنيا ، تلك الصحائف التى أقرؤها متى خالوت بنفسى وأنا مستيقظ فأشاهد جبالا بارعا وحسنا باهرا وبهجة فى النجوم وفى مناظر المواليد الثلاثة

وقد أصبحت في الحال الاعتيادية أطرب لتمايل الأغصان وترنح العيذان وغوير الأعشاب وخزير الماء وصرير الباب ، وأشاهد في الليل اذا عسعس أوانس الكواكب ونواعس النجوم ، وألظ في الليل البهيم سكونا مهيبا ولألاما بهيجا في مناظر السماء ، وآنس في النهار نضرة النعيم في كل مادب وطار ، وهل الحشرات المنبذات اللواتي يحمل بعضها من العيون مثات في نظري إلا لآلى وقناديل وحسن وجمال ، ألا ليت شعري هل تحسن أقوال هؤلاء الفلاسفة واختلافهم في العبارة وقول (اسبينوزا) قولا موهما في المقام الأعلى الأقدس كما تقدم « انه ظرف العالم ومنه الامتداد ومنه العقول وبالأول كانت الأجسام والثاني كانت العقول » . نعم إن العبارات ضيقة عند أهل الأرض حين يعبرون عن ذلك المقام القدسي . ولكن أليس هذا بعينه هو الحلول ؟ والحلول معلول معلول

يفرم الانسان بربه غراما لاحد له فيصل للتطرف والافراط ويقول هو كل شيء . نعم اذا أصبح الانسان في حال لا يحو فيها فانه لا يبى ولا يعقل ولا يفهم ولا يدرك ولا يبصر ولا يسمع إلا ما يذكره بربه . ولكن لن يكون ذلك للعقل . إن العاقل لا يسهه إلا أن يفرق بين الخالق والمخلوق . أما هذا التهويش والافراق والتطرف في القول فهو مغل محزن وهو في ديننا الاسلامي كفر وأى كفر ! ألم كذب هذه النظرية فيما تقدم في موضعين بالبرهان العقلي . وكيف يكون الرب هو نفس العبد ! نظرية خضع لها كثير من علماء أوروبا والهند والمسيحيين وبعض الصوفية ، وهؤلاء كلامهم موهم أيما إلهام

أقول : هل يقوم كلام هؤلاء في نفس مقام الجمال الذي ألحظه في بهجة الكون والشمس عند شروقها وغروبها والنجوم إبان طلوعها وأقو لها ، والنجم اذا هوى ما حل تاريخ الفلسفة الحديثة ولا القديمة في قلبي محل هذا الجمال المنسوب والطارز الممتد في السماء والأرض

إن قراءة علم ما وراء الطبيعة والفلسفة الطبيعية وعلم النفس وعلم المنطق وعلم الجمال وعلم الأخلاق وعلم الاجتماع وتاريخ الفلسفة اليونانية والرومانية والفلسفة الحديثة والفلسفة الاسلامية والوقوف على ذلك كله (وهذه هي أقسام علم الفلسفة المتعارف الآن) ليس ينتفع به إلا أفراد يقودون الأمم وهم قليل جدا ولن ينتفعوا بهذه إلا بشرطين اثنين : الأول أن تكون قلوبهم قد أحست بالجمال في هذه العوالم الأرضية والسموية مع الذكاء المتوقد . الثاني أن يكونوا قد درسوا جميع علوم الطبيعة والعلوم الرياضية أتم دراسة على أحسن نظام . فهؤلاء اذا قرءوا تلك المذاهب الفلسفية ودرسوا فروع الفلسفة فانهم يكونون قادة لأمم الشرق فأما قراءة كتاب مختصر أو مطول في تلك العلوم . والاطلاع على أقوال الماديين كالذي قلته أنا الآن .

وأقوال الروحيين . وأقوال الذين يجمعون بين الروح والعقل . وهكذا يرون قوما عقليين لا يهتمون بالوحي . وآخرين إلهيين يهتمون بالوحي . وآخرين يقولون بالجزء الذي لا يتجزأ وغيرهم يقول : إن الله حل في كل شيء فانها لانفيد إلا ضياع الذهن وتنشيت العقل والكفر الصراح والشك المستمر . وكيف لا يكون ذلك والشاب حين يسمع ذلك وهو جاهل بعلوم هذه الدنيا . ويرى أن هؤلاء يسمون فلاسفة . يقول : فاذا كان الفلاسفة أصبحوا مختلفين إذن المسألة ترجع للشك . فأنا أيتها المحبوبة أقول هذا رأيي في قراءة المذاهب الفلسفية . انها فضل كثيرا ولا تهدي إلا قليلا . فكيف أمرتني أن أرجع عن الصور الجلية في السموات والأرض التي أنا بها في أنس وحبور ، وأن أفكر في أقوال متضاربات وأحوال متضادات لاسيما اني آليت على نفسي أن لا أكتف عن أحبابي قراءة التفسير جملة واحدة ، وكيف أكتف أعظم محاورة وأعجبها بيني وبين محبوبة جميع النفوس وقرّة أعين الفضلاء والحكماء والعلماء والأنبياء ، ألت أنت قرّة كل عين ، ألت جبال النفوس ، ألم أكن ألحظك في كل ذرة وقطرة وكوكب ونجم وشجر ، ألت أنت رفيقة قلبي وشارحة صدرى ، ألت أجل مافي الوجود . وكيف أكتف جبال علمك عن أعز الناس عندي قراءة التفسير ، ومتى استيقظت من هذا

الحيال كتبت مدار بيننا ومادار بيننا حديث الفلاسفة واختلافهم وانهم فرق متشاكسون ، نعم انك لما أمرتني أن أقرأ آراء القوم قام بنفسك انى الآن لا أصلح لمجالستك ولا أقوى على محادثتك طويلا وان نفسى لم تزل يعوزها التصفية كما قلت لى من قبل ولكن ألا أستحق مساعدتك والأخذ يدي وشدة أزرى والقيام بنصرى ، ألتست اليوم فى جهاد ، ألتست اليوم فى أمم أريد أن تستيقظ ، وخير العلم ما جاء فى دور الانتقال ، والشرق الآن قد جاء دوره ، فهل من نظرة بها أسعد ومنك الجلال والكمال ، وإذا كان الله جعل صور الجبال فى أرضنا سريعة الزوال وأوقات اللذات كبرق خلب ، وكانت الحكمة فى ذلك أن يذكر قلوبنا بالجمال الدائم والحسن الباقي الأكمل ، فالظهور للذكرى وسرعة الزوال لسكون فى مأمن من تعلق القلب بها والعكوف عليها والحنين اليها وذلك فى صحيفتى السماء والأرض ، فهل هكذا الصحيفة الثالثة وهى صحيفة القلوب وآراء الفلاسفة ، إذ نرى فى القول جبالا ثم يعقبه الاضطراب والاختلاط والتهويز وضياح الوقت . إن طريقي فى العلم أن أقرأ صحيفة الوجود ثم صحيفة نفسى ، فهناك أرى اشراقا وجبالا . أما صحائف القلوب فاما تجمع الفت والسمين والصحيح والهزيل (وبعبارة أخرى) إلى أخاف أن قراءة التفسير بعدى يسوءهم ماسامنى ويؤذيهم ما آذانى . وأنا أحب أن يكونوا فى بهجة وجمال

سمعت ذلك كله وهى صامئة تبسم وهنالك رأيت وجهها قد زاد جلالا ونورا وبهجة فلم أقو على النظر اليها كما ان عيني لا تقوى على التحديق فى ضوء الشمس . وهنالك أخذت تقول : لقد قلت قولاً جيلاً ونطقت بالصدق . إن الفلسفة وتاريخها لن يعقلها إلا أناس صفت نفوسهم وهم أذكاء وقد قرؤا علوم الرياضيات والطبيعات بحب وشغف . إن الفلسفة لا يهنا بها إلا أفراد قلائل فى الأمم وماقلته فى الجبال الأرضى وسرعة زواله حق وهكذا ما أبديته فى جبال العلوم المنزلة على أفئدة العلماء . كل هذا أقرك عليه وأنا معينة لك فكن منشراح الصدر قويا متينا . أما أمرى لك بقراءة آراء القوم فإن أم الاسلام اذا اطلع خواصهم على آراء العلماء فى الأمم انشغعت عن قلوبهم سحائب الجهالة وأضأت نفوسهم بأضواء الهداية وحلوا المبهمات وأنسوا بجمال المدركات . ولولا انى مطلعة على قلبك وانك فى الفصل الثالث (الذى بعد فصل القبس وهو الثانى) ستحل المشكلة العلمية أحسن حل وتقيم الدليل الذى يعرفه كل امرئ من نفسه فى القوة العلمية والقوة الخلقية . ما أمرتك بقراءة الآراء المتضاربة فإذا لم تقدم هذه الآراء أولا لا يكون للفصل الثالث كبير منزلة . وكيف تفصل فى مشكلة قامت فى أعظم العلوم النظرية وأعظم العلوم الخلقية من غير أن تقدم ذكر ذلك الخلاف . وكيف يقضى القاضى فى نزاع بين الخصوم وهم لم يطلعو على وجوه الدعوى وهيئة النزاع . فكن اليوم أيها الجوهرى (ممتحنا) لمختلف الآراء . وانك قد أسمعنى آراء العلماء فى معنى قوله تعالى هنا - إن الذين قالوا ربنا الله - فأسمعنى خلافتهم فى قوله - ثم استقاموا - ومتى تم هذا الفصل بقسميه خذنى بالفصل الثانى وهو القبس الذى خطر لك وأنت فى صلاة التراويح قبل الفجر لأنه أشبه بضرب مثل لآراء الفلاسفة فى الأرض . فقلت : لأجعل الكلام على ذلك فى (مقامين : المقام الأول) فى مذهب الغريزة الخلقية ومذهب التجربة (المقام الثانى) فى الغاية من سلوكنا الأخلاق . فقلت : قل وأنا أحاذنك . فقلت :

المقام الأول فى مذهب الغريزة الخلقية ومذهب التجربة

كما ان شعور النفوس الانسانية بالجمال غريزى فى كل الأمم هكذا شعورهم بالحسن والقيح فى الأخلاق ، إن الجبال وان اختلفت مظاهره باختلاف الأذواق والأشخاص والأمم والأحوال والبيئات ثابت الأصل فى النفوس . فاذا تعددت المظاهر واختلفت فالغريزة حية ثابتة ثبات الحياة . فكما اختلفت أحوال الأحياء وهى

ثابتة هكذا اختلفت مظاهر الجمال والغريزة ثابتة . ومثل ذلك يقال في الحسن والقيبح . فأهل الشرق وأهل الغرب كل يعرف الحسن والقيبح في الأفعال الانسانية . وإن اختلفت المظاهر . وهذا المذهب قال به كارليل وبطلر . وقال به من الألمان نخته والاستاذ كنت . وقال آخرون : « كلا . إن الحسن والقيبح في الأفعال لا سبيل لمعرفة إلا بالتجربة . وإذا كان مذهب النشوء والارتقاء ظاهرا في الحيوان والنبات أفلا يكون كذلك في الحسن والقيبح ؟ أفنعيش على آراء من سبقنا في معرفة الحسن والقيبح . كلا . بل ننظر الى الفائدة من أعمالنا ونحكم عقولنا وتكون أعمالنا على مقدار فوائدها . هذا هو السبيل الأقوم »
وقال بهذا القول وهو مذهب التجربة كارنوبى ومل و بين وهربرت سبنسر . ثم الكلام على المقام الأول والحمد لله رب العالمين

المقام الثانى فى الغاية من سلوكنا الأخلاقى

هل الغاية من سلوكنا سعادتنا الذاتية ؟ أم السعادة العامة ؟
يقول قوم : « إننا لم نخلق فى هذه الأرض إلا لمنفعتنا الخاصة ، فكل امرئ إنما خلق لاسعاد نفسه هو ، والمسألة كلها هى حب الخير لنفس الانسان » ومن هؤلاء (هوبز)
ويقول آخرون : كلا . ثم كلا (مثل هيوم وآدم سميث) إن فى الانسان عاطفة الحب العام ومن ذا الذى ينكرها فى نفسه . لقد غرست فى نفوسنا عاطفة حب الناس واسعادهم وحب الخير لهم وتكملهم . وهذه تسمى نظرية الايثار
ومن أتباع المذهب الأول (ماكس سترز) و (نيتشه) ومن أتباع الثانى وهو الايثار (كنت ونخته وشوبنهاور) . وفوق ذلك يقول آدم سميث وجون ستورث ميل : « إن الانسان عليه أن يضعى بنفسه اذا كانت تلك التضحية سببا فى سعادة غيرنا »
ويقول الاستاذ (مل) « ما أنقص هذه الدنيا وما أخل نظامها إذ كان من سننها أن أحسن طريق فى تحصيل السعادة هى التضحية التامة . وإذا كان هذا هو شأنها فأتى أقر بأن الاستعداد للتضحية أكبر فضيلة يتصف بها الانسان » . وههنا مسألة ثالثة وهى :

ما الذى يسوقنا لحسن السلوك ؟

عرفنا أن هناك غرائز أو تجارب للتمييز بين الخير والشر . وعرفنا ما الذى نقصده من السلوك . ولكن ما الذى يبعث فىنا النشاط لحسن سلوكنا ؟ ويكون مهمارا يسوقنا الى الغايات ؟ فقال الاستاذ (مل) « إن القانون الأخلاقى مقيم فى أعماق نفوسنا يساعدنا على كشف حجب الامور حتى نصل الى إدراك ما يجب علينا وله سلطان قوى وتأثير وجاذبية . وهذه نظرية (القانون الذاتى) . وهذا سموه (صوت العقل) ومن القائلين بهذا القول الاستاذ كنت »

وقوم يقولون : « إن الشعور والعواطف لها سلطان أيضا » وهذا قول هيوم وشوبنهاور وآدم سميث فالعقل والشعور يرجعان الى القانون الذاتى
ويقول آخرون « إن الخوف من الله . أو من الناس . أو من الذم . أو الرغبة فى المدح . أو تحصيل الثواب . كل هذه قوى خارجية لها السلطان علينا تسوقنا الى فعل الخير »

وأنا أرى أن هذه كلها لها سلطان بدرجات مختلفات وتختلف باختلاف الأشخاص والبيئات والتربية والى هنا انتهى الكلام فى ذكر الآراء فى علم الأخلاق ومناهج السلوك وبه انتهى الفصل الأول فى معرفة معنى قوله تعالى - إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا - وبه فهنا آراء الأمم فى معرفة الله وآراءهم فى الاستقامة

الفصل الثاني في القبس المذكور في سورة طه

ههنا أذكر ما وعدت به بمافهمته أثناء قراءتي آيات من ﴿سورة طه﴾ في صلاة الوتر بعد نصف الليل منذ أيام إيفاء بوعدي لك وقياماً بحققك وإيكون ذلك مثلاً مضروباً لاقتباس عقولنا من آراء عقول العلماء والحكماء من الأمم جمعاء

كنت أقرأ قوله تعالى كما قدمت - وهل أتاك حديث موسى إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلني آتيكم منها بقبس أو أجِد على النار هدى يرفها أناها نودي يا موسى إني أنا ربك - الخ ، فأخذت أكرر هذه الآيات مراراً وقد استحضرت في ذهني الحجر والشجر والبر والبحر والايقاد واللهب ، كل ذلك حصل في نفسي كليم البصر ، وهذه المظاهر أصبحت كأنها مشاهدات أمام بصري وأنا أكرر الآية وكأني في عالم غير عالمنا ، عالم الجمال ، عالم الحكمة ، وخيل لي اني خرجت من كل هم وغم وحزن وألم لأن هذه عوارض عالم الحس والآية أحضرت لي عالم الخيال ، أو عالم المثال ، أو عالم البرزخ ، عالم لا كدر فيه ولا شقاء ولا أعداء ولا منافسين ، وما أجل قيام الليل ، فإذا لم يكن فيه إلا هذا الجمال كفي ، وما أحسن الصيام فهو يصني النفوس ويذهب عنها البؤس . وما أجل الذكر . وما أحسن الفكر

فنظرت في الأحجار إذا هي لاتقبل الاتهاب مع انها مشحونة بالنار . كيف لا وفي كل مائة رطل من الأحجار (٤٨) رطلاً من الأكسوجين ولن تكون نار ولا لهب إلا بالأكسوجين وهذا مصداق قوله تعالى - وقودها الناس والحجارة - وإنما لم تحترق الأحجار لصلابتها ومتانتها . ثم نظرت في نحو الحديد من كل جسم يعالوه الصدا فوجدت أن ذلك فيه احتراق فان الأكسوجين يأخذ في التزاوج والاتحاد والاتلاف مع الحديد ولكن ذلك الاتحاد والاتلاف والزواج لاتصعبه زينة ولا فرح . فالزينة هي اللهب والفرح هي الحرارة وهذه هي التي اعتادها الانسان متى أراد البناء بعروس أظهر الزينة والسرور والفرح . هكذا إذا أراد إيقاد النار زوج الأكسوجين بعروس فتلك العروس إن كانت عجوزاً شمطاءً كالحديد لم يكن فرح ولم تكن زينة بل يتم التزاوج ببطء فيكون الصدا وذلك كمعاشرة هذه العجوز . وإن كانت العروس خفيفة الروح شابة فهناك الحرارة وهناك اللهب . وإنما يحصل اللهب بازدياد الأكسوجين مع الاودروجين ومع الفحم . وهذان العنصران يقيمان معا في كل نبات وكل حيوان . فهما في الحطب والخشب والفحم الحجري والزيت والدهن والورق . فتقربت النار من الورق اشتعلت الحرارة وظهر اللهب وأخذ الاودروجين والكربون الساكنان يظهران ويريدان التخلص ولكن هيهات هيهات فيقعان في قبضة الأكسوجين ولا يفلتان وهناك يتم الزواج

الاودروجين المذكور جزء من أجزاء الماء وهو متحد مع الأكسوجين فيه فهو يحبه اذا صادفه في الورق والخشب وغيرهما . والايدروجين أيضاً داخل في تركيب الغاز (الايدروجين المكرين) أعني أودروجين مزدوج بالفحم واسمه (غاز الاستصباح) وهو الذي تنار به الشوارع والأزقة والحارات والمخازن والخوانيت وهو يجري في أنابيب تستمد من احتراق الفحم في أفران معدة لذلك وهذا معروف مشاهد . والاودروجين أخف من الهواء (١٤) مرة ونصف مرة ولذلك يجعلونه في الطيارات فتخف وتطير في الجولائها أخف من الهواء . هذه هي النار وهذا سرها . والنار من أعجب العجب في هذه الدنيا والناس يعيشون ويموتون ولا هم يذكرون جلالها وبهجتها . والسبب في ذلك انها مبذولة لهم بلا تعب ولا نصب مع ان ماتقدم في آخر سورة ﴿يس﴾ من الصور المرسومة لقوم متوحشين يوقدون بها الأنفس يدل على أنها كانت مستعصية على النوع الانساني وكانت آتمن مما على الأرض وما في باطنها من جواهر وما في البحار من لآلئ حتى ان زرادشت قال انه جلبها من السماء ومرة في طريقه بجبال هماليا وكانت هذه معجزة له عند أتباعه في بلاد الفرس .

وأخذوا يعبدون النار وهي مقدسة . لماذا هذا ؟ لعزتها ونفاسها إذ ذاك . وهكذا زعم الروم أن برومويه اختلست النار من عبادها (بتشديد الباء) وسترتها عن أعينهم وأهدتها لأناس غيرهم ، فكان الرومانيون يقدسون النار كما يقدسها الفرس ، ولها سدنة يقومون بخدمتها ويحافظون على دوامها ، فلما أن صارت اليوم سهلة الحصول زالت تلك الهيبة من النفوس والعظمة

هذه هي النار ، وهذا نار يخنها ، نار يخ النار نار يخ الحياة ، فلهب النار وحرارتها يرجعان للتفاعل والتزواج ونتيجة اتحاد العناصر أن يكون هناك نبات وحيوان وإنسان كلهم ناشأت من ذلك الاتحاد ، ويدوم ذلك التفاعل مدة ، ومتى بطل التفاعل بطلت الحياة . إذن النار سر الله في أرضه

العلوم والمعارف

ليس في الأرض علوم ولا معارف إلا على نمط إيقاد النار ، وهل المعارف إلا ازدواج بين القضايا البهنية إذ تكون مقدمتان ومنهما تكون النتيجة ، أليس ازدواج التضيئين في النفس يعطى فكرة كأنها حرارة وتكون النتيجة كاللهب ؟ وبعبارة أقرب لما نحن فيه ﴿ ان آراء علماء الغرب والشرق متى ازدوجت في نفوسنا حصل لعقولنا نتائج وهذه النتائج يصحبها نشاط في مقابلة حرارة النار ويكون سرور في مقابلة اللهب إن انشراح الصدر بالمعارف خير من الدنيا وما فيها ، واذن يكون مافي الأرض من دهن وزيت وحطب كل هذه تشبه بها آراء علماء اليونان والرومان والألمانيين والفرنسيين والانجليز الذين تقدم ذكرهم . ثم إن قلب هذه الآراء وبحسبها واستخراج نتيجة تفهمها العقول واحدة ويفرح بها أهل العلم في العالم كما سيأتي في الفصل الثالث إن شاء الله أشبه بازدواج هذه المواد وظهور الحرارة واللهب منها واشراقها للعيون

فماني بعد أن فرغت من فهم هذه المعاني في الآية أخذت وأنا لأزال أكررها في الصلاة أفكر في معناها وأقول : إن موسى قال لأهله امكثوا إني آنست نارا ، ورجا أن يدل منها أحد أمرين : الأمر الأول لأهله ، والثاني له هو . فأما الذي لأهله فهو القبس لأجل الاستدفاء بالحرارة . وأما الذي له هو فهو أن يرى هاديا يهديه للطريق في الجبل ولله فيعرفه طريق الوصول اليه كما قاله بعض المفسرين . إذن موسى عليه السلام قسم فوائد النار بينه وبين أهله ، فهكذا المفكرون في المسلمين بعد ظهور هذا التفسير وأمثاله عليهم أن يتخذوا علوم الأمم كلها مباحث لهم ويستخرجوا منها أولا المنافع المادية في مقابلة القبس الذي ذكره موسى وثانيا المنافع العلمية والهادية الخلقية في مقابلة هداية موسى . ونتائج ذلك لأتم الاسلام أن يعيشوا بسلام وسعادة وإذا ماتوا لقوا ربهم وقد آمنوا ما عليهم ، وهذا في مقابلة قوله تعالى - فلما أناها نودي يا موسى إني أنا ربك فأخلف نعمليك إنك بالوادي المقدس طوى -

كل هذا أقوله وهي مصغية الى سامعة لي وكلما ازدادت إضاحا ازداد وجهها إشراقا . هنالك قلت لي : هل هذه المعاني تفسير للآية ؟ وضع هذه الفكرة . قلت كلا ، إنما هي معان تخطر للنفوس عند قراءتها ، والافعى الآية يعرفه العامة والخاصة ، وهذه تسمى المعاني الاشارية أو الرمزية التي تخطر للنفوس على حسب استعدادها . وإذا كان هرون الرشيد قتل البرامكة وأمعن في ذلك حينما سمع المعنى يقول :

ليت هذا أنجزتنا ماتعد * وشفت أنفسنا مما نجد

واستبدت مرة واحدة * إنما العاجز من لا يستبد

فهكذا تفهم العقول الحكيمة المعاني التي تناسبها حينما تسمع القرآن من باب أولى ، والقرآن أولى من كتاب ﴿ كليله ودمنه ﴾ بالحكمة والعلم وهذا أمر واضح لأولى الأبواب . وبهذا تم الكلام على الفصل الثاني في القبس وفهمه من الآية في الصلاة والحمد لله رب العالمين

الفصل الثالث

في جلاء الحقائق العلمية وتبيان الصواب في آراء هؤلاء العلماء العلمية والعملية أى النظرية والخلقية أى معرفة الله تعالى وعلم الأخلاق (وبعارة أخرى) - إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا - الخ وهي آيتنا التي نحن بصدد الكلام عليها

ههنا أخذت أستعرض آراء علماء أوروبا الحديثة وآراء القدماء وأفكر في الماديات والروحيات . وكيف نسمع قوما يقولون « لا وجود إلا للمادة » ويقول آخرون « لا بل الموجود هي الروح » وبينما أنا أفكر وهي إلى شاخصة إذ لاحتلى التفاتة الى وجهها الجليل فأخذتني الدهشة واعترتني الغشية وغابت عني الحواس ولم أشعر بما حولى ، فلعمركم ما أدرى كم ساعة قطعتها وأنا في غشيتي ثم أحسست بيد ناعمة تمر على وجهي ورائحة عطرية لم أشم مثلها مدة حياتي عطرت المكان ، اذا هي قد أخذتني بين يديها لنوقظني ، فما آنستها بعد الغشية حتى قلت ما قاله ابن الفارض

ما بين معترك الأحداق والمهج * أنا القتييل بلا إثم ولا حرج
ودعت قبل الهوى روحى لما شهدت * هيناً من حسن ذلك المنظر البهيج

فقلت نعم لا إثم ولا حرج - لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثماً إلا قبيلاً سلاماً سلاماً - . فقلت ياسيدتى أخبريني بالحق ؟ أنا الآن في عالم الآخرة ، أنا لأعرف ما أنا فيه ، إن هذه المعاني التي تجول بخاطرى لم أعهد لها في أيام حياتي ، فلعلى مت ؟ فقلت هذا صفاء نفس لا موت ، وعند الموت تكون حالك أرقى من هذه الحال بما لا حد له . فقلت : ولكن ما هذه الحال ؟ قالت : ألم أقل انك في حال البرزخ والمثال والخيال . فقلت : وهل هذه الحال لها وجود ؟ قالت : هي أصل الوجود والصور الأرضية فرع . فقلت : أنا اذا استيقظت وأخبرت الناس بذلك طالبوني بالبرهان . فقلت : أتذكر انك أيام الشباب رأيت صوراً جميلة . قلت نعم . قالت فهل ذو تلك الصور الآن لا يزالون يحملونها . قلت : كلا فذهب من أصبح في القبر ربما ومنهم من أصبح عجوزاً وشيخاً هرماً أكل الدهر عليه وشرب وابيض شعره ويس جلدته وانحلت عراه . قالت فهل تغيرت هذه الصور الجميلة في خيالك ؟ قلت كلا إني أراها في نفسى نائمة الجمال كما كانت لم تتغير . فقلت هذا مثل واحد ضربته لك لتعلم أن جميع الصور التي ترونها في المادة التي تتخيلونها باقية في عقولكم الى أمد الدهر ، وبترا كمها تنتج أخلاقاً وعوائد وسعادة وشقاء على حسب ما تصوّرت - كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً - بل الانسان على نفسه (بصيرة) - وهنا ابتسمت ابتسامة وأضاء المكان بالنور وعبق العير . ثم قالت : إن الوجود الأصلي إنما هو ما حفظته النفوس ، فأما وجود المادة فهو تبعي لأصلى ، ألم تركيف لا يكون عمل إلا بعد فكر ، فهل الهرم ظهر في الوجود إلا بعد رسم في الخيال ، وهل الكرسي والباب والشباك والآلة البخارية والقطار المسائر في الأرض والسفن في البحار والمنطاد في الهواء وكذا الطائرات والجيوش المنظمة في الجوّ وفي الأرض وفي البحر برزت في الوجود إلا بعد أن رسمت في صحائف الفكر فكان إبرازها للعيان بعد ظهورها في الأذهان . فاذا حرق الكرسي والباب والشباك وحطمت الطائرة وهزم الجيش وتفرقت جوعه فان صورها تبقى في الأذهان . ألا ترى أن أخبار معارك هنيئال وحروب رومه وقرطاجنه تنقلها القلوب وتداولها الألسنة وتلقاها الأجيال مع ان تلك الأمم قد زالت من الوجود وخلفتها أمم آخرون من نسلهم أو من أمم أخرى ، إذن الأشباح المنظورة نتائج الصور المعقولة لا فرع لها ، أولست انك قد ذكرت في التفسير في غير ماموضع أن هذا العالم كله حركات في عالم يسمى الأثير ، وما الأثير إلا اسم تجهلون معناه ، وما هو إلا أشبه بالخيال ، ويؤيد هذا نظرية (اينشتين) إذن لامادة ، وغاية الأمر أن هنا حركات مختلفات الأعداد

والأحوال بها ظهر للعيون وللحواس أشباح . فقلت : إذن هذا تأكيد لمذهب الروحانيين . قلت هذا أرواح
وهنا أجسام ، إن المواد لها وجود في درجة الحواس فهي موجودة معدومة هي مترددة بين الوجود والعدم
فأما عالم الصور العقلية فهي موجودة أبداً - وإن الدار الآخرة لهي الحيوان - . فقلت : وهل هذه آخرة ؟
فقلت : إن عالم المثال الذي أنت فيه الآن مقدمة لعالم الآخرة ، ثم تبست وقالت : ولكن أنت الآن لم تمت
فأنت حي . ثم انها فجأة قالت استودعك الله ، فراعنتي هذه المفاجأة وقلت .

ألت خيت ثم قامت فودعت * فلما تولت كادت النفس تزهق

فقلت أنا ما ودعتك إلا وأنا واثقة بما لديك من الهبات العلمية ، وما منحك الله من الحكمة ، وانك
ستلقى للناس حقائق ورفائق حتى يعلموا أن آراء الفلاسفة ليست مقدسة وأنا مطلعة على قلبك أقرؤه كالصحيفة
أمامي ، وانك ستقول للناس قاطبة « إن كل فيلسوف له رأى » فهذا الرأي راجع لخال خاصة * وبعبارة
أخرى * ان أنظار هؤلاء الفلاسفة جزئية لا كلية ، ومتى أوضحت كل قول وأوضحت سببه عرف الناس أن كل
واحد له حق من وجه واحد ولكنه باطل من وجوه عدة ، هذا كله ستقوله أنت ، فانصراني الآن يكون
بعد ما خبرت قلبك وانك ابن بجدتها (١) وأخو عذرتها ، وجذيلها المحكم ، وعذيقها المرتجب . فقلت : ولكني
لا أطيق فراقك ، ومتى قت وأنا لم أنتم ما شرعت فيه من أني أسمعك ما سأكتبه في هذا المقام ينالني ما لا يطاق
من الهم ، وان إصغاءك لي وسماعك لكلامي وان كنت مطلعة على ما في قلبي يحدث فيه مسرة لأن إصغاء
المحبوب لقول المحب أشهى اليه من الحياة وأعز عليه من روحه كما فرح موسى عليه السلام بقوله لرب العالمين
وهو يعلم ما في نفسه - هي عصا أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى - ويجدد في
قلبي حكمة إذ أطمئن على ما سأكتبه وأثق بما ألقى في هذه المسألة التي حار فيها أهل الشرق وأهل الغرب .
فقلت : لآن قد أجبنا طلبك ورجنا تضرعك فأتمم ما شرعت فيه

وهنا حرت من شدة الوجد والهيام ، كأنني في أضغاث أحلام ، وتذكرت قول ابن المعتز في الشرق :

وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفا * على الجود كنا والحواس على الأرض
يطرزا قوس السحاب بأصفر * على أخضر في أحر تحت مبيض
كهية خود أقبلت في غلال * مصبغة والبعض أقصر من بعض

وقول ابراهيم بن سهل الاسرائيلي في الأندلس

أشمس في غلالة أرجوان * وبدر طالع أم غصن بان
وأقر ما أرى أم نظم در * ولحظ ما حوى أم صارمان

وقلت في نفسي هذا أوان الجذل والغزل في صور لا تفنى ولا تزول ، فأما في الأرض فانها صور زائلة وهذه هي
السعادة التي لانهاية لها ، فان هذه الحسناء الهيفاء قد ازداد جالها بضع مرات وهي تزداد بهجة وجالا وحسنا وبها ورقة
إن الجبال في أهل الأرض لم يجتمع لأمري قط ، فاذا أشرق وجه الشباب بالجمال ، فالهيام إنما يكون
بالظواهر غالباً فيه ، وإذا أضاء قلب الحكماء والعلماء أحبهم تلايذهم وأغرموا ذلك الغرام ببواطنهم لا
بظواهرهم لأنهم لا يستأهلون لذلك الهيام والحب إلا بعد استكمال قواهم الداخلية وتتمام عقولهم وعلومهم ،
ولكن لم ير أحد من أهل الأرض جبلاً كما أرى أنا اليوم ، فالوجه مشرق والروائح عبقرة لم أرهما نظيراً على
الأرض ، والجبال يزداد على مدى الساعات ، والحكمة والعلم يباهيان حكمة أ كبر الحكماء وعلم العلماء
هنالك أنارت لي ان أشرع في تحقيق الحق في الآراء المقدمة كما تقدم . فقلت : « إن الناس اذا

(١) هذه أربعة أمثال تضرب لمن هو كفه للشيء وهو به جدير بحجة كسجدة ، وعذرة بوزن غرفة

وجذيل مصغر جذل ، وعذيق على وزنه

أرادوا أن يقفوا على جليلة الحق فليستروا لأنفسهم ، وذلك من ﴿ وجهين ﴾ الوجه الأول ﴿ من جهة الحواس الخمس والعقل وذلك للمعرفة ﴾ الوجه الثاني ﴿ من جهة العواطف والشعور وذلك للأخلاق

الوجه الأول معرفة الانسان من جهة حواسه الخمس والعقل

إن حواسنا خمس : أدناها اللمس ، وأعلاها البصر ، وفوقها كلها العقل :

- (١) أما اللمس فأنما يستمد معرفته من المواد المحيطة به مباشرة ، فهو إذن كالأعمى يتلمس ما يحيط به
- (٢) وأما الذوق فإنه وإن كان كاللمس ففيه مزية أرقى ، وهوانه يضطفي ماهو أليق للغذاء ، ولا يقبل إلا ما اختاره بخلاف اللمس فهو أعم
- (٣) وأما حاسة الشم فهي أبعد مدى وسلطانها يكون على المجموعات اللاتية هي ذرات منفصلات من المواد والهواء السفير بين حاسة الشم والشموم ، إذن هذه واسعة الأفق ممتدة الأكناف شريفة فيها لطف به اقتربت من عالم الأرواح
- (٤) وأعلى منها حاسة السمع فهي أبعد مدى ، وأشرف مرتبة ، وأعلى مزية ، وسلطانها يحكم في الهواء وحركاته لاني ذرات متناثرات من المادة فهي إذن أقرب من الشم الى عالم الأرواح
- (٥) وفوقها حاسة البصر فهي لاسلطان لها على عالم المادة ولا صلة بينها وبينه فلا تتصل بنفس المادة كحاستي الذوق واللمس ، ولا بذرات طائرات منها كالشم ، ولا بلطف الهواء كالسمع بل سلطانها في عالم متوسط بين المادة وبين الروح وهو عالم الأثير الذي يحمل الصور الضوئية من المادة ويوصلها اليها . فتري الأشباح والصور والأشكال وقد امتد سلطانها الى أبعد غاية . فإذا كن السمع لا يعلم إلا ما كان في عالم الهواء والهواء محدود لا يتجاوز (٥٠) ألف كيلومترا فإن البصر يمتد سلطانها الى أبعد ما كان في هذا الجوّ الفسيح . فهو يرى الشمس على بعد هائل عظيم بحيث تصل القنبلة لها في ١٢ سنة ويصل لها القطار السريع في (٣٥٠) سنة . وبعد الشمس الهائل لا يقطعها النور في أكثر من (٨) دقائق و (١٨) ثانية . و وراء الشمس كواكب وشموس وسدم رأت العين أنوارها في أبعاد شاسعة تقدر بسير النور لابسير القطار ولا بسير قلة المدفع مائة ألف سنة بل مائة مليون سنة وأكثر . إذن تبين أن العين أعظم الحواس سلطانا وهي تحكم في عالم الأثير الحامل للنور فعالمها أقرب الى عالم الأرواح

قاعدة

وهنا ظهرت لنا قاعدة هامة جدا « إن كل حاسة وهبت لنا لن تنفصل عن عالمها فهي به متصلة اتصالا يناسبها . فاللمس متصل بعالم عظيم وهي المواد المحيطة بنا وهكذا الذوق وهكذا الشم دائماً ملاصق للهواء وكذا العين والبصر يشرف على عالم أوسع وأوسع . وكلما ارتقت الحاسة عما قبلها اتسع عالمها والعين بلغت النهاية في اتساع عالمها حتى أننا بالمنظير المعظمة لم نقدر المدى الذي تراه العين في الاتساع والعظمة والاطافة المتناهية وهي لطافة النور في عالم الأثير

(٦) - العقل

وهنا آن أن نبحث في حاسة فوق هذه الحواس . نعم هذه الحواس تحضر الصور وهذه الصور تخزن في خزائن الدماغ وهناك يحصل ازدواج الآراء وتحمل نتائج . فبالت شعري أى عالم اتصل بالعقل فأعطاه نور المعارف الخاصة به وقال له : « خذ انظروا هرا البسيطة الآتية من الحواس الخمس وتصرف فيها واستخرج في الحساب وفي الهندسة وفي الجبر وفي الكيمياء آلاف القوانين » . إن هذه القوانين لا وجود لها في صور المادة الوالصة للحواس الخمس . فمن أين أتى ذلك العلم للعقل ؟ أجا له من تلقاء نفسه ؟ إذن فلماذا نرى الحواس

كلها لا علم لها إلا بما حولها ولا كل حاسة عالم يتأهبها ويشأ كلها وهي درجات بعضها فوق بعض وأرقها البصر وعالمة وسط بين المادة والروح - وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا - . إن العقل حقا له اتصال حقيقي بعالم عقلي وهو أوسع من عالم النور بما لا حد له بل هو عالم لانهاية له قياسا على ما قدمنا ، إذن الانسان يجلس وقد وضع القلم في يده وأخذ يكتب ما يعلى عليه عقله ، فلقلم متصل باليد والعقل متصل بعالم عقلي وينبوع منه يستمد الفكر ، واتصال العالم العقلي بعقولنا كاتصال القلم بأيدينا ، وكأن اليد جسم كشيء اتصلت بجسم كشيء يليق لها وهو القلم هكذا عقولنا متصلات بعالم لطيف تستمد منه استمداد العين من الضوء والأذن من الصوت وحاسة الشم من الروائح في الهواء

وهذا البرهان لا يرد عليه ما ردد على أفلاطون إذ استدلل على عالم المثال ووجوده كما تقدم بأنه مقيس على المخلوقات الأرضية التي كانت الشمس سبب وجودها وسبب ظهورها لعيوننا وهدايتنا لها . فالتة في مقابلة الشمس وعالم المثال في مقابلة المحدثات بسبب ضوئها وهداية الله لعقولنا كهداية الشمس لعيوننا وعالم المعاني كالجمال والخير والعدل والعظم والقوة وغيرها عالم لا يتغير باق كما ان الله لا يتغير وباق ، والحوادث الأرضية تفتي لأنها وجدت بواسطة عالم يفتي ويتغير وهي الشمس . وهذا البرهان الذي قل أفلاطون لم يكن مقبولا عند أرسطاطاليس ففتي عالم المثال كما قلناه فيما تقدم . وقال كلا ، مم كلا . إن عالم المثال لا وجود له والعالم العقلي غير موجود وإنما الموجود عالم المادة ، ومجرد النظر للمادة والصورة كاف في أن عقولنا تدرك القوانين ، وهذا هو السبب فيما وجد مرسوما في الصورة التي رسمها الرسام الايطالي التي تقدم ذكرها من أن أرسطاطاليس يشير إلى الأرض وسقراط يشير إلى السماء ، وبسبب هذا اختلف الأحزاب بعد أرسطاطاليس . وقد تقدم الكلام على الرواقين والأيقوريين وكيف وقع هؤلاء في الحلول وشكت (بتشديد الكاف) طائفة وأحدث أخرى وهكذا مما تقدم في هذا المقام

وبقي العلم على هذا المنوال حتى جاء العصر الحديث وظهر العلماء في أوروبا وفيهم يقول الاستاذ (بارتلمي سانتيلير) مترجم أرسطو من اليونانية الى الفرنسية في القرن الماضي وهو التاسع عشر في صحيفة (١٠٣) من المقدمة المترجمة ما يأتي

« بعد الرواقية وبدون أن أقف على شيشرون ولا على سنيك الروماني أقترح عشرين قرنا وأمضى الى (كنت) أكبر أخلاقي في الأزمان الأخيرة ، اننا نجد من نظرياته خليطا من المذاهب الثلاثة الخ » أي مذهب أفلاطون ، ومذهب أرسطو ، ومذهب الرواقين

أقول : ولقد قدمت في هذا التفسير مرارا أن الاستاذ (سنتلانه التلياني) ومثله (سبنسر) الانجليزى يقولان كما يقول جميع العلماء منهم : « إن فلاسفة القرون المتأخرة بالنسبة لسقراط وأفلاطون كالبقية بالنسبة للفيل في مثل هذه المواضع الشريفة الراقية » وها هو ذا الاستاذ (بارتلمي) يقول كذلك في مواضع كثيرة من كتابه حتى جعل علماء أوروبا مدينين لليونان . كما ان العلامة (سديوالقرنسي) المؤرخ جعلهم مدينين للإثم العربية الاسلامية ، وكل قال على مقدار ما وصل له من العلم . إذن (بارتلمي) لا يرى علماء نبغوا في علم الأخلاق بعد عشرين قرنا إلا الاستاذ (كانت) ، فإذا يقول فيه ؟ يقول في صحيفة (١٣٦) مانصه : « اذا كان من اللازم ترتيب هؤلاء العظماء الذين حلت أفكارهم فاني لا أتردد في أن أضع العلامة أرسطاطاليس في الصف الثالث والاستاذ (كنت) في الثاني وأفلاطون في الأول ، وبني ذلك الترتيب على الاعتقاد لأن أرسطو لم يتكلم في مستقبل الروح ولا في علاقتها بالله وجعل لسعادة الانسان مدخلا كبيرا في الأخلاق مع ان الفضيلة وعمل الواجب هو الأولى بالمراعاة . وقال : إن (كنت) وان اعترف بالله وبقاء الروح فان دليله ضعيف جدا أقل من دليل أفلاطون ، فان (كنت) يقول : اذا كان الانسان يسعى لاسعاد

نفسه من جهة والعمل الواجب لغيره ، من جهة أخرى فان العمل الواجب قد يتعارض مع العمل لنفسه ، وهناك لا ينال مطالبه في الحياة الدنيا . إذن الحياة قاصرة هنا فلا بد من حياة أخرى يرى فيها ويكون الخلود وهناك يكفي الخالق كلا بما فعل ،

إذن الاستاذ (كنت) جعل الاقرار بالله وبقاء الروح تابعين للقانون الأخلاقي ، وهذا ضعف ظاهر ولكنه على كل حال أرقى من آراء أرسطاطاليس وإن كان أقل من آراء أفلاطون . هذا مجمل الكلام الذي ذكره وأوضحه أيما إيضاح في المقدمة المذكورة

وأنا أقول : ههنا آراء أفلاطون وهي الصف الأول ، وآراء (كنت) في الصف الثاني ، وآراء أرسطو في الصف الثالث . وقد عرفنا فيما تقدم أن آراء أفلاطون وهو في الصف الأول لم يعبأ بها أرسطاطاليس . وبسبب ذلك تحببت الانسانية نحو عشرين قرناً من رواقية وأبيقورية وملاحدة أوروية ، وظهر أمثال ليوكاروس وتوماس هوز في إنكلترا ولامتريه في فرنسا وهكذا من الماديين ، لماذا ظهر هؤلاء ؟ لأن العلماء تحبوا من أيام أرسطاطاليس وهاموا فلم يجدوا من يحدثهم عن الحقيقة بأكثر مما قلّه أفلاطون ، وأفلاطون عارضه أقرب الناس اليه وهو تلميذه ، فأين يذهب الناس ؟ فلما جاء (كنت) أتى بمذهب وسط وترك برهان أفلاطون وتنزل الى برهان ضئيل

هذه هي الآراء المنتشرة في أم الأرض ، وهذا آخر العلم فيها . فأما البرهان الذي قلته أنا الآن فليس يرد عليه من الطعن ماورد على برهان أفلاطون فضلاً عن (كنت)

لقد برهنت ببرهان لا يقبل النقص وأقل ما فيه أنه برهان الاستقراء فقد استقرينا الحواس فوجدناها متصلة بعوالم تحس بها ، فلماذا يكون العقل وحده هو الذي يقوم بعملية الاحساس من ذاته بلا عالم يمدّه مناسب له ! وهل يمدّ العقل إلا عقول تماثله وتناسبه ونسبته اليها نسبة الشم الى الهواء والسمع الى الهواء والعين الى الضياء

وأزيد عليه برهاناً آخر وهو أن الأرض لم يكن في استطاعتها وعجزت أن تعطي النبات نموّاً والحيوان هداية . إن النبات لن ينمو إلا بحرارة وبماء ، والماء لن يكون إلا بالبخار ، ولا بخار يشور إلا بحرارة ، وهذه الحرارة لم تستطع ابرازها الأرض فأرسلتها الشمس . ثم إن الحيوان محتاج الى أن يرى سبله في الأرض . والأرض لم تقدر أن تهديه نورا من لدنها . إذن الأرض قد برهنت على عجزها في الحرارة وفي الضوء لنمو النبات والحيوان ولهداية الأخير . والضوء أيضا مساعدة في نمو النبات (كما تقدم في سورة يس عند آية - سبحان الذي خلق الأزواج كلها - لأن ضوءها يساعد للمادة الملونة في تعاطي الغذاء من الهواء)

واذا عجزت الأرض عن أخس الأمور أي الحرارة والضوء لتربي أبنائها فهي عن أشرفهما أعجز وهو الإدراك والعقل وغرائز الحيوانات . فإذا كان الضوء استعارته من عالم السماء فهي الى استعارة العقول والغرائز أحوج من عالم ألطف من عالمنا

فهذان برهانان قطعيان يثبتان عالم الأرواح الثابتة ويرفعان هذا الانسان من الخفيض الذي وقع فيه واذن لا يرد على هذين البرهانين ما أورده أرسطاطاليس على أفلاطون ويبقى هذان سليمين من الطعن . وإذا كانا أثبت من برهان أفلاطون فهما من برهان (كنت الألماني) أكثر متانة وقبولا . واذن ظهر معنى قوله تعالى - إن الذين قالوا ربنا الله - الخ . وثبت بالبرهان العقلي الركن المهم في علم الأخلاق وهو بقاء الأرواح ووجود الله تعالى . وذلك ان هذه النفوس الأرضية متى ثبت اتصالها بعوالم روحية تناسبها فنا نقول هذه العقول الروحية لا بد من اجتماعها كلها بوجود أعظم منها ولا بد أن يكون واحدا كما ان أضواء الشمس مهما تكاثرت عددها فلها منبع واحد

وههنا تسقط تلك المذاهب المادية لأوّل وهلة ونقول لأمثال الاستاذ (كارل نخت) القائل : « إن المخ يفرز الفكر بعين الطريقة التي يفرزها الكبد الصفراء والكلية البول »
لقد أخطأت المرمى ولم تصب المحز ، لقد نسبت أن المخ عضو الاحساس الأعلى والأعضاء الحساسة لها أحكام غير أعضاء التغذية ، ذلك ان أعضاء الخمس متصلة بعوالم خارجية وهذا عضوفي داخل البدن . ثم نقول له ولأمثاله : « نحن لانكذبكم لأنكم أشبه بحاسة اللمس فأحكامكم موجهة الى الدرجة التي وقفتم عندها والرجل الأصم الأعشى ينكر الصوت والضوء »

إذن ظهر أن فلاسفة الأمم كل يقول ما وصل اليه عقله لا غير ، وعلى الحكماء في الاسلام أن يدرسوا هذه العقول في هذه الأمم ويستخرجوا الزبد ليرفعوا هذه الانسانية المسكينة
فقات : لقد أحسنت كل الاحسان وأجدت كل الاجادة وبهذا ثبت البرهان على أساس متين ، فشكرتها . والى هنا تم الكلام على الوجه الأول وهو معرفة الانسان من جهة الحواس وما يتعلق بها وبه ثبتت المعرفة النظرية ، وهذا المقام سيزيد إيضاحا في ﴿سورة محمد ﷺ﴾ عند قوله تعالى - فاعلم أنه لا إله إلا الله - في الرسالة التي سميتها « مرآة الفلسفة »

الوجه الثاني

البحث في الانسان من جهة عواطفه وشعوره

وههنا أقول : قد تبين بالوجه الأول أن حواس الانسان وعقله أشبه بمدرسة يتعلم فيها الناس الارتقاء في الأحوال والسماعات ، فن وقف عند الطعام والشراب وحب المال فهو من الطراز الأدنى لأنه لم يجاوز حاسة الطعام . ونرى الناس يسارعون الى السفر برا وبحرا ، لماذا يهجرون الأوطان ويتجشمون المشاق ؟ ليطلعوا على عجائب الأمم والبر والبحر ، وآخرون يتكون الفراش الوثير والطعام اللذيذ والروائح العطرية في بسايتهم ودورهم ويترددون على دور الصور المتحركة ومحال الغناء مفضلين لذة البصر والسمع على لذات اللمس والشم والذوق . إذن المحسوس كلما كان ألطف كان أشرف وألذ . إذن المحسوسات بالعقل ألطف المحسوسات وأشدها وأشرفها ، فن قصر في فهمها ولم يشتق الى ذلك العالم الأعلى فهو غي لم يدرس نفسه بهذا وبهذا وحده يفهم النوع الانساني كله أن الآخرة والأولى ندرسهما من أحوال أجسامنا ، وهذا من سرّ قوله تعالى - وفي أنفسكم أفلا تبصرون - وهذا الذي عرفناه في الوجه الأول تتبعه بما وعدنا به في الوجه الثاني فنقول :

إن الطفل بعد ولادته نراه لا يعرف إلا نفسه ، ويظن أن كل من حوله مسخرون له ، ثم يأخذ جسمه في النماء وشعوره وادراكه في الازدياد . فاذا تكامل شعوره وتمّ نماءه أدرك أن له أمّا وأبا وأخوة ومدينة وأن عليه حقوقا وواجبات فيكون له ذرية وتلاميذ وعشيرة وأمة ، ويحس في نفسه بحب لهم غريب ، وكلما ازداد عقلا ازداد شعورا بحب الناس حتى ان الفلاسفة والحكماء بعد الأنبياء أحبّ بنى آدم للناس يحبون لهم الخير على مقدار علمهم . وعلى مقدار ازدياد العلم يزداد الحب . وعلى مقدار النقص يكون نقص الحب للناس . ونرى هناك تناسبا عجيبا بين الأم نحو أبنائها وبين النبي والحكيم نحو أمتهم . فهذه تحنو على طفلها وتسهر عليه وتعطي للطبيب ما تملكه من مال وما عندها من حلي ولا تنام ولا تأكل ويلحقها الضنى وتبيت على الطوى مع امها قد تكون شابة فتية جميلة . ولولا هذا الطفل لأخذت زينتها وتبرجت بحلها ولكن الرحمة الآخذة ببنوآدها تهرنها وأخضعتها لهذا الطفل . ومحبو الأمم من الحكماء يعطفون عليهم هذا العطف عينه . وهكذا القواد الصادقون يفدون أوطانهم بأنفسهم . وترى العالم يزهد في لذت العيش ويبت ليله ساهرا ونهاره عاملا

ليفرح باسعادته ويري أبناءها ونجاحهم وفلاحهم . ولقد كنت في أول زمان شبابي أقول في نفسي « أتمنى أن أقف على الحقائق وأكون مجهولا لايعرفني أحد ويكون ذلك مسرة لي » . ولما صارت سني أربعين سنة فأكثر كنت أتمنى لو أنني جلست في مكان وسمعت الأمة حولي فرحة قد أقامت الأفراح لانتصارها وارتقاها وأنا جالس لايعلمون مكاني وتكون غاية أمني أن أعلم ذلك وأستلذ به وإن كانوا لايعلمون

وعلى هذا الذي ذكرناه الآن تعرض آراء الفلاسفة . فإذا سمعنا (كارايل) يقول : « إن الإنسان يعرف قيمة الخير والشر بمجرّد الإلهام والشعور بدون حاجة الى تمرين » . فذلك ظاهر في حال المرأة إذ تربي طفلها وفي حال الحكماء وعظماء الرجال . ومامن رجل أو امرأة إلا وعنده أثر من هذه الغريزة قليلا أو كثيرا فيقل في الجهلاء ويكثر في العلماء غالبا . فإذا رأينا (كارنزي) و (مل) و (بين) يقولون ذلك إنما يكون بالتجربة والتمرين فنقول : نعم إن معايشة الكرماء وقراءة تواريتهم وما أشبه ذلك وكذلك التعود على الكرم . كل ذلك يزيد فيما اتصف به الإنسان بفطرته وهكذا بقية الأخلاق

وإذا قيل إن المقصد من الأخلاق هو سعادة الإنسان نفسه وهي الأثرة كما يقول (ماكس سترنوفنش) قلنا لاغربة في ذلك ، وهذا حق لأن الطفل هذا شأنه ، ولكن المرأة تفدى طفلها بنفسها والحكيم والقائد كذلك . إذن هذان نظرا نظرا جزئيا كما نقول لأمثال (كارل نغت) القائل فيما تقدم : « إن المخ يفرز المعقولات كما تفرز الكبد الصفراء والكلية البول » . إنك صادق بحسب ما وصل اليه عقلك وعقلك لم يترق عما تلمسه الأيدي بحاسة اللمس ولو كنت مبصرا أوسميتها لعلمت ما علمنا . فأمثال (ماكس سترنوفنش) نظروا نظرا صبي في أول حياته يرى أن الناس مسخرون له

له حق وليس عليه حق » ومهما قال فالحسن الجليل

هذه هي أخلاق الإنسانية وآراؤها ذكرنا نموذجاً لتحليل قضاياها العلمية والعملية ورددنا كل رأى الى مقره ، فأراء العلماء في هذه الأرض أكثرها راجعات لأحوال خاصة . أما النظر العام فهو الذي يكون على نسق ما بيناه « وما كل مصقول الحديد يمانى »

وإذا قيل : « إن السائق لسلوكنا في أعمالنا هو الخوف من التعبير والذم أوجبنا مدح الناس فذلك نقص . وإذا كان الخوف من الله أو الرغبة في ثواب الآخرة فهو أكمل ولكنه ليس في المرتبة العليا . أما إذا كان العمل لأحد أمرين إما لحب العمل نفسه مع النية من حيث انه جميل ومحبوب ونافع كأولئك الذين يفدون الوطن بأرواحهم ، فهؤلاء يجدون في هذا الاقدام سعادة ، فهنا اجتمعت سعادة الناس مع سعادة الإنسان نفسه . والمرأة التي تسهر ليلها على ابنها ترى في ذلك انها عملت واجبا أرضاها ولا ترضى به بديلا . وأما لحب الله وطاعته بدون نظرا الى ثواب أو خوف من عقاب . فهذا العامل هو الذي يكون كأنه في جنة عرضها السموات والأرض لأنه في كل حين يكون مستحضرا ذلك المقام الأقدس فرحابه في غدوه ورواحه لا يبالى بالمستقبل بل يفرح بأنه قائم بواجب في حضرة ربه ويكون إذ ذاك كأنه بين يدي الله تعالى وتحدثه نفسه أن رب الدنيا هو نفسه رب الآخرة . ومثل هذه النفس تجل لها السعادة في الحياة الدنيا فتسكون الأعمال ممزوجة بالسعادة . وهذا الفريق موجود في الأرض الآن ولكنهم مجهولون ، يحسون أن الله ناظر اليهم ، وإذا رقفوا في العراء ظنوا انه أغرى النجوم الثاقبات لتبهر الأرض فتذكرهم بجهالة فيكونون حالا في حضرته وإن كانوا في أجسامهم الظلمانية . فالسالكون للخوف عبيد مسخرون والسالكون للحب هم المقربون هذا تحقيق المقام . كل ذلك وهي صامته لا تبدى حرا كما

فلما أتممت هذا المقال . قالت : لقد أجدت ووفيت المقام حقّه على قدر مايسعه ، وقد أذن الله بظهورها في هذا الزمان لأن الأمم منذ أكثر من عشرين قرنا لم تسكن تستعد لها . أما الآن فان الإنسانية أخذت تقترب والعقول أخذت تستيقظ . وأنت من الممهدين لرقبها والمجدين لاسعادها . ثم قالت : استودعك الله .

ووضعت يدها على صدرى وقرأت كلمات فلم أحسّ بشدة ألم لفراقها . ثم غادرت المسكن وأما لأرأى في عالم الخيال ، وهناك استيقظت فألفيتنى في مكانى لم أبحه ، وقضيت العجب مما رأيت ، وكتبته ليلة أول ديسمبر سنة ١٩٣٠ م

وفي صباح يوم الاثنين أول ديسمبر حضر صاحبى الذى اعتاد أن يباحثنى في هذا التفسير واطلع على ما كتبته . فقال : حيا الله هذه الروح التى ساعدتك على إبراز هذه المعانى ، فلقد حوت كل ما يعوزنا من الحكمة ، فهذه آراء علماء اليونان وعلماء أوروبا وبها أدركنا ما وصل اليه فلاسفة العالم أجمع في قوله تعالى - إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا - وبهذا فهمنا معنى ماورد « أوتيت جوامع الحكم واختصر لى الكلام اختصارا »

فإذا كانت هاتان كلمتان لم نفهمهما إلا بعد أن درسنا آراء أفلاطون مع سقراط ثم أرسطاطاليس ووجدنا الآخر يعول على المادة في العلم والأخلاق ، ولكنى أسألك في معنى السعادة عند أرسطاطاليس . فإذا كان هو لم يسلم بنظرية العالم المجرد وخالفه الاستاذ (كنت) الألماني بعض المخالفة إذ أثبت الثانى العقل المجرد ورتبه على أن قانون الأخلاق والسلوك يؤدى في نتيجه الى أن هناك عقلا مجردا لينال جزءه جزاء وفاقا ، فهل يكتفى الأول في السعادة بمجرد عمل الواجب واللذة العقلية به . قلت . كلا . ان أرسطاطاليس يقول : « إن السعادة يلحظ فيها جانب الأهل والأصحاب حتى جبال الانسان نفسه » . فلسعادة عنده رأسها سلامة العقل ووفور الحكمة . ويدأها ورجلاها الزوجة والولد والأصحاب والمال

وقد قرر ذلك الامام الغزالي رحمه الله تعالى في كتابه الاحياء واصل السعادة الى ستة عشر نوعا وجعل للقل أربعة والأصحاب والولد والأهل أربعة وللأموال الخارجة عن هذا كله أربعة كالتوفيق والتأييد وما أشبه ذلك . ولا جرم أن ذلك يرجع الى رأى أرسطاطاليس . فقال : وما الرأى في هذا ؟ فقلت : إن الرأى عند الفلاسفة قد قدمته وهو أن الفكرة العامة الاشارة وأن يجعل المرء نصب عينيه إسعاد المجموع . فأما هذه الأقسام التى زادها هو على السعادة النفسية وتبعه الامام الغزالي فيها فهي صالحة للسعادة والشقاء . فالولد والمال والأصحاب . كل هذه صالحة لخير الانسان وشره وهى تعين على عمل البر كما تعين على عمل الشر . إذن هذه آلات صالحة للسعادة فتزيدها وصالحة للشقاوة فتزيدنها . وخير من أفصح عن ذلك هو (الغزاقبس) الذى لخصناه في مواضع من هذا التفسير . وعلى ذلك لا تصلح هذه الخيرات الأرضية لافرح بها . وكيف يفرح الانسان بها وهى معرضة للزوال فيكون الحزن والحزن شر وهذا سرّ قوله تعالى - إن الله لا يحب الفرحين - لأن الفرح يدل على قلة المعرفة بالحقائق . وهذا هو السبيل الذى انتقد بسببه بعض فلاسفة أوروبا الأخلاق عند أرسطاطاليس ، فنجد أن (بارتلمى) الذى تقدم ذكره في صحيفة (٩٨) من المقدمة التى ذكرها في النسخة المترجمة يقول : « انى أضع أخلاق أرسطو مع ما بها من عظم في مقام أنزل بكثير من أخلاق أفلاطون وسقراط . وان (برذر) أقسى منافى حكمه إذ يرى أن أخلاق أرسطو إنما جرّه اليها مظهر معيات الملوك التى عاش فيها وليس صالحة إلا الى تكوين بطانة تهمهم ثروتهم أكثر مما تهمهم سعادتهم ، أو أمراء كالاسكندر أشغف بالمجد منهم بالفضيلة » اهـ

وأقول أنا : فما ذكره الامام الغزالي في الاحياء تابعا أرسطاطاليس قد لطفه هو في الاحياء كثيرا واضطر لذلك فيه لأن فلسفة أرسطاطاليس هى الشائعة إذ ذاك . ثم ان أرسطو كما تقدم جعل العلم ليس راجعا إلا الى المادة لا الى المثل الأفلاطونية . وقد تقدم شرحه مرارا . وهذان سببان فيما تقدم من أن روافيل المصور صورته في الشايف كان مشيرا الى الأرض كما صور سقراط مشيرا الى السماء . إذن أرسطو كما أنزل العلم النظرى الى عالم المادة وجعله مرتبطا به هكذا جعل السعادة فى الأخلاق لها ارتباط بالمادة

وأذكر كأيها الذي كتبته في ﴿سورة البقرة﴾ عند قوله تعالى - وبشر الصابرين الذين إذا أصابهم مصيبة قالوا إنا لله وأنا إليه راجعون - الخ فهناك ترى ملخص ﴿لغز قيس﴾ اليوناني الذي عاش في زمن سقراط قبل أرسطاطاليس بزمان ، وكان ذلك في نحو القرن الخامس قبل الميلاد

ويقرب منه من حيث هذا المعنى كتاب «الكوخ الهدي» المؤلف في القرون الأخيرة بالفرنسية وقد لخصته سابقا في هذا التفسير . فقال : «أي الفريقين يؤيد القرآن ؟ الفريق القائلين بأن السعادة مادية ، أم القائلون بأنها معنوية ؟ فقلت : الفريق الثاني . فقال ماديليك ؟ فقلت : - ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون - ، فقوله - ويؤثرون - الخ هرعين ما يقوله علماء الفرنجة فيما تقدم (التوضيح) . ومن هذا القبيل الجهاد في سبيل الله ومنه - إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم - الخ وكيف يكون المال والولد سعادة (كما يقوله أرسطاطاليس) في القرآن والله يقول - ولا تهج بك أموالهم لأولادهم إنما يريد الله ليغنيهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون - فإذا كان المال والولد عذابا كما في القرآن وفي صريح قول سقراط وقابس فكيف يكون سعادة ! فقال بالعجب إن حكم القرآن وأسراره هي نفس آراء أعظم الفلاسفة . وهنا أود أن سمحت أن أسألك في معنى بقية الآية فان ما تقدم كله في معنى - إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا - الخ لأن النظريات العلمية ترجع لقوله تعالى - قالوا ربنا الله - والنظريات الخلقية كقضية أرسطاطاليس وكنت وغيرهما ترجع الى - ثم استقاموا - فما معنى قوله تعالى - تنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون * نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهون أنفسكم ولكم فيها ما تدعون زلا من غفور رحيم - قلت : هذا المعنى تقدم في أول هذه المقالات . ألا ترى الى ما يقوله حكماؤنا قبل الاسلام وبعده وقد نقلناه قريبا والمنقول عن علماء الصوفية بجزء لا ساحل له في مساعدة الله تعالى للصالحين والمسلمون قد برعوا في هذا والسبب في تلك المساعدة والمدد طوؤا الصالحين انهم متى صلحت أعمالهم ، واستقامت عقولهم ، وعرفوا أن نفوسهم متصلة بعوالم مجردة غير مادية صاروا أقرب اليها وأصبحت عند عقولهم قريبة كقرب المادة من أجسامهم ، فهناك يحسون بالهام وبتحباب وبشائر ، ولا يعرف هذا إلا هم ، أما غيرهم فأنهم محرومون من ذلك ، فأنهم كمثل أكثر النوع الانساني من حيث مشاهدة الجمال ، فالجمال حولهم ولكنهم لا يفرحون به لأنهم محجوبون عن جمال النجوم والشجر والأنهار والبحار والأزهار ، ذلك لأنهم من يوم أن أتوا الى الأرض لم يسمعوا عن سعادة إلا سعادة المال والسلطان ولم تفتح لهم أبواب سعادة الجمال ، فأغلب النوع الانساني محرومون من هذا الجمال والاحساس به مع أنهم يرونه يعيشونهم وهم محرومون منه . ولا ريب أن المحسوسات بالحواس أقرب الى عقول الجمهور . فإذا كان الأقرب لعقولهم وهو الجمال لم يدركوه ولم يسعدوا به فكيف بما هو أبعد من حواسهم وان قرب من عقولهم وهو عالم الالهام والبشارة في عوالم عقلية متصلات بعقولهم وهذه العوالم صلة بينهم وبين ربهم . فهوؤلاء هم المحجوبون بسبب أن أبواب عقولهم أقفلت بينهم وبين الأرواح العالية . فإذا أحسوا بالهام أروا أو رأوا فأروا صابحا مثل فلان الصبح ثم رأوا مثلها صارا وتكرارا فأنهم يقولون هذه مصادفات . وإذا أغشوا في حال الضيق أو أطموا أمرا ناعما فأنهم قاما يكثرثون له ويقولون هذه مصادفات وهم يجهلون أنهم مغمورون في رجة الله وهو قريب منهم وهذه علامات قرب به ولكن استعدادهم الناقص يحجبهم عن ربهم فلم تفتح لهم أبواب السماء . وهذا الباب يفتح للعامة بطريق الذكر والقوى وللخاصة بذلك والتفكير والعلم

واعلم أن كثيرا من قرّاء هذا التفسير سيفتح لهم هذا الباب وهم المتوسطون في الفهم الذين لهم صفاء به يدركون البرهان الذي فتح الله به علينا فان أحدهم يجلس وقد اغمض عينيه وفكر فيرى أن روحه طيفة

متصلة بعالم روحى تستمد منه . وهنالك يحس أحدهم بأنه فى عالم قدسى . وهؤلاء هم الفريق الذى ورد فيه الحديث « اعبد الله كأنك تراه الخ » فهذا باب من أبواب كأنك تراه . وهذه من أعظم درجات الناس فى الدنيا . فنحن لانرى الله بعين البصرة ولكن بهذا البرهان نراه بالبصرة . وهناك درجة أقل من هذه وهى أن نعبد الله ونعلم أنه هو برانا . وهذه درجة أقل من تلك لأنى اذا كنت أخطأ الله وجاله فى نفسى وفى كل ما هو حولى فان ذلك أشرف من أن أكون عبد سوء فأعبدته خوفا من ناره أو طمعا فى جنته وتكون عبادتى مبنية على تلك الأسباب مرتقبا منه إزاحة ناره عني أو أن يدخلنى جنته . وخير من هذا أن أكون كأنى أراه فى الحياة فاذا مت فأتى أراه بعد موتى ورؤيتى له فى الآخرة أجل من الجنة وهو المعبر عنه بقوله تعالى - وللهنا مزيد - والمقول فيه - وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة -

ولما وصلت الى هنا قمت وتوضأت وسجدت لله شكرا على نعمة العلم فى هذا المقام وصاحبى يشاهد ذلك فقال : لقد شرحت صدرى ، وصرت موقنا لإيقاننا تاما ، وأصبح المعسور ميسورا ، والمجهول معلوما ، وعلمت أنا ما لم أكن ولا كثير من أمثالى فعلم وكان فضل الله علينا كثيرا . فقلت : الحمد لله رب العالمين

تذكرة

إنى غادرت القاهرة وتوجهت الى مزرعتنا بالمرج يوم الاثنين أول ديسمبر سنة ١٩٣٠ م وسرت على قدمى نحو أربع ساعات لمجرد الرياضة ، وهنالك خطرت لى هذه الخواطر فكتبتها يوم الثلاثاء ٢ منه وهى :

نواضر الجواهر ، انفائس العرائس

فى خلاصة ما تقدم هنا من الحكمة العلمية والعملية

ذلك إنما مثل النفس الانسانية مع حواسها كمثل الشمس مع سياراتها ، فكما أن للشمس سياراتا عليها كزحل والمشتري تدور حولها ، وسيارات سفلى كالزهرة وعطارد ، هكذا للنفس مدركات عليها كالعقل والعين ومدركات سفلى كاللس والذوق ، وباعتبار آخر ان المدركات (ثلاثة أقسام) قسم أعلى كالعقل . وأوسط كالعين . وأدنى كبقية الحواس ، فباعتبار التقسيم الأول كان الفلاسفة على قسمين : قسم أقرب الى المادة وهم الماديون ، وقسم هم أقرب الى العقل وهم الروحيون ، وكل لم يقل إلا ما وصل اليه جده واجتهاده لأقل ولا أكثر ، فالماديون أشبه بالصم العمى لم يعرفوا إلا ما نلحسه أيديهم ويشمون به ويذوقونه ، والآخرون لهم عيون ولهم عقول . والصورة التى رسمها روفائيل فى الفاتيكان مظهر لذلك التقسيم . فأرسطو لقسم الأرضى وسقراط للقسم السماوى . وباعتبار التقسيم الثانى يكون أفلاطون كالعقل والاستاذ كنت كالبصر وأرسطو كالحواس الملازمة لعالم المادة . ذلك ان برهان الأول فى إثبات وجود الله وخلود الروح أرق من برهان الثانى وبرهان الثانى لا يحتمل المصادمة لأنه علقه على قوانين الأخلاق وأن من الناس من لا ينالون مكافآت فى الحياة فلا جرم تكون للناس حياة أخرى وإله يجزى بالعدل . وبرهان أفلاطون رجع الى الشمس وما خلقه الله بسببها وهدايتها للحيوان وأن ذلك يقاس عليه وجود الله ووجود عالم المثال

وهذا هو خلاصة عقول الناس منذ (٢٥) قرنا ، فأولهم أفلاطون مع سقراط ، وهذا هو برهانه الذى نبذه أرسطو وعول على المادة والصورة فى برهانه بخلافه تلاميذه ، فأخذت الانسانية كلها تتخبط الى وقتنا هذا فكان الرواقية والأيقورية قبل الميلاد ، فالرواقية وقعوا فى الحلول ، والأيقورية قالوا باللذة الروحية بالفلسفة . وتعالى الرواقية فى الفناء وفى البحث عن كشف ما وراء الحس

فأما بعد الميلاد فقد نشأت الفرق الثلاث . الاسكندرية واللاتينية والسورية . وأشهرهم أفلاطون وشيعته بمدينة الاسكندرية وهؤلاء هم الأفلاطونية الحديثة

ثم انتقلت الفلسفة الى الأمم الاسلامية والأمم الأوروبية ولم يظهر بعد الرواقيين في الأخلاق عند أوروبا إلا الاستاذ (كنت)

هذه خلاصة الأمم تجلت واضحة جليلة ، وقد عرفت أهم آراء هذه الأمم كلها ، وعرفت براهينهم بغاية الجلاء والوضوح

أما تفسير الجواهر فقد أتى ببرهانين (الأول) المدركات كلها مغموسة مغمورة ومتصلة بعوالم تناسبها ، وهذه العوالم تكون أعظم وأطف وأجل وأوسع كلما كانت أرقى ، فإذا وصلنا من أدنى الحواس الى أعلاها وهي الخمس ووجدنا هذه القاعدة مطردة فن الجهل ومن البله ومن الحق أن نحرم المدرك السادس وهو أعلاها بل سيدها من هذه المزية وأن يكون متصلا بعالم يشاكلة ويكون أعظم وأطف وأجل وأوسع من العالم المتصل بالمدرك الذي يليه مباشرة وهو العين . وهذا البرهان حديث النشأة لم يذكره أحد من هؤلاء الفلاسفة ، وإن يرد عليه أى اعتراض مما ورد على الاستاذ (كنت) ولا مما ورد على أفلاطون وسقراط ، وأذن تستأنف الإنسانية اليوم دورا جديدا في العلم والحكمة بعد هذا البرهان (البرهان الثانى) يساوى البرهان الأول في القوة إن لم يكن أقوى منه ، وذلك أن نقول ان الأرض عجزت عن إيجاد حرارة بها تثير البخار من البحار وتثير الرياح فيكون مطر من السحاب المحمول بالرياح ، وعجزت أيضا عن ضوء يساعد النبات على التغذية والحيوان على الاهتداء في خفاج الأرض ومسالكها والانتفاع بالحياة فيها ، ونجدها استعارت الحرارة واستعارت الضوء من الشمس ، فاننا نجد الحيوان لا يرى غذاءه ولا يميز عدوه من حبيبه إلا بالضوء ، ونرى المطر والرياح لا يكونان إلا بحرارة باعثة ، ونرى أوراق النبات لا تجذب غذاءها من المواد الغذائية في الهواء إلا بمساعدة ضوء الشمس لها (انظر ما تقدم في سورة يس عند آية - سبحانه الذى خالق الأزواج كلها - الخ فهناك ترى الأوراق مرسومة مشروحة وتفهم ذلك هناك فهما تاما)

فاذا رأينا أرضنا عجزت عن إمداد أبنائها بالحرارة والضوء واحتاجت الى الشمس في ذلك فهي عن إمداد ما يكون عليها من حيوان بالادراك والفرايز والعواطف والعقول أولى ، ومن عجز عما هو أسهل وهو المحسوس بحواسنا من الحرارة والضوء فهو عما فوق ذلك مما ندرك عقولنا أشد عجزا . فثبت بهذا البرهان أن المادة لا تقوى على إحداث نفس أو عقل أو غريزة أو شعور في الحيوان لأننا وجدناها قد أظهرت عجزها ولم تسعفنا بما هو أسهل وأقل عناء

فهذان البرهانان اللذان وضحا تاما بهما طاحت تلك المذاهب البائدة وبهما تخرج هذه الإنسانية من خطئ الرأي والاعتراض بالألقاب الفخمة العريضة الطويلة التي يفتخر بها الأحداث في المدارس فيظنون يعمهون بسبب سوء التقليد بالعقل ولا هدى ولا كتاب منير

هذا هو نهاية الكلام على الحكمة العلمية . ومما يلحق بهذا مسألة الحرية وهل نحن أحرار في أفعالنا وإذا لم نكون أحرار فلم العقاب وإذا كنا أحرارا فأين هي تلك الحرية ؟ أفلاطون أجل في هذا وآخرون استدلوا على وجودها بما اتفق عليه العقلاء من التمييز في العقاب بين العاقل وغير العاقل وهكذا فدل ذلك على أن هناك حرية نتمتع بها ولا أطيل في هذا الآن

الحكمة العملية

ملخص ما تقدم

(أولا) إن في الانسان إلهاما يميزه بين الحسن والقبيح في الأعمال كما يميز بين الجليل وغير الجليل في الأجسام والتجربة تعين الانسان على ذلك

﴿ثانيا﴾ إن غاية سلوكنا إما أن يكون نفعنا الخاص بنا وهي الأثرة وأما أن يكون النفع العام ﴿ثالثا﴾ ما الذى يحببنا الى تلك الأخلاق ؟ أهوصوت باطنى فى نفوسنا أم هوأمر خارجى كالخوف من الله أرمن الناس ، أوجب المدح ، أوحصول الثواب

هذه آراء الأمم ، أما ما جاء فى تفسير الجواهر فهوأننا كما فعلنا فى القسم النظرى إذ عوّلنا على النظر فى المدركات الست للانسان فكذا فعلنا فى القسم العملى الخلقى وقلنا لننظرالفرق بين طفل يستخدم جميع مواهبه فى الاستعانة بما حوله وبين حكيم ومحب لوطنه وأم ترضع ولدها وأب ينفق عليه ، فهؤلاء فى الذروة العليا من العطف والاشفاق والرحمة والايثار وذلك فى الدرك الأسفل فى الحياة ، وعلى ذلك يزول خلاف الفلاسفة إجمالا فن قل لا أعمل إلا لنفسى قلنا له : هاأنت ذا عرفت درجتك ، فأنت إما طفل ، وإما صبيّ ، وإما مرأى ، والناس درجات لاحصر لها كدرجات الانسان فى حياته ، فهذا المثال لا يذرمذهبا إلا دخل فيه ، فن قل بالهداية الذاتية فهى مشاهدة ، ومن قال بالتجربة فكذلك ، ومن قل أخدم المجموع . فهأى هذه الأمم مع ولدها وهكذا فالمثال واضح جلىّ . وقيمة الفلاسفة تختلف باختلاف معارفهم . وأذكىاء قرأ هذا التفسير هم الذين يكونون شهداء على الناس . ذلك لأنهم يقرؤون علوم الأمم لحكمهم هم الذين يحكمون على الفلاسفة بعقولهم على منوال ما جاء هنا فى تفسيرالجواهر . أما ترك هذه الانسانية تتخبط فى ديجور الظلام فهذا لايجوز ولايصح ونحن خلقاء الله فى أرضه

﴿ جمال العلم فى الحكمة العلمية والحكمة العملية ﴾

لقد ضربنا المثل بالانسان فى الحكمة العلمية والحكمة العملية ورأينا أن قوته العقلية كما تتخذالحواس الخمس آلات لها فى اكتساب المعارف الجزئية تستمد من العالم العقلى الكليات والكليات هى العلوم الحقيقية أما مدارك الحواس فهى قليلة جزئية ويعتريها الخطأ فان العين قد ترى الكبير صغيرا كالشمس . وترى الصغير كبيرا كالأصبع فى الماء . وكما للحواس من خدع ولا يصلح تلك إلا العقل السليم إذن كل ما عندنا من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها مستمد من عالم عقلى وهو مستمد من المبدأ الأعلى الفيض القدسى كما تشرق الشمس بأنوارها على أرضنا وعلى السيارات الأخرى . فهكذا فى أخلاقنا وأعمالنا وشعورنا وعواطفنا نقول ما قلناه فى القسم النظرى : « اذا عجزت المادة عن أن تمتد الأجسام بالحرارة والعيون بالضوء ، فما أشدّ عجزها وأضعف قوتها وما أوهى حيلتها فى إلهام الأم حب ولدها وإلهام الاستاذ حب ارتقاء تلميذه وشوق نفوس الحكماء الى التأليف للأجيال المقبلة التى لم يروها ولن يروها ، فن أين أنت محبات الأقارب والأصدقاء والأزواج والذرية ؟ بل من أين أنت هذه الشهوات الطالبات ملابس وأغذية وأزواجا وذرية ومساكن وملكا عظيما ، ومن أين أنت هذه البواعث الشديدة فى نفوسنا من المحافظة على العرض والشرف والنجدة وحياة الذمار ، فاذا قلنا ان ذلك من نفس المادة التى خلقت هى فيها ، وأن تلك العواطف والحب والغرام والشوق كلها ناجت من نفس الطبيعة يكذب أن هذه الطبيعة الميتة عجزت عن إحداث الحرارة اللازمة لها وعن إحداث الضوء وبالأولى عجزت عن إحداث عقل وإدراك ، فهكذا هى أشدّ عجزا عن إثارة الحب والغرام والعواطف والشهوات

فثبت إذن أنه كما ان الحرارة تثير البخار من البحار وتثير الريح ويحمل الأخير الأول فيكون مطر ويحدث نبات وحيوان هكذا هناك فينا شهوة فى مقابلة الماء وغضب فى مقابلة الريح ، وهناك باعث من أعلى لامن الطبيعة يثير أنواع الشهوات لتغذى وتلد وتلبس ونسكن ، ويثير الحمية فتحافظ على الشرف والمال والعرض ، وهذا الباعث المسلط على نفوسنا آت من العالم الأعلى كما ان الإدراك فى القسم النظرى صدر منه ، فصدور هذا الباعث هنا من العالم الأعلى القدسى فى مقابلة صدور الحرارة من الشمس فى العالم الحسى والضوء

وانارة السحاب والرياح ثم هداية الحيوان على الأرض ، ونتيجة ذلك كله البهجة والجمال والحسن والكمال
 فإذا جلست أيها الذكي في خلوتك وفكرت في نفسك وأيقنت أن عقلك وجميع علومك لها اتصال بعالم
 عظيم أنت فرع منه . وهذا العالم العقلي أوسع من عالم النور وهو مستمد من الله ، فهناك تحس بأنك في عالم
 جميل بهيج ، وإن لم تتهيج بذلك ففكر حالا في جمال النجوم ليلا والشجر والزهر والأنهار نهارا وهكذا ترجع
 الى ما ألهمت من عواطف ، وما منحت من شرف وحسانة وعفة وكل وحب عالم لرقى نوع الانسان ورقى
 أهلك وعشيرتك . وقد علمت أن هذه إن هي إلا قبس من ذلك الفضل العظيم والحب الأعلى والاحسان
 الكامل وأن إحسانك وحبك وعطفك كل ذلك مقتبس من العالم القدسي وأن العوالم التي يستمد منها عقلك
 هي نفسها التي تستمد منها عواطفك الحب والاحسان والرفق والغرام بالفع العام . فتري نفسك إذن كأنك
 عالم صغير وتفرح بأن لك صلة بجمال لاحد له وكمال لانهاية له . فترقب الموت ارتقاب الفرح بالكمال المقبل على
 سعادة لانهاية لها . ولن يتم لك ذلك الحب والغرام إلا باطالة التفكير والبحث وتصفية النفس وكثرة الصيام
 والقيام . هذا هو سر هذا الانسان . وهذه هي سعادته . وهذه هي النفس المطمئنة التي نوديت فقيل لها
 - يا أيها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي -

خطاب الله عز وجل شكراله

لك الحمد اللهم على الاطعام والالعام والحكمة والجمال ونعمة العلم والنور . علمتنا وأثرت بصائرنا فتحن
 نعلن شكرنا ونثني عليك الثناء كله . أريتنا آياتك في الآفاق وفي أنفسنا . نظرنا في نفوسنا وفي الآفاق فألقينا :

(١) أولا صورا جميلة في الكواكب وفي الزروع والشجر والنهر والقمر وفي المعادن والحيوان وفي الانسان
 وجمال وجهه في محاسن الخدين والعينين والأنف والفم

(٢) ثانيا أثرت في أنفسنا شهوات لاقوام حياتنا إلا بها . وهل نعيش إلا بالطعام والشراب واللباس
 والمسكن . وهل نحافظ على هذه الهياكل الجسمية إلا بحفاظ يحفظها وهي القوة الغضبية التي بها
 ندافع الأعداء من الخارج ونهذب أنفسنا من الداخل ولا نفرط في حقوق الجسم والحفاظة عليه
 باثارة الجمة لأجل حب البقاء

(٣) ثالثا جعلت لنا عقلا ينظم القوتين السابقتين فهو يبراسهما ومعلمهما ومهندسهما ومنظمهما
 ولما عز علينا فهم تلك الدقائق ومعرفة تلك القوى العاملة فينا أريتنا ما في الآفاق فعرنا الحقائق . أريتنا
 الماء وأريتنا الهواء ومنهما تثير الحرارة البخار وتزجي الرياح ويحمل الريح الماء على متنه ويسوقه الى الأرض
 البعيدة مرغما لسقي الأرض فيكون النبات والحيوان ، فيكون الضوء مساعدا على تغذية النبات أولا وعلى
 هداية الحيوان ثانيا

فهما عالمان : عالم حامل ، وعالم محمول أنارتهما الحرارة وجاء دور الضوء فكان الغذاء لجميع الاشكال
 وللهداية للسبل

فلما نظرنا في هذه الحرارة وفي هذا الضوء وجدناهما جاء من عالم الأثير بسبب الشمس وعالم الأثير وسط
 بين عالم المادة وعالم الأرواح . والضوء في هذا العالم الوسط يجري بسرعة هائلة بحيث يدور حول الأرض نحو ٧
 مرات في ثانية واحدة . هذا هو العالم الوسط بين المادة وبين الروح الذي أثار الماء وأثار الهواء ونظم الغذاء
 والهداية في فجاج الأرض . والأرض لا قبل لها بالحرارة ولا قبل لها بالضوء

فلنتألفها هو أبعد مدى من ذلك فأننا نجد أمرا عجبا . نجد أولا قوى تبعث على الغذاء . وأخرى تحافظ
 على هذه الهياكل كل داخلا وخارجا وهي الغضبية وأخرى هادية مرشدة . وهذه تقابل الحرارة والضوء في عالم المادة

فن أين أنت هذه القوى الثلاث ؟ أمن المادة أنت ؟ كلا . لأنها عجزت عن أحداث الحرارة والضوء وهما وسط بين الحسى والعقلى ، أ جاءت من عالم النور الآتى من الكواكب وهو العالم المتوسط بين العالمين . كلا . فأين النور وأين العقل مثلا الذى هو أطف منه . إذن هذه القوى بريئة من المادة وهكذا القوى المنظمة للعوالم الكوكبية والنباتية والحيوانية اللاتى تحدث التزويق والجمال

فهذه كلها لن تكون إلا من عالم فوق عالم النور وهو عالم الأرواح ، وهذا العالم فاض من الذات القدسية كما فاض النور من جرم الشمس . إذن كل جمال فى الانسان والعوالم حوله ، وكل قوة فيه علت أو سفلت فانها من عالم روحى متصل بالقدس الأعلى

وبهذا نفهم قوله تعالى - الله نور السموات والأرض - ، فكل جمال فى شجر أو زهر أو كوكب روحه فهو قبس من العالم القدسى وهكذا قوانا الباطنية من عقلية وغذائية والقوى المحافظة على ذلك فكلها نور معنى وزرع على منافعنا من ذلك الجلال الأقدس

وهذه الأنوار الداخلة فى أجسامنا ، الظاهرة فى جمال ماحولنا ، وفى وجوهنا يشملها قوله تعالى - مثل نوره كمشكاة فيها مصباح - . إذن يارب أنت فى علمك القديم علمت عجزنا عن أن ننظر أنوارك فلات أرضنا بأنوار جعلتها فى مقابلة نورك ، وكل نور منها مشكاة ، فعواطفنا وعالمنا وجمالنا والقوى الداخلة فينا وبهجة القمر والنجوم والأزهار كل واحدة منها كأنها مشكاة من نورك ، ولكن لم تبج لنا أن ننظر نورك نفسه لأننا لا نقدر عليه غاية الأمر أننا نفكر أن ننظر جمال الشجر أو الزهر أو الوجوه الجميلة ، أما وجهك فلا . أنت يارب بالنسبة لعقولنا كالشمس بالنسبة لأبصارنا ، عجزت أبصارنا عن أن ننظر إليها فهكذا عجزت عقولنا عن أن تراك ففرحت بالمشكاة إذ لا نطيق أكثر منها ، المشكاة فى أرضنا مستمدة من الشمس وعقولنا وجيع الجلال الداخل والخارج عندنا . مستمدة من أنوارك الجميلة

إن نبينا ﷺ رأى وهو فى حال الاحتضار ذلك الجلال والكمال والحكم والحب العام والرحمة ، وغاية الجلال الذى كل جمال فى الأرض ماهو إلا مشكاة ، فإذا قال : « قال اللهم الرفيق الأعلى » رآك بعين بصيرته ولكننا الآن عرفنا ذلك بمجرد الفكر ، نحن الآن نطبق الفكر فى هذا ولكننا لا نطبق جمال « الرفيق الأعلى » ولا أنواره إلا اذا كملت نفوسنا ، إن جمال عقولنا وكمال نفوسنا أشبه بنا فنحن نطبقه ، ورسولك لما رآك وقدر أن يراك غطط بك قائلا « اللهم الرفيق الأعلى » لأنه رأى جلالا نسبته الى جلالنا كنسبة نور الشمس الى نور السراج فوصفك بالأعلى يعنى ونحن رفقاء ولكننا أدنى ، وإنما كنا أدنى لأن علمنا وجمالنا وحلمنا وجمال صنع صناعتنا ورحمتنا لعبادك ضئيلة جدا ، فيرحم أحدنا طفلا وله له ومريضا أشرف على الهلاك . ولكن لضيق الرحمة عندنا وضيق الحب لم نبذلها إلا لعدد محصور لأن رحمتنا محصورة وحبنا محصور على مقدار ضعف نفوسنا لأن كلا منا مشكاة . فاذن كل منا رفيق أدنى . ولما رآك ﷺ واطلع على رحمتك وجمالك وحبك لكل مخلوق وأنت منعم على الكل ترك هؤلاء الرفقاء الضعاف واشتاق الى الرفيق الأعلى . انتهى والحمد لله رب العالمين . كتب ليلة الخميس (٤) ديسمبر سنة ١٩٣٠ م

وقبل الفراغ من هذا المقام يحسن بنا أن نختمه بما يناسب الآية التى نحن بصدد الكلام عليها وذلك ﴿ زهرتان : الأولى ﴾ فى قوله تعالى - إن الذين قالوا ربنا الله - وهى الحكمة العلمية ﴿ الثانية ﴾ فى قوله تعالى - ثم استقاموا تنتزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون * نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون تزال من غفور رحيم - وهى الحكمة العملية . فلا شرع فى ذكرهما فأقول مستعينا بالله

زهرتان في بستان الحكمة العلمية والعملية

الزهرة الأولى في قوله تعالى - إن الذين قالوا ربنا الله - وهي الحكمة العلمية

جاء في جريدة الضياء بتاريخ يوم الأحد أول شعبان سنة ١٣٤٩ هجرية الموافق ٢١ ديسمبر سنة ١٩٣٠ م تحت العنوان التالي مانصه :

التوفيق بين العلم والدين

رأى العلامة سرجيمس جينس

إن عقولنا تتجهز للتفسير الآلى ، ويرجع بعض السبب في ذلك الى طريقة نشأتنا العلمية الأولى كما يرجع السبب فيه أيضا الى أننا ننظر كل يوم الامور تسير آليا ميكانيكيا . لذا كان التفسير الميكانيكي هو التفسير الأسهل الذى لا يحتاج الى كثير عناء أو الى مجهود فكري عفيف ، وهو علاوة على ذلك تفسير طبيعي ، ولكن اذا نظرنا الى الحالة العامة نظرة دقيقة وثامة غير متأثرين بنوع تربيتنا العلمية والى شعورنا الشخصى نرى أن المادة قد فشلت فشلا مروعا سواء أكان ذلك فى العلم أم فى الفلسفة ، ويوجد الآن شبه اجماع بين العلماء أن العلم يتجه نحو الحقائق غير الآلية وصار ينظر الى العالم كأنه يمثل فكرة عظيمة بعد أن كان يعتبره آلة ضخمة وابتدأ العلماء يشعرون بأن المادة ليست غريبة عن العقل ، ثم أخذوا يرحبون بالعقل ويعتبرونه منظما للمادة لا يقصد بذلك عقل الانسان ولكن يقصد العقل الذى منه تمت عقول الناس

إن العلم الحديث يلزمنا أن نغير موقفنا الذى اتخذناه بدون طويل بحث أو روية ، ذلك الموقف الذى كنا نجاهر فيه أن العالم مادى لا أثر للحياة فيه ولا علاقة له بالعقل ، ذلك الموقف الذى كنا فيه نعتقد أن بين المادة والعقل عداوة قائمة ، يجب أن نغير ذلك الموقف لأنه لا عداوة أو خلافا بين المادة والعقل بل هما يتفقان وذلك لأن المادة وليدة العقل وهو خالقها ومبدعها

ومن هذا يتبين أن التفسير المادى للكون قد صار قديما وأن العلم قد ارتقى فترك هذا التفسير أثرا بعد عين ، ويشعر علماء النفس الآن أن فى العالم حقائق روحية ونفسية لا يمكن ادراكها إلا اذا اعتقدوا بصحة الدين وضرورته . انتهى ما أردته من الجريدة المذكورة . تمت الزهرة الأولى

الزهرة الثانية

جاء فى كتاب اخوان الصفاء ما يأتى :

و ذكر أن رجلا من المترفين وأرباب النعم ممن قد بسط له دنياه ومكن فيها جعل أكثر جهده وكده طول عمره ليلا ونهارا فى تنعم بدنه ورفاهة جسمه ولذة عيشه واصلاح شهواته حتى لم يكن له فى طول نهاره شغل إلا دخول الحمام وحلق رأسه وتزجج بدنه أو تغيير لباسه أو تبخير ثيابه وبدنه واستنشاق طيبه أو تنقله من مجلس الى مجلس فى تجديد لذاته واصلاح شهواته حتى لم يكن يأكل ولا يشرب إلا أطيب الطعام وألذ الشراب ، ولا يلبس إلا أنعم اللباس ، ولا يقعد إلا على أوطأ المراكب وألين الفرش ، وكان لا ينم إلا على سرير معلق فى الهواء فى وسط قبة له مخافة ديب يعرضه أو غبار يصيبه ، فعاش على هذه الحال زمنا طويلا حتى شمر فى الناس بطيب عيشه ولذيق شهواته ، وجعل الراغبون فى شهوات الدنيا يتمنون حاله ويعبطونه فيها فيه ، ويتشبه به المترفون من أهل زمانه وأرباب النعم كل واحد بحسب امكانه واتساع حاله حتى صار قدوة لطالبي اللذات فى اتباع الشهوات ، وكان مع هذه الحال كلها لم يكن يعرف شيئا من اصلاح نفسه ولا تحسين أخلاقه ، ولا تفقه فى الدين ، ولا تزودا لآخرته ، ولا تفكرا فى أمر معاده ، ولا رغبة فى علم ، ولا طلبا لأدب

ولافسكرة في زوال الدنيا ولا ذكر الموت بل كان مقبلا على طلب شهواته محتقرا لأمور الناس منزريا على من
دونه معرضا عن الفقراء مهاجرا لأهل العلم متهاونا بأمر الدين ثم أراد الله تعالى أن ينبيهه من نوم غفلته ورقدة
جهالته ويرى للعباد قدرته ويجعله عبرة لغيره وعظة لمن سواه فبينما هو ليلة نائم على فراشه فوق سريره معانقا
لحيبته وأبواب داره مغلقة وستوره مسبلة وحول سريره شموع تزهو وعلى أبواب داره خدمه وغلمانه مستيقظين
إذ رأى فيما يرى النائم كأنه في بركة قفرة وحده وهو عريان جائع عطشان وبدنه مسود وشعره طويل وجسده
ملوث برجيع مافي جوفه وعلى ظهره ثقل ثقیل وإذا هو بأسودين منكرين خلقتهما طويل قامتهما وعيونهما
تبرق ومن مناخرهما يخرج الدخان ومن شدقيهما تلتهب النيران وبأيديهما حراب حداد وهما يقربان نحوه
ليأخذه فلما رآهما ولي هاربا من بين أيديهما وهما يتبعانه حتى إذا أمعن في هربه إذا هو بجبل شاهق فيه
طريق ضيق وعر مسلكه سلكه بمشقة شديدة وعناء طويل حتى إذا انتهى إلى قلته هوى من الجانب الآخر
في واد منكسا على رأسه حتى وقع في بئر يخرج منها دخان معتكر يأخذ بالأنفاس وطلب يشوى الوجوه
والأسودان في أثره لا يفارقانه . فن هول مارأى وعظم ما عاين وشدة مالتى صرخ في منامه صرخة واضطرب اضطرابا
شديدا ووقع من سريره إلى الأرض وانقبه كل من كان في داره ومن حوله من جيرانه من شدة زعقته وطاش
عقله وشخصت عيناه وارتعدت مفاصله وانغلق لسانه واجتمع حوله كل من كان في داره من خدمه وغلمانه
وأقربائه يسألون ما الذي أصابه فلم يطق جوابا بقية ليلته حتى أصبحوا وجعت له المعزومون والراقون وظنوا أنه
أصابه لم من الجن أو سحر من الأعداء ووسواس من الشيطان . فقال لهم ليس بي ما تظنون ولكن رأيت رؤيا
هالتي وأفزعني وأدهشتني فجمعت له المعبرون وقصت عليهم رؤياه (فقال) بعضهم أضعاف أحلام وقال بعضهم
هذا من خلط سوداوى ومزاج غليظ . وقال آخر لابل فكرردى وتخيل فاسد . وقال آخر لابل هو من الجن
وجعلوا يرجون الظنون حتى جنهم الليل فجمع خدمه وغلمانه وأقرباءه في مجلس واحد حول سريره ونام هو
بينهم فوق فراشه وجعلوا يقرؤن الرقى والعزائم والعود ويبخرون الدخن حتى كان من ذلك الوقت من الليل
فاذا هو برؤياه ذلك بعينه بل هو أعظم وأهول وأصرخ ففزع من فراشه وأفزع كل من كان حوله . ثم أدر كوه
وجعلوا يسألون عنه وهو مرعوب لا ينم ولا يتناولون توجهوا له إلى الصباح وتسامع الناس بخبره وجعت له
ال أطباء فوصفت له الحمية والاستفراغ والشربة وظنوا أنه نافع من هذا العارض ففعل وما نفع شئ . فلما كان
من الأسبوع الداخل في مثل ذلك الوقت من الليل فاذا هو برؤياه بعينه بل هو أعظم وأهول فأنقبه مرعوبا مرعوبا
إلى الصباح ما نام . فلما كان من الغد جعت له المنجمون والمعزومون والعرافون وسئلوا عن موجبات أحكام
النجوم فذكروا أن مثل هذا العرض إنما يعرض للإنسان من أجل أنه يكون في أصل مولده من استيلاء
النحوس على درجة طالعه أو أحد الأوتاد في نحو بل السنين والشهور . فقيل لهم فما الدواء النافع فيه والمنجى
له فقالوا نختار له يوما يكون القمر متصلا بالسعود وطالعا جيدا يكون السعود في الأوتاد والنحوس سواقط عنها
ويتحول من ذلك الوقت من بلد إلى بلد أو من محلة إلى محلة أو من دار إلى دار ففعل ذلك وما نفع الدواء له
وشاع حديثه في الناس وتسامعت به الأخبار في البلاد وصار في موضع رجعة بعد أن كان بحال غبطة وأصبح الذين
تمنوا مكانه بالأمس خائفين أن يصيبهم مثل ما أصابه من البلى والمحن وجعل أهل المدينة ليس لهم حديث في
مجالسهم ومحافلهم الأحديثة ولا عظة إلا ما أصابه فينما يوما جماعة من جيرانه قعود على الطريق في حديثه إذ مر
بهم رجل يعرف بالناسك وكان من أهل العلم والدين والسر قد رزق العلم والإيمان . فقيل له كيف غمك على
فلان جارك قال كغم أب مشفق طيب على ولد عليل فقيل له وكيف ذلك قال لأن عندى تأويل رؤياه ودواء
دائه . فقيل له لم لا تقصده وتعرفه ما عندك قال لانه لا يسمع قولى ولا يقبل نصيحتى فقالوا ولم ذلك قال لأن أزهد
الناس في علم الرجل جيرانه ولكن أخبركم أنا وعرفوه أتم ولا تذكرونى عنده فأنى خائف ألا يقبل استصغارا

لما أقول أو بفعل من غير يقين فلا ينبغي قائلوا له عرفنا نسمع ما تقول ، فقال أما رؤيته البرية القفرة فهو براءته من الدنيا وبراءتها منه يوم يموت وأما فقره فهو فقره بعد الموت ورشدة الحاجة في الآخرة إلى الزاد ، وأما عريته فهو عرى من الأعمال الصالحة التي لها ثواب الآخرة ، وأما جوعه وعطشه فهو رغبته وحرصه في طلب شهوات الدنيا وأما سواد بدنه فهو سواد وجهه عند الله أسوأ أعماله وأما طول شعره فهو شعور خزن طويلا في الآخرة وأما تلويث بدنه بمرجيع ما في جوفه فهو خوف واكتئاب بذله في الآخرة بجنى الرجعة إلى الدنيا ولا سبيل له إلى ذلك . وأما الثقل الذي رأى على ظهره فهو ثقل أوزاره وسوء أعماله ، وأما الشخصان المنكران فهو منكر أفعاله ومنكر أخلاقه وسوء عاداته لا ينفارقان نفسه حيث مذهبتهما . وأما الجبل الشاهق فهو جبلته وعادته التي هو عليها مشقة والشاهق شقاء بذله بعد الموت إلا أن يتوب ويرجع إلى الله عن أئمة . وأما المسلك الوعر فهو طريق الآخرة التي لا بد له من سلوكها بنصب وعناء ، وأما الوادي فهو وادي جهنم والبر المهيوى هي الطاوية التي إليها تصير نفوس الأشجار وأرواح الفجار فقولوا إن هو بادر وتدارك وتلافى قبل الموت والاسيكون مصير نفسه إلى هناك بعد الموت فإن الله تعالى أراد بهن الرؤيا أن يعظه ويذكره ليتوب ويرجع عما هو فيه من الغفلة في أمر الآخرة والحرص على الدنيا ، فقالوا له فما دواؤه ، قال ينوي نية صادقة ويعزم عزمًا صحيحًا ويرجع إلى الله ويتوب مما قد سلف ويتصدق بشطر من فضول ماله على الفقراء والمساكين ويلبس الخشن من الثياب ما يوارى العورة ويصوم في كل أسبوع يومين ويمشي إلى المساجد خاضعًا وينفقه في الدين ويستعمل القرابين ويصلي في ظلمة الليل ويستغفر في الأسحار ويسأل الله تعالى أن يكشف ما به وأنه تعالى يفعل ذلك إن شاء فقام القوم من ساعتهم ودخلوا عليه وعرفوه بما أصابه وبما هو خائف مترقب له ثم أخبروه بما قال لهم الناسك فقال لهم من أين لكم هذا التأويل ومن وصف لكم هذه الرؤيا فقالوا أخبرنا العالم في الدين الناصح الذي لا نشك فيما قاله فقبل قولهم وجع جماعة من العلماء والفقهاء وأهل الدين فأخبرهم بما قيل له ، فقالوا حقًا ما قيل وصوابًا ما وصف فسألهم عند ذلك عن التوبة النصوح كيف تكون وعن فقه الدين وطريق الآخرة وأمر المعاد وصفة الجنان وثواب الأخيار وأين يكون منقلب الأشجار فوصفوا له ما هو مذكور في كتب الأنبياء عليهم السلام فقبل ما قالوه وفعل ما أمره بين شك ويقين وخوف ورجاء ، فلما كان في الأسبوع الآخر مثل ذلك اليوم صام نهاره وتصدق عند افطاره وأكل يسيرًا من الطعام وقام يصلي ليلته ، فلما كان من ذلك الوقت وهو ساجد إذ غلبه النوم فرأى في منامه كأنه في تلك البرية بعينها وقد اخضرت من العشب والسكران وقد تفتحت زهر الرياحين وفاح نسيمها فإذا هو على رأس قلة عليها عين من الماء الزلال وكأنه قد اغتسل من ماها فتناثر عن بدنه ذلك الشعر والدرن وقد ألبس ثيابًا جددًا تفوح منها رائحة الطيب وإذا هو بشخصين قائمين أمامه كأنهما صورتان من النور تشف أبدانهما عليهما زى الجلال ومحاسن السكال وروني الشباب وهيبة الوقار وهما متبسمان في وجهه كما تستبشرين له يشيران إليه بالنظر إلى قدام فتأمل إذا هو بفضاء فسيح يقصر دونه الطرف وبأنوار قدمات الآفاق من الضياء وإذا في ذلك الفضاء رياض خضر كان بينها نسج الدباج من الزهر والنور والزعفران وإذا في وسطها أنهار تجري على أرض بيضاء كأن حصاءها الدر والياقوت والمرجان ، وعلى حافات تلك الأنهار أشجار كأن أوراقها الحرير والسندس والأرجوان وإذا به نسيم تخشخت أوراقها كأنها أصوات نعمات أو تار العيdan وبين تلك الأوراق ألوان ألوان ألوان متفنة الأشكال والطعوم والألوان وإذا بين ذلك قسور شاهقة كأنها جبال من رخام أبوابها مفتحة وحنون واسعة وإوانات متقابلة فيها سرر موضوعة عليها فرش مرفوعة ونمارق مصفوفة وبينها سادة كرام متكئين متقابلين عليهم زين الجلال ومحاسن السكال وهيبة الوقار بأيديهم التحف يسمى بينهم ولدان وغلصان وجوار حسان أتراب مبرقات بالمحاسن والجمال ، فلما رأى تلك المحاسن قال لصاحبيه ما هذه قالوا هي الجنة دار السلام ومعدن الأرواح ومسكن نفوس الأخيار ومستقر الأبرار

فان أنت دمت على ماأنت عليه الى الموت فسيكون مصيرك الى هناك بعد مفارقتها جسدها فتجد لذة العيش وسرور النعيم صافيا بلا تنغيص مابقى الدهر فن فرح ماسمع وسرور مايشعر استغزه ذلك فانتبه دهشا متفكرا تخشى عسى أن ينال فبرى تلك الرؤيا ثانيا بعد أن كان كارها للنوم مخافة أن يرى رؤياه الأولى ، فلما أصبح تصدق بجميع ما له وأعتق كل عبده ولبس المسوح وكان طول نهاره صائما وسهر ليله قائما بجانب الناس لا يكلم أحدا بل يصلى نهاره بالكلية خرينا زاهدا في الدنيا راغبا في الآخرة حتى فشاخبره في الناس وتسامعت به في المدينة والبلاد فقصده الناس من الآفاق يسألونه رؤياه ويسمعون تأويله ويتعظون به ، ثم صار بعد ذلك يتكلم على الناس في المجالس بالحكمة والموعظة ويضرب لهم الأمثال ، ويدلهم على طريق الآخرة ويرغبهم في ثواب الجنة ويזהدهم غرورها وأمانها ويحذرهم الاغترار بها . فقليل له من أين لك هذه الحكمة والموعظة وأنت لم تكتب الحديث ولم تسمع الأخبار ولم تقرأ الكتب ، قال أجد قلوب كل امرأة يتراءى فيه حقائق الأشياء وأجد لسانى يجرى على الصواب من غير تكلف منى وأجد نفسى كالترجمان تسمع من وراء الحجاب وتعبّر وتؤدى الى أبناء جنسى مما تسمع بلا تصنع منى . فعلم عند ذلك أنه مؤيد بملك من الملائكة يلهمه باذن الله جل ثناؤه ، ثم صار ذلك الرجل قدوة في الدين لأهل زمانه فبينما هو يوما في محفل والناس حوله يسألونه عن أمر الدين وهو يفتيهم والناس ما بين مستمع مصدق وشاك ومتعجب منه كيف كان بالأمس أرغب الناس في الدنيا وقدوة لطالبي الشهوات وكيف هو اليوم في أمر الدين امام لطالبي الآخرة إذ وقف في المجلس رجل من أولئك الذين دخلوا عليه يعودونه فرأى ذلك الناسك في مجلسه يسأله عن مسائل من أمر الدين ويستوصف منه طريق الآخرة فدنا منه وقال له شبه المتعجب هذا صاحبك الذى فسرت منامه ووصفت دواؤه وأنت اليوم تسأله عن أمر الدين وطريق الآخرة قال نعم ولكن قد جاءه من العلم ما لم يأتنى وقد قبل نصيحتى أمس فنفعته اليوم وأنا أقبل منه اليوم ما عسى أن ينفعنى غدا وكانت صفته له أمس تعلما بشريا وصفته اليوم تعليم ملكى ، ثم ان ذلك الرجل التائب بقى مدة من الزمان مجتهدا في عبادة الله على عادته حتى قرب أجله ووقت مفارقتها فرأى في منامه كأن روحه قد خرجت من جسده واذا هى على صورة مثل شكل الجسد وهيئته سواء غير أن هذا الشكل جسمانى وتلك صورة روحانية شفاقة لا ينالها لمس ولا حس واذا هى قد ثبتت في الهواء حيث شئت وكيف شئت بلا كلفة ولا عناء وهى تجرد من ذاتها خفة وراحة وسرور اورور وحلاوة وفرح لا يوصف بمثلها حال الأجسام ونظرت الى جسدها اذا هو مطروح لاحتراك به فثبت اليه اطول الصحبة وإلف العادة . فلما دنت منه وتأملته فاذا هو كأنه قد أتى عليه ثلاثة أيام بعد الموت وهو منتفخ منتن الرائحة يسيل منه الدم والقيح والصديد ويجرى بين لحيه ودمه الديدان ويخرج من فيه ومنخره وأذنيه الديدان والقمل . فلما رأت ذلك الهائل اشجارت منه وتأخرت عنه وأنفت من الدنو اليه وجعلت تعبط حالها حين فارقت وخرجت منه ونجت من وسخه ودرنه ووحشته وعاره ووباله ثم التفت فاذا هى أبواب السماء قد فتحت والمعراج قد امتد من السماء الى الأرض والملائكة نزلت وامتلات الآفاق من النور والضياء وسمعت مناديا ينادى - يأتيتها النفس المطمئنة ارجى الى ربك راضية مرضية فادخلنى في عبادى وادخلنى جنتى - فانتبه من نومه ذلك ، ثم أخبر بما رأى وأوصى وصيته وما مكث إلا أياما حتى توفى ومضى لسبيله : انتهى ماأرثته من اخوان الصفا والحمد لله رب العالمين

ويقع هذا (حكمتان : الأولى) بعنوان (حكم عامة) في موازنة عطف الأم على ولدها بنفع الحكيم لأمته (الثانية) في السعادة المزيقة وهاك نصهما في الصحيفة التالية

حكم عامة

الحكيم
الحكيم يغذى الأمة والأم بعلمه مع شفقة ومحبة

....

الحكيم يسهر على الأمة والأم ويكلوها بعطفه

....

الحكيم لا يبالي بالمشاق في سبيل إسعاد أمته

....

الحكيم يبذل ماله وما يقدر عليه من عمل ووقت في
إسعاد أمته

....

الحكيم يستلذ النصب والتعب في إسعاد أمته

....

الحكيم يحسّ بلذة رقيّ الأم بعلمه أعظم من لذة
الأم ، نسبتها الى لذتها بولدها كنسبة الجوع الكثيرة
التي هداها الى الولد الواحد الذي ربته الأم

الأم

الأم تغذى ولدها مع شفقة ومحبة بلبنها

....

الأم تسهر على ولدها وتكلؤه

....

الأم لا تبالي بالمشاق في سبيل تربية ولدها

....

الأم تبذل مالها وكل ما تقدر عليه وتصرف وقتها
في إسعاد ابنها

....

الأم تستلذ النصب والتعب في تربية ابنها

....

الأم تحسّ بلذة تضاهي ما تراه من رقيّ ولدها

السعادة المزيفة

- (١) القائمون بأمر الأمم أغلبهم ذور سعادات لفظية
- (٢) الملوك منهم والأمراء اكتفوا بالنساء وكثرة المال والحصول على الشهوات
- (٣) هؤلاء الحكام يثقون بما ظنوه سعادة ، مع ان القوى الجسمية كلما ازدادت تعاطيا للشهوات ضعفت
وقلت لذاتها ثم فقدتها
- (٤) فاذا ضعفت شهواتهم أخذوا يستعوضون عنها بالرب والنياشين من الملوك ، وما كان لرتبة ولا نيشان
ولألقاب تعظيم أن تنيل القلب سعادة ، أو تصرف الغم عن الفؤاد
- (٥) واذا ملئت خزائنها بالمال وقد ولى العمر وحالات الحال رجعوا الى أنفسهم فوجدوها خاوية على
عروشها فازدادوا انقباضا وبئس المصير
- (٦) إذن مكافأة الجهلاء من نوع الانسان أشبه بمكافأة الأطفال بالدسمي واللعب والآثواب المزركية ،
والولدان يعلمان أن ذلك وقتي قليل القيمة . هكذا العناية الإلهية كافأت أطفال الرجال بما يشبه
مكافأة الأطفال استصغارا لعقولهم ورجة بأهمهم ، فهم أشبه بفداء لأمتهم يسهرون على راحة المجموع
ويكافئون بما أكثره شؤم عليهم لأنهم لا يعقلون اه

واعلم أيها الذكيّ أن هذا المقام العام ملخص في تفسير البسملة في سورة البخان ، وفي رسالة (مرآة
الفلسفة) في سورة محمد ﷺ عند آية - فاعلم أنه لا إله إلا الله - فانظره هناك إن شئت . والى هنا تم الكلام
على قوله تعالى - إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة - الخ والحمد لله رب العالمين

اللطيفة الخامسة

في قوله تعالى - ومن آياته انك ترى الأرض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت - الخ وفي قوله تعالى - سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم - الخ في هذه اللطيفة فصلان

الفصل الأول في قوله تعالى : فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت

جاء في مقال في جريدة الاهرام يوم السبت ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٣٠ تحت العنوان التالي مانصه :

وحدة الحيوانات والنباتات

يعتقد أغلب الناس أن بين الحيوانات والنباتات تباينا كبيرا واختلافا تاما ، وأن كل فريق منهما مستقل عن الآخر . وقد كانوا يعلموننا في المدارس أن هناك عالم الحيوان وعالم النبات أو مايعبر عنه الغربيون بمملكة الحيوان ومملكة النبات . وبما لاشك فيه أن من يلقى نظرة سطحية على الحيوانات والنباتات الراقية يجد أن بينها اختلافات ظاهرة . فالحيوان يتحرك ويتغذى ويتأثر . أما النبات فهو ثابت في مكانه ولا يظهر أنه يتحرك أو يتغذى أو يتأثر على أن من يعمن النظر ويحقق في البحث يتضح له أن هذه كلها اختلافات ظاهرة لاحقيقة لها

ذلك لأن كل مميزات الحيوانات مثل الحركة والتأثر والتغذى والتنفس والتولد توجد كلها في النباتات . وهي في الواقع تعتبر الى حد ما مميزات جميع الكائنات الحية من حيوان ونبات فالحركة لا يختص بها الحيوان . فان هناك حيوانات عديدة ثابتة منذ نشأتها الى موتها مثل كثير من الحيوانات المسماة بالجوفاء كالرجان . وكذلك الحيوانات التي تعيش في قاع البحار وتشبه في شكلها النباتات والأزهار . ومنها الحيوانات المسماة بالتونيسية أو القميصة السابقة للحيوانات الفقرية أو بالأحرى إحدى الحلقات المتوسطة بين الفقرية واللافقرية . فانها تكون عند ولادتها متحركة مثل سائر الحيوانات . ولكن صغارها لا تثبت أن تثبت على صخر في البحر وتظل هكذا باقى مدة حياتها الى أن تموت

كما أن هناك من جهة أخرى نباتات متحركة مثل النباتات المفترسة فان لها أعضاء خاصة تنقض على مايقع عليها من الذباب والحشرات والحيوانات الصغيرة الأخرى وتنطبق عليها وتفرز حولها عصيرا هضميا مثل عصير الحيوانات فتضم مايقبل الهضم منها وتمتصه ، ومن النباتات المتحركة النبات المعروف للعامة باسم « المستحية » ومنها فصيلة كاملة من النباتات الطحلبية المائية المسماة « أوسيلير » فانها في حركة اهتزاز مستمر مثل رقص الساعة ، وأبلغ من هذا حركات بعض النبات الأولية ذات الخلية الواحدة فان لكثير منها شعرا صغيرا عديدا - حولها أو شعرة واحدة طويلة في مؤخرها مثل الذنب تستعين بها على العوم في الماء فتذهب وتجيء مسافات تذكرا لافرق بينها وبين الحيوانات ، وكذلك بذرة أوبويضات النباتات الطحلبية المائية وبذرة صف « الموس » وصف النباتات ذات التولد الخفي . فان تلك البذور تستعين بذنبها . أى بالشعرة التي في مؤخرها للتحرك في الماء بحيث لا يستطيع الانسان أن يميز من أول وهلة بينها وبين الحيوانات الصغيرة التي من حجمها . ولهذا سميت بالبذرة الحيوانية

هذا كله في الظاهر أما اذا حققنا النظر في الأمور فانا نجد أن الحركة نتيجة لازمة للمادة الحية على الاطلاق سواء أكانت نباتية أم حيوانية . وتفصيلا لهذا الاجال ، نقول ان أنسجة جميع الحيوانات لا ترى إلا

بالميكروسكوب ، وشكل هذه الخلايا وتركيبها واحد في الحيوانات والنباتات فالخلية مكونة من مادة زلاية أو بالأحرى من خليط من مواد زلاية مختلفة ومواد دهنية . ومواد سكرية أو نشوية . وقليل من بعض مواد معدنية . وفي وسط كل خلية نواة تركيبيها واحد في الحيوانات والنباتات . وللخلية في معظم الأحيان غلاف خارجي من مادة زلاية أخرى صلبة عند الحيوانات ومن مادة جامدة تسمى بالسيليولوز عند النباتات . وهي مادة القطن وورق الكتانة

ومادة الخلايا التي يسمونها بروتوبلازما أو المادة الحية (خليط من المواد الزلاية والدهنية والسكرية) من أهم خواصها الحركة أي أن أجزاءها في حركة مستمرة مادامت حية . ولاشك في أن هذه الحركة نتيجة تفاعلات كيميائية دقيقة مترتبة على حرق المواد الغذائية . التي تصل إلى الخلايا بعد الهضم والامتصاص ومثل حركة المواد الحية حركة السوائل . وهي تغني والآلات الميكانيكية بسبب حرق الفحم أو البنزين أو الزيت وغيرها

ولافرق في ذلك بين الخلايا الحيوانية والخلايا النباتية . ولكن لما كانت أغشية الخلايا الحيوانية من مادة زلاية مرنة كما تقدم كانت الحركة التي تبدأ في واحدة منها تنتقل إلى جارائها وتأخذ في الامتداد فيتحرك المجموع بعكس الخلايا النباتية فإن مادة كل خلية منها محبوسة داخل أغشية صلبة من السيليولوز . فالحركة التي تقوم في بعضها لا تستطيع الانتقال إلى ما جاورها من الخلايا ولا الانضمام إليها . ولهذا كانت مواد كل خلية نباتية تتحرك في مكانها داخل غلافها وبمجموع النبات ثابت . والخلاصة أن الحركة من خواص جميع المواد الحية النباتية والحيوانية على السواء

وفي الحقيقة والواقع ليست الحركة وفقا على الأحياء ولكنها تعمل في الجاد وجميع المواد المعدنية . ونعم كل ما في الكون من أكبر الأجرام النلكية إلى أصغر ذرات المادة أو الجوهر الفرد . وما هو أصغر منها مما اكتشف أخيرا ونفى اليون أو الالكثرون . فإذا رفعنا نظرا إلى السماء نجد أن جميع الكواكب والشموس والسيارات (بما فيها أرضنا) والأقمار وذوات الذب في حركة مستمرة لا تعرف السكال . وكل ما يحيط بنا على الأرض متحرك كذلك بلا انقطاع من أمواج البحار ومياه الأنهر وهواء الجوّ والزوايع والزلازل وتساقط الأمطار والثلج والبرد ودوى الرعد وانقراض الصواعق وغير ذلك من العوامل الطبيعية التي دكت الجبال الشاهقة وغيرت من شكل الكرة الأرضية مرات عديدة في الأعصر الجيولوجية القديمة مئة ملايين من السنين الغابرة . وكذلك الحال بالنسبة لجزيئات المادة وجواهرها الصغيرة وذرات هذه الجواهر فانها في حركة مستمرة تزداد بارتفاع الحرارة وتنقص بانخفاضها . وبالجملة فان الحركة هي الناموس الأساسي الذي يدير الكون بأسره منذ الأزل وإلى الأبد

وما يقال عن الحركة يقال عن التأثير فانه صفة لازمة للمواد الحية الحيوانية والنباتية على السواء . فإذا ما لمس الانسان بسلك رفيع مثلا خلية من الخلايا الحيوانية أو النباتية . وهي تحت الميكروسكوب يراها تتأثر وتتحرك فتتكمش أو تمتد . وهذا الذي يحدث عرضا بفعل الانسان يحدث عادة وعلى الدوام بفعل المؤثرات الطبيعية والكيميائية التي تعمل في أجسام الحيوانات والنباتات أو في البيئة التي تحيط بها وتؤثر عليها ولا فرق في خاصة التأثير بين الحيوان والنبات ، وكل ما في الأمر أن أغشية خلايا النباتات تحول دون انتقال التأثير من خلية إلى خلية نظرا إلى جودة تلك الأغشية فيظهر النبات في جموعه كأنه لا يتأثر . والحقيقة أن مواد خلاياه تتأثر . ولكن يحجب هذا التأثير مادة السيليولوز الجامدة

على أن التأثير ليس في الحقيقة من مميزات المواد الحية دون غيرها ، بل يشترك فيه كثير من الجاد مثل المواد المفرقة ومثل المواد الكيميائية غير الثابتة التي تتأثر بالنور كمواد التصوير الشمسي (الفوتوغرافيا)

أو بالرطوبة أو بالحرارة أو بالكهرباء وغيرها . ومن الأمثلة على تأثر الجادات أمر معروف في علم الصوت (جزء من علم الطبيعة) وهو أنه إذا دق انسان دقة على وتر من آلة موسيقية وكانت في الغرفة آلة أخرى مثلها فإن الوتر الذي يقابل فيها الوتر الذي دق عليه بالآلة الأولى يهتز من تلقاء نفسه اهتزازا خفيفا ولكنه يظهر جليا بواسطة الآلة المكبرة للصوت

أما من جهة التغذية فن المعلوم أن النباتات تتغذى مثلها في ذلك مثل الحيوانات فمادتها الخضراء (الكالوروفيل) تستعين بضوء الشمس لتحليل حمض الكربونيك (ثاني أكسيد الكربون) المنتشر في الجو وتأخذ منه الكربون اللازم لغذائها وتمزجه بالماء فتتكون أولا السكر والنشاء والسيلايوز (مادة القطن وورق الكتانة) ومادة الخشب وغيرها . ثم تتكون أحماضا عضوية تركب منها المواد الدهنية . وتمتص من الأرض الماء وبعض المواد المعدنية المشتملة على الأزوت مثل الأزونات والنترات وتخرج هذه بالمواد السكرية والنشوية والأحماض العضوية فتتكون المواد الزلالية وهي أهم غذاء لها وللحيوانات . وبالجملة ان النباتات تتغذى كالحيوانات . وتناول لغذائها نفس المواد التي تتغذى منها الحيوانات وهي المواد الزلالية والدهنية والسكرية فضلا عن الماء وبعض الأملاح

والتغذى ليس قاصرا في الحقيقة على الاحياء من حيوان ونبات بل يحدث لكثير من الجادات فبقعة الصدا التي تبدو صغيرة على قطعة من المعدن ثم تكبر الى أن تنتشر على سطح المعدن كله انما هي تغذى في الواقع من بخار الماء والحامض الكربونيك المنتشرين في الجو ومن مادة المعدن القائمة هي عليه فتتوسع وتكثف ويكبر الجسم الحى والبلورات الصغيرة الغطسة في ماء مشبع من محلول موادها تتغذى من المادة الذائبة في الماء فتتوسع وتصبح بلورات كبيرة . والآلات الميكانيكية المتحركة تتغذى بالفحم أو البنزين أو الزيت . وليست مواد الوقود الاغذاء تلك الآلات الميكانيكية تحرق فيها فتولد القوة اللازمة لحركتها وقيامها بأعمالها ويلحق بالغذاء التنفس . وغير خاف على كل من درس علم الفسيولوجيا النباتية أن النباتات تنفس مثل الحيوانات ولها مسام صغيرة في أوراقها وغصونها يدخل منها الهواء ومعه الأوكسجين الذي هو العنصر الأساسي في التنفس أن الغرض من التنفس واحد في الحيوانات والنباتات وهو احراق (أي تأكسد) المواد الغذائية داخل الخلايا لتوليد القوة اللازمة للحياة وقد عرّف علماء الفسيولوجيا الحياة بأنها حريق أي تأكسد مستمر . وما الأجسام الحية الا آلات لتحول القوة الكيميائية الكامنة داخل مواد الغذاء بواسطة احراقها الى حرارة وحركة حركة انتقال . وحركة افراز . وحركة نمو . وحركة تولد وما الى ذلك من القوى الحيوية . مثلها مثل الآلات الميكانيكية التي تتغذى بالفحم أو بالبنزين أو بالبترول

وقد أثبت علماء الفسيولوجيا هذه الحقيقة بتجارب حاسمة حيث وضعوا حيوانات داخل كالوريمتر دقيق (آلة لقياس كمية الحرارة . وهي خلاف الترمومتر الذي لا يقيس الا درجتها دون كميتها) وكانوا يقيسون حرارة ما يتناوله الحيوان من الغذاء وما ينتججه جسمه من الحرارة . بعد خصم الكمية التي لم تهضم ولم تمتص من الغذاء فوجدوا أن الكميتين متعادلتان وقد طبق اثنان من العلماء الامريكان هذه التجربة على الانسان وهما انوتر وبنيدكت فصنعا كالوريمتر كبير حجمه كالغرفة المتوسطة واتخذوا كل الوسائل الدقيقة والاحتياطات الشديدة ، وكانا يقيسان مقدار الهواء الداخل من جهة والخارج من جهة أخرى ودرجة حرارتهما وما يشتملان عليه من اوكسجين وحمض الكربونيك . و يقيسان في كالوريمتر صغير على حدة ما تنتججه من الحرارة كمية الطعام الذي يتناوله الشخص الذي تعمل عليه هذه التجارب وغير ذلك من الاجراءات . فكانت النتيجة تعادل كمية القوة التي تدخل جسم الانسان في هيئة غذاء وكمية القوة التي تخرج منه في شكل حركة وحرارة . ومعنى هذا أنه لا توجد في الجسم الا القوى الطبيعية ولا تعمل فيه الا القوى الطبيعية

أما التلقيح والتولد والنمو والتطور وكافة مظاهر الحياة فلا حاجة للقول بأنها مشتركة بين الحيوانات والنباتات . ويطول بنا المقام لو أردنا أن نثبت أن هذه المظاهر كلها مع التفاوت في الجاد أيضا ينتج مما تقدم أنه لا يوجد أى فرق جوهري بين الحيوانات والنباتات . وقد حار العلماء في إيجاد حدفاصل بينهما أو محك للتمييز بين بعض الاحياء السفلى المتنبس في أمرها وهل هي حيوانات أم نباتات فلم يجدوا أمامهم سوى فاصل واحد يقرون بأنه سطحي ظاهري وهو مادة السيليولز المكونة منها أغشية الخلايا النباتية فإن هذه المادة لا وجود لها في الحيوانات

ولكن هذا الفاصل غير شامل لجميع النباتات في جميع أدوار حياتها لأن هناك بعض نباتات سفلى من صف النباتات الفطرية من الفصيلة المسماة ميكزومبست تقضى حياتها كلها أو معظمها وخلاياها شائعة بلا أغشية تفصلها عن بعض . ولكن إذا ساءت الأحوال الجوية واشتد البرد وتهاطلت الأمطار أو الثلوج تفرز هذه النباتات حولها أغشية سيليلوزية لتحمس نفسها داخلها فتبقى هكذا خطر تقلبات الجو . أما في الفصول المعتدلة فنما تعيش خالية من هذه المادة . فهى تشبه من وجوه كثيرة . وهى على هذه الحالة بعض الحيوانات الأولية ذات الخلية الواحدة مثل الاميبا التى يسبب نوع منها مرض الدوسنطاريا

ومن جهة أخرى في بعض الحيوانات مادة تقرب كثيرا كيمائيا من مادة السيليولز وهى الحيوانات التونيسية أو القميصية المتوسطة بين الحيوانات الفقرية وبين اللافقرية مما تقدم لنا الإشارة إليه . كما أنه في جميع الحيوانات مادة هى شقيقة السيليولز من الوجهة الكيميائية وأعني بها السكر فكلاهما مكونة من خم وماء . ولذا أطلق على مجموع هذه الفصيلة الكيميائية اسم هيدرات الكربون

وهناك فاصل فسيولوجى بين الحيوان والنبات قد يكون أوجه من الفاصل المتقدم وهو كيفية التغذية . قلنا فيما تقدم انه لا بد لغذاء الحيوانات والنباتات من مواد زلالية ومواد دهنية ومواد سكرية . ولكن الفرق بين الحيوانات والنباتات هو أن الحيوانات تتناول هذه المواد مركبة جاهزة كهلوى من أجسام النباتات أو الحيوانات الأخرى التى تأكلها بعكس النباتات فانها لا تجد أمامها . هذه المواد الضرورية لغذائها كما تجددها الحيوانات (مع استثناء النباتات المفترسة) فتضطر أن تركيبها على الوجه المتقدم بيانه . قبل أن تتناولها . وبالجملة فان الحيوانات تتناول طعامها جاهزا أما النباتات فتكت وتشتى في تركيبه قبل أن تتغذى به . على أن هذا الفاصل غير شامل لجميع النباتات فيوجد صف نباتات هى النباتات الفطرية لم تجد عليها الطبيعة بالمادة الخضراء (الكوروفيل) فلا تستطيع أن تركيب غذاءها بنفسها لهذا هى تتصرف في الحياة كالحيوان بمعنى أنها تتناول طعامها جاهزا من حيوانات أو نباتات أخرى ومن أجل هذا نجددها كلها طفيلية تعيش على غيرها من الحيوانات والنباتات الحية أو على أجسامها الميتة . وعلى هذا فتكون النصيلة الفطرية الحلقة المتوسطة بين الحيوانات وبين النباتات . ولولا وجود السيليولز فيها لجزم العلماء بأنها حيوانات فهى نبات من جهة السيليولز وحيوان من جهة كيفية تغذيتها

وفي هذا برهان واضح على وحدة الحيوانات والنباتات وتسلسلها من أصل واحد وهو الجاد . وقد جاءت المباحث والتجارب الجليلة التى قام بها العالم الهندى الكبير المبرور مؤيدة لهذه الحقيقة التى أصبحت الآن أساس العلوم الطبيعية . وقد كان لاختراعه للألة التى تكبر حجم الخلية الحية عشرة آلاف مرة تأثير كبير ونتائج هائلة في العلم . وعلماء أوروبا يتحدثون في جامعاتهم وفي مؤلفاتهم باكتشافاته ومباحثه الأخرى منذ أكثر من عشرين عاما ومع ذلك نرى قوما هنا يحملون على هذا العالم الشرقى الجليل لأغراض يأبأها العلم وشرف النفس

نصف المنقبادى المحامى

خريج كلية العلوم بجامعة باريس (السوربون)

ويلحق بهذا ما جاء في جريدة الاهرام أيضا يوم الجمعة ٤ يولييه سنة ١٩٣٠ وهذا نصه

رأى في علاج الأزمة المالية

كاد ينقضى على انشاء وزارة الزراعة عشرون عاما . ومع ذلك لم تقم بشئ من المهمة التي أُلقيت على عاتقها بينما نرى اختصاصات وزارات الزراعة في الدول الاخرى لا تقتصر على تبخير الأشجار وعمل الاحصاء السنوي لكمية المنتظر من محصول القطن . أو الارشاد الى ادخال تحسينات نافية على الزراعات القائمة . أو مقاومة بعض الآفات مقاومة لا تجدى ولا تنفع . أو الحصول على بعض الأسمدة والبذور الخاصة بالنباتات التي تزرع عادة . لو أن مهمة وزارة الزراعة اقتصر على ذلك لكان الأمر على الجمعيات الزراعية الأهلية . ولا كتفت الحكومات بمعاونتها دون انشاء وزارة خاصة بالزراعة . ولكن المهمة أجمل وأسمى من ذلك . المهمة خاصة بانماء الثروة الأهلية بادخال زراعات جديدة تستثمر فيها رؤوس الأموال المتجمدة من الزائد عن النفقات الزراعية والنفقات المعاشية للفلاح . المهمة خاصة بايجاد مشتل من صنع الاخصائيين نمو ويكبر على توالى الايام داخل معامل التحليل والابتكار والتطعيم لتزويد البلاد برأس مال جديد في كل عام لا أن يقتصر الأمر على ايفاد بعثات زراعية سنوية الى مختلف البلاد ليعود أعضاؤها ويشغلوا الوظائف الكتابية أو وظائف التفتيش الرئيسية فتخدم فيهم الحمية وروح الابتكار ولا ان يكونوا في مكاتبهم وفوق كراسيهم كالدبلوماسيات وشهادات الامتياز جعلها الاطار الرابع ولا قيمة لها الا في أعين حملتها . مع ان الواجب كان يقضى أن تكون قيمتهم في نظر الأمة وللأمة حتى تستطيع أن تقرر بحق انها استثمرت ما أنفقته عليهم من أموال في تخصصهم وتعمتهم . ويستطيع الآباء أن يعلنوا مباهاتهم بثمرة كدتهم وتعبهم في سبيل تربية أبنائهم . والا فإذا أدخلت وزارة الزراعة المصرية على زراعاتنا من جديد يعاون في سبيل الاحتفاظ بثروة الأمة بعيدا عن تهديد الازمات والأخطار التي تصيب محصولا لا نعول الا عليه ، لتقل لنا الوزارة ماذا صنع معمل زراعة المناطق الحارة حتى الآن وأى نتيجة لتجاريب أدت الى ادخال عامل زراعى جديد في مصر مع أن زراعة المناطق الحارة قد درست في مصر قبل الآن درسا عميقا أيام حكم ساكن الجنان اسماعيل باشا الخديوى الأسبق والمؤلفات والتقارير الزراعية عن نباتات المناطق الحارة في عهده تسكاد تزيد عن الضروري . وما كنا في حاجة الا الى مراجعتها لنعلم أى الزراعات تدخل في مصر حتى تتعدد الحاصلات وتجنب الأضرار الجسيمة التي يلحقها القطن بثروتنا العامة بين آونة وأخرى وتسكرها على البكاء والويل مادامت مصر في عهد اسماعيل هي مصر الآن جؤا وتربة وماء مع مراعاة ان العمار قد ازداد والسكان قد تضاعفوا والابدى العاملة قد ربت وطرق المواصلات قد تعددت والمسالك الزراعية نظمت والترع كثرت . لقد تسكنا فيما تقدم عن زراعة الكاوتش في مصر ورجونا من المصريين أن لا ينتظروا الا نتيجة جهدهم وكدتهم في ادخال هذه الزراعة الفنية بحاصلاتها في مصر حتى ينقدوا أنفسهم بأيديهم من مخالب الافلاس الذي يتهدهم دائما أبدا بسبب تحكم مستهلكي القطن أو زيادة المحصول الأمريكى الخ واليوم نقول كلمة أخرى عن زراعة المناطق الحارة الصناعية وما يجوز ادخاله في مصر بناء على آراء الاخصائيين ولما كنا قد بدأنا بزراعة الأشجار في سبيل احياء عصر الغابات في مصر وجب علينا الاستمرار في هذه السبيل مقتصرين في بياننا على الجهات التي تستورد منها هذه النباتات ومنافعها

﴿شجرة البقرة﴾ ان هذه الشجرة من «كرا كاس» وساقها معتدل بالسطح . وطول أوراقها بين ٢٥ و ٣٠ سنتيمترا في عرض عشرة سنتيمتر . وثمرتها كالبندق الخضراء . وترجع شهرة هذه الشجرة الى طبيعتها ألبانها التي تحاكي من كافة النواحي لبن البقرة ولذلك فان اهل «كرا كاس» يتغذون منه . ويمكن الحصول عليه بحز ساق الشجرة في عدة نواح . ولقد أثبت المسيو «دريفيرو» والمسبو «بوسينجو» ان صفات هذا العصير

السكري كمفات ابن البقرة مع فارق بسيط هو أنه لزج قليلا وله رائحة كرائحة البلسم أما خصائصه الكيميائية فتنها تختلف عن خصائص ألبان البقر إذ الأحاض لا تؤثر فيه أما «الاسبرتو» فإنه يؤثر فيه الى درجة معينة حيث يحمّد قليلا إذا أضيف له قدر منه وإذا وضع في «حمام ماري» استخرج منه عطر كذلك الذي يستعمل في ايطاليا لتطيب القفازات . ولكنه مع ذلك يختلف مع سائر العصارات الازرجة لانه لا يشمل أى كمية من السكراتش وقد زرعت هذه الشجرة في بروكسل . ومن باب أولى أن تزرع في مصر لاستعمالها غذاء وواسطة لاستخراج عطرها . وتصديره وتصدير هذه الألبان في زجاجات خاصة

﴿ذات اليد﴾ وهي شجرة يغطي قم فروعها بر أشقر اللون وتستعمل ثمراتها المحمّرة في اسوداد لعلاج الصرع ويمكن استيراد هذه الشجرة من البرازيل كما يمكن استيرادها من أوربا بأبخس الأثمان ومن السهل شتلها بواسطة الفسائل في فصل الربيع ﴿حشيشة الورق﴾ وهي شجرة صغيرة من بلاد الصين ترتفع الى خمسة أوسنة أمتار ويستخرج لباب ساقها ليصنع منه الورق الناعم في الصين التي تصدر في العام ورقا بـ ٦٤٩ و ٩٧٧ و ٣ (هاى لوان تايل) أى ريال ولكنه ثابت القيمة . ودائما يتراوح بين ٦٦ في المائة من الدولار وبين دولار وثلاث . واقد أدخلت هذه الشجرة الجيلة ضمن الزراعات المصرية في سنة ١٨٦٨ ونجحت نجاحا عظيما ولكن لسوء الحظ لم تستخدم في الغرض الذي جلبت من أجله وهو استخراج لبابها لصناعة الورق الناعم مع أن زراعتها في مصر من السهولة بمكان اذ يكفي وضع عقل الفسائل في بطن الأرض وتغطيتها بقليل من التراب فلا ينفى وقت قليل حتى تنبت

﴿شجرة الحرير﴾ وهي شجرة من نوع الأشجار العملاقة . وليس هذا التعبير لمجرد الخيال وإنما هو الحقيقة فان المسيو (برتران بوكاندي) قد حكى أنه رأى في كازامانس مراكب طولها ١٥ مترا في عرض مترين ونصف تصنع الواحدة من ساق احدى هذه الأشجار وتسع كل مركب من هذا النوع ثلاثين ثورا وستة عشر بحارا للتجديف وثلاثة رجال للعطف على الموسيقى . فضلا عن هذا فهي تحتوى على غرف ومطبخ وحمام الخ . أما نوعها فهو من المراكب السريعة ذات الشراعين والمجاديف . وهذا ما يكون عندنا فكرة من محيط ساق هذه الشجرة . غير أنها لا تعيش أكثر من قرن . ولذلك فإن الاهالى يزرعون شجرة منها عند ميلاد كل ولد من أولادهم فاذا ما بلغ الطفل السن التي تبيح له الاستقلال بمعيشته وجد في هذه الشجرة كل ما يلزمه لبناء منزله دون أن يمس باستمرار نمائها

وإذا ما بلغت هذه الشجرة سن الانتاج أثمرت فاكهة يخرج منها بر قطنى حربرى في كمية جسيمة تتراعى على الأرض الى مسافات بعيدة تراها وكأن السماء أمطرت لؤلؤا وثلجا . ويستخدم هذا البر في صنع الوسادات والسكنبات وغيرها ويمكن غزله لاستخدامه في صناعات مختلفة . ولقد أدخلت هذه الشجرة في مصر بواسطة الدكتور فيجارى بك ويوجد منها نوع في قصر السنين ﴿أما حشيشة الملوك الشوكية﴾ فإن ارتفاعها يصل الى عشرة أمتار وساقها ضخمة وشائك . وتزرع هذه الأشجار بصفها بذرة أو عقلة

﴿شجرة الهم﴾ وهي شجرة متوسطة الطول وتزرع في الأراضي الرطبة من الصين . ولها لوز تحوى كل واحدة منها ثلاث حبات وأهميتها فيما يغلبها من طبقة دهنية بيضاء سمكية صلبة الى حد ما ويضيف الصينيون واليابانيون الى هذه المادة قليلا من شمع النحل وزيت الكتان لصنع الشمع الأبيض الذي ينفى مدة طويلة . وللاستخراج هذا الدهن يجب سحق البذرة وإبقاء مسحوقها في ماء على درجة الغليان حتى تطفئ المادة الدهنية على وجه الماء فيسبيل استخلاصها ﴿ومن جهة أخرى﴾ هم يستخرجون من هذه الحبوب نوعا من الزيوت الصالحة للوقود ، وقد وجدت شجرة من هذه الأشجار بمدرسة الطب ، ولكننا لاندرى ماذا صنع بلوزها ، كذلك زرع في حديقة الروضة شجرة من هذا الصنف ، ولاندرى لماذا لا تزرع

هذه الأشجار في مصر مع أن زراعتها سهلة سواء من ناحية البذرة أو العقلة
 ﴿ شجرة البهار ﴾ هي شجرة من مدغشكر طويلة جميلة المنظر، وتستخدم أوراقها وجلدها كبهار
 ودواء. وهذه الشجرة تنمو في الحدائق المصرية. وتوضع أوراقها في الطعام خضراء. ولا بد لزراعتها في مصر
 من الحصول على بذرتها من مدينة مدغشكر أولاً فأولاً
 ﴿ شجرة الثعابين ﴾ وهي شجرة صغيرة في البرازيل طولها يقرب من متر. وتستعمل جذورها دواء
 للشفاء من لسعات الثعابين. وهذه الشجرة تصالح في مصر فقط لأنها لا تزرع إلا في الطينة الصالحة للزراعة
 والمناطق التي جهزت بمعدات الري وتزرع عقلاً
 ﴿ شجرة الاراروت ﴾ وهي شجرة ذات جذور سكرية لها ساق طويلة يقرب من متر ونصف متر.
 وجذوع هذه الشجرة غذاء قوى للأطفال على مانعرفه جميعاً. وهي تزرع على الحصوص في جزيرة الانتي
 وأمريكا الجنوبية. وهي صالحة للزراعة في التربة المصرية
 ﴿ الكمثرى الأمريكية ﴾ أو كمثرى الحماي: وهي شجرة تدر الثمار الذي يتجمد في صلابه القشدة
 ويستخدم في التأثير على القماش بإشارات لا تعجب، أما الفاكهة ذاتها فتنها غذاء جيد، وتدخل هي والأوراق
 في كثير من الأدوية، وهي تزرع بطريق البزور التي تجلب من البرازيل. ويمكن استخدام العقل (بضم
 العين وفتح القاف) في زرعها بعد أن تنبت وتشتد في مصر. انتهى مأرثته من الجريدة المذكورة

بهجة العلم

في قوله تعالى أيضاً - ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت
 إن الذي أحياها لمحبى الموتى إنه على كل شيء قدير -

يقول الله تعالى في أول هذه السورة - كتاب فصلت آياته - ويقول في سورة أخرى - يدبر الأمر
 يفصل الآيات لعلكم تفلحون - ، إذن الايقان بقاء الله تعالى مرتب على تفصيل الآيات ، فلايات
 المفصلات في هذه العوالم هي التي تعطينا اليقين ، واليقين هو الذي لا يعتريه شك ، فهل لك أن أريك اليقين
 في هذه الآية بعينك حتى تتسكن من نفسك كنص الآية ، وتعلم الى أى مدى وصل هذا القرآن اليوم ،
 وهل تفصيل الآيات المورث لليقين إلا ما قام عليه البرهان أو ثبت بالمشاهدة . فهناك ﴿ عجبتين ﴾ إحداهما
 من علم الحيوان ، والأخرى من علم الأرواح

﴿ العجيبة الأولى التي هي من علم الحيوان ﴾

جاء في كتاب (بول بيرت) العضو بالأكاديمية العلمية وأستاذ السربون ووزير المعارف العامة بفرنسا
 المترجم بقلم زوجته الاسكتلندية الى اللغة الانجليزية (وقد نقلت عنه في هذا التفسير كثيراً) فقد جاء فيه في
 صحيفة (٧٩) و(٨٠) تحت عنوان « أنفاسوريا » ما نصه :

« إنى سأريك نبأ عظماً عن مخلوق مدعش غريب يختلف اختلافاً كثيراً عن سابقه ، وأن يكون هذا
 الحيوان ؟ إنه يكون فيما نعاقه النفوس وتحترق العيون مما يكون على جسم الحيوان الذي فسدت جشته
 بالتعفن والنبات المتقي المزدهري ، وهذه المخلوقات أكثرها يسمى في علم النبات باسم (أنفاسوريا) وسترى
 صورته قريباً . ولكن هناك حيوانات ليست منه بحجة الأشكال ومع ذلك ليست قليلة الفائدة . انظر الى
 هذه الزجاجية التي فيها الماء التي أحضرت فيها بعض الدريس (أى مثل البرسيم الجاف المعروف في بلادنا)
 أمسك الزجاجية واجعلها بينك وبين ضوء الشمس حتى ترى بوضوح وتفصيل كل ما تحويه ، أنت ترى فيها

أشياء صغيرة تتحرك في الماء (انظر شكل ٤٣) . إن المنظار الزجاجي يجعلك قدرا أن تبين هذه المخلوقات بطريق أوضح ، ولكن (المكروسكوب) يجب الاستعانة به لتسكون الرؤية أكمل ، إن هذه كأنها نكتة غير متميزة صورها ، وفي الحقيقة هي حيوانات تعيش وهي آلاف مؤلفة ، هانت ذا ترى في الزجاجية حيوانات صغيرة ذات صور مختلفات وأشكال متباينات بعضها قد صغر جدا ، وليس يظهرها لعيوننا إلا الآلات الزجاجية المكبرة بمقدار عظيم جدا ، وآلاف مؤلفة منها تعيش في قطرة ماء . وهنا أخذ يسأل التلاميذ قائلا : من أين جاءت كل هذه الأشياء اللاتي أعشت أبصاركم ؟ ثم أجاب قائلا : إنها جاءت من العصف الماء كؤل والتبن والدريس . ثم قل : كيف كن كل هذا ؟ وأجاب بقوله : هذه المخلوقات جافة كأنها بيض فهي تعيش هكذا وهي بهيئة طحلب لا يشعر به فوق سقوف المنازل وهي جافة أثناء الصيف ، فإذا نظرناها بالآلة المكبرة فإنها تظهر لنا بهيئة حبوب صغيرة من رمل أخضر ، ولكن إذا أنزلنا عليها قطرة ماء وهي على هذه الحال فإننا نراها قد تحولت حالا وامتد جسمها وأخذت تبحث عن رزقها ومأه حياتها ، فإذا غاض مؤها أوصار بخارا رجعت خامدة لا حركة لها ، جامدة لا حياة لها كما كانت من قبل متربصة هطول آخر من الماء ينزل عليها فتحيها به . هذه مخلوقات عجيبة ! ألسنت ترى ذلك ؟ وهذه تريك أن أعظم ما يستر الشفوس وأبدع المجائب ليس خاصا بالحيوانات الكبيرة (انظر شكل ٤٣ و ٤٤)



(شكل ٤٣)

(أنقاسوربا) لا ترى بالعين المجردة
وقد عاشت في قطرة من الماء الآسن



(شكل ٤٤)

حيوان البكتريا وهو لا يرى بالعين المجردة

العجيبة الثانية التي هي من علم الأرواح

نذكر في هذه العجيبة ما جاء في إحدى المجلات العلمية وهي مجلة « كل شيء » بعدد ٢٣٤ في يوم السبت (٣) مايو سنة ١٩٣٠ وهذا نصه :

توفيق دوس باشا يخاطب روح والده

زيارته الكلية علم الأرواح في لندن

لما سافر الوفد الحكومي المصري الرسمي إلى لندن برئاسة عدلي يكن باشا لمفاوضة الحكومة البريطانية في حل المسألة المصرية . رافق الوفد يومئذ سعادة الاستاذ الكبير توفيق دوس باشا بصفة مستشار قضائي وسعادة شريف صبرى بك وحضرة الاستاذ عبد الملك حجة بصفة سكرتيرين . وبعد وصول أعضاء الوفد الى لندن بقليل أخبر الاستاذ عبد الملك حجة صديقيه توفيق دوس باشا وشريف صبرى بك انه من المهتمين بدرس علم الأرواح وأنه يود أن يدعوهم الى زيارة « كلية علم الأرواح » التي تديرها المستر سقيد ابنة المستر وليم سقيد الصحافي الانجليزى المشهور الذى غرق في الباخرة « نيتانك » في سنة ١٩١٢ فسألاه عن هذه الكلية وأغراضها فقل لهما انها معهد علمي يؤمه الأشخاص الذين يأنسون في أنفسهم قوة الوساطة فيمتحن المعهد هذه القوة فيهم بين الأرواح التي في الآخرة وسكان هذا العالم ثم ان كثيرين من العلماء الذين

يشغلون بعلم الأرواح يترددون على هذه الكلية لاجراء تجاربهم العلمية فيها فهي ليست والحالة هذه دارامن دور النصب التي يدخلها بسطاء العقول ليدفعوا جنبها أو جنبهين مقابل (مخاطبة الأرواح) وهنا ندع الكلام لتوفيق دوس باشا لكي يصف لنا زيارته لتلك الكلية ، قال :

ولما سمعت هذه المعلومات من الاستاذ عبد الملك حزة تولدت في رغبة في زيارة كلية علم الأرواح لأميط اللثام عن حقيقة ما كنت أعتقدته تدجيلا ، فرافقني حضرته اليها وصحبنا شريف صبرى بك ولما بلغناها قدمنا للمسرستيد فطلبت منها أن تحيلنا الى وسيط من القادرين على مخاطبة الأرواح فمرتفتنا بشخص اسمه المستريتر ولما اختلينا به طلب إلى أن اضمر الشخص الذي أريد أن يستحضرلى روحه بدون أن أسر اليه باسمه فاضمرت والذي جلس الرجل على كرسي أمامنا وماهى الاثوان قليلة حتى أخذت عضلات وجهه وشرابيه حلقه تنفتح انتفاخا أزعجني منظره ثم لم يلبث أن نام نوما عميقا وأخذت تكلم باللغة الانجليزية وهى اللغة التي كان والدى يجهاها تماما فقال لى : « أنا والدك » فقلت له : « وماذا يلاك على ذلك ؟ » فقال « أنا أطول منك قليلا » فقلت : (هذا لا يكتفى) فقال (وأتحف قليلا) فقلت « وهذا لا يكتفى أيضا » فقال (ولى لحية خفيفة لعب انشيت بجزء منها) فقلت له (وكيف انتقلت إلى العالم الثانى ؟) فقال . (بعملية عملت لى هنا) (وأشارالى مكان الأسماء والمائة والكبد) فقلت له . (هذا لا يكتفى) فقال . (عمل لى العملية طيبان وفى أثناء انهما كهما بعملهما دخل عليهما طبيب ثالث وعاونهما . ولما انتهوا من مهمتهم قالوا لكم ان العملية نجحت ولكننى توفيت فى اليوم التالى) فقلت . (وهل تعلم لماذا نحن فى لندن ؟) فقال (لأجل مسألة كبيرة) وفتح ذراعيه على وسعهما فقلت . (وهل تنجح فيها ؟) فقال (كلا وبجانبى سيدة تراخنى لىكى تخاطبك بدلانى .) وهنا أخذ الوسيط يتكلم بلسان هذه السيدة فوصفت نفسها وصفًا يندق تماما على عمه زوجنى فقلت . (وهل لك أولاد ؟) فقالت لى . (ابن وابنة) فقلت . (وهل هما بعيدان عنك ؟) فقالت (بنى وبينهما بحر كبير) فقلت . (وهل هما فى مصر ؟) فقالت . (كلا)

قال لنا توفيق باشا . (واذا استثنينا هذا الجواب الأخير (أى هل هما فى مصر فأجابت كلا) فان جميع الأجوبة السابقة والبيانات التي تضمنتها تطابق الواقع . وقد عزوت ذلك فى بادى الأمر الى ما يسمونه علم قراءة الأفكار وقلت فى نفسى ان هذا الوسيط له قوة قراءة أفكارى فبسترشد بها على الاجابة على أسئلتى ولكن هذا الاعتقاد زال عني لما قل لى الوسيط . (ان هناك سيدة تراحم والدى لتتكلم معى) فأننى لم أكن أفكر قط فى عمه زوجنى ساعتئذ لىكى يقال ان الوسيط قرأ أفكارى فى صدرها أيضا ولذلك لأعرف كيف أعطل هذا الحادث على الاطلاق

ومضى توفيق باشا فى حديثه معنا فقال . (وقيل لى بعد ذلك ان فى الكلية وسطاء لهم قوة استحضر وجوه الأرواح بحيث استطاع تصويرها بالفوتوغرافيا فذهبت الى الكلية فى يوم آخر مع شريف صبرى بك وعبد الملك حزة بك وأخذت معى زجاج التصوير (البلاك) منعنا الكل تلاعب ولما قابلنا المسرستيد قلت لها . اتنى أريد تصوير وجه والدى) فقادتنى الى أحد الوسطاء القادرين على استحضر وجوه الأرواح فدعانا الى قاعة طليت جدرانها باللون الأبيض وأجلسنا على ثلاثة كراسى متلاصقة وأخذ يرتل بعض الصلوات والأناشيد الدينية ثم فتح آلة التصوير وصور بها ولما انتهى من عمله أخذت زجاج الصورة وكان شريف بك قد وقع عليها بامضائه لثلا تسبق بلوحة غيرها وعينت بتحميزها فى محل للتصوير بأشرافى فاذا بالصورة التي ظهرت فيها تختلف عن ملامح والدى تماما فقصدت فى الغد الى المسرستيد وقلت لها : (انكم تسخرون منا فان الرسم الذى ظهر فى الصورة ليس رسم والدى) مطلقا فقالت « قد يحدث ذلك أحيانا ويكون سببه أن شخصا أقوى من والدك على تصوير نفسه بواسطة الوسيط يزاحه على الصورة فينجم عن ذلك أن يظهر رسمه بدلان رسم والدك

فقلت لها : اننى سأعطيك الآن فرصة أخرى لاقامة لدليل على صحة كلامك فهي بنا الى الوسيط ولما اجتمعنا به قالت لهم (اغلقوا الباب) فأغلقوه فتناولتهم زجاج التصوير فوضعوه في الآلة أمامي ، فقلت للمسترسيد عندئذ : (اننى سأطلب من الوسيط رسم وجه والدك المسترسيد وأذن انه أقدر الأرواح على تصوير نفسه ولا يستطيع أحد أن يزاحه على ذلك وقد أمضى حياته في درس علم الأرواح) فأخذ الوسيط يرتل وينشد الاناشيد الدينية وبعد قليل التقط الصورة ولما حضينا ظهر فيها رسم المسترسيد فمجزت في تعليل هذا الحادث فقلنا لتوفيق باشا : (هل لاحظتم في أثناء التقاط الصورة أن هناك شبحا غريبا ظهر في القاعة ؟) فقال : (لامطلقا) فقلنا . (إذن كيف يظهر على زجاج التصوير رسم لوجود لصاحبه في القاعة) فقال (سألتهم عن ذلك فكان جوابهم أن عدسة آلة التصوير أقوى من العين جدا وانها لذلك تستطيع رؤية شبح الروح الذي لا تراه العين العادية) فقلنا . (وهل أنتم واثقون من أنه لم يقع تلاعب في زجاج التصوير ؟) فقال (أنا واثق من ذلك ولا فائدة ، من أن تتعبوا أنفسكم بالأسئلة فقد اتخذت يومئذ جميع التدابير التي خطرت لي لمنع أي غش كان) فقلنا له (وكيف تعلقون ذلك ؟) فقال (اننى لأؤمن بعلم الأرواح ولكنني لأجد تعليلًا لما رويته لكم) فقلنا . (ألم تسألوا المسترسيد عن التعليل ؟) فقال . (سألتها فكان جوابها لوجاءك رجل من عشر سنوات فقط وقال لك انهم سيخترعون تليفونا لاسلكيا أفلا كنت تقول عنه انه مصاب بحس في عقله فلماذا لا يعقل أن تقتنع بعد سنوات بصحة علم الأرواح وحقيقته) وهنادفع اليها توفيق دوس باشا بالصورة التي صورت يومئذ بحضوره في كلية الأرواح فنشرنا اثنين منها مع هذا الحديث ، وهالك صورتهم . (انظر شكل ٤٥ و ٤٦)



(شكل ٤٦)

توفيق دوس باشا والى يساره شريف صبرى بك
والى يمينه عبد الملك حمزة بك وفوقهم الرأس الذي ظهر في الصورة
عند استحضار روح والد توفيق باشا . وترى في أعلى إصماء
شريف بك على زجاج الصورة



(شكل ٤٥)

رأس المسترسيد كما ظهر في الصورة التي صورت لروحه بحضور
توفيق باشا دوس

ولما كتبت هاتين العجبتين حضر صديقي العالم الذي اعتاد أن يناقشني في هذا التفسير . فقال : وما يفيدنا في هذه الآية من هاتين العجبتين ؟ أنت أوضحت لنا في العجبة الأولى كيف تكون الحيوانات الدقيقة معدودة بالآلاف في قطرة ماء ، وانها تموت اذا فارقها الماء وتحيا اذا وصل اليها ، فالمت والحياة يتناوبانها ، وقصصت علينا في الثانية نبأ رجل مصري في البلاد الانجليزية خاطب والده الميت واحدى قريباته واحترس أشد الاحتراس في المحاورات وفي أخذ الصور وتصويرها . فأى علاقة لهذين بالآية ؟ الله تعالى يقول - ومن

آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحي الموتى إنه على كل شيء قدير - . فقلت : إن هاتين العجبتين مناسبتان للآية أشد المناسبة . لقد تجلى في العجبة الأولى أن الحياة شاخصة أمامنا في كل ما يحيط بنا . فهذه الأوراق والخطب والوقود وكل ما يحيط بنا تعلق به مواد لانهاية لها . وهذه المواد الدقيقة تحيا إذا جاءها الماء وتنفارق الحياة إذا تخلت عنها . إذن الموت والحياة في المواد المحيطة بنا كالنوم واليقظة ، فوتها وحياتها أشبه شيء بنوم النحل والزباير مدة الشتاء واستيقاظها في زمن الربيع ، وهكذا نوم أمثال الحيات والثعابين شتاء واستيقاظها في زمن الربيع وبعض السمك في الطين إذا جف وفي الثلج إذا تراكم عليها ثم تقوم هذه إذا نزل الماء على الطين وذاب الثلج . ولقد تقدم في آ- سورة الأعراف أن بعض حبوب القمح تحتوي على أكثر من عشرة آلاف حيوان ، لجفف هذه الحيوانات بعض العلماء وبعد التجفيف نذاهها بالماء فرجعت لها الحياة ، بل تبادى العلامة (بيكر) فتدنى القمح بالماء بعد ما جففه (٢٨) سنة فرجعت الحياة ، وقد جزم العلماء بأن تلك حياة جديدة . إذن الحياة والموت أمران عاديان حولنا ، وهذه الحيوانات التي لانراها تموت ثم تبعث ثانيا والحياة والموت عندها أمران عاديان (وعبارة أخرى) إن الموت ليست له تلك القيمة والخوف التي جسمها الانسان

هذا ما نقرؤه في تلك الحيوانات المحيطة بنا الصغيرة ، وهذه الحال بعينها هي حالنا ، فإذا رأينا الحيوانات الضعيفة تحيا وتموت ولا حيز بين الموت وبين الحياة إلا شفاف رقيق ، هكذا رأينا الأمر بالنسبة لأنفسنا نحن ، يعيش الانسان أمدا ما ويكون له أصدقاء وذرية فيموت أو يموت أهله أو ذريته أو أصدقاؤه فيخلع اليأس قلبه قائلا « إني مفارقهم الى الأبد » فنسمع أولا أرباب الديانات وكبار الفلاسفة يقولون . كلا . لا موت وإنما هو ثوب تزعموه واستم ثوبا آخر ، فيشك أكثر الناس ويقولون . كلا . لم نر شيئا من ذلك فاقضت الحكمة أن تحضر الأرواح فتظهر فيشك قوم أيضا ، فيبحثون حتى يصل بعضهم الى الحقيقة فيطمئن لها ويبقى آخرون حتى يعرفوا أن نتيجة القارورة والماء الذي فيها في العجبة الأولى وحضور الأرواح في العجبة الثانية واحدة ، ومعنى ذلك أن الانسان لا يموت لأن روحه المتصرفة في جسمه هي التي تبقى بعد الموت في جسم شفاف لجسمه الحالي لأن هذه الأجسام التي يعيش بها أنوار متركة قد أظلمت بهذا التراكم ، فإذا تركنا هذه الظلمات رجعنا الى أنوار أخف منها ولكن على هيئة هذا الجسم فصرنا في حالة إطلاق لا غير ، غاية الأمر أن هذا الجسم الذي هو مدرستنا يكسبنا العمل به نتائج نراها في حياتنا في الجسم الآخر اللطيف وليست هذه الظاهرة التي قدمناها في العجبة الثانية فريدة في بابها ، فلها نظائر تعد بالآلاف المؤلفة ، وكم في عالم الأرواح من عجائب ، وأن هذه الروح التي حلت محل روح ذلك المصري وظهرت صورتها في الصورة روح من الأرواح المتأخرة لأن هذا فعل صبياني لا أثر للعقل فيه ، فقد ظهر عند العلماء اليوم أن الأرواح السخيفة في هذه الحياة هي أنفسها سخيفة بعد الموت ولها أربع درجات مشروحات في كتابي «الأرواح» ولعلك ترى هذا المقام مشروحا في آخر (سورة الاسراء) . فالروح السخيفة الطفلة في الدنيا هي نفسها السخيفة السمجة بعد الموت . وقد ثبت بظهور نفس صورة (استيد) المتوفى ثبوتا لا يشك فيه من صدق الخبر به أن الأرواح تكون بهيئتها بعد الموت ويعرفها الناس في الدنيا . أي أن الأرواح بعد الموت بتلك الهيئة الدنيوية لا أقل ولا أكثر . وبالاختصار ان العلم الآن قد قرب لنا مسافة الحياة بعد الموت لنفهم سر قوله تعالى - ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحي الموتى إنه على كل شيء قدير - . وذلك ليرح قلوبنا من مخاوف العدم المحض . فالحياة إذن مستمرة والسعادة بالأعمال الصالحة . كتب صباح يوم الخميس (٨) مايو سنة ١٩٣٠ وبهذا تم الفصل الأول من اللطيفة الخامسة

حالة حياتها تتحمل البرودة تحت الصفر الى الدرجة التي يصير فيها الهواء سائلا وهي درجة (١٩٠) تحت الصفر ، ومعنى هذا أننا كما نرى البخار اذا قلت حرارته صار ماء ودرجة حرارته فوق الصفر ، هكذا اذا نزل الهواء تحت الصفر الى درجات تبلغ (١٩٠) فإنه يصير سائلا ، فهذه الخلايا التي تعيش بيننا لاتموت في هذه الدرجة ولكنها لاتتحمل الحرارة أكثر من (٥٥) درجة فوق الصفر ، فهي إذن ذات قدرة عظيمة تفوق قوة النبات والحيوان المعروفين . فقال : أنت قلت انها لاتموت في هذه الدرجة ، فهل معنى هذا انها تكون كالنباتات المعروفة ذات حياة . فقلت نعم . فقال : ومتى تخمد تلك الحياة . فقلت تخمد وتصير أشبه ببذرة الدجاجة اذا صادفت وسطا لايلائمها . فقال : فماذا يحصل ؟ قلت يحيط بها غلاف سميك يحفظها كقشر البيضة وهناك تعيش سنين كما تقدم في المقال الأول موضعا وتبقى الحياة كاملة ، ومتى صادفت وسطا مناسباً رجعت لها الحياة ورمت القشرة الحافظة وعاشت حالا كما تقدم . فقال ماصورتها ؟ فقلت هاهي ذه (انظر شكل ٤٩)



(شكل ٤٩)

فقال : ههنا أريد أن تبين كيف تكون هذه نافعة ؟ فقلت لولاها لم نعش على الأرض . فقال أوضح . فقلت إن هذه يسمونها (البكتيريا) وهذه منها نوع يسمى (بكتيريا التعفن) وذلك انها هي التي تحلل المواد المركبة المنبثة في الأرض وترجعها الى عناصرها الأولى ، وبهذا يمكن النبات أن يمتص من الأرض غذاءه . فهذه الجنود المجندة هي التي تعين على نمو النبات . فهي أشبه بالصحانين والجنانين والحجازين لنوع الانسان عليهم تتوقف حياة كثير من الناس . فقال : والله إن هذا لعجب ! فقلت إن النبات كالأقطن والقمح لا يستطيع أن يتعاطى عنصر (الأوزون) مثلا وهو من أهم العناصر المكونة للنبات إلا بحالة خاصة وهذه الحال الخاصة لاتحصل تكوين الجراثيم في البكتيريا إلا بعمل هذه الخلايا في المواد العضوية المعقدة التركيب . إذن هذه نعمة من الله على الناس - إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون - وكيف يشكرون وهم يجهلون . وبهذا ظهر السر في أن هذه النباتات في حال خودها كما في (شكل ٤٩) تقدر أن تتحمل الحرارة الشديدة وتأثير المواد السامة أكثر من التي هي غير خامدة بل حية ، ويسمون الحية خضرية . والتي خمدت يسمونها بالجراثيم . فقال إذن هذه النباتات التي لا ترى نقوم بتحليل العناصر والنبات المعروفة عندنا تقوم بتركيبها . قلت : لقد أحسنت ، فلو لا صحة التحليل وصدقه ما أمكن التركيب . فقال : وهل لها فعل غير هذا ؟ قلت كثير :

(١) بعض أنواعها يكون سببا في الخلل ، ذلك كما قلنا انه يحيط بنا : فهو ينزل في نحو النبيذ والجمعة فينمو ويتكاثر فيكون الخلل

(٢) ولا يمكن دبح الجلود إلا بعد قيام نوع آخر منها بعملية خاصة فيها ، وهذه الزبدة التي نأكلها لا يحسن طعمها ولا رائحتها إلا بعد أن يختمر اللبن بنوع من هذه المخلوقات الحفية . وهكذا اللبن ان يكون (لبنا زباديا) إلا بواسطة هذه المخلوقات . فهي التي تتكاثر فيه حتى يختمر . إذن هي تحضر لنا غذاءنا كما تحضر للنبات غذاءه

فقال : إذن فاذكر لي ضررها ؟ فقلت هي تدخل أمراضا كثيرة في الانسان بطرق مختلفة ويجب على الانسان أن يتقيها وأول من أوضحها الاستاذ (باستور) فيها :

(١) مرض التسمم

(٢) والطاعون

(٣) والتيفود

(٤) والتيفوس

(٥) والالتهاب الرئوي وهو السيل

ويدخل للإنسان بالأول من طريق الجرح في الجلد ، وبالثاني من طريق البراغيث ، وبالثالث من طريق القمل ، وبالرابع من طريق الغذاء جاريا في القناة الهضمية ، فيكون هنالك الاسهال الشديد والسيل الرئوي والتيفود كما قدمنا . كل هذا سببه هذه الحيوانات . وبالخامس من طريق الرثتين واللوقية من هذه تجب النظافة واستعمال المطهرات والمقومات في الأول ، والنظافة وابادة الحشرات في الثاني والثالث . وابادة الذباب واستعمال الماء النقي وتعقيم اللبن وحفظ الأغذية في أما كن نظيفة وهكذا في الرابع ، وتجنب الأما كن التي فيها التراب ، ومعالجة الزكام والبرد بسرعة ، وتجنب البصق ، والابتعاد عن المرضى ، وتناول الطعام الجيد ، والمحافظة على الصحة بوجه عام في الخامس

فلما سمع صاحبي ذلك . قال : لقد أحسنت وشرحت صدرى ، ولكن هل هذا نعمة ؟ قلت أجل نعمة فهذا يعطى الناس دروس الجد والاجتهاد في الحياة . فإذا كان بعض هذه الجراثيم الخضر والحيوانات الدنيئة تقوم بتحليل المواد العنصرية ليعيش زرعنا ويدرك ضرعنا فهما هي ذه بعضها تقوم بتقويم العقول وتنمية الملكات وتهذيب الأخلاق ، فهي التي تدعونا لتنظيف أمكنتنا وثيابنا وطعامنا وشرابنا ونكون رجالا نشطين لا خامدين . إذن هذه جيوش مرسلة من الله لاطعامنا ولاحداث النشاط فينا بسبب مقاومتنا لها ، ومماثل هذه النباتات الذرية التي تحلل العناصر لتغذية النبات فنعيش بها ، والتي تحدث الأمراض من طريق الجلد والقناة الهضمية والرتة إلا كمثل النحل ودودة الحرير وهكذا الحيات والعقارب فكما أن الحيات والعقارب والحشرات الأخرى تحثنا على تنظيف أقميتنا ومنازلنا وثيابنا ، والنحل ودودة القز تفيدنا غذاء وملبسا هكذا هذه النباتات فيها القسمان النافع ، فبالضار يكون الاحتراس والابتكار والاختراع وتقدم الطب وإنشاء الكليات ومدارس الطب وارتقاء علوم كثيرة ، وبالنافع يكون نمو النبات ومنافع أخرى كصلاحية الزبدة والنحل للتعاظمي فقال : لقد استوفيت هذا المقام ، فأرجو أن تبين لي هل هذه الجراثيم والخلايا النباتية التي شرحتها الآن ذات ألوان كالنباتات المعروفة ؟ فقلت هي ثلاثة أقسام ، أقسمان منها لالون لهما ، والثالث له لون وهو الطحلب والالذان لالون لهما أحدهما يسمى الفطر والثاني يسمى البكتريا ، فقال

البكتريا ماترى في (شكل ٥٠) الذي أمامك الآن



هأنت ذا شاهدت العقد المحيطة بهذه البكتريا العقدية ، أندري من أين أنت هذه العقد ؟ أت من تلك الجراثيم ، فانها تعيش وتتكاثر فوق النبات وتتغذى بطعامين اثنين : طعام هو الكربون الذي في الشجرة ، وطعام هو الاوزوت الذي هو أحد أجزاء الهواء فلا يزال يتكاثر حتى يموت بانتهاء آجاله ومن الذي يرث هذا الميت ؟ يرثه نفس هذا النبات الذي قبله في ضيافته فخل بساحته ، فإذا يجد ؟ يجد النبات عند حصر الحركة ، يجد أن الكربون الذي تمثل في جسم تلك النباتات الصغيرة موفرا بحاله ومعه أمر آخر وهو الاوزوت الذي حصله ذلك الضيف من الهواء وهو كان قبل ذلك محتاجا اليه ليقوى به . إذن هذه النباتات نافعات للنبات من جهة ومن جهة أخرى تكسب الأوض خصوبة باضافة أوزوت جديد الى تربتها

فلما سمع صاحبي ذلك . قال : أود أن توضح لي مسألة الطحلب . فقلت سأريك الآن العجب العجيب في مسألة الطحلب . وذلك ماستراه من الأشكال البديعة في الصفحات التالية . فهناك ماجاء في كتاب «علم النبات» وهذا نصه

(شكل ٥٠)

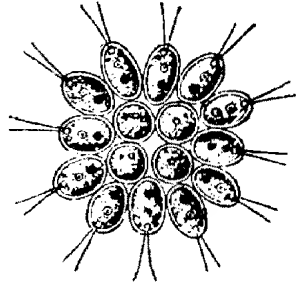
رسم العقد التي تشاهد على جذور النباتات البقلية

الطحالب

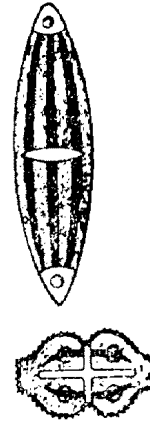
الطحالب نباتات ثالوسية مركبة من خلية واحدة أو من خلايا عدة ، وهي بسيطة التركيب لا تتميز فيها جذور أو سوق أو أوراق ، وتحتوى خلاياها على مادة الكاروفيل ، وتعيش في الماء المالح أو العذب ، والقليل منها يعيش في التربة أو على جذوع الأشجار

والطحالب أهم غذاء للأسماك ، ويستخرج من بعضها اليود والبوليتا ، ولدراستها أهمية عظيمة من الوجهة العلمية إذ أنها في بساطة تركيبها وطرق معيشتها تساعد على تعرف طرق معيشة النباتات المائية . ومن المنفق عليه أن الكائنات الحية نشأت في الماء . والطحالب على أنواع تختلف في ألوانها وأحجامها :

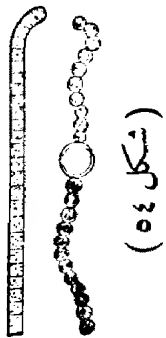
﴿ الطحالب الخضراء ﴾ تعيش طافية على سطح الماء أو مثبتة على الصخور الواقعة على الشواطئ معرضة للضوء . وهي في الغالب صغيرة الحجم . وحيدة الخلية . أو كثيرة الخلايا . مكونة خيوط متفرعة أو غير متفرعة أو مستعمرات (انظر شكل ٥١ و ٥٢ و ٥٣)



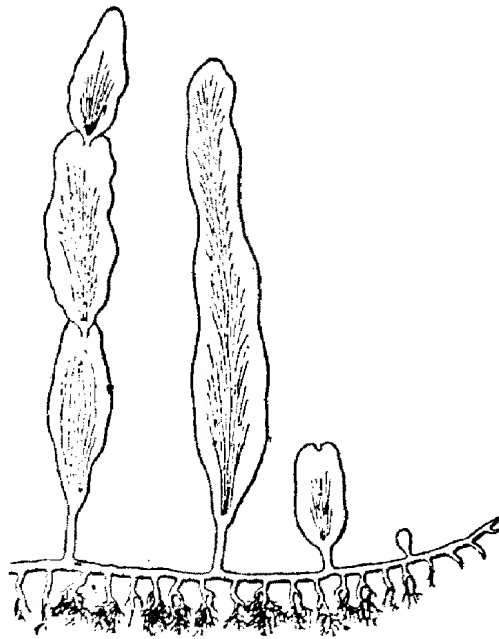
(شكل ٥٢)
مستعمرة من الطحالب الخضراء



(شكل ٥١)
طحالب خضراء وحيدة الخلية

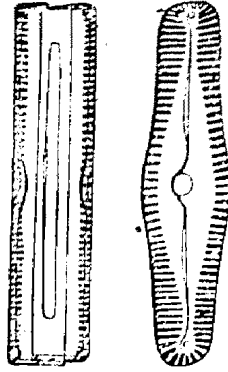


طحالب زرقاء مخضرة



طحالب أخضر وحيدة الخلية أعضاؤه تشابه أعضاء النباتات الراقية

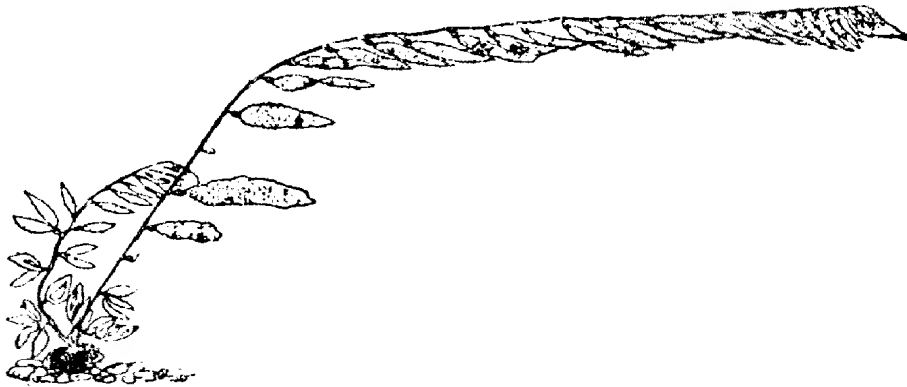
﴿ الطحالب البنية ﴾ تعيش على عمق يسير من سطح الماء . أوطافية عليه . ومن هذه أنواع مركبة من خلية واحدة يحيط بها هيكل سيليسي (انظر شكل ٥٥) وعند موتها ترسب هياكلها وتتكون منها طبقات سيليسية



شكل ٥٥ - طحالب بنية وحيدة الخلية (دياتومات)

وفي الغالب تكون الطحالب البنية مثبتة على الصخور الموجودة على مستوى ماء الجزر فتتعرض للضوء مدة الجزر وتحتفي قليلا مدة المد . وهي تختلف في أحجامها من طحالب صغيرة الى طحالب كبيرة الحجم ﴿ الطحالب الحمراء ﴾ تعيش على أعماق كبيرة من سطح البحر . وأغلبها صغير الحجم خيطي التركيب . وكل الطحالب على ألوانها المختلفة تحتوي على مادة الكلوروفيل ولكنه يوجد في الطحالب البنية والحمراء فضلا عن الكلوروفيل مواد ملونة تخفي لونه الأخضر

ومن الطحالب ما يماثل النباتات الراقية في وجود مثبتات لها تشبه الجذور يعلوها جزء اسطواني يشبه الساق ويخرج منه ما يشبه الأوراق . وقد يبلغ الواحد منها أحيانا حجم شجرة كبيرة . وتكاثف بعض تلك الطحالب الكبيرة كالسرجاسوم (انظر شكل ٥٦) في مناطق معينة . منها منطقة في المحيط الأطلسي تعرف ببهر سرجاسو . ولشدة تكاثفها وكبر حجمها تعد خطرا على الملاحة في هذه المنطقة . وبعض الطحالب الحمراء يفرز هيكل خارجي من كربونات الكالسيوم يحيط به ويساعد على تكوين الشعب المرجانية (انظر شكل ٥٦)



(شكل ٥٦ - السرجاسوم : أحد الطحالب البنية الكبيرة الحجم)

الفُطْر

الفطر تشبه الطحالب في بساطة تركيبها . غير أنها كالبكتريا خالية من الكلوروفيل . ولانعدام الكلوروفيل فيها تأثير كبير على طرق معيشتها . فهي غير قادرة على تمثيل الأغذية غير العضوية . ولذلك تحتاج الى مواد عضوية مجهزة . وتنقسم الفطر بالنسبة لمصدر غذائها الى قسمين :

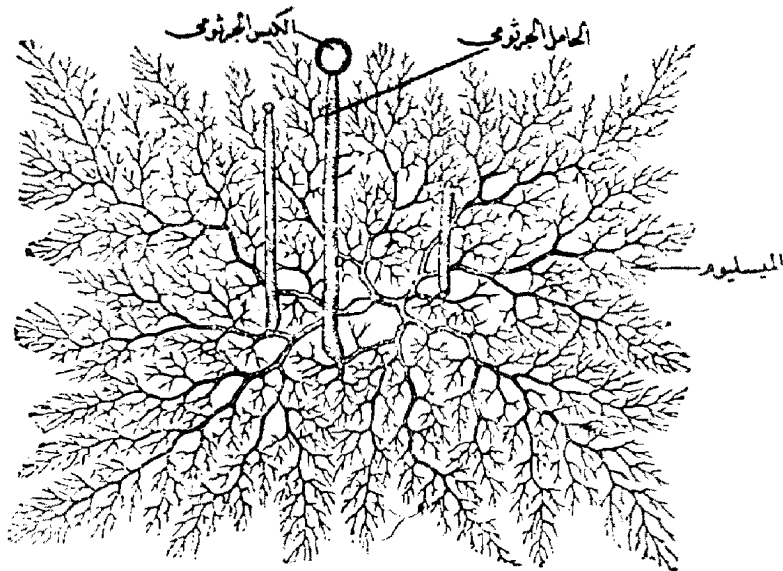
(١) فطر رمية وهي التي تناول غذاءها المجهز من المواد العضوية الميتة . ولهذه الفطر أهمية كبيرة في الطبيعة إذ أنها تساعد البكتيريا على تحليل المواد العضوية الميتة وتحويلها الى مركبات بسيطة . وبعضها يسبب فساد كثير من المواد الغذائية . فتعفن الخبز والمربات كثيرا ما يتسبب عن إصابة هذه المواد بأنواع مختلفة من الفطر

(٢) فطر طفيلية . وهي التي تناول غذاءها من (بروتوبلازم) الكائنات الحية مباشرة . ومنها ما يصيب النباتات فيسبب لها أمراضا مختلفة قد ينجم عنها خسائر فادحة في المحاصيل الزراعية

ومن الفطر ما يصيب الحيوانات والانسان . فالقراع مثلا يتسبب من إصابة جلد الرأس بنوع من الفطر الطفيلية . والفرق بين الفطر الرمية والفطر الطفيلية غير واضح في بعض الأحوال لأن بعض الطفيليات قد يستمر على التغذى من عائله بعد موت ذلك العائل كما ان بعض الفطر الرمية قد يتحول الى طفيليات في ظروف خاصة

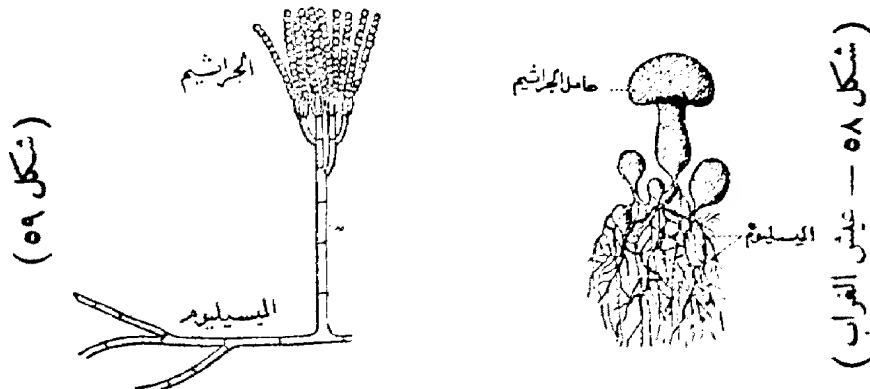
(تركيب الفطر)

يتركب جسم النبات الفطري إما من خلية واحدة كالخميرة . وإما من أنابيب رفيعة كثيرة التفرع تسمى كل منها (هيفات) ومجموعة هيفات الفطرة الواحدة تعرف بالميسليوم كما في (شكل ٥٧) وقد تكون الهيفات مقسمة بحواجز عرضية (شكل ٥٨) أو غير مقسمة (انظر شكل ٥٧)



(شكل ٥٧)

وقد تتكاثر هيفات بعض الفطر وتتلاقق فتتكون منها كتلة تشبه أنسجة النباتات الرقيقة كما هو الحال في « عيش الغراب » (انظر شكل ٥٨ و ٥٩)



﴿ جلال العلم في قوله تعالى - ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة - مع قوله تعالى - وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين - ﴾

سبحانك اللهم شملتنا بإحسانك . وبهرتنا بجمالك . ونحن الى جالك أشوق . والى علمك أكثر بهجة وأفرح قلوبا

سمعناك ياربنا تقول - وقدر فيها أقواتها - . فأخذنا نستقرئ هذه الأقوات . فوجدنا عجبا ! وجدنا أن أسبابها هي المشرقات العجيبات من الشمس والكواكب والأقمار . أدركنا الطرف الى تلك المشرقات فألفيناها لا تفتأ تلقى الأشعة والأنوار على أرضنا الجيلة البهجة الحسناء . ووجدنا أن حركات تلك المشرقات لها حساب لا خلل فيه ولا خطأ ولا خلل . ورأينا صيفا وشتاء وربيعا وخريفا . وليلا ونهارا كلهم بحساب . ثم إن الأنوار الواصلة الى الأرض مختلفات ضعفا وقوة باختلاف ذلك الحساب . وعلى مقتضاه وجدنا النبات في الأرض فقلنا لعل الحساب في تلك الكواكب وحدها . أما النبات فلا حساب فيه . بل هو خارج بمقتضى المصادفة . ولكن لما نظرنا في أمر النبات وأخذنا نستقرئ أنواعه وأجناسه وجدناه بحساب إذ رأينا موضوعا أيضا بدقة لأنه محمول لغذاء الحيوان والانسان . والانسان يحتاج في اليوم والليلة من الغذاء الى مقدار أقله نحو نصف كيلو جرام وأكثره نحو كيلو جرام . وسيأتى تفصيل هذا المقام في أول ﴿ سورة الجاثية ﴾ فراجعوه ولا تعول إلا على التفصيل هناك

رأينا أن الانسان يحتاج الى نوعين من الطعام : نوع هو مواد عضوية مركبات من مواد نشوية ومواد دهنية ومواد زلالية (آزوتية) . ونوع هو مواد غير عضوية كالأملاح المختلفة والماء . والجرام من المواد الدهنية يعطى الجسم حرارة تولد نشاطا فيه وحركة . وتلك الحرارة لها وحدة يسمونها (كالورى) أو (سعر) ومجموع ما يحصل من جرام الدهن (٩) كالورى . وما يكون من جرام الفشاء (٤) كالورى . وما يكون من جرام الزلال (٤) كالورى ، فإذا كان في الطعام (٣) كالوجرامات من كل واحد جرام كان فيه (١٧) كالورى (سعر)

﴿ غذاؤنا لا بد فيه من مواد دهنية ، وأخرى نشوية ، وأخرى زلالية ﴾

فالدھنية كالزيت ، والنشوية كالأرز ، والزلالية كالبيض واللحم وهكذا ، فهذا الذى نحتاج اليه في طعامنا ألفتناه في النبات وفي الحيوان ، ثم وجدنا نسبة مختلفة ، فتارة يكثر الزلال ، وتارة يكثر الدهن ، وتارة يكثر الفشاء ، ولنا أحوال مختلفة من صحة ومرض وضعف وقوة وعلى مقتضاه تختلف أطعمتنا ، فتارة نكثر من الفشاء . وتارة نكثر من الدهن . وتارة نكثر من الزلال . ثم اتنا لما بحثنا النبات وجدنا هذه فيه بنسب مختلفة أيضا فعرفنا أن ههنا حسابا موضوعا بدقة نستعمل ما يوافقنا منه بعد التروى والبحث والتنقيب . وهالك مثلا لذلك :

﴿ المواد النشوية ﴾

رأينا المادة النشوية تكثر في الارز والذرة والقمح والبرلة الناشفة والبقول الناشف واللوبيبة الناشفة والعدس والبلح الناشف . فهذه الأنواع التسعة يكون الفشاء فيها من نصفها الى ثلاثة أرباعها . ونرى الكرب والطماطم والسبانخ والخض وكشك الماز والخيار والشمام والبطيخ والبرتقال والليمون فيها أقل من عشرة في المائة مواد نشوية . ونرى البقول السودانى والتفاح والكمثرى والخوخ والتوت والعنب والموز والتين واللوز والبندق والجوز وأبوفروه وجوز الهند والفسدق والصنوبر . كل هذه فيها الفشاء أكثر من عشرة في المائة .

﴿ المواد الدهنية ﴾

ونرى المواد الدهنية تكثُر في اللوز والبندق والجوز والفسدق وجوز الهند والصنوبر فهي في هذه أكثر من النصف . ونرى الدهن في الديك الرومي والأوز والضاني والبقري والبول السوداني والبيض أكثر من عشرة في المائة . ونراه في القمح والذرة والبن والبطاطس والبطاطة واللوزية الخضراء وما شابه ذلك قليلا جدا

﴿ المواد الزلالية (الآزوتية) ﴾

اننا نرى المواد الزلالية في الديك الرومي والأوز والفراخ والضاني والبقري والصنوبر والفسدق والجوز والبندق واللوز والبول السوداني والعدس واللوزية الناشفة والبول الناشف والبرلة الناشفة في كل هؤلاء أكثر من عشرة في المائة . ونراها أقل من عشرة في المائة في البرلة المقشرة وفي السكرن والطماطم وهكذا عجبنا ياربنا : وزنت سير الذيرات . وأدهشنا بعلم الفلك . ولكنك في خلق الحيوانات والنباتات وجدنا حسابك مركبا مضاعفا . فانك جعلت أجسامنا مركبة من مواد دهنية ومواد آزوتية ومواد نشوية . ونفس هذه المواد وجدناها بمقادير مختلفة . ثم سمعناك تقول في كتابك - وقدر فيها أقواتها -

يارب تبارك للجهالة . تبارك للجهال . يسمع المسلم - وقدر فيها أقواتها - فتمر عليه الكرامة غالبا كأن لم يسمعها . أو آثم لآثم الاسلام النائمة . أفلم يدبروا القول إذ جاءهم !

إن هذه المآكل كل قد وزنتها الآثم حولنا ونظروا فيها نظراتهم . فهل يبقى المسلمون مكتوفي الأيدي . إن المسلمين بعد انتشار هذا التفسير لجولة ودولة وصوله واسعادا لنوع الانسان . هذه النباتات طلاس وألغاز لا يحلها إلا علماء جيع النوع الانساني لابعضه . والمسلمون يبلغون نحو الخمس أو الربع من نوع الانسان ، فعلمهم أن يقوموا بما عليهم حتى اذا درسوا ما أنتجته قرائح آباؤهم . ثم ما أنتجته قرائح الأمم المتأخرة بعدهم قاموا إذن بنصيهم من البحث في الأغذية وأنواعها قيما بحق قوله تعالى - وقدر فيها أقواتها - إذ وضعها بوضع مقدر فكانت المواد النشوية والمواد الآزوتية والمواد الزلالية كل منها له نسب خاصة في المواد العضوية وذلك لاختلاف الآكلين والأمرجة والأمكنة والأشخاص ، وذلك يعوزه كثرة البحث والتنقيب حتى تكون هناك نتائج بها يخص لكل قبيل ولكل امرئ ما يناسبه زمانا ومكانا ، هنالك تقل الأمراض وترقى العقول وتسد الانسانية . ولن يتم ذلك إلا اذا ساعد الغربي الشرق ، والشرق الغربي ، في درس هذه الدنيا ونظامها ورموزها

خطاب المؤلف لربه

يارب في القلوب حبك ، وفي العقول شكرك ، وفي الألسنة ثناءك ، لاسعادة في الحياة إلا بالحب ، ولا حب إلا بعد العلم

تحبك الدواب والأنعام لأنك تسدى اليها الغذاء ، وتحبك العامة من نوع الانسان لأنك تطعمهم من جوع وتغنيهم من فقر ، وهذا حب كحب عبيد العصا يحسون بحب ساداتهم اذا رفعوا عنهم ضرب العصا ، فهو حب على دفع الألم بعد حصوله ، وهل اللذة إلا بعد الألم . ويحبك بعض آخر من العامة لأنك فوق ما غديتهم بالطعام ملكتهم منه كثيرا ، وأنعمت عليهم بالمال الوفير والخيرات والبركات وآتيتهم ملكا في الدنيا . ويحبك الأطباء لأنهم اطلعوا على أسرار الأغذية وخواصها فشفي بها مرضاهم . ويحبك الحكماء وحبيهم لك أعلى من حب السابقين

﴿ تذكرة ﴾

اذا أردت أن تعرف كيف ترتب غذاءك فاقرأ ما تقدم في آخر سورة ص عند قصة آدم عليه السلام ،

وفيهما أيضا في آخر سورة طه ، وفي سورة الشعراء عند آية - وإذا مرضت فهو يشفين - وفي سورة الحجر وفي سورة الأعراف عند قوله - وكلوا واشربوا - الخ وفي سورة البقرة عند آية - أنستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير -

انهم يحبونك لعلمك الذي ظهرت آثاره في نحو تقدير الأقوات ولرحمتك التي تجلت في عنايتك باستيفاء أنواع أغذية الحيوان ، ولجمالك الذي تجلت آثاره في صور النبات وأشكاله وبدائع الحيوان ، ولحبك الذي أمد بعضه القلوب فأحبت الاحسان والجمال والكمال . إن سعادتنا بالحب . ولا كمال للحب إلا على مقدار العلم المحبوب . يصلى المسلم فيقول « الحمد لله رب العالمين » ويسبح ويكبر . فبالسبح يتصور أن ذلك المحبوب أرفع من كل ما يعلمه . وبالتحميد يتذكر إحسانه وعلمه فيزداد حبه . وبالتكبير ينسى كل مخلوق ويفرح بذلك الوجود الأكل ، وهناك يفهم - وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا -

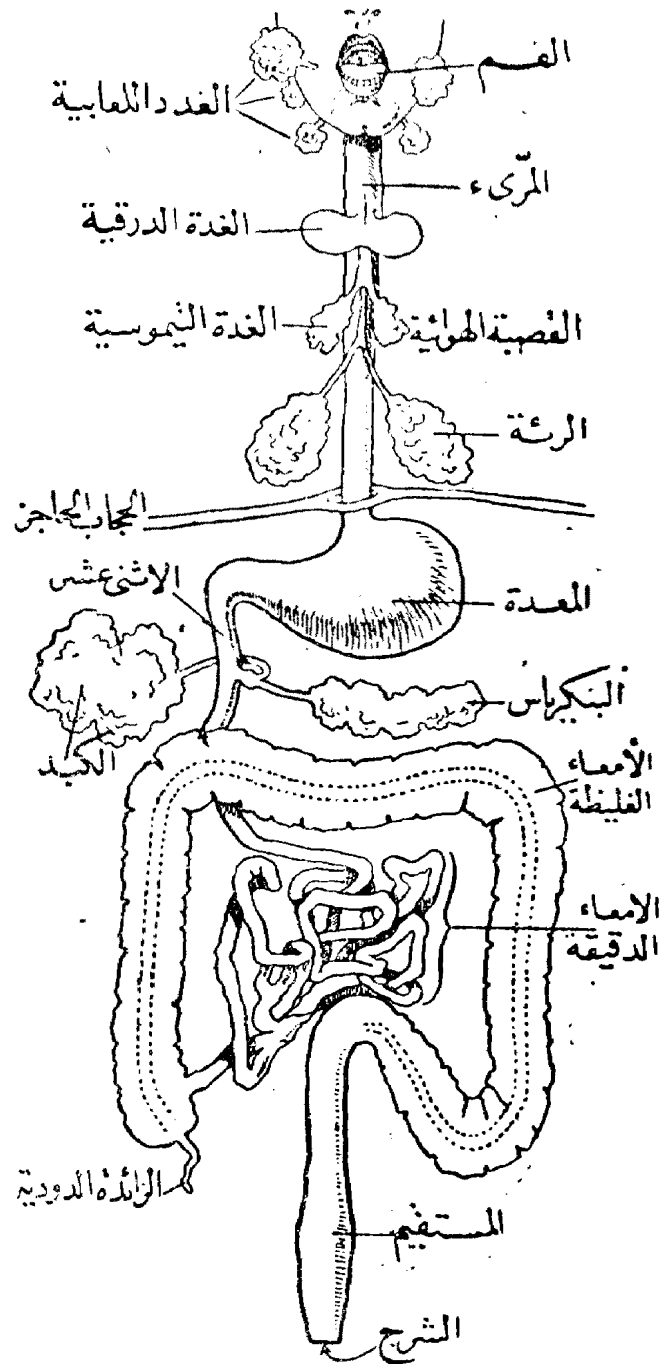
بازدياد العلم يزداد الحب . وبازدياد الحب تزداد السعادة . وأفضل سعادة الدنيا هو الحب . وأفضل سعادة الآخرة هو الحب

﴿ نور على نور وضرب مثل بما نحن فيه لما يلهب القلوب حبا ويملؤها جلالا ويبهرها أنوارا ﴾
أريد أن أضرب مثلا ببعض أنواع النبات ونظامها وموافقها للجهاز الهضمي . ياسبحان الله : نرى الانسان يعوزه في اليوم (١٨٠٠) سعر اذا كان في فراشه . وقد عرفنا ما هو السعر فيما تقدم قريبا أن الذي يحدثه في الجسم هو المادة الدهنية والنشوية والاوزوتية . وهو يحتاج الى (٤٠٠٠) سعر إن كان في شغل شاق وإلى نحو (٣٠٠٠) اذا كان في شغل متوسط . ولقد عرفنا أن الجرام من المادة النشوية ومن المادة الزلالية يحدث (٤) سعر (كالورى) ومن المادة الدهنية يحدث (٩) كالورى فلننظر في الذرة والقمح والصنوبر والفول السوداني فإذا نجد ؟ نجد الجدول التالي

القيمة الغذائية للبرطل المصرى	نشوية	دهنية	آزوتية زلالية	ماء	الصف
١٥٦٤	٧٤ ر ٨	١ ر ١	١٠ ر ٨	١٢ ر ٨	قمح
١٥٤٧	٧٦ ر ٣	٢ ر ٨	٩ ر ٩	٩ ر ٣	أذرة
٣٠٤٠	١٧ ر ٣	٦١ ر ٩	١٤ ر ٦	٣ ر ٤	صنوبر
٢٤٣٤	٢٤ ر ٤	٣٨ ر ٦	٢٥ ر ٨	٩ ر ٢	فول سودانى

إنما اخترت هذه الأغذية لأنها تعطينا ضروب التفاوت في مقدار السعر وفي المقادير الدهنية والاوزوتية والنشوية ، فقد ارتفع الفول السودانى في المادة الاوزوتية ، والصنوبر في الدهنية ، والقمح والذرة في النشوية وارتفع الصنوبر في قيمة التغذية ويليها الفول السودانى وأقل منهما الذرة والقمح
هذه صورة تظهر لنا مقادير الأغذية في النبات ، إن كل نبات لا يتخلو من هذه المواد ، ففيها الماء ، وفيها المواد الثلاثة ولكن النسب مختلفة كما خلف الناس أوطانا وقوى وأجساما وقبائل وعادات فاختلقت النباتات كما اختلفوا . وهنا مدهشات وعجائب ! هو أمر الشمس وأمر جذور النباتات وأمر أوراقها والجهاز الهضمي للإنسان مثلا . أليس من العجيب أن الشمس ترسل الأشعة فتساعد تلك المادة الملونة التي تقدم وصفها في ﴿ سورة يس ﴾ عند آية - سبحان الذى خلق الأزواج كلها - يارب عجبا (انظر الموضوع هناك إذ ترى صور الأوراق ، ووصف الحجرات في كل ورقة ، وانها تكون مئات وألوف وملايين في الورقة الواحدة والمادة الملونة في تلك الحجرات يساعد ضوء الشمس في اجتذاب الغذاء من الهواء ، ولولا هذا لم يكن نبات) وهكذا

نرى جذور الأشجار والزرع ذات مسام شعرية تختلف فتحاتها اختلافا على مقتضى اختلاف النبات بحيث تكون الفتحات الشعرية لكل نبات صالحة لاجتذاب وقبول المواد التي يشمل بها النبات ، وفتحات هذه الأنابيب هي مفاتيح سرّ النبات ، فتكون في الصنوبر غيرها في الفول السوداني غيرها في الذرة والقمح بحيث لو اختلفت أو اضطربت فدخلت مواد تزيد في المادة الدهنية أو النشوية أو الأوزونية عما هو مقرر لكل منها لم يكن في الأرض فول سوداني ولا ذرة ولا قمح ولا صنوبر ، فنظام هذا العالم نظام أدبي عجيب ، لو اختلفت الأوراق في حجراتها أو الجذور في فتحاتها فدخلت ذرات لا توافق حساب المواد المقررة للنبات لم يكن ذلك النبات وفسد هيكله ولم يعيش حيوان ولا إنسان قل تعالى - وكل شيء عنده بمقدار - . والأمر الأعجب أمر الجهاز الهضمي (انظر شكل ٦٠)



(شكل ٦٠ - رسم الجهاز الهضمي)

تجب هذا الجهاز . انظر كيف انظمت مصانعه على مقتضى نظام النبات . ومعنى هذا انه جاء مطابقا للمواد الداخلة في النبات ، فكما نرى في كل نبات :

- (١) مادة نشوية وتغلب في الحبوب كالقمح والشعير والأرز ، وفي الخضراوات كالبطاطس والبطاطة واللفت والجذر والبنجر ، وفي البقول كالفول والعدس واللوبيه والبرلة (الجافة)
 - (٢) ومادة زلالية أوزوتية وتغلب في البقول واللحم
 - (٣) ومادة دهنية وتغلب في الزيوت (والسمن والزبدة ودهن الحيوان والطيور)
- هكذا نرى في هذا الجهاز المرسوم في الصحيفة السابقة :

﴿ أولاً ﴾ - (١) مصانع في الفم وهي (٦) ينابيع تهضم بعض المواد النشوية (٢) ومابقى من النشاء بلاهضم يهضمه البنكرياس بخميرة خاصة به ويزيد هذه المادة هضما (٣) عصارة الأمعاء الدقاق

﴿ ثانيا ﴾ المواد الدهنية وهي تهضم بعصير يخرج من مصنعين : أحدهما البنكرياس ، وثانيهما مايفرزه الكبد من الصفراء

﴿ ثالثا ﴾ المواد الآزوتية وهي تهضم بالعصير المعدي والبنكرياس

المواد	الهواضم
النشاء	(١) لعاب الفم وهوست ينابيع
الآزوتية	(٢) العصير المعدي
الدهنية	(٣) الصفراء -
النشاء الدهنية الآزوتية	(٤) البنكرياس
النشاء	(٥) عصير الأمعاء الدقاق

فاذا نحن جاوزنا لعاب الفم أفقينا عجبا ! أفقينا البنكرياس يهضم الأنواع الثلاثة بأنواع من الهواضم مختلفات ، وأفقينا العصير المعدي والصفراء والأمعاء قد وزعت عليها أنواع الأغذية الثلاثة توزيعا عادلا فساعد كل مصنع في هضم مادة من المواد ، إذن لكل مادة نوعان من الهواضم اذا استثنينا لعاب الفم للمواد النشوية ههنا ننظر في ضوء الشمس ، وفي حجرات الأوراق ، وفي فتحات الأنابيب الشعرية ، فنجدها قد حسبت حسابا متقنا حتى حصلنا المواد الغذائية ، ثم نبحت في الجهاز الهضمي فنجد المصانع فيه موزعات على هذه المواد انى عملت فيها عوامل الأضواء والأوراق وفتحات الجذور الشعرية

﴿ نظام الأمم الأرضية ، والشوق الى مبدع النظام ﴾

فياليت شعري يامعاشر بني آدم ، أغفاتم عن هذا النظام ، ألم تعلموا أن هذا مثل فضله الله للناس بنفس نظام ماكلنا ، وقال لكم : « لولم يكن هناك البنكرياس مع العصير المعدي ، ولولم يكن البنكرياس مع الصفراء ، ولم يكن البنكرياس مع عصير الأمعاء لم تهضم المواد الآزوتية والمواد الدهنية والمواد النشوية » - يدبر الأمر بفصل الآيات لعلكم بقاء ربكم توقنون -

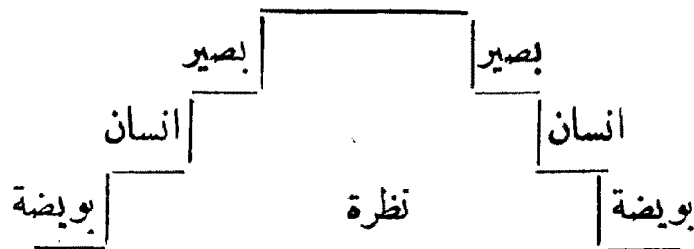
فهذا هو التفصيل ، وهذا هو التدبير ، وبهذين يكون الايقان ، واليقين هو العلم الذي لايدخله الشك . لوأن مصنعا من هذه المصانع الهواضم للمواد لم يكن في الجهاز الهضمي لاختل نظام الهضم . ألم يعلم هذا النوع الانساني أن الأرض جميعها أشبه بالجهاز الهضمي وأن عقول بني آدم أشبه بهذه المصانع الهواضم لهذه المواد وأن اختلال عقول أمة أضعف قوتها يحرم الجموع الانساني مما تنتجه تلك العقول كما يحرم الانسان من هذا

الانتفاع بنشأه وبدنه وبزلال لم يجد ما يهضمه . أى فرق أيها الناس بين القوى الهاضمات المواد والأغذية المختلفة وبين العقول المختلفة الموزعات على الناس ، أليس هذا النظام الجسمي العجيب مشاكلا كل المشاكلة للنظام العام . اللهم إني أكتب هذا القول في كتابك وأخاطب عبادك جميعا في الأرض ، وأقول : « مادامت هذه الأرض فيها أمة واحدة لم يستخرج ما عندها من القوى العقلية وما في أرضها من القوى المادية فأهل هذه الأرض جميعا معذبون على مقدار ما انتقصهم من فوائد تلك العقول كما تنقص سعادة الانسان الواحد بما نقصه من القوى الهواضم لمواد طعامه ، وهذا القول أنا به موقن
عروج النفس الى العالم الأعلى

لقد قدمت في غير ما موضع من هذا التفسير لاسيما في آية - إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا - الخ في هذه السورة أن المادة عجزت عن إمداد عوالمها بالحرارة والضوء فهي عن إمدادها بالتصوير والادراك والعقول والفرائز والقوى أشدّ عجزا ، وأقول الآن : إن العلم اليوم في العالم الانساني أثبت أنه لا وجود للمادة لأنها عبارة عن حركات تنوعت فان كانت من ٤٠٠ مليون مليون في الثانية الى ٧٠٠ مليون مليون فيها فذلك هو الضوء ، وان كانت نحو ٦ آلاف مليون مليون في الثانية فهي العناصر ومركباتها ، فيلحذف النوع الانساني من صحائفه ذكر الفلاسفة الماديين ، فاذا لم تكن مادة فكيف يكون لها فلاسفة ! ولكن الناس يذكرونهم وهم غافلون عن رقي العلم اليوم .

فلم يبق إلا ان هناك علما ورجة وجالا وحبا استمدت منه الناس علمهم ورجاتهم وحبهم وصورت العوالم بالصور الجلية التي لا تقدر عليها المادة الموهومة ، فههنا نتيجتان : نتيجة سياسية ، وهي ان الأمم الأرضية لا تزال مضطربة معذبة حتى يستقرّ قرارها بنظام يشمل جميع نوع الانسان فيكونون كجهاز هضمي واحد يقوم بجميع ما في الأرض من الأعمال ، ونتيجة علمية ، وهي ان أسعد حياة للانسان أن يدرك هذه الحقائق بعقله من غير تقليد ، وهناك يرى أن عقله والرجة التي عنده ، والجمال المبدع في العوالم حولنا ، والحب المنبث في العوالم كل هذه آثار لعلم ورجة وجمال وحب واسع ، فتى أحسن بذلك دخل في عداد السعداء في هذه الحياة ، ويكون من قبل فيهم - لا يحزنهم الفزع الأكبر وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون -

عقل



وسأتي تفصيل هذا المقام في تفسير البسملة في سورة الدخان ، وسترى هناك كيف خيلت لي درجات رقي الانسان أولا في بطن أمه وثانيا في درجات إحساسه ثم في عقله ، وهناك ترى رسما أظهر من هذا الرسم إذ يكون بويضة في الرحم فيرتقي الى أن يصير ذبابة وقردا وانسانا ، ثم بعد الوضع يلمس ويدوق ويشم ويسمع ويبصر ثم يعقل وهناك وصلت في الخيال الى الذروة العليا ، وعلاوت الى ذلك المستوى الرفيع ، وغادرت عالم المحسوسات ودخلت في عالم المعقولات ، غدت الى نظرتان : نظرة الى أعلى ، ونظرة الى أسفل وبعبارة أخرى نظرة الى عالم العقل والروح والحب والجمال ، ونظرة الى عالم المادة كالأرض ومن عليها وأشجارها وزروعها وأحجارها ورمالها وجبالها وبحارها ، هنالك تبينت لي الحقائق ، وابتهجت نفسي بالمعارف ، وأخذت أوازن ما بين هذين المنظرين وبين الصلاة في الاسلام ، فتارة كنت أحصر الفكر في العالم اللطيف الذي أسكرتني غشيته

وأبهجتني حكمته ، وأسعدتني بهجته ، فأعرف إذ ذاك كيف يكون الجدد على النعم والشكر عليها والرجة العاقبة ومبدأ الهداية الى الصراط المستقيم ، وتارة أنظر الى العالم الأرضي أسفل هذا المعراج ، فأفهم لماذا يسلم المسلم على الأنبياء وعلى الصالحين وعلى نبيه ﷺ وعلى نفسه تارة ، ويصلى على نبيينا ﷺ وعلى الأنبياء قبله تارة أخرى (وبعبارة أخرى) ان النظرة الأولى لعالم الأرواح والجمال والعقل منبع للنظرة الثانية وأصل لها ، فالأنبياء هم الذين يفسون السلام في الأرض مما اقتبسوه من ذلك العالم ، فالفاتحة أقرب الى عالم الجمال والعلم ومابعهما والشهد في الصلاة مفرع عليها ، فإذا كان هؤلاء الأنبياء هم مبدأ السلام في الأرض اقتبسوه من عالم العلم والجمال ، فالمسلم يسلم عليهم ليقلدتهم بسبب كثرة استحضارهم في نفسه فيصبح ذلك ملكة راسخة في نفسه فيفشي السلام في الأمم كما أفسوه ويستعمل أهم الطرق لذلك ويتبدى بتحية الله عز وجل وهذا سر السلام على كثير من الأنبياء في سورة الصافات (وانتهت السورة بتسبيح رب العزة والسلام على المرسلين كلهم واعلان الحمد لله لأن هذا الحمد الذي تشمله الفاتحة المبني على العلم والرجة الخ مبناه وأصله سبب في أن الأنبياء أفسوا السلام في الأرض ، ومن هذا يفهم المسلمون سر قوله ﷺ « افسوا السلام » وسر تسليم المؤمن على أخيه كلما قابله . انتهى مساء ٣١ ديسمبر سنة ١٩٣٠ والحمد لله رب العالمين

بهجة الحكمة وجمال العلم

في قوله تعالى أيضا - ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت - أنا الساعة أظن اني نجحت في مشاركتك أيها الدكي في فهم مقادير النبات ونسبتها الى جهازنا الهضمي والى الشمس والضوء والأنابيب الشعرية وفتحاتها المختلفة ، فحق لي أن أريك الآن جدول الأطعمة من كتاب « الغذاء في الأمراض » تأليف الدكتور حسن عمر . فقد جاء فيه تحت العنوان التالي مانصه :

تحليل الغذاء كيميائيا

إن معظم المواد التي يتغذى بها الانسان إما أن تكون عضوية أو غير عضوية . فغير العضوية هي عبارة عن مختلف الأملاح التي يأكلها الانسان في غذائه ومشربه . أما المواد العضوية فهي غالبا مركبة من مادة نشوية ودهنية وزلاية (آزوتية) . هذا وسترى في الجدول الآتي قائمة فيها تحليل معظم ما كولنا في المائة مع ذكر قيمتها الغذائية للجسم في الرطل المصري الواحد (انظر هذا الجدول)

القيمة الغذائية للرطل المصري بالسعر	نشوية	دهنية	أزوتية (زلاية)	ماء	الصف
١٥٦٤	٧٤٠٨	١٠١	١٠٠٨	١٢٠٨	قح
١٥٤٠	٧٩٠٤	٠٠٤	٧٠٤	١٢٠٤	أرز
١٥٤٧	٧٦٠٣	٢٠٨	٩٠٩	٩٠٣	أذرة
٣٢٥	٥٠٠	٤٠٤	٣٠٣	٨٧٠	بن
٦٨٥	٠٠	١٠٠٥	١٤٠٨	٧٣٠٣	بيض
٢٩٧	١٤٠٧	١٠	١٠٨	٦٢٠٦	بطاطس
٤٥٠	٢١٠٩	٠٦	١٠٤	٥٥٠٢	بطاطه
١٣٦	٤٠٧	٠٣	٢٠٣	٨٩٠٣	لوبية خضراء

الصنف	ماء	آزوتية (زلاله)	دهنية	نشوية	القيمة الغذائية للرطل المصري بالسعر
بزله بقرونها	٨١٠٨	٣٠٤	٠٤	١٣٠٧	٣٢٠
بزله مقشرد	٧٤٠٦	٧٠٧	٠٥	١٦٠٩	٤٦٧
بزله في العلب	٨٥٠٣	٣٠٦	٠٢	٩٠٨	٢٤٥
بزله ناشفة	٩٠٥	٢٤٠٦	١٠٠	٦٢٠٠	١٥٧٨
فول ناشف	١٠٠٤	١٨٠١	١٠٥	٦٥٠٥	١٥٨٩
لوبيه ناشفة	١٢٠٦	٢٢٠٥	١٠٨	٥٩٠٦	١٥٢٧
عدس	٨٠٤	٢٥٠٧	١٠٠	٥٩٠٢	١٥٣٧
فول سوداني	٩٠٢	٢٥٠٨	٣٨٠٦	٢٤٠٤	٢٤٤٣
كرب	٨٩٠٦	١٠٨٠	٠٤٠	٥٠٨	١٥٠
» مطبوخ	٩٧٠٤	٠٠٦٠	٠١٠	٠٤	١٥٠
طماطم	٩١٠٩	١٠٣٠	٠٢٠	٥٠٠	١٢٠
طماطم مطبوخة	٩٤٠٥	١٠٠٠	٠٢٠	٠١	١٢٠
سبانخ	٩٠٠٦	٢٠٥	٠٥٠	٣٠٨	١٣٢
خص	٩٤٠١	١٠٤٠	٠٤٠	٢٠٦	١٨٩
كشك الماز	٩١٠٧	٢٠٢٠	٠٢٠	٢٠٩	٩٨
خيار	٩٥٠٩	٠٨٠	٠١٠	٢٠١	٥٨
تفاح	٨٢٠٥	٠٤٠	٠٥	١٢٠٥	٢٥٠
ثوري	٨٣٠٩٠	٠٤٠	٠٦	١١٠٥	٢٣٨
خوخ	٨٨٠٨٠	٠٥٠	٠٢	١٣٠٤	٢٥٧
توت	٨٤٠٧٠	١٠٣٠	٥٠٧	١٥٠٤	٥٢٤
عنب	٧٩٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠	١٥٠٥	٣٣٣
شمام	٨٩٠٨٠	٠٧٠	٣٠٠٠	٧٠٦	٢٦٦
بطيخ	٩٢٠٩٠	٠٣٠	٠١	٦٠٥	١٢٤
موز	٧٤٠٠	١٠٥٠	٠٧	٢٢٠٩	٤٦٢
برتقال	٨٦٠٧٠	٠٩٠	٠٦	٨٠٧	١٩٥
ليمون	٨٠٩	١٠٠٠	٠٩	٨٠٣	٢٠٠
بلح ناشف	٢٠٠٨	٤٠٤٠	٢٠١	٦٥٠٧	١٣٢٨
تين	٧٠٩١	١٠٥٠	٠٩	١٨٠٨	٣٩٥
زيب	١٠٤٠	٢٠٥٠	٤٠٧	٧٤٠٧	١٥٥٨
لوز	٤٠٨	٢١٠٠	٥٤٠٩٠	١٧٠٣	٢٨٧٣
بندق	٣٠٧	١٥٠٦	٦٥٠٣٠	١٣٠	٣١١٦
جوز	٢٠٨	١٦٠٨	٦٤٠٤٠	١٤٠٨	٣١٣٣
أبوفرة	٤٥٠٠	٦٠٢	٥٠٤٠	٤٢٠١	١٠٧٤

القيمة الغذائية بالرطل المصري بالسعر	نشوية	دهنية	آزوتية (زلاليه)	ماء	الصفه
٢٦١٩	٢٧٨٩	٥٠٨٦٠	٥٨٧	١٤٨١	جوز هند
٢٨٥٦	١٥٨٦	٥٤٨٥٠	٢٢٨٦	٤٨٢	فسدق
٣٠٤٠	١٧٨٣	٦١٨٩	١٤٨٦	٣٨٤	صنوبر
٩٨٥	٠	١٧٨٥	١٦٨١	٥٢٨٥	بقري بيت الكلاوى
٨٤٨	٠	١٢٨٨	١٩٨٠	٦٧٨٠	بقري نخذه
٥٩٠	٠	٧٨٩	١٥٨٥	٦٠٨١	بتلو نخذه
٨٥٥	٠	١٤٨٧	١٥٨١	٥١٨٢	ضاني »
١٣٧٠	٠	٢٨٨٣	١٣٨٥	٤٢٨٠	ضاني كستليتة
٢٨٣	٠	١٨٤	١٢٨٨	٤٣٨٧	فراخ
١٤٢٩	٠	٢٩٨٨	١٣٨٤	٣٨٨٥	أوز
١٠٢٠	٠	١٨٨٤	١٦٨١	٤٢٨٤	ديك رومى

﴿ قسمة علم النبات بيننا وبين الأطباء ﴾

يقول عمرو بن كاشوم

فأبوا بالنهاب وبالسبايا * وإبنا بالملوك مصفدينا

ويقول عنتره العبسى :

لى النفوس وللطيير اللحوم * وللوحش العظام وللخيالة السلب

يقول إني عظيم القدر شريف المنزلة ، لا أجعل نفسى وقفا على الامور المادية ، واذا قنعت الطيور بلحم من أجندلهم فى الميدان ، وقنعت الوحوش بالعظام ، ورجالى بما على القتل من دروع وملابس ، فأتى أكبر نفسا وأعز شرفا ، فكفانى أنى أنا القاتل . فهو لاء مقاصدهم مادية ، فأما أنا فأرى أشرف قدرا وهو أنى قاهر الأقران موصوف بالشجاعة والعلو والقهر ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ لذاتى روحية ولذات هؤلاء حسية ، واللذة الروحية أعلى مرتبة وأشرف غاية وأكمل سعادة

واذا رأينا هذا الشاعر فى البادية يفخر باللذة الروحية ولا معارض له مع أنها لم تمتاز عن لذة الفخر ، ذلك لأنه قد يقتل الحيوان لمجرد القتل لا لست جوعه ، ولولا استلذاذه بالقتل ما فتك لغير داعية الجوع ، فهذه إذن لذة سبعية لا لذة عقلية شريفة . أفلا يحق لنا أن نقول للأطباء : « أيها الأطباء لكم المرضى فافرحوا بشفايتهم اذا عرفتم هذه المقادير ولكم الأصحاء فاعلموهم مقادير الأطعمة ليحترسوا من الوقوع فى المرض . أيها الأطباء هذا هو النبات وهذه مقاديره ، وهذا علم الطب بقسميه : علم حفظ الصحة ، وعلم مداواة المرضى ، فقوموا بهما واشفوا المرضى من عللهم وأمراضهم ، ونسأل الله نجاحكم ،

ولكننا نحن نريد مقاما أعلى لهذه الإنسانية بعد أن تكونوا أنتم قتم بصحة أجسامهم وحفظ صحتهم ليفهموا كلامنا لأن المريض قلما يفهم ما نقوله ، وهناك حقول مختلفات فى الدماغ تنوبها أنواع العلوم الرياضية والطبيعية والتاريخية والأدبية والسياسية وهكذا كما دل عليه الكشف الحديث ، ذلك ان فى الدماغ محال مختصات لكل علم قامت عليه الأدلة التشرىحية بحيث تنمو تلافيف خاصة باستعمال علوم معلومة ، وباهمال تلك العلوم لا يكون لهذه المحال فى الدماغ نقو . فاذا كان الجهاز الهضمى قد اقسم المواد النشوية والدهنية

والأوزوتية ، فهكذا نجد المخ اقسام المواد العلمية من رياضية وطبيعية وأدبية وهكذا . وكما وجدنا أن للأغذية مبدأً وهي الشمس أشرف الموجودات المحسوسات هكذا نجد لأغذية العقل المنتصرف في الدماغ الذي هو أشرف من الجهاز الهضمي مبدأً وهو أشرف الموجودات الغائبة عن الحس وهو الذات القدسية ومنه انبعث العلم في نفوس هي وسائط توصل لنا الادراك والفهم والعلم على وزن توسط النبات بيننا وبين ضوء الشمس وحرارتها . وإذا كانت كل حاسة من حواسنا الظاهرة متصلة بعالم يماثلها . فلتكن عقولنا متصلة بعوالم عقلية هي مستمدة من الله عز وجل

إن هذا البرهان يقينى كالبرهان الذى تقدم فى قوله تعالى - إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا - الخ

فى هذه السورة

﴿ هذا زمان ظهور الحقائق ﴾

هاهى ذه براهين أرسطاطاليس وسقراط وأفلاطون ومن بعدهم من الأمم الى وقتنا الحاضر قد شرحتها لك واضحة فيما تقدم وأثبت طرقها . ولقد اختلفوا الخفاء تلك البراهين على الذات القدسية أن الله عز وجل لم يشأ أن يظهر الحقائق للأمم مرة واحدة . إن الله نظر الى الأمم كلها نظره الى نفس واحدة . وهذه النفس الواحدة أخذ يعلمها بالتدرج والطفرة محال فألهم سقراط ماعرفته هناك . وألهم أفلاطون تدوينه . وأوعز الى أرسطاطاليس أن يرد البرهان . وكان ذلك سببا فى ظهور فرق متفككة من أبيقوريين ورواقيين قبل الميلاد والى الأفلاطونية الحديثة . ثم الى فرق متعددة فى الاسلام وفى أوروبا . ولكن اليوم إذ ظهر سر النبات وانتشر واستعدت قلوب الأمم للعلم

ظهرت البراهين الآن فى هذا الكتاب جلية واضحة بحيث يسهل على المتوسطين فهمها وسيقل الاختلاف فيما كتبناه فى هذا المقام وأوضحناه فى هذه السورة . ولقد جاء فى كتاب « المذهب الروحانى » لمؤلفه عبد الله أباحى أحد الروحانيين الشرقيين فى صحيفة ١٤١ أسئلة تناسب المقام . وهالك نصها :

(س) هل يمكن للطبيب أن يستحضر المرضى الذين ماتوا على يده ، ويستوضح منهم بعض الدلائل يزداد بها خبرة ومعرفة ؟

(ج) قد يصح ذلك وينال المساعدة من الأرواح العلوية ذاتها بشرط أن ينكب على درسه هذا بالاستقامة وصفاء لافية حشد المال وكسب المعارف من دون جد ولا عناء

(س) هل يمكن استرشاد الأرواح فى المباحث والاكتشافات العلمية ؟

(ج) إن العلم هو صنع العقل ، ولا يكتسب إلا بالعمل ، وبالعمل وحده يتقدم المرء فى طريقه ، أى فضل

يبقى للإنسان إذا أمكنه أن يعرف كل شئ باستنباء الأرواح ؟ ألا يصبح الغيب الجاهل بهذه

الطريقة علما ؟ ثم ان لكل شئ وقتا معيناً يأتى فى حينه أى عندما تكون الأفكار مؤهلة لقبوله

وأما تلك الطريقة فيقلب الانسان نظام الأشياء ، إذ يقطف الثمرة قبل نضجها

(س) ألا ينال إذن العالم والمخترع عوناً من الأرواح فى مباحثه ؟

(ج) إن العون لا ينقصه عند ما يكون أوان الاختراع قد دنا فتوافيه وقتئذ الأرواح وتلقى اليه بعض

الإلهامات الفكرية فينقرها هو ويشغل بها الى أن ينتج منها الاكتشاف المقصود فيكون

معظم الفضل راجعاً له ، فإياكم إذن والزيف عن محجة الروحانية والتطارف الى أمر لا يلحقكم

منه إلا الخداع والسخرية (١) اه

(١) اتصل الجهل ببعض عند ظهور الحوادث الروحانية الى أن يتطلبوا من الأرواح نسخة فى صبغة

الشعر ، وعلاج الدمايل فأصبحوا موضوع السخرية عند ما أشاعوا فيما بعد التراكيب التى تلقنوها من

الأرواح الماكرة

أقول : فبناء عليه نقول إن هذه البراهين التي جاءت في هذا التفسير قد استعدت لها الأذهان . ألا ترى أن طائفة الماديين اليوم لا وجود لهم لأن المادة لا وجود لها عند علماء القرن العشرين ، وإذا سمعت عنهم كالذي نقلناه فيما تقدم فأنما هو أمر تاريخي لا غير ، لأنك علمت أن علماء عصرنا أجمعوا أنه لا مادة ، فللمادة كلمة تطلق على كل ما نحس به وليس هو بمادة ، بل هو حركات في أمر خيالي سموه (أثيرا) وهذه الحركات باختلافها ظهرت لنا أنوار وحرارة ومغناطيس وعقاقير ومركبات أخرى وعناصر بسيطة ، وإذا سقطت المادة باجماع العلماء في عصرنا فقد سقط معها المذهب المادي اللهم إلا عند المدرسين في المدارس النظامية في الشرق الأدنى كعصر والعراق وسوريا وما أشبه ذلك لأن هؤلاء يكررون على مسامع تلاميذهم ما قرأوه في كتب منقولة عن علماء القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، أما قرءاء هذا التفسير فأنهم علموا أن النوع الانساني كانت معارفه مبعثة قبل النبوة . فلما أشرقت النبوة الحمديدية قال الله على لسانه ﷺ - سرهم آياتنا في الآفاق - الخ وقال - وقل الحمد لله سيركم آياته فتعرفونها - فهم سيقولون عرفنا يارب ووصلنا اليك بعقولنا وآمننا بشارتك ، ياربنا قبلنا البشارة التي بشرتنا بها . إذن لتكن أعمالنا ياربنا من الآن موصولة برحمتك ، مستمدة من نور علمك ، موقنين بأننا معك واننا سنكون خير أمة أخرجت للناس . ومن هم الذين يوقنون برهم وتكون أعمالهم في الحياة أعمال قوم كأنهم في حضرة ربهم . فاذا رأوا النمل والنحل وحشرات الأرض كل من أفراد هذه الممالك تعمل وهي فرحة بأنها أرضت الملكة الجليلة على عرش الملك المرسومة في السور المتقدمة . فهكذا نحن قرءاء هذا التفسير ومن نحانحوهم نعمل وقد أيقنا إيقانا أشبه بالعيان بأن الله مع كل نفس منا ومطلع على أعمالنا ، فنحن جزاؤنا في نفس عملنا لأننا نعمل بمحبة وإخلاص . وإذا وجدنا الصبي مخلصا في عمله لأبيه ، فرحا بأن أباه راض عنه . فهكذا نحن أصبحنا موقنين بأننا نعمل والله راض عن أعمالنا ونحن نحس في أنفسنا بسعادة وإشراح صدر صادقين من صانع العالم المطلع على سرائرنا وتلاحظه عقولنا كما تلاحظ الشمس وضوءها عيوننا ، فالحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور

الناس وإن كانوا أحرارا فهم إما هائمون بالجمال إن كانوا سعداء ، وإما مستعبدون بالشهوات إن كانوا أشقياء . قال ابن الفارض :

أنت القاتل بأيّ من أحبيته ✽ فاختر لنفسك في الهوى من تصطفى

اللهم انك أريقنا الجمال في زروعك وشجرك وزهرك وفرك ونجمك وشمسك . اللهم انك ملأت قلوبنا جالا وأبهجتنا بصنعك ومنحت بصائرنا التمتع بالجمال في هذه الحياة وكشفت الغشاوة وأحطتنا بالأنوار ورأيناك ألهمت الشيخ الدباغ فيما نقله عنه الشيخ أحمد بن المبارك إذ يقول : « إن فتح الحواس الظاهرة عبارة عن لذة تحصل في الحواس الظاهرة ، وذلك بفتح العروق بما أدركته الحواس ، وبهذه اللذة يكمل البسط ، ففي البصر لذة بها يحصل الميل الى الصور الحسنة وعن ذلك ينشأ العشق والانقطاع الباطني للنظور ، وفي السمع لذة بها يحصل الخضوع عند سماع الأصوات الحسنة والنفقات المستقيمة وقد ينشأ عن ذلك اضطراب واهتزاز في الذات وهكذا سائر الحواس ، ففي كل حاسة لذة زائدة عن مطلق الادراك ، والفرق بين فتح الحواس الظاهرة الذي هو من البسط وبين كمالها أن فتح الحواس يزيد على كمالها بفتح العروق فإن فتح العروق زائد على الادراك الذي هو في كمال الحواس وبذلك الفتح الحاصل في العروق والتكليف الجاذب لصاحبه يقع الانقطاع الى المدرك . فترى صاحبه ينقطع مع كل نظرة الى كل ما يراه وقد تحصل له غيبة خفيفة مع ذلك الانقطاع بخلاف مطلق الادراك فإنه لا يحصل معه هذا الانقطاع . فكم امرئ يرى أمورا حسنة ولا يتأثر بها . وكم من آخر يسمع أصواتا حسنة ولا تقع منه على بال . وبهذا الفتح والتكليف يحصل كمال البسط »

اتهى كلامه بالحرف

هذا كلام ذلك الأعمى وهو الشيخ الديباغ ، ذلك الذى لم يتعلم أنى لنا بسر وهذا السر يحيط بنا ولكننا لانظن له . هذا السر هو أن جمال هذه الدنيا وشموسها ونباتها مباح للناس . نحن جميعا نراه . فإنا من هو مغمور بالمحاسن فرح بها سعيد مبتهج . وهذا الابتهاج وهذا السرور أمر آخر وراء مطلق الإدراك . نحن ننظر . نحن نسمع . نحن نتعلم . نحن نقرأ العلوم الرياضية . نحن نقرأ العلوم الطبيعية ولكن النظر والسمع والقراءة والفهم والتفكير وحوز العلوم والفوز فى الامتحان والتفوق على الأقران فى العلم . هذا كله شيء وذوق المسموع والمبصر والعلوم الرياضى والطبيعى والالهى والفرح بها والاستلذاذ والابتهاج بها شيء آخر ، فأول الرجلين وهو الذى لا يحسن قلبه بجمال مدركاته الحسية والعقلية نجده دائما يبحث عن حبيب يبهجه ويفرح به فلا يجد له مناصا من حبيب يأسرفؤاده مادام ذلك المدرك ليس حبيبا له ولا معشوقا ولا هو هائم به . وإذا كانت المدركات العلمية بقسميها ليست محبوبة له ولا جميلة فهو لا محالة يختار ضدها وهى الشهوات فيبحث عن الجليل للشهوة الحسية وعن المدل للاستمتاع الجسمى والفخر الظاهرى وعن السلطة التى بها يرهب الناس . وبالجملة إن المحبوب إذ ذاك شهوة البطن والفرج وشهوة الغلبة والصيت والولد والمال . وهذا كله أمر آخر غير الجلال . إذن صدق قول ابن الفارض « اننا قتلنا من نحب » فإن أحببنا الجلال انقطعنا اليه وكفانا . وإن لم نحب الجلال أحببنا الشهوات وعلى هذا الثانى أكثر هذا النوع الانسانى وعلى المبدأ الأول القليل أو النادر منهم وهؤلاء هم أشرفه وساداته وعظماؤه وحكامؤه

فلنتنظر فى حال المسلمين اليوم وفى عالم النبات الذى كلامنا فيه . النبات بتحليله أرانا انه جيل ومحكم مشوق لتلك الذات القدسية هام بها عند رؤيته قوم وكفاهم حبه والغرام به يبهجم أنى ساروا يكونون فى الحياة سعادة لأنهم . ولكن أكثر الناس فى الاسلام كان هذا النبات سببا لاستعبادهم وشقاءهم مثل سائر عرض الحياة الدنيا ، فإذا كان الأولون قتلوا الجلال ، صرعى الحب والغرام ، يهيمنون بالذات القدسية الرفيعة العلية ، مفرمين بتعليم الأمم وارشادها قد أعدوا أنفسهم خلفاء الله فى أرضه ، قوامين على عباده ، يبشرونهم بالخير وينذرونهم بالشر فان الآخرين وقد حرموا من الاستلذاذ بذلك الجلال يقعون لا محالة فى الهيام بظواهر الشهوات فيكونون عبيدا لها ، ومن استعبده الشهوات استعبده الناس

مثلا نحن فى مصر نزرع القطن ولكننا قوم محرومون من النبوغ فى الصناعات وكثرتها ، فنحن نبيع القطن بأبخس الأثمان ويصنع فى أوروبا ونشتريه ملابس بعشرات بل بمئات أضعاف ما بعناه به وقد رجع الينا ماؤنا بألوان زاهية فرحنا بها . إن بلادنا المصرية المسكينة هائمة بملابس الفرنجة وتقليدهم فى كل شيء وخزينة الحكومة مفتحة الأبواب للعاملين فيها ، فهؤلاء يأخذون ثلثها بصفة مرتبات لهم ويصرفونها فى الملابس والمسا كل والخمر واللهو واللعب وهكذا نساؤهم ورجال ونساء ذوى القصور والضيعات والعقارات الواسعة ، فهؤلاء وهؤلاء لما حرموا الاستلذاذ بالحكمة والعلم لم يجدوا لهم مناصا من غشيان أبواب الفجور والتباهى بالثياب الملوثة المصبوغة بألوان من القطران المستخرج من الفحم كما تقدم تفصيله فى أول سورة سبأ ، وكأنى وأنا أكتب هذا أشاهد أكثر قومي ومن على شاكلتهم مقرنين فى الأصفاة سرايلهم من قطران وتغشى وجوههم النار ، تراه بصيرتى

سبحانك اللهم وبحمدك . أنت محسن رحيم جليل حكيم . حبست أرواحنا فى هذه الأرض لأنها ليست أهلا لمكان أرقى . وحبستنا فى لذاتنا وشهواتنا . وكلما ازدادنا شهوة اثقلت الأغلال على أعناقنا . ذلك بما كسبت أيدينا . أفليس الناس اليوم مبغدين من الأغلال . اللهم لا وأى غل أشد وطأة من غل الأخلاق والآراء والعادات . تعس الانسان ما أجهله

بأنى التجار من أوروبا باللبس المصبغة والخياب الملوّنة والحرير القاتلة والشهوات الفاتنة ، فنسكب عليها ولا نقوم نحن بعمل ما ولا صناعة ما ورجائنا ونسؤنا ووجهنا وما مقتنعون بأن ذلك هو الرقى ، فنذهب القروة للأجانب وهؤلاء هم الذين يسيطرون على الشعب ويمنعون به من الرقى ومن العلم ومن الاستعداد الحربي . فلذا عجز الناس عن فك أغلالهم في الدنيا فهم عن فكها في الآخرة عاجز . ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا .

هذا ما خطر لى وأنا أصلى الصبح يوم الأحد ٢١ ديسمبر سنة ١٩٣٠ وأنا أقرأ هذه الآية - وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد سرايبهم من قطران وتغشى وجوههم النار ليجزى الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب - فأنى أثناء القراءة كنت أشاهد بالبصيرة أن هذا منطق انطباق تاما على حال كثير من أم الشرق الأدنى ومنهم كثير من أهل بلادى

اللهم إنى أشاهد الأغلال من الآن موضوعة فى أعناقنا فى أرضك ومن أشدّها الملابس المصنوعات المزخرفة التى قتلت المسلمين لجهلهم وقلة الدعاة والوعاظ فيهم وكثرة جهلهم حتى ان القطن الذى نزرعه نحن فى مصر ينسج فيصير أغلالا لنا واستعبادا والاستعباد اليوم راجع للتجارة . إن التجارة اليوم هى الأغلال فى الأعناق وهى السبيل التام لذلك . فأخرج المسلمين فى مصر وغيرهم من هذه المأساة . إنك أنت الرؤوف الرحيم . انتهى فى صباح يوم الأحد ٢١ ديسمبر سنة ١٩٣٠ وبهذا تم الكلام على الفصل الأول من اللطيفة الخامسة فى قوله تعالى - فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت - والحمد لله رب العالمين

﴿ الفصل الثانى ﴾

من اللطيفة الخامسة

فى قوله تعالى - سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم -

فى هذا الفصل ثلاث مباحث

(١) فى المخاطبة على بعد عشرة آلاف ميل

(٢) فى الصلة بين علماء الشرق والغرب

(٣) فى أحوال نفس المؤلف

﴿ المبحث الأول ﴾

جاء فى إحدى المجلات العلمية تحت العنوان التالى مانصه :

بين القطب الجنوبي ونيويورك

فى غرفة فى الدور الثالث من إحدى ناطحات السحاب النيويوركية القائمة فى قلب المدينة عند ميدان التيمس جلس شاب على أذنيه سماعتان سوداوان . وعلى وجهه أمائر تدل على انه سمع شيئا مع ان السكون سائد فى الغرفة حتى تسكاد تسمع دقات القلب . ولائى أمامه إلا صندوق أسود قائم على طاولة . وإذ ابده تمتد الى قضيب نحاسى فى نهايته عقدة سوداء فيأصمها لمسا لطيفا فيلمع النور فى غرفة مظلمة فى الدور السابع عشر من ناطحة السحاب ذاتها ويسطع من صف من المصابيح من غير أن يحدث انفجار كهربائى أو أى صوت آخر . ليس فى الغرفة أحد . فاذا انقطع لمعان المصابيح اتشحت الغرفة بسود حالكة

أنصت الرجل الذى فى الدور الثالث قليلا ثم أخذ قلما بيده وكتب العبارة التالية ؟ « اصغ الى الطيارة « النجوم والخطوط » فى الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة عشرة صباحا » ولعل المصباح ثانية ناقلة الى مصدر

الرسالة السابقة جواب الشاب « اثنى حاضر »

في القارة المنجمدة الجنوبية على عشرة آلاف ميل من نيويورك — من الغريتين اللتين يقيم فيهما الشاب وتامع المصاييح — مقر البعثة التي أعدها الأميرال برد الأميركي لزيادة المناطق المنجمدة الجنوبية والوصول الى القطب الجنوبي عن طريق الجو . انه يعدّ طيارته الآن — أي حين وردت الرسالة الى العامل اللاسلكي في نيويورك قاصداً أن يخلق بها فوق مفاوز الجليد بغرض الوصول الى القطب الجنوبي الساعة الثالثة والدقيقة الرابعة عشرة ! ونيويورك ناشئة ولكن العامل اللاسلكي الفني مستيقظ ، مقيم في غرفته منتظر انباء الاميرال برد وطيارته

الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة عشرة . لقد انحنى الفني والتقط قلمه وكتب « الطيارة على وشك الارتفاع من سطح الجليد . انتظر »
ويلمس مفتاحاً آخر أمامه فيدوى في اذنيه — وهو في نيويورك — صوت محركات الطيارة وهي تستعدّ للتحليق في الجو فوق مفاوز القطب الجنوبي .

وتحلق الطيارة في الجو فينتقل الاتصال اللاسلكي من محادثة تدور بين المحطة اللاسلكية في مقر بعثة برد وبين العامل اللاسلكي المذكور — الى محادثة تدور بين العامل اللاسلكي في الطيارة المحلقة في الجو ثلاثة آلاف قدم فوق مفاوز الجليد والعامل اللاسلكي المذكور التابع لجريدة نيويورك تيمس . هذه هي أول مرة في التاريخ تمكن فيها رجل محلق بطيارة أن يخاطب صديقاً له على بعد عشرة آلاف ميل كأنه يخاطبه على بضعة أقدام في مكتبه أو صالونه . ان صوت العامل اللاسلكي في طيارة برد كان ينتقل أمواجاً لاسلكية فوق مفاوز الجليد القطبي وجانب من المحيط الباسفيكي ثم فوق أميركا الجنوبية وخط الاستواء الى أميركا الشمالية والولايات المتحدة — من عواصف القطب الثلجية الى صيف أميركا الجنوبية الى قيط خط الاستواء الى نيويورك المغطاة بالثلج . كل هذا كان يتم في غفلة عين أو أسرع أي بسرعة ١٨٦ ألف ميل في الساعة

وارتفع ستار الليل وأخذ النجم يندمج وأخذت الاشارات اللاسلكية في المحادثات المذكورة تضعف رويداً رويداً ولكنها تتراوح بين الضعف والقوة حتى بادت تماماً عند شروق الشمس وهكذا ضرب النور ستاراً بين ممثلي الرواية القطبية وسائر العالم . وصدرت صحف المساء — بعد الظهر — وعلى صفحاتها الأولى عنوان بحروف ضخمة سوداء مؤداها « ان كلمة واحدة لم تسمع من الرواد الشجعان في اثناء عشر ساعات » فاضطرب الجمهور وقلق ، مع ان رجال اللاسلكي كانوا يعلمون ان الصمت ليس دليل الفاجعة ولكنه ناشئ عن تعذر التخاطب في اثناء النهار بالأمواج القصيرة . وظل الجمهور مضطرباً قلقاً حتى وافت الساعة الرابعة مساءً فأخذ ستار الليل ينسدل رويداً رويداً وأخذت الاشارات اللاسلكية تزداد وضوحاً كلما زاد انسداد الستار . وما أقبلت الساعة الخامسة حتى كان العامل اللاسلكي النيويوركي يتلقى نبأ من الجنوب يفيد أن برد وصحبه حلّقوا بطيارتهم فوق القطب الجنوبي وحاموا حوله ، وان برد أول رجل بلغ القطب الشمالي عن طريق الجو هو كذلك أول رجل بلغ القطب الجنوبي عن طريق الجو . فبيعت العامل بالنبأ الى محرر نيويورك تيمس . وهذا يستعمله ليحرز لجريده فوزاً صحافياً عظيماً . انتهى مأرودته من مجلة المقتطف

المبحث الثاني

بين الشرق والغرب . حول زيارة ناغور لانجلترا

جاء في جريدة الاهرام في يوم ٢٢ مايو سنة ١٩٣٠ مانعه

لندن في ٢٠ مايو — لمراسل الاهرام الخاص — أثارّت زيارة رابندراث طاغور ، شاعر الهند وفيلسوفها

الكبير اهتماما كبيرا في انجلترا لأنه مضى وقت ليس بالتصغير على زيارته الأخيرة لهذه البلاد ولأن مؤلفاته مقاما كبيرا بين رجال الأدب الانجليز . وقد أتى ناغور مساء أمس المحاضرة الأولى من محاضراته الثلاث في قاعة المحاضرات بجامعة اكسفورد التي ازدحت حتى الأبواب بينما لم يستطع الكثيرون الدخول بالمرّة ومن الملاحظات التي تسترعى الاهتمام أن الفيلسوف الهندي يقابل بمظاهر الترحيب أينما حل على الرغم من الخلة في الهند والانباء التي ترد كل يوم عن انتشار الاضطرابات والقتل فيها . وكما ان دوائر الأندية الرياضية ترحب بدوليب سنهجن بطل الكركيت الهندي وتطلب أن يكون واحدا من الأحد عشر الذين سيمثلون انجلترا . في المباريات التي ستجرى مع استراليا ، كذلك ترى رجال الادب . والعلماء يتهافون على سماع طاغور و يقدمون فروض التجلة والاحترام الواجبة لهذا العبقري العظيم وربما كان الكثيرون على رأى جريدة المانشستر جارديان فيما قلته اليوم وهو : ان خير سفير للهند ليس المهاتما غاندى وإنما هو طاغور الشاعر والمفكر فن الصعب معاملة غاندى سياسيا لأن السياسة من أعمال الرجال العاديين أما غاندى فقديس ، والقديسيون رجال شواذ أما طاغور ففي وسعنا أن نتفاهم معه لأنه ليس قديسا بل شاعرا ومفكرا ، فهو من هذبه الوجهة يستطيع أن يفهمنا ويعطف على أفسكارنا نحن الرجال العاديين ، واذا قرأنا مؤلفاته أو سمعنا أقواله رأينا أن الهندي العادى لا يختلف عن الأوربي العادى ، وان النزاع الأبدى بين الشرق والغرب ليس قضاء الطبيعة المحتم انتهى من جريدة الاهرام . تم المبحث الثانى

المبحث الثالث

آيات الله في صحة جسمي بسبب تدبير الأغذية

في هذا اليوم (١٥) مايو سنة ١٩٢٩ صباحا نظرت في عضدى وفي جنبي وفي صدرى فرأيت أمرا عجبا ! وهذا العجب لا تعرفه أبها الذكي إلا بمقدمة فهاهى ذه :
لقد كانت أيام حياتى سلسلة تجارب في الطعام والشراب ، ولقد تركت اللحم منذ نحو (٨) سنين ، ولما تركته وجدت تحسنا مطردا في جسمي ، ولكنني وجدت هناك أمرا عجبا ! وجدت أن في عضدى وفي جنبي وفي صدرى بقعا جلدية مخالفة للجلد في اللون ، وهذه تارة تظهر وتارة تختفي ، وقد كانت كذلك قبل ترك اللحم ولكن لما تركته زاد ظهورها وتارة تختفي ، فأذهاني هذا المنظر ، وقابلت الأطباء فوجدت أقوالهم لا تشفى من عله ، ولا تروى من غله ، فقال قائل منهم : « خذ هذه الأعشاب واشرب منقوعها كل يوم » فلم يفد . وقال آخر : « كل الزيت الطيب وادهن به » . وأخيرا فخصني طبيب أعلم ممن قبله . فقال : « هذا داء ليس معديا ، وليس له دواء ، وهذه البقع إنما تظهر في الأعضاء التي لا تظهر للشمس وأكثر ظهوره في زمن الصيف ، وسببه نقص في التغذية » وبعد ذلك عثمت تجارب كثيرة فلم تفد . ثم اتى لم أعرف ما سبب نقص التغذية المذكور الى أن اطلعت على الكتب الطبية الحديثة . ورأيت في كتاب الاستاذ ويلسكوكس ما يفيد أن الناس يأكلون الخبز من دقيق القمح الذى نخلوه . وأن ترك النخالة نقص في التغذية . وأن اللحم مركب من (١٦) عنصرا . وهذه العناصر كلها نابتة في البر . واذا ترك الناس النخالة ونحوها فعناه انهم تركوا عناصر من دماهم . إذن الناس بنى النخالة والمادة الأخرى المسماة سنا (بشديد النون) من القمح إنما يبنون قوى أبدانهم وصحة أجسامهم وسعادتهم

فلما قرأت هذا وأيقنت انه مبنى على العلم عرفت جهل هذا الانسان وغفلته وأن عقول الناس في ناحية وأعمالهم في ناحية فلم أتردد في العمل بالعلم كما تقدم في سورة طه وفي سورة الحجر فهذا المقام مستوفى هناك هنالك أكلت الخبز الذى يصنع من دقيق البر كاملا غير منقوص . وهاهى ذه سنة مرت على تلك الحال .

هذه هي المقدمة

فلما أقبل الحرّ هذا العام نظرت في جسمي وأعضائه المغطاة ، فرأيت أمرا عجبا ! رأيت البقع الملونة التي كنت أراها كل سنة لم تظهر . فقلت : يا سبحان الله هاهوذا الحرّ أقبل وتلك البقع التي عودتني الزيارة كل سنة بالظهور على جسمي في العضد وفي الظهر وفي الصدر وفي الجنبين لم تزرني هذه السنة بعد أن أقبل الحرّ ، ولقد كان من شأنها أن تقبل اذا أقبل فصل الربيع والصيف وبعض الخريف ، فهاهي ذه لم تحلّ بساحات جسمي ولم يكن لقدمها علامات ولا مقدمات ، ذلك اني كما قدمت الآن أخذت آكل الفواكه والخبز المذكور وزيت الزيتون والتمر غالبا ، وهذه الأغذية مستوفية ما يجب لجسم الانسان فليس يعوزها مواد أخرى ، فالبر تقال الذي آكله ومعه بعض الطماطم في بعض الأيام فيه مادة الفيتامين من درجة عالية وهكذا الخبز المذكور فيه جميع مواد التغذية . هالماذا تركت اللحم والخضراوات هذه السنة والابن واقتصرت على الفواكه والخبز فصحّ الجسم وصحّ التفكير بحسب ما أعرفه وما أحسّ به من نفسي الآن . وههنا أقول يا سبحان الله : أرى أننا يا الله آياتك في أنفسنا وفي الآفاق ، ذلك ان هذا الجسم الذي سكنته نفسي مكون من مواد مخلوقة في أرضنا ، وهذه المواد لها حساب وجهلنا بما تقبل منها وما نترك هو الذي جعلنا مرضى الأجسام نارة والعقول أخرى

سبحانك اللهم . أنت حكيم وقد ملأت أرضك بالحكمة وعلى مقدار نقصنا في فهم مصنوعاتك تنقص صحتنا وعقولنا ومدنيتنا . هذا المثال الصغير مثال جسمي مع العوالم الأرضية المحيطة بنا يبين لنا أحوال هذا الانسان . يظهر لي اننا لو عرفنا الحقائق حق المعرفة لسكننا أما راقية سعيدة تامة في الأرض

تبين لي أن نقص سعادتنا في الأرض مبني على نقص معرفتنا وعلومنا . تبين لي أن أُم الأرض لم يظهر فيهم حكماء وعلماء يظهرون جميع الحقائق ، ولو أن الأرض برز فيها أناس على هذا النمط لأصبحوا جميعا سعداء فأول الشقاء وآخره الجهل ، وأول السعادة وآخرها العلم ، فبكاء الباكيات على الميت ، وحزن الخزين على الفقر والذل وما أشبه ذلك كل ذلك للجهل الذي غطى على العقول

يظهر لي أن هذه الانسانية يوما ما ينبغي فيها نابغون يظهرون ما كمن في هذه الدنيا ، ومتى ظهر ذلك سعد الناس في هذه الحياة نفسها ، وأكبر الحزن يكون للموت أو للمرض أو للفقر أو للذل وكل ذلك مبناه الجهل بهذا الوجود ، فلو عرف الناس ناموس الموت وأيقنوا بأن الميت انتقل الى عالم أعلى ، وهكذا لو انهم عرفوا الأسرار الخبوءة في الأغذية والأدوية والفواكه والملابس ودرسوها حق دراستها وعرفوا ما في الطبيعة من عجائب واستعملوها لقلّ المرض والفقر وبطل الاستعمار وصار الناس أصدقاء

لأنجب أيها الذكي من أن أقرن حال جسمي وصحته بحال الأمم والأفراد وأوصابهم وأحوالهم فانه لافرق بين الأمرين . نحن نعيش في عوالم نجهلها وعلى مقدار جهلنا نحسّ بالآلام . إذن نقصنا مبناه جهلنا لأقل ولا أكثر ، ودليلي على ذلك ما عرفتته في نفسي ، فاني لما أكلت المواد التي استوفت شرائط غذاء الجسم زالت البقع من جلدي ، ولما كنت آكل بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير كانت هذه البقع تظهر تارة وتختفي أخرى . ولا فرق بين جسمي وجسم العالم الانساني كله فهو لما فيه من جهل يحارب بعضه بعضا غباوة وجهلا بحال الوجود وحال الانسانية . ومتى ظهر فيه حكماء وأعلاموه بأن المعاونة العامة خير وأبقى وأن يكون كل امرئ في عمل خاص ينفع المجموع الانساني فن هذا النوع الانساني يصبح سعيدا ومتى حلت السعادة في أهل الأرض لم يحسوا بحزن لأنهم يكونون قد عرفوا ماهو الموت وتقل الأمراض والعداوات بينهم لأنهم قسموا الأعمال في الأرض على مواهبهم التي خلقت في أجسامهم وعقولهم . هنالك يعلم أهل الأرض قاطبة أن المصائب التي تحلّ بالأمم وبالجماعات أشبه بالبقع التي كانت تظهر على جسمي وأن قيام كل فرد من أفراد الأمم

يعمل نافع قائم مقام أحدي جميع عناصر التغذية بطريق العلم . فبينما أسران ثانيهما مركب على أولهما في جسمي وفي الأمم . فإذا قمت الأمم كلها في الأرض كل منها بعينها الخاص لها . وجميع أفرادها فإن المجموع الانساني يصبح سيديا كما ان جسمي لما أعطيت الأغذية الكافية لتغذيته ذهبت عنه تلك البقع التي تظهر على ما هو مستور منه ، وإذا قصرت الأمم في ذلك أو بعضها فإن المجموع الانساني تظهر فيه نقائص على مقدار التقصير كما ان جسمي أصابته البقع لما كنت أجهل أصول التغذية ، إن الأمم اليوم والأفراد سيان يتبعون شهواتهم وعاداتهم ، فالناس يأكلون ويشربون مقلدين لآبائهم أو متبعين حواسهم هكذا دولهم في سياستها يتبعون التاريخ حذو القذة بالقذة ، والتاريخ مملوء بالكيد والحبث والمكر فليكن في الأرض حكماء ، وليكن فيها نظم سياسية أرقى مما كان قبلا وذلك هو قوله تعالى - سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم - . لجسمي الذي حلت نفسي فيه ما هو إلا ذرات مجتمعات من الآفاق وله ارتباط وثيق بهذه الآفاق فإن جمعت ذرات جيدة باختياري وعقلي كان جسما نافعا حسنا وان جعلتها بهيئة غير حسنة ولا مرتبة ولا منظمة ضعف الجسم وتبعه العقل ، والسياسة العامة في الأمة كالسياسة الخاصة في الجسم يؤخذ من هذا كله اننا جئنا هذه الأرض لأمر واحد وهو العلم ، فلا حرب ولا مرض ولا فقر ولا لذة ولا ألم إلا لأجل حشنا على العلم وعلى مقدار علمنا تكون أرواحنا في درجات لها بعد مغادرة هذه الدار . انتهى الكلام على المبحث الثالث والحمد لله رب العالمين

اللطيفة السابعة

في قوله تعالى - سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم - الخ

إيضاح بعض كلام الشيخ الديباغ

في مسألة الجنة والنار والتوحيد

هنا سألتني صديق العالم . فقال : يقول الشيخ الديباغ إن على وجه الأرض عجائب لو شاهدها أرباب الأدلة والبراهين ما احتاجوا الى دليل ، فمنها ما به تعرف الوجدانية ، ومنها ما به يعرف وجود الجنة ، ومنها ما به يعرف وجود النار ، وكل ذلك بلا إقامة أدلة على ذلك . فأنا أرجو أن تشرح لي هذا المقام . فقلت : يا سبحان الله أوتظن انني في مقام الشيخ الديباغ حتى أطلع على ما يعرفه نحن قوم كلفنا بالنظر والبحث العقلي . فقال : ولكن أرجو أن أسمع منك ما تتوجه نفسك اليه في هذا المقام ، ولست أطلب منك ما هو فوق متناول عقولنا لأنني أعلم انك تخاطب العقلاء عموما لا أهل الكشف وحدهم ، ثم إن أهل الكشف وإن كثروا في الاسلام فانهم لم يحدثوا في الأمم الاسلامية رقيا عاما ، فعلمهم خاصة بطلانهم . فقلت : أما اذا أردت هذا فاني أقول ما يفتح الله به الآن . فقال : أيّ العجائب تعرفنا التوحيد بلا إقامة دليل ؟ فقلت : جميع العجائب التي وردت في هذا التفسير وأمثاله تعرفنا الله بلا إقامة دليل . فقال عجب هذا ! إن نفس العجائب أدلة أو مقدمات لأدلة فقلت : إنه يريد ان بعض العجائب حين نشاهدها تكاد تخترق القلوب ويحصل للنفس انفعال برؤيتها وتنقل النفس من هذا الخلق الى خالقه وهذا هو مقصوده فيما أظن أنا . فقال : ما مثال ذلك ؟ فقلت : مثله أعين الزباب وأعين النمل . هذه حشرات صغيرة يزدرىها الانسان وهي تعيش على ما تعافه النفس من القاذورات والعفونات والقمامات والفضلات ، وعلى ما هو منبوذ من الحبوب وفضلات الخبز والقطع المنتورات في الأرض وقد جعلت أشبه بالكناسين والزبالين لأنها تنظف الأرض من عفوناتها ومن بقايا فضلاتها وتحيله الى أجسامها ومع هذا كله تراها قد أعطيت عيوننا كثيرة ، فلئلا فاق (٤٠٠) عين كل عين مستقلة عن الأخرى ،

والذباية نحو أربعة آلاف عين كل عين مستقلة عن الأخرى . ومعنى هذا أن للتملة خمسة عيون ثلاثة منها مفردات موضوعات على هيئة مثلث واثنان منها موضوعتان في مقدمة الوجه بهيئة أعيننا نحن وفي كل واحدة منهما نحو مائتي عين ، ومثل ما قلنا في التملة نقول في الذباية ، ولكن نذكر أربعة آلاف عين فيها بدل (٤٠٠) عين . فقال : هذا عجب ! وهل العقل يتصور ذلك ؟ فقلت : إذن أنت لم تقرأ ما تقدم في ﴿سورة النمل﴾ وأن هناك رسالة سميتها «عين التملة» وفيها هذا المقام موضح . فقال : ورأيت بنفسك عين التملة انها مركبة من مائتي عين والعينان معا فيهما نحو (٤٠٠) . فقلت إى وربى رأيتها بعيني رأسى أراها لى صديق شوقى بك بكبر فى منزله بمدينة حلوان تحت المنظار المعظم وهو من كبار علماء التاريخ الطبيعى ، وصلى به انه كان قبل ذلك تلميذى بالمدرسة الخديوية . فاذا رأى العاقل مارأيت أنا فى النمل أوفى النحل أوفى الذباب فانه لا يسمعه إلا أن يتذكر الخالق عند النظر الى هذا الجمال فى المخلوق . فقلت : أريد أن أسأل سؤالاً آخر ؟ فقلت : سل ما بدا لك . فقال : لم جعل الله هذه العجائب التى فوق طوق البشر فى أحقر حيوان . فقلت : ذلك من مقصود كلام الشيخ الدباغ . قال : وكيف ذلك ! فقلت : إن الإبداع والاعراب اذا ظهر فى جيل بهى الطلعة حسن الشكل مرغوب فيه لم تكن له روعته فى الحقير المنبوذ . النفس الانسانية يدهشها أن ترى فى الحقير المنبوذ حكماً لا حد لها بل ترى أعظم جمال وأجل حكمة فى الحقير

ترى أربعة آلاف عين ، وكل عين لها طبقات ورطوبات وألوان فى داخلها وعجائب ونظم مدهشة ، واذا فقت إحداها لم تعطل البقية كما هو واضح هناك . فهذه عند العقلاء أشبه بمن كان يحفر فى منزله فعثر على كنز فجأة فهذه المفاجأة فى الكنز يقابلها المفاجأة فى أمر عجائب الحشرات مثلاً . فكما أن الفقير اذا عثر على كنز دهش وحصلت له حال غريبة وانفعال ، هكذا العاقل اذا اطلع على هذه العجائب فى أحقر المخلوقات فانه يجد فى نفسه حالاً عجيبة تذكره بالصانع من غير استدلال بدليل وذو العقول الصافية فى نوع الانسان لا يسمعون تلقاء هذه العجائب المدهشة (فى الامور الخفية التى ليست محلاً للجمال بحسب العادة) إلا التهجب وهذه الحال لا يحلم بها ذلك الذى قرأ علم المنطق وعرف الاشكال وقرأ علم التوحيد المعروف وأخذ يقرأ تلك البراهين فيدخل فى ساحات وأحوال عويصة ويتسرب الشك الى قلبه من حيث لا يشعر لاسيما اذا قرأ أدلة الحدوث والقدم التى نقلت عن اليونان . وقد تبين فيما نقلته عن علماء الفرنجة فى نفس هذا التفسير أن كبار فلاسفة اليونان كانوا يقولون أيام سقراط «ان العالم حادث» بطريقة مشوقة تقائمت فى هذا التفسير فبعض ما جاء فى كتب علماء التوحيد والفلاسفة مريبك للعقول مهوش للأذهان نقلوه عن علماء الاسكندرية أيام دولة الرومان بمصر وهؤلاء كانوا مقلدين . أما طيماس الحكيم الذى كان أيام سقراط فقد شرح هذا المقام ونقل بعضه فى مواضع فارجع الى بعضه فى سورة الروم وغيرها . فقال الآن فهمت كيف كانت تلك العجائب مذكرة بالله فكيف تكون تلك العجائب مذكرة بالجنة والنار وبها يعرف الانسان أن هناك بعد الموت جنة ونار مع ان الجنة والنار من السمعيات . واذا كان العقل لا يصل الى السمعيات فكيف توصل اليها مناظر العجائب . فقلت : ما الجنة ولا النار إلا اداران ممتازان . فأحداهما فيها كل محبوب . وثانيتها فيها كل مكروه . ونحن فى هذه الأرض لانعرف المحبوب إلا ما وافق حواسنا الخمس من صور جميلة ونغمات لذيذة وروائح طيبة وطعوم لذيذة وملموسات موافقة كأن تكون ناعمة مثلاً . ذلك للبصر والسمع والشم والذوق واللمس وهكذا اذا تخيلنا تلك الصور ولكن حضورها فى الخيال أقل لذة من حضورها فى الحس وهكذا المعانى الشريفة الموافقة لعقولنا من العلوم البهجة وانكشاف الحقائق بالبراهين واقتناع النفس بالمعلومات . فهذه بهجتنا . فلكل قوة فينا بهجة تناسبها . فالمعقولات بهجة للعقل . والمحسوسات بهجة للحس . والصور الخيالية بهجة لخيالنا . فهذه المذكورات هى مجامع مانحة فى هذه الدنيا . والذى نكرهه يقابل ذلك فكل قبيح صورته مشوه خلقته أو غير طيب الرائحة أو غير متزن النغمات

أوغبر لذيد الطعم أو غير ناعم مثلاً فأننا نكرهه كما نكره تصوّره في خيالنا . وهكذا خلق عقولنا من العلوم وجهلها وغباوتها وعدم معرفتها حقائق الأشياء وتخبّطها في المعارف تخبّطاً يزرى بها . كل ذلك مكروه عندنا . إذن الجنة دار تجمع ما يحب وجهنم دار تجمع ما تكره ، ولكن الحياة الدنيا فيها ما يحب وما تكره معا ، فيها امتزج المحبوب بالمكروه . وأصحاب العقول النيرة إذا طافوا في هذه الأرض ودرسوا هذه المجائب يدهشون من نحو ما أذكركه ويحصل لهم علم من غير كد ولا نصب بالجنة والنار . فقال : هذا هو الذي سألتك عنه وكيف ذلك ، فقلت انرجع الى مثل الذباب والنمل مع جميع الحشرات ، أأنت ترى أن الذباب والحشرات خلقت لتنظيف الجو كما تقدم لأنها هي وأمثال التاموس والخنافس وغيرها تغتذى بالمواد الفاسدة التي لو بقيت هلك الانسان والحيوان . فقال بلى . فقلت أأنت ترى أن الأغذية على قسمين : قسم هو طعام شريف مثل الحبوب واللحوم والحشائش وأمثالها وهذه يأكلها الانسان وذوات الأربع من نحو الأنعام والسباع . قل بلى . قلت وقسم هو قاذورات تغتذى بها الحشرات كما أوضحته الآن . قل بلى . قلت أأنت ترى أن ماهو قاذورات على قسمين : قسم هو بقايا الرمم الملقاة في الفلوات عقب الغزوات والحروب والهلاك والتدمير وافتراس الحيوان في البراري والقفار . وقسم ليس كذلك بل هو عفونات وقاذورات ليست ناشئة من افتراس الحيوانات المعروفة ولا من قتال الانسان . قل بلى . قلت : لننظر في أمر هذا الانسان الذي يسمع بالجنة والنار فأننا نجد له عقلاً وهذا العقل لا تخلو حاله من حالين لثالث لهما ، فهو إما أن يتحلّى بالحكمة وادراك الحقائق ، وإما أن تكون سلوكه بالغيبة والخيالة والشهامة وتقبّع العورات والفتك بالأعداء ومسابقة الأقران وحوز الصيت والمال والملك وما أشبه ذلك .

فإذا أغرم العقل بالحكمة والعلم وادراك الحقائق فإن غذاءه أشبه بالغذاء الشريف في المحسوسات كالفاكهة والحب والخضراوات من كل ماهو غذاء للحيوانات المعروفة والانسان . فأما اذا كانت لذاته خاصة بتفوقه على الأقران أو شهامته في الأعداء أو انتقامه منهم ، فهذا الغذاء العقلي يشبه غذاء الحيات بالضفادع وغذاء الصقور والنسور والشواهين والكلاب بالرمم الملقاة في الفلاة ، وتكون منزلة هذه العقول لا تزيد في معقولها على منزلة الصقور والكلاب في تعاطي رممها ، وإذا كانت لذات العقول لا تعاد حوز العقار وبناء الدور وشراء الحقول وحوز المال والدرهم والدينار ، فهي في درجة الذباب في أكل القاذورات والعفونات

وبهذا الايضاح صارت الدرجة الثانية درجتين : درجة القوّة الغضبية ، ودرجة القوّة الشهوية . هذه هي الدرجات الثلاث للعقول في هذه الأرض . فهي إما عقول تحب الحقائق ، وإما عقول يغلب عليها الفخار والانتصار ، وإما عقول لا تفرح إلا بالمال والشهوات الحيوانية في مقابلة الأغذية الثلاثة المتقدمة لذوات الأربع ولنحو الطيور الكواسر ونحو الذباب . ولن يتخلو عقل على هذه الأرض من هذه الحصال الثلاث اجلس مع من تشاء وحادثه فإنه يهشّ ويضطرب لما يناسبه من حكمة ، أو من ذكر الحرب والضرب ، أو من ذكر لذات الأجسام الحيوانية

فإذا سمعت الرجل يفرح برفع التضيّات والانتصار أمام القضاة فهو من الفريق الثاني ، أو بحوز المسكاسب والمال فهو من الفريق الثالث ، أو بالعلم والحكمة فهو من الفريق الأوّل هذا هو نوع الانسان أوّل وآخره عقولهم جميعاً موزّعة على المعقولات الثلاثة كما وزّعت أنواع الحيوان على أنواع الأغذية

فقال : أحسنت لقد فهمت هذه الثلاثة وقد كانت في أوّل مقالتي لي غامضة على ولكن الآن وضحت لي وضوحاً تاماً مع ملاحظة أن ذكر الحيوانات وأغذيتها في هذا المقام مجرد تنظير لتقريب الفهم ، ولكن الى الآن لم نصل الى الحقيقة التي سألتك عنها وهي ان النظر في هذه المجائب يكون معرفاً بالجنة والنار . فقلت

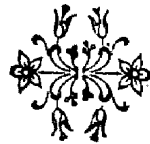
(الخطأ والصواب)

غلبنا التصحيح ففاتنا سقط وأشياء أخرى يدركها القارى بلاتنبية . وهذا جدول مما عثرنا عليه من ذلك وهاهوذا :

صحيفة	سطر	خطأ	صواب	صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٦	٢	لعقل	العقل	١٢١	٢١	الحديثة	الحديثة
٧	٥	ولا تقربوا	ولا تقربوا	١٢٨	٩	الكلام هنا عن	في الكلام هنا عن
٨	٣	بالنجات	بالنجات			أهم المقادير	أهم المقادير
١٠	٢٣	يرسب	يرسب	١٣١	١١	غير عربية	عربية
١٢	٢٣	نسبتنا إليها	نسبتنا إليها	١٣١	١٢	» »	» »
١٢	٣١	وتمثل	وتمثل	١٣٦	٢٦	والم	والم
١٣	٩	سورة الصفات	سورة التازعات	١٣٦	٣١	خصب	حصب
١٤	١	من أضوأ	أضوأ	١٣٧	٢١	السمارى	السومرى
١٤	٧	ويدبر هؤلاء	ويدبر هؤلاء	١٣٨	١٨	!	!
		ويدبر هؤلاء		١٣٩	١٦	ثلاث	ثلاثة
٢٥	١٣	لطيفة	المقصد الثاني	١٣٩	٢٢	لسانهم عربى	لسانهم غير عربى
٢٩	٩	أحد	إحدى	١٤٢	٢٢	مضر الذى	مضر التى
٢٩	٣٥	الى	الى	١٥٢	١٦	علامات	علامات
٣١	٢٥	ويحسن اللس	ويحسن باللس	١٥٣	٩	ذكرها	ذكرها
٤٤	١٦	لتعرفهم	لتعرفهم	١٥٦	١١	وككون	ولكون
٤٥	١٤	عقد	عند	١٥٦	١٧	كانت	لكانت
٥٢	٢٣	كيسكنا	انسكرنا	١٦٦	٣٠	ولا يعذب	ولا يعذب
٥٤	٢٠	روفرتها	روفرتها	١٧٦	١٩	تجب	وتجب
٥٤	٣٠	نقد	نقد	١٧٦	٣٤	المنازعات	المنازعات
٥٤	٣٣	وكلا	وكلا	١٨٥	١٥	قد كان بمصر	قد كان بها
٩٤	١٩	وذلكم ظنكم	وذلكم ظنكم	١٩٣	٣٠	هنيبال	هنيبال
٩٤	٢١	المرضين	المرضين	٢٠٢	٣٣	واللاتينية	واللاتينية
١٠٢	٣	وآراؤه	وآراءه	٢٠٦	٨	روحه	روحه
١١٣	٢٣	ثم اتبع	ومن قبل ذلك اتبع	٢٠٧	١٨	وهو خالفها ومبدعها	وهو سببها
١١٤	٢٢	مليون	المليون	٢٠٨	٦	منكرين	منكر
١١٥	٣٠	نسكنه	نسكنه	٢٠٩	١٠	سيكون	فس يكون
١١٦	٥	انظر شكل	شكل	٢١٠	١	مفارقتها جسدها	مفارقتك جسديك
١١٧	٤	كلالك	كذلك	٢١٠	٩	يجرى	يجرى

صواب	خطأ	سطر	صحيفة	صواب	خطأ	سطر	صحيفة
الجزر	الجذر	٤	٢٣٣	الجماد	الجماد	٣٤	٢١٣
غدوت ولي نظرتان	غدوت الى نظرتان	٣٤	٢٣٤	غير ثابت	ثابت	١١	٢١٧
اللحوم واللوحش	اللحوم واللوحش	١٨	٢٣٧	للعزف	للعزف	١٩	٢١٧
ولا* وحش				يتمكن	يتمكن	٢١	٢١٨
العائبة	العائبة	٣	٢٣٨	فقد	فقد	١١	٢٢٠
اختلفوا	اختلفوا	١١	٢٣٨	بالطحنين	بالطحنين	١٤	٢٢٤
ومن	ومن هم	١٢	٢٣٩	قسمان	أقسمان	٢٠	٢٢٥
هائمون	هائمون	٢١	٢٣٩	فاذا يجد	فاذا يجد يجد	٢٨	٢٢٥
ساروا ويكونون	ساروا يكونون	١٧	٢٤٠	به	به	٣٠	٢٢٥
لزيرة المناطق	لزيادة المناطق	٣	٢٤٢	الأرض	الأرض	٣١	٢٢٥
رويدا رويدا	رويد رويدا	٢٦	٢٤٢	٥٣ و ٥٤	٥٣	١٠	٢٢٦
والقديسون	والقديسون	١١	٢٤٣	وكثيرا ما	كثيرا ما	٣	٢٢٨
ثابتة	ثابتة	٢٩	٢٤٣	هناك ولنمجل بيعضه	هناك	١٤	٢٢٩
فهكذا تكون	هكذا تكون	١٣	٢٤٨	هنا فقول			

(تمت)



فهرست

(الجزء التاسع عشر)

من كتاب الجواهر في تفسير القرآن الكريم

صحيحة

- ٢ تقسيم السورة أربعة أقسام
- ٣ القسم الأول في تفسير البسملة . وتبيان أن الرحمة فيها موجهة الى العرش والخافين به المذكور في آخر سورة الزمر وفي أوائل سورة المؤمن ، إن العرش ذكر في سورة التوبة ويونس وهود وههناك مشير الى أن عرش الأمم القاطنة في بلاد عاد وثمود والأرض التي كان يقطنها إبراهيم ولوط وشعيب وموسى المذكورة في تلك السور كلها اليوم بلاد اسلامية ولا تزال الى الآن في أيدي المسلمين ، فعروش تلك البلاد في قبضتهم الى الآن وهكذا ذكر هنا في السورتين لمكان العلم والتعليم ، والعلم راجع للتسبيح والتحميد والتعليم راجع للاستغفار ، لاعرش في الأرض يقوم إلا على دعائين من العلم ودعائين من العمل ، ودعائتا العلم هما العلوم الطبيعية والحياة السياسية ، والعمل بالقدرة ، والقدرة بالمال والرجال ، فهنا أربع دعائم لكل عرش في الأرض ، والعلم والقدرة المذكوران في شرح الكرسي المذكور في آية الكرسي ، والذي يهم في مقامنا هذا أن يكون المسلم متبعاً للملائكة الخافين من حول العرش فيكون عالماً مفيضاً للعلم على الناس ، والعلم إن لم يحقق المحسوس المشاهد فما أعجزه عن ادراك المعقول الغائب وذكر الغفران والتوبة مع العرش لصفة العلو والعظمة ، وفي هذه السورة مباحث ، مباحث رجائية كفجاج الأرض الواسعة ، والسموات والأرض والأنهار ، وتدرج الانسان من تراب ثم من نقطة ، والاتجاه اليه ، وقبول دعوته اذا أخلص ونصر المصلحين وهكذا
- ٦ (القسم الثاني من السورة) فيه آيات السورة من أولها الى قوله تعالى - إن الله هو السميع البصير - ثم تفسيره اللفظي
- ١١ لطائف في قوله تعالى (حم) وقوله - الذين يحملون العرش ومن حوله - وبيان أن (الم) في أول سورة البقرة سبقت للجهاد ، وفي العنكبوت سبقت لكشف نسب العناصر بعضها لبعض وهكذا بقية السور أفلا تكون هنا الحاء والميم إشارة الى جد الملائكة ، ولا معنى للحمد ولا للتسبيح إلا بدراسة صفات الجلال والاكرام ، ولن يتم ذلك إلا بدراسة علوم الأمم حولنا ، إن من ينكر الملائكة الخافين حول العرش جاهل بما عرفه علماء الشرق والغرب كالامام الغزالي والرازي وأصحاب اخوان الصفاء إذ قالوا : « إن أرواح الناس التي فارقت الأجساد تعين الأحياء على الأعمال » . وهكذا يقول أكبر عالم طبيعي انجليزى « إني ناجيت الأرواح وحادثتهم وهم يهتمون بنا »
- ١٣ ذكر الأحاديث الواردة والآثار في هذا المقام كقول كعب وكقول جعفر بن محمد عن أبيه عن جده ، وبيان معنى كون العرش يكسى كل يوم بألف لون من النور وأن ذلك واضح لمن قرأ العلوم اليوم ، وكقول وهب بن منبه : « إن حول العرش سبعين ألف صف من الملائكة صف خلف صف » وأن تلك المعاني يعرفها إجمالا من درس علم الفلك ، وبيان أن الحاء والميم فتحا هذا الباب
- ١٤ الكلام على صلاتنا نحن معاشر المسلمين وأن تسبيحنا فيها متبوع بذكر السمع والبصر والمنح والعظم

- والعصب الخ ولا معنى لهذا كله إلا العلم ، إذن تسبيحنا في الصلاة ومأمعه يراد به التشويق للعلم . فإذا سبح الملائكة فنحن نسبح والنتيجة هي العلم بنظام هذه العوالم الجيلة
- ١٥ ﴿ القسم الثالث من السورة ﴾ من قوله تعالى - أولم يسيروا في الأرض - الى قوله تعالى - بالعشي والإبكار - والتفسير اللفظي
- ١٩ ﴿ القسم الرابع ﴾ من قوله تعالى - إن الذين يجادلون في آيات الله - الى آخر السورة وتفسيره اللفظي
- ٢٣ لطيفة في قوله تعالى - ويرى آياته فأى آيات الله تنكرون -
- تذييل التفسير في سورة حم غافر ، والكلام فيه على مقصدين
- ٢٤ ﴿ المقصد الأول ﴾ فيه الكلام على التنفس الرؤى لأنه في الانسان والحيوان . وبيان صفة الرئة العامة وعلاقتها بالقلب وما فيه من طبقتي الأذنين والبطينين
- ٢٥ ﴿ المقصد الثاني ﴾ في قوله تعالى - البار يعرضون عليها غدوًا وعشيا - وبيان ما جاء في كتابي المسمى (الأرواح) الذي ألفت بعد أن منعت موانع السياسة من مواصلة درسه في دارالعلوم . وفي تلك المدة تمكنت من تأليف كتاب الأرواح المذكور . وفيه جاءت عجائب هذا العلم الذي منه ذكرت هنا في التفسير مقدمة لمناسبتها لهذه الآية وأن الأرواح قد نطقت في المحافل العلمية بأمرىكا وشرحت ما شاهدته في عالم البرزخ . وأن المسلمين سيحبون من الحاكم الألماني الذي استغاثت روحه من اضطهاد يتييمين ومن روح محاسب في مدينة (ونسبرج) ارتكبت خيانة فطلبت المساعدة ومن روح غني بنجل عذبت روحه بالمال وأن ذلك كله هو مقتضى آيات القرآن بل هو محور دين الاسلام وأصوله
- ٢٧ وبوافق هذا ما قاله الغزالي إذ يقول : « إن الميت في أول أمره يعذب بفرقة المشتبهات وثانيا بالخجل من الفضائح وثالثا بالحسرة على فوت ما هو محبوب من الأعمال العظيمة » وبيان أن العذاب والنعيم أمران لازم للطاقات والمعاصي . فالله لا ينتقم وإنما هو عدل . وهنا كلام (أخوان الصفاء) الموافق للغزالي من وجه . وبيان معنى الحيات والعقارب والتنانين الواردة في عذاب القبر وإنما أن تكون صورة حقيقية لا تظهر إلا لأهلها تعذيباً لهم كما يظهر الملائكة للأنبياء تعليماً لهم لا لغيرهم . وأما أن تكون أشبه بحال النائم . وأما أن يكون المقصود الآلام المشبهات آلام العقارب وما معها لأن المقصد هو العذاب وهو حاصل . وبيان أن الآلام جسمية وروحية الخ وههنا شرح طويل وبيان للإمام الغزالي
- ٢٨ ﴿ المجلس الرابع ﴾ في الروح التي أخبرت بموتها وزمنه وفي قلة علم النوع الانساني وموازنات شتى بين أقوال الأرواح وبين القرآن والحديث الشريف . وذكر القتل الألماني الذي مضى له (١٧) سنة وأخبر بموته وطابقت الحكومة على قوله
- ٢٩ اللطائف العامة لأقسام السورة كلها ﴿ اللطيفة الأولى ﴾ في قوله تعالى - هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة - مع قوله - الله الذي جعل لكم الأنعام - الخ وبيان أنه لا معنى لشكر النعمة وللحمد عليها إلا بتقديم العلم بها ، فاعلم هو الأس الذي يبنى عليه الحب وتناء اللسان ونشاط الجوارح في الأعمال والعلم بهذه الأنعام وعجائب الخلقة قد تقدم في سور كثيرة مثل النحل والحج وطه والنور والنمل وسبأ والروم والمؤمنين وفاطر والسجدة ، ومع ذلك فأننا هنا نزيد مسائل لم تذكر في تلك السور مثل السحالي والبرص والحراب ، أضرار هي فقتلها أم نافعة فنبقيها ؟ وأي فرق بين الثعابين السامة وغير السامة ؟ وهل ما يحملها الحواة (المشعوذون) من الثعابين سام أم غير سام ؟ وما هو الحيوان الذي يولد في ماء ثم يهاجر الى المكان الذي خرج منه أبواه وهو لم يره ! وهل الحداة ضارة ؟ وإنما ذكرت هذه هنا لأن الآية فيها

٣٠ ذكر الأنعام وانها ثمانية أزواج ، وهذا يقتضى تقسيم الحيوان الى أنعام وغير أنعام ، فهذا من القسم المقابل لما فى الآية ، وفى هذا المقام يقسم الحيوان الى ناقص الحلقة وتام الحلقة ، والأول مقدم على الثانى ويقسم أيضا الى أشرف وما هو أقل شرفا وذلك بحسب الخواص ، فهو إما ذوحاسة أو اثنتين أو ثلاث أو أربع أو خمس ، فذو الحاسة كاللدود فى حب الثمار ، وذو الحاستين كاللدود الذى على ورق الشجر وزهره ، وذو الثلاث فلا سمع له ولا بصر وهو الحيوان الذى فى قعر البحار والأمكنة المظلمة غالبا وذو الخواص كلها ماعدا البصر وهو الهوام والحشرات التى تدب فى المواضع المظلمة مثل (الحلقة) والكمال ما فوق ذلك وبيان أن منها المتدحرج والزواحف والذى ينساب أو يدب أو يعدو أو يطير أو يعيش ، وهذا له رجلان أو أربعة أو ستة أو ثمانية أو أكثر ، والذى يطير من الحشرات ماله جناحان وأربعة وستة أجنحة ، ومنها ماله ستة وقرون ومشافر ومخالب وخرطوم ، ومنها ماله فسر وروية وتميز وتدير وسياسة ، ومنها ماله أعضاء مختلفة مهندسة مفصلة مغطاة بالجلد وعليه الشعر والوبر والصوف والريش والصدف والفلس خارجا ، وفى الداخل الدماغ والرئة والقلب والكبد والطحال والكليتان والمثانة والأمعاء والمصارين والأوراد والمعدة والكرسى والحوصلة والقانصة ، وفى الظاهر الأرجل والأيدى والأجنحة والأذنان والمخالب ، وههنا الفرق بين البهائم والسباع والوحوش والطيور والجوارح والهوام والحشرات . وبيان أن كبير الجثة يمكث فى الرحم طويلا لتدور الشمس دورتها فيستكمل فى الرحم ، وهذه خلقت أولا عند خط الاستواء ثم تناسلت وانتقلت الى مواطن أخرى ولكن أرحام الاناث حفظت تلك الحرارة . وبيان أن الناس يتعجبون من خلقه الفيل وهم لوعلموا لتعجبوا من خلقه البقرة أكثر لأن لها أرجلا أكثر وتزيد الأجنحة وغيرها ومع ذلك هى تؤذي . هذا بالاجال تقسيم المتقدمين . أما تقسيم المتأخرين فهم يقولون إن الحيوان إما ذوخلية واحدة وهو الأدنى ، وأما ذو خلايا ، والأول كحيوان الملايا الذى لا أعضاء له ويعيش فى الكرات الحراء فى الدم ، وذو الخلايا الكثيرة منه الاسفنج وحيوان المرجان وذو الجلد الشوكى وقنفذ البحر والديدان المفرطة كدودة الكبد والبلهارسيا والديدان الاسطوانية كدودة الانكلستوما وكالدودة الحلقيه والمفصليه ومنها الحيوانات الرخوة والفقرية ومنها السمك والضفادع والزواحف والطيور وذوات الشدى . والحيوانات السبعة المتقدمة من ذوات الفقرات فهى مشاركات للذكورات فى الآية وهى الأنعام . فأولها السحالى وهى من أنواع الورل (شكل ١) صحيفة (٣٤) وهى حيوانات نافعة للانسان لاضرر منها . وثانيها الأبراص جمع برص وهى حيوانات نراها فى منازلنا ونظن جهلا انها ضارة وهى نافعة فوجب أن لا تقتل (شكل ٢) صحيفة (٣٥) وكذلك الحرباء (شكل ٣) صحيفة (٣٥) وهى حيوانات نافعة أيضا

٣٦ الثعابين منها ماهوسام (شكل ٤) صحيفة (٣٦) وشكل ٥ صحيفة ٣٧ والثانى هو الكوبر المصرى أى الناسر . والحية المقرنة (شكل ٦) صحيفة (٣٨) والثعبان ذو الجرس (شكل ٧) صحيفة (٣٨) وهناك ثعبان غير سام وهو فى القطر المصرى كثير وهو رملى يميل الى الاحرار عليه بقع ذات لون بنى وسطه السفلى أصفر وهذا هو الذى يحمله الحواة (المشعوزون)

٣٩ (شكل ٨) صورة ثعبان يسمى (البيتون) وهو أيضا غير سام الكلام على ثعابين السمك وهى قسمان : قسم يعيش فى أنهار أوروبا وشمال افريقيا . وقسم يعيش فى أنهار الولايات المتحدة التى تصب فى المحيط الاطلاطى . ومن ثعابين السمك نوع يسمى (شكل ٩) فى صحيفة (٤٠) وأكبر مده يتم فيها نمو ثعبان السمك سبع سنين . ومتى تم نموها تجتمع وتهاجم من الأنهار

وتترك مصابها وتنزل في البحر الى بوغاز جبل طارق فالمحيط الاطلانطيقي فجزائر برمودة القريبة من الولايات المتحدة وثمانين أنهار أوروبا تفعل هذا كله ، وهناك تضع الاناث بيضها وتفرغ الذكور مادتها المنوية عليها في الماء فيتم اخصاب البيض وربما تضع الأنثى أكثر من مليون بيضة ، ثم يموت الذكور والاناث وتخرج الذرية وترجع الى المحال التي خرج منها آبائهم وأمهاتهم وهي لم ترهن
 ٤١ ولن تضل ذرية ثعابين السمك الأمريكي ولا الافريقي طريقها بل كل يرجع الى المكان الذي خرج منه الآباء والأمهات

٤١ الكلام على دودة الأرض (شكل ١٠) وهي ذات أشواك صغيرة ولها جلد رطب مخاطي
 ٤٢ وترى في (شكل ١١) حجمها مكبرا والذي تقدم هو حجمها الطبيعي ، وهي تخرج أثناء الليل لتبحث عن غذائها فتأكل الفضلات من الأوراق والأزهار الساقطة وتسحبها الى داخل الأرض ، وكذا بذور النبات والبويضات والحشرات والديدان وهي تتوالد

٤٣ (شكل ١٢) رسم دودتين في حالة الاجتماع ، وهذه لها منافع للناس ، فهي اصيد السمك ، ولغذاء الطيور ، وهي تحرث الأرض فيدخل الهواء فيها ، وتساعد الجذور على التعمق فيها ، وبأكلها الطين يدخل فيه مواد عضوية فيكون سمادا ، وهي بقذفها الطين ترفعه الى سطح الأرض فيقابل الشمس فهي أشبه بالحراث ، وتسحب الأوراق الى بطن الأرض فيكون سمادا ، وقد يكون في القدان الواحد من أرض الحدائق (٥٣) ألف دودة يمر من أجسامها (١٠) أطنان من التربة وهو يغطي نصف سنتيمتر تقريبا

٤٤ (العلق) تعيش في المياه العذبة في البرك والمستنقعات وبعضها في الأرض الرطبة وهي تعيش في الدم وهي خنثى وهي تتعلق بكل حيوان تعثر عليه ، وأهم هذا النوع هو العلق الطبيعي

٤٥ الكلام على الحداة ، وبيان انها تأكل صغار الدجاج والبط والأوز والجرذان والضفادع والثعابين والسحالي ودود الأرض والحشرات والرم ، وهي مفيدة جدا في تنظيف الشوارع من الرمم وسطوح المنازل من بقايا الماء كل ، وضررها أقل من نفعها

خاتمة في الحيوانات النافعة مثل المذكورة في يوسف عليه السلام

٤٦ تجارة الجراد في بلجيكا ، وبيان أن الحكومة المصرية اليوم لم تسنق لمنفعة الجراد الذي هجم على مصر مع ان في بلجيكا شركة تصنع منه زيتا ، ولم تبال بالطلب الذي قدم اليها ، فعلى من بعدنا أن يربوا الحكام تربية أرقى من هذه لأنهم لو باعوه لعوضوا النقود الضائعة في مطاردته

(اللطيفة الثانية) في قوله تعالى - هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة - الخ مع ملاحظة آية - خلقكم من نفس واحدة - وقوله - لا إله إلا هو - فهنا وحدة النفس المتصرفة في الأعضاء ووحدة الله ، ولا فرق بين وحدة نفوسنا مع كثرة أعضائنا وبين وحدة النمل وملكة النحل وملكة الأرض (جمع أرضة) . وقد وصل تيار من وصلوا الى القطب الجنوبي الى الذين في الممالك المتحدة في لمح البصر بمجرد الضغط على الزر . إذن اتصال الخبر بين النمل والنحل بنفس طريقة كطريقة الراديو من إذن العالم ذو وحدة لها محرك واحد وبه نفهم - ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة -

٤٨ (اللطيفة الثالثة) في قوله تعالى - الله الذي جعل لكم الليل - الى قوله - كن فيكون - وفيها ذكر الليل والنهار ، وخلق كل شيء بسبب هذا التعاقب وأن الأرض قرار ونظام خلقنا وتدرجه وحياة كل حي وموته ، في هذه المسائل الخس تدخل العلم الطبيعي والالهى والفلكي

٤٩ إن الحرارة والبرودة في الأرض يرجعان الى الليل والنهار ، والحيوان والنبات موزعان على مناطق الأرض المختلفة بسبب سیر الشمس ، ثم إن المكان الذي كثر نباته أو قل لا يعيش فيه الانسان ، أما الذي اعتدل نباته فهو الذي يمكن عيش الانسان فيه ، فالغابات الاستوائية والأقطار الباردة لا يصلحان لسكناء ، فالانسان كما وجب الاعتدال في أخلاقه وجب الاعتدال في محل سكنه ، ومن عجيب أن جسمه مفصل على مقتضى هذه العوالم حوله ، فأعضاء الحسّ للعلم بالموجودات ، والرجلان لحركة الانتقال ، واليدان لحركة العمل فكأن الانسان الورقة المصوّرة بصورة الشجرة وهي هذه الدنيا . إذن العالم مقسم على أعضائه عالما وعملا كما تقدم في أول ﴿ سورة ص ﴾ وهذا الانسان اليوم جاهل لم يدرس جسمه ومن درس جسم الانسان وجسم العالم عرف أن الانسان والعوالم حوله أشبه بالروح والأعضاء الجسمية فكما أن أعضاءنا مطيعة لأرواحنا هكذا العوالم حولنا يجب أن تطيع الانسان والانسان سائر الى هذه الحال ، وأضرب لذلك مثلا : رجلا بنى لأبنائه بيوتا منفصلة بماء البرك وهم ينتقلون الى بيوتهم بالسفن والأبنية لا تبلغ إلا الثلث والباقي ماء ، وبهذه الطريقة كانوا يتحاربون ، وهذا القتال هو السبب في نشاطهم ومعرفة أسرار الماء والأرض وهكذا ، وفي آخر الأمر قرّر قرارهم على ما يأتي :

ذلك ان أحدهم . قال : أيها الاخوة إن أبانا حكيم لأنه لم يشأ أن يعطينا مجانا بل أراد أن نفكر بأنفسنا . انظروا . ألسنا نحافظ على الطيور كالزقراق البلدي والشامي وأبي قردان ونحافظ على البقر والجاموس ، فهذه قد أجعنا أننا اذا أكلناها ولم نبقها لتنفعا في زرعنا إما بالتقاط الديدان وأما بالحرث والسقي فإنا نهلك لاحالة ، وهذا برهان يقيني واذا حافظنا على العنكبوت لأكله الذباب وعلى الحشرات لمنفعتنا أفلا نحافظ على الانسان نفسه الذي اذا أبقيناه ساعد مساعدة أتم من مساعدة الحشرات وغيرها وبهذه زال الحرب بينهم ، الأب ضرب مثل لله تعالى والاخوة بنو آدم والمنازل هي القارات والماء هي المحيطات المعلومة . إن الانسان لم تقتصر العداوة على أن تكون بين أفراد بل انه حرم من المناطق الباردة القطبية والحرارة الاستوائية المداوة نعما وخبرات لاحد لها . انه لم يحظ إلا بسكنى المناطق المعتدلة أما غيرها فلا . إذن هذه المناطق مخبوءة لهذا الانسان وهي عاصية عليه حتى يجتمع كله ويتحد ويصبح جميع الناس أمة واحدة وهم أولى بالاتحاد في هذه الأعمال من اتحادهم مع أبي قردان والجاموس والبقر تلك الحيوانات التي اتحدت معهم في المنفعة ، فهل منفعة الانسان أقل من منفعة الحيوان ! إن الانسان جهول والأنعام اليوم أرقى منه . اللهم إني أشكو اليك هذه الأمم ، وأهل أمريكا يقتلون السود جهلا وخبثا لمجرد اللون . وأهل انكارتا يطردونهم من مطاعمهم لمجرد اللون

٥٣ الانسان وتوزيعه على المعمور . شروط صلاحية القطر للسكنى . مغالبة الانسان طبائع الأقطار التي يسكنها أسباب قلة سكنى الغابات الاستوائية وموازنتها بالغابات المعتدلة . التغيرات الفصلية تعدد القطر للسكنى وهكذا التغيرات الدهرية . الحرف وتأثيرها في عدد السكان

٥٧ أسرار العلوم المخبوءة في هذه السورة ، وذكريسة أسئلة (١) الذنوب ومغفرتها (٢) الكفر والايمان (٣) محاور مؤمن آل فرعون (٤) محاجة الكفار في النار من المستكبرين والضعفاء (٥) مايقوله بعض المفسرين في آية - خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس - فان ابن عباس يقول : إن ذلك اشارة الى الدجال وأن الآية ردة على اليهود الذين يقولون إن الدجال يرجع لهم ملكهم . والاجابة على السؤال الأول والثاني أن الآلام كالضرب والكسر والصدم والجرح والأسقام كلها منذرات . واللذات نصف الرحمة والآلام نصفها الآخر . ثم ان ماتقدم في أول سورة الزمر من أن في الجوّ (١٦) طبقة سببها

الغبار والدخان ، وهذه الطبقات تحجب ضوء الشمس صباحا بحيث يكون أقل (١٣٥٠) مرة منه وقت الظهيرة . وهذه الحجب ودخانها الضار بأجسامنا المقصر لأعمارنا أصبح نعمة ، فنفعه أكثر من ضرره ، فهكذا الذنوب فهي منعت اقاضة العلوم على عقولنا دفعة واحدة لئلا نهلك . ثم ان الأرض أسرع قبولا للحرارة من الهواء وأسرع تخلصا والماء بالعكس وهكذا كل حيوان أو نبات أبطأ في التوق كان أكثر نفعا والعكس بالعكس . فهناك فرق بين النخل والقرع وبين الحصان والكلب . وهكذا هناك فرق بين الهرم وبين أبنيتنا من حيث الاتقان المناسب للدوام . هكذا الكافر والمذنب اذا صلح حالهما بعد العناء الشديد كان صلاحهما وإيمانهما أتم لأنه بعد عناء . وهذا هو السر العام في كل مائحن فيه من الشقاء والنصب في هذه الحياة

٦٠ الفصل الثالث في حاجة مؤمن آل فرعون لقومه وفيه ثلاثة جواهر

٦١ الجوهرة الأولى في لمحة من تاريخ قدماء المصريين وهذا التاريخ ثلاثة أدوار: الدولة القديمة ، والدولة الوسطى والدولة الحديثة ، وتاريخ الدولة القديمة يبتدىء بالملك (مينو) الذي جمع ملك الوجهين البحري والقبلي وعاصمته (تانيس) أوطية بجوار جرجا ، ثم انتقلت العاصمة بعد ذلك الى منفيس عند ميت رهينة بقرب القاهرة ، وهناك شيد (زوسير) الهرم المدرج وسنفر وهرى ميدوم ودهشور وخوفو وخفرع ومنقرع اهرام الجيزة الثلاثة وساحورع ونوفرارقرع وامرنرع وأونس وتيتي ويبي الأول والثاني ومرنرع الأول والثاني ، فهؤلاء منهم من شيد اهرام أبي صير والمعبد الشمسي ، ومنهم من شيد اهرام سقاره . ثم تلت هؤلاء حروب وجاءت الدولة الوسطى ، وهؤلاء من الوجه البحري ، وجعلوا مدينة طيبة مقرهم ، وحكموا النوبة ، وأقاموا المعابد بطيبة ، وشادوا اهرام دهشور والشت والفيوم ، وبنوا قبور بني حسن والبرشه ومسلتين من حجر الصوان إحداهما بالمطرية ، والقصر الذي هو شرقي بركة قارون . ثم نقلت في الأسرة الرابعة عشرة الى الوجه البحري في (سغا) ثم سقطت الدولة ودخل الهكسوس وجاءت الدولة الحديثة فرجعت الى طيبة وعظمت مصر وعظم سلطان الكهنة ، ثم أصبحت العاصمة (صالحجر) بالغربية وتل بسطة بالشرقية . وفي هذا الوقت ابتداء الانقسام فدخل الآشوريون وضعفت مصر ثم دخل الفرس ثم دخل اسكندر المقدوني . كل ذلك بالانقسام . والمهم في الآية أن هذه الأمة وأمة العرب في الأندلس متشابهتان في الانقسام فالمصريون عبدوا الطير والسماك والحيات والتماسيح والقطط والكلاب كما تقدم في (سورة النمل) واقتتلوا على ذلك ومتى خربت العقول ضاعت الأمم . وهكذا الأندلسيون افترقوا عشرين دولة صغيرة فأهلكهم الآشوريون . وهذا هو السر في قول مؤمن آل فرعون لهم - يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا - الخ فبأس الله هو التفريق والانحلال الذي جاء بعد هذه النصيحة لأنه كان في الدولة الوسطى . وأعقب ذلك الزمن الدولة الحديثة التي كانت هي انتهاء دولة المصريين كما انتهت دولة العرب في الشرق والغرب بنفس هذا الانقسام بعينه ومينه مع خراب العقول وضياعتها بالتقليد الأعمى . وهذه هي حال المسامين اليوم . ولقد فعل الفرنجة بأهل مصر في زماننا ما حصل لهم أيام الفراعنة . فأولئك لما أراد الله اهلاكم سلط على عقولهم الخرافات فجعلوا الحيوانات في الدرجة الأولى من الألوهية والمعبود الحق في الدرجة الثانية ففترقوا . وهنا تفرقنا نحن بسبب البشرين المنبئين في البلاد الذين زلزلوا عقائد الأكابر فأضاعوا البلاد ودخل الانجليز مصر وأصبح المتعلمون إلا قليلا منهم يتشبهون بالفرنجة في كل أحوال حياتهم . فما أشبه الليلة بالبارحة . إذن قصة مؤمن آل فرعون منطبقة على حالنا اليوم . إن الرياء والخداع هما الرأبجان . وقد

يقوم بأمر البلاد أخس النفوس وأضعف العقول والسفهاء وأصحاب الماضي الخبيث والسيرة القبيحة ،
وقليل من يتولاها من ذوى النفوس الشريفة الصادقين ، والمصريون اليوم عرب لهم صلة بالعرب في
شمال إفريقيا والحجاز واليمن والعراق الخ

٦٦ فهناك نصيحة الدكتور يحيى الدردير إذ رفع صوته في صحيفة الشبان المصريين قائلا : « لابد من اتصال
المصريين بالأمة العربية ، فأما الاقتصار على الوطنية المصرية وحدها وعدم اتصالها بالوطنيات الأخرى في
العراق والشام الخ فعناء الموت والهلاك ومعناه الانقسام (وبعبارة أخرى) ذكر المصريين بروابط
الدين واللغة والنسب مع العرب الآخرين . فهذه نصيحة مصرى في عصرنا لماوازناها بنصيحة مؤمن
آل فرعون وجدنا بينهما مشابة ما ، وعسى أن تكون هذه النصيحة يعقبها ارتقاء الأمة وإن كانت
نصيحة مؤمن آل فرعون أعقبها هوان الأمة لأنهم لم يتعظوا

٦٩ نورالعلم في صلاة الوتر بعد صلاة العشاء ، ههنا ذكر المؤلف معنى الاستغفار ، فم يستغفر رسول الله
ﷺ ؟ أمن ذنبه وهول ذنب له . كلا . إذن استغفاره ﷺ هنا راجع الى إزالة سبب الذنوب أى
دوام ذلك الزوال كما تقول اهدنا الصراط المستقيم ، والفتح المذكور في سورة الفتح ترتب عليه الغفران
بهذا المعنى إذ الفتح هناك راجع لفتح العلم وهو يحدث الأثر في نفوس السامعين فينشرون العلم بفتح
البلدان ، إذن الفتح والمغفرة راجعان لفتح العلم واصفاء النفس وخلوصها من سبب الذنب . أما
التسبيح والتحميد فهما أمران عجيبان : أن النعم التي نشاهدها غزيرة ولكننا نراها بمنزلة بالشرور
وهذه الشرور تحدث عندنا خوفا من الله ويكون الحب لله على مقدار ما يكون من اللطف الذي نحس
به بعد كل شر يصيبنا فنكون عبيد سوء لانعرف النعمة ولا نحس بها إلا اذا أصابنا الشر لنفرق بين
النعمة والتعنة ، ولكن اذا أدركنا بعقولنا ودراسنا العلوم الرياضية والطبيعية ، وتحققنا بعقولنا أن
الشرور لابد منها لنتمام النعم أصبح حبنا لله لاحد له وهناك فقط نفهم معنى الرضاء بالقدر ومعنى « الإيمان
بالقدر خيره وشره من الله » وهناك هناك فقط تكون سعادة هذا الانسان ويكون الحب الحقيقي ، وهل
السعادة إلا الحب ، والحب هو النعيم كله والسعادة كلها ، فلادنيا إلا بالحب ، ولانعيم في الآخرة بحق إلا
بالحب . هذا هو سر الاستغفار والتسبيح والتحميد

٧٣ (الفصل الرابع) في حاجة الضعفاء والمستكبرين في النار . وبيان أن ذكر المسيح الدجال بعد حاجة
الضعفاء والمستكبرين للدلالة على أنه اذا كان المسيح الدجال (مع ماله من المكر والدهاء التي لا يباغها
في الخديعة الرؤساء الضالون والشيوخ العاشون) لا يخفى أتباعه من العقاب لأن لهم عقولا فأولى بالعقاب
هؤلاء الذين يتبعون المضلين من الشيوخ والأضواء المضلين . إن الحاجة بين المستكبرين والضعفاء في
الآية تفرق للمسلمين الحاليين الذين تركوا مواهبهم وعقولهم ونسوا أن كتاب « الفرق بين الفرق »
الذي اشتمل على (٧٣) فرقة من فرق المسلمين ، كان كل اختلافهم المذكور فيه غالبا لا يرجع إلا الى سبب واحد
بحسب الأصل وهو الجاه والثرثرة والملك ، ولادواء هذه الأمة عندي إلا دراسة العلوم الرياضية والطبيعية
وجميع علوم أهل الأرض ، ولا يصلح لقيادة هذه الأمة رجال يجهلون هذه العلوم ، فلا رجال الدين ولا رجال
السياسة ولا الأمراء ولا الملوك ولا رؤساء الجمهوريات في أمة الاسلام يتأفمون مالم يتحلوا بهذه العلوم .
وكفى كل واحد من هؤلاء أن يلم بأكثر ما في هذا التفسير . فأما غير من انصفوا بذلك الوصف فهم
لا يصلحون لرقى هذه الأمة لأنهم جهلاء غالبا جهلاء مركبا

٧٥ (الفصل الخامس) في المسيح الدجال . لقد تكلمنا على المسيح الدجال في مواضع كثيرة من هذا

التفسير، وفي كل موضع فائدة ليست في الموضع الآخر. فاختلاف العبارات باختلاف المواضع كاختلاف الزروع. لكل وجهة وفائدة، إن المسيح الدجال أنذره الأنبياء قومه، وليس من المعقول أن يندروا بالذي لا يحدث لأهمهم، وليس من المعقول أن يستعبد المسلمون ١٣٥٠ سنة من شيء لم يكن له أثر، إن الدجال والغش والخداع محيط بأهم الاسلام من جميع الجهات، فمن شيوخ لا علم عندهم بغرور الأمة ٧٧ ويقولون « لا موجب لقراءة العلوم » فتنام الأمة، ومن قوم يأتون بتجارة أجنبية تبتز الثروة والأمة نائمة عن الصناعات، ومن أمم أوروبية أو مسلمة شرقية تحتل بلاد الاسلام وتذل الرعية، فالأولون بحاجة الإصلاح الكاذب، والآخرون بحاجة انهم على ديننا، فكل هؤلاء من أتباع المسيح الدجال، ولا ينافي هذا انه يظهر في آخر الزمان، ولكن نحن ننظر لما هو حاصل الآن، فليكن هو كناية وهي معروفة في علم البيان. فكل هؤلاء استعاذ منهم النبي ﷺ ومنهم نستعين نحن فظواهرهم كالمسيح ابن مريم وبواطنهم انهم دجالون، فاستثن الصحابة والتابعين وأمثال صلاح الدين وعمر بن عبد العزيز وضع يدك على من تشاء تجددهم مترفين منعمين دجالين إلا قليلا كانوا مخلصين. إن المستعمرين مادخلوا أمة من أمم الاسلام إلا أصبح شيوخ الطرق غالبا دعاة لهم. وأما قول ابن عباس « إن الآية واردة في اليهود فهو حق وظهر سره الآن والا فإذا نرى. أن الحرب العظمى ما أشعلها إلا ألمانيا بسبب الفلاسفة اليهود ٨٠ مثل نيتشه والبلشفية في روسيا رؤساؤها اليهود مثل لينين وفتنة فلسطين وطمعهم في الوطن القوي ظهرت في هذه الأيام وهي من اليهود. أليس هذا هو عين قول ابن عباس بل هو معجزة وهو انهم سيتكلمون في ملكهم على المسيح الدجال وهاهي ذه الدول المستعمرة هم الدجالون وعليهم انكسر اليهود وابن عباس قال لا يبالغون شيئا. فعلى المسلمين أن يرقوا تعليمهم ليزول خداع الأمم وتفك أغلال العالم على أيدي المسلمين والا فان نفع الانسان لأخيه الانسان أقوى ألف مرة من نفع (أبي قردان) الذي حافظنا عليه لزرعنا، فهل (أبو قردان) أنفع من الانسان للانسان؟ إذن الانسانية اليوم بلهاء جاهلة، وعلينا نحن أن نرقبها لنقتل الدجل منها، ومن أهم الدجل إبقاء الأمم جاهلة بسبب الاستعمار تارة وبسبب الشيوخ الجاهلين تارة أخرى، ومن أهم الدجالين المبشرون الذين يزلزلون العقائد لاصطياد الأمم، وجاء في إحدى المجلات العلمية وهي مجلة « الشبان المسلمين » مقالة بهذا المعنى عنوانها « من كان بيته من زجاج فلا يرجع الناس بالحجارة » وأن الصينيين يقولون: تعاليم المسيح عرفناها من قبل إرساله لكم ولم تنالوا من الصين أكثر من (٤٠) ألف نصراني يكسبون منكم رزقهم، وههنا سرد حكاية عيسى وهم مع انهم يدعون الى السلام مادخلوا أمة إلا أحدثوا فتنة وأدعوا ملكا وثار الحرب فهل هذا هو السلام. ولما علمت ألمانيا أن رجال الدين هم الذين مهدوا للانجليز دخول مصر بسبب بث العقائد الزائفة أخذوا يستعملون هؤلاء المبشرين لما يريدونه

٨٢ ﴿ سورة فصلت ﴾ وهي خمسة أقسام: تفسير البسمة والتوحيد. ذكر بدء الخلق. وذكر إهلاك بعض الأمم كهاد وثمود. وذكر الخسر. وشهادة الجلود والحواس الخ والخامس في ذكر أن الليل والنهار آيتان الى آخر السورة

٨٥ ﴿ القسم الثاني ﴾ من السورة الى قوله - العزيز العليم - قد كتب مشكلا
٨٦ التفسير اللفظي لكلمة (حم) وهذان الحرفان يرجعان للحمد والجد على نعم، وههنا سرد المؤلف نعم الله التي في هذه السورة

٨٩ ذكر بدء الخلق - قل أنتم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين - الخ

- ٩١ ﴿ القسم الثالث ﴾ من قوله تعالى - فان أعرضوا - الى قوله - وكانوا يتقون - وتفسيره اللفظي
- ٩٣ ﴿ القسم الرابع ﴾ من قوله تعالى - ويوم يحشر أعداء الله - الى قوله - فاستعد بالله - الخ قد كتب مشكلا ، ثم تفسيره اللفظي
- ٩٥ ﴿ القسم الخامس ﴾ من قوله تعالى - ومن آياته الليل والنهار - الى آخر السورة قد كتب مشكلا وبعده التفسير اللفظي
- ٩٨ لطائف هذا القسم : هي ثلاثة . الأولى في إنزال الماء من السماء وانبات النبات الخ
- ٩٩ اعلم أن المواد المعدنية والنباتية والحيوانية لاتتسامل إلا في وسط موافق لها وأقل درجات الاجتماع أن تكون العناصر لافيهها تركيب كيميائي ولا نظام حيواني كحجر الجير ويسمى حجر البناء (والدبش) و(الدقشوم) فهذه مركبات من كالسيوم وأكسوجين ، وأرقى من هذه التركيب الكيميائي كالبتواسا الكاوية ، ففيها البوتاسيوم والاكسوجين والادروجين والكالسيوم والكربون ، فباتحاد هذه بنظام خاص تصبح جسم له خواص جديدة ، وأرقى منهما طريقة الحياة النباتية والحيوانية ، فلناخذ الاكسوجين والادروجين والآزوت والكربون التي لا بد من وجودها في كل نبات وحيوان ، فهذه يركبها الكيميائي ولكنه لا يقدر أن يخلق فيها الحياة ، ان الحياة فيها سر البناء والهدم كرفع الحجر الى أعلى فيرتفع الى حد خاص ثم ينزل الى الأرض . إذن الموت ناجم من نفاد القوة الحيوية ، وأصل الحياة مادة هلامية (بروتوبلازما) تصبح حوصلة والأحسن أن تسمى بيضة والبيضة تنقسم بيضتين وع ٨ و ١٦ و ٣٢ وهكذا (انظر هذا في سورة مريم مع الموسيقى ومع حساب بيوت الشطرنج) فأنا وأنت وكل نبات وحيوان أصلنا هذه البيضة ويحصل الانقسام وفي أثناءه تكون العين والأذن والقلب الخ
- ١٠٠ الحياة سلسلة والنبات من أعلاه متصل بالحيوان كنوع (الدوفيت) فهو على شكل النبات ولكنه حيوان ، مم الاخطبوط الهلالي ، مم الديدان ، ثم الحلزون والبراقي وذوات الأصداف ، فالحيوان القشري فعقرب البر وذوات الفقرات كالسمك ، فالديابات الأرضية ، فالطيور وذوات الثديين وهكذا الى القرد فالانسان
- ١٠١ ﴿ خلق الانسان ﴾ انه يخلق تدريجا في الرحم فيكون دودة حلزونة فسمكة فذبابة فقردا فالإنسان سويا وهذا هو معنى قوله - مخلقة وغير مخلقة -
- ١٠٣ ﴿ اللطيفة الثانية ﴾ في آية - لا يسأم الانسان من دعاء الخير - . أمر الانسان بحب ا يسلب النعمة فيضطرب ، فاذا خف الأمر عليه دعا الله ، فاذا كثرت النعم أصبح أغمى ، وليس يخرج من جهله إلا العلم ﴿ اللطيفة الثالثة ﴾ في قوله تعالى - سنريهم آياتنا في الآفاق - الخ فهذه الآيات قد تبين الخ في زماننا ، وأنت أبها الذكي اذا قرأت ماتقدم في التفسير أيقنت أن ما فيه خلاصة علوم الأمم في أرضنا . إذن أنت اطلعت على معنى هذه الآية بقراءة ماسبق في هذا التفسير . إذن أصبح دين الاسلام دين الحكمة والفلسفة . إذن أنت شريك في الفكرة فخرام عليك أن تنام
- ١٠٣ أيها المسلمون القارئون هذا التفسير : أتم خلفاء الله في أرضه تذييل لتفسير هذه السورة وفيه ثلاثة فصول : الفصل الأول في إيضاح قوله (اليه برّد علم الساعة) العجب ان الانسان يرتقي في الرحم كما تقدم في درجات الحيوانية ، فاذا رأينا الطفل يلعب الهرة ويجب الحماة ويداعب العصفور فذلك لأنه كان بالأمس مثلها . إن التلعيز يجب أن يمر على جميع درجات التعليم حتى يمكنه أن يعلم (لذلك لم يكف المسلمين أن يعلمهم قوم من الذين نالوا الكشف لأنهم لم

يمرّوا على الدرجات كلها كما مرّ الجنين)

١٠٤ ﴿ الفصل الثاني والثالث ﴾ في إيضاح الكلام على آية - سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم - الخ وذ كر نبذة من كتابي « ميزان الجواهر » تتضمن البحث في نظام علم التوحيد في بلاد الاسلام وأن المؤلف وهو في حال الصبا كان يتمنى لو أن المسلمين درسوا هذه المشاهدات في المعاهد الدينية . وأنه شاهد بعض الحيوانات الصغيرة المرقشة فأدهشته ، وأخذ ينظر بعقله ، وقرأ التفسير في الحقول وهو بعيد عن دور العلم ، فلا له الفهم ، ثم اتصل « بدار العلوم » وأصبح موقنا بأن هذا العالم له نظام تام ففرح بذلك فرحا شديدا وأخذ يقول : « تبأ لمن تمرّ عليه هذه الحياة وهو لا يعقل هذه العجائب ، أما التناسل والمسا كل فأمران عامان . فن استعمل عقله في هاتين الشهوتين فقط فالبهايم خير منه وهو أغمى » وههنا سبعة أمور : — (١) ميل الفطرة الانسانية للغرائب (٢) دليل الالوهية في الامور الغريبة أقرب الى أذهان البسطاء (٣) آيات القرآن ناطقة بذلك (٤) ويجب أن يطبق العلم على صفات التنزيه والتحميد عند كل عجيبة (٥) فذلك مع كونه علم توحيد هو رقيّ للانسانية (٦) مطالعة العلوم على هذا النمط ازدياد علم بالله (٧) بهذا يشبّ الطفل على حب الله

١٠٧ ﴿ النبذة الثانية ﴾ ما كتبه المؤلف في مجلة « نور الاسلام » لأنه رأى رؤيا وأن ملكا في النوم كان يعلمه معنى « بدأ الاسلام غريبا » وأخذ يفهمه طول الليل أن الاسلام سيظهر وينتشر انتشارا غريبا اليوم كانتشاره أولا . فأخذ المؤلف هذه المعاني وجعلها من عنده في مقالة تحت عنوان « مما أوجب للمسلمين السقوط . جعل اقتراب الساعة سبب القنوط » . جاء في القرآن أن الساعة آتية لا ريب فيها وانها قريبة وذلك لاحداث النشاط للعمل . فالفلسف كانوا مجتدين في العمل بهذا السبب ولكن نفس هذا السبب اتخذته جهال المسلمين سببا للبطالة إذ يقولون : « قربت الساعة فلماذا نعمل » وهناك جاء الكسل . ولكن قرب الساعة ليس يفهم كما يفهم الجاهل . ان أعمارنا قصيرة فالقرب عندنا عشرات السنين . أما القرب بالنسبة لصانع العالم فهو مبني على النظام العام القديم الزمان . وإذا نسبنا مائة ألف سنة أو مليون سنة الى مئات الملايين كان ذلك قريبا . وهذا معنى - أنهم يرون بعيدا ونراه قريبا -

١١١ اللطائف العامة لأقسام السورة كلها وهي ست لطائف

١١٢ ﴿ اللطيفة الأولى ﴾ في البسملة ومناسبتها لما ذكر في السورة من الرمز الى طبقات الأرض وما فيها من صور كشفها القوم . الآيات المفصلات في المادة الأرضية والسموية . للسمع جاءت اللغات . وللبصر خلقت المشاهدات . والسورة بدئت بالآيات المسموعة ثم تلتها الآيات المبصرة والأرض وما عليها كلها في (٤) أيام . والسموات في يومين . العوالم كلها ترجع الى سماء وأرض . وتفصيلهما يكون بعلمين : علم الفلك وعلم طبقات الأرض . يقول الله : « أنا رحيم رحمت الحشرة بالآلاف العيون ورحمتكم أتم بعلم الجيولوجيا والفلك لتقرءوا الجلال »

١١٥ وسيكون في الجيولوجيا بابان : باب العلم . وباب العمل . أما العلم فبذكر معلومات عامة وأهم النظريات الحديثة . والعصر الأول للأرض . وعصر الحياة القديمة . والحياة الوسطى . والحياة الحديثة . والعصر الجبري القديم فالحديث وعصر البرز . في ذكر معلومات عامة

١١٦ قطاع تخيلي يوضح أقسام الكرة الأرضية (شكل ١٣) الغلاف الجوى والغلاف المائي وأعماق البحار المحيطات . وبيان أن سمك الغلاف من (٥٠٠) الى (٦٠٠) ميل . وبيان تركيب الهواء الخ

١١٧ الكلام على أهم النظريات الحديثة من حيث ان الأرض كانت سديما . آراء الاستاذ (كانت) سنة

- ١٧٥٥ « انه كان هناك سحاب مركب من غاز » ومنها اشتق (لابلاس) مذهبه . ومعنى هذا أن حرارة الأرض الآن أقل من حرارتها قديما ، وهذا الرأي باطل الآن
- ١١٨ منظر السديم المعروف في مجموعة نجوم الجبار (شكل ١٤) منظر للسديم الحلزوني في مجموعة نجوم السلاقي بالمنظار الفلكي ، والأول يمثل كون الشمس دخانا والثاني يمثلها وقد امتد منها ذراع
- ١١٩ (الفصل الثالث والرابع) في العصر الأولي للأرض . العصر الابتدائي والحياة القديمة . وفيه الكلام على أشكال الحيوانات البحرية القديمة
- ١٢٠ لوحة فيها (١٢) صورة لحيوانات قديمة في ذلك العصر ونباتات وأنواع من الحمار
- ١٢١ عصور الحياة الوسطى ، وفيه وصف البحار وقد طغت على اليابسة . وكيف ظهرت حيوانات وانقرضت أخرى . وذكر انه كان هناك بعض الحيوانات الرخوة المحارية (الامونيت) وكان من هذا الجنس وحده (٤٠٠٠) نوع مختلف وقد كثرت فيه الشعاب المرجانية . والكلام على عصر الحياة الحديثة
- ١٢٢ لوحة فيها (١٠) صور فيها أهم الحفريات في صخور حقب الحياة الوسطى بالقطر المصري
- ١٢٣ وهنا وصف القنافذ البحرية والاوزيا وأن الحشرات انتشرت انتشارا كثيرا الخ
- ١٢٤ لوحة فيها أهم الحفريات في صخور حقب الحياة الحديثة بالقطر المصري فيها عشر صور منها فاكهة متحجرة وسرطان بحري وسنن الحوت وورقة شجرة وغيرها
- ١٢٥ العصر الحجري القديم . وهنا اللوحة (٤) فيها (١٩) رسما تشتمل على (١) قطعة من الخشب المنحجر و (ب) منظر الغابة المتحجرة قرب القاهرة . وهنا ذكر الغابة المتحجرة القريبة من العباسية فيها أشجار تبلغ عشرين مترا
- ١٢٦ العصر الحجري القديم والحديث . وعصر البرز . وههنا ستة أشكال منها آلات من الصوان الحجري القديم بالفيوم ومجموعة من الآلات من حجر الصوان تابعة للعصر الحجري الحديث
- ١٢٧ وهنا ذكر أنهم وجدوا رسوم أيدي السكاكين التي أخضعوا بها الحيوانات والوحش كالثور والحسان والحمار والكب والقط . وقد عرفوا الزراعة والصناعة ثم هجروا الكهوف وسكنوا وسط البحيرات خوفا من الحيوانات
- ١٢٨ (عصر البرز) ومن الغريب الانتقال من آلات الصوان الى البرز والمصريون وحدهم انتقلوا الى عصر النحاس وهو عجب !
- (نبذة من علم الجيولوجيا خاصة بالقطر المصري) اهتم قدماء المصريين بالمعادن وفي زمن الرومان ثم أيام المغفور له محمد علي باشا وفي هذه الأيام انجھوا كرة أخرى
- (زيت البترول) كان ينز عند سفح جبل الزيت على شاطئ الخليج وكشف عام ١٨٨٥ في جسا في مغارات قرب الشاطئ كانت معدة لاستخراج الكبريت
- ١٢٩ هنا أشكال : شكل ٢٣ منظر لجزء من حقول البترول بالغردقة (شكل ٢٤) بئر في أول الانتاج يتدفق البترول من الفوهة بقوة عظيمة من جسا (شكل ٢٥) أحد عروق المرو الحاملة للذهب بمناجم سمنا بالصحراء الشرقية (شكل ٢٦) منظر عام لمناجم القوسفات بسفاجه بالصحراء الشرقية (شكل ٢٧) منظر منطقة مناجم المنجنيز بشبه جزيرة سيناء . موازنة بين أنواع البترول بهذه الجهات
- ١٣٠ اللطيفة الثانية في آية - كتاب فصلت آياته - الخ وهو مبحثان : مبحث لغوي ومبحث علمي سياسي والمبحث اللغوي جاء فيه قول ابن النقيب : « إن القرآن وإن كان كنه بلغة العرب قد دخل فيه من

لغات الأمم ألفاظ لأنه صلى الله عليه وسلم مرسل للجميع»

١٣٢ وههنا جدول بالألفاظ تقرب من (١٥٠) لفظة من قبائل العرب المختلفة مثل : مسطورا أى مكتوبا بلغة حير ، ومثل السفهاء أى الجهال عند كنانة ، ومثل كنود أى كفور للنعم عند هذيل ، ومثل : أنكر الأصوات أى أقبحها عند حير ، ومثل : بجبار أى بمسلط عند جرهم ، ومثل لاشية أى لاوضح عند أردشوة . ومثل رفث أى جاع عند مذحج . ومثل مريج أى منتشر عند خثعم . ومثل نخلة فريضة عند قيس عيلان . ومثل حفدة (أختانا) عند سعد العشيرة . ومثل جاجا أى طرعا عند كندة ومثل اخسثوا أى اخزوا عند عذرة . ومثل ريون أى رجال عند حضرموت . ومثل طفقا أى عمدا عند غسان . ومثل لاتغلاوا أى لاتزيدوا عند مزينة . ومثل أملاق عند لخم . والعقود عند بني حنيفة وحصرت أى ضاقت عند النجامة . ومثل تميلاوا عند سبأ . ومثل نكص عند سليم . والصاعقة لعمان . وينفق عند طيء . وأفيضوا عند خزاعة . وخبالا عند عمان . وأمه أى نسيان عند تميم . وطائرته عمله عند أنمار . ولأحتكن عند الأشعرين . ولينه نخله عند الاوس وهكذا . هذا فى قبائل العرب . وهكذا لغات الأمم مثل : أباريق فارسية . ابلعى حبشية . وأسباط لغة بني يعقوب . واستبرق عجمية . وأسفار أى كتب (سريانية وقبطية) . اصرى أى عهدى (نبطية) . أليم أى مومج (زنجية) . وإناه فضحه (أهل المغرب) . وأواه موقن (حبشية) . الأولى أى الآخرة والعكس (قبطية) . بطاتها ظواهرها (قبطية) . كيل بعير (حار) عبرية . جهنم فارسية . حرم أى وجب (حبشية) والحواريون الفسألون (نبطية) . وراعنا بلغة اليهود وهكذا . وغساق : البارد المتقن . وفردس (رومية) والقيوم سريانية . ويصهر ينضج بربرية

١٣٦ وههنا نظم لأربعة وعشرين لفظا أوله (الساسبيل وطه الخ)

١٣٧ (المبحث الثانى) وهو السياسى العالمى فى قوله تعالى - كتاب فصلت آياته - الخ . وهذا المبحث فيه الكلام على العرب أيام جاهليتهم الأولى وجاهليتهم الثانية . فهم فى جاهليتهم الأولى أيام حورابى إذ كانوا بالعراق تغلبوا على السومريين حوالى سنة ٢٤٦٠ ق.م وكتبوا بالقلم السومرى وهو أشبه بالقلم الهيروغلىفى المصرى . وفى أول أمرهم لما تغلبوا على السومريين استعملوا لغتهم وقلمهم ثم أهملوا لغتهم وحفظوا قلمهم . وله صورة بدئية فى صحيفة ١٤١ (شكل ٢٨) وهذا الخط لازال يتغير حتى كانت سنة ٣٢٨ ب.م إذ أصبح بشكل ما كتب على قبر امرئ القيس بن عمرو . وهو خط يفاير الأول (شكل ٣٠) فى صحيفة ١٤٣ ولاجزم أن هذا كان قبل البعثة بثلاثة قرون . ومن زمن البعثة الى الآن بقى الخط العربى بهيئته الأصلية ومعه التحسين والخط واللغة محفوظتان (انظر شكل ٣١ و٣٢ و٣٣) وهى رسم لسورة الفاتحة وقل هو الله أحد بلغة العربية والصينية وذلك فى صحيفة ١٤٤ و١٤٥ و١٤٦ ومن يقارن ما حصل فى اللغة العربية من حفظها يجده مغالفا لما حصل فى اللغة اللاتينية التى كانت لغة الدين والعلم والسياسة . فان الدولة الرومانية صاحبة تلك اللغة لما هجم عليها التوحشون وهم آباء هؤلاء الاوروبيين ونبت منهم أمة الألمان وحكمت رومه وكانوا همجيين سنة ٤٧٦ ب.م واختل الأمن أخذت كل أمة تكتب بلغتها وأصبحت اللغة اللاتينية لغة تاريخية لاغير وحلت محلها الألمانية فى ألمانيا والانجليزية فى انكلترا وهكذا . وهذا بخلاف اللغة العربية فانها لم تحل محلها لغة أخرى . فقد أعدمت لغة القبط بمصر والروم بالشام والنبطية أو الكلدانية بالعراق وحلت محلها الى الآن ولما نشأت منها لغات أخرى وهى لغات العامة بمصر والمغرب والشام بقيت هذه الأمم تحافظ على العربية

الأصلية . وكلما تباعدت عنها أخذ القرآن يقربهم منها . إذن هذه الآية ظهر سرّها الآن إذ رأينا اللغة اللاتينية التي كانت سائدة في أوروبا دينا وسياسة بطلت والعربية بقيت . هذه هي المعجزة القرآنية المذكورة في هذه السورة - لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - مع قوله - سنريهم آياتنا في الآفاق - الخ وهذا من مدهشات القرآن

١٤٧ ههنا جوهرتان : الأولى في مقالة للكتاب الأميركي إذ يقول : « إن جميع المسائل يكتب الناس فيها أياما وشهورا ويسكتون ، ولكن معرفة الله وخلاود النفس لا تقف الكتابة فيها في الماضي والحال والاستقبال ، وضرب مثلا للعلماء بالقطط العمياء التي وضعت في صندوق والرجل يرفعه ويفذي القطط بالابن ولكن إحداها قتلها الكلب لأنها خرجت من الصندوق ، فقالت قطّة منهم : أين الرجل ؟ لو كان موجودا ، لارجل هنا ولاحتو ولاشفقة ، فهذه تشبه (أنجرسول) الجاحد الأميركي ، وقالت أخرى إن الصندوق يجري على نواويس طبيعية . أما الرجل فلا وما هذا الابن إلا أمر نظامي طبيعى لاغير . أما الرجل فلا وهذه القطّة تشبه (اسحق نيوتن) ولكنه هو مؤمن ولكن القطط بعد ذلك أبصرت فرأت الرجل فاعتذرت له فقبل عذرها

١٤٩ (الجوهرة الثانية) في آية - وجعل فيها رواسي - وإن من الرواسي وهي الجبال جبل الفضة بأمريكا الجنوبية الذي عثر عليه رجل أمريكي أصلي تابع للقبطان (جون) فاستولى عليه باسم ملكه سنة ١٥٤٥ وبقى معهم ٢٨٠ سنة ، وهذا الجبل بمملكة بوليفيا وقد خرجت من يد الاسبان سنة ١٨٢٥ وقد كسبوا منه ١٦ ألف مليون ريال أى ٥١٢٠ مليون جنيه ، فيكون الكسب منه كل سنة ١٨ مليون جنيه وثلاث ، والفضة اليوم قلت قيمتها ، وفي الجبل قصدير ، ولا يصدر منه إلا قليل الآن

١٥٠ (اللطيفة الثالثة) في قوله تعالى - حتى اذا ماجأوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم - الخ ، وذكر آيات أخرى مع هذه مثل آية - يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم - هنا علم عجيب ، ذلك انه لماذا ذكرت الأيدي والأرجل وحدها في الشهادة ، ولماذا شهدت مع اللسان نارة ونارة وحدها والقلم مختوم عليه ، وجواب ذلك أن اللسان يشهد معها اذا كان الانسان أشبه بالقوم تنويما مغناطيسيا لاجرية له ، فأما اذا كان مستكملا قواه فانه يكذب فاذا كذب شهدت هي وحدها ، واختصاص هذين العضوين بالشهادة لسرّ قد ظهر في عصرنا ، فان الناس سنة ١٨٩٠ وهي التي دخلت فيها دارالعلوم استندوا في علم المباحث الجنائية الى هذين العضوين لأنهم وجدوا هذه الخطوط لا تتغير أمد الحياة من المهد الى اللحد ، فهي ترسم في الجنين وتبقى الى ما بعد الموت بخلاف بقية ظواهر الجسم فهي كلها متغيرات تغيرا تاما . وهذا هو الذي عليه الاعتماد اليوم في تحقيق الجنائيات . وهذا الذي يجب أن يعمل به قضاة الشرع الاسلامي . فاذا تعارض قول الشاهد مع هذه الآثار التي تركتها الأيدي والأرجل على ثياب القاتل أو على السيف أو نحو ذلك . فهذه يقينية وشهادة الشهود ظنية بالاجماع . والبقين مقدم على الظن . واذا قيل الله شهادتها وهو ليس في حاجة اليها فالقضاة أولى بقبولها مع حاجتهم اليها . وهذا السرّ ظهر الآن في هذا التفسير وأنا أعلنه للمسلمين بعدنا . وههنا (٩) أشكال للأيدي والأرجل من نمرة (٣٤) الى (٤٢) وهي مرسومة في الصفحات من ١٥٤ الى ١٦٠ وهي تبين بوضوح أشكال الأيدي والأرجل . وتبين أن خطوط الأصابع أربعة أنواع رئيسية فهي إما منحنيات وإما منحدرات الى اليسار . وإما منحدرات الى اليمين . وإما مستديرات . ثم الاقدام إما أن تكون لرجل

صاحبها سائر. وأما أن تكون لرجل صاحبها واقف. ولكل واحد من هذه الأحوال شكل من الأشكال المتقدمة، ومن الأرجل ما هي مقوسة، ومنها ما هي منبسطة. هذا هو الاجال

١٦٠ ﴿الطيفة الرابعة﴾ في آراء حكماء الأمم وعلماء الاسلام في الأخلاق تفسيراً لقوله تعالى - إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا - الخ وذلك ان المؤلف بينما هو جالس إذ أخذته غشية فأحسّ كأنه في عالم آخر وقد رأى فرشا مرفوعة وأكواباً موضوعة، وهناك فتاة رائعة الجمال. فلما رآها خرّ صريعاً لدهشته من الجمال، ولما اشتاق وأشفق أن يكون ذلك حراماً عليه لأنه هام بالجمال الحسى. قالت له هذا ليس حراماً عليك، انك في الحال الروحية، وأفهمته أنها هي البصيرة، فهبى رمز لبصائر الناس جميعاً في الأرض، فاستغاث بها أن لاتفارقه، وأخذ يقول لها: أنا مفرم بك، إن كل حياتى فسكر والفكر منك وفيك. فقالت له. كلا. ولكن انظر الى مزارعى في عقول علماء الأمم. فهناك امتثل أمرها. وأخذ يقرأ عليها آراء كونفوشيوس الصينى قبل ٢٥٠٠ سنة، ويتبع مذهبه ٥٠٠ مليون نفس، وهذا المذهب ملخصه أن يحب الانسان جميع الناس شرقاً وغرباً، وأن الطبيعة موزونة، وأن الانسان له بالله صلة، والله يرعاه ويرعى كل مخلص في الأرض، ويقول هو: «إن تقسه بالله لاحد لها وهو يساعده، وهو الذى عين له الوظيفة التى يقوم بها الآن، والطبيعة التى خلقها الله لاسرّ فيها، والانسان له بجميع الناس علاقة، والحب هو نهاية المقاصد فى الدنيا فيجب جميع الناس كما يجب العلم ويحب ربه. وفى كل انسان مبدأ للخير. ومبدأ للعطف على الناس. ومبدأ لما يثير الخجل من عمل الشر. ومبدأ يميزه الخير من الشر. والحق من الباطل. والناس يولدون أظهاراً. والترف والنميم وكثرة الطعام والدسم والدفء تجمعاهم بهائم. على هذه الأخلاق درج الصينيون. هذا ملخص آراء كونفوشيوس

١٦٥ وهاك آراء أفلاطون فهى قريبة منها. يقول: «إن الشهوات والأهواء تتنازعنا فعلياً أن نسمع صوت العقل واكرام النفس فى شىء واحد وهو الفضيلة. إن الفضيلة تمتع الروح. ان الفاضل وان تعثر فى أول أمره فانه يسعد سعادة حقيقية داخلية فى أول أمره. وداخلية وخارجية فى آخر أيامه إذ يسمع الثناء الحسن والاحترام من الناس جميعاً. إن الفضيلة فوق المال والمتاع وكل ما تقتنيه ونعجب به»

١٦٦ ومثال ذلك سقراط قام بما عليه فى ميادين القتال وامتلأ أمر رؤسائه. وهكذا لما صار يعلم أبناء أثينا العلم ووقف موقف الموت اختار الموت ولم يترك العلم والعقل ولم يرض بالهروب من السجن لأنه يعتقد أن ذلك شرّ والذى يقابل الشر بالشرّ لثيم. وعلق الاستاذ (بارتلى ساتنلير) على هذا بما يفيد أن المصائب ما هى إلا عقوبات والعقوبات يجب قبولها بالسرور ولا يجوز الهرب منها

١٦٨ ونقل عن سقراط ما يأتى: «إن محبة الأشرار ليست محبة. ومحبة الأخيار هى المحبة. إن الأشرار يخون بعضهم بعضاً. فأين المحبة إذن؟ ومادام الانسان يرى انه يمتاز عن صديقه بمال أو بكرامة أو غيرها فلا صداقة بل هناك أحوال متغيرات واضطراب. ثم ان عمل الشرّ مع الأشرار يزيدهم شرّاً فيجب أن لايفعل الشرّ معهم»

١٦٩ وقال أيضاً: «أصحاب النفوس الشريرة لايجوز للفاضل أن يقابل شرّهم بالشرّ لأنهم مرضى. وهذه المقابلة تزيدهم شرّاً. وأكثرهم يرجع باللين. والنادر ليس كذلك. فيجب كظم الغيظ والعفو، وقد ضرب سقراط نفسه مثلاً لذلك. فانه لما علم من الكهانة انه أعلم الناس شمر عن ساعد الجد وقام بفشر

العلم امتثالاً لأمر الله وقدم نفسه للقتل ولم يهرب من السجن مع تمكنه حفظاً للفضيلة . إن في القلب صوتاً من الله يأمرنا بالأعمال الفاضلة مع الجميع ، فكيف نفرّ من هذا الصوت والله هورب الجميع ، الله صنع الانسان وهو معتق به يراعى من يلبى هذا الصوت ، ولا سعادة لامرئ إلا بذلك . فأما من أسلم قلبه للشهوات فإن الله يتركه لنفسه . ليقنع كل امرئ بأن الله يحرسه دائماً فهو إذن لا يخاف شيئاً في عالمنا ، لا خوف على الانسان الخير في الدنيا ولا في الآخرة ، وإذا مسه الشرّ فإنه يرى لطفاً فيه متعاقباً ١٧٠ ليقطع المرء عمره بهذه الآراء . وقال عن (سقراط) انه قرّر ماقاله أنكساغورس : « إن العالم صدر عن عقل ، فالعقل أصل كل شيء » . وعليه رأى سقراط أن نبحت عقولنا حتى نعرف طباعها . وههنا ذكرت الروح التي تحدث مؤلف هذا الكتاب أن الله يساعده دائماً في هذا التفسير ، وأخذت تسمع منه مايقوله الشيخ الشعرائي في العفو عن الشرير وعن الذي يسمى في قطع الرزق عنه . وذكر ما حصل بين خطيبين لأجل دنائير أهداها السلطان سليم لأحدهما . وذكر أيضاً أدبه في الأكل وأنه فيه يحضر قلبه مع الله تعالى . وأطنب في العفو عن المذنبين

١٧٣ ههنا ذكر المؤلف آراء أهل أوروبا في الأخلاق وخصّ بالذكر (الاستاذ بارتلمي) الذي قرّر أن هنا أمرين في داخل نفوسنا : أمر فوق مستوانا . وأمر هو عملنا ، أما الأول فهو أن الصوت الذي نحسّ به في كل وقت يؤنبنا نارة ويمدحنا أخرى ، وهذا ليس منا بل هو من الله بدليل انه يورثنا الندم وبعاقب نارة ويفرحنا ويمدحنا أخرى . إذن هو أعلى منا . أما الأمر الثاني فهي الإرادة . إن لنا في داخلنا اختياراً ، فلنا أن نطيع ذلك الصوت ، ولنا أن نعصيه ، فهو معلم ولكن الإرادة منفذة فهي تعصى وتطيع كما نشاء هي لا كما يشاء ذلك الصوت الداخلي ، وليس في العوالم حولنا هذه الحرية ، بل كل العوالم تسير بقوانين أو بواعث لانعرفها . فخاصية الانسان إذن هي الإرادة التي هي المتمتعة بالحرية . إذن الضمير والإرادة هما أصل علم الأخلاق ، وقبول الإرادة ذلك القانون يشرف الانسان ويرفعه في أعين الناس والله أيضاً يرعاه ، وليس في العوالم المشاهدة أشرف من ضمائرنا وهي مؤدبة لنا تأديباً شريفاً تجز عنه قوانيننا . وبهذا يعرف الانسان انه مسؤول أمام خالقه ، وعلم الأخلاق يقرّر عدلاً إلهياً بعد الموت وخلوداً للروح لتنال جزاءها الذي لم يتم في الدنيا خيراً أو شراً

١٧٦ سعادة النفس والسرور الوجداني بالفضيلة أحبّ الى نفوسنا مما دون ذلك من المتاع والمال والبنين أولاً ، ومن اللذات ثانياً ، ومن السعادة ثالثاً ، بل الانسان قد يختار أن ينبذ هذه كلها ليحيا حياة السعادة النفسية ، وما هذه المذكورات إلا أمور ثانوية

١٧٧ آراء الحكماء بعد أرسطاطاليس . آراء أتباع أرسطاطاليس بعده . وهم أولاً قادوفرستس والستراتون ومن نحاهما ، فأنهم لما وجدوا أدلته وأهية في استناد العلم الى الصورة القائمة بالمادة وانها سبب في حضور الكليات في أذهان الناس تركوا التكلم على الإلهيات . وثانياً الابيقوريون . وأولهم أبيقورس القائلون باللذة (أي في الفلسفة خلافاً لما هو مشهور) . وثالثاً الرواقيون ورئيسهم زينون توفى سنة ٢٦٤ ق.م القائلون : الله والعالم جوهر واحد (وهذا كفر في ديننا) والالهيات والطبيعات علم واحد والمدار عندهم على الأخلاق ليحلّ النور الإلهي في جسد كامل بالأخلاق

١٧٨ ثم (نيقوماخس) صاحب علم الأعداد سنة ١٤٠ ب.م وههنا ثلاثة فروع : فرع أثيني ، وآخر شامي ، وثالث اسكندري . وأشهر الاسكندريين بعد الميلاد أفلاطون . وأشهر الشاميين بيليخوس . وأشهر الفرع الأثيني سريانوس . وبهذا انتهت الفلسفة القديمة اليونانية وفروعها

ثم جاء الاسلام وفتحوا الفرس والروم والهند وقرأوا علوم الأمم وترجموها وكان المترجمون رجال علم بخلاف فلاسفة أوروبا في القرون الوسطى فهم كانوا قسيسين ، فبحث فلاسفة الاسلام في أكثر العلوم بخلاف الآخرين ، ان ما يتكره العرب قليل بالنسبة لما ترجموه ولكن لهم الفضل فلولاهم لم ترتق أوروبا على هذا النمط

١٧٩ المسامون درسوا الفلسفة الأفلاطونية الحديثة أولا ، ولما علموا على آراء أفلاطون وأرسطو كانت الأولى قد تمكنت فيهم وفيها مزج العلم بالدين ، وأول الفلاسفة يعقوب الكندي والفارابي الذي اتبع الأفلاطونية الحديثة ، ويظن انها تعاليم أرسطو ، وقد قرأ كتاب النفس (١٠٠) مرة ، والفلسفة اليونانية متناقضة ومناقض بعضها للدين ، ففيها خلط وتهويز

١٨٠ والرواقيون أغرموا بالكشف ومعرفة ما وراء الحس ، والصوفية في الاسلام مشتقون من هؤلاء ، وكتاب الفارابي المسمى « آراء أهل المدينة الفاضلة » له مزج بين آراء الشيعة وبين آراء جمهورية أفلاطون واخوان الصفاء ظهر في القرن الرابع بالشرق ، وانتقل الى بلاد المغرب ، وهو دائرة معارف والواضع لها جمعية سرية كانت بالبصرة عد القفطي من مؤلفيها خسة ، وقصدتهم أن ينقوا الفلسفة من الخلط والصعوبة ، وأن يهذبوا الدين ويصلحوه بها . ومن الفلاسفة أبو علي بن سينا في القرن الرابع الهجري على رأي أرسطاطاليس وكتابه « القانون » عمدة في الطب وأن علماء الاسلام ردوا على الفلسفة ، ولكن الامام الغزالي هو الذي صد الناس عنها بقوة بيانه ورجعهم الى التصوف

١٨١ ولما انتقلت الفلسفة الى الأندلس وساعد في رواجها الحكم الثاني الأموي في القرن الرابع وتبع ابن باجه وابن طفيل مؤلف (حجى بن يقظان) الذي ترجم الى اللاتينية وظهر سنة ١٦٧١ وسنة ١٧٠٠ وبعد عشرين سنة من ظهوره ظهر رواية (روبنسون كروزو) ثم ابن رشد أشهر فلاسفة العرب تبع أرسطو ورد على الغزالي ، ومن كتبه فصل المقال المشهور ، وأكثر مؤلفاته بغير العربية ، ولكن الموجود ترجمتها مع شرح أقوال أرسطو مع الرد على الغزالي في ١١ مجلدا وكتابه في الطب لاتيني ، وله كتب بالعبرية ، وطارت شهرته بالمدارس والكنائس الى ابتداء القرن السابع الهجري أى الثالث عشر المسيحي . ولما انتهى القرن السادس عشر وقف المسلمون فلا بحث لهم . وبقي المسلمون في الألفاظ تقديمًا وتأخيرًا وذكرا وحذفًا ولكن نبغ ابن خلدون في مقدمته في علم العمران وطلب أن يتجه من بعده . فأجاب طلبه (أوجست كومت) أما المسلمون فلا . ولم يظهر بعد ابن خلدون نابغة اسلامي ولكن بقي الشرق نائمًا حتى أيقظته الحوادث اليوم . فها هو ذا قائم ينفذ غبار الكسل

١٨٢ فلما سمعت هذا المقال . قالت : لقد أحسنت . وأخذت تذكر المؤلف بقولها : لا تنس انك في تفسير آية من القرآن - إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا - الخ وأن تاريخ الفلسفة تمهيد للتحقيق في ذلك التفسير . فلا بد من تحقيق آراء الفلاسفة في معرفة الله وفي علم الأخلاق . وهنا أجاب المؤلف تلك الروح قائلا : سأبحث هذا الموضوع في ثلاثة فصول

١٨٣ وشرع في الفصل الأول في الحكمة العلمية والعملية مبينا أن المذاهب ثلاثة في الانسان : أهو الروح ؟ أم الجسم ؟ أم هما . ناقلا ما كتبه في كتابه (جوهر التقوى) في ذلك

١٨٤ ذا كرا أن الروح والجسم متحدان فيشتبهان على الناس كالزجاج والخمر . وهذا هو السبب في الخلاف إذ يقول بعضهم : « الانسان هو الروح والجسم لاشيء » وعكس آخرون الخ وعلم الطب ينظر لعلم الصحة نظرا تاما . إذن الطبيب يهمل الجسم . فهو إذن يقول بالروح والجسم . ذلك لأن آثار النفس

تعطى الجسم صحة وسقما كما يفعل الجسم في الروح انقباضا وانبساطا
 ١٨٥ وههنا بقية المقال كمنصحة الانسان أن يعتدل في مأكله ومشربه وهكذا ، ثم ذكر المؤلف ما كان
 بمصر من المعبودة المصرية التي كتب على قبرها « أنا كل شيء » وهكذا صورة أرسطو وأفلاطون
 واختلاف اشارتهما الى السماء والأرض ، كل ذلك له آثار في علم الأخلاق ، فاذا أيقن الانسان بقول
 أفلاطون وبرهانه على أن الله بالنسبة لعقولنا نظير الشمس بالنسبة لعيوننا فانه يكون سعيدا بهذا الايقان
 وأن الصورة التي رسمها روفائيل الدالة على سقراط وأفلاطون هي نبراس أول العلم وآخره لأن الأمر
 دائر بين الروح والجسم .

١٨٨ من القائلين بالمادة (كارل غت) ويخبر وديمقراطيس . وههنا ذكر أبيقور وتوماس ثم (لامتريه)
 وكايتي وغيرهما . وبالجملة في هذا المقام سر العلماء القائلين بالروح والقائلين بالجسم من أيام اليونان
 الى الآن إجمالا مثل أنكساغورس وأرسطو والرواقيين وأصحاب الجوهر الفرد والمؤهلين والعقليين
 وأصحاب الحلول . أما سبينوزا فقد أعلن أن هذا العالم جوهر واحد وهو الله وهو اعلان مدهش والعالم
 فرع منه

١٨٩ وههنا تأمل المؤلف من سرد هذه المذاهب ، واعترض على الروح وقال لها : كيف أمرتني بسر المذاهب
 الفلسفية وهي مملوءة بما هو مهووس صربك للفكر مع ان قلبي فيه محيقتان أجل من ذلك وهما صحيفة
 جمال السموات وجمال الأرضين . إن قراءة تاريخ الفلسفة ضارة فوافقته على ذلك ، وانما نفعها
 يكون لأناس قليل عددهم وقالت انك لابد من اطلاعك عليه لتبين الحقيقة للناس ، وهل القاضى
 يحكم بغير معرفة أقوال الخصمين ، وفي أثناء ذلك يقول المؤلف انه برؤيته وجهها انشرح صدره بعد
 انقباضه بقراءة هذه الآراء ، وأجابته قائلة : أنا أعلم من اطلاعى على قلبك انك ستحل المشكلة للعالم
 كله فقل وأنا معك . وهذا تم الكلام على الفصل الأول في آية - إن الذين قالوا ربنا الله -

١٩٠ فأخذ يحدثها عن المقام الأول في مذهب الغريزة الخلقية ومذهب التجربة ، وبكل قال علماء ، فبالأول
 قال (كارليل) وبالثاني قال (كارنوى) وغيره ، والمقام الثاني في الغاية من سلوكنا وفيما يسوقنا الى
 ذلك السلوك ، فهل الانسان خلق لمنفعته هو أم لمنفعة العموم ؟ بكل قال قوم ، وخيرهم من يقول
 بالتضحية مثل الاستاذ (مل) ، والذي يسوقنا لحسن السلوك إما القانون الأخلاقى في أعماق نفوسنا
 واما العواطف ، واما الخوف من الله ، أودم الناس ، بكل قال قوم . والمؤلف يقول : « إن الناس
 درجات فلكل وازع يناسبه »

١٩١ (الفصل الثاني) في القبس المذكور في سورة طه وايضاح أن الحجر والشجر والزروع كلها مملوءة
 بالنار . فالحجر فيه (٤٨) جزءا من مائة جزء كلها اكسوجين . ويمنع انقاده بالنار جوده . والحديد
 يحصل فيه التأكد أى الصدا وهو نوع من الاحتراق بطى . وأما الخشب والفحم والورق والزيت والدهن
 ففيها كربون وأودروجين . ومتى قربت النار منهما أخذتا يفران فيقبض عليهما الاكسوجين . فههنا
 زواج وارتباط . والحرارة أشبه بالفرح القلبي . والله أشبه بالزينة التي تقام في العرس

١٩٢ إن ازدواج القضايا العلمية ، وآراء علماء الشرق والغرب أشبه بازواج الكربون والودروجين مع
 الاكسوجين ، والمسلمون بعد قراءة هذا التفسير سيقرءون علوم أم الشرق والغرب ويصطفون منها
 ما هو حسن وتكون النتائج مستعملات في المنافع المادية في مقابلة القبس عند موسى لأهله ، وفي
 المنافع العلمية في مقابلة قول موسى - أوأجد على النار هدى - . إذن منافع القبس العلمى متوجهة

للأدبيات وللعنويات كقبس موسى عليه السلام حذو القذة بالقذة

١٩٣ ﴿ الفصل الثالث ﴾ في جلاء الحقائق العلمية والعملية ، وامتحان آراء علماء الأمم الخلقية : أخذ المؤلف يفكر في آراء الأمم أمة أمة ، وكيف يقول قوم بوجود الروح وحدها ، وآخرون بالمادة وحدها ، وكانت تلك الروح الجميلة البهجة تبسم وهي صامته ، فنظر المؤلف الى جبال وجهها ، فراه ازداد جالا وبهجة وحسنا ، فأغشى عليه ، فأخذت هي تلاطفه وتمرّ بدعاه عليه حتى استيقظ ، وأخذ يتغزل بكلام ابن الفارض : * ما بين معترك الأحداق والمهيج * الخ وأخذ يسألها : أنا الآن في حال البرزخ وقد مت ؟ فقالت كلا بل هو صفاء نفس ، فسألها : هل هذه الحال لها وجود مع انها خيال ؟ فقالت : هي أصل الوجود مستدلة بدليلين : أحدهما اننا نرى الصور القديمة في عقولنا لا تتغير بخلافها في المادة ، ثانيهما ان كل عمل نعمله في الخارج أصله من الآراء التي تتحول بأذهاننا ، بل المادة لا وجود لها لأنها نتيجة حركات الأنير الواقعة على حواسنا . إذن هي موجودة في مرتبة الحواس لا غير فهي وجود عدم ، وههنا أخذ المؤلف يتغزل فيها كرة أخرى لبهجة جبالها والأنس بها وأن صورتها أجل صورة رآها لأن المعشوق في الأرض إما حسن الظاهر خاوي الباطن ، وإما بالعكس ، وهذه جبالها ظاهر باطن معا ، وأرادت أن تنصرف ، فاستغاث بها ، فقبلت البقاء معه ليتمتع بسماحها لكلامه ، فأمرته إذن أن يحقق الأدلة للناس في مقام العلم والعمل في علم الأخلاق فأرجعها معا الى الانسان ، فالنظر الى حواسه الخمس وإلى عقله يفهمنا أن هناك عالما روحيا ، كما ان نظرنا الى عواطف الأطفال من حيث انهم يرون جميع من حوّلهم مسخرين لهم ، وفي عواطف الحكماء والقواد الذين يرون انهم مسخرون للعطف على سائر الناس ويقذفون بمهجمهم في منافع أمهم ، فهذا النظر يعرّفنا لماذا خلقنا ويوقننا على حقائق الأعمال الخلقية ، وهاتان النظريتان اللتان ظهرتا للمؤلف في حضرة تلك المعشوقة هما معيار علم الأخلاق الذي ابتكره المؤلف ، وكل نظرية ، وأرى لمؤلف قديم أو حديث ندرج فيهما فاذا سمعنا أن أفلاطون وسقراط ثم أرسطو ثم الاستاذ كانت ، قد أتوا بأدلة في إثبات الله ، فندليل الحواس الانسانية والعقل أقرب الى اليقين لأن كل حاسة من لمس أو ذوق أو عين لها محسوسات ترتقي بارتقاء الحاسة والعقل الذي هو أطفها تكون مدرّكاته لها اتصال به وهي تناسبه . إذن عقولنا متصلات بعقول كبيرة . إذن نحن سعداء الآن حتما ، فلا اعتراض على هذا كما اعترض أرسطو على (المثل) التي قالها أستاذه أفلاطون . وإذا وجدنا علماء أوروبا وغيرهم يختلفون : هل نحن مخلوقون لنفوسنا أم مخلوقون للعموم ؟ فانا نقول لهم لا خلاف . فن كان كالأطفال فهو لنفسه . ومن كان كالحكماء فهو لغيره . والأمر ظاهر واضح . بهذين البرهانين خرجت الانسانية من مأزقها في العلم والعمل الخلقين وهذه نهايات علوم العلماء (٢٥) قرنا . وهذا هو الامتحان الذي قدمه المؤلف لأمم الشرق والغرب

٢٠٢ ﴿ نواضر الجواهر ، لنفائس العرائس ﴾ هذا مقال موضع لما قبله ، يشرح صدور القراء ويهيج نفوسهم يقول المؤلف فيه ان براهينه قد وصلت الى تمام الحكمة في هذا المقام بعد دراسة الحكمة السابقة في (٢٥) قرنا . ويقول ان برهانه لا يحصل فيه خلاف كالذي حصل لبرهان أفلاطون وأرسطو إذ قامت بعد ذلك فرق وهي الأبيقورية والرواقية وفرقة الاسكندرية والأثينية والشامية قبل الاسلام ، وفرق الصوفية بعد الاسلام ، وههنا استعرض برهان الاستاذ كانت وبرهان أفلاطون ، وأفاد أن برهان « تفسير الجواهر » أثبت ، فان الانسان اذا علم أن عقله متصل بعقول أكبر منه كاتصال العين بنور واسع المدى فانه يوقن لإيقاننا تاما بعالم الأرواح . وإذا وجدنا أن الأرض قد عجّزت عجزا تاما عن

إمداد أبنائها بالضوء والحرارة للحياة والهداية ، واستعارت لهما ذلك كله من الشمس فهي إذن عن امدادهن بالعقول والعواطف والفرائز أشد عجزا . وهذا برهان آخر واضح فلاحاجة إذن الى برهان الاستاذ (كانت) الألماني ولا أفلاطون اليوناني لأن هذا البرهان أيضا يقينى . هذا فى الحكمة العملية ٢٠٤ أما الحكمة العملية فأمرها ظاهر فى الموازنة بين طفل وحكيم فى عواطفهما . إذن سقط خلاف علماء الأمم الأوروبية

٢٠٥ ثناء المؤلف على ربه لأنه ألهه الحكمة وعلمه هذه البراهين وأن هذه البراهين التى علمها الله للمؤلف جعلته ينظر الى الجبال فى الصور السماوية والأرضية ، الى الشهوات التى فى النفوس ، الى العقول الانسانية ، الى الماء والهواء والحرارة التى تثيرهما فيحمل الهواء الماء ، الى الضوء ، وأن الله لما علم ضعف عقولنا عن فهم المنبع الذى وردت منه هذه الصور الجلية وهذه العواطف والقوى والعقول أى المادة نفسها أم شئ آخر أظهر لنا الحرارة والضوء من الشمس وقال لهما : يا أيها الحرارة ويا أيها الضوء : لنقم الأولى بانارة البخار من البحار وبانارة الرياح فيكون سحب ، ويساعد الضوء فى التغذية وفى هداية الحيوان لطرق معاشه ، وأتما لستما من الأرض بل من عالم آخر غيرها . ليقول نوع الانسان اذا عجزت أرضنا عن الضوء والحرارة وهما حسيان فهي أعجز ألف مرة عن إحداث صور الجبال وخلق العقول والعواطف والقوى الشهوية والغضبية والفرائز الحيوانية ، ههنا يفهم المسلمون ما معنى قوله ﷺ « اللهم الرفيق الأعلى » عند الاحتضار

٢٠٧ زهرتان فى بستان احكمنه الصافية والضميمة . انسرته القوى . رأى الانسان (ربح) ذأت ان فكروا فى المادة لأنهم متأثرون بها ، والحقيقة أن المادة وليدة العقل ، والعلماء اليوم عندهم شبه إجماع على هذا ، فالقول بالمادة قديم ، والقول بالعقل قول حديث

الزهرة الثانية فيما جاء باخوان الصفاء ، وذلك أن رجلا من المترفين المنعمين أصحاب القصور والحدود والولدان والثياب الفاخرة والمجالس والشراب عن يقددهم المترفون ويتزيا بزيهم الغافلون رأى رؤيا أفزعته وتكررت هذه الرؤيا ، إذ رأى انه فى أرض مقفرة وهو مشوه الوجه عار كئيب جائع شعره طويل وجسده ملوث بالقاذورات ، ووراءه أسودان منكران يخرج الدخان من شديقيهما وبأيديهما حراب وهما يطاردانه فهرب منهما ، فعارضه فى طريقه جبل شاهق ، فطلع عليه ، وسلكه بمشقة ، ثم هوى منكسا فى حفرة عميقة فيها دخان معتكر ولهب يشوى الوجوه ، فصرخ صرخة أفزعته أهل القصر ، فغضر العلماء والمنجمون والأطباء ، وكل قال ماخطر له ، فلم تنجح العزائم ولا البخور ولا الأشربة ولا الأدوية ، فان الرؤيا رجعت بعينها ككرة أخرى بأشد من الأولى وهكذا مرة بعد مرة ثم انه أخيرا عبرها له عالم فقال : ان ذلك كله انما هو إشارة الى سوء أعماله وسلوكه وحرصه على الدنيا وزهده فى الآخرة ، وأن كل وصف من أوصاف المنام راجع الى وصف من أوصاف حاله يوم القيامة وبعد الموت من الهوان والعقاب والحساب والعرض والذل والهوان . ثم وصف له الدواء وهو التصديق بفضول ماله والصوم نهارا والصلوة والتهجد ليلا ، ففعل ذلك وصار قدوة فى الدين بعدما كان قدوة فى الشهوات ، وصارت الحكم تلقى على لسانه من غير تكلف وهناك ملك موكل به يلهمه هذه الحكم حتى ان ذلك العالم الذى وصف له ذلك صار يتلقى العلم عنه ، وهذا هو معنى قوله تعالى - تنزل عليهم الملائكة - الخ

٢١٠ وههنا ست حكم عامة فى الموازنة بين الأم مع ولدها والحكيم مع أمته والأم كلها . وبيان أن سعادة

الحكماء حقة وهناك سعادة مزيفة للإصراء والملوك الذين لم ترتق عقولهم فان الحكمة الإلهية عاملتهم معاملة الطفل مع أبيه ، فانه يضحك عليه بالصور الملوثة التي لا قيمة لها ، هكذا الله يفعل ذلك مع صغار العقول من بنى آدم في الأمم الجاهلة ، فيعطى هذا الأمير مالا كثيرا ، وقصورا ونساء ، ويفتح له باب الشهوات ، ويجعل هذا مغريا له على أن يحفظ البلاد ، ظانا المسكين أن ذلك هو المكافأة ، ومادري أنه هو نفسه تضعف قواه الصحية والتناسلية بكثرة مزاواتها ، وبعد ذلك يرى نفسه خاليا من تلك العظمة اللفظية ومن تلك اللذة الجسمية

٢١٢ ﴿ اللطيفة الخامسة ﴾ في آية - ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة - الخ وفيها بيان الكلام على وحدة الحيوانات والنباتات ، وأن الفصل بين هذين الجنسيتين عسر فالحركة والتغذية والتناسل والنمو وغيرها مشتركة ، فأين الفاصل إذن بينهما ؟ ففي النبات نبات مفترس ، والافتراس معه حركة ، والنباتات المستحبة تتحرك ، وبذرة بعض النباتات الطحلية ، وبذرة صف الموس لها شعرة تتحرك بها ، وهكذا بعض النباتات ذات الخلية الواحدة تعوم بشعر كثير أو بشعرة واحدة ، بل الأمر فوق ذلك كله ٢١٤ إن الحركة لازمة للمادة الحية على الإطلاق ، إن خلية النبات ، وخلية الحيوانات مركبتان من مواد مختلفة ، ولكل خلية نواة ، وللخلية غلاف خارجي زلالى في الحيوان جامد في النبات من المادة التي يكون منها القطن وورق الكتانة . والفرق بين خلايا الحيوان وخلايا النبات أن الأولى غلافها صرن فحركتها الدائمة فيها تنتقل الى جاراتها فيتحرك الحيوان ، وغلاف الثانية جامد فلا تنتقل الحركة من الخلية الى حارتها ، إذن الحركة دائمة عامة ، والفرق إنما هو الانتقال وعدمه فيهما ، على أن هذا الفارق بين النبات والحيوان ليس علما ، فمن الحيوان ما يتحرك الحركة ، ومن النبات ما يتحرك كما تقدم . فان بعض النباتات الفطرية تكون خلاياها شائعة بالافاصل بينها كخلايا الحيوان . ثم ان التغذى في الحيوان معلوم . ويستعين النبات بالمادة الخضراء (الكأوروفيل) على التغذية إذ يتحد بضوء الشمس لاستخلاص الكأربون من كأو فيمزجه بالماء فيكون السكر والنشاء والسيلأوز ومادة الخشب ثم يكون أأاضاً عضوية تكون منها المواد الدهنية . ثم النبات يأخذ الماء من الأرض وكذا والمعادن التي فيها أوزوت وتمزج كلها بالمواد السكرية والنشوية والأأاض العضوية فتكون المواد الزلاية التي هى أهم غذاء للحيوان . ثم إن التغذى ليس كأصراً على مملكتى النبات والحيوان فبقعة الصأ على سطح المعدن تتغذى من بخار الماء ومن المعدن وغيرها . والبأورات المأوسة فى ماء مشبع من مأول موادها تتغذى من المادة الذائبة فى الماء فكأبر . والآلات الميكانيكية المتحركة تتغذى بالفأهم ونأوه وهكذا الحركة لا تختص بهأتين المملكتين فان الكوأكب والزوأبع والأمواج وأجميع الجزأيات وأالجوهأ الفرد كأهن متأركات . وهكذا التأأر فأذا تأأأر النبات والحيوان فان المواد المأرفة والكأمانية أأبالأابة تتأأر بالنور كأواد التصوير الشمسى وبالأرارة وبالرطوبة . واذا دأ على وتر آلة موسيقية وفى الفأرة نأظيرها تتأرك الوتر المأائل لأذلك الوتر

٢١٦ ههنا موضوع فى علاج الأزمة المالية فى مصر . ولكن المقصود منه مأفيه من عأأأب النبات مشل : شأرة البأرة ذات الثأرة الخضراء كأالبندقة ولأبها بأأأى لأبن البأرة وأهل كرا كأس يتأأون منه وله عأبر سكأرى . ومثل : شأرة ذات اليد . وشأرة الأأرير . وشأرة الدهن . وشأرة البأر . وشأرة الثأعين . وشأرة الأأاروت . وشأرة الكأثرى الأأريكأى . فهذه الشأرات من أولأها يصنع الورق الناعم فى الصين . ومن ثأنيتها مأأر وأأأرى قأطى ينزل على الأرض كأللؤلؤل والثأج ويفزل

٢١٨ ويدخل في صناعات مختلفات . ويبلغ طول الشجرة (١٥) متراً فأكثر وعرضها على الأقل متران ونصف متر تستعمل مسكناً وهي لاتزال مزروعة ، ومن الثالثة تستخرج حبات لها دهن يساعد في صنع الشمع الأبيض الذى يضىء مدة طويلة . وفي استخراج زيت صالح للوقود ، ومن أوراق الرابعة وجلدها بهار ودواء ، ومن جذور الخامسة دواء للشفاء من لسعات الثعابين ، ومن جذوع السادسة غذاء قوى للأطفال ، ومن السابعة يدرّ ابن يتجمد في صلابة القشدة

٢١٩ بهجة العلم في قوله تعالى - ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة - الخ وفيها عجبتان : العجبة الأولى من علم الحيوان ، آلاف مؤلفة من حيوانات صغيرة تعيش في قطرة ماء ، وهي تخلق على الورق الجاف والتبن والدريس وهي بهيئة طحلب فوق سقف المنازل وهي تجف أثناء الصيف وتظهر بالآلة المكبرة بهيئة حبوب رمل أخضر ، ومتى نزل عليها الماء تحوّلت حيواناً حلاً ، فإذا غاض الماء أوصار بخاراً رجعت ميتة لاحتراك لها ، فإذا نزل عليها الماء تحركت حالا (انظر شكل ٤٣ و ٤٤)

٢٢٠ العجبة الثانية : زيارة توفيق دوس باشا لكلية علم الأرواح ، وأنه كلم روح والده وعرفه بعلامات ، وذكر له أحوالاً يعرفها ، وطلب أن يأخذ صورته فأجيب الى ذلك ، ولكن لما صوّره وجد صورة أخرى في الرسم ، فسأل بنت الاستاذ (ستيد) عالم الأرواح المشهور فأجابت أن روحاً أخرى أقوى من روح والدك تقدّمت للصورة ، فطلب تصوير روح والدها واحترس أشد الاحتراس فأجيب لذلك وظهرت صورة والدها ، فحجب لذلك ١ وسأل : كيف أمكن تصويرها وهي لاترى ؟ فقيل له ان عدسة الآلة المصوّرة تصل الى مالاتصل اليه عدسة عيوننا . وههنا شكل ٤٥ و ٤٦ يبينان الصورة التي جاءت غشام من عالم الأرواح وصورة (ستيد) في صحيفة ٢٢١

٢٢٢ وههنا ذكر المؤلف أن مسألة العجبة الأولى تذكرنا بنوم النحل والزنايم مدة الشتاء واستيقاظها أيام الربيع ، وكذلك الحيات والثعابين ، وبعض السمك الذى يكون في الطين اذا جف ، وفي التاج المتراكم ، وهذه كلها تقوم اذا زال المانع . اذا عرفنا ذلك فهمنّا أن الموت والحياة في هذه الحيوانات النورية أشبه بالنوم واليقظة في الحيوانات الكبيرة . إذن الموت أمر مهمود لا أهمية له ، فكيف أعظم أمره هذا الانسان ! إن العجبة الأولى في الحيوان والعجبة الثانية في الأرواح من واد واحد كلاهما أظهر أن الموت ليس أمراً عظيماً ، فإذا كانت الحيوانات الدقيقة تموت وتحيا بكل سهولة ، والأرواح ظهر أن لها وجوداً بعد الموت . إذن الأمر سهل

٢٢٣ إيضاح لما تقدم . إن أكثر النبات هو مالانراه (انظر شكل ٤٧ و ٤٨) مثل بكتريا حلزونية وبكتريا عصوية وبكتريا كروية . فهذه أصغر النباتات مركبة من خلية واحدة . فهي كبيضة لها غشاء ومادة داخلية فيها . وهذه الثانية لها نواة هي أصل الحياة . وههنا ما هو أصغر منها ولكن لانراه . وأحدها يكون واحداً من الألف من المليمتر . وهذه تتغذى وتنفس وتنمو وتلد وتموت

٢٢٤ الكلام على ماتعيش على مادة غير عضوية . والبيضة الواحدة اذا وجدت مكاناً صالحاً تنمو وتصير في ٢٤ ساعة نصف مليون رطل وهي تعيش على درجة ١٩٠ تحت الصفر وهي الدرجة التي يصير فيها الهواء سائلاً كالماء . ولكنها لاتتحمل الحرارة أكثر من ٥٥ درجة فوق الصفر . إذن هذه نباتات أقوى على التحمل من كل نبات نعرفه . ومتى خدت يصير لها غلاف سميك يحفظها وتبقى سنين حتى اذا صادفها وسط مناسب رجعت لها الحياة كرة أخرى (شكل ٤٩) رسم تكوين الجراثيم في البكتريا

إن البكتريا تعين على نمو النبات . فهي كالطحانين والمجانين والخبازين . إن القمح والتبن وكل نبات كبير لا قدرة له على امتصاص عنصر الآزوت من الأرض إلا بحال خاصة ، وهذه الحال الخاصة لا تتم إلا بتحليل البكتريا الصغيرة له فيسهل على النبات الكبير تناوله . والبكتريا أيضا تكون سببا في الخل ودفع الجلد وقبول طعم الزبدة ورأحتها واللبن الزبادى فهذه من منافعها ، ومن مضار البكتريا مرض القسم والطاعون والتيفود والتيفوس والالتهاب الرئوى والسل

٢٢٥ والوقاية من الأمراض المتقدمة بالنظافة واستعمال المطهرات الخ وبيان أن هذه المخالقات (البكتريا) من حيث ضررها ونفعها أشبه بالنحل ودودة الحرير والحيات والعقارب ، فمنها يكون العسل والملابس ومنها يكون الضرر . والجراثيم النباتية ثلاثة أقسام : قسمان منها لالون لهما . والقسم الثالث له لون وهي الطحالب . ثم ان اللذين لالون لهما أحدهما يسمى الفطر (بضم الفاء والطاء) والثانى يسمى البكتريا (انظر شكل ٥٠) فهذه البكتريا تتغذى بالكربون الذى فى الشجرة وبالاوزوت الذى هو جزء من الهواء ، ولا تزال هذه تتكاثر على جذور النباتات البقلية حتى تموت بانهاء أجالها فيرت النبات هذه البكتريا وينتفع بالميراث ، فقد كسب منه أمرا فوق الكربون الذى أخذه منه وهو الاوزوت الذى أخذه من الهواء ، فهذه البكتريا أعطت للأرض أمرا جديدا هو الاوزوت الذى حوّلته من الهواء إلى الأرض

٢٢٦ (الطحالب) من شكل ٥١ إلى ٥٤ وهى أشكال جميلة بهجة تبين الطحالب الخضراء والزرقاء المخضرة ، والتي أعضاؤها تشبه أعضاء النباتات الراقية ، ومنها ما هو مستعمرة من الطحالب

٢٢٧ (شكل ٥٥) طحالب بنية وحيدة الخلية ، (وشكل ٥٦) أحد الطحالب البنية الكبيرة الحجم ومن الطحالب ما هى حراء تعيش على أعماق كبيرة من سطح البحر

٢٢٨ (تركيب الفطر) (شكل ٥٧ و ٥٨ و ٥٩) ههنا تتكاثر بعض الفطريات كتلة تشبه أنسجة النباتات الراقية كما فى عيش الغراب

٢٢٩ جبال العلم فى آية - ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة - مع قوله تعالى - وقدر فيها أقواتها - الخ مخاطبة المؤلف ربه ، يقول له : « ياربنا أخذنا نستقرى هذه الأقوات التى قدرتها فجئنا من أن المشرقات تجرى بحساب ، ووجدنا نفس النبات الذى ظهر بسبب أنوار المشرقات أيضا بحساب ، ورأينا أننا نحتاج فى طعامنا الى مواد دهنية وآزوتية ونشوية ، وهذه الثلاثة وجدناها فى النباتات بنسب مختلفة ، فمنها ما زاد فيها الدهن ، ومنها ما زاد فيه المادة النشوية وهكذا ، إذن أنت كما حسبت شمسك وكواكبك حسبت قيمة الغذاء الداخلة فى كل نبات من دهن ونشاء وآزوت »

٢٣٠ خطاب المؤلف لربه أيضا ، يقول له : « يارب فى القلوب حبك ، تحبك الدواب لعلفها ، والعامه لطعامها أولامواهم ، وهؤلاء عبيد العصا . والأطباء لاطلاعهم على أسرار الغذاء . والحكماء جهم أعلى من السابقين . انهم يحبونك لعلك الذى ظهرت آثاره فى تقدير الأقوات ولرجتك وجمالك »

٢٣١ نور على نور . وذكر بعض أنواع النبات كالقمح والذرة والصنوبر والفول السوداني . وأن منها ما مادته الآزوتية كثيرة أو الدهنية أو النشوية . وهذا الاختلاف تابع لاختلاف الفتحات الشعرية فى الجذور وعند امتصاص الغذاء واختلاف الأوراق أثناء امتصاص الكربون من الهواء عند مقابلة نور الشمس وتعاونهما على ذلك الامتصاص . وهكذا هيئة الجهاز الهضمي المرسوم فى محيقة ٢٣٢ (شكل ٦٠) فيه آلات وأدوات لهضم المواد النشوية ، وأخرى لهضم المواد الدهنية ، وأخرى لهضم الآزوتية .

إذن ياربنا ههنا عجب ! شمس تضيء وتساعد الورق بفتحات تختلف باختلاف الأشجار ، وهناك يمتص من الهواء كربونا وتمتص جذور الأشجار بفتحات أخرى أغذية من الأرض فيكون حب على مقتضى هذه المقدمات له تركيب خاص من أنواع الأغذية فيحصله الانسان فيأكله فيتلقاه الجهاز الهضمي فتكون الأغذية موزعة على الآلات الهاضمات في الجهاز الهضمي ، إذن ياربنا هناك مناسبات تامات بين الضوء والنبات وفتحات أوراقه وجذوره ثم حيو به والآلات الهاضمات في الحيوان ، إذن أكثر النوع الانساني في جهل عميق

٢٣٣ نجيب لهذا الجهاز الهضمي الذي حوى ما يهضم المواد الثلاث التي في النبات بحيث كانت فيه مصانع للفساء ولاآزوت وللواذ الدهنية ، ولكل واحد من هذه الثلاث نوعان من المصانع ماعدا الفشاء فله ثلاث مصانع في نفس الجهاز الهضمي ، فإذا جاوزنا هذا الجهاز الى ضوء الشمس وفتحات الأوراق والحجر التي فيها والى فتحات الأنابيب الشعرية في الجذور ألقينا الحسب هناك متقنا اتقاناً بديعاً بحيث نرى الأنابيب الشعرية والفتحات كلها لا تدخل في النبات غير المواد المخصصة له

٢٣٤ نظام الأمم الأرضية والشوق الى مبدع العالم ، وبيان أن بني آدم غافلون عن هذا النظام ، والا فأي يقين لهم بعد هذا التفصيل ، إن المجموع الانساني أشبه بالأجهزة الهضمية ، والأرض وما عليها أشبه بالحب والنبات وما فيهما من المواد الثلاثة المختلفة ، فإذا لم تساط بمجموع العقول على جميع المنافع في الأرض أصبحت بعض المنافع عاطلة لم تجد من يستخرجها وهذا نقص للجميع وهذا هو قوله تعالى - من قتل نفسا بغير نفس أوفساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا - الآية

(عروج النفس الى العالم الأعلى) وبيان أن في تفسير قوله تعالى - إن الذين قالوا ربنا الله - إيضاح أن المادة لججزها عن إحداث ضوء وحرارة لما عليها برهنت على أنها عن إحداث عقول وعواطف وفرائر أشد عجزاً ، وتزيد على هذا أن المادة اليوم ثبت عدم وجودها ، إن هي إلا حركات في الأثير إذن الفلاسفة الماديون سقطوا من قوائم الفلاسفة ، إذن هناك علم ورجة وجمال وحب منها استمدت الحيوان والانسان مالدتهم من ذلك العالم القدسي ، والانسان متى أحس أن علمه ورجته مستمدة من هناك أحس بالسعاد في هذه الحياة ولا يحزنه الفزع الأكبر ، والانسان اذا وصل الى ذلك المقام نظر الى أعلى والى أسفل فاستمد وأمد

٢٣٥ بهجة الحكمة وجمال العلم في آية - ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة - الخ . يقول المؤلف انه نجح في أن القارئ شاركه في فهم مقادير النبات وفي نسبتها الى الجهاز الهضمي ، فهنا يبين أن المواد غير عضوية كالأملاح وعضوية وهي النشوية وأختاها ، فهنا ذكر الجدول لبيان أكثر النباتات : قمح أرز ، ذرة ، بطاطس ، بطاطه ، لوبية الخ . وبالجلة في هذا الجدول (٥١) أكثرها نبات وبعضها حيوان ، وهذه المواد هي التي يتعاطاها الناس غالباً ، وقد ظهر لكل مادة قيمتها الغذائية في الرطل المصري الواحد

٢٣٦ قسمة علم النبات بيننا وبين الأطباء ، الطبيب يفرح بهذه المقادير ليحافظ على الأصحاء ويشفي المرضى ، ولكن الحكيم يرتقي فوق ذلك فيقول : « أيها الأطباء ، لتفرحوا بشفاء مرضاكم وبقاء صحة أصحاء الناس ، ولكن نحن ننظر في توزيع العلوم على مناطق الدماغ كما وزعت آلات الهضم على مختلف النبات ، وإذا كانت الأغذية لها مبدأ وهي الشمس ، فهكذا للأدراكات مبدأ وهي الذات الغائبة عنا القدسية ومنها انبعث العلم في نفوس هي واسطة بيننا وبينها كما كان النبات واسطة بين ضوء الشمس

وبين أجسامنا

٢٣٨ وههنا أبان المؤلف انه أوضح آراء الأمم من أيام سقراط الى الآن ، وقد عاملها الله كلها في (٢٥٠٠) سنة معاملة نفس واحدة ، وأزل العلم قليلا قليلا ، وفي هذا التفسير صار أقرب الى عقول الأمم الحاضرة ، والاستثناس على ذلك بما تقوله الأرواح ، وهو أن العلم لا ياتي الى الناس إلا اذا استعدوا له ، وبيان أن هذا التفسير جاء في زمان استعدت له الأذهان فيها . فاذا قلنا ان المادة التي ثبت أنها لا وجود لها بسقوطها سقط المادّيون . فقد بنينا كلامنا على إجماع علماء العصر الحاضر . فأما هؤلاء المدرّسون في مصر وسوريا والعراق ونحوهم فانما يكرّرون على مسامع تلاميذهم صدى صوت العصور الفاتنة في القرن الثامن عشر . وههنا خاطب المؤلف ربه . انه يحسن في نفسه بانشرح وسرور عظيمين . وانه موقن أن المسلمين سيكونون خيرأمة أخرجت للناس بعد ظهور هذا التفسير . وههنا أردف هذا القول بشرح قول الشيخ الدباغ . وهي ان الاحساس بالشئ غير الابتهاج به . فكم من جيل نراه ولا يتأثر بجماله إلا قليل وهذا سار في جميع الحواس . والمؤلف يقول : إن جميع المعلومات والمحسوسات يشترك كثير من الناس فيها ولكن ادراك الجمال قليل . وأكثر الناس إذا عجزوا عن ادراك الجمال اهتموا بشهواتهم التي كأنها ظل من محموم لا بارد ولا كريم لأنهم مترفون . إذن الانسان مغرم بما أحبه . فان أحب الجمال العلمي فهو منهمك فيه . وان أحب الشهوة فهو منهمك فيها . ولما كانت الشهوات مسلطة مع الكسل على كثير من المسلمين بكثير من أهل مصر كان القطن الذي نزرعه سببا في إذلالنا إذ نبيعه بثمن بخس ونشترى منسوجه بأغلى الأثمان . هذه أغلال في أعناقنا . بل هذه هي السراويل التي من قطران المشبهات ما في الآية - سراويلهم من قطران - لأنها مصنوعة بقطران الفحم كما هو معلوم . وذلك خطر للمؤلف وهو يتلو الآية في صلاة الصبح

٢٤١ ﴿ الفصل الثاني ﴾ من اللطيفة الخامسة في آية - سرهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم - الخ وبيان أن الأميرال (برد الأمريكى) الذى زار المناطق الجنوبية الجامدة . ووصل الى القطب بالطيارة . وصلت الرسائل منه بالتلغراف الذى لا ملك له الى نيويورك . والمسافة عشرة آلاف ميل . وكأنه يخاطب عامل التلغراف على بعد أقدم فقط ﴿ المبحث الثاني ﴾ ان الانجليز قابوا تاغور الهندى بالاكرام مع ان الأمتين بينهما عداوة واضطراب شديد . فهذا يدل على أن نوع الانسان قابل للسلم ﴿ المبحث الثالث ﴾ فيما شاهدته المؤلف في صحة جسمه . كانت في جسمه بقع ملونة تظهر وتختفي وقال له الأطباء انها ليست معدية . ولكن لا يعرفون دواءها . وأخيرا قالوا سببها نقص في التغذية . ولما أكل الفواكه والحبوب وزيت الزيتون والخبز الذى لا ينخل والبرتقال ونحوه ذهبت تلك البقع . وههنا يقول المؤلف : « إن نقص السعادة الانسانية لنقص العلم بطرقها قياسا على صحة جسم المؤلف بالعلم ومرضه بسبب الجهل .

فعلى الأمم الاسلامية أن تتصافروا وتتعاون في البحث عن طرق سعادة هذا الانسان

٢٤٥ ﴿ اللطيفة السابعة ﴾ في آية - سرهم آياتنا - الخ وفيها تبيان معنى كلام الشيخ الدباغ : « إن في الأرض عجائب تعرف بالوحداية بلا دليل . وتعرف وجود الجنة كذلك والنار » . ويفسر المؤلف ذلك بأن التوحيد يعرف بالعجائب المذكورة في هذا التفسير بلا حاجة الى براهين علم التوحيد كعبود النمل والذباب والنحل وتعداده بالثلاث . فان هذه العجائب لما ظهرت في حشرات منبذات فيما تعافه النفس كانت عجبا أشبه بكنز ظهر فجأة

٢٤٦ هنا ولما كانت النفوس الانسانية إما مغرمة بالحكمة . وإما مغرمة بالقهر والعلبة والزراع . وإما مغرمة بالشهوات . والأولى أشبه بمن يأكل الفواكه من الانسان . والثانية أشبه بكل حيوان يأكل كل الرمم والثالثة أشبه بالذباب آكل العفونات . كانت جهنم تؤخذ اعتبارا من القسمين الأخيرين . واللجنة تؤخذ من القسم الأول . فإذا تفاوتت الأغذية بتفاوت الحيوان . هكذا تتفاوت أغذية العقول على مقتضى درجاتها . وبالجملة أحوال الآخرة لها نظير في العالم المشاهد

(تمت)

